تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس

(من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة)

دكتور

السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية الآداب — جامعة الإسكندرية

مؤسسة شباب الجامعة

٤ ش الدكتور مصطفى مشرفة

ت ٤٨٣٩٤٧٢ - الإسكندرية

غلاف مطبعة الانتصار
ELENTSAR PRESS
١٠ ش الوردى كوم الدكة - ت : ٤٩١٦٥٩٧

تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس

(من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة)

تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس

من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة

تأليف

الدكتور السيد عبد العزيز سالم

استاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

١٩٩٧

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة

ت ٤٨٣٩٤٧٢ - اسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حظى تاريخ المشرق الإسلامى بجانب كبير من عناية المؤرخين المحدثين ، باعتباره الموطن الأصلى للجنس العربى : ففيه قام الإسلام كدين ودولة ، وفيه نبتت بذور الحضارة الإسلامية ، وفيه نمت وترعرعت . أما المغرب الإسلامى ، فلم يلق من هذه العناية إلا حظًّا يسيراً ، فكان فى الموضع الثانى من الأهمية ، لأنه دخل فى الدولة العربية كأى قطر مفتوح ، فتطعمت حضارته بالتقاليد المشرقية التى كانت تتدفق عليه فى موجات متتابعة ، بفضل وفود العلماء المشارقة إليه ، من أدباء وعلماء لغة وفلاسفة ورجال فن ، ثم إنه نكب بضياع الأندلس نهائيًّا سنة ١٤٩٢ م ، ورزئ بالحروب والغزوات التى توالت عليه بعد الاسترداد المسيحى للأندلس إذ انتقلت إلى أرضه الإفريقية الحرب المقدسة التى كان يقوم بها الإسبان والبرتغاليون فى الأندلس ، وعلى هذا النحو تعرضت بلاد المغرب للأطماع الاستعمارية لهاتين الدولتين ، ثم فرضت فرنسا حمايتها على سائر أجزائه بقوة السلاح ، وكانت تستعمر حتى عهد قريب جزءاً هامًّا من أجزائه هو المغرب الأوسط (الجزائر) .

وهكذا لم يظفر التاريخ والحضارة الإسلامية فى المغرب عامة والأندلس على وجه خاص بما يستحقانه من عناية الباحثين ، وساعد على ذلك قلة ما كان يعرفه العالم الإسلامى والأوربى حتى طليعة القرن التاسع عشر عن تاريخ الإسلام وحضارته فى الأندلس ، وكانت معرفتهم به لا تعدو صورة باهتة شاحبة ، لا تمثل حقيقته بحال من الأحوال ، وكان جل من كتب فى تاريخ الأندلس من الفرنسيين أو الإسبان رجالاً متعصبين لدينهم ، لم ينصفوا الإسلام فى الأندلس دوره الرائع

الذى قام به فى العصر الوسيط ، أما من بحث منهم فى التراث الفنى الذى خلفه المسلمون فى هذه البلاد ، وأقصد به ما تبقى لهم من آثار سواء كانت آثاراً معمارية أم زخرفية ، فقد نسبوا معظمها إلى الرومان أو القوط الغربيين ، من أمثال هؤلاء رودريجو كارو، والمؤرخ الإشبيلى الونسو مورجادو ، وبايستروس ، وقد أنكر هؤلاء نسبة معظم هذه الروائع إلى المسلمين ، وكأنهم استكثروا عليهم أن يبدعو مثل هذه الروائع الفنية . ثم إن معظم هذه الكتابات كانت تختلط فيها الحقيقة بالخيال ، إذ كانت تعتمد على القصص والروايات التى توارثها القوم ، وتواترت على ألسنة الناس جيلاً بعد جيل ، بل إن الآثار الإسلامية الباقية فى الأندلس بما تتسم به من جمال فنى ، وما يحيط بها من أسرار وغموض ، كانت تساعد على تأليف موضوعات شيقة لمثل هذه القصص والأساطير .

ثم بدأت خيوط من أضواء التاريخ تبدد شيئاً فشيئاً ذلك الظلام الحالك الذى أحاط بتاريخ المسلمين فى الأندلس ، وتكشفت حقائق كانت خافية بفضل جهود كثير من المستشرقين[1] . وبدأ العالم الأوربى ، وقد بهرته هذه الاكتشافات يهتم بتاريخ الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، بعد أن وضح له تفوقها على حضارته ، وتبين فضلها عليها ، فقد كان الأندلس فى الحق مركز الاتصال بين آسيا وأفريقيا

---

(١) كان كل اعتماد الأبحاث العربية الأندلسية على نقل النصوص والروايات الواردة فى الكتب المعروفة وقتئذ مثل كتاب نفح الطيب للمقرى ، وكتاب العبر لابن خلدون ، دون مقارنة النصوص بعضها ببعض أو نقدها والتعليق عليها ، فلما ظهر فهرس المخطوطات الأندلسية بمكتبة الإسكوريال الذى أصدره المتأسبن العربى غزيرى Gasiri عام ١٧٧٠ ، ساعدت النصوص العربية التى عزز بها غزيرى فهرسه ، عن تاريخ الأندلس ، على قيام الأبحاث العلمية فى هذا التاريخ ، وبدأت هذه الأبحاث تسلك أتجاهاً علمياً سليما ، فقد أعان هذا الفهرس الباحثين فى التاريخ الإسلامى بالأندلس على الاطلاع على المصادر العربية المخطوطة والإفادة منها فى كتاباتهم . وعلى هذا النحو ظهر كتاب « التاريخ النقدى لإسبانيا والحضارة الإسبانية » للمؤرخ الإسبانى ماسدى ، وخلفه المؤرخ الإسبانى خوسى كندى صاحب كتاب « تاريخ دولة العرب فى إسبانيا » ، وإن كان هذا المؤلف قد نقل كثيراً من النصوص دون دراستها الدراسة اللائقة ، وبذلك وقع فى كثير من الأخطاء التاريخية التى أخذها عليه دوزى . ثم ظهر دوزى الهولندى ، أول مؤرخ متأسبن استطاع أن يكتب تاريخاً منهجياً قيما عن « تاريخ المسلمين فى إسبانيا حتى عصر المرابطين » استغل فيه المصادر العربية أحسن استغلال . وما زال هذا الكتاب رغم قدمه من أعظم المصادر الأوربية فى تاريخ الأندلس . ثم أصدر دوزى كتابه الثانى عن « أبحاث فى تاريخ أسبانيا وآدابها فى العصور الوسطى » ، ثم نشر عدة كتب فى هذا التاريخ أهمها البيان المغرب لابن عذارى ، وجزء من الحلة السيراء ، ووصف الأندلس من كتاب « نزهة المشتاق » للإدريسى ، وكتاب نفح الطيب .

من جهة وبين أوربا من جهة أخرى ، أو الجسر الذي عبرت منه تأثيرات الحضارة الإسلامية المتفوقة إلى القارة الأوربية : فنه انطلقت أشعة هذه الحضارة ، فغمرت جنوبى فرنسا وإيطاليا ، وأدركت أضواؤها شمالى أوربا ، فى الوقت الذى كانت فيه هذه القارة مغمورة فى ظلمات الجهل والانحطاط . وهنا عرف الأوربيون عظم ما تدين به حضارتهم للإسلام فى الأندلس ، فأقبلوا على دراسة هذه الحضارة الأندلسية ، وزيارة آثارها التى أصبحت تؤلف أعظم مراكز السياحة فى العالم ، ونتج عن هذا الاهتمام آثار هامة ، إذ نشطت الدراسات الأندلسية والمغربية ، وتقدمت تقدماً هائلاً على نحو لم يكن فى الحسبان ، خاصة بعد أن أخذ كثير من المستشرقين يقومون بنشر كثير من المصادر العربية الأندلسية ، وأهم ما صدر فى هذا السبيل ، الأجزاء العشرة التى تتألف منها المكتبة الأندلسية ، وغيرها . ومن أشهر المستشرقين الإسبان الذين ظهروا منذ سنة ١٨٨٠ كوديرة ، ولافونتى القنطرة ، وخوليان ريبيرة ، وبونس بويجس ، وسيمونيت ، وآسين بلاثيوس ، وجنثالث بلنسية ، وإيسيدرو دى لاس كاخيجاس ، وغرسية جومث ، وانطونيا ملشر ، وأوبثى ميراندا ، وسانشث البرنس . أما المتأسبنين من الفرنسيين فنخص بالذكر منهم ليفى برفنسال رئيسهم على الإطلاق فإن ما كتبه وما حققه عن تاريخ المغرب والأندلس يعتبر أعظم ما قام به مستشرق حتى الآن .

ولم يكن العرب بعيدين عن هذه الحركة العلمية الأندلسية ، فقد أسهموا بقسط محدود فى تلك الدراسات ، ثم ازداد اهتمام العرب بالمغرب الإسلامى ، بعد أن نضج الوعى القومى العربى ، وشمل بلاداً تمتد من الخليج العربى حتى المحيط الأطلسى . فبدأوا يوجهون اهتمامهم لدراسة التراث الإسلامى فى الأندلس . وكان قيام معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٥٠ خطوة موفقة فى هذا السبيل . ومنذ ذلك الحين ظهرت بعض التواليف والترجمات التى تعرض صوراً من هذا التاريخ الأندلسى (١) . وكان للنجاح الكبير الذى صادفته الدراسات الأندلسية

---

(١) من هذه التواليف : تاريخ إسبانيا الإسلامية للأستاذ عبد الله عنان ، وفجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس ، وسقوط الخلافة الأموية لنفس المؤلف ، وتاريخ الأدب الأندلسى للدكتور أحمد هيكل ، والمساجد والقصور فى الأندلس لصاحب هذا الكتاب ، وغيرها مما لا يتسع المجال لحصره . أما عن تعريب بعض الكتب الأوربية الهامة ، فنخص بالذكر منها على سبيل المثال : كتاب الإسلام فى المغرب —

أثر عظيم فى تشجيعنا على المساهمة فى كشف النقاب عما خفى من تاريخ حضارة المسلمين فى الأندلس ، وتزويد مكتبتنا العربية بتفاصيل شيقة عن جانب من أهم جوانب الحضارة الإسلامية ، نعتز به كل الاعتزاز ، ونفخر بأصالته كل الفخر ، والله نسأله التوفيق .

السيد عبد العزيز سالم

سر الأندلس ليڤى بروڤنسال وقمت بترجمته بالاشتراك مع الأستاذ صلاح حلمى ، وكتاب الفن الإسلامى فى إسبانيا تأليف جومث مورينو وترجمة الدكتور لطفى عبد البديع بالاشتراك معى ، وتاريخ الفكر الأندلسى تأليف جونثالث بلنسية وترجمة دكتور حسين مؤنس إلى غير ذلك من الترجمات . كذلك قام عدد كبير من الأساتذة المصريين بنشر كثير من المصادر العربية الأندلسية مثل كتاب المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد المغربى قام بنشره الدكتور شوقى ضيف ، والإحاطة فى أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب ، نشره الأستاذ عبد الله عنان ، وبعض مؤلفات لسان الدين بن الخطيب نشرها الدكتور مختار العبادى ، وجزء من فرحة الأنفس لابن غالب الأندلسى نشره الدكتور لطفى عبد البديع وغير ذلك من المصادر .

الباب الأول

التاريخ السياسى

للمسلمين فى الأندلس

الفصل الأول

فتح العرب لبلاد المغرب

١ ــ جغرافية بلاد المغرب

٢ ــ سكان المغرب

٣ ــ بلاد المغرب قبيل الفتح العربي

٤ ــ مراحل الفتح العربي للمغرب :

المرحلة الأولى : ٢٠ هـ ــ ٢٨ هـ (٦٤١ ــ ٦٤٨ م)

المرحلة الثانية : ٢٨ هـ ــ ٤٨ هـ (٦٤٨ ــ ٦٦٨ م)

المرحلة الثالثة : ٤٩ هـ ــ ٥٥ هـ (٦٦٩ ــ ٦٧٥ م)

المرحلة الرابعة : ٦٠ هـ ــ ٦٤ هـ (٦٨٠ ــ ٦٨٤ م)

المرحلة الخامسة : ٦٩ هـ ــ ٧١ هـ (٦٨٧ ــ ٦٨٩ م)

المرحلة السادسة : ٨١ هـ ــ ٨٥ هـ (٧٠٠ ــ ٧٠٥ م)

المرحلة السابعة : ٨٦ هـ ــ ٩٠ هـ (٧٠٧ ــ ٧١١ م)

الفصل الأول

فتح العرب لبلاد المغرب

١

جغرافية بلاد المغرب

تؤلف بلاد المغرب بأقسامها السياسية الثلاثة وحدة جغرافية واثنولوجية مستقلة عن غيرها ، فقد كانت وما تزال ترتبط جميعاً بروابط طبيعية وسياسية وثيقة ، وكان يسكنها منذ أقدم العصور التاريخية عنصر واحد من السكان[١] ، ولذلك كان للمغرب طابعه الخاص به ، وكانت حضارته حضارة منعزلة منطوية على نفسها ، محافظة على أصولها[٢] ، ونلاحظ أن هذه العزلة التى فرضتها طبيعة البلاد ، أثرت تأثيراً عميقاً فى اللغة والدين ، فللمغرب لغته الخاصة بجانب اللغة العربية ، وللمغرب مذهبه المالكي الذى حافظ عليه على مر السنين .

والواقع أن ارتباط بلاد المغرب جغرافياً واثنولوجياً يرجع قبل كل شيء إلى امتداد جبال أطلس من المجموعة الألبية فى قلب الغرب من أقصاه المغربى إلى أقصاه الشرق فى سلسلتين : إحداهما شمالية ، وهى جبال الريف الممتدة بحذاء ساحل العدوة ، من طنجة إلى مليلة ثم جبال أطلس التل ، والثانية جنوبية تمتد فى الصحراء الداخلية من جنوب وادى سوس عبر الصحراء إلى جبال أوراس وجبال زغوان جنوبى تونس[٣] . فالسلسلة الأولى وهى جبال أطلس الشمالية تنقسم إلى مجموعتين :

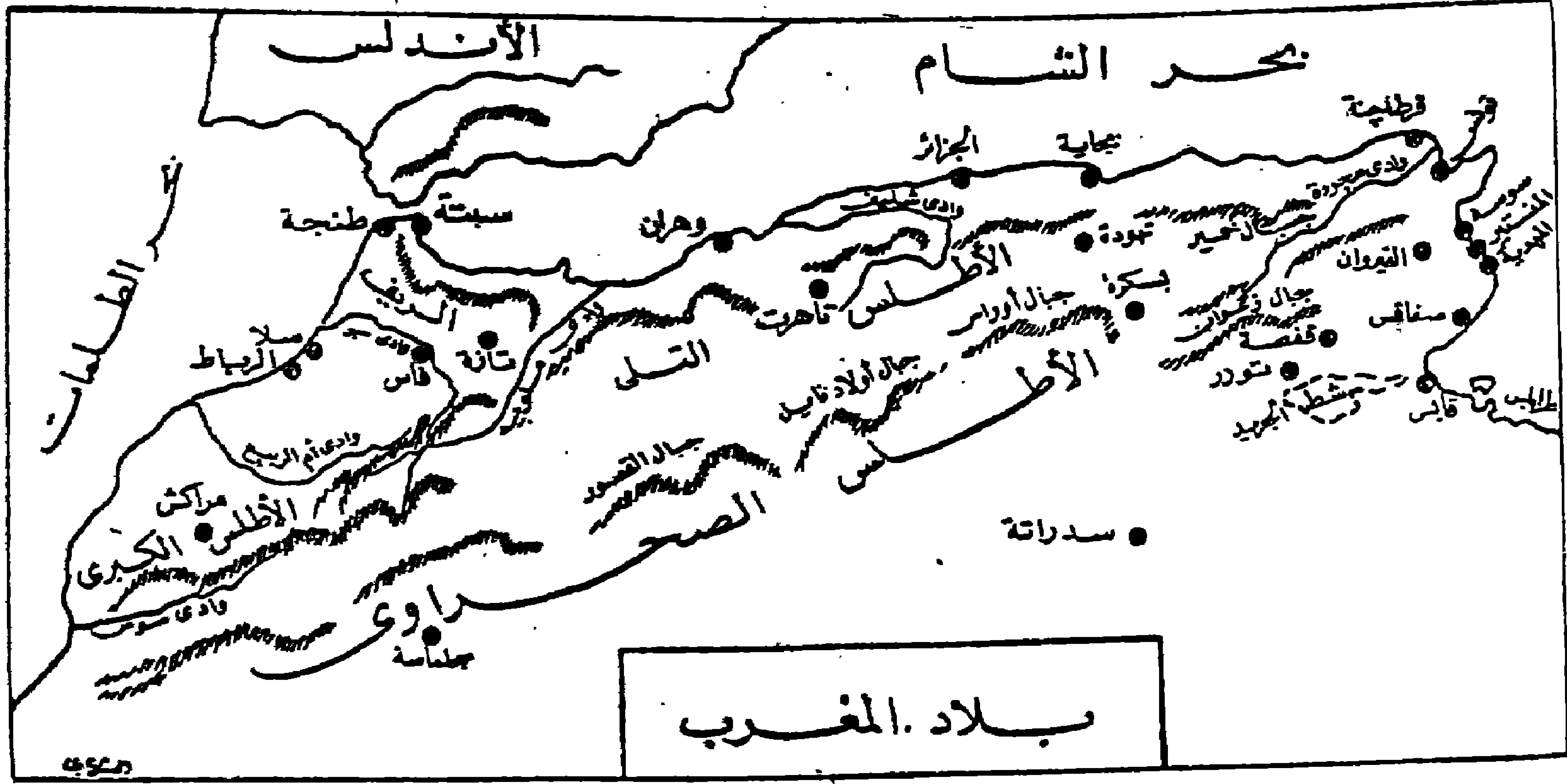
---

(١) ذكر ابن خلدون أن « المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار » انظر كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط . بولاق ١٢٨٤ هـ ، ج ٦ ص ٩٨ ،

Terrasse (H.) : Histoire du Maroc, Casablanca, 1949, t. I, p. 17.

(٢) André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord, Paris 1951, p. 49.

(٣) André Julien, op. cit. p. 16-21. — محمد محى الدين المشرق : إفريقيا الشمالية ، الرباط ١٩٥٠ ، ص ١١ — محمد عبد المنعم الشرقاوى ومحمد محمود الصياد : ملامح المغرب العربى ، الإسكندرية ١٩٥٩ ص ٩ .


الأندلس
بحر الشام
بحر الظلمات
قرطاجنة
بجاية
الجزائر
طنجة
سبتة
وهران
تهودة
القيروان
سوسة
المنستير
المهدية
بسكرة
الأطلس
جبال أوراس
تاهرت
صفاقس
سلا
الرباط
فاس
تازة
التل
قفصة
توزر
قابس
طرابلس
جبال أولاد نايل
الريف
وادي أم الربيع
مراكش
الأطلس الكبرى
جبال القصور
الصحراوي
سدراتة
وادي سوس
سجلماسة
شط الجريد

بلاد المغرب

(ا) جبال الريف أو جبال أطلس الشمالية الغربية ، وتشتمل على جبال أطلس الساحلى المتاخمة للنهاية الجنوبية الغربية لجبال سيرانڤادا الإسبانية (جبل شلير) ، وهى جبال متوسطة الارتفاع ، أكثرها ارتفاعاً جبل بنى حسن الذى يبلغ ارتفاعه ما يقرب من ألفى متر . وتتخذ هذه الجبال شكل قوس يحتضن الساحل الشمالى من سبتة إلى مليلة تاركاً سهلا ساحلياً ضيقاً فى هذه المنطقة[١] .

(ب) جبال أطلس التلى ، وهى سلسلة جبلية تمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى استمراراً لجبال الريف الساحلية. وتمتاز هذه السلسلة بارتفاعها وانحدارها الشديد نحو السواحل الشمالية ، ونحو الأحواض الجنوبية المنعزلة بين أطلس التلى وأطلس المتوسط ، وعلى الأخص فى القسم الغربى من المغرب الأوسط[٢] . أما الجزء الشرقى فأقل ارتفاعاً وأكثر تقطعاً . وتستمر جبال أطلس التلى فى الامتداد شرقاً حتى تنتهى بجبال خمير فى المغرب الأدنى (تونس) .

والسلسلة الثانية هى جبال أطلس الجنوبية أو أطلس الصحراوى[٣] ، وتبتدئ من المغرب الأقصى حيث تحمل اسم جبال أطلس الكبرى ، وهى أكثر جبال أطلس ارتفاعاً ، ولا توجد بها ممرات يسهل المرور منها ، ولذلك كان لهذه الجبال أثر كبير فى عزلة المغرب الأقصى عن سائر بلاد المغرب ، وفيها جبل العياشى الذى يتراوح ارتفاعه بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف متر . وتستمر جبال أطلس الكبرى ممتدة فى المغرب الأوسط ، وتشتمل على جبال القصور ، وجبال العمور ، وجبال أولاد نايل ، وجبال الزاب ، وجبال أوراس ، وتنتهى بجبال زغوان فى المغرب الأدنى . وأغلب هذه الجبال تكسوه الغابات وتتوجه الثلوج . وتنحصر بين هاتين السلسلتين الجبليتين هضاب أو سهول مرتفعة يشتغل فيها السكان برعى الماشية ، وأغلب هذه الهضاب تقع ما بين جبال أطلس التلى وأطلس الصحراوى فى المغرب الأوسط[٤] . وإلى شمال سلسلة جبال أطلس الكبرى ، تقع سلسلة جبال أطلس الوسطى ، ويسمونها أحياناً أطلس الصغرى ، ويغلب عليها طابع الهضاب ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٢ .

(٢) نفس المرجع ، André Julien, op. cit. p. 18.

(٣) يسميها ابن خلدون جبال درن (انظر العبر ج ٦ ص ١٠٠) .

(٤) André Julien, op. cit. p. 18-19. — تاريخ أفريقيا الشمالية ص ١٣ .

خاصة فى الجنوب الغربى منها . وتبدو حدودها الجنوبية الغربية واضحة المعالم حيث تشرف على سهل تادلا ، وكذلك حدودها الشرقية حيث يجرى وادى ملوية ، وفى الشمال حيث يقع ممر تازة ، المدخل الوحيد إلى المغرب الأقصى [١] . أما الحدود الجنوبية فمن الصعب تمييزها نظراً لاقترابها من جبال أطلس الكبرى لدرجة الالتصاق . وجبال أطلس الوسطى تعتبر المصدر الدائم لمياه الأنهار والعيون [٢] . وتمتد الهضاب المغربية بين جبال أطلس الكبرى والوسطى حتى المحيط الأطلسى ، فى المغرب الأقصى توجد هضبة المزيتا ، وفى المغرب الأوسط تمتد هضبة الشطوط التى تتميز ببحيراتها ، وبينهما يقع ممر تازة .

أما السهول فتقع غالبًا على ساحل المحيط الأطلسى وساحل العدوة والبحر الأبيض المتوسط ، وأشهرها سهل شاوية ودكالة وعبدة بالمغرب الأقصى : أما السهول الساحلية فى المغرب الأدنى فتكاد لا تذكر لضيقها ، وذلك بسبب اقتراب الجبال من الساحل التونسى . وهناك سهول تكونت حول وديان صغيرة تجرى فيها الأنهار ، منها سهل ماكتة وسهل زيتى بوهران ، وسهل وادى شليف فى المغرب الأوسط ، وسهل وادى مجردة فى المغرب الأدنى ، وسهلا فاس ومكناس الغنيين فى المغرب الأقصى ، وكلا هذين السهلين مرتفع . كما أن هناك مجموعتان من السهول الداخلية : الأولى تمتد من مصب نهر تنسيفت إلى وادى ملوية ، ويشتمل على السهل المطل على المحيط ، وسهول سبو ، وممر تازة وسهول ملوية الدنيا التى تؤلف الطريق الطبيعى ما بين جبال أطلس والمغرب الأوسط ، والأخرى تشتمل على سهل الحوز [٣] الذى يخترقه نهر تنسيفت ثم منخفض تادلا . أما المغرب الأدنى فيشتمل على سهول داخلية تقع حول الواحات [٤] .

---

(١) هو ممر ضيق مرتفع يفصل بين مرتفعات الريف وأطلس الوسطى .

(٢) ملامح المغرب العربى ، ص ١٦ .

(٣) André Julien, op. cit. p. 18.

(٤) تشتمل هذه السهول على منطقة الجريد جنوب المغرب الأدنى ، وهى نفطة وتوزر وقفصة وتسمى جميعاً بلاد قسطيلة . أما الواحات فتوجد جنوبى إقليم طرابلس فى منطقة فزان وودان (ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠١) .

٢

سكان المغرب

عرفت إفريقيا الشمالية منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة ، فكان الإغريق يسمون الجزء الشمالى منها الذى يسكنه العنصر الأبيض باسم ليبو أو ليبيا ، بينما كانوا يسمون الصحراء ببلاد الأحباش السود[١] . أما لفظ أفريقيا Africa ، فقد أطلقه الرومان على الإقليم الذى يقابل اليوم الجزء الشمالى الشرقى من جمهورية تونس ، ويشتمل على قرطاجنة وما حولها حتّى نوميديا ، وكان يعرف بولاية إفريقية القنصلية Africa Proconsularis ، وهو الاسم الذى عرّب فيما بعد إلى إفريقية ، وأطلقه العرب بادئ ذى بدء على كل بلاد المغرب باستثناء طرابلس وبرقة ، ثم اقتصر اسم إفريقية بعد ذلك على كل ما يلى مصر غربًا حتّى بجاية وأطلق اسم المغرب على كل ما يلى بجاية غربًا حتّى المحيط الأطلسى[٢] .

وأصل لفظ أفريقية مشتق من كلمة أفرى Aphri التى أطلقها الفينيقيون على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم Utica وعاصمتهم قرطاجنة ، ثم عممه اليونان على سكان البلاد الذين يسكنون المغرب من حدود مصر الغربية إلى المحيط[٣] .

---

(١) André Julien, op. cit. p. 9.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح إفريقية والأندلس نشره البير جاتو Albert Gateau فى الجزائر سنة ١٩٤٧ ص ٣٤ — ٤٢ . ويحدد البكرى إفريقية طولا من برقة شرقاً إلى طنجة غرباً (انظر أبو عبيد الله البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشره دى سلان Se Slane بالجزائر فى سنة ١٩١١ ص ٢١) . ويحدد ابن عذارى المراكشى المغرب من تاهرت إلى سلا ، ويسميه بلاد طنجة ، ويدخل الأندلس فى هذا الإقليم (راجع ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، نشره كولان وليڤى بروڤنسال ، ليدن ١٩٤٨ ج ١ ص ٥) . أما عبد الواحد المراكشى فيحدد إفريقية من انطابلس شرقاً إلى قسطنطينة غرباً ، والمغرب من قسطنطينة إلى مدينة طنجة (انظر المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى ، القاهرة ١٩٤٩ ص ٣٤٧ — ٣٥٧) ويحد السلاوى المغرب من برقة شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً بما فى ذلك إقليم اطرابلس (انظر أحمد بن خالد الناصرى السلاوى : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهره ١٣١٠ هـ ج ١ ص ٣٣) .

(٣) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ ص ١ وما يليها .

ولقد أجمع مؤرخو وجغرافيو العرب على أن بلاد المغرب تمتد من إطرابلس شرقًا إلى المحيط الأطلسى غربًا ، وأن ما يلى إطرابلس إلى الشرق لا يدخل فى المغرب . وعلى هذا النحو ينقسم المغرب إلى ثلاثة أقسام :

١ — إفريقية ، وسماها العرب المغرب الأدنى لأنها أقرب إلى بلاد العرب ودار الخلافة بالحجاز والشام ، وتمتد من إطرابلس شرقًا حتى بجاية أو تاهرت غربًا .

٢ — المغرب الأوسط ، ويمتد من تاهرت حتى وادى ملوية وجبال تازة غربًا .

٣ — المغرب الأقصى ، ويمتد من وادى ملوية شرقًا حتى المحيط الأطلسى[١]

وكان يسكن بلاد المغرب قبل الفتح العربى ثلاث طوائف من السكان :

(ا) الروم ، وهم البيزنطيون (ب) الأفارق أو الأفارقة ، وهم بقايا الشعب القرطاجنى وأخلاط من المستعمرين اللاتين ، والوطنيون الذين تأثروا بالحضارة البيزنطية ، وكانوا يدينون بالطاعة والولاء لسادتهم البيزنطيين ، ويشتغلون لهم بالزراعة والصناعة[٢] .

(ج) البربر ، وهم سواد السكان .

والبربر من Barbari ، وهو اسم أطلقه الرومان على سكان المغرب لأنهم كانوا يعتبرونهم غرباء على حضارتهم ، فسموهم برابار ، وعربها المسلمون إلى بربر وبرابر[٣] . كما أطلق الرومان على سكان إقليم موريطانية (منطقة طنجة)[٤] اسم مور Maures ، وما لبث هذا الاسم أن أطلق على سائر السكان البربر[٥] ، وذكروا فى سبب تسمية شعب المغرب بالبربر أن أفريقش بن قيس بن صيفى لما فتح المغرب ، وسمع رطانة البربر قال : ما أكثر بربرتهم ، فسموا البربر ،

---

(١) السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ٣٤ .

(٢) يقول ابن عبد الحكم عن الأفارق : «وأقام الأفارق وكانوا خدماً للروم ، على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم» فتوح إفريقية والأندلس ص ٣٤ . وقد يكون الأفارقة من كلمة أفرى الذى أطلقه الفينيقيون على سكان البلاد .

(٣) André Julien, op. cit. p. 10.

(٤) البكرى : المغرب ص ٢١ .

(٥) André Julien, op. cit. p. 10.

والبربرة في لغة العرب اختلاط الأصوات غير المفهومة[١] .

وينقسم البربر عامة إلى طائفتين : (ا) البربر الحضر الذين يسكنون المناطق الخصبة ، ويشتغلون بالزراعة والصناعة . (ب) والبربر الرحل الذين يسكنون الصحارى ، ويعيشون على الرعى ، وعلى ما يسلبونه من غاراتهم على ما يجاورهم من عمران[٢] .

فلما فتح العرب بلاد المغرب ، وفطنوا إلى التشابه الكبير بينهم وبين البربر في انقسامهم إلى قبائل وبطون ، وفي صفاتهم كالشجاعة ، والخشونة ، وحب القتال ، وحدة الخلق ، تأثروا بتقسيمهم هم — أى العرب — إلى شعبين كبيرين : القحطانيين والعدنانيين ، فقسموا قبائل البربر إلى جذمين عظيمين : قسم ينتسب إلى مادغيس بن بر الملقب بالأبتر ، فسموا البتر ، وقسم ينتسب إلى برنس بن بر فسموا البرانس[٣] .

أما تقسيم البربر إلى قسمين : قسم يسكن المدن ويتحضر بالحضارة اللاتينية ويسمون بالبرانس ، وقسم متبد يسكن البادية ويسمون بالبتر ، فهو تقسيم لا يمكن الأخذ به ، لأن قبيلة زناتة البترية الأصل كانت على حد قول ابن خلدون ، أكثر قبائل البربر حضارة وعمرانا[٤] ، ولذلك يجعلها فرعا مستقلا عن سائر البربر . ثم أن المتحضرين من البربر كانوا قلة ضئيلة بالنسبة للمتبدين الذين يؤلفون السواد الأعظم من سكان البلاد . وأما تفسير البتر بأنهم العارون من الثياب ، والبرانس بأنهم المتدثرون بالبرنس[٥] ، فهو تفسير لغوى لا يقوم على أساس متين ، فليس لزاما على البترى أن يكون عاريا من البرانس ، وليس شرطا أن يكون البرانسى مرتديا له .

---

(١) ابن خلدون : كتاب العبر ج ٦ ص ٨٩ ومايليها — السلاوى : كتاب الاستقصا ج ١ ص ٢٩ .

(٢) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٦ وما يليها .

(٣) ابن خلدون : كتاب العبر ج ٦ ص ٨٩ السلاوى : كتاب الاستقصا ج ١ ص ٣١ — حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٨ — Terrasse, op. cit., p. 21

(٤) ابن خلدون : كتاب العبر ج ٦ ص ٨٩ .

(٥) René Basset, Encyclopédie de l'Islam.

عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ، العدد الأول من سلسلة المكتبة التاريخية ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٢ .

وينقسم بربر البرانس إلى سبع قبائل هى : أوربة ، وصنهاجة ، وكتامة ، ومصمودة ، وعجيسة ، وأوريغة ،وأزداجة . وقيل عشرة هى السبعة السابقة يضاف إليها لمطة ، وهسكورة ، وجزولة[١] . وتعتبر صنهاجة أكبر قبائل البربر ، حتى لقد زعموا أنها مقدار الثلث منهم ، وكان منهم بنو زيرى بن مناد ، والملثمون (المرابطون) . وقد غلب على صنهاجة طابع التبدى ، فتفرقت صنهاجة فى كثير من أنحاء المغرب ، وكانت أكبر فروع صنهاجة فى المغرب وهى قبيلة زناجة تعيش على جبال أطلس المتوسط ، جنوبى تازة ،حتى منطقة بنى ملال . واحتلت بعض قبائل صنهاجة جزءاً هاماً من إقليم الريف ، واختصت قبائل أخرى من صنهاجة بمنطقة آزمور[٢] .

أما كتامة ، فقد لعبت دوراً هاماً فى قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب . وتعتبر مصمودة من أهم قبائل بربر البرانس، حتى إن بعض المؤرخين يجعلها فرعاً قائماً بذاته . ومن المصامدة غمارة التى تحتل منطقة العدوة من الريف ، وبرغواطة أهل تامسنا ، وأهل جبل درن ، وكانوا يعيشون فيما بين بورجرج وأم الربيع . ومن المصامدة المستقرين فى السهول ؛ دكالة ، جنوبى وادى أم الربيع ، ورجراجة على وادي تنسيفت . وجميع المصامدة متحضرون ، قد تعودوا حياة الاستقرار فى المدن[٣] .

أما بربر البتر ، فينقسمون إلى أربع قبائل هى: ضريسة ، ونفوسة ، وأداسة ، وبنو لواى أو لواتة .وتنقسم ضريسة إلى مكناسة وزناتة، ويعتبر ابن خلدون قبيلة زناتة فرعاً من البربر قائماً بذاته. ومن زناتة جراوة،ومغراوة، وبنو يفرن،وبنو زيان ، وبنو مرين .

وينقسم البربر من حيث الجنس إلى نوعين مختلفين : الأول وهو يؤلف أغلبية سكان البلاد يتميز بلونه الأسمر ، وشعره الأسود ، ورأسه المستدير وخاديه البارزين ، وأنفه القصير وجبهته المقوسة ، وهى نفس الصفات التى تتوفر فى سكان جنوبى

---

(١) ابن خلدون : كتاب العبر ج ٦ ص ٩٠ — الاستقصا ج ١ ص ٣١ .
(٢) Terrasse, op. cit. p. 23.
(٣) Terrasse, op. cit. p. 22.

إسبانيا وإيطاليا وفرنسا . والثانى ويقتصر على سكان الريف والشلوح فى المغرب الأقصى وسكان جبال جرجرة فى المغرب الأوسط ، يتميز بشقرة لون الشعر ، وزرقة العينين ، واستطالة الرأس ودقة الأنف ، ورقة الشفتين وتسطح الجبهة[1]. ولعلهم الأفارقة الذين ذكرهم المؤرخون واعتبروهم من بقايا الشعب القرطاجنى .

---

(١) Terrasse, op. cit. p. 17 — André Julien, op. cit. p. 50-53. محمد محى الدين المشرفى: أفريقيا الشمالية ص ٢٦ .

٣
بلاد المغرب قبيل الفتح العربي

كانت بلاد المغرب تخضع قبيل الفتح العربي للدولة البيزنطية ، وكان الإمبراطور البيزنطي يتخذ منها مزرعة تمد عاصمته بالغلال ، فكان يولي عليها حاكماً عاماً يقيم في قرطاجنة له السلطة المطلقة على سائر الشؤون الإدارية والمالية والقضائية . وكان يعينه في مباشرة أعماله عدد كبير من المستشارين والموظفين لتحصيل الضرائب. ولسهولة حكم البلاد قسمها الإمبراطور إلى سبع مناطق : الثلاثة الأولى يحكم كلاً منها قنصل ، والأربعة الباقية يحكم كلاً منها رئيس Praeside[1] :

١ ــ المنطقة الشمالية وتعرف باسم زيجيتان Zeugitane ، وكانت تشتمل على الجزء الشمالي من المغرب الأدنى ، ومركزها قرطاجنة ، ولذلك سميت باسم Proconsularis Carthago .

٢ ــ المنطقة الجنوبية أو الداخلية ، وكانت تعرف باسم بيزانسين Byzancène

٣ ــ إطرابلس Tripolitaine ، وتقع غربي برقة .

٤ ــ نوميديا Numidie ، وتقع شرقي إقليم قسطنطينة .

٥ ــ مورطانية الأولى Maurétanie Première ، ومركزها سطيف بالجزائر .

٦ ــ مورطانية الثانية Maurétanie Seconde ، وكانت تعرف باسم مورطانية القيصرية ، ومركزها شرشال Cesarea . ويشتمل هذا الإقليم أيضاً على مورطانية الطنجية Maurétanie Tingitaine ، وقاعدته إذ ذاك مدينة سبتة ، وكان هذا الإقليم يدخل قبيل الفتح العربي في فلك دولة القوط الغربيين في شبه جزيرة أيبيريا .

---

(١) كانت هذه الوظائف تباع بأثمان مرتفعة للغاية ، لذلك كان الحاكم الذي يظفر بوظيفته يعمل ما وسعه الجهد على استثمارها وتعويض ما دفعه للظفر بها ، لذلك كثرت الضرائب والمغارم الفادحة على السكان.

٧ – جزيرة سردانية La Sardaigne [١].

وكان النفوذ البيزنطى فى المغرب الأقصى ضئيلاً ، إذ كان لا يمتد إلا إلى المنطقة الشمالية منه ، وعلى الأخص منطقة سبتة . ولقد عمل البيزنطيون على إبقاء البلاد تحت سلطانهم ، فجعلوا بالمغرب جيشاً مرابطاً ، يتألف من ثلاثة عناصر أساسية ، هى : البيزنطيون ، ومنهم الفرسان والمشاة ، ثم البربر ، ثم الجنود المرتزقة . وكان يتولى رئاسة هذا الجيش قائد أعلى بيزنطى ، يقيم فى قرطاجنة يعرف باسم Magister Militum ، يعاونه قائد للمشاة Magister Peditum وآخر للفرسان . وكان القائد الأعلى Magister Militum يتولى أحياناً منصب الحاكم العام مثل سولومون الذى تولى الحكومة فيما بين ٥٣٤ – ٥٣٦ م ، ٥٣٩ – ٥٤٣ م ، وفى هذه الحالة فإنه يجمع لديه جميع سلطات الإمبراطور ، ويصبح إمبراطوراً مصغراً[٢] ومبالغة منهم فى دفع خطر الأعداء الذين يتربصون السوء بالإمبراطورية ، أقام البيزنطيون ، خاصة فى عهد سولومون Solomon ، على سواحل المغرب ، سلسلة من الحصون والمحارس تمتد من إطرابلس شرقاً حتى المحيط غرباً ، وتفصل بين المناطق الخاضعة للبيزنطيين ، والمناطق الصحراوية ، وتعرف هذه باسم Limes . غير أن هذه الحصون لم يراع فى بنائها الوثاقة والإحكام ، لسرعة إقامتها ، ولقلة موارد الدولة المالية[٣] . كذلك قسم البيزنطيون البلاد إلى أربع مناطق حربية[٤] على كل منها دوق[٥] .

وعلى هذا النحو عمل البيزنطيون على تقوية النظام الدفاعى فى بلاد المغرب ، غير أن ذلك لم يمنع من قيام البربر بالثورات عليهم مرات عديدة ، مما كان سبباً

---

(١) André Julien, op. cit. p. 260. – أفريقيا الشمالية ص ١٥٥ وما يليها – فتح العرب للمغرب ص ١٥ .

(٢) André Julien, op. cit. p. 261.

(٣) Ibid. p. 262. ، فتح العرب للمغرب ص ١٩ .

(٤) هذه المناطق هى : لبدة Leptis Magna فى إطرابلس ، وقفصة Thelepte فى Byzancene وسيرت Cirta فى نوميديا ، وشرشال فى موريطانية . وكانت مهمة هؤلاء الأدواق قيادة الجيش العامل ومواجهة النقاط التى تتعرض للأخطار .

(٥) André Julien, op. cit. p. 261.

فى كثرة وجود القلاقل والاضطرابات[١] ، وتوسل الحكام البيزنطيون بالقوة والعنف فى سبيل قمع هذه الحركات الثورية ، ثم اتبعوا سياسة تقوم على نثر بذور الشقاق والتفرقة بين عنصرى السكان : البرانس والبتر ، فضربوا بعضهم ببعض ، وضمنوا لأنفسهم السيادة على جميع البلاد ، فعمت الفوضى جميع أنحاء البلاد ، وتدهورت الثروة الأهلية ، وأصبح الناس لا يأمنون على أموالهم وعلى أرواحهم ، كما انقسم الناس من الناحية الدينية ، فخرج كثيرون عن مذهب الإمبراطور أو المذهب الدوفيزيتى ، واعتنقوا المذهب المونوفيزيتى ، وكان هذا الخصام المذهبى من الأسباب الرئيسية فى اضمحلال البلاد ، وانتثار عقد الدولة البيزنطية فى بلاد المغرب ، وعلى هذا النحو نفر الشعب المغربى من حكامه ، وكره استبدادهم ، وتعسفهم معه . وعلى هذه الحال السيئة ، من ثورات داخلية ، وانقسامات مذهبية ، واضطرابات اجتماعية واقتصادية ، لقى العرب هذه البلاد عند شروعهم فى فتحها ، ووجد السكان فى فتح العرب لبلادهم مخرجاً لهم من سوء حالتهم[٢] ، فأسرع بعض أهالى برقة وإطرابلس يعرضون طاعتهم على المسلمين ، راضين بحكمهم ، إذ وجدوا فى العرب حليفاً قوياً يعتزون به على الروم[٣] .

---

(١) قامت الثورة الأولى فى عهد الحاكم المستبد سولومون ، إذ التف الأهالى حول أحد زعمائهم وهو ستوزاس الذى قاد صفوفهم إلى قرطاجنة وأشعل فيها النيران ، وأرغم سولومون على الفرار . كذلك ثار بربر اطرابلس على سولومون .

(٢) André Julien, op. cit. p. 275 et la suivante.

(٣) فتح العرب للمغرب ص ٥٢ .

٤

مراحل الفتح العربي للمغرب

تاريخ الفتح العربي للمغرب، كما ترويه المصادر العربية، يقوم على مجموع من الأخبار التي تنقصها الدقة في أغلب الأحيان، ويكتنفها الغموض، بسبب ما يحيط بها من روايات ذات طابع أسطوري، أغلبها منقولة، وأقدمها يرجع إلى عصر متأخر كثيراً عن الفتح. ثم هي لا تقدم لنا إلا قدراً ضئيلاً من المعلومات الإيجابية، وحتى هذه المعلومات رغم قلتها، متقاربة في كثير من الأحيان، بحيث يتكلف المؤرخ لهذا الفتح مشقة كبيرة في تتبع مراحله المتتابعة. على أننا نستدل مما كتبه مؤرخو العرب على أن الفتح العربي لبلاد المغرب استغرق مدة طويلة تكاد تقرب من سبعين عاماً، برغم استعداد سكان البلاد لتقبل النقلة، واشتراكهم مع العرب في كثير من الخصائص والصفات. ويبدو أن استغراق فتح العرب للمغرب لهذه المدة الطويلة يرجع إلى صعوبة البلاد طبيعياً، واشتداد حركة المقاومة البربرية بعد انقضاء ما يزيد على ثلاثين سنة من شروع العرب في الفتح، وتدخل بعض العناصر الأجنبية — كالروم مثلا — في مقاتلة العرب الفاتحين. فلا شك أن طبيعة بلاد المغرب الجبلية ووعورتها، كانت من جهة عاملا هاماً في إبطاء الفتح العربي، ثم أن هذه الوعورة من جهة أخرى أثرت في أبدان البربر فأكسبتها النحولة والضمور مع القدرة على احتمال المشاق. وقد كان لهذا أثره عند خروج البربر على العرب في أوائل النصف الثاني من القرن الأول الهجري، ويرجع سبب انتقاض البربر على العرب بعد خضوعهم لهم في بداية الفتح، إلى إساءة رؤساء العرب إلى زعماء البربر، كما فعل عقبة بن نافع الفهري بكسيلة البتري، وبقدر ما كان يصطنعهم الفاتحون العرب، ويحسنون معاملتهم، بقدر ما نراهم يقبلون على مساعدة العرب في فتح البلاد ومساندتهم لهم في كل أمور الدولة.

وهكذا كان فتح العرب للمغرب بين مد وجزر، لأن سرعة الفتح أو إبطاءه كانا يتوقفان على سياسة العرب إزاء البربر وعلى الأحداث الجارية في المشرق

الإسلامى كذلك . وإذا تتبعنا أدوار الفتح العربى للمغرب نجده قد مرّ بعدة مراحل نلخصها فيما يلى :

المرحلة الأولى : ٢٠ هـ – ٢٨ هـ (٦٤١ – ٦٤٨ م)

شرع العرب فى فتح بلاد المغرب منذ سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) فى ولاية عمرو ابن العاص الأولى على مصر ، وذلك إتماماً لفتح مصر لأن برقة كانت جزءاً متمماً لها ، أو تأميناً لحدود مصر الغربية التى قد تتعرض لغزو بيزنطى من برقة ، أو تطبيقاً لسياسة الاستمرار فى الفتح نحو الغرب ، وهو أمر يدل عليه خط سير الفتوحات العربية فى الشام ومصر وبرقة وإفريقية والمغرب والأندلس ، وقد تكون محاولة عمرو بن العاص غزو برقة وإفريقية راجعة لهذه الأسباب مجتمعة .

لم ينتظر عمرو حتى ينتهى من فتح مصر ، ويتفرغ لفتح برقة ، فنراه يبادر بإرسال عقبة بن نافع الفهرى على رأس حملة استطلاعية إلى برقة . ويذكر ابن عذارى أن عمرو « استفتح مصر سنة ٢٠ من الهجرة ووجه منها عقبة بن نافع الفهرى إلى لوبية وأفريقية فافتتحهما[١] » . ويؤيد ابن أبى دينار القيروانى هذه الرواية فى كتابه المؤنس[٢] . ويبدو أن عمرو بن العاص اطمأن إلى تقرير عقبة ابن نافع عن بلاد برقة ، فعجل بتسيير جيوشه لفتحها . وسار عمرو بن العاص على رأس جيش من فرسانه غرباً حتى قدم برقة ، وكانت وقتئذ أشبه بولاية بربرية مستقلة عن الدولة البيزنطية . وكانت الصحراء الممتدة ما بين مصر وبرقة تسكنها قبيلة لواتة البترية ، وهى من أكبر قبائل البربر شأناً وأشدها بأساً ، ويبدو أن هؤلاء البربر أسرعوا بتقديم فروض ولائهم للجيش الغازى ، فاستسلموا للعرب مختارين ، فصالحهم عمرو نظير جزية يؤدونها إليه : وهى دينار على كل حالم[٣] .

---

(١) ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب ج ١ ص ٨ .

(٢) ابن أبى دينار القيروانى : المؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس ، طبعة تونس سنة ١٢٨٦ هـ ج ١ ص ٢٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٨ .

يذكر مؤرخو العرب أنه صالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية ، على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم فى جزيتهم (انظر : ابن الحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٣٤ – البلاذرى : فتوح البلدان

وضمن عمرو بمعاهدته مع لواته أن يكسبهم إلى جانب المسلمين ، ونجح فى إدخال بعضهم إلى الإسلام[(١)] .

ولما أتم عمرو فتح برقة شرع فى فتح إطرابلس تمهيداً لدخوله إفريقية ، وكان لزاماً عليه أن يفتحها من الساحل والجوف ، أما فيا يختص بالجوف : فقد بعث عمرو قائده عقبة بن نافع إلى فزان ، حتى بلغ زويلة[(٢)] ، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين[(٣)] . وعلى هذا النحو ضمن عمرو بن العاص إخضاع هذه الواحات الداخلية التى كانت تهدد سلطان العرب على مدن الساحل . وفى نفس الوقت الذى كان عقبة يفتتح فيه فزان ، كان عمرو يغزو مدينة إطرابلس وما يجاورها من المدن الساحلية مثل صبرة . فى سنة ٢٢ هـ ، غزا عمرو اطرابلس ، وحاصر أسوارها شهراً ، فلم يظفر بها ، ثم فاجأ الروم من جهة الساحل ، حيث انحسرت عنها مياه البحر ، واستولى على المدينة[(٤)] . وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم : « فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم ، فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم من مراكبهم ، وغنم عمرو ما كان فى المدينة »[(٥)] . وقبل أن ينتهى عمرو من فتح اطرابلس بعث جيشه إلى سبرت أو صبرة Sabrata ، وكان من بسبرت متحصنين منذ أن بلغهم محاصرة عمرو لمدينة إطرابلس ، فلما ظفر عمرو بمدينة إطرابلس ، « جرد خيلاً كثيفة من ليلته ، وأمرهم بسرعة السير ، فصبحت خيله مدينة سبرت وقد غفلوا ، وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم ، فدخلوها ، فلم ينج منهم أحد ،

= القسم الأول نشره صلاح المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٦٤ - أبو عبيد الله البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٤ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، طبعة بولاق ١٢٩٠ هـ ج ٣ ص ١١) هذا ويبدو أن بيع الأبناء للوفاء بالجزية كان أمراً شائعاً عند البربر فى ذلك الحين (ارجع إلى فتح العرب للمغرب ص ٥٦) .

(١) فتح العرب للمغرب ص ٥٤ وما يليها .

(٢) زويلة من إطرابلس كانت مشهورة بتجارة الرقيق (البكرى : المغرب ص ١١) .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح أفريقية والأندلس ص ٣٦ - البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الأول ص ٢٦٦ - البكرى ٢ المغرب ص ١٠ .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ص ٣٦ - البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٢٦١ - ثير ، الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ١١ - السلاوى ، الاستقصا ج ١ ص ٣٤ .

(٥) ابن عبد الحكم ، فتوح أفريقية ص ٣٨ . ويذكر البكرى أن فتح عمرو لطرابلس حدث =

واحتوى عمرو على ما فيها »[1] وكان عمرو قد بعث ، وهو محاصر لإطرابلس ، أحد قواده وهو بسر بن أرطأة إلى ودان ، فافتتحها سنة ثلاث وعشرين من الهجرة[2] وهكذا تم لعمرو الاستيلاء على برقة والجزء الشرقي من إطرابلس . وكان جميع ما يلي سبرت من بلدان مثل قابس وحصن جرجس تابعاً لجريجوريوس (جرجير في المصادر العربية) حاكم المغرب ، ويبدو أن أخبار الانتصارات التي أحرزها المسلمون في برقة وإطرابلس وفزان وودان ، قد وصلت إلى مسامع جريجوريوس ، فاحتاط لذلك ، وتأهب لملاقاة العرب ، فبادر بتحصين بلاده ، وإقامة الحاميات فيما يلي صبرة .

ويبدو أن عمرو بن العاص قد لاحظ صعوبة فتح إفريقية ، فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في فتحها ، ويغلب على الظن أنه طلب منه مدداً لذلك الغرض ، وذكر له بين ما ذكره : « إن الله قد فتح علينا اطرابلس ، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل »[3]. وتدل الأحداث التالية على أن الخليفة عمر كان على علم بالأحوال السياسية لإفريقية ، وبثورات أهلها وغدرهم ، فآثر أن يقف المسلمون إلى هذا الحد من الفتوحات ، وكتب إلى عمرو قائلاً : « لا ، إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة ، غادرة ، مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت »[4]. فاكتفى عمرو بما أصابه من غزو برقة ، واضطر إلى الانصراف عن إفريقية مرغماً ، وكان في مقدوره أن يستمر في فتح إقليم اطرابلس ، فقد كانت بعض مدنه ممتنعة على

= سنة ٢٣ هـ ، فيقول : « غزا مدينة إطرابلس سنة ثلاث وعشرين حتى نزل القبة التي على الشرف من شرقيها ، ثم دخلها رجل من مدلج من ناحية الكنيسة ففر الروم إلى سفنهم » المغرب ص ٨ وما يليها .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٣٨ — ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ١١ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٦٠ — البكرى ، المغرب ص ١٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٠ — البلاذرى ص ٢٦٦ .

يقول ابن عذارى : « وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يخبره بما أفاء الله عليه من النصر والفتح ، وأن ليس أمامه إلا بلاد إفريقية ، وملوكها كثير ، وأهلها في عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل » (البيان ج ١ ص ٨) وهذا يدل على أن عمرو بن العاص قد لمس استعداداً من العدو لمقابلة العرب ، وكان هذا هو السبب فيما أمره به عمر بن الخطاب من الانصراف عن هذه المغامرة .

(٤) نفس المرجع السابق .

العرب ، ولكن رفض عمر الاستمرار فى الفتح كان رفضاً قاطعاً ، وكان يعنى ألا مزيد من القوات العربية ، ولذلك عاد عمرو إلى مصر ، بعد أن أقام قائده عقبة بن نافع على هذه البلاد الصحراوية ، يدعو للإسلام،ونجح عقبة فى كسب كثير من أهالى البلاد من قبائل لواتة ونفوسة ونفزاوة فدخلوا فى الإسلام[1]

* * *

ثم استشهد عمر بن الخطاب ، وتولى عثمان بن عفان الخلافة ، فعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وأسندها إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٢٤ هـ . ومنذ ذلك الحين بدأت الأنظار تتجه من جديد نحو بلاد المغرب ، فكان عبد الله ابن سعد يبعث المسلمين فى جرائد الخيل كما كانوا يفعلون فى أيام عمرو ، فيصيبون من أطراف إفريقية ويغتمون[2] . ويغلب على الظن أن عثمان بن عفان كان يميل إلى إجابة أخيه فى الرضاع لفتح إفريقية ، ليكسبه بذلك مجداً يزيد من هيبته ، ويعزز مكانته ، ولكنه كان متردداً فى إجابته بسبب رفض عمر بن الخطاب المضى فيه من قبل . ولكنه صمم فى النهاية على غزوها بعد أن استشار الصحابة فى هذا الأمر[3] . ويذكر ابن عبد الحكم أن عبد الله بن سعد كتب إلى عثمان « وأخبره بقربها من حرز المسلمين ، واستأذنه فى غزوها »[4] ، فاجتمع عثمان فى المدينة بوجوه الصحابة وذوى الرأى سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ م) ، واستشارهم فى أمر الفتح ، فوافقوه عليه ، فكتب إلى عبد الله بن سعد فى سنة ٢٧ هـ « ويقال فى سنة ثمان وعشرين ويقال فى سنة تسع وعشرين يأمره بغزوها ، وأمده بجيش عظيم فيه معبد بن العباس بن عبد المطلب ، ومروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ، والحارث ابن الحكم أخوه ، وعبد الله بن الزبير بن العوام ، والمسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب

---

(١) يرى الدكتور حسين مؤنس أن عقبة أقام فى برقة ، وأن برقة ظلت على طاعة المسلمين حتى سنة ٢٧ هـ وهو الوقت الذى يقوم فيه عبد الله بن سعد بالإغارة على إفريقية . أما طرابلس وما يليها فيرجح الدكتور مؤنس ارتدادها عن طاعة العرب عقب انصرافهم عنها ، بدليل أنها استعصت بعد ذلك على عبد الله ابن سعد فى غزوته على إفريقية ، انظر : فتح العرب للمغرب ص ٧٧ وما يليها .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٤٢ — البلاذرى ، فتوح البلدان قسم أول ص ٢٦٧ .

(٣) يذكر البلاذرى أن عثمان بن عفان كان متوقفاً عن غزوها أول الأمر ثم عزم بعد ذلك على الاستشارة فى هذا الأمر (انظر فتوح البلدان ص ٢٦٧) .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٤٢ .

ابن عبد مناف ، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعاصم بن عمر ، وعبيد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وبسر بن أرطأة بن عويمر العامرى ، وأبو ذؤيب خويلد بن خالد الهزلى الشاعر ، وبها توفى ، فقام بأمره ابن الزبير حتّى واراه فى لحده ، وخرج فى هذه الغزاة ممن حول المدينة من العرب خلق كثير »[١] . وذكر ابن عذارى أن عثمان أعان المسلمين فى هذه السنة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس ، وأنه فتح بيوت السلاح التى كانت للمسلمين ، وخطب فيهم قائلا : « وقد عهدت إلى عبد الله بن سعد أن يحسن صحبتكم ويرفق بكم ، وقد استعملت عليكم الحارث ابن الحكم ، إلى أن تقدموا على ابن أبى سرح فيكون الأمر له »[٢] . فلما وصل هذا الجيش إلى مصر أعد ابن أبى سرح جيوشه ، وخرج على رأس هذه الجيوش فى أوائل سنة ٢٨ هـ (٦٤٨ م) لغزو إفريقية بعد أن استخلف عقبة بن عامر الجهنى على مصر . ويذكر ابن عذارى أنه خرج من مصر فى عشرين ألفاً إلى إفريقية ، وصاحبها بطريق يقال له جرجير[٣] ، وكان سلطانه من طرابلس إلى طنجة ، فبعث عبد الله السرايا فى آفاق إفريقية ، فغنموا فى كل وجه ، والتقى ابن أبى سرح مع جرجير بالقرب من سبيطلة[٤] Sufetula ، « وكان جرجير فى مائة وعشرين ألف مقاتل ، فضاق المسلمون فى أمرهم واختلفوا على ابن سعد فى الرأى ، فدخل فسطاطه مفكراً فى الأمر »[٥] . وتسلل عبد الله بن الزبير إلى معسكر الروم هو وثلاثون من العرب وقتل جرجير . فلما شاهد المسلمون

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان قسم ١ ص ٢٦٧ .

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٩ .

(٣) هو جريجوريوس حاكم إفريقية من قبل الإمبراطور هرقل ، ثم قسطنطين الثانى من بعده ، وعمد جريجوريوس إلى الانفصال عن الدولة البيزنطية سنة ٦٤٧ م ونقل عاصمته من قرطاجنة إلى سبيطلة فى سنة ٦٤٨ م وهو العام الذى غلبه فيه عبد الله بن سعد ، وقد أشار المؤرخ ابن عبد الحكم إلى أن جريجوريوس هذا ، « كان هرقل قد استخلفه ، فخلع هرقل ، وضرب الدنانير على وجهه ، وكان سلطانه ما بين إطرابلس إلى طنجة » انظر فتوح إفريقية ص ٤٢ .

(٤) ابن عذارى ج ١ ص ٩ .

(٥) المرجع السابق ص ١٠ — نص عبيد الله بن صالح ، نشره ليڤى بروفنسال فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٥٤ ص ٢١٥ .

ما فعله ابن الزبير حملوا على أعدائهم حملة واحدة ، فهزموهم هزيمة نكراء ، واستولوا على حصن سبيطلة[1] ، وفرت جيوش الروم فى جوف البلاد ، فبث ابن أبى سرح السرايا وفرّقها ، فأصابت غنائم كثيرة ، ونزلت جيوش ابن أبى سرح حصن الأجم فحاصرته ثم دخلته[2] ، فلما رأى رؤساء المدن فى إفريقية ذلك ، طلبوا من عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ، ويعود من حيث أتى ، ففعل[3] ، وعاد إلى مصر محملاً بالغنائم دون أن يتخذ بالمغرب قيرواناً ، ويستغل هذا النصر العظيم فى إقامة قاعدة للمسلمين فى إفريقية . ويعلق الدكتور حسين مؤنس على موقعة سبيطلة بأنها لم تفتح أمام العرب كل سهل تونس بل جزءاً محدوداً منه يحدده الخط الممتد من سبيطلة نفسها إلى سوسة من الشمال ، ثم من سبيطلة إلى قفصة جهة الشرق ، وشريط ساحلى ضيق فيما بين قابس وشط الجريد من الجنوب[4] . ويعلل الأستاذ أندريه جوليان عودة ابن سعد إلى مصر دون أن يحتل ولاية بيزانسين بخوفه من أن يقوم الروم بشن هجوم مضاد عليه من القلاع الشمالية التى لم ينجح فى محاصرتها[5] .

المرحلة الثانية : ٢٨ هـ — ٤٨ م (٦٤٨ — ٦٦٨ م)

شغل المسلمون بفتنة عثمان وما تبع ذلك من اضطرابات ، ولم يقوموا بعمل حاسم لفتح إفريقية منذ سنة ٢٨ هـ حتى سنة ٣٥هـ (٦٥٤ م) ، وهى السنة التى قتل فيها عثمان بن عفان ، واستخلفه على بن أبى طالب . فلما انتهت الفتنة واستقر الأمر لمعاوية بن أبى سفيان والى الشام فى عهد عثمان ، أعاد عمرو بن العاص على ولاية مصر للمرة الثانية ، فاستأنف عمرو غزواته السابقة على برقة وطرابلس ، فكان يبعث إليها جنداً يغنمون من أراضيها ما شاء لهم ذلك ، ويعودون من حيث

---

(١) ذكر البلاذرى أن الموقعة حدثت فى موضع اسمه عقوبة (فتوح البلدان ص ٢٦٧) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٣ ص ٣٧ — السلاوى ، الاستقصا ج ١ ص ٣٦ — فتح العرب للمغرب ص ٩٧ .

(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٢٦٨ .

(٤) فتح العرب للمغرب ص ٩٩ .

(٥) André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, depuis la conquête arabe, Paris 1952, p. 14.

أتوا ، دون الاشتباك مع الروم في مواقع حاسمة[١] . فلما توفى عمرو بن العاص سنة ٤٤ هـ (٦٦٥ م) ، رأى معاوية أن يفصل المغرب عن ولاية مصر ، ويجعله ولاية تتبع الخلافة الأموية مباشرة . وكان الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الثانى قد بلغه أن أهل إفريقية صالحوا المسلمين أيام عبد الله بن سعد على ٣٠٠ قنطار ذهب ، فغضب وأرسل إليهم بطريقاً من قبله يقال له أوليمة (ولعله أوليمبوس) ، وأمره أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من الذهب على نحو ما فعلوه مع عبد الله بن سعد . فنزل قرطاجنة ، وأخبرهم بذلك ، فأبوا عليه ، وقالوا : « إن الذى كان بأيدينا من الأموال فدينا به أنفسنا من العرب ، وأما الملك فهو سيدنا ، فيأخذ عادته منا » وكان القائم بأمرهم بعد مقتل جرجير رجلاً يقال له حباحبة[٢] ، فطرده البطريق بعد فتن طويلة فسار إلى معاوية بالشام . ثم تمكن أهل إفريقية من طرد أوليمة ، وقدموا على أنفسهم رجلاً اسمه الأطريون . أما حباحبة الرومى فقد قدم على معاوية وسأله أن يبعث معه جيشاً إلى إفريقية ، وعندئذ أقام معاوية على إفريقية أحد كبار أتباعه المقربين إليه ، ممن ساعدوه على الظفر بالخلافة هو معاوية بن حديج الكندى[٣] ، فخرج معاوية فى جيش كثيف عدته عشرة آلاف مقاتل . وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ، ويحيى بن الحكم بن العاص ، وغيرهم من أشراف قريش ، ووصل معاوية إلى إفريقية « وقد صارت ناراً تضطرم » ، ونزل جيشه جنوبى قرطاجنة فى موضع يعرف بقمونية أو قونية ويقال جبل القرن . ولما علم الإمبراطور البيزنطى بنبأ وصول جيش معاوية ، بعث إلى إفريقية بطريقاً يقال له نجفور (لعله نقفور) فى ثلاثين ألف مقاتل ، فأخرج معاوية بن حديج عبد الله بن الزبير فى خيل كثيفة ، فسار حتى نزل فى موضع غير بعيد من سوسة ، فتراجع جيش الروم إلى سوسة ، ثم أقلع نجفور ورجاله فى البحر منهزمين دون قتال ،

---

(١) ذكر ابن عذارى أن معاوية بن حديج غزا إفريقية سنة ٤١ هـ ، وأن عقبة بن نافع غزا المغرب سنة ٤٢ هـ ، فافتتح غدامس (انظر البيان المغرب ص ١٥) .

(٢) وقيل جناحه ، ويسميه أندرية جوليان جناديوس Gennadius (انظر André Julien, Hist. de l'Afrique du N. depuis la conquête arabe, p. 15)

(٣) ابن الأثير ج ٣ ص ٣٥ — ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧ — السلاوى ج ١ ص ٣٦ .

ودخل المسلمون سوسة[١] . كذلك استطاعت فرقة أخرى من ألف رجل بقيادة عبد الملك بن مروان الاستيلاء على مدينة جلولاء Gouloulis[٢] .

ثم وجه ابن حديج أسطوله فى البحر إلى صقلية سنة ٤٦ هـ (٦٦٧ م) فأقام بها شهراً ، وغنم غنائم كثيرة من بينها رقيق وتماثيل مرصعة بالجوهر ثم عاد إلى إفريقية[٣] ، ويمضى معاوية فى فتوحاته غرباً فيفتح ثغر بنزرت[٤] ، ويفتتح جزيرة جربة[٥] .

ولم يتح لمعاوية بن حديج أن يتم فتح إفريقية ، إذ عزله معاوية بن أبى سفيان سنة ٤٨ هـ (٦٦٩ م) وقيل سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) ، وولى على إفريقية عقبة بن نافع الفهرى . وبتولية عقبة على إفريقية يبدأ طور الفتح المنظم .

المرحلة الثالثة : ٤٩ هـ — ٥٥ هـ (٦٦٩ — ٦٧٥ م)

يعتبر عقبة بن نافع الفهرى من أكابر التابعين وأفاضلهم ، فقد ولد قبل وفاة الرسول بعام واحد ، وكان أعرف الناس بأحوال بلاد المغرب ، إذ كان قوى الإيمان بدينه ، شديد الحماس لنشره ، فكان يتخذ من الفتوحات وسيلة لنشر الإسلام ، وكان بالإضافة إلى ذلك قائداً قديراً ، ساهم فى فتوحات عمرو بن العاص الأولى بإفريقية[٦] ، كما ساهم فى فتوحات عبد الله بن سعد . وكان عقبة

---

(١) ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ١٦ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٥٨ — البكرى ، المغرب ص ٣٢ — ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ١٦ ، ١٧ . وفى فتح سوسة ذكر ابن الحكم والبكرى أن عبد الملك حاصرها عدة أيام دون أن يتمكن من افتتاحها ، فلما يئس انصرف عائداً ، فلم يمض فى سيره إلا يسيراً حتى « رأى فى ساقة الناس غباراً شديداً ، فظن أن العدو يتبعهم ، فكر جماعة من الناس لذلك ، وبقى من بقى على مصافهم ، فإذا مدينة جلولاء قد تساقط من سورها حائط فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها . » انظر فتوح إفريقية ص ٥٨ ، والمغرب ص ٣٢ .

أما ابن عذارى فيذكر رواية أخرى قال فيها إن عبد الملك « لما انصرف ذات يوم نسى قوساً له معلقة بشجرة فانصرف إليها فإذا بجانب من سور المدينة قد انهدم » البيان ج ١ ص ١٧ .

(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٢٧٨ — ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ص ١٨ .

(٤) فى فتح بنزرت انظر البكرى فى المغرب ص ٥٨ والسلاوى فى الاستقصا ج ١ ص ٣٦ .

(٥) البكرى ، المغرب ص ١٩ .

(٦) كان عمرو بن العاص قد وجه قائده عقبة بن نافع فى جيش بلغ به مدينة زويلة سنة ٢٠ هـ

يرى أن الفتح لا يمكن أن يتحقق ما لم يتخذ المسلمون لهم قاعدة ارتكاز فى قلب البلاد ، يوجهون منها حملاتهم إلى إفريقية ، ويجعلونها مركزاً لإمداد القوات الإسلامية الفاتحة . وقدر له أن يحقق هذا الهدف ببنائه القيروان عام ٥٠ هـ (٦٧٠م ، فكانت القيروان حصناً منيعاً أمام البيزنطيين الذين كانوا يستخدمون مدن الساحل مركزاً لشن الهجمات ، كذلك كانت حصناً أمام البربر الذين أصبحوا يمثلون منذ ذلك الحين أقوى خصوم للعرب ، وكانت القيروان بالإضافة إلى ذلك مركزاً يحمى الطريق من مصر ، ويواجه فى الوقت نفسه جبال أوراس وكر المقاومة[1] .

ما كاد عقبة يتولى إمارة إفريقية سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ م) حتى خرج إلى المغرب ومعه من قواد العرب بسر بن أرطأة وشريك بن سحيم المرادى ، فنزل بغدامس من أرض سرت ، وترك فرقة من جيشه هناك على رأسها زهير بن قيس البلوى ، وتابع هو السير على رأس فرقة مؤلفة من ٤٠٠ فارس حتى وصل إلى ودان فافتتحها ، ثم افتتح جرمة[2] ، ومضى منها إلى قصور فزان ، فافتتحها قصراً قصراً ، ثم افتتح قصور كوار ، واستولى على قصر جاوان ، ومن هناك انصرف عائداً إلى زويلة ، ومنها إلى قفصة ، فسقطت فى يده ، وأتبعها بقسطيلية . واختتم غزوته بموضع القيروان الذى كان قد أقامه معاوية بن حديج ، فلم ينل إعجابه ، وانتقل منه إلى موضع المدينة الكبرى التى ستعرف منذ ذلك الحين بالقيروان[3] ، وذلك جنوبى قرطاجنة . وعمل عقبة على أن يكون تخطيط معسكره هذا فى الصحراء ، بعيداً عن الساحل حتى لا تتعرض مدينته وقاعدة إفريقية لتهديد أساطيل الروم . فلما قال له جنده : « نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط » ، قال عقبة : « إنى أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحر ، وقد علم به »[4] . وبالفعل شرع عقبة

---

(١) André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, de la conquête arabe a 1830, p. 16.

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٦٢ — البكرى ، المغرب ص ١٣ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ص ١٩ .

يبدو أن هذه كانت السياسة التى اتبعها العرب بادئ ذى بدء فى تخطيط مدنهم ، فقد كانوا يخشون—

سنة ٥٠ هـ[1] وقيل سنة ٥١ هـ[2] فى تأسيس مدينة حربية ، أشبه شيء بمعسكر حربى ، وكان موضعها غياض لا ترام لكثرة سباعها وحياتها ، فدعا عقبة ومن معه من الصحابة والتابعين أن ترحل هذه السباع والحيات ، فرحلت[3] ، فاختط عقبة دار الإمارة ، وأقام معه الناس الدور والمساكن ، ثم أتى بعد ذلك إلى موضع المسجد الأعظم ، فاختطه ، ولم يحدث فيه بناء . ويذكر ابن عذارى المراكشى أنه كان يصلى فيه وهو كذلك ، « فاختلف الناس عليه فى القبلة ، وقالوا : إن جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد ، فاجهد نفسك فى تقويمها . فأقاموا أياماً ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس ، فلما رأى أمرهم قد اختلف بات مغموماً ، فدعا الله عز وجل أن يفرج عنه ، فأتاه آت فى منامه فقال له : إذا أصبحت فخذ اللواء فى يدك ، واجعله على عنقك ، فإنك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك ، فانظر الموضع الذى ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك ، وقد رضى الله لك أمر هذا العسكر ، وهذا المسجد ، وهذه المدينة ، وسوف يعز الله بها دينه ، ويذل بها من كفر به . فاستيقظ من منامه وهو جزع ، فتوضأ للصلاة وأخذ يصلى ، وهو فى المسجد ومعه أشراف الناس . فلما انفجر الصبح وصلى ركعتى الصبح بالمسلمين ، إذ بالتكبير بين يديه ، فقال لمن حوله : « أتسمعون ما أسمع ؟ فقالوا : لا ، فعلم أن الأمر من عند الله ، فأخذ اللواء فوضعه على عنقه ، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب ، فانقطع التكبير ، فركز لواءه ، وقال : هذا محرابكم . فاقتدى به سائر مساجد المدينة »[4] . ثم أخذ الناس فى تشييد دورهم ومساكنهم ومساجدهم بالقيروان ، وعمرت المدينة بمختلف أنواع الأبنية والمنشآت ، وشد الناس إليها الرحال ، واتسعت بالأسواق والمرافق ، وأصبحت القيروان مركزاً توجه منه

تخطيط عواصمهم بقرب البحر . (انظر كتابنا : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى الإسكندرية ١٩٦١ ص ٤٠ — ٤٥) .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٦٦ — البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٢٦٨ — الاستقصا ج ١ ص ٣٧ .

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٢٠ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٦٤ — البلاذرى ص ٢٦٩ — ابن الأثير ج ٣ ص ٢٠٠ .

(٤) ابن عذارى ج ١ ص ٢٠ وما يليها — الدباغ : معالم الإيمان فى معرفة القيروان ، تونس ١٩٠١ ج ١ ص ٩ .

الغزوات على جبال أوراس المواجهة لها[١] . واجتذبت هذه المدينة عدداً كبيراً من البربر الذين اعتنقوا الإسلام ، وكان ذلك أول خطوة فى نقلة البربر واستعرابهم .

ولم تطل ولاية عقبة على إفريقية أكثر من خمسة أعوام ، فقد عزله معاوية ابن أبى سفيان سنة ٥٥ هـ (٦٧٤ م) نتيجة لسعايات مسلمة بن مخلد الأنصارى والى مصر ، الذى كان يحسد عقبة على انتصاراته المتتابعة . وذكر الأستاذ هنرى تراس أن معاوية عزل عقبة خوفاً من أن يستقل بالمغرب عن الخلافة . وأقام مسلمة على إفريقية مولاه أبا المهاجر دينار ، وأوصاه حين ولاّه أن يعزل عقبة فى رفق ، وأن يحسن معاملته ، ويبدو أن أبا المهاجر دينار لم يفعل ما أوصاه به مسلمة ، بل إنه على الضد من ذلك أساء إلى عقبة بن نافع إساءة لم يغتفرها له ، وذكر ابن عبد الحكم ، « أنه سجنه وأوقره حديداً حتى أتاه الكتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه »[٢] . أما ابن عذارى فلم يذكر هذه الإساءة وإنما أكد إساءة أبى المهاجر عزل عقبة ، وأضاف قائلاً إن أبا المهاجر نزل فى موضع غير القيروان التى أسسها عقبة ، وكره أن ينزل فى هذا الموضع الذى اختطه ، وإنما اختار موضعاً يبعد عن القيروان بميلين ، ويقرب من تونس الحالية ، فاختط فى هذا الموضع مدينة ، وأمر الناس أن يحرقوا القيروان ويعمّروا مدينته[٣] . ولا نستبعد ما ذكره هذان المؤرخان ، فقد كانت ثمة عداوة بينهما بسبب ولاية إفريقية . توجه عقبة بعد عزله إلى المشرق ، وقدم على معاوية وشكا له قائلا : « فتحت البلاد ودانت لى ، وبنيت المنازل ، واتخذت مسجداً للجماعة ، وسكنت الناس ، ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزلى[٤] » فاعتذر له معاوية ووعده برده إلى عمله ، ولكنه لم يف بما وعده به . وكان أبو المهاجر يتميز عن سلفه بالدهاء وحسن السياسة ، وكان يرى أن يصانع بربر أوربة ، وكانوا أقوى بربر البرانس ، فيكتسب مودتهم ويضمن انضواءهم تحت لوائه ، أو عدم انحيازهم على الأقل إلى الروم . وركز

---

(١) Terrasse, Histoire du Maroc t. I, p. 80. — حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٩ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٦٨ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٢٢ .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٧٠ – ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٢٢ .

أبو المهاجر قواه لمواجهة الروم ، فزحف من القيروان إلى المغرب الأوسط وغزا مواقع أوربة فى جبال أوراس ، واستطاع بحسن سياسته أن يضم إليه أكبر زعماء بربر هذه القبيلة من البرانس ، ويعرف بكسيلة بن لمزم ، وكان نصرانياً فاعتنق الإسلام ، وأسلم معه كثير من بنى قومه ، ونجح أبو المهاجر بفضل مؤازرة كسيلة له فى الاستيلاء على تلمسان[1] ،(بوماريا) ، وشن على قرطاجنة هجوماً كبيراً سنة ٥٩ هـ (٦٧٩ م) ، ثم تركها بعد أن تخلى له الروم نظير ذلك عن الجزء الواقع جنوبى إقليم قرطاجنة[2] .

المرحلة الرابعة : ٦٠ هـ — ٦٤ هـ (٦٨٠ — ٦٨٤ م)

ظل أبو المهاجر على ولاية إفريقية حتى مات معاوية سنة ٦٠ هـ ، وأفضت الخلافة من بعده إلى ابنه يزيد بن معاوية ، وكان يزيد مقتنعاً بفضل عقبة على الإسلام وحسن بلائه فى غزو إفريقية ، فاستقطع ولاية إفريقية من مسلمة بن مخلد ، والى مصر ، وعزل أبا المهاجر دينار ، وورد عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقية للمرة الثانية . وكان عقبة ما يزال حاقداً على أبى المهاجر لإساءته إليه ، فما كاد يتولى إفريقية حتى قبض على أبى المهاجر وأوثقه فى الحديد[3] ، وعاد هذه المرة إلى القيروان وهو أشد عزماً فى الفتح من المرة الأولى ، حيث إنه قال لقومه : « إنى قد بعت نفسى من الله تعالى ، وعزمت على من كفر به حتى أقتل فيه ، وألحق به . ولست أدرى أترونى بعد يومى هذا أم لا ، لأن أملى الموت فى سبيل الله »[4] . ومضى حتى وصل إلى إفريقية ، وأمر بتخريب المدينة التى بناها أبو المهاجر وأعاد الناس إلى القيروان . ثم عزم على الغزو ، وترك بالقيروان جنداً من المسلمين استخلف عليهم زهير بن قيس البلوى ، وقيل إنه أغزى أبا المهاجر معه إلى السوس وهو مكبل بالأغلال[5] . وخرج عقبة فى غزوته الكبرى التى وصل فيها إلى المحيط الأطلسى ، ومعه جموع من بربر أوربة ، عليها كسيلة . وما زال فى سيره يخترق

---

(١) ابن خلدون ، كتاب العبر ج ٦ — السلاوى ، الاستقصا ج ١ ص ٣٧ .
(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ١٧٠ — ١٧٦ — فجر الأندلس ص ٤٠ .
(٣) ابن عبد الحكم ص ٧٠ — ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٥ .
(٤) ابن عذارى ج ١ ص ٢٤ .
(٥) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٧٠ .

بلاد إفريقية حتى وصل إلى مدينة باغاية وقرطاجنة ، فهزم الروم والبربر واستولى على المدينتين ، ثم حاصر المنستير وكانت من أعظم مدن إفريقية واستولى عليها ، ودخل الزاب ، وقاتل الروم وحلفاءهم من البربر على وادى المسيلة ، فهزمهم ، فاجتمع الروم فى تاهرت ، وآزرهم فيها بربر لواتة وهوارة وزواغة وزناتة ومكناسة ومطماطة ، فقاتلهم عقبة قتالا عنيفًا حتى هزمهم ، وقضى على كل مقاومة لهم فى المغرب الأوسط[١] ، ويبدو أنه أساء إلى كسيلة زعيم بربر أوربة ، وأهانه إهانة بالغة ، فخرج هو وأصحابه من البربر عن طاعته[٢] ، وسنرى كيف انتقم كسيلة لنفسه من عقبة .

ثم انطلق عقبة بجيشه مكتسحًا شمال إفريقيا كله ، هازمًا من يعترضه من الروم ، حتى دخل المغرب الأقصى سنة ٦٢ هـ (٦٨٢ م) ، ويعتبر عقبة أول من دخله من المسلمين ، واقترب عقبة من طنجة ، وكان يحكمها أمير اسمه يليان ، أو إليان ، فأرسل يليان مهاديًا عقبة ومهادنًا له ، وسأله المسالمة والنزول على حكمه ، فسالمه عقبة . وما زال يندفع بجيشه غازيا حتى وصلت جيوشه إلى وليلة Volubilis على مقربة من الموضع الذى أقام فيه إدريس بن عبد الله بن الحسن مدينة فاس ، وقاتل جموع البربر من المصامدة حتى هزمهم ، وطاردهم حتى درعة[٣] . واستمر فى مغامرته الكبرى حتى وطئت جيوشه أرض السوس الأقصى وانتهى إلى مدينة إيغيران يطوف Cap Guir ، وتقع على ساحل المحيط الأطلسى[٤] ، وافتتح فى طريقه إليها مدينة أغمات وريكة ، وتسكنها قبائل هسكورة ، ونزل

---

(١) ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٢٤ – ابن الأثير ج ٤ ص ٤٦ – نص عبيد الله عن فتوح المغرب ، نشره ليڤى بروڤنسال فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ص ٢١٩ .

(٢) يرى الدكتور حسين مؤنس أن صداقة كسيلة لأبى المهاجر كانت من أسباب غضبه على كسيلة ، فقبض على كسيلة ، كما قبض على أبى المهاجر وأخذهما معه فى حملته الكبرى . ولم تكن الرقابة على كسيلة شديدة ، فهرب من معسكر عقبة واتصل بأنصاره من البربر والروم (انظر تعليق الدكتور حسين مؤنس على نص عبد الله ، ص ٣٧) .

(٣) ليڤى بروڤنسال : نص جديد فى فتح العرب للمغرب بمجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ص ٢٠٧ .

(٤) نفس المرجع ، اعتماداً على نص عبيد الله بن صالح ص ٢١٩ – حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٤١ .

منها على وادى نفيس ، ثم إيجلى قرب دركاله ، وأطاعته سائر قبائل البربر مثل هسكورة وجزولة ورجراجة وصودة[١] . ويذكر ابن عذارى أنه عند ما وصلت جيوشه مدينة ماسة الواقعة على المحيط ، أدخل فرسه فى البحر حتى وصل الماء إلى تلابيبه ، وقال ابن أبى الفياض : « وسار حتى بلغ البحر المحيط ، فدخل فيه حتى بلغ الماء بطن فرسه ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال : يا رب لولا أن البحر منعنى ، لمضيت فى البلاد إلى مسلك ذى القرنين مدافعاً عن دينك ، مقاتلا من كفر بك[٢] » ويبدو أن أخباراً مقلقة من إفريقية قد بلغته ، فعجل بالعودة إلى القيروان ، ماراً بايغيران يطوف ، وتارنا ، ومنها إلى رباط شاكر ، ودخل إقليم دكالة ، حتى بلغ طنجة ، ومنها اتجه نحو المغرب الأوسط . فلما بلغ مدينة طبنة ، أرسل أكثر فرق جيشه من طريق آخر ، ولم يستبق معه سوى خمسة آلاف ، وسار هو إلى مدينة تهودة ليستولى عليها ، ويجعل منها قاعدة حربية لقواته فى منطقة أوراس ، ولكنه ما كاد يقترب منها حتى اعترضه كسيلة بن لمزم الأوربى البرانسى بجموع هائلة من بربر البرانس ، يتجاوز عددهم خمسين ألفاً وفقاً لرواية ابن عذارى ، وقطع كسيلة على عقبة خط الرجعة ، وأحس عقبة أمام هذه الحشود المتجمعة من البربر باقتراب نهايته ، فأراد أن يبعث أبا المهاجر مع من تبعه من المسلمين إلى القيروان ، ويبقى هو لقتال البربر ، فأبى أبو المهاجر إلا أن يغتنم الشهادة معه ، فنزل المسلمون عن دوابهم ، وكسروا أغماد سيوفهم ، ودارت الموقعة عند تهودة سنة ٦٣ هـ[٣] ، فاستشهد عقبة وأبو المهاجر وسيفاهما فى أيديهما ، واستشهد معهما عدد كبير من المسلمين ، وأسر الباقون ، ففداهم صاحب قفصة ، وبعث بهم إلى زهير بن قيس[٤] .

ودوى خبر مقتل عقبة فى إفريقية والمغرب ، وكان له أثر عميق فى نفوس

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٢٦ وما يليها – وليفى بروفنسال ، المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٢٧ .

(٣) يرى الدكتور حسين مؤنس أن موقعة تهودة حدثت سنة ٦٤ هـ وأن زهير بن قيس قرر الانسحاب إلى برقة سنة ٦٥ هـ . (انظر تعليق الدكتور مؤنس على مقال ليفى بروفنسال الخاص بنص عبيد الله بن صالح ، ص ٢٣٦) .

(٤) انظر تفاصيل هذه الموقعة فى نص عبيد الله بن صالح ص ٢٢٠ وما يليها ، وابن عبد الحكم فى فتوح إفريقية ص ٧٠ – ٧٤ وابن عذارى فى البيان ج ١ ص ٢٨ – ٣٠ .

المسلمين ، فقرر زهير بن قيس أن ينسحب بجموع المسلمين إلى برقة قبل أن يفاجأه كسيلة ، وقيل أنه أراد الانصراف إلى مصر ، فقيل له : « الهزيمة بالمسلمين من إفريقية إلى مصر ؟ » فعزم على القتال ، وزحف كسيلة إلى القيروان ، وعظم البلاء على المسلمين ، فخطب فيهم زهير بالقيروان وقال « يا معشر المسلمين ، إن أصحابكم قد دخلوا الجنة ، وقد من الله عليكم بالشهادة ، فاسلكوا سبيلهم ، ويفتح الله لكم دون ذلك ، فقال له حنش الصنعانى التابعى : لا والله ما نقبل قولك ولا لك علينا ولاية ، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم . ثم قال : يا معشر المسلمين ، من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعنى ، فاتبعه الناس ، ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته ، فنهض فى أثره ولحق بقصره ببرقة »[1] .

وهكذا قرر زهير أن ينسحب إلى برقة ، وأقبل كسيلة بعسكره فاستولى على القيروان سنة ٦٤ هـ ، بينما أقام زهير ببرقة مرابطاً حتى أيام عبد الملك بن مروان . وأسفر ذلك عن خروج إفريقية من أيدى المسلمين ، وضاعت بذلك جهود أربعين عاماً قضاها المسلمون فى غزو وفتح . ولكن العرب لم يفقدوا كل شىء ، فقد تركوا بإفريقية عدداً كبيراً من البربر تحولوا إلى الإسلام[2] ، وقد خضع هؤلاء لكسيلة ، ولكنهم ما لبثوا أن تنازعوا معه ، فعم الاضطراب صفوفه ، واختلت أحواله ، وسنرى بعد قليل أن هؤلاء البربر سينضمون طائعين إلى جيوش المسلمين[3]

المرحلة الخامسة : ٦٩ — ٧١ هـ (٦٨٧ — ٦٨٩ م)

توفى يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ (٦٨٢ م) وبويع لمروان بن الحكم ، ولكن عهده لم يطل ، إذ توفى بعد عام واحد من خلافته ، وخلفه ابنه عبد الملك . وعز على عبد الملك ، وكان رجلاً مجاهداً قد شارك فى فتوح المغرب أيام معاوية بن حديج ، أن يضيع المغرب على الإسلام ضياعاً نهائياً ، فبعث زهير بن قيس

---

(١) ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٣١ — السلاوى ، الاستقصا ج ١ ص ٣٩ .
(٢) ليفى بروفنسال : فتح العرب للمغرب ، بمجلة المعهد المصرى بمدريد ص ٢٠١ .
(٣) نفس المرجع ص ٢٠٧ .

باعتباره صاحب عقبة الشهيد ، فى حملة لاسترجاع القيروان ، وكان كسيلة قد استبد بالأمر فيها ، ولكنه كان يخشى من الحزب الإسلامى فى المدينة[١]، ويعمل له حساباً كبيراً . أما الروم فقد تحصنوا فى قرطاجنة وثبتوا أقدامهم على الساحل التونسى ، فسار زهير على رأس جيش كبير من جنود الشام سنة ٦٩ هـ (٦٨٧ م) ، فلما بلغ كسيلة قدومه إليه ، رحل من القيروان بجموع هائلة من البربر والروم إلى موضع يعرف بساقية ممش Mamma[٢] ، يقع بين القيروان وتبسا ، ويبدو أنه انتقل إلى هذا الموضع لحصانته ومناعة موقعه ، إذ تقع ساقية ممس هذه على مرتفع من هضبة تتصل بجبال أوراس ، وكان كسيلة يزمع التحصن بالجبل إذا دارت عليه الدائرة . أما قوات المسلمين ، فقد نزلت بظاهر القيروان وأقامت هناك ثلاثة أيام ، ولم تدخل المدينة حتى لا تفاجئها جيوش كسيلة . ثم زحف زهير بجيوشه إلى حيث تحصن كسيلة ، وبدأ بمهادنة الروم حتى يتفرغ لقتال كسيلة ، ثم دار القتال بين جيشيهما على وادى ممس[٣] ، فانتصر جيش زهير انتصاراً ساحقا ، وقتل كسيلة ، ومضى المسلمون فى طلب البربر فقتلوا منهم عدداً كبيراً ، وطاردوهم حتى وادى ملوية . ثم عاد زهير إلى القيروان ، فأقام بها بعض الوقت ، ثم تركها بعد أن نظم إدارتها وأقام عليها كثيراً من أصحابه ، وشرع فى القفول إلى برقة . وفى أثناء عودته قطع عليه الروم الطريق ، ودارت بينه وبينهم معركة فى درنة بالقرب من طبرق لقى فيها زهير حتفه سنة ٦٩هـ[٤] .

ولما استشهد زهير ببرقة اضطربت بلاد المغرب من بعده واضطرمت بها

---

(١) ذكر ابن عذارى أن كسيلة دعا أشراف البربر إليه عند ما أبلغوه بحملة زهير وقال لهم : إنى رأيت أن ارحل عن هذه المدينة ، فإن بها قوماً من المسلمين لهم علينا عهود ، ونحن نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا ، ولكن ننزل على موضع ممس وهى على الماء . . . » انظر البيان المغرب ج ١ ص ٣٢ .

(٢) البكرى ، المغرب ص ١٤٦ .

(٣) انظر نص عبيد الله بن صالح بمجلة المعهد المصرى بمدريد ص ٢٢١ . يذكر صاحب النص أن المعركة دارت فى سميس . وتعتبر هذه المعركة من أهم المواقع الحاسمة فى تاريخ فتح العرب للمغرب ويعلق السلاوى عليها بقوله : « فى هذه الموقعة ذل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم ، وخضدت شوكتهم واضمحل أمر الفرنجة فلم يعد ، وخاف البربر من زهير والعرب خوفاً شديداً فلجئوا إلى القلاع والحصون وكسرت شوكة أوربة من بينهم » انظر الاستقصا ج ١ ص ٤٢ .

(٤) ابن عذارى ج ١ ص ٣٣ — نص عبيد الله بن صالح ص ٢٢١ .

نار الفتن ، وافترق أمر البربر ، وتعدد سلطانهم فى رؤسائهم ، وكان من أعظم هؤلاء الرؤساء وقتئذ الكاهنة الزناتيةالجراوية ، صاحبة جبل اوراس التى سنتحدث عنها بعد قليل . وانقضت بعد ذلك أربعة سنوات توقف فيها الفتح ، لانشغال عبد الملك بن مروان بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير . ولم يتردد عبد الملك بن مروان فى إعادة الكرة مرة أخرى فى إفريقية بعد أن قضى على ثورة ابن الزبير فى جمادى الآخره سنة ٧١هـ (٦٩٠م) ، وتفرغ لفتح بلاد المغرب . كان عبد الملك يعتقد تماماً أن إفريقية لا يمكن أن تفتح فتحاً منظماً ثابتاً إلا إذا أعد الملك جيشاً كبيراً مسلحاً بكل أنواع الأسلحة والمعدات . ويذكر المؤرخون أنه جهز لهذا الغرض جيشا كثيفاً بلغت عدته نحو أربعين ألف مقاتل[١] ، وجعل على رأس هذا الجيش قائداً قديراً هو حسان بن النعمان الغسانى . وقد اختلف المؤرخون فى ذكر تاريخ سير الحملة إلى أفريقيه ، فابن عبد الحكم يحدد لها عام ٧٣هـ[٢] ، وابن الأثير عام ٧٥هـ[٣] ، ويؤيده فى ذلك ابن خلدون [٤]. أما ابن عذارى[٥] فقد حدد لهذه الحملة عام ٧٨هـ ، ولعل السبب فى كل هذا الاختلاف أن المؤرخين العرب يخلطون بين تاريخى حملتين قام بهما حسان ابن النعمان : إحدهما فى ٧٣ أو فى ٧٤ هـ والثانية فى ٧٨ أو ٧٩هـ وسنرى بعد قليل كيف تمت هاتان الحملتان .

اتبع حسان سياسة أبى المهاجر دينار ، وهى سياسة تقوم على اصطناع البربر واستمالتهم ضد الروم ، وآتت هذه السياسة الحكيمة ثمرتها ، إذ انضم إليه بوبر البرانس ، فزحف بهم وبجيشه العربى على أفريقية ، فلما وصل القيروان ، سأل عن أى ملك عظمت شوكته فى المغرب الأوسط فقيل له ملك قرطاجنة ، فصمم على قتاله[٦] ، ورسم حسان خطة جديدة فى محاربة الروم ، وهى القضاء

---

(١) نفس المرجع ص ٣٤ .
(٢) ابن الحكم ، فتوح إفريقية ص ٧٦ .
(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، القاهرة ١٢٨٠هـ ج ٤ ص ١١٣ .
(٤) ابن خلدون ، كتاب العبر ج ٤ ص ١٨٧ .
(٥) ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٣٤ .
(٦) نفس المرجع ص ٣٤ – السلاوى ، الاستقصا ج ١ ص ٤٢ .

أولا على وكرهم قرطاجنة ، ونجحت خطته على نحو لم يكن فى الحسبان ، فقد طوقها ، ودخلها بالسيف وخربها ، وقضى على عمرانها وهدمها بعد أن أخلاها الروم ومضوا فى مراكبهم إلى صقلية والأندلس، فأصبحت قرطاجنة أثرا بعد عين . ثم بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا فى صطفورة وبنزرت، فحاربهم حتى هزمهم ، ولم يترك من بلادهم موضعا إلا وطأه ، فلجأ الروم إلى باجة حيث تحصنوا ، أما البربر ففروا إلى إقليم بونة[1]. وما كاد حسان يفرغ من الروم حتى واجهته مشكلة البربر البتر الذين اجتمعوا حول زعيمة لهم تعرف بالكاهنة ويقال لها داهية بنت ماتية بن تيفان ملكة جبل أوراس . فزحف حسان قرب باغاية ، وسبقته الكاهنة إلى هناك ، فهدمت المدينة بعد أن أخرجت منها الروم[2] . ثم اشتبك الجيشان فى موضع يسمى نهر البلاء[3] ، فانهزم حسان بن النعمان هزيمة نكراء ، وأسرت الكاهنة من رجاله ثمانين وطاردت فلول المسلمين فى منطقة الجريد حتى قابس ، وتراجع الجيش العربى إلى برقة ، وهكذا خرجت إفريقيه من أيدى العرب للمرة الثانية . ولم تكتف الكاهنة بذلك بل عمدت إلى القضاء على كل مظاهر العمران بإفريقية حتى تمحى كل آثار الفتوحات العربية[4]، إلا أن ذلك أضر بالكاهنة ، فقد انفض عنها كثير من أنصارها ، من النصارى والأفارقة ، وهرعوا إلى حسان يستنصرونه عليها ، وانتهز الروم فى عهد ليونتيوس هذه الفرصة فأغاروا سنة ٧٨هـ (٦٩٧م) على من كان معسكراً من المسلمين فى قرطاجنة ، فقتلوا من بها وسلبوا وغنموا[5] .

---

(١) نفس المرجع ص ٣٥ – ابن الأثير ، أسد الغابة ج ٤ ص ١١٣ – السلاوى ، الاستقصا ج ١ ص ٤٢ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٦ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٧٦ . ويسميه ابن الأثير نهر نينى (انظر أسد الغابة ج ٤ ص ١٤٤) . ويسميه ابن عذارى وادى مسكيانة (البيان المغرب ج ١ ص ٣٦) . وذكر البكرى أن قرية مسكيانة تقع على نهر بالقرب من باغاية . (المغرب ص ٥٠) . ويتفق ابن خلدون مع ابن عذارى على هذا الاسم . أما عبيد الله بن صالح فيسميه وادى ترفى (نص عبيد الله بمجلة المعهد المصرى بمدريد ، ص ٢٢٢) . ويعود ابن عذارى إلى تسمية موضع الموقعة باسم وادى العذارى (البيان ج ١ ص ٣٦) .

(٤) يعلل ابن عذارى تهديم الكاهنة للعمران وتخريبها للزروع بأنها كانت تعتقد أن العرب يغيرون على المغرب إلا سعياً وراء الذهب والفضة فى المدن والمزارع . (البيان ج ١ ص ٣٦) .

(٥) البكرى ، المغرب ص ٣٨ .

المرحلة السادسة : ٨١هـ – ٨٥هـ (٧٠٠ – ٧٠٥م)

أقام حسان بن النعمان ببرقة ما يقرب من أربعة سنوات يترقب النجدة التى وعد بها عبد الملك بن مروان ، واقام هناك قصوراً كانت تسمى فى القرن الثانى عشر الميلادى باسم قصور حسان . فلما كانت سنة ٨١هـ ، وصلته الإمدادات وتوافت عليه فرسان العرب ورجالها ، من قبل عبد الملك بن مروان ، وزحف حسان بكامل قواته لمقاتلة الكاهنة ، وتكاثف جيشه بمن انضم إليه من البربر الموالين له ، فأخذت الكاهنة تتراجع موغلة فى جبال أوراس ، وبعث ابنيها إلى حسان ليطلبا الأمان لنفسيهما ، فأمنهما ، أما هى فقررت أن تحارب حتى الموت ، وما زال حسان يطاردها حتى التقى بجيشها سنة ٨٢هـ (٧٠١م) عند بئر الكاهنة[١] ، وقيل عند طبرقة ، فهزمها هزيمة شنعاء ، وسحق جيشها ، وقتلها ، وبذلك قضى حسان على كل أثر للمقاومة فى المغرب الأدنى . واستقامت بلاد إفريقية لحسان . فاتجه إلى قرطاجنة للمرة الثانية لتطهيرها من الحامية البيزنطية ، التى اضطرت إلى الفرار بحراً[٢] ، واسترد حسان المدينة[٣] . ولكنه كان يخشى أن يفاجأه الروم من البحر مرة أخرى ، فرأى أن يقيم تجاه قرطاجنة مدينة إسلامية تقع على البحر وتشرف على مدخل قرطاجنة ، فبنى تونس على بعد ١٢ ميلاً شرقى قرطاجنة ، وكان يصلها بها طريق رومانى قديم . وتونس هذه هى تنيس القديمة ، ولم تكن تعدو عند بنائها قرية صغيرة[٤] ، فحولها حسان إلى قاعدة بحرية تقلع منها الأساطيل ، وأنشأ بها داراً لصناعة الأسطول[٥] ، كما شيد فيها مسجداً جامعا ، وداراً للإمارة وثكنات

---

(١) نص عبيد الله بن صالح ص ٢٢٣ .

(٢) ذكر البكرى أن أهلها كانت عندهم سفن معدة من ناحية باب النساء ، فحملوا فيها أموالهم وأولادهم وهربوا ليلا ولم يبق فيها غير مرناق صاحبها (المغرب ص ٣٧) .

(٣) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٢٦٠ .

(٤) ذكر البكرى أن تونس كانت تسمى قديماً ترشيش ويقال لبحرها بحر راد ، وكذلك يسمى مرساها مرسى رادس (المغرب ص ٣٧) .

(٥) أرسل عبد العزيز بن مروان إلى حسان ألف قبطى بأهله وولده إلى ترشيش ، وأمره بأن يبنى لهم دار صناعة ، يصنع فيها المراكب ويجاهد الروم فى البر والبحر ، وأن يغار منها على ساحل الروم فيشغلهم ذلك عن مهاجمة القيروان (انظر البكرى ، المغرب ص ٣٨) .

للجند ، وقدر لهذه المدينة الصغيرة أو المحرس البحرى أن تكون أعظم ثغور إفريقية بعد ذلك بثلاثين عاماً على يدى عبد الله بن الحبحاب ، فقد نمت ، واتسع عمرانها ، وأقبل إليها الناس يستوطنونها ، وأقيم فيها أعظم جامع بالمغرب الأدنى وهو جامع الزيتونة الذى سمى كذلك نسبة إلى القديسة زيتونة التى عاشت أيام الوندال . وبعد أن فرغ حسان من استرداد إفريقية والقضاء على مقاومة البربر والروم ، أخذ يوجه عنايته لتنظيم البلاد إدارياً على نحو ما فعله العرب فى مصر والشام ، فدون الدواوين ونظم الخراج ، وبعث العمال على سائر بلاد المغرب ، وعمل على نشر الدين الإسلامى بين البربر ، فوزع الفقهاء إلى سائر أنحاء البلاد لتعليمهم قواعد الدين الإسلامى ، ونشر اللغة العربية لغة القرآن ، فاقبل البربر على الإسلام فى حماس منقطع النظير ، وأخلصوا له ، وجند حسان منهم أجناده ، حتى أصبح أكثر جيشه من البربر ، ثم ولى زعماءهم بعض المناصب الكبرى فى المغرب . وهكذا فتح حسان بلاد المغرب حربياً ومعنوياً فى آن واحد ، واستطاع أن يحول إفريقية إلى ولاية إسلامية قلباً وقالباً[1]. ويبدو أن نزاعاً حدث بينه وبين عبد العزيز بن مروان ، والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك ، فأخذ عبد العزيز يضيق عليه ، ويحد من سلطته ، ويكف يده عن إتمام ما شرع فيه من إصلاحات ، ثم عزله عن ولاية إفريقية فى أوائل سنة ٨٦هـ (٧٠٦م) .

المرحلة السابعة : ٨٦هـ — ٩٠هـ (٧٠٧ — ٧١١م) .

لما عزل حسان بن النعمان ، تولى موسى بن نصير على إفريقية بأمر عبد العزيز ابن مروان ، وكان موسى هذا من أقدر رجال الدولة الأموية وأكثرهم كفاءة وأخلصهم لها ، وكان أبوه نصير قائماً فى حرس معاوية بن أبى سفيان ، وقيل إنه كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان ، فأعتقه ، وأصبح موسى مولى لعبد العزيز . وعينه الخليفة عبد الملك بن مروان عاملاً على العراق مع بشر بن مروان ، ولكن الخليفة أخذ عليه بعض مآخذ ، وأراد قتله ، فافتداه منه عبد العزيز بن مروان

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٣٨ .
السلاوى ، الاستقصا ج ١ ص ٤٢ .

عامل مصر بمال ، وأجاره ، ثم ولاه على إفريقية[١] . وذكر ابن عذارى أنه افتتح ولايته بفتح قلعة زغوان[٢] . وكان المغرب الإسلامى قد فتح أغلبه عند ولاية موسى ، ولم يبق منه سوى المغرب الأقصى ، فخرج موسى غازياً من إفريقية إلى طنجة ، فوجد البربر قد فروا إلى أقصى الغرب خوفاً من بطش العرب بهم ، فتتبعهم موسى على رأس جيش مؤلف من وجوه العرب ومن اتصف من البربر بالقوة والجلد ، فقتل من بربر هذه المنطقة عدداً كبيراً وسبى منهم سبياً كثيراً[٣] . وكان موسى يهتم فى حروبه بما يجنيه من مغانم وسبايا ، ولم يكن يحفل بعد ذلك بما كانت تثيره هذه الغزوات فى نفوس الوطنيين من سوء الظن والحقد والكراهية للعرب . والواقع أن سياسة موسى نحو البربر أدت إلى غرس عوامل الحقد فى نفوسهم ، حتى لقد أصبح من العسير انتزاع هذا الشعور من نفوسهم ، وقد أفضى ذلك مع مرور الزمن إلى إقامة حواجز فاصلة بين العرب والبربر ، وإلى انحراف كثير من السكان إلى تقبل مذاهب ثورية انقلابية ، من خارجية وصفرية وشيعية[٤] .

وقد يكون سبب إسراف موسى فى غزوه لقبائل البربر (هوارة ، وزناتة ، وكتامة) رغبته فى إرضاء عبد الملك بن مروان عنه بعد أن أساء به الظن ، فأخذ يقاتل البربر ، ويفتتح مدائنهم ، وبلادهم ، ويذرع البلاد من شرقها إلى غربها ، ويبعث بغنائمه إلى عبد العزيز بن مروان والخليفة عبد الملك ، حتى زال ما كان يحمله الخليفة عليه فى نفسه من ضغائن وأحقاد[٥] ، فلما توفى عبد الملك سنة ٨٦ هـ ، ولى الخلافة بعده ابنه الوليد ، وبلغه ما تم من فتوح فى المغرب على يدى موسى ابن نصير ، فعظمت منزلة موسى عنده ، واشتد عجبه به . وقد أحدثت غزواته رجة كبرى بين قبائل البربر وسببت لهم الهلع والخوف ، فتسابقوا إلى الخضوع له ، والدخول فى الإسلام والانضواء فى سلك الجيش العربى ، الأمر الذى أتاح لموسى أن يمضى فى غزوه فى المغرب الأقصى حتى بلغ طنجة ، فافتتحها ، وترك عليها ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٨٤ — ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٣٩ وما يليها .

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٤٠ .

(٣) نفس المرجع ص ٤٢ — نص عبيد الله ص ٢٢٤ .

(٤) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٤٧ وما يليها .

(٥) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٨٦ .

حامية كبرى ، على رأسها مولاه طارق بن زياد ، وقد ذكر ابن عذارى أن عدد جنود هذه الحامية كان يتجاوز تسع وعشرين ألفاً ، وأوصى موسى العرب أن يعلموا البربر القرآن وأصول الدين[١]. واجتاز جيش موسى نهر درعة لأول مرة فى تاريخ المغرب ، ثم قام بإرسال حملة تأديبية إلى مدينة سجوما وعلى رأسها عياض وعثمان وأبو عبيدة من أبناء عقبة بن نافع ، وكان يسكنها طوائف البربر الذين اشتركوا فى قتل عقبه وأصحابه فى تهوده ، فانتقموا لأبيهم من أهل هذه البلدة شر انتقام ، وقضوا عليها قضاء مبرما[٢]. وهكذا نجح موسى بن نصير فى إخضاع بلاد المغرب للإسلام ، ولم تستعص عليه غير مدينة سبتة لمناعتها ، ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر ، وكان يحكمها من قبل القوط فى إسبانيا[٣] حاكم اسمه خوليان Julian ويسميه العرب يليان أو إليان[٤]، قد اختلفت المصادر فى شخصية يليان ، فبعضها يذكر أنه قوطى[٥] ، وبعضها يزعم أنه رومى[٦] ، وبعضها ينسبه إلى بربر غمارة[٧]. والواقع أن يليان كان حاكماً عاماً على إقليم مورطانية الطنجية ، وكانت تابعة لمورطانية القيصرية ، إحدى الولايات السبعة الخاضعة للدولة البيزنطية . فلما عجزت الدولة البيزنطية عن حمايتها ، ولت سبتة وجهها شطر إسبانيا القوطية[٨]. ويغلب على الظن أن يليان المذكور بدأ

---

(١) نفس المرجع ص ٨٨ — ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٤٢ . ويذكر عبيد الله بن صالح أن موسى ترك مع طارق سبعة عشر رجلا من العرب يعلمون أهل المغرب الأقصى الإسلام الصحيح وذلك فيما يقرب من سنة ٩٠ هـ . (انظر عبيد الله بن صالح ص ٢٢٤) .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٤ ، وابن عذارى ج ١ ص ٤٢ .

(٣) يذكر صاحب أخبار مجموعة أن موسى بن نصير سار إلى مداين تقع على شاطىء البحر ، فيها عمال صاحب الأندلس على رأسها سبتة (انظر أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، نشره E. Lafuente Alcântara ، مدريد ١٨٦٧ ص ٤ .)

(٤) البكرى ، المغرب ص ١٠٤

Edouardo Saavedra, Estudio sobre la invasion de los Arabes en España, Madrid 1892, p. 48.

Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, t. I, p. 13

(٥) ابن عذارى ج ١ ص ٢٠٣ .

(٦) ابن خلدون ، كتاب العبر ج ٤ ص ١١٧ .

(٧) السلاوى ، الاستقصا ج ١ ص ٤٤ .

(٨) ذكر الحميرى أن يليان هذا كان عاملا للذريق على سبتة ، (انظر ابن عبد المنعم الحميرى ، —

ولايته لهذا الإقليم فى سن مبكرة ، وأنه أقام مدة طويلة فى أرض المغرب حتى توثقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر ، واستطاع أن يكتسب صداقة البربر له حتى أصبح يعد نفسه واحدا منهم ؛ لذلك اختلط الأمر على الناس ، فظنوه بربريًا ، ومن هنا كان مرجع الرواية التى تنسبه إلى بربر غمارة . أما علاقته بالدولة القوطية فى إسبانيا ، فمرجعه أنه كان يتوجه بطلب المعونة الى هذه الدولة لبعد مدينته عن بيزنطة واضطراب أمور بيزنطة فى تلك الآونة . وقد لعب يليان دوراً هاما فى فتح الأندلس وستتحدث عن كل ذلك فى حينه .

= صفة جزيرة الأندلس ، نشره ليڤى بروفنسال القاهرة ١٩٣٧ ص ٧)

Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi-Provençal, Leyde 1932, p. 70.

الفصل الثانى

فتح المسلمين للأندلس

١ - إسبانيا قبل الفتح الإسلامى

(ا) تاريخ دولة القوط الغربيين

(ب) مظاهر الاضطراب فى أواخر عصر الدولة القوطية .

(حـ) المجتمع الإسبانى فى ظل القوط

٢ - حملة طارق بن زياد

(ا) مقدمات الفتح

(ب) انتصار طارق فى موقعة وادى لكة

(حـ) زحف طارق إلى طليطلة عاصمة القوط

(د) فتح قرطبة

٣ - حملة موسى بن نصير

(ا) افتتاح جنوب الأندلس وغربه

(ب) موقعة السواقى ومقتل لذريق

(حـ) فتح شمال إسبانيا

٤ - عبد العزيز بن موسى واستكمال فتح الأندلس

الفصل الثانى

فتح المسلمين للأندلس

١

إسبانيا قبل الفتح الإسلامى

١ – دولة القوط الغربيين :

تاريخ إسبانيا قديم للغاية ، فأصل السكان مزيج من الكلت والأيبيريين ، وفى القرن العاشر قبل الميلاد ، أسس الفينيقيون على سواحل إسبانيا عدة مستعمرات لهم ، كما أسس الإغريق منذ القرن الخامس قبل الميلاد بعض مراكز استعمارية فى شبه الجزيرة وأطلقوا على سواحلها اسم أيبيريا[١] ، وما لبث هذا الاسم أن أطلق على شبه الجزيرة كلها . ثم خضعت شبه الجزيرة للقرطاجنيين منذ القرن الخامس ق. م . ، وازدهرت مدينة قرطاجنة الجديدة فى عهدهم (كرتاجونوفا) واتخذوها حاضرة لهم . وهكذا تلقت شبه جزيرة أيبيريا منذ سنة ٥٣٥ ق . م حتى سنة ٢٠٥ ق.م تأثيرين هامين : أحدهما أوربى وهو التأثير الكلتى واليونانى ، والآخر أسيوى إفريقى أو سامى هو التأثير القرطاجنى ، ثم تحول هذا التأثير إلى تأثير لاتينى أوربى عقب الغزو الرومانى عام ٢٠٥ ق . م ، إذ أصبحت إيارية حسب التسمية العربية إقليما رومانياً نشروا فيه الحضارة الرومانية والقانون الرومانى والفن الرومانى ، وقضوا على نفوذ القرطاجنيين . وأسس الرومان مدينة طالقة Italica ، وجعلوها من أهم مراكزهم العمرانية فى جنوب إيارية . وخضع الإسبان لسلطان الرومان بادئ ذى بدء ، ثم ساروا على نهج نظمهم ، وأقبلوا عليها إقبالا شديداً ، وانتهى بهم الأمر إلى تعلمها ، واصطبغوا من الوجهة الاجتماعية بالصبغة الرومانية . إلا أن اندماج إسبانيا فى الجسم الرومانى لم يتم إلا بفضل المسيحية على نحو لم يكن فى

---

(١) يسميها الحميرى « إيارية » انظر الروض المعطار ص ٢ .

الحسبان[1] . ثم ضعفت الدولة الرومانية الغربية ، واجتاحتها قبائل جرمانية فى موجات متتابعة[2] ، حتى استقر بها القوط الغربيون فى أواخر القرن الرابع الميلادى وهم أعظم فروع جرمان الشرقيين ، واستطاع القوط الغربيون بقيادة ألاريك Alarico السيطرة على القسم الغربى من الدولة الرومانية ، فى عهد الإمبراطور الرومانى تيودوسيوس . فلما توفى الإمبراطور سنة ٣٩٥ م ، أصبحت لألاريك الرئاسة على القوط الغربيين ، فاستولى على اليونان عام ٣٩٦ ، ثم دخل إيطاليا وحاصر رومة سنة ٤٠٩ م ، واستجاب السناتو لشروطه ، وتقضى بعزل الإمبراطور هونريوس وتولية الإمبراطور برسكوس أتالوس . ولما تولى الإمبراطور الجديد وافق على تنصيب آلاريك قائداً عاماً للجيوش الرومانية وتعيين آطاولف أخى زوجة آلاريك قائدا للحرس الإمبراطورى[3] . ولم يلبث آلاريك أن اختلف مع آتالوس وعزله سنة ٤١٠ م ، ثم توجه إلى رومة ودخلها عنوة فى ٢٤ أغسطس ، ونشر فيها الدمار بعد أن نهبتها جيوشه وجردتها من روائعها[4] ولما توفى آلاريك عنة ٤١٠ خلفه على زعامة القوط الغربيين صهره آطاولف Ataulfo (٤١٠ — ٤١٥) ، وكان يتطلع إلى الأجزاء الغربية للدولة الرومانية وهى غالة وإسبانيا ، ونجح آطاولف فى الحصول سنة ٤١٢ على اعتراف من هونريوس بمنحه منطقتى أربونه وطركونه[5] من أراضى شبه جزيرة أيبيريا ، ولم تلبث هاتان المنطقتان أن أصبحتا نواة لدولة القوط الغربيين ، التى اتسعت جنوبى غالة وشمال إسبانيا . وكان آطاولف يطمع فى أن يكون إمبراطوراً للدولة الرومانية ، فتزوج من جالابلاسيديا أخت الإمبراطور سنة ٤١٤[6] .

---

(١) انظر مقالى : « الأندلس » فى دائرة معارف الشعب عدد ٦١ القاهرة ١٩٥٩ ص ٣ — ٥ .

(٢) يعلل الدكتور إبراهيم طرخان تحركات الجرمان وغزواتهم إلى زيادة عدد السكان ، وقلة الإنتاج الزراعى أمام ازدياد عدد السكان ، ويضيف إلى ذلك سبباً آخر هو أن المدنية الرومانية كانت من الأسباب التى دفعتهم إلى الهجرة : راجع إبراهيم على طرخان ، دولة القوط الغربيين القاهرة ١٩٥٨ ص ٢١ وما يليها .

(٣) المرجع السابق ص ٧٧ .

(٤) Aguado Bleye, Manuel de l'Histoire de Espana, t. I, Madrid 1947, p. 337.

(٥) طرخان : دولة القوط الغربيين ص ٨٢ .

(٦) Aguado Bleye, op. cit. p. 338. ، المرجع السابق ص ٨٢ .

وكانت إسبانيا تعانى وقتئذ آثار الغزوات الجرمانية المدمرة، التى تدفقت عليها منذ عام ٤٠٩ م ، فقد اجتاحتها عناصر الألان بقيادة رسبارديال Respardial ، والسويڤ بقيادة ملكهم هرما نريك Hermanerico والوندال بقيادة ملكهم جنصريك Genserico . وكان الوندال أشد هذه العناصر تخريباً وتدميراً ووحشية[1] . واقتسمت هذه العناصر الغازية إسبانيا فيما بينها سنة ٤١١ ، فاستقر السويڤ وقسم من الوندال فى الأطراف الشمالية الغربية أى فى جليقية Galicia ، واشتوريش Asturias أما الألان فقد أقاموا فى لشدانية Lusitania (البرتغال حالياً) ، وأقام القسم الأعظم من الوندال فى إقليم باطقه Baetica ، وجزء من شرق الأندلس . وعلى هذه الحالة السيئة ظهر آطاوولف على مسرح إسبانيا السياسى ، ولم يلبث أن انترع برشلونة من الوندال سنة ٤١٤ ، واتخذها مقرًّا له ، ومنها أخذ يتوغل فى قلب إسبانيا ، بينما ارتد الوندال إلى الجنوب ، وأخذوا يقضون أثناء ارتدادهم على معالم الحضارة الرومانية ، ويخربون معظم ما وجدوه من عمران فى باطقة . واضطر جنصريك زعيم الوندال ، إزاء ضغط القوط الغربيين إلى العبور إلى المغرب سنة ٤٢٩ م . فى ثمانين ألف شخص ، بفضل مساعدات بربر المغرب له ، إذ كان يجمعهما عداء مشترك للمسيحية الكاثوليكية ، وبفضل جهود الكونت بونيفاس والى إفريقية من قبل رومة . ولقد قام الوندال فى المغرب بأبشع أنواع الجرائم من قتل وتشريد وتدمير وتخريب وسلب ونهب ، فندم بونيفاس على ما اجترمه ، وقام بمحاربة جنصريك ، ولكنه انهزم فى عنابة سنة ٤٣٠ م ، والتجأ إلى رومة[2] . ولم يقف خطر الوندال إلى حد احتلال المغرب ، فلقد أغاروا على جزر البليار وسردينية وكورسيكة وصقلية ، كما هاجموا رومة نفسها سنة ٤٥٥[3] . وهكذا تمكن جنصريك من تأسيس إمبراطورية لم تلبث أن تفككت بعد وفاته سنة ٤٧٧ م ، إذ تمكن القائد الرومانى بليزاريوس من القضاء على نفوذ الوندال فى المغرب .

أما إقليم باطقة ، فقد تركه الوندال أثراً بعد عين ، وخربوا فيه مدائنه الكبار ،

---

(١) طرخان : دولة القوط الغربيين ص ٨٦ .

(٢) Aguado Bleye, op. cit. p. 339.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦١ ص ٧٢ .

أمثال هسباليس Hispalis (إشبيلية) ، وكرناجونوفا Cartagonova (قرطاجنة الجديدة) ، وجادس Gades (قادس) ، وكردوبا Corduba (قرطبة)[١] . وتبع ذلك اختفاء اسم باطقة ، وحل محله اسم فندالوشيا ، نسبة إلى قبائل الوندال المخربة الذين يسميهم ابن عبد المنعم الحميرى بالأندليش [٢].

وهكذا استقر القوط الغربيون فى إسبانيا ، واتسع ملكهم خاصة فى عهد تيودوريد Teodoredo (٤٢٠ — ٤٥١) فقد تحالف مع الرومان ، وتكاتف معهم فى صد هجوم قبائل الهون التى تدفقت على غالة سنة ٤٥٠ ، ونجح تيودوريد والرومان فى هزيمتهم فى موقعة شالون سيرمارن Chalon-Sur-Marne سنة ٤٥١ ، ولكن تيودوريد لقى حتفه فى هذه الموقعة[٣] . وظل مصير دولة القوط متأرجحاً منذ تولى توريسمند Turismundo سنة ٤٥١ حتى بداية عهد الملك إيوريك Eurico أصغر أبناء تيودوريد الأول سنة ٤٦٦ . ويعتبر إيوريك المؤسس الحقيقى لدولة القوط الغربيين فى إبارية وغالة ؛ فى إبارية ، تمكن من مد نفوذه على إقليم لشدانية الذى كان يحتله الألان ، وبذلك خضعت له كل إبارية فيما عدا الجزء الذى كان يحتله السويف فى جليقية[٤] ، كما تمكن من بسط نفوذه جنوبى غالة ، باستيلائه على آرل ومرسيليا وكليرمو وبوردو . وكانت أملاكه بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية على يد إدواكر سنة ٤٧٦ تمتد من عدوة الأندلس جنوباً حتى اللوار شمالا ، ومن المحيط الأطلسى غرباً إلى جبال الألب شرقاً . إلا أن هذه الحدود لم يقدر لها أن تثبت طويلا على ما وصلت إليه ، فلقد انحسر نفوذ القوط الغربيين عن أراضى غالة واقتصرت أملاكهم على إسبانيا ، بعد أن هزمهم كلوفيس زعيم الفرنجة[٥] فى موقعة ڤوييه Vouillé سنة ٥٠٧ م ، وفيها قتل الملك آلاريك

---

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٤ .

(٢) ابن عبد المنعم الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ص ٢ ، وراجع بحث الأندلس فى

(Lévi-Provençal : L'Espagne Musulmane au Xe. siècle, Paris 1932 p. 5-6.

فى بحث عن الأندلس للمؤلف بدائرة معارف الشعب .

(٣) Joaquin Guichot, Historia General de Andalucia, Madrid, 1869, t. I, p. 238.

(٤) J. Guichot, op. cit. p. 239 — Julian Ma. Rubio : Historia de Espana, t. II, La Espana Visigoda, Barcelona, 1935 p. 15 — Aguado Bleye, op. cit. p. 343.

(٥) يعتبر كلوفيس المؤسس الحقيقى لدولة الفرنجة البحريين ، وقد اعتنق كلوفيس المسيحية على=

الثانى [١] ومع ذلك فقد ظل القوط الغربيون محتفظين بإقليم سبتمانيا المتاخم لجبال البرت من الشمال، ويمتد شرقاً حتى وادى الرون . ولم يستمر احتفاظ القوط بهذا الإقليم عهداً طويلا بعد أن طردهم الفرنجة منه عام ٥٣١ . وأصبحت أملاك دولة القوط الغربيين ، منذ تولى الملك تيوديس Teudis عرش القوط (٥٣١–٥٤٨) تقتصر على اسبانيا فحسب . وهكذا أخذت إسبانيا تظهر منذ أوائل القرن السادس الميلادى كدولة موحدة ، ثم اختار القوط لهم عاصمة داخلية يتمكنون فيها من بسط نفوذهم على سائر أنحاء البلاد ، فاختاروا ماردة بادئ ذى بدء فى عهد الملك أخيلا Agila (٥٤٩ – ٥٥) ، ولكن ذلك لم يجد نفعاً ، إذ ثار أهل قرطبة الكاثوليك وهزموا جيشه ، وثار نبلاء القوط على أخيلا بسبب هزيمته ، واستعان أحدهم ويسمى أتاناخيلد Atanagildo بالإمبراطور البيزطى جستنيان الذى أمده بجيش استولى بمساعدته على جنوب شرقى الأندلس (إقليم باطقة وجزء من إقليم قرطاجنة) . ففر أخيلا إلى عاصمته ماردة حيث قتله أحد أتباعه سنة ٥٥٤ ، وتولى أتاناخيلد العرش الذى دفع ثمنه غاليا باستقدامه البيزنطيين ، واحتلالهم إقليم باطقة . وهنا فكر أتاناخيلد فى نقل عاصمته من الجنوب إلى الشمال ، فاختار لهذا الغرض مدينة طليطلة قاعدة إقليم كاربتانيا Carpetania [٢] ، لما كانت تمتاز به من موقع جغرافى واستراتيجى هام . وارتفعت طليطلة فى عهد أتاناخيلد إلى الذروة ، وزودها ملوك القوط من بعده بآثارهم الجليلة، وسموها المدينة الملكية Ciudad Regia. ولم يلبث تاريخ إسبانيا القوطية منذ تبنى الملك ريكاريد Recaredo[٣] (٥٨٦–٦٠١م) المذهب

= المذهب الأثناسيوسى ، مخالفاً بذلك بقية الشعوب الجرمانية ، التى تعتنق المذهب الآريوسى ، وبذلك أمكنه إيجاد نوع من الترابط بين الفرنجة والرومان (انظر سعيد عاشور ، أوربا فى العصور الوسطى ج ١ ص ٧٨ – ٨٣) .

(١) Guichot, op. cit. p. 241 — Julian Ma. Rubio, op. cit. p. 18 — A. Bleye, op. cit. p. 347.

(٢) El Vizconde de Palazuelos, Guia Artistico-preàctico de Toledo, Toledo, 1890, p. 9.

وانظر مقالى عن طليطلة فى دائرة معارف الشعب عدد ٦١

(٣) كان ريكاريد على نقيض أبيه ليوفيخلد Leovigildo (٥٦٧ – ٥٨٦) الذى قضى حياته يحارب الكاثوليك فى جليقية وجنوبى إسبانيا ، كان محباً للسلام ، لذلك أراد وضع حد لمظاهر الاضطراب التى سادت البلاد فى عهد أبيه (انظر Aguado Bleye, op. cit. p. 351)

الآريوسى فى المجمع الدينى الثالث بطليطلة سنة ٥٨٧ م ، واعتنق الكاثوليكية[1] أن أصبح جزءاً لا يتجزأ من تاريخ طليطلة عاصمة البلاد ، وهكذا نبذ القوط مذهبهم الأريوسى ومثلوا صاغرين أمام المحافل الكنيسية ، واعتبروا اللاتينية لغة البلاد الرسمية . وكانت علاقته الودية بالبابوية[2] سبباً فى وفود كثير من القساوسة الكاثوليك إلى عاصمته ، وأصبحت طليطلة على هذا النحو مركزاً أسقفياً هاماً ، يمثل سلطان البابا فى روما . وبذلك كان الاعتراف بالكاثوليكية الخطوة الحاسمة لمزج القوط بالشعب الأيبيرى الرومانى[3] .

وخلف ريكاريد عدد من ملوك القوط أهمهم خمسة :

١ – ششبرت Sisbuto (٦١٢ – ٦٢١ م) : حارب البيزنطيين وأجلاهم عن بعض أملاكهم فى السواحل الجنوبية ، ويعتبر ششبرت أول من أقر مبدأ اضطهاد اليهود[4] .

٢ – سونتيلة Suintila (٦٢١ – ٦٣١) : أخضع البشكنس وسكان قنطابرية كما طهر إسبانيا نهائياً من الاحتلال البيزنطى سنة ٦٢٤ م[5] . ويبدو أنه استبد بالبلاد فى أواخر أيامه فعزل سنة ٦٣١ ، وأقيم سيسناند Sisenando على العرش (٦٣١ – ٦٣٦) ، وفى عهده انعقد المجمع الدينى الرابع بطليطلة فى كنيسة سانتا لوكاديا سنة ٦٣٣ ، وقرر أن الملكية يجب أن تكون انتخابية فى أيدى النبلاء والقساوسة[6] .

٣ – شنداسفنت Chindaswinto (٦٤٩–٦٥٣) : كان قائداً قديراً، تمكن من القضاء على روح الفوضى التى نشرها نبلاء القوط فى البلاد .

---

(١) جاء فى قرار التحول الذى اتخذه مجلس طليطلة : « باسم الله المقدس ، إن كنيسة القديس مارى قد جعلت بطريركية كاثوليكية فى أبريل من السنة الأولى من حكم الملك المنصور فلافيوس ريكاريد ، وعد ريكاريد على الطريقة الكاثوليكية بالزيت المقدس (راجع إبراهيم طرخان : دولة القوط الغربيين ص ١٦٢)

(٢) نفس المرجع ص ١٠٦ .

(٣) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٠ .

(٤) Guichot, op. cit. p. 270.

(٥) نفس المرجع ص ٢٧٠ – وإبراهيم طرخان ، المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٦) إبراهيم طرخان : المرجع السابق .

٤ — رسفنت Receswinto (٦٥٣ — ٦٧٢) : أهم ما قام به إعلان عدم التفرقة العنصرية فى إسبانيا ، وإباحة الانصهار بين العنصرين القوطى والرومانى[١]

٥ — وامبا Wamba (٦٧٢ — ٦٨٠ م) : افتتح عهده بمحاربة البشكنس وقضائه على ثورة باولس فى سبتمانيا .

* * *

ب — مظاهر الاضطراب فى أواخر عصر الدولة القوطية :

تبع عصر وامبا عهد مظلم مشحون بالفوضى والاضطراب ، استمر حتى سقوط دولة القوط على أيدى العرب الفاتحين ، أى مدة ثلاثين عاماً ، وفى ذلك يقول المستشرق والمتأسبن الفرنسى الأستاذ ليڤى پروڤنسال : « إن الثلاثين سنة التى سبقت الغزو الإسلامى ، وهى السنوات العجاف بالنسبة لما نعرفه عن تاريخ إسبانيا القوطية ، تبدو لنا فى الواقع غاية فى الفوضى والاضطراب رغم قلة ما أمدتنا به المصادر الإخبارية . هذه الفترة القصيرة التى تبدأ منذ اعتزال الملك وامبا العرش سنة ٦٨٠ م مشحونة كلها بالنزاع والصراع المثير للقلاقل ؛ فمن منافسات دموية بين المرشحين للعرش ، ومن ثورات محلية ، ومن دسائس يقوم بها النبلاء وكبار القساوسة الذين كانوا يسعون إلى زيادة التغلغل فى الشئون السياسية للدولة أكثر مما كانوا يفعلونه من قبل . كل ذلك كان أكثر من دليل لا يخيب ، إنما يشير بوضوح إلى أن البلاد الأيبيرية كانت تقدم نفسها فى طليعة القرن الثامن الميلادى فريسة سهلة لأى غاز سواء كان هذا الغازى من الشمال أو من الجنوب . »[٢]

والواقع أن الصورة التى تمثل هذا العصر الأخير صورة مظلمة قاتمة ، ففيه كثرت المشاكل التى تعانيها الدولة من مؤامرات ومصادمات حول العرش ، وصراع بين

---

(١) ورد فى « Fuero Juzgo » وهو مجموعة القوانين التى أصدرها رسفنت سنة ٦٥٤ وسماه « Liber Judiciorum » نص هذا القانون . وما جاء فيه الفقرة التالية : (Que la mugier romana pueda Casar con omne godo, e la mugier Goda pueda Casar con omne romano)
« المرأة الرومانية فى إمكانها أن تتزوج رجلا قوطياً والمرأة القوطية فى إمكانها أن تتزوج رجلا رومانياً »
انظر Guichot, op. cit. p. 272.

(٢) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, t. I, La conquête et l'Emirat Hispano-Umaiyade, Paris - Leiden, 1950, p. 3.

العناصر الخاضعة للقوط ، ولم يكن علاج هذه المشكلات متوفراً لضعف الملوك وتجردهم من مظاهر القوة والسلطان ، وضعف الروح الحربية عند القوط ، بعد أن تخلوا عن خشونتهم القديمة التي جعلت منهم رجال حرب ، واستغرقوا في حياة الترف ، في الوقت الذي نمت فيه السلطات الكنسية ، وأصبح الأساقفة يسيّرون الدولة ويستبدون بشؤونها .

وعند ما تولى غيطشه Witiza عرش البلاد في نوفبر سنة ٧٠٠ م بعد وفاة أبيه إخيكا Egica كانت أحوال البلاد قد بلغت غاية السوء ، وحاول غيطشة أن يصلح من حال البلاد ، وبالفعل كان القسم الأول من عصره يتسم بالهدوء والإصلاح ، فقد طبق العدل في أحكامه ، وأفرج عن المسجونين ، وسمح للمنفيين بالعودة إلى ديارهم ، وتعويضهم عن أملاكهم المصادرة [١] . وذكر عدد من المؤرخين أنه لم يمض على ولايته سبع سنوات حتى عدل عن سياسته التي كانت سبباً في محبة الشعب الإسباني له ، فقد رخص للقساوسة بالزواج ، وقتل فافلة Favila ، ونفى ابنه بلاى Pelayo الذى لعب دوراً هاماً في تأسيس مملكة اشتوريش في بداية عصر الولاة المسلمين ، كذلك سمل غيطشة عيني تيودوفريد Teodofredo ، وكان ابناء للملك خندسفنت Khindasvinto [٢] (٦٤٢ — ٦٤٩) ، كما أمر غيطشة بهدم أغلب حصون وأسوار إسبانيا ، وسمح لليهود بالعودة إلى إسبانيا وممارسة شعائرهم الدينية دون تقييد ، بعد أن كانوا موضع اضطهاد أبيه أخيكا [٣] وأخيراً خرج غيطشة على البابا قسطنطين [٤] .

---

(١) Guichot, op. cit. p. 276.
Saavedra, op. cit. p. 26.

(٢) كان تيودوفريد مقيما في قرطبة ، فاتهمه الملك غيطشة بالتآمر على العرش ، فعاقبه بسمل عينيه ، فتقاعد تيودوفريد في قصره بقرطبة ، وقيل إن ابنه لذريق هو نفسه الذى انتزع العرش من صاحبه الشرعى وقلة ابن غيطشة » انظر Aguado Bleye, op. cit. p. 255.

(٣) كان إخيكا قد اتهم اليهود بالتآمر مع « قوم ما وراء البحر » لحمايتهم من استبداد القوط بهم ، فبالغ إخيكا وابنه غيطشة في اضطهادهم . ولعل ذلك كان سبب مؤازرتهم العرب ومساعدتهم لهم عند الفتح . انظر Levi-Provençal, Histoire, t. I, p. 6. — حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ١٤ — إبراهيم طرخان ص ١١٩ .

(٤) Guichot, op. cit. p. 276.

وورد فى مدونة إيزيدور الباجى أن غيطشة خلع من العرش على أثر ثورة قام بها نفر من أنصار لذريق Rodrigo ، ويرجح دون وخواكين جيشوت اشتراك العناصر القوطية الرومانية فى هذه الحركة ، لأن لذريق المذكور كان من سلالة الملك رسسقنت Recceswinto (٦٥٣ – ٦٧٢) الذى نشر العدل فى البلاد ، وأزال التفرقة بين مختلف الأجناس المؤلفة للشعب الإسبانى[١] . ويغلب على الظن أن مجلس طليطلة قد أفتى بخلع غيطشة عند ما أقدم على تولية ابنه الطفل وقلة Achila[٢] العهد من بعده ، وتنصيبه حاكماً على ولايتى أربونة وطركونة ، تحت وصاية رخشندش Rechesindo أخى غيطشة[٣] . فكان هذا التصرف سبباً فى إثارة الطامعين فى العرش من قواد الجيش ، وكبار النبلاء ، لاستصغارهم لأبناء غيطشة الثلاثة[٤] .

ويبدو أن قرار مجلس طليطلة ، اتفق صدوره قبل وفاة غيطشة مباشرة ، وأحدث انقساماً بين طبقات الشعب ، فقامت الثورات فى كل أنحاء البلاد ، ومات غيطشة تاركاً إيبارية على فوهة بركان : فقد اختار الحزب المعارض لأولاد غيطشة ،

---

(١) Guichot, op. cit. p. 278. ولعله رخشندش الذى ورد ذكره فى كتاب نفح الطيب بأنه « كان من صميم أعاظمهم (أى أعاظم قومه) وخيرٍ من تنصر من ملوكهم ، وأجمعوا على أنه لم يكن فيهم أعدل منه حكماً ولا أرشد رأياً ولا أحسن سيرة ولا أجود تدبيراً ، فكان الذى أصل النصرانية فى مملكته ، ومضى أهلها على سنته إلى اليوم » . انظر المقرى : نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ ج ١ ص ١٣٥ . ويبدو أن ابن عذارى خلط بين شخصية هذا الملك وبين شخصية أخى الملك غيطشة واسمه Rechesindo الذى كان وصياً على وقلة Achila ابن غيطشة ، فقد جعل ابن عذارى من رخشندش هذا آخر ملوك القوط فى الأندلس ، وذكر أن لذريق وثب عليه وقتله ، كما ذكر فى نفس الوقت أنه لم يكن فى النصرانية أحكم منه ولا أحسن إصابة لسنتهم . (ابن عذارى ج ٢ ط . بيروت ١٩٥٠) والواقع أن اسمى الشخصيتين متشابهان كل الشبه بحيث يصبح من السهل الخلط بينهما . وإذا بحثنا الموضوع وجدنا أن لذريق قتل بالفعل الوصى على وقلة وكان اسمه Rechesindo ولكن هذا الوصى لم يكن ملكاً ، والملك المشار إليه إذن شخصية أخرى ، وهو الذى سميناه رسسقنت Recceswinto وهو اسم مقارب فى النطق لاسم الوصى ، ثم إنه هو بالفعل الملك الذى سن القانون الخاص بإزالة التفرقة العنصرية بين أفراد شعبه ونشر العدل فى البلاد .

(٢) يسميه ابن القوطية « رمله Romulo » وصوابه وقلة .

(٣) Saavedra, op. cit. p. 27. — Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 7.

(٤) ذكر صاحب أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس أن غيطشة كان له ولدان هما أبه وششبرت (ص ٥) ، والحقيقة أن من ذكرهم ليسا إلا اثنين من إخوته الثلاثة ، أما أولاده فكانوا ثلاثة أيضاً ذكرهم ابن القوطية القرطبى بقوله : « إن آخر ملوك القوط بالأندلس ، غيطشة ، توفى عن ثلاثة أولاد ، أكبرهم المند ، ثم رملة ، ثم ارطباس وكانوا صغاراً عند وفاة أبيهم » انظر ابن القوطية القرطبى ، تاريخ افتتاح الأندلس ، =

لذريق Rodrigo ، دوق باطقة وحاكمها بقرطبة[١] ملكاً على البلاد . وأثار اغتصاب لذريق (أو رذريق) للعرش نقمة أنصار غيطشة وأبنائه ، فهبوا ضد هذا المغتصب المتسور ، الذى انتزع الملك من البيت الشرعى لنفسه ، وبدأت حركة استقلالية فى أطراف البلاد ، ظلت مستمرة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس ، واشتعلت نيران الثورات فى طليطلة وغيرها ، وتعذر على وقلة Achila أن يتوجه إلى العاصمة بعد وفاة أبيه ، واضطرت أمه التى أرادت أن تضبط عليه ملك أبيه إلى الفرار هى وأخويه أرطباس Artavasdes والمند Olmundo ، وعمه أبه Oppa أسقف إشبيلية ، والتجأ الجميع إلى جليقية[٢] . وحاول وقلة أن يسترد عرشه ، فأعد جيشاً بقيادة عمه ووصيه رخشندش ، فأسرع لذريق بالسير على رأس جيش كبير لملاقاة رخشندش والقضاء عليه ، وهزمه فى واقعة كبرى قتل فيها الوصى وتفرق أتباعه[٣] .

ويغلب على الظن أن وقلة فر إلى إفريقية بعد ذلك ، وأقام عند يليان حاكم

=نشره Julian Ribera بمدريد سنة ١٩٢٦ ص ٢ – انظر أيضاً المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٠ .

(١) Aguado Bleye, op. cit. p. 355. ذكر ابن حيان فى المقتبس ، أن لذريق « نال الملك من طريق الغصب والتسور عند ما مات غيطشة ، الملك الذى كان قبله ، وكان أثيراً لديه مكيناً ، فاستصغر أولاده لمكانه ، واستمال طائفة من الرجال مالوا إليه ، فانتزع الملك من أولاد غيطشة واستبقاهم ، فكانوا هم الذين دبروا عليه – فيما ذكر – عند ما لقى رجال العرب المقتحمين عليه بالأندلس من تلقاء بحر الزقاق ، وعليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، طاعة منهم فى أن يودى ويخلص إليهم ملك أبيهم . » انظر المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٣ .

وما ذكره ابن حيان صحيح ، لأن الفاتحين العرب منحوا أبناء غيطشة الثلاثة إقطاعات ضخمة فى الأندلس بلغت ثلاثة آلاف ضيعة سنورد ذكرها عما قليل . وذكر المقرى نصاً نقله عن الكتاب الخزائنى جاء فيه : « هلك غيطشة ملك الأندلس ، وترك أولاداً لم يرضهم أهلها للملك ، فاضطرب حبل أهل الأندلس ثم تراضوا بعلج من كبارهم يقال له لذريق مجرب ، شجاع ، بطل ، ليس من أهل الملك إلا أنه من قوادهم فولوه أمرهم . . . » المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) Lévi - Provençal, Histoire, op. cit. t. I, p. 7.

(٣) يشير ابن عذارى إلى هذه الواقعة بقوله : « وقالوا إن لذريق الذى دخلت عليه العرب والبربر وثب على رخشندش هذا وقتله ، وغلب على ملك الأندلس ، ودانت له طليطلة . وفى كتب العجم أن رذريق هذا لم يكن من بيت المملكة وإنما كان زعيما ، وكان من عمال الملك بقرطبة ، وقتل رخشندش . . . » . انظر البيان المغرب ج ٢ ص ٣ وما يليها .

سبتة[١] ، وكان ما يزال على ولائه للملك غيطشة وأولاده ، بينما استبقى لذريق ولدى غيطشة الآخرين ، وهما أرطباس والمند[٢] إلى جواره حتى يستوثق من إخلاصهما له ، ويقضى بذلك على الثورات المناهضة لحكومته والموالية لبيت غيطشة . وساءت حال البلاد فى عهد لذريق ، إذ أرهق شعبه بالضرائب الفادحة لحاجته إلى المال لمواجهة أعدائه ، ويبدو أنه اعتدى على ذخائر الكنائس القوطية ونفائسها ، التى كانت محفوظة فى غرفتين مغلقتين بكنيستى سان بدرو وسان بابلو بطليطلة ، وكانتا مجاورتين لقصر الملك وامبا ، ونصحه القساوسة ورجال البلاط بعدم الإقدام على ذلك ، فلم يصغ لنصحهم ، ومن هنا جاءت الأسطورة التى رواها مؤرخو العرب ، وهى أسطورة بيت الحكمة[٣] .

* * *

(١) Saavedra, op. cit. p. 54.
يستند سافدرا إلى نص من كتاب عيسى بن محمد ، ورد فى البيان لابن عذارى جاء فيه « إن طارقاً كان والياً لموسى على طنجة ، وكان يوماً جالساً ، إذ نظر إلى مراكب قد طلعت فى البحر ، فلما أرست خرجوا إليها ، فنزعوا أرجلها ، وأنزلوا أهلها . فقالوا : إليكم جئنا عامدين ، وعظيمهم معهم يقال له يليان . فقال طارق : ماذا جاء بك . فقال له : إن أبى مات ، فوثب على مملكته وملكتنا بطريق يقال له لذريق ، فأهاننى وأذلنى ، وبلغنى أمركم ، فجئت إليكم أدعوكم إلى الأندلس وأكون دليلا لكم . » (انظر البيان المغرب ج ٢ ص ٩) ويؤكد سافدرا أن يليان المذكور لم يكن حاكماً على الجزيرة الخضراء كما زعم عريب بن سعد والواقدى ، ويرى أن وقلة هو الذى قدم فى صحبة يليان حاكم سبتة ، وبعض أنصاره من القوط .

(٢) هما اللذان ولاهما لذريق على ميمنة الجيش وميسرته عند لقائه للعرب فى موقعة وادى لكة ، وليسا ششبرت وأبه اللذين ذكرهما صاحب أخبار مجموعة (ص ٤) والحميرى (ص ١٠) على أنهما ولدا غيطشة .

(٣) Saavedra, op. cit. p. 40 — Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 7.
وخلاصة هذه القصة أنه كان بطليطلة ، دار ملك القوط ، بيت مغلق يحرسه قوم من ثقات القوط ، وكانت العادة أنه إذا تولى من القوط ملك ، زاد على البيت قفلا ، فلما تولى لذريق عزم على فتح الباب والاطلاع على ما بداخل هذا البيت ، فأعظم ذلك أكابرهم ، وتضرعوا إليه أن يكف عن ذلك ، فأبى وظن أنه بيت مال ، ففض الأقفال عنه ، ودخله ، فأصابه فارغاً لا شىء فيه إلا المائدة التى كانت تعرف بمائدة سليمان ، وتابوت عليه قفل . فأمر بفتحه ، فألفاه فارغاً ، ليس فيه إلا شقة مدرجة ، قد صورت فيها صور العرب على الخيول ، وعليهم العمائم ، متقلدى السيوف ، متنكبى القسى ، رافعى الرايات على الرماح ، وفى أعلاها كتابة بالعجمية ، فقرئت ، فإذا هى : إذا كسرت هذه الأقفال من هذا البيت ، وفتح التابوت ، فظهر ما فيه من هذه الصور ، فإن الأمة المصورة فيه تغلب على الأندلس وتملكها . (انظر تفاصيل هذه =

جـ — المجتمع الإسبانى فى ظل القوط :

كان عصر القوط عصراً مشحوناً بالفوضى والاضطرابات ، وأصاب المدن اضمحلال عام نتيجة لاضطراب أمور الدولة ، وعدم الإحساس بالأمن ، وأخذت بعض مدن الأندلس الكبرى تضمحل وتتحول إلى مدن صغيرة ، بل إن بعضها تحول إلى قرى وحصون ، واختفى بعضها الآخر اختفاء تاما ، ويرجع السبب فى شمول البلاد بالفوضى والاضطراب إلى فساد المجتمع الإسبانى وقيامه على الطبقات المتحاجزة فيما بينها ، والواقع أن القوط عند ما فتحوا إسبانيا لم يغيروا كثيراً من نظم المجتمع التى كانت سائدة فى العصر الرومانى ، فظلت طبقة النبلاء القديمة على ما كانت عليه من غنى ونفوذ ، وظلت طبقة التجار والزراع وصغار الملاك تعيش تحت رحمة الأغنياء(١) ، واستمر العبيد والأرقاء يفلحون الأرض للأغنياء ويدخلون فى مجموع ما يقتنيه هؤلاء من ممتلكات ، وعلى هذا النحو يمكننا أن نميز فى إسبانيا القوطية بين طبقتين طبقة الأحرار وطبقة العبيد ، وهما طبقتان متحاجزتان ، لا يمكن الربط بينهما حتى عن طريق الزواج(٢) .

وكانت إسبانيا القوطية تنقسم إلى عدة أقاليم Provinciae ، يحكم كل إقليم منها دوق Dux ، وكل إقليم يشتمل على عدد من المدن Civitates ، يحكم كل مدينة منها قومس Comes (كونت) . واستعان هؤلاء الحكام بطائفة من الموظفين يقومون بكل ما تحتاج إليه الحكومة الإقطاعية فى الشؤون المالية والقضائية والحربية(٣) . وكان الملك يستبد بحكمه ، يفعل فى دولته ما يشاء ، فيصدر القوانين ، وينفذها كما يريد ، على الرغم من وجود مجلس للنبلاء ، وأقدم مجموعة قوانين أصدرها

=القصة فى المصادر الآتية : ابن القوطية القرطبى ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧ — نص عبد الملك بن حبيب ، نشره الدكتور محمود على مكى فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الخامس ١٩٥٧ ، ص ٢٢٥ — ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤ — ابن عبد المنعم الحميرى ، وصف جزيرة الأندلس ص ٦ ، ٧ ، ١٣٠ ، ١٧١ — المقرى ، كتاب نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ .)

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) Julian Ma. Rubio, Histoira de Espana, t. II, p. 15 — Aguado Bleye, op. cit. p. 361

(٣) Aguado Bleye, Ibid. ، حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٢٢ .

ملوك القوط هي مجموعة إيوريك المسماة Codex Eurici ، وطبقها على القوط ، فى حين ترك الرومان يطبقون قوانينهم الخاصة بهم ، وأضاف خلفاؤه إلى هذه القوانين مجموعات قانونية أخرى[1] .

وكان مجلس النبلاء يقوم باختيار الملك من بين طبقة النبلاء ، إذ كان النبلاء لا يعترفون بنظام وراثة العرش أو الوصاية به لشخص معين ، وكانوا يشترطون فى اختيار الملك أن يكون قائداً شجاعاً[2] . وعيب هذا النظام أن الظافر بالعرش لابد أن يتولاه بحد سيفه . وقد كان لذلك نتائج سيئة ، إذ أثار كثيراً من المشاكل والقلاقل بسبب الدسائس التى كان يحيكها النبلاء طمعاً فى العرش . لذلك كان انتقال العرش من ملك إلى ملك يقترن فى كثير من الأحيان بمؤامرات دامية[3] ، ويتكون مجلس طليطلة من النبلاء والأساقفة ، ولا يجتمع المجلس إلا إذا دعاه الملك للانعقاد ، وكانت قرارات المجلس تؤلف القانون المدنى لدولة القوط .

وإذ تحدثنا عن الطبقات التى يتألف منها المجتمع القوطى نجد أنها كانت تقسم المجتمع إلى وحدات غير متماسكة بسبب تحاجزها ، وأهم هذه الطبقات كما سبق أن ذكرت طبقة النبلاء المكونة من الارستقراطية القوطية ، وطبقة رجال الدين . فطبقة النبلاء كانت تضم سلالة القوط الفاتحين ، مثل أسرة البلتوس Balthos أو الشجعان ، ويسمون السادة Seniores ، هذا بالإضافة إلى طبقة النبلاء الرومان .

---

(١) مثل المجموعة المنسوبة إلى الملك ألاريك المعروفة باسم Breviarum Alaricianum ، وقد أصدرها التوفيق بين الرعايا القوط والرومان ، حتى يؤلف بذلك جبهة قوية أمام خطر الفرنجة (انظر Aguado Bleye, op. cit. P. 368 ، إبراهيم طرخان ، دولة القوط الغربيين ص ١٤٤) . ثم أصدر ليوفيخلد مجموعة قانونية مكملة للمجموعة السابقة ، وأهم القوانين التى أصدرها ملوك القوط المجموعة الكبرى التى أشرنا إليها من قبل والمعروفة باسم Liber Judiciorum ، التى أصدرها شندسفنت ٦٤٢ – ٦٥٣ (الذى سميناه رخشندش) وبها تم انصهار التشريعين القوطى والرومانى . وتألف من مجموع القوانين التى أصدرها ملوك القوط اثنى عشر مجلداً ، أمر فرناندو الثالث أو القديس بترجمتها تحت عنوان Fuero Juzgo

(٢) إبراهيم طرخان ، دولة القوط الغربيين ص ١٣٤ .

(٣) Aguado Bleye, op. cit. p. 367.

نلاحظ أن نظام المماليك فى مصر يشبه إلى حد ما هذا النظام القوطى من حيث عدم ارتباطهم بالنظام الوراثى والوصول إلى كرسى السلطنة عن طريق التسور والتغلب ، وكثيراً ما كانت شوارع القاهرة ميادينا لمعاركهم وحروبهم عند ما يستضعفون سلطاناً أو عند ما تقع المنافسة بين أميرين من عظماء أمرائهم طمعاً فى سلطنة ، وقد أحاط هذا كله عصر المماليك بسلسلة طويلة من الفوضى .

وبينما كانت الأرستقراطية الرومانية تعتبر ارستقراطية بلوتقراطية وبيروقراطية ، فإن الأرستقراطية القوطية كانت تنبع من أصول حربية ، وتقوم على الشخصيات البارزة ، وتتقوى هذه الأرستقراطية بالإقطاعيات الكبرى[1] . أما رجال الكنيسة فقد أصبح لهم شأن كبير بعد أن تكثلك القوط ، ونبذوا الأريوسية ، وكونوا طبقة كبيرة غنية وقوية . كبيرة لتغلغلها فى المجتمع الإسبانى ، وغنية لأنها كانت تملك كثيراً من الأراضى المعفاة من الضرائب ، كما كان للكنائس والأديرة أوقافاً وحبوساً تستغلها ، وقوية لأنها كانت تسيطر روحياً على نفوس الناس ، فكثرة عددية ، وثروة مادية ، وسلطان روحى على الشعب ، كل ذلك كان كفيلا بأن يؤلف قوة هائلة لا تتمتع بها أى طبقة أخرى . وكان رجال الكنيسة لا يعنون إلا بما يمس مصالحهم الذاتية ، فلم يعملوا شيئاً لتحسين حال الناس ، ولم يحاول أحدهم الاعتراض على تصرفات الأغنياء من استبداد بالضعفاء ، والاستكثار من العبيد والأرقاء[2] . وقد تألف من كبار القساوسة الكاثوليك مجلس كانوا يعقدونه فى طليطلة للنظر بادئ الأمر فى أمور الكنيسة ، ثم تحول هذا المجلس إلى مجلس سياسى دينى ، وانتهى به الأمر أن أصبح مجلساً أعلى للدولة بعد أن انضم إليه مجلس النبلاء .

ونتقل بعد ذلك إلى طبقة التجار والزراع وصغار الملاك ، وهى الطبقة المعروفة بطبقة الأحرار غير المميزين ، فقد اغتصب القوط من الزراع الأحرار أراضيهم واستقروا فيها ، وأجبروهم على زراعتها ، فلجأ بعض متوسطى الزراع إلى الملاك الأغنياء يلتمسون حمايتهم نظير تنازلهم لهم عن بعض أراضيهم ، وكان على هؤلاء أن يدفعوا ضرائب باهظة ، ويقوموا بحفر الترع ، وإنشاء القناطر ، وتعبيد الطرق . وهكذا كان يقع على عاتقهم عبء كبير من الالتزامات[3] .

---

(١) Pablo Alvarez Rubiano, organizacion y cultura de la Espana Visigoda, en "Historia de España", t. II, p. 51.

(٢) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٢٦ .

(٣) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, t. I, p. 265 et la suivante, Aguado Bleye, op. cit. p. 362.

أما طبقة العبيد فقد كان عددهم كبيراً للغاية . إذ كان الأغنياء والنبلاء يقتنون منهم الآلاف ، ويسيئون معاملتهم كما لو كانوا جزءاً من ممتلكاتهم ، ولم يكن للعبيد حقوق يمكنهم المطالبة بها ، وقد يئس هؤلاء العبيد من حالتهم ، وأخذوا يترقبون الفرصة المواتية للخروج مما هم فيه من ضيق [1] .

ونختم هذا الموضوع بطبقة اليهود ، وهى طبقة كبيرة من حيث العدد ، وكان اليهود يسيطرون فى إسبانيا القوطية على الحياة الاقتصادية ، وقد أخذ ملوك القوط سواء فى عهدهم الآريوسى أو الكاثوليكى يضطهدون هذه الطبقة [2] ، وأيدهم فى ذلك رجال الكنيسة من المتعصبين للكاثوليكية . واتهموا اليهود بتآمرهم على سلامة الدولة ، فزاد ذلك من اضطهاد القوط لهم ، مما دعا هؤلاء إلى التفكير فى التخلص من نير القوط .

---

(١) Dozy, Ibid. p. 265.

(٢) أصدر ملوك القوط كثيراً من التشريعات ضد اليهود منذ أيام ألاريك الثانى ، فقد حرم عليهم هذا الملك الزواج من المسيحيات ، أو اقتناء عبيد مسيحيين ، وجعل لهم قوانين خاصة بهم ، وفى عهد ريكاريد ، قرر مجلس طليطلة التعسف مع اليهود ، وبالغ ششبرت فى سياسة الاضطهاد ، فأمر جميع اليهود فى إسبانيا باعتناق المسيحية خلال عام واحد .

٢

حملة طارق بن زياد

١ـ مقدمات الفتح :

بعد أن اغتصب لذريق عرش الأندلس من وقلة Achila ، وقتل رخشندش أمعن فى مطاردة بيت غيطشة ، وتتبع أنصاره بالأذى ، ففروا من إسبانيا ، والتمسوا سبل النجاة إلى أقصى الشمال ، أو إلى سبتة التى كان يقوم يليان النصرانى بولايتها ، وبمساعدته نجحوا فى الاتصال بالعرب ، وحثوهم على فتح الأندلس[1] . وتجمع

---

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٥٥ . يعتمد الدكتور حسين مؤنس على رواية المؤرخ الإسبانى سبستيان الشلمنتى ، ولكنه لا يوافق على الرأى القائل بأن أبناء غيطشة اتصلوا بالعرب قبل الفتح ، ويعتقد أنهم لم يحرضوا العرب على فتح الأندلس (انظر المرجع السابق ص٥٦) . ولكن الدكتور مؤنس يناقض نفسه ، إذ يعود إلى ترجيح اتصال أبناء غيطشة بالعرب فى بلاد المغرب (انظر المرجع نفسه ص ٦٤) . أما نحن فنرجح – بعد دراسة هذا الموضوع – اتصال أبناء غيطشة أو أنصاره على الأقل ، بالعرب فى بلاد المغرب ، وذلك قبل عبور جيش طارق إلى الأندلس بفترة طويلة ، إذ أنهم لم يخذلوا لذريق فى الموقعة الفاصلة إلا بعد اتفاق سابق مع العرب ، ينحازون بمقتضاه إلى جانب جيش المسلمين . ويبدو أن هذا الاتفاق قد تم بعد اتصال يليان بطارق بن زياد فى طنجة . ونرجح أن يليان ، ترك بعض رهائنه عند طارق ، ومنهم أبنتيه (انظر ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ص ٩٠) ، وأن موسى بعث يستشير الخليفة الوليد فى الأمر بعد أن قابل يليان ، فأشار عليه الخليفة بأن يخوضها أولا بالسرايا ، ففعل موسى ، وكانت حملة طريف دليلا صريحاً على صدق نيات يليان وحلفائه ، ولم يتردد موسى وطارق فى أن يثقا به . ولولا أن طارق بن زياد كان واثقاً من انضمام أنصار غيطشة إلى جيشه ، وخذلانهم للملك لذريق ، لما كان موسى قد وافق على عبوره إلى الأندلس فى سبعة آلاف من المسلمين ، ليقابل جيوش لذريق الكثيفة التى بالغ المؤرخون فى ذكر عددها ؛ وتوكيداً للاتفاق المبرم بين طارق وبين يليان وأنصار غيطشة ، أرسل أبناء غيطشة إلى طارق قبل الموقعة « يعلمونه أن لذريق كان تابعاً وخادماً لأبيهم ، فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه ، وأنهم غير تاركى حقهم لديه ، ويسألونه الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء فيمن يتبعهم ، وأن يسلم إليهم إذا ظفر ، ضياع والدهم بالأندلس كلها ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة ، وهى التى سميت بعد ذلك صفايا الملوك ، فأجابهم إلى ذلك ، وعاقدهم عليه » ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣ – المقرى نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٢ .

المصادر العربية والقشتالية ، على أن أولاد غيطشة وأقرباءه تآمروا على لذريق ، وانضموا للعرب فى الموقعة الحاسمة[١] . ويبدو أن يليان حاكم سبتة كان من أنصار الملك ، وأنه كان يدين له بالطاعة والولاء ، منذ أن خرج يليان على بيزنطة[٢] واستقل بإقليم موريطانية الطنجية . فلما انتزع لذريق عرش إسبانيا من أصحابه الشرعيين ، واتصل به وقلة وأنصاره ، عمد إلى استرجاع ملكهم مستعينا فى ذلك بالعرب ، فاتصل بطارق بن زياد ، حاكم طنجة ، وكان ذلك الخطوة الأولى فى الفتح ، ويذكر المؤرخ الإسبانى إدواردو سافدرا ، أن يليان كان يمت بصلة القرابة والنسب إلى أسرة غيطشة[٣] .

ويبدو أن أقرباء غيطشة اتصلوا سرًّا بيليان ، والتمسوا منه أن يتصل بالعرب ، ويطلب منهم فتح الأندلس ، اعتقاداً منهم بأن العرب الطارقون للأندلس ، لا حاجة لهم فى استيطانه بعد فتحه ، وأن مرادهم ملأ أيديهم من الغنائم ثم يخرجوا عنها لأصحابها[٤] . وفى أثناء ذلك زعموا أن حادثاً وقع وقتئذ عجل بالفتح ، وكان عاملا فى إقدام يليان على طلب العون من العرب فى حماس غريب ، وعلى تحريضهم على فتح الأندلس . فلقد كانت ليليان ابنة على حظ كبير من الجمال اسمها فلورندا ، وكان قد بعثها — شأنها فى ذلك شأن غيرها من بنات الأمراء والنبلاء — إلى بلاد الملك بطليطلة للتأدب بآداب الملوك ، فوقعت موقعاً حسناً فى عينى الملك ، ويقال أنه استكرهها على نفسها ، واحتالت الفتاة على إبلاغ أبيها سرًّا بما أصابها ، فغضب يليان ، وعزم على الانتقام ، ورأى ألا عقوبة له إلا إذا أدخل عليه

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٦ — ٨ — ابن القوطية ، ص ٣ — الحميرى ، ص ١٠ — المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤١ . يقول المقرى : « وكان لذريق ولى ميمنته أحد ابنى غيطشة وميسرته الآخر ، فكانا رأس الذين أداروا عليه الهزيمة ، وأداهما إلى ذلك طمع رجوع ملك والدهما إليهما . وقيل : لما تقابل الجيشان أجمع أولاد غيطشة على الغدر بلذريق » .

(٢) ورد فى نفح الطيب نقلا عن كتاب الحزائنى أن يليان صاحب سبتة ، « قاتله موسى فألفاه فى نجدة وقوة وعدة ، فلم يطقه ، فرجع إلى مدينة طنجة فأقام بمن معه ، وأخذ فى الغارات على ما حولهم ، والتضييق عليهم ، والسفن تختلف إليهم بالميرة والأمداد من الأندلس من قبل ملكها غيطشة » (ج ١ ص ٢٣٤ ، أخبار مجموعة ص ٤) .

(٣) E. Saavedra, op. cit. p. 53.

(٤) أخبار مجموعة ص ٧ — نفح الطيب ج ١ ص ٢٤١ .

العرب ، فبعث إلى طارق قائلاً : « إنى مدخلك الأندلس »(١) . وقد تكون هذه الرواية صحيحة ، ولكننا لا نرجح صحتها ، وأغلب الظن أنها مختلقة من ابتكار القصاص والأخباريين ، بدليل أن يليان لم يكن على علاقة طيبة بلذريق حتى يبعث إليه بابنته ، وبدليل أن كلمة Cava التى ينسبونها إلى ابنة يليان تتضمن فى الإسبانية معان أخرى غير هذا المعنى الذى زعم مؤرخو إسبانيا أنها ترجمة للكلمة العربية « قحباء » ، وحتى إذا افترضنا أن هذه التسمية صحيحة وتنطبق على الكلمة العربية ، فإنها مع ذلك لا تصدق على ابنة يليان التى كانت ضحية للذريق الذى اعتدى عليها دون استجابة منها إليه ، وأياً كانت أسباب موجدة يليان على لذريق ، فالذى لاشك فيه أن يليان هو الذى سعى عند طارق لفتح

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ص ٩٠ . وذكر صاحب أخبار مجموعة أنه قال : « ودين المسيح لأزيلن ملكه ولأحفرن تحت قدميه » (راجع أخبار مجموعة ص ٥ — المقرى ، نفح الطيب ص ٢٣٦) وأضاف المقرى نقلا عن كتاب الخزائنى أنه ركب بحر الزقاق من سبته فى أصعب الأوقات فى سبتمبر (ديسمبر) قلب الشتاء ، فصار بالأندلس ، وأقبل إلى الملك فى قصره بطليطلة ، فأنكر عليه قدومه فى مثل هذا الوقت وسأله عن سبب ذلك ، فتعلل بمرض زوجته وشدة شوقها إلى رؤية ابنتها فلورندا وتلهفها على لقائها قبل أن تموت ، فاستجاب لذريق إلى رغبة يليان ، ورد إليه ابنته بعد أن توثق منها بالكتمان عليه ، وأجزل العطاء على يليان . وقيل إنه لما ودعه قال له لذريق : « إذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشذانقات التى لم تزل تطرفنا بها ، فإنها آثر جوارحنا لدينا » فقال له : «أيها الملك وحق المسيح ، لئن بقيت لأدخلن عليك شذانقات ما دخل عليك مثلها قط . » (المقرى ، ج ١ ص ٢٣٦) ، وكان يومىء بذلك إلى عزمه على إدخال العرب فى الأندلس . ونلاحظ أن اسم فلورندا المذكور لم يرد فى المدونات العربية أو المسيحية ، ولكنه ظهر مكانه اسم « القحباء la Cava » فى مدونة بدرو دى كورال Pedrodel Corral المسماة Cronica del Rey bon Rodrigo ، وترجع إلى منتصف القرن الخامس عشر ، ففيها ينسب المؤرخ اسم la Cava إلى ابنة يليان . وكان ميجل دى لونا أول من ناقش الترجمة العربية لكلمة Cava سنة ١٥٨٩ فى بحثه Historia Verdadera del Rey D. Rodrigo ، وذكر فيه أن هذه الفتاة فلورندا ، أطلق عليها العرب اسم القحباء la Cava وتعنى المرأة السيئة . ومن ثم ورد اسم فلورندا فى عدد كبير من الروايات الإسبانية المتأخرة ، كما ورد فى أشعار الرومانسيرو ، وجاء فى بعض هذه الأشعار ، أن لذريق شاهد فلورندا تستحم يوماً فى وادى تاجه بطليطلة ، فأطلق على هذا الحمام منذ ذلك الحين اسم « حمام القحباء » Bano de la Cava . ويبدو أن المؤرخين الإسبان كانوا يحملون فى هذه التسمية على ابنة يليان لاعتقادهم الراسخ فى أنها السبب فى دخول العرب أرض إسبانيا . انظر

Saavedra, op. cit. p. 60 —Aguads Bleye, op. cit. p. 357 — Lévi-Provençal, Histoire, t. I,

وقد وردت قصة ابنة يليان فى المصادر العربية الآتية : ابن القوطية القرطبى ، ص ٨ — أخبار مجموعة ص ٥ — ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٩ وما يليها — ابن عبد المنعم الحميرى ، ص ٧ .

الأندلس ، وأنه ذلل للمسلمين كل الصعوبات ، وهو الذى ضمن للعرب انحياز أنصار غيطشة إليهم ، وهو ما حدث بالفعل عند افتتاح الأندلس ، فقد مالأ آل غيطشة العرب ، ودبروا الغدر بلذريق ، واتفقوا على خذله فى المعركة الحاسمة . ويدل على ذلك أن المسلمين كافأوهم برد جزء كبير من ضياع غيطشة إليهم[1].

وتجمع المصادر العربية للفتح على أن يليان توجه بنفسه للقاء طارق ، وكان طارق يتوقع كل شىء ما عدا قدوم يليان بنفسه إليه ، يعرض عليه أن يساعده فى دخول الأندلس ، ولم يتردد طارق بن زياد فى الاتصال فوراً بموسى بن نصير ، وكان مقيما فى القيروان ، فأبلغه ما كان من أمر يليان ، ورحب موسى بما عرضه عليه يليان[2] ، فقد كان يطمع فى شرف الجهاد والفتح . وبرغم تلهفه على افتتاح الأندلس ، لم يشأ أن يقحم المسلمين فى مغامرة لا يعلم نتائجها إلا الله ، فلم يكن قد وثق بعد بيليان ، ثم إنه كان لا يمكن أن يتصرف فى هذا المشروع الخطير وحده دون أن يستأذن الخليفة أو يستشيره فيما هو مقبل عليه . فكتب من فوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بفتوحه فى المغرب ، وضمن رسالته ما ذكره يليان من تذليل الأمور وتهوينها على المسلمين ، وتردد الوليد ، وخاف على المسلمين مغبة مخاطرة كهذه فى أراض مجهولة ، يفصل بينها وبين أراضى المسلمين بحر الزقاق ، فكتب إلى موسى يأمره بأن يخوضها بالسرايا حتى يختبرها ، وأمره بألا يغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال[3] . وعمل موسى بنصيحة الخليفة ، واختار

---

(١) يقول ابن القوطية فى كتابه تاريخ افتتاح الأندلس : «لما تقابلت الفتيان ، أجمع ألمند وأخواه على الغدر بلذريق ، وأوصوا فى ليلتهم تلك على طارق يعلمونه أن لوذريقا إنما كان كلباً من كلاب أبيهم وأتباعه ، ويسلونه الأمان على أن يخرجوا إليه بالصباح وأن يمضى لهم ضياع أبيهم بالأندلس ، وكانت ثلاث آلاف ضيعة ، سميت بعد ذلك صفايا الملوك .» (ص ٤) . ويذكر ابن القوطية فى موضع آخر أن المند بن غيطشة أنجب ابنة له هى سارة القوطية وولدين أصغرين أحدهما المطران بإشبيلية ، والثانى عباس المتوفى بجليقية ، وتزوجت سارة من عيسى بن مزاحم وهو جد محمد بن القوطية القرطبى المؤرخ المذكور ، أما ارطباس فقد أنجب ولدا اسمه أبو سعيد القومس ، ومن نسل وقلة حفص بن البر قاضى العجم بطليطلة . (انظر نفس المرجع ص ٤ – ٧) .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٩٠ – ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨ – أخبار مجموعة ص ٥ – ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٦ وما يليها – الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ص ٨ – نفح الطيب ج ١ ص ١٦ ، ٢١٧ ، ٢٣١ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٦ – الحميرى ص ٨ – نفح الطيب ج ١ ص ٢٣١

أحد كبار قواده اسمه طريف بن مالك المعافرى[1] ، ويكنى أبا زرعة . ويبدو أن طريف هذا كان عربى الأصل[2] ، وأنه كان قائداً بارعاً فى فنون الحرب والقتال ، فجعله موسى على رأس سرية مؤلفة من ٥٠٠ مقاتل ، منهم أربعمائة من المشاة ، ومائة من الفرسان ، وأعد لهم يليان سفنه الأربعة لعبور الزقاق ، ونزل طريف بفرقته فى جزيرة تعرف باسم لاس پالوماس Isla de Las Palomas[3]. وتقع على مقربة من مدينة طريف الحالية ، التى سميت باسمه لنزوله فيها ، وذلك فى رمضان سنة ٩١ هـ (يوليو سنة ٧١٠ م) . ومن هذا الموضع شن طريف ورجاله سلسلة من الغارات على الساحل الجنوبى للأندلس ، المقابل لساحل سبتة ، فيما بين طريف والجزيرة الخضراء . وعاد طريف بفرقته سالماً يجر وراءه الغنائم الكثيرة . فأنس موسى إلى يليان ، ووثق فيه ، واطمأنت نفسه إليه ، واشتد عزمه على الفتح ، وتلهفه على السير فى هذه المغامرة ، ثم استدعى مولاه طارقاً[4] ، وأمّره على سبعة آلاف رجل جلهم بربر[5].

ب — انتصار طارق فى موقعة وادى لكة :

اختار موسى على الحملة التى أعدها لفتح الأندلس قائداً من قواده المشهورين

---

(١) يسميه الحميرى : طريف بن ملوك المعافرى ، ويسميه الرازى : طريف بن مالك المعافرى ، ويسميه بن خلدون طريف بن مالك النخعى .

(٢) وإن كان مؤرخو العرب يعدونه من البربر فالحميرى (ص ٨) يقول « فبعث موسى عند ذلك رجلا من مواليه من البربر اسمه طريف بن ملوك المعافرى ويكنى أبا زرعة » كذلك يقول المقرى نقلا عن الحجارى (ج ١ ص ٢١٤) ونقلا عن الكتاب الخزائنى (ص ٢٣٧) ، وصاحب الامم كما نرى ينتسب إلى معافر أو نخع اليمنية ، ثم إنه من المستبعد أن يبعث موسى الطليعة الكشفية الأولى تحت قيادة رجل غير عربى .

(٣) Saavedra, op. cit. p. 64.

(٤) فيما يختص بترجمة طارق بن زياد ، ارجع إلى مقالى عنه فى دائرة معارف الشعب العدد ٦٧ ص ٢٣٧ — ٢٤٣ .

(٥) ذكر صاحب أخبار مجموعة (نقلا عن ابن حيان) أن موسى بعثه فى سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر والموالى وليس فيهم عرب إلا قليل (انظر أخبار مجموعة ص ٦ — المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٨) . وذكر المقرى نقلا عن ابن بشكوال أن طارق دخل الأندلس فى ١٢ ألفاً غير اثنى عشر رجلا من البربر ، ولم يكن فيهم من العرب إلا عدد يسير (المقرى ، ج ١ ص ٢١٦) . أما ابن خلدون فيحدد عدد الجيش بعشرة آلاف من البربر و ٣٠٠ من العرب ، ويغلب على الظن أن جيش طارق عند عبوره كانت عدته زهاء سبعة آلاف رجل ، وأن موسى أمد طارقاً بعد ذلك بخمسة آلاف آخرين قبيل المعركة الحاسمة ، فاكتمل جيشه أثنى عشر ألفاً (انظر المقرى ، ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٤١) .

بحسن القيادة والبلاء ، هو مولاه طارق بن زياد(١) ، وقد اختلف مؤرخو العرب في أصله ، فذهب بعضهم إلى أنه كان فارسياً همذانياً(٢) ، وذهب فريق آخر إلى أنه كان بربرياً من نفزة(٣) وذهب فريق ثالث إلى أنه كان عربياً من صدف(٤) وأصح الآراء لدينا الرأى القائل بأنه كان بربرياً ، إذ ذكروا أنه كان طويل القامة ضخم الهامة ، أشقر اللون(٥) ، وهي صفات تتوفر في شعب البربر ، ثم إنه كان من المنطقي أن يتولى بربري قيادة جيش كله من البربر ، ويبدو أن موسى كان يثق بطارق كل الثقة بدليل أنه آثره في قيادة هذه الحملة الكبرى على أعظم قواده العرب أمثال طريف بن مالك ، وعياش بن أخيل ، وزرعة بن أبي مدرك ، والمغيرة بن أبي بردة العذرى ، ومن الغريب أن يكون الجيش الذى أعده للحملة مكوناً كله من البربر باستثناء ثلثمائة من العرب ، وهذه هي المرة الأولى في تاريخ الفتوح العربية يتولى فيها جيش كامل من المغلوبين فتح قطر من الأقطار الكبرى كالأندلس ، ويدل هذا على أن بربر المغرب قد أسلموا ، وحسن إسلامهم ، وأصبحوا على هذا النحو يؤلفون القوة الكبرى التي اعتمد عليها موسى بن نصير في فتح الأندلس عسكرياً . ويبدو أن البربر كانوا أكثر معرفة من العرب ببلاد الأندلس ، فالمغرب والأندلس يؤلفان وحدة جغرافية وتاريخية في آن واحد ، وقديماً عبر هانيبال المجاز إلى إسبانيا مع جيوشه البربرية ، يضاف إلى هذا أن البربر كانوا أشدحماسة من العرب في سبيل الجهاد ونصرة الدين الإسلامي . وقد يكون موسى قد خاف على جيشه العربي من هذه المغامرة فآثر أن يجعل الطليعة الأولى من البربر . فلما استوثق من نجاح الفتح عبر المجاز بدوره على رأس جيش

---

(١) ذكر ابن عذارى نقلا عن صالح بن أبي صالح أنه طارق بن زياد بن عبد الله بن رفهو بن ورفجوم بن ينزغاسن بن ولهاى بن يطوفت بن نفزاو (ابن عذارى ج ٢ ص٧) . وذكر ابن عبد الحكم أنه طارق بن عمرو (فتوح إفريقية ص ٨٨) .

(٢) أخبار مجموعة ص ٦ — المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٨ .

(٣) ابن عذارى ، ص ٧ — الحميرى ، الروض المعطار ص ٩ — المقرى ج ١ ص ٢٣٨ .

(٤) أخبار مجموعة ص٢٦ . الحميرى ، الروض المعطار ص ٩ — المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٨ .

(٥) نص عبد الملك بن حبيب ، نشره الدكتور محمود على مكى بمجلة الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٥٧ ص ٢٢١ .

كثيف جله من العرب ، وكان جيش طارق يتألف من سبعة آلاف مقاتل منهم ما يقرب من ثلاثمائة من العرب على رأسهم رجال سيكون لهم شأن كبير فيما بعد ، منهم : عبد الملك بن أبي عامر المعافرى ، ومغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك ، وعلقمة اللخمى . وأبحرت الحملة من ميناء طنجة فى ٥ رجب سنة ٩٢ هـ (إبريل ٧١١ م) فى السفن الأربعة التى كانت ملكاً ليليان ووضعها فى خدمة العرب[١] . ولا شك أن موسى استعان ببعض قطع من أسطوله الإسلامى الذى أنتجته دار الصناعة بتونس[٢] ، واختلفت السفن بالرجال والخيل بين شاطئى الزقاق تنقل الجنود « إلى جبل على شط البحر منيع »[٣] .

وذكر ابن عذارى أن يليان كان يحمل « أصحاب طارق فى مراكب التجار التى تختلف إلى الأندلس ، ولا يشعر أهل الإندلس بذلك ويظنون أن المراكب تختلف بالتجارة ، فحمل الناس فوجاً بعد فوج إلى الأندلس »[٤] ، وتجمع المسلمون عند جبل كالبى Calpe[٥] الذى عرف منذ ذلك الحين بجبل طارق أو جبل الفتح ، وكان نزول الحملة الإسلامية فى ذلك الوقت مناسباً للغاية ، إذ أن لذريق كان مشغولا إذ ذاك بإخماد ثورة قام بها البشكنس فى بنبلونه[٦] ، كما اتفق وصول جيش طارق فى الوقت الذى كان كثير من سكان الأندلس ساخطين على حكم لذريق الجائر ، فوقفوا موقفاً سلبيًّا من الغزو الإسلامى[٧] .

---

(١) أخبار مجموعة ص ٦ .

(٢) هى دار الصناعة التى أقامها حسان بن النعمان لصناعة السفن اللازمة لمدافعة الروم فى البر والبحر والإغارة على بلادهم ، واستخدم حسان بعض الأقباط المصريين فى بناء السفن (ارجع إلى البكرى ، المغرب ص ٣٨ ، ٣٩) . وبهذه السفن بعث موسى بن نصير قائده عياش بن أخيل إلى صقلية فغزاها . (ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ص ٤٢) . وقد نسب الأستاذ عبد الله عنان هذه الدار خطئاً إلى موسى ابن نصير (أنظر تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، القاهرة ١٩٤٧ ص ١١١) .

(٣) أخبار مجموعة ص ٧ .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٨ .

(٥) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 18.

(٦) أخبار مجموعة ص ٧ — المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٩ .

(٧) ذكر صاحب أخبار مجموعة أن الجيش القوطى كان ساخطاً على لذريق ، فقد كانت الأندلس قد جاعت سنة ثمان وثمانين ، وسنة تسع وثمانين وسنة تسعين « ووبئت حتى مات نصف أهلها أو أكثر » ارجع إلى أخبار مجموعة ص ٨ .

وما كادت تتوافى حشود المسلمين ، بعد أن تم نزولها أدنى الجبل ، حتى بادر طارق بإنشاء قاعدة لجيشه ، ومرسى يصل بينه وبين سبتة ، وأقام طارق حول الجبل المسمى باسمه سوراً سمي بسور العرب[١].

ثم بعث عبد الملك بن أبي عامر فى فرقة سارت بحذاء الساحل شمالا ، فاستولت على قرية حصينة تعرف بقرطاجنة الجزيرة[٢] Carteya ، وتقع جوفى خليج جبل طارق ، عند مصب نهير يسمى وادى البحر [٣] . ثم زحف طارق غرباً واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة ، وأقام قاعدة حربية فى موضع يقابل الجزيرة الخضراء ، وعليه أقيمت هذه المدينة فيما بعد[٤] .

وعهد طارق إلى يليان ومن معه من الجند بمهمة حراسة هذه القاعدة ، والدفاع عنها فى حالة قيام القوط بأى هجوم . وذكر بعض مؤرخى العرب أنه أحرق سفنه حتى ييأس المسلمون من العودة إلى المغرب ، فيقاتلوا أعداءهم قتال الموت[٥]

ولم يمض وقت طويل حتى اشتبك جيش طارق مع فرقة إسبانية بالقرب من الجزيرة الخضراء ، كان يقودها قائد قوطى يسميه ابن عذارى بنج[٦] ، وتسميه المصادر الإسبانية بنشو Bancho أو بنثيو Bencio[٧] ، واستطاع المسلمون أن يقضوا على هذه الفرقة قضاء تاماً ، ولم ينج منها سوى قائد قوطى يسميه الرازى بلياسن Beliasin ، ويسميه ساقدرا Wiliesindo [٨] . وذكر ابن حبيب أن تدمير

---

(١) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١٣ — المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢١٨ .

(٢) ابن القوطية ، ص ٩ — ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١٣ — وذكر ساقدرا أن هذا الموضع هو المعروف اليوم باسم برج قرطاجنة Torre Cartagena أو برج الروكاديو Rocadillo (Saavedra, op. cit., p. 65)

(٣) الحميرى ، ص ١٥١ — Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 19

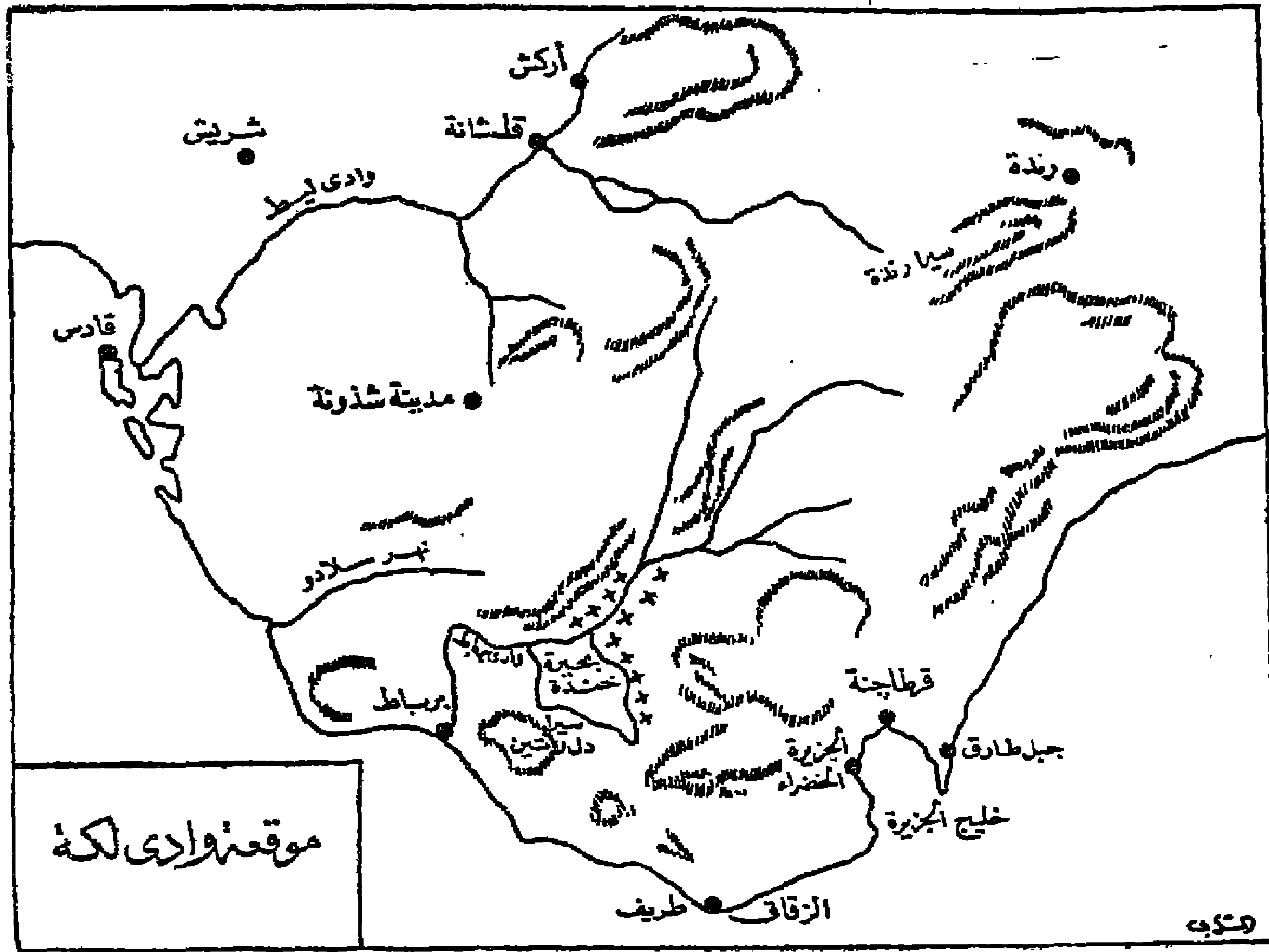
(٤) Lévi-Provençal, Ibid. . وذكر الحميرى أن مرسى الجزيرة أيسر المراسى للجواز ، وأقربها من بر العدوة ، ويحاذيه مرسى مدينة سبتة (ص ٧٤) .

(٥) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١١ .

(٦) الحميرى ، ص ٧٥ — المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٢ .

(٧) Saavedra, op. cit. p. 66. — حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٧٠ .

(٨) Ibid. p. 66. ويقول ابن عذارى : « وقتل بنج وهزم عسكره ، فقوى المسلمون ، وركب الرجالة الخيل ، وانتشروا بنواحيهم التى جازوا بها . » ج ٢ ص ١١ .


موقعة وادي لكة
أركش
شريش
قلشانة
وادي ليط
رندة
سيرا رندة
قادس
مدينة شذونة
نهر سلادو
بحيرة خندة
برباط
قرطاجنة
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
خليج الجزيرة
طريف
الزقاق

أحد ولاة لذريق فى الأندلس لما بلغه نزول طارق بمن معه من المسلمين ، كتب إلى لذريق يخبرهم[١] ، وقيل إن علجاً من أصحاب لذريق قدم إلى معسكر طارق يتجسس عليه ، ويحزر عدد المسلمين ، ويعاين هيأتهم ومراكبهم ، وأقبل هذا العلج إلى لذريق ، وقال له : « أتتك الصور التى كشف لك عنها التابوت ، فخذ لنفسك ، فقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك ، قد حرقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلق بها ، وصفوا فى السهل موطنين أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب»[٢] . ووقع الخبر على لذريق وقوع الصاعقة ، فانزعج له ، وكر راجعاً إلى عاصمته ، ثم خرج منها لمواجهة المسلمين بعد أن عبأ جميع قواته ، وزحف بها نحو قرطبة ، حيث أقام فى قصرها ريثما يتم وفود عسكره إليه . وذكر مؤرخو العرب أنه جمع مائة ألف مقاتل[٣] وقيل سبعين ألف[٤] ويجعل ابن خلدون عدد جنوده أربعين ألفاً[٥] . فلما علم طارق بزحف هذه الحشود الهائلة إليه ، كتب إلى موسى يستمده ، ويخبره فى الوقت نفسه بأنه فتح الجزيرة الخضراء ، وملك المجاز إلى الأندلس ، واستولى على بعض أعمالها حتى البحيرة ، وأن لذريق زحف إليه بما لا قبل له به ، فأرسل إليه موسى مدداً من خمسة آلاف من المسلمين[٦] ، على رأسهم طريف بن مالك ، وأغلبهم من الفرسان ، وبهم كملت عدة من مع طارق اثنى عشر ألفاً[٧] ، أقوياء على المغانم ، حراصاً على اللقاء ، ومعهم يليان ورجاله[٨] وأهل عمله ، يدلهم على العورات ، ويتجسس الأخبار[٩] .

---

(١) نص ابن حبيب ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ص ٢٢٢ .

(٢) نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٤٢ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٧ – المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٤١ . ويذكر الحميرى أن لذريق جمع جيشاً قوامه ٦٠٠ ألف فارس (الروض المعطار ص ١٠) وهذه مبالغة واضحة .

(٤) نص ابن حبيب ، بمجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ص ٢٢٢ – المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٥ .

(٥) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢١٦ .

(٦) كان موسى قد اهتم ببناء عدد كبير من السفن تمهيداً لجوازه (أخبار مجموعة ص ٧) .

(٧) أخبار مجموعة ص ٧ المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤١ .

(٨) المرجع السابق .

(٩) ذكر سافدرا أن جيش طارق أصبح يتكون من ٢٥ ألف مقاتل بعد انضمام أنصار غيطشة إليه (Saavedra, op. cit. p. 67)

ثم زحفت جيوش لذريق جنوباً ، بعد أن انضم إليها أبناء غيطشة وأقرباؤه مكرهين ، وضرب لذريق معسكره عند مدينة شذونة Medina Sidonia ، بالقرب من قرية فيخير ذى لافرونتيرة[١] Vejer de la Frontera . أما طارق ، فقد سار بعد افتتاحه طريف نحو الشمال قاصداً قرطبة[٢] ، حتى اقترب من بحيرة خاندا Janda التى تحصر بينها وبين جبال سيرا دل رتين Sierra de Retin سهلا منفسحاً حصيناً ، تحميه البحيرة من جهة ، والجبل من جهة أخرى ، واستمر فى سيره حتى أدرك نهير البرباط ، الذى يخترق بحيرة خاندا ، ويسميه ابن القوطية القرطبى وادى بكة[٣] ، أما ابن عذارى والحميرى والمقرى فيسمونه وادى لكة . وينسبه الحميرى إلى مدينة لكة ، وهى « مدينة بالأندلس من كورة شذونة ، قديمة ، من بنيان قيصر اكتبيان ، وآثارها باقية ، ولها حمة من أشرف حمات الأندلس »[٤] .

ويبدو أن دخول المسلمين إسبانيا قد أنعش آمال أهل الأندلس ، هذا إلى ما قام به أنصار الملك غيطشة من دعاية كبرى للمسلمين ، وكان لذريق قد ولى ولدى غيطشة ميمنة جيشه وميسرته بعد أن حاول استرضاءهما ، غير أنهما كانا قد أجمعا على الانتقام من لذريق الذى اغتصب العرش من أصحابه الشرعيين ، وحرمهما من أملاك أبيهم ، فصادرها ، فعزما على خيانته وفقاً لما تم الاتفاق عليه مع يليان والمسلمين ، وانتظرا الفرصة المواتية للانضمام إلى خصومه . كذلك تآمر عدد كبير من قواد جيش لذريق عليه لإسقاطه ، اعتقاداً منهم أن المسلمين ليسوا سوى مجرد وافدين ، مقامهم موقوت ، وأنهم جاءوا إلى الأندلس ينشدون

---

(١) Saavedra, op. cit. p. 68.

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ص ٩٠ .

(٣) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧ .

ينسب ساڤدرا اسم بكة إلى قرية قديمة كان العرب يسمونها بكة Beca ، ثم حرفها مؤرخو العرب المحدثون أمثال ابن عذارى والمقرى إلى لكة Leca ، وسمى الوادى باسم وادى لكة Guadaleca ، ومنها جاءت تسمية الأسقف دون رودريجو وادا وادى ليت Guadalete ، بعد أن خلط بين شذونة وشريش. (Cf. Saavedra, op. cit. p. 69) وقد فسر ليڤى بروڤنسال (Hist. t. I, p. 21) اسم وادى لكة بأنه تحريف واضح من الكلمة الإسبانية Lago ومعناها البحيرة وهى بحيرة خاندا Janda ، وهذا فى اعتقادنا الأصوب بدليل أن بعض المؤرخين العرب يذكر موضع الالتقاء تحت اسم البحيرة .

(٤) الحميرى : الروض المعطار ص ١٠٩ ؛ - المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٣ ، ٢٤٢ .

ملأ أيديهم من الغنائم والخيرات ثم يعودون من حيث أتوا ، فقال بعضهم لبعض « هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا ، وليس من أهله ، وإنما كان من سفالتنا ، وهؤلاء قوم لا حاجة لهم بإيطان بلدنا ، انما يريدون أن يملو أيديهم ثم يخرجون عنا ، فانهزم بنا بابن الخبيثة إذا لقينا القوم ، فأجمعوا لذلك»[1]. وهكذا أضمروا خذلان لذريق فى المعركة الفاصلة .

كذلك أجمع ألمند وأخواه ، أبناء الملك غيطشة على الغدر بلذريق ، وكان قد وثق بهم وقلدهم ميمنة الجيش وميسرته ، فكتبوا إلى طارق « يعلمونه أن لوذريقا كان كلباً من كلاب أبيهم وأتباعه ، ويسلونه الأمان على أن يخرجوا إليه بالصباح ، وأن يمضى لهم ضياع أبيهم بالأندلس . . . فلما أصبحوا انحاسوا بمن معهم إلى طارق »[2] . ويزعم بعض المؤرخين العرب أن طارقا عند ما علم باقتراب الحرب ، وقف فى جنوده وخطب فيهم خطبته المشهورة[3] ، التى تعد من أروع الخطب الحماسية وأعظمها فى إلهاب المشاعر والحث على الجهاد ، بما تتضمنه من معان

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٨ – المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) ابن القوطية ص ٣ – ويذكر صاحب أخبار مجموعة ، أن الذى تولى ميمنة لذريق هو ششبرت والذى تولى ميسرته هو أبه ، وكلاهما (فى رأيه) من أبناء الملك غيطشة (انظر أخبار مجموعة ص ٨) والواقع أنهما أخوا الملك المذكور ، فإذا كان يقصد أبناء الملك فليس للملك سوى ابناء ألمند وأرطباس اللذان استبقاها لذريق بجانبه بعد خروج أخيهما وقلة عليه .

(٣) ورد خبر هذه الخطبة فى تاريخ الأندلس لعبد الملك بن حبيب ، وهو الجزء الذى نشره الدكتور محمود على مكى فى مقاله عن « مصر والتاريخ العربى الإسبانى » بمجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، ص ٢٢١ ، كذلك ورد خبر هذه الخطبة فى كتاب نفح الطيب للمقرى (الجزء الأول ص ٢٢٥) . اوقد نقل المقرى نص هذه الخطبة فذكر أنه « قام فى أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حث المسلمين على الجهاد ، ورغبهم ثم قال : أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقدا ستقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم ، وإن امتدت الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم . . . » . وهى خطبة طويلة فيها تحريض المسلمين على الجهاد ، لقاء التمتع بالجاه والنعيم الأبدى ، فى حالة الاستشهاد أو الجاه والنعيم فى الراحة بعد المعركة وجنى ثمار النصر .

(إرجع إلى النص الكامل للخطبة فى كتاب نفح الطيب للمقرى ، الجزء الأول ص ٢٢٥ وما يليها ، أو إلى مقالى عن طارق بن زياد فى دائرة معارف الشعب ، العدد ٦٧ ص ٢٤٠) .

سامية وتعبيرات أدبية رفيعة ، مما يجعلنا نميل إلى عدم نسبتها إليه ، فالخطبة فى اعتقادنا ليست من إنشائه ، وإنما نسبها إليه المؤرخون المحدثون ، فقد كان طارق كما رجحنا بربريا ، ولا يعقل أن يكون هو صاحب هذه القطعة الأدبية الفريدة ، ولو أنهم نسبوها إلى موسى بن نصير لكان الأمر أقرب إلى مجال التصديق ، وإن كان هذا أيضاً ليس من الممكن الإغضاء عنه ، إذ أن أسلوب الخطبة ، من الأساليب الشائعة منذ القرن العاشر الميلادى . وقد يكون طارق بن زياد حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه ، كما يقول ابن بشكوال[1] ، ولكنه لا يصل بأى حال من الأحوال إلى ارتجال خطبة أدبية رائعة ، أسلوبها من النوع المتأخر فى الزمن إلى عصره ، ولنفترض جدلا أنها من إنشائه ، فكيف يخطب بالعربية لجيش كله من البربر وهم كما نعرف حديثو عهد بالإسلام وباللغة العربية ، بل إن اللغة العربية كانت أبطأ فى الانتشار بكثير من الإسلام . والواقع أن مؤرخى العرب كانوا يميلون دائماً إلى تتويج بطل الفتح بهالة من البطولة الخارقة والشجاعة النادرة ، فقد نسب مؤرخو العرب إلى عقبة بن نافع كثيراً من الأعمال الخارقة للبشر[2] ، كما تنبأوا لطارق بالانتصار على القوط وفتح الأندلس ، فذكروا أنه أصاب بالجزيرة الخضراء عجوزاً أخبرته بأن من يفتح الأندلس رجل ضخم الهالة ، وفى كتفه الأيسر شامة عليها شعر ، وكانت هذه الصفات تتوفر فيه ، فكأنهم ينسبون الفتح إليه عن طريق النبوءة ، وهو أمر كان شائعاً عند مؤرخى العرب[3] . كذلك زعموا أنه لما ركب البحر إلى الأندلس رأى وهو نائم النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٥ .

(٢) انظر ما سبق أن ذكرناه من قبل خاصاً بإنشاء مدينة القيروان .

(٣) من أمثلة هذه التنبؤات ما ذكره المؤرخون العرب خاصاً بعمرو بن العاص ، فقد تنبأوا له فتح مصر عند زيارته لها المرة الأولى ، وابتكروا قصة الكرة التى سقطت من اللاعبين عليه ، فذهل القرم وقالوا إن من تسقط عليه الكرة يكون سيد البلاد (راجع البلاذرى فى فتوح البلدان) ، وياقوت الحموى فى معجم البلدان مادة الإسكندرية ، وكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقريزى ج ١ ، القسم الخاص بآثار الاسكندرية ، طبعة بولاق) كذلك تنبأ مؤرخو العرب لحسان بن النعمان بهزيمته للكاهنة ، بأنها أرسلت ولديها إليه مقدماً لثقتها فى الهزيمة ؛ كما تنبأوا لعبد الرحمن بن معاوية بأنه سيحيى دولة بنى أمية من جديد فذكروا أن مسلمة بن عبد الملك لما رآه وهو صغير فى بلاط دمشق أوصى هشاماً به خيراً وذكر له أن الدولة الأموية ستحيا على يديه ، كذلك تنبأ يهودى من المغرب كان عالماً بالحدثان بأن عبد الرحمن هذا سيكون مؤسساً لدولة . . . وأمثلة هذه التنبؤات كثيرة فى التاريخ الإسلامى .

وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف ١ وتنكبوا القسى ٣ وأن الرسول كان يقول له : « يا طارق ، تقدم لشأنك ، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدامه »[١] . ثم إن قصة الخطبة كانت موضوعاً شائعاً فى التاريخ العربى منذ أقدم العصور[٢] ، لذلك كله نستبعد نسبة الخطبة المذكورة إلى طارق بن زياد .

والتقى الجيشان فى يوم الأحد ٢٨ من رمضان سنة ٩٢ هـ (١٩ يوليو سنة ٧١١ م أى بعد مضى نحو ٨٣ يوماً من نزول المسلمين بجبل الفتح[٣]، على وادى برباط أو وادى لكة[٤] ، قرب مدينة شذونة[٥] . واستمرت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام[٦] ، وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة ، إذ تراجع جناحا لذريق ، وفقاً للخطة المرسومة ، ونكص عدد كبير من قواد الملك ، فانكشف قلب جيشه ، وانهار خط دفاعه من أساسه ،واضطر إلى التراجع أمام دفع قوات طارق ومن انضم إليها من أصحاب يليان ، والمتآمرين على لذريق . وأذرع المسلمون فى فلول جيش

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٣٨ .

(٢) لما عبر أرياط الحبشى البحر إلى اليمن ورأى جيوش الدولة الحميرية كثيرة العدد والعدة ، قام فى جنده خطيباً فقال : يا معشر الحبشة ، قد علمتم أنكم لن ترجعوا إلى بلادكم أبداً . ... هذا البحر بين أيديكم ، إن دخلتموه غرقتم ، وإن سلكتم البر هلكتم ، واتخذتكم العرب عبيداً ، وليس لكم إلا الصبر حتى تموتوا أو تقتلوا عدوكم (ارجع إلى جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ، ط . الهلال ص ١٤٨) . كذلك ينسبون إلى وهرز الفارسى الذى بعثه كسرى أنو شروان مع سيف بن ذى يزن إلى اليمن لتحريره من الأحباش أنه أحرق سفنه وقال لجنوده : «ليس أمامكم إلا إحدى اثنتين ، إما القتال بشجاعة حتى الظفر ، وإما الاستكانة والتخاذل ، وحينذاك يلحقكم العار والخزى العظيم . (انظر إلى الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ط . مصر ج ٢ ص ١١٩) .

(٣) ابن حيان عن المقرى ، ج ١ ص ٢٣٣ . وقيل إن اللقاء تم فى ٧ ربيع الأول سنة ٩٢ هـ .

(٤) يسميه ابن عذارى كذلك وادى الطين (البيان ج ٢ ص ١٠) . ويبدو أنه سمى كذلك بسبب قلة مياهه ، وكثرة طينه الذى قيل إن فرس لذريق ساخ فيه . ويسميه ابن عبد الحكم وادى أم حكيم (فتوح إفريقية والأندلس ، ص ٩٤) .

(٥) ذكر ابن خلدون أن المعركة وقعت فى فحص شريش، والحقيقة أنها وقعت فى فحص شذونة لأن شريش بعيدة عن ميدان الموقعة .

(٦) اختلف المؤرخون فى تحديد المدة التى استغرقها القتال ، فن قائل إنها يومان ، ومن قائل إنها ثلاثة . ولكننا نرجح الرأى القائل بأنها دامت ثمانية أيام ، وعلى رأس أصحاب هذا الرأى الرازى (انظر المقرى ج ١ ص ٢٤٣) ، وابن حيان (عن المقرى ج ١ ص ٢٣٣) وابن عذارى (البيان ج ، ص ١١) والحميرى (ص ١٦٩) ، إذ أنه لا يمكن لمثل هذه الموقعة الحاسمة أن تنتهى بمثل هذه السرعة فى عصر كانت الحرب تعتمد فيه على كثرة العدد والعدة والمجالدة .

القوط بالقتل ، ولم يرفع عنهم المسلمون السيف ثلاثة أيام [1] ، واختلفت الروايات العربية فى شأن مصير لذريق ، فذكر فريق من المؤرخين بأنه قتل غريقاً فى وادى لكة [2] ، بينما أكد أكثرهم بأنه رمى نفسه فى وادى لكة ، وغاب شخصه ، فلم يعثر له أحد على أثر له ، ولا يدرى أحد منهم ما آل إليه مصيره [3] . ونعتقد أن لذريق استطاع النجاة بنفسه ، بعد أن تجرد من خفيه ومن ثيابه الدالة عليه ، وسنرى مصداق ذلك عند حديثنا عن حملة موسى .

ويبدو أن طارقاً لم ينتزع النصر بسهولة ، فقد فقد عدداً كبيراً من رجاله يقرب من ثلاثة آلاف [4] ، من بينهم ششبرت [5] ، ولم يبق من جنوده سوى

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ص ٩٦ — ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٠ .

(٢) يذكر ابن عبد الحكم ، أن الله قتل لذريق ومن معه (فتوح إفريقية ص ٩٤ وما يليها — ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١٠) . ويؤكد ابن حيان موت لذريق فى هذه الموقعة إذ يقول : « فانهزم القوط أعظم هزيمة ، وقتل ملكهم لذريق » (المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٣) ويذكر المقرى أن طارق لما رأى لذريق قال : « هذا طاغية القوم فحمل وحمل أصحابه معه فتفرقت المقاتلة من بين يدى لذريق ، فخلص إليه طارق ، فضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريره » انظر المقرى ج ١ ص ٢٢٧ . وذكر ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة أن طارقاً احتز رأس لذريق وبعث به إلى موسى بن نصير . (انظر فتح الأندلس من كتاب الإمامة والسياسة ، الوارد فى كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ١٢٢) .

(٣) يقول ابن القوطية : « فهزم الله لذريق ، وثقل نفسه بالسلاح رترى فى وادى بكة ، فلم يوجد » (تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧) وحرف المقرى كلمة السلاح إلى الجراح فقال : « فهزم الله الطاغية لذريق وجموعه ، ونصر المسلمين نصراً لا كفاء له ، ورمى لذريق نفسه فى وادى لكة وقد أثقلته الجراح ، فلم يعرف له خبر ولم يوجد » . « نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٢) . أما صاحب أخبار مجموعة فيقول : « وغاب لذريق ، فلم يدر أين وقع ، إلا أن المسلمين وجدوا فرسه الأبيض ، وكان عليه سرج له من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد ، ووجدوا حلة من ذهب مكللة بالدر والياقوت ، قد ساخ الفرس فى الطين ، وفى السواخ وقع فيه ، وغرق العلج ، فلما أخرج رجله ثبت الخف فى الطين . والله أعلم ما كان من أمره ، لم يسمع له خبر ، ولا وجد حياً ولا ميتاً » (أخبار مجموعة ص ٩ — المقرى ، نفح الطيب ، ص ٢٤٣) . ويردد ابن عذارى نفس المعنى إذ يقول : « ولم يعرف لرذريق موضع ولا وجدت له جثة ، وإنما وجد له خف مفضض ، فقالوا إنه غرق ، وقالوا إنه قتل ، والله أعلم » (البيان ج ٢ ص ١١ وما يليه)

(٤) ذكر المقرى أن طارق قسم الفىء على « تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع » (المقرى ج ١ ص ٢٤٢) ويدل هذا على أن ثلاثة آلاف لقوا حتفهم فى المعركة ، إذ كان عدة جيشه قبل المعركة اثنى عشر ألفاً .

(٥) فتح الأندلس لمؤلف مجهول ، نشره Joaquin de Gonzàlez فى الجزائر سنة ١٨٨٩ ص ٧ .

تسعة آلاف ، تتقدمهم جماعة العبيد السود التي أبلت في هذه الموقعة بلاء حسناً[١] . أما القوط فقد ذكر الرازي أن المسلمين قتلوا منهم خلقاً عظيماً ، « أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض ، وكان المسلمون يتعرفون على كبار القوط بخواتم الذهب يجدونها في أصابعهم ، ويتعرفون على من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون العبيد بخواتم النحاس[٢] .

حـ — زحف طارق إلى طليطلة عاصمة القوط :

أحدث انتصار طارق في وادي لكة دوياً هائلا في المشرق والمغرب ، الأمر الذي يعزز ما كنا نعتقده في أن حملة طارق كان ينظر إليها على أنها مغامرة مصيرها الفشل قبل النجاح ، وإلا فما الداعي إلى تهافت أهل العدوة من البربر والعرب على الأندلس بعد الموقعة ، وإقبالهم على الفتح بقلوب مجبورة[٣] ، وما السبب في كثرة الروايات القائلة بحسد موسى بن نصير لطارق ، وإصداره الأوامر له بالتوقف عن الفتح[٤] ؟

وكان لابد لطارق أن يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لكة ، قبل أن تتجمع فلول القوط مرة أخرى ، ويستفحل أمرهم ، فزحف طارق إلى مدينة شذونة ،

---

(١) نفس المرجع .

(٢) الحميري ، الروض المعطار ص ١٦٩ وما يليها — المقري ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٣) في ذلك يقول الرازي : « وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق ، وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ، ولحقوا بالجبال » انظر المقري ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٤) ذكر ابن خلدون أن طارقا كتب إلى موسى بن نصير . « بالفتح وبالغنائم ، فحركته الغيرة ، وكتب إلى طارق يتوعده إن توغل بغير إذنه ، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به . » وقال أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي في كتابه جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس : « وكتب إلى موسى بن نصير بغلبته على ما غلب عليه من الأندلس وفتحه ، وما حصل له من الغنائم ، فحسده على الانفراد بذلك ، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان يعلمه بالفتح وينسبه إلى نفسه ، وكتب إلى طارق يتوعده إذا دخلها بغير إذنه ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به » (انظر جذوة المقتبس ، حققه محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٣٧١ هـ ص ٥) . وذكر ابن حيان أنه لما بلغ موسى ما صنعه طارق وما أتيح له من الفتح حسده وتهيأ للمسير إلى الأندلس ، وأنه لما وافاه باسترقة أظهر ما بنفسه من حقد عليه ، وقيل إنه قنعه بالسوط وبخه على استبداده عليه ومخالفته لرأيه (ارجع إلى نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٤ وما يليها) .

وحاصرها حصاراً شديداً ، ثم فتحها عنوة ، وغنم منها غنائم هائلة ، ومضى بعد ذلك إلى مدور Almodovar ، ثم عطف على قرمونة Carmona ، ثم اتجه إلى إشبيليه Sevilla فصالحه أهلها على الجزية ، ومنها زحف إلى استجه Ecija ، وكانت تؤلف المركز الأول للمقاومة ، إذ كانت فلول القوط قد تجمعت هناك ، فقاتلوا المسلمين قتالا شديداً حتى كثر القتل والجراح بين المسلمين[1] ، وامتنعوا داخل مدينتهم ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بصاحب المدينة ، فأرغمه على الصلح ، وفرض عليه الجزية[2] . وهكذا هبت رياح النصر على المسلمين ، وقذفوا أعداءهم بالرعب ، وكانوا يظنون طارقاً « راغباً فى الغنم عاملا على القفول ، فسقط فى أيديهم ، وتطايروا عن السهول إلى المعاقل ، وصعد ذوو القوة منهم إلى دار مملكتهم طليطلة »[3] .

وكان جيش طارق قد تضخم بمن وفد إليه من أهل العدوة ، فنصح يليان طارقاً بأن يفرق جنده فى بعوث جانبية ، ويمضى هو إلى طليطلة ، حيث احتشدت فلول القوط[4] ، فيفتحها قبل أن يتدارك القوط الأمر ، ويحكموا الدفاع عنها ، او يستصدر وقلة قراراً من مجلس طليطلة بتنصيبه ملكا على القوط ، فيصعب على طارق الأمر بعد ذلك .

وفعل طارق بنصيحة يليان ، ففرق جيوشه من استجه ، وبعث مغيثا الرومى مولى الوليد بن عبد الملك ، إلى قرطبة فى سبعمائة فارس ، وبعث جيشاً آخر إلى مالقة Malaga قوّد عليه قائداً ودليلا من رجال يليان ، كما بعث جيشاً ثالثاً إلى

---

(١) أخبار مجموعة ص ٩ — المقرى ج ١ ص ٢٤٤ .

(٢) ذكر الرازى قصة ظفر طارق بصاحب استجة ، فقال : « إلى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها وكان مغتراً سيئ التدبير ، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق فى الماء ، فأخذه وجاء به إلى المعسكر ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحب ، وضرب عليه الجزية وخلى سبيله ، فوفى بما عاهد عليه » (انظر المقرى نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٤) .

(٣) نفس المرجع .

(٤) أشار الرازى إلى ذلك فذكر أن يليان نصح طارقاً بتفريق جيوشه فى جهات البلاد وبالذهاب إلى طليطلة فقال له : « قد فضضت جيوش القوم ورعبوا ، فاصمد لبيضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابى مهرة ففرق جيوشك معهم فى جهات البلاد ، واعمد أنت إلى طليطلة حيث معظمهم ، فاشغل القوم عن النظر فى أمرهم والاجتماع إلى أولى رأيهم » أخبار مجموعة ص ١٠ — المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٤ .

البيرة Elvira . ويغلب على الظن أن هاتين المدينتين لم يتم فتحهما إلا فى سنة ٩٤ هـ (٧١٢ م) . أما هو فقد سار بمعظم أجناده إلى كورة جيان[١] فى طريقه إلى طليطلة .

عبر طارق الوادى الكبير عند منجبار Menjibar ، وسار فى طريق رومانى قديم كان يعرف باسم طريق هانيبال ، يمر بمدينة جيان Jaen[٢] ، ومنتيسة Mentesa ، ودخل طليطلة سنة ٩٣ هـ دون مقاومة تذكر ، فألفى طارق المدينة خالية « ليس فيها إلا اليهود فى قوم قلة ، وفر علجها مع أصحابه ، ولحق بمدينة خلف الجبل ، بعد أن ضم اليهود ، وخلى معهم بعض رجاله وأصحابه بطليطلة ، وفر بنفسه مع أصحابه »[٣] . فترك طارق فرقة من جنوده فى طليطلة ، ومضى يطارد الفارين من أهل طليطلة ، فسلك إلى وادى الحجارة ، ثم استقبل جبل يسمى Cerro de San Juan del Viso[٤] ، فاخترقه من فج سمى باسمه ، وأدرك مدينة تقع وراء هذا الجبل تسمى بمدينة المائدة ، (لعلها مدينة قلعة هنارس[٥]) ، ذلك لأنه وجد فيها المائدة المعروفة عند مؤرخى العرب بمائدة سليمان ، وهى ليست مائدة كما يفهم ذلك من الإسم ، وإنما كانت مذبحاً لكنيسة طليطلة العظمى[٦] ، حملها القساوسة معهم

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٤ .

(٢) Saavedra, op. cit. p. 78 حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٧٨ .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٧ — نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٤٨ .

(٤) Saavedra, op. cit. p. 79

(٥) يسميها ابن عبد الحكم قلعة فراس (فتوح إفريقية والأندلس ص ٩٤) وصحتها قلعة هنارس .

(٦) يصفها الحميرى نقلا عن ابن حيان بقوله : « وزعم رواة العجم أنها لم تكن لسليمان ، وإنما أصلها أن العجم فى أيام ملكهم ، كان أهل الحسبة فى دينهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس ، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال ، صاغوا منه آلات من الموائد والكراسى وغيرها ، من الذهب والفضة ، يحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل ، إذا أبرزت فى أيام المناسك ، ويضعونها على المذابح فى الأعياد للمباهاة بزينتها ، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ فى هذه السبيل ، وبالغت الأملاك فى تحسينها ، يزيد الآخر منهم فيها على الأول ، حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر بها كل مطار . وكانت مصوغة من خالص الذهب ، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد ، لم تر العين مثلها ، فولع فى تحسينها من أهل دار المملكة ، وأنه لا ينبغى أن يكون بموضع آلة جمال أو متاع مباهاة إلا دون ما يكون فيها ، وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة ، فأصابها المسلمون هناك » (الحميرى ، الروض المعطار ص ١٣١ وما يليها — المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٤) . هذا ووصفها صاحب أخبار مجموعة بأنها من زبرجد خضراء ، منها حافاتها وأرجلها ، وأن لها ثلثمائة رجل وخمس وسبعين رجلا (أخبار مجموعة ص ١٥ — ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١٧) .

عند فرارهم من طليطلة ، خشية أن تقع فى أيدى المسلمين ، لنفاستها وقداستها . وذكروا أن طارقاً بلغه عزم موسى بن نصير على اللحاق به ومعاقبته بسبب خروجه على أمره ، فخاف طارق أن ينسب موسى الفتح إلى نفسه وينكر الدور الذى قام به أى طارق ، فاستظهر بانتزاع رجل من أرجل هذه المائدة خبأه عنده ، وأظهر للخليفة سليمان بعد ذلك عند ما ادعى موسى أنه ظفر بها[1].

كان الصيف قد انقضى وأقبل برد الخريف فآثر طارق أن يقضى الشتاء فى طليطلة ، فسار إليها ، وأصاب فيها غنائم هائلة لا يدركها الحصر ، من الذهب والفضة والتحف والآثار النفيسة ، وذكروا أنه وجد فى طليطلة حين فتحت من الذخائر والأموال ما لا يحصى ، فمن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة[2] ، وقيل خمسة وعشرين تاجاً مكللة بالدر والياقوت[3] ، كما وجد فيها ألف سيف ملوكى وغير ذلك من التحف والروائع وذكر أبو شيبة الصدفى أنه شاهد رجلين يحملان طنفسة منسوجة بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت ، فلما ثقلت عليهما أنزلاها ، وحملا عليها الفاس فشطراها نصفين حملا نصفاً وتركا نصفاً ، وأنه شاهد الناس يمرون عليها لا يلتفتون إليها اشتغالا بما فى أيديهم مما هو أرفع منها[4] .

د- فتح قرطبة :

كان طارق قد عمل بنصيحة يليان ، ففرق جيوشه من استجه ، فولى مغيثاً الرومى على فرقة من جيشه ، ليفتتح قرطبة ، ومضى هو بمعظم الجيش إلى طليطلة ليفتحها . سار مغيث على رأس فرقة مؤلفة من سبعمائة رجل كلهم فرسان ، إذ

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ، ص ١٠٦ — المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار ص ١٣١ — المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .

(٣) نص عبد الملك بن حبيب ، نشره الدكتور محمود مكى بصحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ص ٢٢٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٢٦ — المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٧٠ .

كان المسلمون قد غنموا خيل القوط ، ولم يبق فيهم راجل[١] . وقصة فتح قرطبة فى فى المصادر العربية تشبه قصة فتح العرب لحصن بابليون فى مصر ، فلقد تسلق الزبير بن العوام سور الحصن وفتح بابه للعرب فاستولوا على المدينة عنوة[٢] ، كما أنها تتشابه مع قصة فتح العرب لمدينة سبيطلة ، إذ أن ذلك تم بفضل بطولة عبد الله ابن الزبير ، فكلها تصور أعمالا من البطولة قام بها الزبير أو ابنه عبد الله ، أو مغيث الرومى وأصحابه .

وقصة فتح قرطبة تصور لنا الفتح على أنه عمل ساهمت فيه المقادير ، فلقد سار مغيث على رأس فرقته حتى أتى قرطبة ، فكمن بقرية شقندة فى غيضة أرز ، تقع بين قرية شقندة وقرية طرسيل[٣] ، على الضفة اليسرى من نهر الوادى الكبير . فرأى مغيث أن يبعث بعض أدلائه من الإسبان إلى المنطقة المجاورة ، ليسترشدوا الناس عن سور المدينة ، « فألفوا راعى غنم ، فأتوا به إلى مغيث وهو فى الغيضة فسأله عن قرطبة ، فقال له : انتقل عنها عظماء أهلها ، ولم يبق فيها إلا بطريق فى أربعمائة فارس من حماتهم ، مع ضعفاء أهلها ، ثم سأله عن حصانة سورها فأخبره أنه حصين ، إلا أن فيه ثغرة فوق باب الصورة ، وهو باب القنطرة ، ووصف لهم الثغرة »[٤] ، وكان لزاماً على مغيث وأصحابه أن يعبروا الوادى سباحة ، فقد كانت القنطرة الموصلة بين مدينة قرطبة وربضها الجنوبى المعروف بشقندة ، مهدمة فى ذلك الوقت[٥] . وآثر مغيث أن يفاجئ حامية المدينة ليلا ، فيتخذ من ظلام الليل ستاراً له ولجنوده حين يعبرون النهر ، ويبدو أنه كان يزمع مفاجأة

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٠ — ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١٤ — المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٢) ارجع إلى الكتب الآتية :

ابن عبد الحكم ، فتوح مصر : طبعة ليدن ، ١٩٢٠ — البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الأول نشرة الدكتور صلاح المنجد — بتلر : فتح العرب لمصر ، ترجمه من الإنجليزية الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٩٣٣ — محمود عكوش ، مصر فى عهد الإسلام ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤١ .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٠ — ابن عذارى ج ٢ ص ١٤ . ويذكر ساقدرا أن موضع طرسيل كان يعرف عند القوط باسم Tercios انظر Saavedra, op. cit. p. 81.

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٤ — المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٤٤ .

(٥) أخبار مجموعة ، ص ١١ .

الحامية القوطية ، ويدخل المدينة عنوة ، وهذا يفسر عبوره الوادى أثناء الليل ، مستتراً بظلامه . فلما جن الليل، أقبل على نهر قرطبة ، وقد أغفل حرس السور حراسته من شدة البرد ، والمطر ، وأخفى سقوط المطر دقدقة حوافر الخيل[١] ، مما ذلل للمسلمين عملية العبور ، فلما توافى الجند على الضفة اليمنى للنهر ، تجمعوا فى الفضاء الواقع بين السور والنهر ، وكان لا يزيد على ثلاثين ذراعاً ، فراموا التعلق بالسور ، فلم يجدوا متعلقاً ، وتعذر عليهم تسلقه ، فأخذوا يدورون حوله بحثاً عن الثغرة التى أخبرهم عنها الراعى ، فلم يجدوا إلا سوراً مرتفعاً غاية فى الحصانة والوثاقة ، واضطروا إلى استحضار الراعى الإسبانى ، فدلهم على موضع الثغرة ، فإذا بها غير سهلة التسنم ، إلا أنهم وجدوا بأسفلها شجرة تين مكنت أفنانها رجلا من المسلمين من التعلق بها ، فصعد إلى أعلاها ، ونزع مغيث عمامته ، فناوله طرفها ، وأعان بعض الناس بعضاً حتى كثروا على السور ، أما مغيث فقد ركب فرسه ، وتأهب لدخول المدينة من باب القنطرة بعد أن أمر رجاله بالهجوم على حراس باب الصورة ، وانقض المسلمون على الحراس ، فقتلوهم وكسروا الأقفال ، ثم فتحوا الباب المذكور ، وعلى هذا النحو نجحت الخطة نجاحاً لم يكن فى الحسبان ، وتدفق فرسان المسلمين على المدينة .

ويذكر سافدرا أن قرطبة كانت مقسمة فى ذلك الوقت إلى قسمين ، يفصلهما سور حاجز أقامه الرومان لفصل الأهالى الذين يسكنون القسم الشرقى عن القسم الغربى الذى يشتمل على المؤسسات الحكومية ، مثل قصر الوالى وثكنات الجند ، وهو القسم الذى عرف فى العصر الإسلامى باسم المدينة . ويضيف سافدرا ، مستنداً على ما ذكره صاحب أخبار مجموعة ، أن المسلمين حين دخلوا المدينة ، استولوا على القصر (البلاط) ، ففر الحاكم فى كماة رجاله ، وهم نحو أربعمائة ، وخرجوا من باب أشبيلية (وهو الباب الغربى) ، وتحصنوا فى كنيسة تقع غربى المدينة ، كانت تعرف باسم سان أسيكلو[٢] San Asciclo ، ويسميها صاحب أخبار

---

(١) نفس المرجع – ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٤ – المقرى ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢ – Saavedra, op.cit.p.83

مجموعة باسم شنت أجلح[١] . ونفهم من ذلك أن البلاط المذكور ، كان يقع داخل أسوار المدينة قرب السور الغربى منها . ويرى الأستاذ أوكانيه خيمنث[٢] — ونحن نوافقه على ذلك — أن قصة فتح قرطبة وفقاً لما رواها به مؤرخو العرب غير صحيحة ، فقد كانت قرطبة عند ما فتحها المسلمون ، فى أشد حالات السوء إذ كانت قنطرتها قد تهدمت ، كما كان سورها الغربى قد تثلم فى بعض أجزائه ، إذا اعتمدنا على ما ذكره صاحب أخبار مجموعة[٣] . وأبلغ دليل على سوء حالتها عند الفتح ، أن المسلمين اتخذوا إشبيلية عاصمة للأندلس ، ولم يتخذوا قرطبة لهذا الغرض ، إلا بعد مقتل عبد العزيز بن موسى . واضطر السمح بن مالك الخولانى والى الأندلس فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، إلى إعادة بناء القنطرة من أحجار السور . ويستند أوكانية خيمنث فى ذلك على نص ورد فى البيان جاء فيه : « وكان المسلمون إذ فتحوا قرطبة ، وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها ، على حنايا وثاق الأركان ، من تأسيس الأمم الداثرة ، قد هدمها مدود النهر على مر الأزمان ، فتقدم إلى فضيلة النظر فيها عمر بن عبد العزيز ، عندما اتصل به خبرها ، فأمر السمح بابتنائها ، فصنعت على أتم وأعظم ما بنى عليه جسر من حجارة سور المدينة »[٤] . وينتقل أوكانية خيمنث بعد ذلك قائلا : « إذا سلمنا بأن الجانب الغربى من أسوار قرطبة كان مهدماً كذلك ، فى ذلك الوقت وأن مغيث

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٢ — فتح الأندلس لمؤلف مجهول ، ص ٩ وما يليها .

يقول صاحب أخبار مجموعة : « فلما بلغ الملك دخولهم ، خرج فى جملة أصحابه وهم أربعمائة أو خمسمائة ، ومن خرج معه ، من باب المدينة الغربى ، يقال له باب إشبيلية ، فتحصن بكنيسة فى غربى المدينة حصينة ذات بنيان وتقانة ، وهى شنت أجلح ، فدخلها ، ودخل مغيث بلاط قرطبة فاختطه » .

(٢) Ocana Jiménez : La Basilica de San Vicente y la gran Mezquita de Córdoba, Al-Andalus, 1942, pp. 347-366.

(٣) يذكر صاحب أخبار مجموعة أن السمح بن مالك الخولانى ، والى الأندلس ، كتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ « يستشيره ويعلمه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة . فإن أمرنى أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت ، فإن قبلى قوة على ذلك ، من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد ، وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم » ص ٢٤ .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤ .

دخل المدينة من هذا الموضع الضعيف ، فإن ربض بلاط مغيث [١] ، كان يقع غربى المدينة ، وليس فوق باب الجزيرة ، « وهو باب القنطرة مقابل الثلمة التى دخل منها أصحابه حين افتتح قرطبة » على حد قول صاحب أخبار مجموعة [٢].

وعلى ضوء ما ذكره أوكانية ، نستنتج أن قصر الملك القوطى ، المذكور فيما سبق ، والذى اختاره مغيث مقرًّا لإقامته ، كان يقع داخل المدينة قرب بابها الغربى الذى خرج منه هذا الملك وأصحابه فراراً من المسلمين ، وهو نفس القصر الذى انتزعه موسى بن نصير من مغيث الرومى [٣] ، والذى اتخذه أمراء وخلفاء بنى أمية بعد ذلك داراً للإمارة بجوار المسجد الجامع ، أما الدار التى اعتاض بها موسى مغيثاً ، فكانت تقع غربى المدينة [٤] ، وليس فوق باب القنطرة كما يزعم صاحب أخبار مجموعة .

ومما سبق ذكره ، نلاحظ أن فتح مغيث لقرطبة فى الحقيقة لم يقابله صعوبات ، وأن حاكم المدينة لم يعمل على مقاومة المسلمين داخل المدينة ، وإنما سارع بالتحصن فى كنيسة شنت أجلح ، الواقعة غربى قرطبة [٥] ، وكانت كنيسة حصينة ذات بنيان وثقانة [٦] يأتيها الماء تحت الأرض من عين فى سفح جبل [٧] ، ولو لم تكن حصينة لما بادر حاكم قرطبة ورجاله بالتحصن فيها ، ولما طال حصار المسلمين لها إلى ثلاثة أشهر . ويبدو أن المسلمين اهتدوا إلى مصدر المياه التى تمد الكنيسة ، فقطعوها وسدوا منافذها . ويذكر المؤرخون أن حاكم المدينة تسلل

---

(١) هذا الربض سمى بربض بلاط مغيث لأنه كان يشتمل على دار مغيث التى أعطاها له موسى عند عودته من فتح الأندلس فى طريقه إلى دمشق .

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٢١ .

(٣) لما شاهده موسى بن نصير عند مروره بقرطبة فى طريقه إلى المشرق ، قال لمغيث : « إن هذا البلاط ليس يصلح لك ، وإنما يصلح لوالى قرطبة ، فاعتاض مكانه ، فاعتاض مغيث داراً شريفة ذات ستى وزيتون وثمار يقال لها اليسانة ، كان للملك الذى أسره ، وكان له فيها بلاط منيف شريف ، فهى تسمى بالأندلس بلاط مغيث » أخبار مجموعة ص ٢١ .

(٤) ذكر ابن بشكوال أن ربض بلاط مغيث كان يقع غربى المدينة (انظر المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ص ١٣) .

(٥) أخبار مجموعة ص ١٢ – ابن عذارى ج ٢ ص ١٥ – نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

(٦) أخبار مجموعة ص ١٢ .

(٧) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

من الكنيسة ذات يوم وحده ، وهو ينوى التحصن فى جبل قرطبة ليلحق به أصحابه[١] ، فأبصره مغيث ، فانطلق وراءه ، وأحس الحاكم بمطاردة مغيث له ، فأسرع فى فراره حتى تجاوز قرية قطلبرة[٢] Cutelobera ، ثم تعثر فرسه فجأة فسقط على الأرض ، وأسره مغيث ، وحبسه عنده ليقدم به على الخليفة الوليد ، ولم يؤسر من أمراء الأندلس غيره ، وعاد مغيث إلى بقية النصارى فاستنزلهم أسراً ، وضرب أعناقهم فسميت الكنيسة ، كنيسة الأسرى[٣] ، وذكر الرازى أن مغيث لما سد عن النصارى مجرى الماء ، أيقنوا بالهلاك ، فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية فأبوا عليه ، فأوقد عليهم النار حتى أحرقهم ، فسميت كنيسة الحرق ، والنصارى تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء[٤] . غير أن الدكتور حسين مؤنس يستبعد هذا الحادث ويستدل على ذلك بأن هذه الكنيسة ظلت بعد ذلك فى أيام المسلمين زماناً طويلا وليس فيها للنار أثر[٥] . ولا أدرى على أى مصدر اعتمد الدكتور مؤنس فى دحضه للنص السابق ، فكل ما نعرفه عن هذه الكنيسة أنها هدمت زمن الفتح الإسلامى ، وظلت كذلك حتى عام ١٦٩ هـ ، حين أذن الأمير عبدالرحمن الداخل لنصارى قرطبة بإعادة بنائها نظير تخليهم عن نصيبهم فى كنيسة شنت بنجنت التى أقام عليها المسجد الجامع بقرطبة[٦] .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق – نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٤ – ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١٥ – المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ .

(٤) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ .

(٥) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٨٢ .

يخلط الدكتور مؤنس بين هذه الكنيسة وكنيسة أخرى داخل المدينة تعرف بشنت بنجنت التى أقيم عليها جامع قرطبة .

(٦) انظر مقالى

Al-Sayyid Salem, Cronologia de la mezquita Mayor de Córdoba, al-Andalus vol. XIX, fasc. 2, p. 399.

والمساجد والقصور فى الأندلس ، سلسلة اقرأ ، عدد ١٩٠ سنة ١٩٥٨ ص ١٥ .

ثم جمع مغيث يهود قرطبة فضمهم إلى قصبتها ، وثوقاً بهم دون النصارى[١]، وأصبح ذلك سنة للمسلمين فى كل بلد يفتحونه ، أن يضموا يهوده إلى القصبة مع جماعة من المسلمين لحفظها ، ويمضى معظم الجيش لغيرها « وإذا لم يجدوا يهوداً ، وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح »[٢].

(١) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢) نفس المرجع .

٣

حملة موسى بن نصير

١ ـ افتتاح جنوب الأندلس وغربه :

بلغت موسى أخبار الفتح ، فغضب لعصيان طارق لأوامره ، وقيل إنه ما كاد يسمع بأخبار الفتح حتى أكل الحسد قلبه ، وقرر أن ينال نصيبه هو الآ ... من شرف الفتح ، ويغلب على الظن أن نزول موسى إلى الأندلس كان لسبب حربى ، هو تدعيم الفتح الذى قام به طارق ، أما ما تواتر فى كتب التاريخ العربى بصدد إساءته إلى طارق وضربه له بالسوط ، فمغالى فيه ، إذ لا يعقل أن يصدر مثل ذلك من تابعى جليل وفاتح عظيم كموسى بن نصير ، ثم إن طارق بن زياد كان مولى لموسى ، يعمل بأوامره ، ويمتثل لما يصدره إليه ، وكان يكتب إليه أخبار الفتح أولا بأول .

ولقد ضرب طارق المثـــل الأعلى فى الطاعة والنظام عند ما بعث بأبناء غيطشة إلى مولاه موسى بن نصير ، عند ما وصلوا إليه بطليطلة ، وقالوا له : أنت أمير نفسك ، أم على رأسك أمير . فقال لهم : بل على رأسى أمير ، وعلى الأمير أمير ، لذلك لا نستبعد أن تكون الروايات القائلة بحسده لطارق وإهانته له ، ملفقة مدسوسة لتبرير ما أصابه على يدى سليمان بن عبد الملك . وإذا كان طارق قد غامر باقتحام الأندلس من وسطه قبل التمكن من السيطرة على غربه وشرقه ، فإن له عذره فى ذلك كما أوضحنا من قبل ، إذ كان لزاماً عليه أن يزحف مباشرة إلى طليطلة عاصمة دولة القوط الغربيين ، بعد انتصاره الساحق فى وادى لكة ، وكانت هذه الخطة تقضى بعبور موسى بن نصير إلى الأندلس ، لاستكمال فتح جنوب الأندلس وغربه ، ولتجنب ما قد ينجم من كوارث لو قطع خط الرجعة

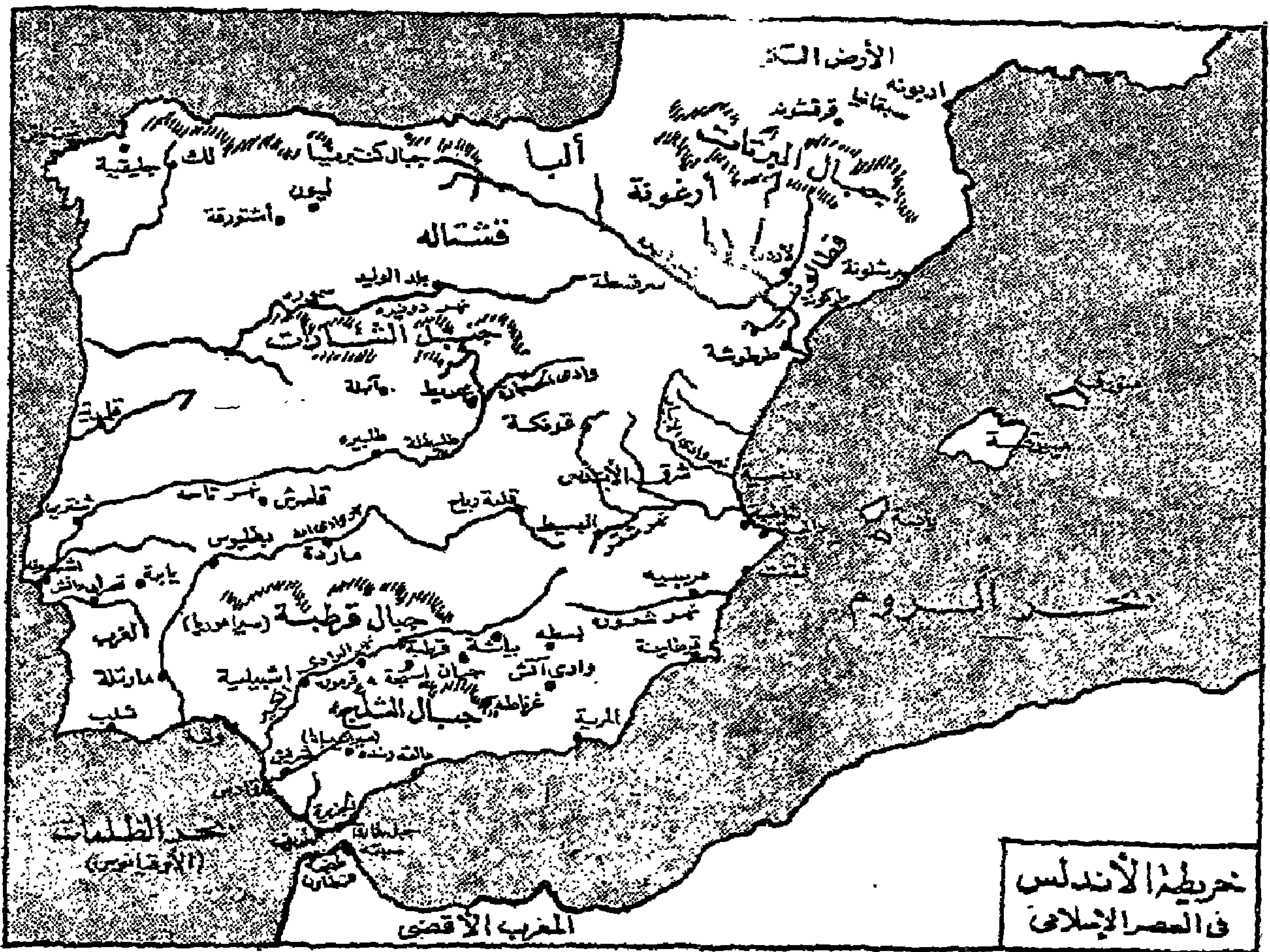
على طارق[١] . ويغلب على الظن أن جيش طارق قد تحمل من الأعباء ما يزيد على طاقته لدرجة أجهدت الجند ، فقد اقتحم هذا الجيش أرض الأندلس ، وصادم القوط الغربيين فى موقعة حاسمة ، وتوغل فى قلب البلاد ، واستولى على حاضرتها قبل أن يستفيق القوط من الصدمة ، كل ذلك تم فى أمد قصير ، ثم إن المقاومة القوطية بدأت تتكون فى نواحى البلاد ، خاصة من جهة غرب الأندلس ، حيث تصلح المناطق الجبلية المهجورة فى إقليم استرامادور لأن تكون أوكاراً لرجال المقاومة القوطية ، وهذا يفسر لنا خط سير الحملة التى قادها موسى بن نصير . ويؤيد رأينا هذا ماذكره ابن قتيبة فى كتابه « الإمامة والسياسة » من أن طارقا كتب إلى مولاه موسى مستغيثاً ، وذكر له « إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث ، الغوث ،[٢] ! ! » . ولو كان موسى بن نصير يقصد من وراء جوازه إلى الأندلس تأديب طارق لكان قد جاز إليه فى رفقة عدد قليل من المسلمين ، ولأسرع للقائه ، ولكن موسى جاز الزقاق فى جيش أضخم بكثير من جيش طارق ، ومضى يفتتح مدن الغرب ، ويقضى على مراكز المقاومة طوال هذا العام قبل أن يلتقى بطارق ، كل ذلك إن دل على شىء فعلى أن موسى كان ينوى إتمام فتح الأندلس وفقاً لخطة رسمها هو وطارق ويليان ، ولو أن موسى كان يضمر فى نفسه شراً لطارق ، مدفوعاً فى ذلك بعوامل الغيرة والحسد ، لما عبر الزقاق بعد عام كامل من نزول طارق إلى الأندلس ، ولما سلك طريقاً غير الطريق الذى سلكه من قبل ، ولكان قد أسرع إلى لقائه وكف يده ، بدلا من إضاعته وقته فى افتتاح مدن الغرب القوية ، مثل اشبيلية ، وماردة ، ولبلة ، وباجة[٣] .

---

(١) Saavedra, op. cit. p. 92.

(٢) ابن قتيبة ، نص فتح الأندلس من كتاب الإمامة والسياسة (يتضمنها كتاب ابن القوطية القرطبى) ص ١٢٤ . وذكر ابن عذارى أن موسى إنما جاز باستدعاء طارق إياه (البيان المغرب ج ٢ ص ١٩) .

(٣) ذكر صاحب أخبار مجموعة أنه لما نزل الجزيرة ، قال له العلوج الأدلاء : « نحن ندلك على طريق هى أشرف من طريقه ومداين هى أعظم خطباً من مداينه ، لم تفتح بعد ، يفتحها الله عليك إن شاء الله فامتلأ قلبه بذلك سروراً . » ص ١٥ . ولا شك أن موسى كان يرغب فى افتتاح المدن الحصينة بغرب الأندلس ، وأنه تعمد فتحها حتى يدعم فتوح طارق ويؤمن الطريق الموصلة إلى طليطلة ، وليس بسبب رغبته فى المباهاة بفتح هذه المدن .



خريطة الأندلس في العصر الإسلامي

عبر موسى الزقاق فى رمضان سنة ٩٣ هـ[1] (٧١٢ م) على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألفاً من قريش والعرب ووجوه الناس [2] ، ونزل فى جبل الفتح ، ثم دخل الجزيرة الخضراء وأقام بها أياماً للراحة والتأهب لخوض المعركة القادمة ، فلما عزم على المسير ، جمع حوله رايات العرب ووجوه الكتائب ، وعددها يزيد على عشرين راية ، وتفاوض الجميع فى الرأى ، وكيف يكون الدخول ، فأجمعوا على السير إلى إشبيلية ، وغزو ما بقى من غرب الأندلس حتى أكشنوبة ، وذكروا أن هذا الاجتماع تم عقده فى الموضع الذى أقيم فيه مسجد الرايات[3] . وذكر الرازى أن موسى لم يبرح موضعه ، ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجداً ، وكان يقابل بباب البحر من أبواب المدينة[4] .

وزحف موسى بن نصير إلى شذونة ، فافتتحها عنوة ، ومضى بعد ذلك إلى قلعة رعواق المعروفة بقلعة وادى أيرة Alcala de Guadaira ، أو قلعة جابر، فافتتحها ثم سار إلى قرمونة ، وكانت غاية فى المناعة والحصانة [5] .

وقيل لموسى إنها لا تؤخذ إلا باللطف والحيلة ، ففكر فى خدعة يخدع بها أهل قرمونة ، وأرسل إليها جنداً من أتباع يليان على هيئة المنهزمين ، ومعهم السلاح ففتح أهل قرمونة لهم الأبواب ، فلما دخلوها ، بعث موسى إليهم الخيل ليلا ، ففتحوا باب المدينة المعروف بباب قرطبة ، ووثبوا على الحراس فقتلوهم ، وبذلك دخل المسلمون قرمونة[6] . وعلى هذا النحو تم لموسى السيطرة على المراكز الدفاعية

---

(١) يحدد الرازى تاريخ خروجه من إفريقية إلى الأندلس فى رجب من نفس السنة (المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٩) . وذكر عبد الملك بن حبيب أنه دخل الأندلس فى جمادى الأولى (نص عبد الملك ابن حبيب ص ٢٣١) .

(٢) أخبار فتح الأندلس من الرسالة الشريفية فى الأقطار الأندلسية ص ١٩٢ ، ١٩٨ كان من بين الذين دخلوا الأندلس مع موسى واحد من أصاغر الصحابة هو المنيذر الإفريقى وأربعة من التابعين ، هم على بن رباح اللخمى ، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن زياد الأنصارى الحبلى ، وحنش بن عبد الله بن عمر بن حنظلة السبائى الصنعانى ، وحيوة بن رجاء التميمى .

(٣) أخبار فتح الأندلس من الرسالة الشريفية ص ١٩٨ .

(٤) الحميرى ص ٧٥ .

(٥) وصفها صاحب أخبار مجموعة بأنه « لم يكن بالأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن تنال بحصار أو قتال » أخبار مجموعة ص ١٦ — ابن عذارى ج ٢ ص ١٩ .

(٦) أخبار مجموعة ص ١٦ — ابن عذارى ج ٢ ص ٢٠ — المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٢

الأمامية لمدينة إشبيلية . وتقدمت قوات موسى نحو اشبيلية ، وكانت « أعظم مدائن الأندلس شأناً وخطباً ، وأعجبها بنياناً وآثاراً ، وكانت دار الملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس ، فلما غلبت القوطيون حولوا السلطان إلى طليطلة ، وبقى شرف الرومانيين وفقههم ودينهم ورئاستهم فى دنياهم بإشبيلية » .[١] ، فحاصرها موسى حصاراً شديداً ، ولكنها امتنعت عليه أشهراً ، ثم سقطت فى أيدى المسلمين ، بفضل مساعدة الأسقف دون أبه والجالية اليهودية بها[٢] ، وهرب رجال حاميتها إلى مدينة باجة ، فعامل موسى يهودها كما عامل مغيث يهود قرطبة من قبل ، فضمهم إلى قصبة المدينة ، وترك عليها رجالا من قبله[٣] . ومضى موسى بعد ذلك إلى مدينة ماردة Emerita (Merida) ، أمنع معاقل استرامادور ، مارا ببلدة لقنت Fuente de Cantos ، وسمى هذا الطريق الذى سلكه موسى بفج موسى ، ويمتد من لقنت إلى ماردة[٤] ، ونجح فى الإستيلاء على تلك البلدة دون حرب ولذلك سمى أهل لقنت بموالى موسى[٥]. وكانت ماردة Colonia Augusta Emerita من أعظم مدن إسبانيا فى العصر الرومانى ، إذ أسسها الإمبراطور أغسطس قيصر سنة ٢٥ ق . م ، وجعلها عاصمة لإقليم لشدانية Lusitania ، ولقد حملت ماردة مشعل الحضارة الرومانية فى إسبانيا حتى أصبحت تعرف بروما إسبانيا[٦] La Roma de Espana ، وقد وصفها ابن حيان بقوله : « وكانت ماردة دار

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٦ – ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٠ – وانظر مقالى عن « إشبيلية » فى دائرة معارف الشعب عدد ٥٦ ص ٧٠ .

(٢) Simonet (Francisco Javier); Historia de los Mozârabes de Espana, Madrid, 1897, p. 25

Dozy; Histoire des Musulmans d'Espagne, t. I, pp. 274-275.

(٣) أخبار مجموعة ص ١٦ – ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٢٠ – المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٢ .

وذكر سافدرا أن فلول القوط بإشبيلية اتبعوا الطريق الرومانى الذى يتجه من إشبيلية إلى لبلة على مصب وادى آنة ، ومنها إلى أكشونبة ثم إلى باجة . (Cf. Saavedra, op. cit. p. 94)

(٤) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩ .

(٥) فتح الأندلس لمؤرخ مجهول ص ١١ – الرسالة الشريفية ص ١٩٣ .

(٦) José Ramón Melida, Catálogo Monumental de España, Provincia de Badajoz, t. I, Mádrid, 1925, pp. 99-102.– كذلك ارجع إلى مقالى عن ماردة بدائرة معارف الشعب عدد ٦١ ص ٥٠

مملكة لبعض ملوك الأندلس فى سالف الدهر ، وهى ذات عز ومنعة وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر ، فائقة الوصف »[١] . وكان فلول القوط بقيادة لذريق — الذى قيل إنه التجأ إلى هذه المدينة — قد احتشدوا فيها لمناعتها ، ووعورة المسالك المؤدية إليها ، فحاصرها موسى ، ولكن أهلها خرجوا لقتال المسلمين فصدمهم موسى برجاله صدمة عنيفة ارتدوا بعدها إلى مدينتهم وتحصنوا بداخل أسوارها ، فنصب موسى لهم كميناً فى نقب لأحد مقاطع الصخور ، وأكمن فيه أثناء الليل عدداً كبيراً من فرسانه ، فلما أصبح ، زحف إليهم ، فخرجوا إليه كخروجهم فى اليوم السابق ، وهنا اندفع فرسان المسلمين الذين كانوا بالكمين ، فانقضوا عليهم وقتلوهم قتلا ذريعاً ، وتقهقرت جموع أهل ماردة إلى المدينة ، وأغلقوا أبوابها ، فضرب موسى عليهم الحصار عدة أشهر دون جدوى ، وذلك لأنها « مدينة حصينة لها سور لم يبن الناس مثله »[٢] ، ثم صنع المسلمون دبابة دبوا تحتها إلى برج من أبراجها ، أخذوا ينقبونه ، فلما نزعوا كسوته الحجرية أفضوا فى داخله إلى الصماء التى يقال لها « اللاشة ماشة بلسان أهل الأندلس »[٣]. فنبت عنها معاولهم وفؤوسهم ، ويئسوا منها ، وبينما كانوا يقومون بعملهم ، إذ خرج العدو عليهم على غفلة ، فاستشهد المسلمون تحت الدبابة فسمى ذلك البرج لذلك برج الشهداء.

واستمر موسى محاصراً لماردة حتى مستهل شوال سنة ٩٤ هـ . فدخلها صلحاً ، وصالحه أهلها على أن تكون أموال جميع قتلى النصارى يوم الكمين ، وأموال الفارين منهم إلى جليقية ، وأموال الكنائس وحليها ، ملكاً للمسلمين[٤].

وكان أهل الذمة بإشبيلية (هم العجم وقد سموا فيما بعد بالمستعربين بسبب استعرابهم مع احتفاظهم بدينهم) قد انتهزوا فرصة انشغال موسى بحصار ماردة ، وانقضوا على الحامية المسلمة التى تركها موسى فيها ، وقتلوا من رجالها نحو ثمانين

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٦ — المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ .

(٣) تسمية لاتينية معربة «Alaxa Maxa» لنوع من الملاط شديد الصلابة يسميه الاسبان اليوم Argamasa

(٤) أخبار مجموعة ص ١٧ وما يليها — ابن عذارى ج ٢ ص ٢١ وما يليها — المقرى ، ج ١ ص ٢٥٣ .

رجلا ، وفر الباقون إلى موسى بماردة وتوافد إلى إشبيلية عدد كبير من فل جيشها ، ممن كانوا قد التجأوا إلى باجة ، فتقوى بهم أهلها ، وتحصنوا بداخلها . فانتظر موسى حتى أتم فتح ماردة ، وبعث ابنه عبد العزيز على رأس جيش لاسترجاع إشبيلية ، وإخماد الثورة ، ونجح عبد العزيز فى دخول المدينة واستعادتها ، وقبض على الثوار وقتلهم ، ثم مضى إلى لبلة وافتتحها ، فاستقامت الأمور فيها هنالك ، وفى إشبيلية أقام عبد العزيز بن موسى ، وستصبح هذه المدينة حاضرة الأندلس فى ولايته .

ب — موقعة السواقى ومقتل لذريق :

أقام موسى فى ماردة بعد افتتاحها مدة شهر طلباً للراحة بعد المعركة ، تمهيداً لمتابعة الفتح ، وتطهير الجزء الشمالى من غرب الأندلس من بقايا القوط ، وعلى رأسهم لذريق . وكان موسى قد أدرك أن مراكز المقاومة القوطية بدأت تتجمع فى هذه المنطقة بالذات ، لعوق مسيره ، والقضاء على قواته قضاء مبرماً . وقد كانت محاولة فلول القوط استرداد إشبيلية خطوة كبيرة لقطع طريق الرجعة على قوات موسى ، لولا أن عبد العزيز بن موسى استطاع أن يخمد الحركة قبل استفحالها ، كما تمكن من القضاء على مركز المقاومة فى لبلة . فما كادت تسقط ماردة ، حتى تراجع لذريق ، وتحصن هو وجنوده فى شعاب جبال سيرادى فرانثيا Sierra de Francia مما يلى وادى أنة إلى الشمال ، وأقاموا هناك ينتظرون الفرصة المواتية للوثوب على جيش المسلمين[1] . وشم موسى رائحة كمين الأعداء له فى الطريق إلى طليطلة ، فبعث موسى إلى طارق يستدعيه للحضور إليه مع جيشه ومقابلته بقواته فى منتصف الطريق ما بين ماردة وطليطلة . وخرج طارق بجيوشه ملبياً نداء مولاه ، وسار مسافة قدرها ١٥٠ كيلو متراً، فى الطريق الموصل ما بين طليطلة وطلبيرة، بحذاء واد يقال له الأروكامبو Valle del Arrocampo[2] ، أماموسى ، فقد توقف بجيشه فى واد قريب من الموضع الذى تم فيه لقاؤه مع طارق ، حيث استعرض قواته ،

(١) Saavedra, op. cit. p. 98. — حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٩٧ .

(٢) Ibid. p. 98.

فسمى الوادى بذلك الإسم « وادى المعرض »[١] Almaraz » ، ثم تابع سيره بعد ذلك فى الطريق إلى طليطلة حيث التقى بطارق فى موضع يقال له تايد أو تايتر[٢] ، وخرج طارق معظماً له ، ونزل بين يديه . وقيل إن موسى وبخ طارقاً على مخالفته لرأيه ، وخروجه عليه ، وهو ما أجمع عليه المؤرخون العرب ، والأرجح أنه عاتبه برفق على تسرعه فى اقتحام الأندلس من الوسط ، فاعتذر إليه طارق ، وخضع له وقال :. « إنما أنا مولاك وقائد من قوادك ، ما فتحته وأصبته فإنما هو منسوب إليك » واستلطفه حتى رضى عنه[٣] . وذكر ابن حيان « أن موسى اصطلح مع طارق ، وأظهر الرضا عنه ، وأقره على مقدمته على رسمه ، وأمره بالتقدم أمامه فى أصحابه ، وسار موسى خلفه فى جيوشه »[٤] .

اتبع طارق وموسى الطريق الرومانى الممتد من ماردة إلى شلمنقة Salamanca عبر السيرا ، ثم اجتاز الموضع المسمى Puerto de Siete Carreras ، وصار فى نقطة التقاء الطريقين الموصلين من ماردة إلى شلمنقة ، ومن ألبة دى تورميس Alba de Tormes إلى ثيوداد رودريجو[٥] Giudad Rodrigo ، ومضى من فج منسوب إليه[٦] بحذاء نهير سمى منذ ذلك الحين بوادى موسى[٧] Valmuza . ويعتقد سافدرا أن المسلمين ، لكى يتم تخريبهم للسهول المجاورة للسيرا ، أو ليقيموا فى ميروبريجا Mirobriga ، ويشلوا من هناك حركة القوط ، اتبعوا فى سيرهم الانحدارات الهائلة التى تنبع منها مياه نهير الهويبرا Huebra ، وراء القمم الشمالية لجبال سيرا دى فرانثيا[٨] . وانتهز لذريق فرصة عبور موسى لهذا الطريق الوعر ،

---

(١) الرسالة الشريفية ص ١٩٣ ، يقول صاحب الرسالة الشريفية : « فلما بلغ وادى المعرض ، اعترض جيوشه ، فسمى الوادى بذلك ، فعرف من معه ، فلما قرب من طليطلة خرج إليه طارق » ونفهم من هذه العبارة أن اللقاء بين موسى وطارق لم يتم فى المعرض على نحو ما ذكره سافدرا والدكتور مؤنس ، وإنما تم بعد ذلك فى الموضع الذى ذكره صاحب أخبار مجموعة .

(٢) وردت كلمة تايد فى أخبار مجموعة ص ١٨ ، بدون نقط ، ولعلها تايتر وهو اسم ذكره ردريجو الطليطلى Teitar لنهير فى هذه المنطقة .

(٣) الرسالة الشريفية ص ١٩٣ . (٤) المقرى ، نفح ١ ص ٢٥٥

(٥) Saavedra, op. cit. pp. 98-99.

(٦) ابن القوطية ص ١٠ المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٣

(٧) Saavedra op. cit. p. 99. حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٩٨ .

(٨) Ibid. p. 100.

وانقض بقواته القوطية على جيش موسى أمام بلدة سيجويلا دى لوس كورنيخوس[١] Segoyuela de los Cornejos ، بالقرب من بلدة تماسس Tamames ، وهناك حدثت الموقعة الفاصلة الثانية ، فى سبتمبر سنة ٧١٣ م . ونظراً لأن المكان الذى وقعت فيه الموقعة كان قريباً من بحيرات تماسس ، ونهير بار بالوس Barbalos الذى ينتهى عند السواقى ، فقد اختلط عند المؤرخين بنهر برباط وبحيرة خاندة وفى هذه الموقعة لقى لزريق مصرعه على يد مروان بن موسى بن نصير[٢] ، وهزم القوط هزيمة نكراء ، وقد حمل أتباع لذريق جثته ، ودفنوها فى مدينة بيزو Viseo ، وجاء فى حوليات الملك الفونسو العظيم Alfonso el Magno ، أنه رأى قبر لذريق ، وقرأ عليه عبارة منقوشة فى شاهد قبره نصها : "Hic requiescit Rudericus rex gothorum" ومعناها : هنا يرقد لذريق ملك القوط . ودارت حول مصرع لذريق كثير من الملاحم الإسبانية[٣] .

ثم دخل موسى وطارق مدينة طليطلة ، وهناك سلم إليه طارق الكنوز التى صادرها بالكنائس عند فتحه طليطلة ، وأقام بها موسى طوال فصل الشتاء من سنة ٩٤ هـ . يدبر أمرها ، ثم ضرب عملة ذهبية وأخرى برنزية لصرف رواتب الجند وذلك فى دار السكة القوطية بطليطلة[٤] . ثم بعث موسى رسولين من قبله إلى الوليد

---

(١) يقابل اسم سيجويلا Segoyuela فى المصادر العربية كلمة السواقى أو السوافى (انظر فتح الأندلس للمؤرخ مجهول ص ٨) وذكر الرازى Seguyue وهو لفظ قريب من لفظ السواقى (ارجع إلى — Lévi-Provençal, Hist. t. I, p. I, p.26 — Saavedra, op. cit. p. 100. حسين مؤنس فجر الأندلس ص ٩٩)

(٢) Saavedra, op. cit. p. 101. يعتمد سافدرا على نص عربى ورد فى كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة جاء فيه على لسان موسى بن نصير : « إن ابنى أتى بملك الأندلس لوذريق » ص١٥٦

(٣) Ibid. p. 102-103.

(٤) كانت هذه العملات الذهبية تحمل نقوشاً كتابية لاتينية على غرار العملات السابقة على الإسلام فى إسبانيا والمغرب ، وكتابات عربية فى آن واحد ، ولا تتسم هذه العملات بطابع خاص يميزها عن غيرها باستثناء العملات البرنزية التى تحمل اسم موسى وصورة وجهين ، والعملات الذهبية التى تحمل الكتابات اللاتينية وصورة تمثل سمكة . وكان وزن الدينار الذى سكه موسى يقرب من ٤ جرامات ، وتدور حول محيط وجهه العبارة الآتية H?LDFRTINSPANC III وترجمتها باللاتينية ما يلى : (Hic Solidus Feritus in Spania Anno XCIII) ومعناها ضرب فى اسبانيا عام ٩٣ هـ . وتتوسط ظهر الدينار نجمة من ثمانية رؤوس ، ويدور حول محيطه الكتابة الآتية : INNDINNDSD?NSDSSNDSA ، وترجمتها باللاتينية مايلى : In Nomine Domini non Deus Nisi Deus Solus Non Deus Alios ومعناها : =

يخبرانه بالفتح هما : مغيث الرومى[١] ، وعلى بن رباح التابعى[٢] . وذكروا أنه لما دخل وفد موسى إلى الوليد فى دمشق ، قال على بن رباح للخليفة : « تركته بالأندلس ، وقد أظهره الله ، ونصره ، وفتح على يديه ما لم يفتح على أحد مما لا قدرة له ، وقد وفدنى إلى أمير المؤمنين فى نفر من وجوه من معه بفتح من فتوحه فدفع إليه الكتاب من عند موسى ، فقرأه الخليفة ، فلما أتى الوليد على آخره خر ساجداً »[٣] .

حـ — فتح شمال إسبانيا :

لما انقضى فصل الشتاء عزم موسى على متابعة الفتح ، فجمع جيوشه بقيادة طارق ، وزحف بها نحو سرقسطة الواقعة على الضفة اليمنى من نهر ابرة[٤] ، فارتقى نحو الثغر الأعلى ، وصحبت الفتح هذه المرة موجة عاتية من التدمير والتخريب ،

= الله واحد والله عالم والله ليس له كفواً ، وهى اختصار من الآية الكريمة : (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) . وهناك دينارات عليها نقوش كتابية تجمع بين العربية واللاتينية ، ووجه هذه العملات تقرأ فى وسطه عبارة (محمد رسول الله) ، وفى محيطه (بسم الله ضرب هذا الدينار بالأندلس سنة . . .) وظهر هذه العملات عليه كتابات لاتينية تدور حول محيطه . وتكمل هذه المجموعة عملات ذهبية صغيرة هى النصف (١,٩٨ جرام) والثلث (١,٣٠ جرام) ، وتتميز بأن أوجهها تحمل فى وسطها صوراً تمثل كرة قائمة على عمود فوق خطين ، أو شكل حرف على خط أفقى ، ثم الكتابات اللاتينية على الوجهين .

Cf. Casto Maria del Rivero, La Moneda Arabigo-espanola, Madrid, 1933, p. 4. sq. — Saavedra, op. cit. p. 106 sq.

(١) ابن عبد الحكم ص ١٠٢ .

(٢) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ص ١٢٦ .

(٣) نفس المرجع . وذكر الدكتور حسين مؤنس أن مغيثا الرومى كان ناقماً عليه ، إذ ساءه أن ينسب الفتح إلى نفسه ، فشوه سمعة موسى عند الخليفة بما كان له أسوأ الأثر على مصير موسى فيما بعد (انظر فجر الأندلس ص ١٠١) . والواقع أن مغيثاً لم يكن ساخطاً على موسى فى هذه المرة ، وإنما نقم عليه عند عودتهم جميعاً إلى المشرق بعد أن استدعاهم الخليفة .

(٤) سرقسطة تعريب للاسم الرومانى قيصر أجستا Caesaraugusta ، لأن أغسطس قيصر هو الذى أسسها سنة ٢٣ ق . م على أطلال المدينة الأيبيرية القديمة التى كانت تعرف عند الأيبيريين باسم سلدوبا Salduba

(Francisco Abbad Rios, Zaragoza, Coleccion de guias Artisticas de Espana,) Barcelona, 1952, p. 5 (وانظر مقالى عن « سرقسطة » بدائرة معارف الشعب العدد ٦١ ص ٥٤)

ونهب البلاد وإحراقها ، وبث الرعب فى نفوس سكانها [١] . وقد أحدث ذلك التصرف من جانب موسى أثره السيئ فى نفس الخليفة ، فلم يمض عهد قصير حتى استدعاه إلى المشرق[٢] . ولما اقترب موسى من سرقسطة ، جمع الأسقف بنثيو Bencio ما استطاع جمعه هو وجماعة الرهبان ، من كتب مقدسة ، وآثار للقديسين ، وعزم على الرحيل خوفاً من جيوش المسلمين . ولكن موسى أرسل رسولا يؤمنهم ، ويعطيهم عهده ، فهدأت نفوسهم ، وعدلوا عن مغادرة المدينة ، وفتحت المدينة البيضاء (سرقسطة) أبوابها للفاتحين سنة ٩٤ هـ ، وأسرع حنش بن عبد الله الصنعانى التابعى بتأسيس مسجد سرقسطة الجامع وتركيز قبلته [٣] . وأوغل موسى فى البلاد ، وغنم غنائم هائلة ، ثم اتجه إلى لاردة وطركونة مارا بوشقة ، وكانت أغلب المناطق التى سار فيها الجيش أرضاً جرداء ، يتحدث أهلها بلاتينية لا يفهمها الإسبان الآخرون الملازمون لموسى (وهم أدلاء يليان) ، فزهد المسلمون فى هذه البلاد ، التى يسكنها قوم على حد قول ابن عذارى « كالبهائم »[٤] . وقيل إن موسى لما أوغل ، وجاوز سرقسطة اشتد ذلك على الناس ، وقالوا أين تذهب بنا ، حسبنا ما فى أيدينا ، فوقف حنش الصنعانى فى وجهه وقال : « أين تذهب ، تريد أن تخرج من الدنيا أو تلتمس أكثر وأعظم مما أعطاك الله ، وأعرض مما فتح الله عليك ودوخ لك ، إنى سمعت من الناس ما لا تسمع ، وقد ملوا أيديهم ، وأحبوا الدعة » فضحك موسى ، وانصرف حنش عنه إلى سرقسطة [٥] . وسرعان ما استرد الجند نشاطهم وحماسهم فى الفتح ، وبينما كان موسى يعد العدة للدخول فى بلاد جليقية ، إذ أتاه مغيث الرومى رسول الوليد بن عبد الملك ، يأمره بالخروج من

---

(١) يقول ابن حيان : « وقد ألقى الله الرعب فى قلوب الكفرة ، فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح وموسى يجىء على أثر طارق فى ذلك كله ، ويكمل ابتداءه ، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه » المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٥ .

(٢) ذكر صاحب الرسالة الشريفية ، أنه اتصل بالوليد بن عبد الملك تلوم الأمير موسى بن نصير بالمسلمين فى الأندلس ، وتقحمه بهم أرض العدو من غير مؤامرة ، فأقلقه ذلك ، وبعث مولاه مغيثا إليه وأمره أن يعنفه ويقفله إلى إفريقية » ص ٢٠٤ .

(٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، المجلد الأول مدريد ١٨٩١ ص ١١١ — الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ص ٩٧ — المقرى ، نفح الطيب ج ٤ ص ٦ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٢٤ — ابن قتيبة ، السياسة والإمامة ص ١٣٣ .

(٥) ابن قتيبة ، المرجع السابق ص ١٣٧ .

الأندلس ، والكف عن التوسع فى البلاد ، ويأخذه بالقفول إلى دمشق ، « فساءه ذلك ، وقطع به عن إرادته ، إذ لم يكن فى الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته غير جليقية ، فكان شديد الحرص على اقتحامها[١]» . فلما جاءه مغيث الرومى وأبلغه ما أمره به الخليفة ، تحايل على البقاء فى الأندلس بعض الوقت ريثما يتم فتح جليقية ، فلاطف مغيثاً وسأله إمهاله ، « إلى أن ينفذ عزمه فى الدخول إليها ، والمسير معه فى البلاد أياماً ، ويكون شريكه فى الأجر والغنيمة[٢]» ، وذكر صاحب الرسالة الشريفية أن موسى وهب مغيثاً « الموضع الذى ينسب إليه فى عهد المسلمين ، وهو بلاط مغيث بجميع أرضه من أرض الخمس »[٣] ، نظير إمهاله بعض الوقت ، ومصاحبته فى غزو جليقية[٤] ، وقبل مغيث هذه الشروط ، فلما اطمأن موسى إلى ذلك ، بادر بالسير شمالا بقصد الاستيلاء على قشتالة القديمة Castilla la Vieja تأميناً للحدود الشمالية لإقليم طليطلة [٥] ، وكان يتفرع من سرقسطة طريقان رومانيان يتجهان من الشرق إلى الغرب ، الأول يذهب بحذاء نهر إبرة حتى هارو Haro ، ومن هناك يتبع برفيسكا Briviesca ثم أماية ، ثم ليون واسترقة ، والثانى ينفصل من الطريق الأول عند بدايته ويتجه إلى قلونية وبلنسية ، ويلتقى بالطريق الممتد من ماردة إلى استرقة فى مدينة بناڤنتى . وكان لابد لموسى من السير فى كل من هذين الطريقين ، فقسم جيشه إلى قسمين : قسم بقيادته ، والآخر بقيادة طارق

واختار موسى الطريق الثانى ، وعهد إلى طارق بالسير فى الطريق الأول أدنى سفوح سلسلة جبال قنطابرية . وشرع طارق فى مهاجمة البشكنس على يسار نهر إبره واضطر فرتون ، زعيم إقليم شية Ejea إلى الدخول فى طاعة المسلمين ، بل واعتنق

---

(١) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٥٨ . (٢) نفس المرجع .

(٣) الرسالة الشريفية فى الأقطار الأندلسية ص ٢٠٤ .

(٤) كان مغيث الرومى غسانى الأصل ، فهو مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغسانى ، سبى من الروم بالمشرق وهو صغير فأدبه عبد الملك بن مروان مع ولده الوليد ، (انظر المقرى ، نفح الطيب ج ٤ ص ١١) ، ولاشك أنه كان لديه إلمام بلغة البيزنطيين وهى اللاتينية ، بحكم أصله الرومى كما أنه كان شجاعاً فى مضايق الحروب ، مشهوراً بحسن الرأى ، وقد شاهدناه فى فتح قرطبة بطلا شجاعاً حسن الرأى ، فلا عجب أن يتمسك به موسى .

(٥) Saavedra, op. cit. p. 114

الإسلام ، ولذلك أعفيت شية من التخميس [١] ، وإليه ينتسب بنوقسى أصحاب الثغر الأعلى ، وفى هذه الحملة استولى طارق على أماية واسترقة اللتين ذكرهما مؤرخو العرب خطئاً فى حملته سنة ٩٢ هـ (٧١١ م)[٢] . أما موسى ، فقد سار بحذاء الضفة اليمنى لنهر إبره ، وافتتح حصن بارو Villabaruz ، ثم انحرف شمالا ودخل أشتوريش حتى وصل إلى قلعة لك ، Santa Maria de Lugo باشتوريش واستولى عليها ، « فأقام هناك وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الأخضر[٣] ، فلم تبق كنيسة إلا هدمت ، ولا ناقوس إلا كسر ، وطاعت الأعاجم ، فلاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز ، وكان العرب والبربر كلما مر قوم منهم بموضع استحسنوه ، حطوا به ونزلوه قاطنين »[٤] . ولما استولى موسى على قلعة لك ، فر أهلها إلى منطقة جبلية وعرة تسمى Los Picos de Europa. واستمر موسى فى سيره حتى أدرك خيخون ، فاستولى عليها ، وجعلها قاعدة لهذه المنطقة ، وأقام عليها قائداً بربرياً من قواته هو مونوسة ، وهكذا وصلت جيوش موسى حتى البحر المحيط ، ولكنه أراد أن يفتتح جليقية ، ويبدو أنه استولى على مدينة لك الجليقية Lugo إذ أن رسولا آخر من الخليفة الوليد يكنى أبا نصر بعثه إلى موسى عند ما استبطأه فى القفول ، أتاه وهو فى مدينة لك بجليقية[٥] . وهنا نلاحظ

---

(١) الرسالة الشريفة ص ٢٠٠ – Saavedra, op. cit. p. 114.

(٢) يقول ابن القوطية ص ٩ ، فى فتح هذه المنطقة على يدى طارق : « ثم تقدم إلى استجة وإلى قرطبة ثم إلى طليطلة ثم إلى الفج المعروف بافج طارق الذى دخل منه جليقية ، فخرق جليقية حتى انتهى إلى استرقة » ويقول صاحب أخبار مجموعة ص ١٥ : « ثم مضى إلى المدينة أماية فأصاب بها حلياً ومالا ، ثم رجع إلى طليطلة سنة ثلاث وتسعين ، » ويقول المقرى ج ١ ص ٢٤٩ « وقيل إنه لم يرجع (إلى طليطلة) بل اقتحم أرض جليقية واخترقها حتى انتهى إلى مدينة استرقة فدوخ الجهة وانصرف إلى طليطلة والله أعلم » .

(٣) هو المحيط الأطلسى وكان يسمى أيضاً الأقيانوس وبحر الظلمات .

(٤) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٨ .

(٥) المرجع السابق . يستبعد الدكتور مؤنس أن يكون الوليد قد أردف مغيثاً بأبى نصر ، إذ لا يتفق أن يكون الخليفة قد استطال المدة القصيرة ما بين وصول مغيث وأبى نصر وهى ثلاثة شهور ، ويظن أن أبا نصر كنية لمغيث (فجر الأندلس ص ١٠٦) . ولكننا لا نوافق الدكتور مؤنس فيما ذهب إليه ، فلماذا نستبعد قدوم الرسول الآخر الذى أرسله الوليد إلى موسى ، عند ما وصلته أنباء تفيد بأن موسى يطمع فى فتح غالة والوصول إلى رومة ؟ (انظر ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ص ١٣٨) ، بل الوصول إلى بلاد الشام عن طريق إفرنجة (المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٩) فى الوقت الذى سئم المسلمون فيه الفتح ، وأظهروا رغبتهم فى العودة إلى قرطبة ؟ ثم إننا نعلم كما بينا من قبل أن الوليد كان حريصاً على سلامة المسلمين =

أن هناك موضعين بهذا الاسم ، واحد ذكره المقرى باسم قلعة لك ، وهى حصن باشتوريش قرب أبيط Oviedo ، والثانى ذكره باسم مدينة لك بجليقية ، وهى مدينة من أهم مدن هذا الإقليم[1].

ولم يجد موسى بدأ من العودة ، فخرج على الفج المعروف باسمه (فج موسى) ، ووافاه طارق فى الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى .

وهناك بعض المؤرخين أمثال ابن حيان ، يذكرون أن موسى بن نصير بعد أن افتتح سرقسطة ، بعث بعوثه وسراياه إلى قطالونية ، فاستولت على برشلونة ، ومن هناك اخترقت جبال البرتات (البرانس) ، وتوغلت فى بلاد غالة فاستولت على أربونة Narbonne ، وصخرة إينيون Avignon ، وحصن لودون على وادى ردونة[2] (وادى الرون) . ولا نستبعد أن تكون بعض قوات موسى قد افتتحت برشلونة ولاردة Evora وجزء من إقليم قطالونية ، وأنها وصلت إلى جبال البرتات واجتازتها إلى قرقشونة[3] ، فهو نفس الطريق الذى اتبعه السمح بن مالك بعد ذلك بسنوات ومن هنا ذكرت المصادر العربية رواية خرافية ورد فيها أنه « انتهى إلى مفازة

=تعارض منذ البداية على إقحامهم فى بحر شديد الأهوال . فلما نمى إليه ما شرع فيه موسى من فتح غالة ، اشتد قلقه ، وأرسل أبا نصر رسولا ثانياً إلى موسى ، يستعجله القفول إلى دمشق . لذلك نعتقد تماماً أن أبا نصر شخص آخر غير مغيث الرومى ، فقد نص المقرى على ذلك صراحة بقوله : « وقفل معهم (أى مع موسى وطارق ومن آثر العودة من المسلمين) الرسولان مغيث وأبو نصر » (المقرى ج ١ ص ٢٥٨) . ولا يعقل أن يكون مغيث قد قفل إلى المشرق للمرة الثانية ثم عاد إلى الأندلس ، كل ذلك فى مدة لا تزيد على ثلاثة شهور ، فى الوقت الذى أجمعت المصادر العربية فيه على أن مغيثا كان مصاحباً لموسى فى حملته بأرغونة وأشتوريش .

(١) Gonzalez Palencia, Historia de la Espâna Musulmana, C. Labor, Madrid 1945, p. 11

(٢) المقرى ، ج ١ ص ٢٥٦ –
Francisco Codera : Limites probables de la conquista arabe en la Cordillera Pirenaica, (pp. 97-235), en Estudios Criticos de Historia arabe espanola, VIII, Madrid, 1917, p. 107.

(٣) ذكر المقرى أنه انتهى إلى حصن من حصون العدو يقال له قرقشونة ، كما ذكر أن المسافة بين قرقشونة وبين برشلونة خمسة وعشرين يوماً (نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٠ – شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، مصر ١٣٩٢ هـ ص ١٤) .

ويذكر ابن خلدون أن موسى توغل فى الأندلس إلى برشلونة فى جهة الشرق وأربونة فى الجوف (المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢١٨) .

كبيرة ، وأرض سهلة ذات آثار ، فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية ، مكتوباً فيه بالنقر كتابة غريبة ، فقرئت ، فإذا هى : يا بنى إسماعيل انتهيتم فارجعوا ، فهاله ذلك ، وقال : ما كتب هذا إلا لمعنى كبير ، فشاور أصحابه فى الإعراض عنه ، وجوازه إلى ما وراءه ، فاختلفوا عليه ، فأخذ برأى جمهورهم ، وانصرف بالناس »[١] . ومع أن هذه الرواية تبدو لنا خيالية ، إلا أنها تتضمن حقيقة لاشك فيها ، وهى أنه عدل عن متابعة السير فى فتوحه إلى إفرنجة ، بدليل أنه عندما اضطر للقفول إلى الشرق ، أسف على ما لحقه من إزعاج ، وكان « يؤمل أن يخترق ما بقى عليه من بلاد إفرنجة ، ويقتحم الأرض الكبيرة ، حتى يتصل بالناس إلى الشام ، مؤملا أن يتخذ مخترقه بتلك الأرض طريقاً مهيعاً يسلكه أهل الأندلس فى مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً »[٢] . ولا نستبعد أن من موسى هذا الخاطر الجرىء ، الذى نما إلى الوليد ، فاشتد قلقه على المسلمين ، وقد رأيناه حريصاً على سلامتهم عند فتح الأندلس ، ورأى أن ما هم به موسى فيه غرر بالمسلمين ، فاستدعاه لذلك إلى دمشق . أما استيلاء موسى على أربونة وصخرة إينيون وغير ذلك ، وارتياع قارلة ملك الفرنجة بالأرض الكبيرة (افرنجة أوغالة) ، وانزعاجه لانبساط المسلمين ، وقيامه بمهاجمتهم ثم هزيمته لهم ، فأمر بعيد عن الحقيقة ، فإن شارل مارتل لم يكن قد ظهر بعد[٣] ، كما أنه لا يعقل أن يقوم موسى بكل هذه الفتوحات فى فترة قصيرة للغاية لا تتجاوز ثلاثة شهور ، وعلى هذا فإننا نستنتج بأن ما ذكره ابن حيان بشأن اقتحام موسى لإفرنجة ، واكتساحه أراضيها حتى ليون ، فأمر لا يقبل حتى مجرد الاحتمال ، وكل ما فى الأمر — على ما نعتقد — أنه خلط بين أعمال موسى من فتح قطالونية ، ووصول عسكره إلى قرقشونة ، وبين أعمال عنبسة بن سحيم الكلبى ، وعذرة ابن عبد الله وغيرهم من ولاة الأندلس .

بادر موسى وطارق ورسولا الخليفة بالعودة إلى جنوب الأندلس ، مع من آثر من جنود المسلمين الاستقرار فى المواضع التى كانوا قد اختطوها واستوطنوها ، فوصلوا إلى طليطلة ، ومنها اتجهوا إلى قرطبة فإشبيلية . وفى هذه المدينة الأخيرة ،

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤ — المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٥٩ .

(٢) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٩ . (٣) Codera, op. cit. p. 108.

استخلف موسى ابنه عبد العزيز فى ذى الحجة سنة ٩٥ هـ ، بعد أن اختارها له عاصمة للأندلس (١) ، وترك معه حبيب بن أبى عبدة بن عقبة بن نافع وزيراً له ومعيناً (٢) . وعبر القائدان الزقاق إلى إفريقية يحملان معهما الغنائم ويجران خلفهما موكباً طويلا من قواد المسلمين ، ورؤساء القوط المغلوبين . واستخلف موسى ابنه الأكبر عبد الله على إفريقية، وابنه مروان على طنجة والوسوس. ثم مضى إلى دمشق ماراً بمصر ومعه مائة رجل من أشراف الناس من قريش والأنصار وسائر العرب ومواليها ، منهم عياض بن عقبة ، وأبو عبيدة وعبد الجبار ابن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، والمغيرة بن أبى بردة ، وزرعة بن أبى مدرك ، وسليمان بن بحر ، كما خرج معه من البربر مائة رجل ، منهم أبناء كسيلة وملك السوس الأقصى ، وملك قلعة أوساف ، وملك ميورقة ومنورقة (٣) . وذكروا أن الوليد بن عبد الملك كان مريضاً ، فكتب أخوه سليمان إلى موسى يأمره بالإبطاء رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى ، فيقدم موسى على سليمان فى أول خلافته بتلك الغنائم ، فيعظم بذلك مقامه عند الناس ، فأبى موسى أن يفعل ذلك ، وجد فى السير حتى قدم دمشق والوليد حى ، فسلم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر ، فلم يمكث الوليد إلا يسيراً بعد قدوم موسى ثم توفى ، وأفضت الخلافة إلى سليمان ، فحقد على موسى ، وصب عليه جام غضبه (٦) . وقيل إن موسى وصل بعد وفاة الوليد ، فقدم على سليمان حين استخلف ، وكان منحرفاً عليه ، إذ كان طارق ومغيث قد سبقاه إليه ، ورمياه بالخيانة عند سليمان ، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة ، فعزله سليمان عن أعماله ، وأقصاه ، وحبسه وأغرمه غرماً عظيماً (٥) . ولكننا نستبعد صحة هاتين الروايتين ، ولا يمكننا أن نصدق أن

---

(١) ابن القوطية ص ١٠ – أخبار مجموعة ص ١٩ – ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٣٠ .
وفى أسباب اختيار موسى لمدينة إشبيلية ، . يقول صاحب أخبار مجموعة : «وهى مدينة على نهر عظيم لا يخاض ، فأراد أن تكون فيه سفن المسلمين ، وتكون باب الأندلس » . ويقول المقرى : « وأقره بمدينة إشبيلية لاتصالها بالبحر ، نظراً لقربه من مكاره المجاز » نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٨ .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٠ .

(٣) نص ابن قتيبة من كتاب الامامة والسياسة ص ١٤١ – ١٤٣ .

(٤) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٢ .

(٥) أخبار مجموعة ص ٢٠ – المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٢ .

يعاقب سليمان تابعياً جليلا كموسى بن نصير، أسس ملكاً من عدمه ، وقضى سنى حياته مجاهداً فى سبيل الله ، لمجرد قالة ظالمة أو وشاية فى حقه ، ولو كان سليمان قد فعل ذلك ، لكان أولى به أن يعاقبه بعزل أبنائه الثلاثة عن المغرب والأندلس ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . حقيقة أن عبد العزيز موسى لقى مصرعه بإشبيلية على أيدى كبار الجند ، ولكن لم يكن لسليمان يد فى مقتله ، على الرغم مما زعمه المؤرخون من أنه كان المتسبب فى قتل عبد العزيز ، وأنه أمر بطرح رأسه أمام موسى ابن نصير [١] ، ذلك لأن سليمان غضب لمقتل عبد العزيز وأرسل إلى الأندلس عاملا من قبله للتحقيق فى مقتل عبد العزيز بن موسى والقبض على قتلته وإرسالهم إليه[٢] .

ونعتقد أن سليمان أخذ على موسى بعض الهفوات ، وأنه كان حانقاً عليه إما لأن مغيثا الرومى قد شكاه إليه [٣] أو لأنه قد بلغه سعى موسى لفصل المغرب والأندلس عن الخلافة بعد أن ولى أولاده الثلاثة عليهما ، وضرب عملة باسمه ، وأيًّا كانت أسباب حنقه عليه ، فلم يكن ذلك سبباً فى معاقبته له العقاب الشنيع الذى يتحدث عنه المؤرخون ، والواقع أن سليمان عفا عن موسى بفضل وساطة عمر ابن عبد العزيز ، واستبقاه إلى جواره رحمة بشيخوخته ، إذ كان موسى قد قارب الثمانين ، بدليل أنه كان يخرج معه فى نزهاته[٤] ، وأنه حج معه إلى مكة سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) حيث توفى موسى هناك [٥]. وكيفما كان الجزاء الذى لقيه

---

(١) ابن قتيبة ص ١٧٤ .

(٢) يقول صاحب أخبار مجموعة : « ولما بلغ سليمان مقتل عبدالعزيز بن موسى شق ذلك عليه فولى إفريقية عبد الله بن يزيد لقريش ، وإلى والى إفريقية كان أمر الأندلس وطنجة وكل ما وراء إفريقية ، وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن أبى عبيدة ، وزياد بن النابغة من قتل عبد العزيز بأن يتشدد فى ذلك وأن يقفلهما إليه ، ومن شاركهما فى قتله من وجوه الناس . ثم مات سليمان ، فسرح عبد الله بن يزيد والى إفريقية على الأندلس ، الحر بن عبد الله الثقفى ، وأمره بالنظر فى شأن قتل عبد العزيز » انظر أخبار مجموعة ص ٢٢ » .

(٣) لا شك أن خلافاً حدث بين موسى ومغيث عند عودتهما إلى المشرق لأسباب ، منها أن موسى كان يعمل على إحاطة نفسه بهالة من المجد ، باعتباره بطل المغرب والأندلس ، وأنه أخرج مغيثا من بلاط قرطبة ووهبه داراً أخرى بغربى المدينة ، وأن مغيثا كان يطمع فى ولاية الأندلس أو العودة إليها على الأقل ، وقد نجح فى العودة إليها وأنسل بقرطبة بنى مغيث (انظر المقرى ج ٤ ص ١١ وما يليها) .

(٤) ابن قتيبة ص ١٧٨ . (٥) نفس المرجع ص ١٨٤ .

موسى على يدى سليمان ، فلقد ظلمه الخليفة بإهماله له ، وعدم وفائه له بقدر مما يستحقه من مكافأة ، فقد أثبت موسى بفتوحاته فى المغرب والأندلس أنه من أعظم قواد المسلمين ، وإليه يرجع الفضل فى نثر بذور الإسلام فى العالم الأوربى الوسيط .

٤

عبد العزيز بن موسى واستكمال فتح الأندلس

لم يفتح المسلمون جميع أنحاء شبه الجزيرة ، فقد بقيت فى البلاد مناطق لم تصل إليها جيوش الإسلام بعد ، كما تألفت فى بعض الأقاليم مراكز للمقاومة القوطية ضد المسلمين ، الذين أخذوا يفدون إلى الأندلس من بلاد المغرب والمشرق ، واقتضى الأمر إخماد هذه المراكز وإتمام فتح الأندلس . وأخذ عبد العزيز على عاتقه هذا العبء . ولقد ورث عبد العزيز عن أبيه صفات العزم والقوة ، وكان مثل أبيه قائداً مظفراً ، شارك فى فتح الأندلس ، وقام باسترداد أشبيلية بعد أن انتقض فيها أهلها ومن انضم إليهم من بقايا جيش القوط القادمين من باجة وأكشونبة ولبلة .

وما كاد عبد العزيز يتولى إمارة الأندلس فى ذى القعدة سنة ٩٥ هـ (سبتمبر سنة ٧١٤ م) ، حتى قام بحملة لاستكمال فتح بلاد غرب الأندلس (البرتغال حالياً) . إلا أن المصادر العربية لم تزودنا بمعلومات عن هذه الحملة[١] . ولكن ساقدرا يرجح أن عبد العزيز قام بهذه الحملة قبل رحيل أبيه إلى دمشق ، ويقول : « يبدو لى — حسب ما أعتقده — أنه بينما كان موسى وطارق يفتحان البلاد من سرقسطة عبر قشتالة القديمة ، لم يكن عبد العزيز الذى كان قد وصل إلى باجة سنة ٧١٣ عاطلا ، إذ أنه شغل عام ٧١٤ بالزحف نحو يابرة Evora ، وشنترين Santarem ، وقلمريه Coimbra ، وظل متجهاً إلى أقصى الغرب بقصد ملاقاة

---

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 30. فيما يختص بأقوال المؤرخين العرب عن هذه الحملة فهو قليل لا يفيدنا شيئاً ، فكل ما قاله ابن القوطية أن عبد العزيز « أقام يفتتح ما بقى عليه من مداين الأندلس » ص ١٠ أما صاحب أخبار مجموعة فأشار إلى أنه « افتتح فى ولايته مداين كثيرة » ص ٢١ . وقال المقرى : « فضبط سلطانها ، وضم نشرها ، وسد ثغورها ، وافتتح فى ولايته مدائن كثيرة مما كان قد بقى على أبيه موسى منها » ج ١ ص ٢٦٣ .

وذكر ابن قتيبة : أن عبدالعزيز بن موسى غزا بالناس حتى بلغوا أرض القوطيين » ص ١٣٨

الفرق الإسلامية الأخرى فى استرقة Astorga »(١) ويستند سافدرا فى رأيه هذا على عبارة وردت فى الرسالة الشريفية ، ونصها : « فلم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم ، وتصيرت ملكاً لهم إلا قسم موسى بن نصير بينهم أراضيها ، إلا ثلاثة بلاد وهى شنترين وقلنبرية فى الغرب وشية فى الشرق ، وسائر البلاد خمست وقسمت بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير »(٢) . ومعنى هذا أن عبد العزيز افتتح شنترين وقلمرية صلحاً وذلك أثناء وجود أبيه بالأندلس .

ثم وجه عبد العزيز نظره بعد ذلك إلى جنوب شرق الأندلس ، وهو من المناطق التى أفلتت من موجات الفتح الإسلامى ، فطارق دق إسفيناً فى البلاد من الوسط ، وموسى افتتح غرب الأندلس وشماله ، أما شرق الأندلس وجنوبه الشرقى فكان من نصيب عبد العزيز بن موسى . فبادر عبد العزيز بافتتاح مالقة وغرناطة عنوة ، وضم يهودها إلى القصبة(٣) . ومن هناك اتجه عبد العزيز نحو شرق الأندلس ، فدخل كورة تدمير (إقليم مرسية) وحاضرته أوريولة Orihuela ، وسميت هذه الكورة كذلك ، نسبة لملكها تدمير ابن عبدوش Teodomiro B. Ergobado . وقصة فتح عبد العزيز لتدمير قصة شيقة يرويها مؤرخو العرب ، فلقد سار عبد العزيز بقواته إلى فحص أوريولة ، وهزم تدمير وأصحابه فى قرطاجنة(٤) ، ووضع المسلمون فيهم السيف ، يقتلونهم كيف شاءوا ، حتى نجا تدمير فى شرذمة من قلال أصحابه إلى حصن أوريولة ، حاضرة الكورة ، وكانت مدينة غاية فى المنعة والتحصين وكان تدمير مجرباً بصيراً ذا هيبة ، فلما رأى قلة أصحابه ، أمر النساء فنشرن شعورهن ، وأمسكن القصب بأيديهن ، وظهرن على السور فى زى القتال ، متشبهات بالرجال ، « وتصدر قدامهن فى بقية أصحابه ، يغالط المسلمين فى قوته

---

(١) Saavedra, op. cit. p. 127.

(٢) الرسالة الشريفية إلى الأقطار الأندلسية ص ٢٠٠ .

(٣) ينسب الرازى فتح مالقة وغرناطة إلى جيش وجهه طارق بن زياد (المقرى ج ١ ص ٢٤٧) ، بينما يذكر المقرى أن موسى هو الذى أرسل ابنه عبد الأعلى إلى غرناطة ومالقة وكورة رية وتدمير ، فافتتحها جميعاً (المقرى ج ١ ص ٢٥٧) . غير أننا لا نرى هذا الرأى ، فقد ثبت أن عبد العزيز بن موسى هو الذى سار إلى تلك المنطقة وافتتحها ، وقد حفظ لنا نص معاهدته مع ملك تدمير .

(٤) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ص ١٥١ .

على الدفاع عن نفسه ، فكره المسلمون مراسه لكثرة من عاينوه على السور[١] » .

ثم هبط من السور ، وتنكر فى زى رسول ، فاستأمن ، فأمن ، ثم فاوض عبد العزيز فى الصلح ، فعقده له ولأهل بلده على ما أحب ، وفتحت تدمير صلحاً . فلما انتهى من عقد الصلح ، أدخل المسلمين المدينة ، فلم يروا فيها جيشاً للدفاع ، فندموا على تسرعهم . ونص معاهدة الصلح ، يتضمن اعترافاً من جانب المسلمين باستقلال تدمير فى مدائنه السبعة ، التى وردت فى كتاب الصلح ، ما دام يحافظ على حقوق المسلمين ويدفع لهم الجزية . ويبدو أن شروط الصلح كانت تسرى فقط فى حياة الأمير ، إذ لم يرد فى كتاب الصلح نص يشير إلى استمرارها على أولاده من بعده ، ويستبعد الدكتور مؤنس أن يكون تاريخ عقد كتاب الصلح فى رجب سنة ٩٤ هـ (أبريل سنة ٧١٣ م) ويعتقد أنه حدث فى أوائل سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) ، لأن موسى لم يغادر الأندلس إلا فى ذى القعدة من سنة٩٥ هـ[٢] (٧١٤ م)، وهوفى ذلك يتفق مع ما ذكره ساقدرا[٣].

لم تقتصر فتوحات عبد العزيز بن موسى على هذا الحد ، فقد ذكر دون فرنسسكو كوديرة ، أنه طالع مخطوطاً عربيّاً[٤] جاء فيه أن عبد العزيز خرج مع الناس فى حملة حتّى بلغ أربونة . ويرى الأستاذ المذكور أن هذه هى أول مرة يرد فيها خبر صريح عن وصول المسلمين حتّى أربونة ، وهو خبر له دلالته ، إذ أنه قبل أن تصل الجيوش إلى أربونة ، لابد من افتراض سقوط برشلونة وجرندة Gerona بدون مقاومة ، أو بعد مقاومة ضعيفة ، ويضيف دون فرنسسكو أن صاحب هذا الخبر لا يحدد تاريخاً ولكنه — أى دون فرنسسكو — يعتقد أن سقوط جرندة وبرشلونة حدث بين عامى ٩٥ ، ٩٧ هـ (٧١٣ — ٧١٦م)[٥] . وذكر ساقدرا ، مستنداً

---

(١) انظر نص الرازى فى نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٧ – أخبار مجموعة ص ١٣ – ابن عذارى ج ٢ ص ١٦ – الحميرى ، ص ١٥٢ .

(٢) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ١١٧ .

(٣) Saavedra, op. cit. p. 132.

(٤) هذا المخطوط فى مكتبة الجزائر رقم ١٨٣٦ ، ورقة ١٦٢ ظ .

(٥) Françisco Codera; Narbona, Gerona y Barcelona bajo la dominaciôn Musulmana, en Estudios Criticos de la Historia Arabe, p. 293.

على ابن الفرضى ، أن نعمان بن عبد الله بن النعمان الحضرمى ، ومحمد بن حبيب المعافرى عادا من الأندلس إلى دمشق ، فسألهما سليمان بن عبدالملك عن حوائجهما ، فسأله المعافرى حوائج فقضيت ، وقال النعمان : حاجتى أن تردنى إلى ثغرى ، ولا تسلنى عن شيء ، فاستشهد فى أقصى ثغور الأندلس . ويضيف ابن الفرضى ، أنه خرج إلى الأندلس غازياً وقتله الروم بأرض الأندلس[١] ، ونستنتج من ذلك أن النعمان المذكور حارب فى أقصى شمال إسبانيا بعد أن أذن له الخليفة سليمان بالعودة للجهاد ، ولابد أن يكون ذلك قد تم بعد عودة موسى من الأندلس وذلك فى ولاية عبد العزيز ابن موسى ، مما يدل قطعاً على أن المسلمين استأنفوا القتال مع البشكنس . ويستند ساقدرا كذلك على نص ورد فى كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، بأنه وجدت شهادة على بن رباح ، وحنش بن عبد الله الصنعانى فى عهد بنبلونة[٢]. ولما كانت بنبلونة Pampluna قد سقطت فى أيدى المسلمين قبل عام ٧١٨ م[٣] وهو عام وفاة حنش ، فيحتمل أن يكون فتحها قد تم فى عهد عبد العزيز ، لأن موسى كان قد أوغل فى بلاد البشكنس «حتى أتى قوماً كالبهائم»[٤] ، وذلك لأنهم كما يقول الحميرى «يتكلمون بالبشقية لا يفهمون»[٥] ويقصد بهم الحميرى أهل بنبلونة.

* * *

وهكذا استكمل عبد العزيز بن موسى فتح الأندلس ، واتجه إلى تنظيم البلاد ، وإدارة شئونها ، واستقر فى جانب من كنيسة يقال لها ربينة[٦] أو رفينة[٧]

---

(١) ابن الفرضى : كتاب تاريخ علماء الأندلس ، نشره كوديره ، مدريد سنة ١٨٩١ — ١٨٩٢ ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٠٩ ، ٢٥٦ .

(٣) توفى حنش الصنعانى سنة ١٠٠ هـ (أى ٧١٨ م) . انظر جذوة المقتبس ، ص ١٩١ — ابن الفرضى ج ١ ص ١٠٩ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٢٤ — الإمامة والسياسة ، ص ١٣٣ .

(٥) الحميرى ، وصف جزيرة الأندلس ص ٥٦ .

(٦) ابن القوطية ص ١١ . يقول ابن القوطية : « . . . وكان ذلك بمسجد ربينة المشرف على مرج إشبيلية ، إذ كان ساكناً فى كنيسة ربينة وإذ كان نكح امرأة من القوط تسمى أم عاصم ، كان يسكن معها فى هذه الكنيسة ، وكان قد ابتنى على بابها المسجد الذى قتل فيه ، وكان دمه فيه على عهد قريب . . . »

(٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣١ .

Santa Rufina ، وأقام فى جانب آخر من هذه الكنيسة مسجداً هو مسجد رفينة[١] ، وهو نفس المسجد الذى سمى فيما بعد باسم مسجد رابطة عنبر أو رابطة باب عنبر[٢] . ويبدو أن العلاقة بين الأمير عبد العزيز وبين كبار رجال الجيش كانت سيئة للغاية ، لأشياء نقموها عليه[٣] ، فلقد ذكروا أن عبد العزيز بن موسى تزوج أم عاصم ، أرملة لذريق ، وكانت تسمى أيلة[٤] Egilona ، وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح ، وباءت بالجزية ، وأقامت على دينها فى ظل نعمتها إلى أن تزوجت الأمير عبد العزيز[٥] ، ويبدو أنها كانت على درجة كبيرة من الجمال والذكاء بحيث استطاعت أن تفتن زوجها ، وتملك زمامه ، ولعلها كانت تهدف من وراء ذلك إلى استرجاع مكانتها القديمة كملكة للأندلس بعد أن قتل الفاتحون زوجها لذريق ، وفى هذه الحالة يمكننا أن نفترض أنها حرضت زوجها عبد العزيز على الاستقلال بالأندلس ، وتأسيس دولة يكون هو ملكها . وقد تكون قد نجحت فيما سعت إليه ، ولقيت من عبد العزيز تجاوباً خاصة بعد أن بلغته الأنباء بما تعرض له أبوه من سوء معاملة الخليفة سليمان بن عبد الملك له ، وهذا يفسر ما تردد فى كتب التاريخ بما عزم عليه عبد العزيز من خلع دعوة بنى مروان ، واستبداده بأمره ، لما بلغه ما نزل بأبيه[٦] . وهناك روايات تشير إلى أن زوجة عبد العزيز أقنعته بوضع التاج على رأسه تشبهاً بالملوك ، وأنها دفعته إلى التحايل على إرغام الناس على الانحناء له بطريق غير مباشر ، فاتهمه

---

(١) ابن القوطية ، ص ١١ — فتح الأندلس لمؤرخ مجهول ص ٢٢ .

(٢) ابن الزبير ، كتاب صلة الصلة ، نشره ليڤى بروڤنسال ، باريس ١٩٣٨ ص ٣٩ — ابن الأبار ، التكملة ، ملحق نشره جنثالث بلنسية إلى طبعة كوديرة ، فى Miscelanea ، مدريد ١٩١٥ ص ٤٢٢ .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣١ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٠ — المقرى نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٦٣ .

(٥) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٣ .

(٦) ابن عذارى ج ١ ص ٤٧ ، ج ٢ ص ٣١ . وذكر ابن قتيبة فى كتابه الإمامة والسياسة ، أنه « لما بلغ عبد العزيز ما فعل سليمان بموسى ، تكلم بكلام خفيف حملته عليه حمية لما صنع بموسى على بلائه ، فنميت إلى سليمان ، فخاف أن يخلع » . ص ١٧٠ .

الناس بالتنصر وقتلوه[1] . وأغلب الظن أنها ملفقة ، وضعت خصيصاً لتبرير مقتل عبد العزيز ، ولكنها تتضمن معنى لا يمكن أن نغفله ، وهو ادعاء عبد العزيز الملك ، والتظاهر به ، وسواء كانت هذه الروايات صحيحة أو ملفقة ، فإنها تعكس أمراً واحداً ، وهو أن الناس بدأوا يشكون فى نوايا عبد العزيز نحو الخلافة الأموية ، وإن كان الاتهام الذى وجه إلى عبد العزيز فى هذه الروايات ، يصطبغ فى الظاهر بصبغة دينية هى التنصر.

ولابد أن عبد العزيز بن موسى قد أظهر أمام أحد قواده شيئاً من الامتعاض على تصرف الخليفة سليمان نحو أبيه ، أو أنه اضطر رغماً عنه إلى التنفيس عن نفسه « بكلام خفيف[2] » أساء إلى الخليفة ، فتناقل الناس هذا الكلام محرفاً مشوهاً ، فوصل إلى رؤساء الجند وعلى رأسهم حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة ، الذى كان موسى قد أقامه وزيراً لابنه ، وأيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير ، وزياد بن عذرة البلوى ، وغيرهم . فأجمعوا على قتله غيرة على الخلافة الأموية[3] ، ثم أبلغوا الخليفة بمقتله بسبب خروجه عليه ، بعد أن أقاموا على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمى مؤقتاً حتى أرسل إليهم عبد الله بن يزيد ،

---

(١) ذكر صاحب أخبار مجموعة أن زوجة عبد العزيز قالت له : « إن الملوك إذا لم يتوجوا فلا ملك لهم . فهل لك أن أعمل لك مما بقى عندى من الجوهر والذهب تاجاً . فقال لها : ليس هذا فى ديننا . فقالت له : من أين يعرف أهل دينك ما أنت عليه فى خلوتك ، فلم تزل به حتى فعل . فبينما هو يوماً جالس معها ، والتاج عليه ، إذا دخلت امرأة كان قد تزوجها زياد بن النابغة التميمى ، من بنات ملوكهم ، فرأته والتاج على رأسه ، وقالت لزياد : ألا أعمل لك تاجاً . فقال : ليس فى ديننا استحلال لباسه ، فقالت فودين المسيح إنه لعلى إمامكم ، فأعلم بذلك زياد حبيب بن أبى عبدة بن عقبة بن نافع ، ثم تحدثا به على خيار الجند ، فلم تكن له همة إلا كشف ذلك حتى رآه عياناً ، ورآه أهله صدقاً ، فقالوا تنصر ، ثم هجموا عليه فقتلوه فى عقب ثمان وتسعين . » (أخبار مجموعة ص ٢٠ – ابن عذارى ج ٢ ص ٣١) . وذكر المقرى أنها قالت له : « لم لا يسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للذريق أهل مملكته ، فقال لها : إن هذا حرام فى ديننا ، فلم تقتنع منه بذلك ، وفهم لكثرة شغفه بها أن عدم ذلك مما يزرى بقدره عندها ، فاتخذ باباً صغيراً قبالة مجلسه يدخل عليه الناس فينحنون ، وأفهمها أن ذلك الفعل منهم تحية له ، فرضيت بذلك ، فنمى الخبر إلى الجند » المقرى ج ١ ص ٢٦٣ .

(٢) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ص ١٧٠ .

(٣) وقد يكونوا قد قتلوه بدافع من الغيرة والحسد لما صار إليه أولاد موسى من تفوق وارتفاع مكانة ، فقتلوه واختلقوا هذه الروايات كذباً ، وقد حقق سليمان فى قضية عبد العزيز فوجد أنه برىء مما نسبوه إليه « فألفى ذلك باطلا ، وأن عبد العزيز لم يزل صحيح الطاعة مستقيم الطريقة » ابن قتيبة ، ص ١٧٦ .

والى إفريقية ، والياً من قبله هو الحر بن عبدالرحمن الثقفى سنة ٩٩ هـ . أما ماقيل من أن سليمان هو الذى دبر قتله ، وهو الذى دس عليه من قتله[1] وقدم برأسه عليه فأمر بعيد الاحتمال ، فلو كان سليمان هو المدبر لهذه الجريمة ، لكان قد قد بادر بتنصيب وال مكانه ، ولما مكث أهل الأندلس شهوراً لا يجمعهم وال ، حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمى[2] ، ولما شق على الخليفة نبأ مقتله ، فأمر والى إفريقية عبد الله بن يزيد بالتحقيق فى مقتله ، والقبض على قتلته وهم حبيب بن أبى عبدة ، وزياد بن النابغة ، ومن شاركهما فى قتله[3] ، ولما أسف على قتله بعد أن ثبتت له براءته مما اتهم به[4].

* * *

وعلى الرغم من قصر عهد عبد العزيز بن موسى ، فقد كان من أعظم ولاة الأندلس ، فقد كان له الفضل الأعظم فى تثبيت دعائم السيادة الإسلامية فى شبه جزيرة أيبيريا ، واستكمال فتحها . كما كان مصلحاً ، استطاع أن يضبط سلطان الأندلس ويقضى على الثورات فيها . وهو أول من نظم البلاد من الناحية الإدارية ، ومهد لنقلة الإسبان إلى الاستعراب ، وضرب المثل الأول على ذلك بزواجه من قوطية هى أم عاصم ، أرملة لذريق .

---

(١) ابن القوطية ، ص ١١ — ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢ — ابن قتيبة ، ص ١٧٠ — ١٧٣ — المقرى ، ج ١ ص ٢٦٣ .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣

ويقول ابن القوطية : « وكان قتله فى آخر سنة ثمان وتسعين ، ومكثوا سنين لا يجمعهم وال ، إلا أن البربر قدموا على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمى (انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ١١ وما يليها) .

ويقول صاحب أخبار مجموعة : « ثم اجتمع أهل الأندلس بعد أن أقاموا سنين لا يجمعهم وال ، على ابن حبيب اللخمى وكان رجلا صالحاً يؤمهم لصلاتهم ، فلما أطال بهم ولوه أمرهم ، وحولوا السلطان إلى قرطبة فى أول سنة تسع وتسعين ، وكان مقتل عبد العزيز بن موسى فى عقب ثمان وتسعين » . ص ٢١ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٢٢ .

(٤) ابن قتيبة ، ص ١٧٦ .

ملحق ــ نص كتاب الصلح الذى صالح المسلمون عليه تدمير

(من كتاب « وصف جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار
فى خبر الأقطار » لابن عبد المنعم الحميرى»[1] . ص ٦٣)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير ، لتدمير بن عبدوش أنه نزل على الصلح ، وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر ، ولا ينزع من ملكه ، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ، ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ، ولا يكرهوا على دينهم ، ولا تحرق كنائسهم ، ولا ينزع عن كنائسه ما يعبد ، وذلك ما أدى الذى اشترطنا عليه ، وأنه صالح على سبع مدائن :

أوريولة (Orihuela) وبلتنة (Baltana) ولقنت (Alicante) ومولة (Mula) وبلانة (Villena) ولورقة (Lorca) وأله (Ello) ، لايأوى لنا آبقاً ، ولا يأوى لنا عدواً ، ولا يخيف لنا آمناً ، ولا يكتم خبر عدو علمه ، وأن عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة ، وأربعة أمداد قمح ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط خل ، وقسطى عسل ، وقسطى زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . وكتب فى رجب سنة ٩٤ من الهجرة » .

(١) وردت هذه الوثيقة فى بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس للضبى ، ص ٢٥٩ وفيها بعض التحريف .

الفصل الثالث

عصر الولاة

١ ــ عناصر السكان : ا ــ المسلمون (العرب والبربر والموالى والمسالمة والمولدون)
ب ــ العجم أو المستعربون .
حـ ــ اليهود .

٢ ــ عصر الولاة والتوسع الإسلامى فيما وراء البرتات .

٣ ــ النزاع بين العرب والبربر .

٤ ــ تحول النزاع بين البلديين والشاميين إلى صراع بين القيسية واليمنية .

٥ ــ بدء حركة الاسترداد المسيحى .

الفصل الثالث

عصر الولاة

١

عناصر السكان

تم فتح المسلمين للأندلس ، واستقرت أقدامهم فى أرضها ، فتوزعوا مناطق سكناها فيما بينهم ، وشهدت الأندلس فى هذا العصر الذى تبع الفتح الإسلامى مباشرة تنوعاً فى العناصر التى ضمتها إسبانيا الإسلامية من حيث الجنس والعقيدة والثقافة ، فلقد ضمت الأندلس مع العرب الفاتحين (البلديون) ، والعرب الوافدين (الداخلون)، جماعة من الإسبان المسالمة ، أى الذين دخلوا فى الإسلام ، والعجم الذميين أو المستعربين ، وهم الذين بقوا على دينهم فى ظل الحكم الإسلامى ثم طائفة المولدين ، وهم نتاج التزاوج بين رجال العرب ونساء الإسبان ، ثم البربر الذين دخلوا مع طارق أو الذين هاجروا من بلاد المغرب [1] ، إما بحثاً وراء المغانم ، أو سعياً للاستقرار ، ثم طائفة اليهود .

أولا — المسلمون :

ا — العرب :

دخلوا الأندلس على موجات متتابعة أو طوالع ، بالإضافة إلى من هاجر إليها من أهل الشام وغيرهم من العرب على أثر انتصار طارق على القوط فى موقعة وادى

---

(١) ما كادت أنباء الانتصار الذى أحرزه جيش المسلمين فى وادى لكة ، والمغانم التى ظفروا بها تصل إلى مسامع أهل بر العدوة ، حتى أقبلوا إلى الأندلس من كل وجه « وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر » . انظر المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

لكة ، وبعد أن استقرت أقدام المسلمين فى الأندلس ، وتتام فتحها على يدى موسى بن نصير وولده عبد العزيز[1] .

وأول هذه الطوالع طالعة موسى بن نصير (فى رجب سنة ٩٣ هـ) ، وكانت تتألف من ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر[2] ، وأغلبهم من قريش والعرب ووجوه الناس ،[3] ثم طالعة الحر بن عبد الرحمن الثقفى (فى ذى الحجة سنة ٩٧ هـ) ، إذ قدم والياً على الأندلس ومعه « أربعمائة رجل من إفريقية ، فهم أول طوالع الأندلس المعدودين »[4] . وكان أغلب عرب هاتين الطالعتين من اليمنيين ، وسموا بالبلديين أو أهل البلد[5] ، لأنهم استقروا فى بلاد الأندلس ، واعتبروا أنفسهم من أهلها وأصحابها

ثم تأتى طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيرى فى سنة ١٢٤ هـ (٧٤١ م) ، وأغلبهم من العرب القيسيين ، ممن تحصنوا بسبتة بعد هزيمة البربر لهم فى واقعة الإشراف ، واضطر والى الأندلس عبد الملك بن قطن الفهرى إلى الاستعانة بهم ، على إخماد ثورة البربر فى الأندلس ، فعبروا إلى الأندلس . ويذكر ابن القوطية أن عدد جنود هذه الطالعة كان يقرب من عشرة آلاف ، منهم ألفان من الموالى ، وثمانية آلاف من العرب[6] ، وقد سمى عرب هذه الطالعة بالشاميين تمييزا لهم عن البلديين . ولقد بدأ النزاع ينشب بين الشاميين والبلديين منذ أن أتم الشاميون مهمتهم فى الأندلس ، وأرادوا الاستقرار فيها . ثم تحول هذا النزاع إلى صراع بين العصبية اليمنية والعصبية القيسية ، على نحو ما سنراه فيما بعد .

ثم وفدت على الأندلس الطالعة الثانية من الشاميين ، وهم ثلاثون رجلا ، فى صحبة أبى الخطار حسام بن ضرار الكلبى[7] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧١ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ص ٩٦ — الحميرى ، جذوة المقتبس ص ٥ — ابن خلدون عن المقرى ج ١ ص ٢١٨ .

(٣) الرسالة الشريفية ص ١٩٢ .

(٤) الرازى عن المقرى ، ج ٤ ص ١٣ — فتح الأندلس لمؤرخ مجهول ص ٢٣ .

(٥) ابن القوطية ، ص ١٩ وما يليها — أخبار مجموعة ص ٤٤ ، ٤٦ .

(٦) ابن القوطية ، ص ١٥ .

(٧) ابن القوطية القرطبى ص ١٩ .

وهكذا أخذت الأندلس تموج بمن وفد عليها من العرب ، واستقر هؤلاء في المناطق الخصبة التي تفيض بالخيرات ، وكونوا مراكز قوية للعروبة ، وهي نواة الأرستقراطية العربية ، التي ظلت غالبة على الأندلس حتى نهاية دولة الإسلام ، وكانوا ينزلون في عمائر وقبائل وبطون وأفخاذ ، حتى قطع المنصور بن أبي عامر ذلك بقصد تشتيتهم ، « وقطع التحامهم وتعصبهم في الاعتزاء »[١].

وكانت جماعات اليمنية تفوق جماعات العدنانية في الأندلس عددا وقوة ، فقد ذكر المقرى أنهم « الأكثر بالأندلس ، والملك فيهم أرسخ ، إلا ما كان من خلفاء بني أمية »[٢] . ونستطيع أن نستنتج مما ذكره ابن غالب الأندلسي في « فرحة الأنفس[٣]» ، وابن حزم في « جمهرة أنساب العرب[٤] » ، أن المنازل التي نزلها العرب في سائر أنحاء الأندلس كانت تتميز بأنها أخصب مناطق البلاد ، وأطيبها ، فقد نزلوا في مدن السهول ، وعلى الأخص في سهول وديان نهر الوادي الكبير مثل فحص إشبيلية وقرطبة واستجة ، وفي الفحوص الخضراء لوادي شنيل ووادي تاجة ، ووادي إبرة ، وفي مروج شرق الأندلس[٥] ، وفي السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية ، ففي طليطلة استقر الوقشيون الكنانيون والأنصار ، وفي إشبيلية استقر بنو زهرة وبنو قيس بن عيلان وبنو عباد والباجي اللخميون ، وبنو هوازن ابن عكرمة ، والبلويون من قضاعة ، والحضرميون من حضرموت ، وفي أوريولة بنو هذيل بن مدركة ، وفي بلنسية بنو بكر بن هوازن ، وفي وادي آش بنو أسد ابن ربيعة ، وفي غرناطة بنو عطية بن ربيعة ، وبنو عبد السلام من خولان ، وبنو أضحى من همدان ، وبنو جودي من هوازن ، وبنو القليعي من أزدم ، وبنو الأحمر من سعد بن عبادة ، وفي قرطبة بنو حمديس من تغلب ، وبنو سراج من مذحج ، وبنو الأصبح من كهلان ، وبنو جهور من تغلب ، والحضرميون ، وفي أونبة ، وشلطيش بنو بكر بن وائل ، وفي سرقسطة بنو عذرة وبنو الخزرج ، وفي شقورة

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ .

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٢٧٤ .

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٢٧١ — ٢٧٩ .

(٤) أبو محمد على بن حزم القرطبي ، جمهرة أنساب العرب ، نشره ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨

(٥) Lévi-Provençal, histoire, t. I, p. 84.

بنو غافق . . . إلى آخره .

وكان العرب يعيشون كالسادة الرومان والقوط ، إذ كانوا يمتلكون إقطاعيات كبيرة ، يكلون أمر زراعتها ورعايتها إلى الفلاحين الإسبان أو المولدين من العامة ، بينما يقيمون فى ضيعاتهم أو مجاشرهم أو منياتهم بالقرب من المدن ، ولذلك كانوا يتمتعون بحياة الترف والنعيم ، وكان عرب بلد الأندلس « أشبه بالملوك »[1] فى حياتهم عند ما قدم عليهم عرب الشام لمساعدتهم فى إخضاع بربر الأندلس .

كذلك اتخذ العرب الذين استقروا فى المناطق الزراعية بعيداً عن المدن حصوناً أو أبراجاً للاحتماء فيها ، مثل حصن مراد الواقع بين إشبيلية وقرطبة ، وقلعة بنى سعيد المعروفة بقلعة يحصب وتقع فى إقليم غرناطة ، ومثل قلعة خولان الواقعة بين الجزيرة الخضراء وإشبيلية ، وقلعة جابر التى تقع شمالى إشبيلية ، وقلعة أيوب التى أقامها أيوب بن حبيب اللخمى فى الثغر الأعلى ، وقلعة رباح الواقعة بين قرطبة وطليطلة ، كما أن بعض العرب أقاموا لأنفسهم ضياعاً سميت بأسمائهم ، مثل منزل همدان ، بالقرب من غرناطة ، ومنزل طىء قبلى مرسية ، ودار بلى شمالى قرطبة .

ب — البربر :

لعب البربر دوراً هاماً فى فتح الأندلس ، فقد كان الجيش الذى قاده طارق يتألف كله من البربر ، وما كادت أنباء النصر الذى أحرزه طارق على القوط تصل إلى المغرب ، حتى هرع إلى الأندلس عدد هائل منهم بغية التماس الغنائم أو الاستقرار فى هذه البلاد الغنية . وظلت بلاد المغرب مصدراً للهجرات البربرية إلى الأندلس حتى قيام دولة بنى أمية ، بل إننا سنرى بعد ذلك كيف أن بعض خلفاء بنى مروان يستكثرون من بربر العدوة ، ويعتمدون عليهم فى جيوشهم ، وقد زودنا ابن خلدون بأسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش طارق ، الذى دخل الأندلس ، وهى مطغرة ، ومديونة ، ومكناسة ، وهوارة ، وكلها متفرعة من زناتة[2] ، ثم يضيف ابن حزم فى الجمهرة قائمة بقبائل أخرى

---

(١) أخبار مجموعة ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ١٠٦ وما يليها .

وفدت إلى الأندلس ، وهي مغيلة ، وملزوزة ، ونفزة ، وأوربة ، ومصمودة[1]. ويذكر ابن حزم أن بربر بنو رزين (من مديونة) استقروا فى السهلة[2]، وبنى غزلون (من تيروال) فى شاطبة، وبنى ذى النون (من هوارة) فى وبذة ، وبنى الفرج (من مصمودة) فى وادى الحجارة . . . إلخ . ويؤكد الأستاذ ليفى بروفنسال أن هؤلاء البربر استقروا بلا استثناء تقريباً فى المناطق الجبلية التى لا يندر وجودها فى شبه جزيرة أيبيريا ، ويعلل ذلك بأنه لم يكن لديهم الخيار ، لأن العرب اختصوا لأنفسهم بأكثر الجهات خصباً ، مثل فحوص الأندلس ، والمنيات الشرقية ، ولما كان البربر قد قدموا من بلاد جبلية ، فقد كان فى مقدورهم التكيف باستقرارهم خارج المناطق السهلة، وذلك بشغل الأراضى المرتفعة فى هضبة الميزيتا الوسطى ، وسفوح جبال السيرا ، حيث قاموا بتربية الماشية ، وغرس الأشجار ، ونعموا بحياة استقلالية ، لا يخضعون فيها للسادة العرب[3].

غير أن الدكتور حسين مؤنس لا يعتقد أن العرب لم يختصوا أنفسهم دون البربر بأحسن الأراضى ، ويرجع أسباب ثورة البربر إلى سوء معاملة العرب لهم ، ويعزز رأيه بأن العرب الأوائل ، الذين نزلوا الأندلس مع موسى ، تحالفوا مع البربر الذين دخلوا الأندلس مع طارق وتسموا جميعاً بالبلديين ، ونفر هؤلاء البلديون من العرب الشاميين ، أتباع بلج ، عند ما أرادوا مشاركتهم فى أراضى الأندلس . ويؤكد الدكتور حسين مؤنس « أن المسلمين الأول الذين دخلوا البلاد ، عرباً وبربراً ، استقروا حيث نزلوا أو ساروا ، ولجأ فريق منهم إلى ما يناسب مزاجه من النواحى ، فأما العرب ، فكانوا يفضلون دائماً البسائط والمنخفضات والنواحى الدفيئة والقليلة المطر ، فى الجنوب والشرق والغرب ، وناحية سرقسطة ، وأما البربر فكانوا فى بلادهم يعيشون فى بلاد جبلية عالية ، فألفوا مثل هذه البلاد فى الأندلس ، فاستقروا فيها باختيارهم[4] » .

حقيقة أن بربر الأندلس تحالفوا مع عربها أى البلديين ضد الشاميين ،

---

(١) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ص ٤٦١ – ٤٦٧ .

(٢) نلاحظ أن الاسم الاسبانى الحالى للسهلة (البرازين Albarracin) محرف من بنى رزين .

(٣) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 87.

(٤) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٣٨٨ .

وتعصبوا لعبد الملك بن قطن الفهرى وقالوا لأهل الشام : « بلدنا يضيق بنا ، فاخرجوا عنا[1] » . ولكنهم تحالفوا مع العرب البلديين رغبة فى أن تتاح لهم الفرصة لينالوا ثأرهم من الشاميين الذين مزقوا ثورتهم فى الأندلس ، « فإذا فرغوا كان لهم فى أهل البلد رأى » [2] . وحقيقة أن بربر الأندلس ثاروا على العرب فى شمال الأندلس وفى جنوبه لسوء معاملتهم لهم ، رغم تفوق البربر على العرب فى العدد . ولكن يبدو أن أسباب الخلاف بين العرب والبربر ترجع إلى استئثار العرب بالأراضى الخصبة دون البربر ، وكان البربر لذلك كله يضمرون للعرب السوء ، وينتظرون فرصة مواتية فيثبون عليهم ، « فلما بلغهم ظهور بربر العدوة على عربها وأهل الطاعة ، وثبوا فى أقطار الأندلس ، فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب أسترقة والمدائن التى خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن إلا فلهم قد قدم عليه وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس ، إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم ، فإنهم كانوا أكثر من البربر ، فلم يهج عليهم البربر » [3] . فالثورة البربرية قامت بالذات فى المناطق الشمالية من الأندلس حيث كان يقيم العدد الأعظم من البربر ، وقام بها البربر لطرد العرب الذين قادوهم لفتح هذه البلاد الغنية ، وقد كان أبو الخطار عادلا فى توزيع جنود الشام على أموال أهل الذمة من العجم ، وبقى البلديون والبربر على غنائمهم[4] . وإذا كان ابن حزم قد ذكر قبائل بربرية فى مناطق الأندلس الجنوبية ، فإن هذا لم يحدث إلا فى عهد متأخر لأن حركة الاسترداد الإسبانى دفعت البربر الذين كانوا يقطنون المناطق الشمالية إلى الهجرة جنوباً ، وترك مناطق الثغور ، فاستقرت جماعات من البربر منذ عصر بنى أمية فى الغرب واسترامادور ، وفى المناطق الجبلية التى تمتد بين هاتين المنطقتين نحو الشمال الشرقى حتى جبال وادى رامة ، كذلك كانت المناطق الأندلسية التى أقام بها البربر مناطق مرتفعة مثل مرتفعات قرمونة ، ومدينة شذونة ، وشعاب رندة ، ومالقة ، وسفوح جبل

---

(١) ابن القوطية ص ١٦ وما يليها — أخبار مجموعة ، ص ٤٢ ، ٤٥ — المقرى ج ٤ ص ٢٠ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٤٣ — المقرى ، ج ٤ ص ٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٨ — ابن عذارى ج ٢ ص ٤٣ .

(٤) ابن القوطية ص ٢٠ .

شلير بغرناطة[١] . وقد اشتهر من البربر بنو البرزالى الذين نزلوا بقرمونة ، وبنو اليفرنى برندة ، ، وبنو هرزون فى شريش ، وبنو ذى النون بوبذة ، وبنو رزين بالسهلة وبنو عميرة بشاطبة ، وبنو فرفرن بماردة ومدلين ، وبنو إلياس بشذونة ، كما نزل آخرون فى الثغور أمثال بنو سالم بمدينة سالم ، وبنو عوسجة ، وبنو صبرون بن شبيب ، وبنو وهب بن عامر ، وبنو عزون ، وبنو نعمان ، فى المنطقة التى تحيط بمدينة سالم ، والتى تضم شنتبرية ، والسهلة ، ووادى الحجارة ، وتمتد هذه الكتلة شرقاً فتشمل تيروال والبونت ، ثم تمتد غرباً فتشمل مناطق طلبيرة وماردة وقورية حتى المحيط عند قلنبيرة[٢] ، كما أن عدداً كبيراً من البربر كان يسكن مناطق ما وراء الدروب أى شمالى نهر التاجة والدويرة[٣] .

ولقد لعب البربر دوراً هاما فى تاريخ الأندلس ، إذ يرجع إليهم الفضل الأعظم فى نشر الإسلام والجهاد فى سبيله ، كما أنهم اختلطوا بأهل البلاد اختلاطاً وثيقاً ، وكانوا للعرب أعواناً فى تغلغل الإسلام فى سائر أنحاء البلاد ، الأمر الذى يجعل الطابع البربرى ظاهرة واضحة فى جنوب الأندلس حتى الوقت الحاضر[٤].

حـ — الموالى :

دخل عدد كبير من موالى بنى أمية الأندلس فى طالعة بلج . إذ كان جيشه يتألف من ألفى مولى وثمانية آلاف من العرب[٥] ، ومنذ ذلك الحين أصبحوا

---

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 88.

(٢) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٣٨٤ وما يليها — لطفى عبد البديع ، الإسلام فى إسبانيا ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٢ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٣٨ . كذلك نفهم ذلك من قوله : « وكانت قد رأست البربر بالأندلس على أنفسهم ابن . . . وحشدوا من جليقية واستورقة وماردة وقورية وطلبيرة فأقبلوا فى شىء لا يحصيه عدد حتى أجازوا نهراً يقال له تاجة » ص ٣٩ وما يليها .

(٤) Lévi-Provençal, Histoire, t. I., p. 88. — حسين مؤنس ، المرجع السابق ص ٣٩٠.

(٥) ابن القوطية ص ١٥ . وذكر ابن القوطية أن الجيش الذى قدم به كلثوم بن عياض إلى إفريقية كان يتألف من ثلاثين ألفاً منهم عشرة (آلفا من . .) بنى أمية ، وعشرون ألفا من بيوتات العرب » . وظن دون خوليان ريبيرا أن هذه اللفظة الناقصة يمكن ملؤها بكلمة الموالى ، وفسر الدكتور مؤنس ذلك بأن المراد ببنى أمية هؤلاء مواليهم من أهل الشام أو العراق وفارس (انظر فجر الأندلس ص ٣٩٨) . والواقع أن هذا النص الذى أورده ابن القوطية منقول عن ابن القطان الذى نقل عنه أيضاً ابن عذارى إذ يقول=

يؤلفون حزباً هاماً انضم إليه من كان فى الأندلس من موالى بنى أمية . وأغلب هؤلاء الموالى من أهل المغرب الذين دخلوا فى ولاء بنى أمية أو عمالهم ، ومنهم بنو الخليع وبنو وانسوس ، وبقية الموالى من المشرق ، فمنهم دمشقيون ، وأردنيون ، وقنسريون ، وعراقيون ، وفرس .

وازداد عدد الموالى فى الأندلس بعد دخول بلج الأندلس وأصبحوا يؤلفون طائفة قوية تعرف بالأمويين[١] ، وازداد الأمويون فى الأندلس قوة بعد سقوط دولة بنى أمية فى المشرق وفرار عدد هائل منهم إلى إفريقية والأندلس ، بحيث صاروا بدخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ومحالفته لليمنية[٢] قوة كبرى غلبت قوة أهل الشام والمضرية كلها ، وقد نجح موالى بنى أمية فى تأسيس دولة بنى أمية فى الأندلس ، وذلك لاتحادهم والتفافهم حول عبد الرحمن بن معاوية[٣].

كذلك دخل فى جمهرة الموالى بالأندلس عدد كبير من الإسبان الذين دخلوا فى ولاء بنى أمية بعد الفتح الإسلامى ، أمثال بنو قسى ، وبنو بارون ، وبنو غومس ابن قارلة ، وبنو مرتين[٤] ، وأصبحوا موالى اصطناع التماساً لحماية بنى أمية[٥].

وقد لعب الموالى دوراً هاما فى تاريخ الأندلس فى العصر الإسلامى ، إذ اعتمد عليهم بنو أمية ، وقلدوهم أهم مناصب الدولة ، لتفانيهم فى الإخلاص لها[٦] ، فكان منهم الوزراء ، والكتاب ، والقواد ، والقضاة . ونجح الموالى فى كورة إلبيرة فى تأسيس دولة لهم على رأسها عبد الوهاب بن جرج[٧] أيام الفتنة الأولى .

= « فيهم عشرة آلاف من صلب بنى أمية ، وعشرون ألفاً من سائر العرب » البيان ج ١ ص ٥٥ ، ج ٢ ص ٤٢ .

(١) ورد اسم الأمويين عند خروج بلج من قرطبة لمقابلة جيوش عبد الرحمن بن علقمة ومن معه من أعداء الشاميين ، وكان مع بلج « عشرة آلاف من الأمويين والشاميين » ابن القوطية ص ٨٦ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٨٣ .

(٣) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٤٠٣ .

(٤) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٤٠٤ .

(٥) نفس المرجع ص ٤٠٧ .

(٦) ازدادت مكانة الصقالبة فى عهد عبد الرحمن الناصر ، فأصبحوا يلقبون بالفتيان الأبناء (Lévi-Provençal, L'Espagne Musulmane au Xe siècle, p. 106, Note 10) — ويسميهم ابن القوطية أبناء نعم الخلفاء (تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٣).

(٧) ابن حيان ، المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ، نشره ملشور انطونية ، باريس ١٩٣٧ ص ٣٢ .

د ـ المسالمة :

وإلى جانب العناصر الإسلامية السابقة ، من عرب وموالى وبربر ، كانت جماعة الإسبان الذين دخلوا الإسلام ، ويسميهم مؤرخو العرب المسالمة ، وقد كان لسياسة التسامح الحكيمة التى سار عليها الفاتحون العرب عقب الفتح ، أثر كبير فى إسلام عدد هائل من الإسبان ، وبالتدريج نبذ كثير من أهل الذمة دينهم المسيحى ، واعتنقوا الإسلام ، إما بحثاً وراء مصلحة شخصية ، أو إيماناً صادقاً بهذا الدين الذى ضمن للمسالمة الوقوف مع العرب على قدم المساواة . والواقع أن الفاتحين العرب لم يتعرضوا لأهل الذمة بضر ، ولم يفرضوا عليهم الدين الإسلامى . قهراً[1] جرياً على سياسة لا إكراه فى الدين ، ثم إنهم كانوا يعتبرونهم من أهل الكتاب[2] ، وقد دخل كثير من هؤلاء الإسلام بمحض إرادتهم ، لأن الذمى إذا أسلم ، كان ينتقل إلى وضع المسلم دون تفريق أو تمييز ، وهو على نقيض ما كان يحدث فى المشرق الإسلامى[3] . وعلى هذا النحو دخل كثير من أهل الأندلس الإسلام ، وأصبحوا فى عداد المجموعة الإسلامية ، وتلاشى كل شىء يتصل بأصلهم[4] . ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن أغلبية الجماعات الأولى

---

(١) Lévi-Provençal, L'Espagne Mus., p. 32

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 73.

(٣) يقول ڤلهوزن : « لم يكن العرب ينظرون إلى الموالى فى المشرق نظرتهم إلى أنفسهم ، فإذا كان الموالى فى الجيش ، فإنهم كانوا يحاربون مترجلين ، لا على الخيل ، وكانوا إذا برزوا ينظر إليهم بشىء من الريبة ، وهم وإن كانوا يتقاضون رزقاً ويأخذون نصيباً فى الغنيمة ، فإنهم لم تكن لهم أعطيات ثابتة ، فلم يكونوا مقيدين فى الديوان ، أعنى فى سجل المقاتلة ، الذين تفرض لهم الأعطيات . ومع أنهم كانوا قد اندمجوا فى القبائل العربية ، فإنهم كانوا يسمون أهل القرى تمييزاً لهم عن أهل القبائل ، ومع أنهم كانوا مسلمين ، فإنهم لم تسقط عنهم الجزية . . . ولو أن العرب عاملوا من دخل فى الإسلام من الأعاجم معاملة المساوين لهم لكان من الممكن أن يتحقق مزج بين الأمتين ، ولكن العرب بما صنعوه ربوا فى أحضانهم اعداء لأنفسهم . » (يوليوس ڤلهوزن : تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٤٧٢) . وقد حاول عمر بن عبد العزيز أن يمزج الرعايا الأعاجم بالعرب عن طريق الإسلام ، ذلك بأن سوى بين الداخلين فى الإسلام وبين العرب من الناحية السياسية وبأن أسقط عنهم الجزية ، ولكن يظهر أن هذا المبدأ لم يلبث أن ألغى فى عهد خلفه . (نفس المرجع ص ٤٣٩) .

(٤) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٤٢٩ .

التى أسلمت من الإسبان ، كانت من العبيد ورقيق الأرض ، فقد كانت حالة رقيق الأرض من السوء بحيث بدا الإسلام فى نظرهم كمخرج من المتاعب التى كانوا يئنون تحت ثقلها[1] ، كذلك دخل الإسلام كثير من الزراع ، وأهل المدن على اختلاف طبقاتهم ، فتساووا جميعاً فى ظل الإسلام .

هـ — المولدون :

لما كان الفاتحون العرب والبربر قد تركوا نساءهم فى بلادهم ، فقد أقبلوا على مصاهرة الإسبان ، أهل البلاد ، ومضوا على هذا النحو ، يتزوجون من الإسبانيات ما شاءوا ، وعاشروا أهل البلاد ، وجاوروهم ، وعن طريق المجاورة والمصاهرة ، انتشر الإسلام فى الأندلس انتشاراً تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، وهكذا امتزجت دماء الفاتحين من العرب والبربر بدماء أهل البلاد ، ونشأ من ذلك جيل جديد من آباء مسلمين عرفوا بالمولدين ، وكان عبد العزيز بن موسى أول من تزوج بإسبانية ، إذ تزوج من ايخيلونا Egilona أرملة لذريق ، فحذا حذوه كثير من رجال العرب أمثال زياد بن النابغة التميمى ، الذى تزوج هو الآخر من إحدى أميرات إسبانيا[2] ، وعيسى بن مزاحم الذى تزوج من سارة القوطية Sarre La Gothe بنت المند بن غيطشة[3] .

وقد احتفظ كثير من المولدين بأسمائهم القديمة ، أمثال : بنو أنجلين Angelino[4] وبنو شبرقة Sabarico[5] ، وبنو الجريج Jorge[6] ، وبنو لنتق Longo ،

---

(١) نفس المرجع ص ٤٣٠ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٠ .

(٣) ابن القوطية ص ٦ . تزوجت سارة بعد وفاة زوجها عيسى سنة ١٣٨ هـ من عمير بن سعيد وولدت له حبيب بن عمير جد بنى سيد وبنى حجاج وبنى مسلمة وبنى حجز الجرز ، وهؤلاء أشراف ولد عمير بإشبيلية .

(٤) ابن حيان ، المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ، نشره الأب ملشور م . أنطونية ، باريس ١٩٣٧ ص ٧٠ .

(٥) منهم محمد بن عمر بن خطاب بن أنجلين أحد زعماء المولدين بإشبيلية فى عهد الأمير عبد الله . (انظر المرجع السابق ص ٧٤) .

(٦) المرجع السابق ص ٧٤ — Dozy, Histoire, t. II, p. 40.

وبنو القبطرنة Kabturno ، [١] وبنو مردنيش Martinez ، وبنو غرسيه Garcia ، وبنو ردلف Rodolfo [٢] .

ومن الولاة والمولدين الذين احتفظوا بأسمائهم القديمة بنو موسى بن فرتون القسوى أصحاب تطيلة والثغر الأعلى فى عهد بنى أمية [٣] ، وكان جدهم فرتون Fortun قومس Comes الثغر فى عهد القوط ، ومع أن هؤلاء المولدين كانوا يدينون بالإسلام ، ويتخذون نوع الحياة التى يتخذها المسلمون الوافدون على الأندلس ، فإنهم لم يفقدوا شخصيتهم الذاتية باعتبارهم إسبانيى الأصل [٤] ، ولقد تألفت من المولدين جماعات كبيرة فى مدن إسبانيا الهامة مثل طليطلة التى كانت مركزاً من أهم مراكز العصبية المولدة ودعوى المولدين ، وكانت تضم أكبر طائفة منهم ، وقد ظهر ذلك فى حركاتهم الثورية المتعددة ، وميولهم الانفصالية عن سلطان قرطبة ، وكان يتولى طليطلة أمير منهم ، ومن هؤلاء الولاة عمروس الوشقى المولد [٥] ، ولب بن طربيشة [٦] . كذلك كانت إشبيلية معقلا من معاقلهم ، فقد كانوا يمثلون أكبر طائفة من سكان مدينة إشبيلية ، وكانوا يعملون بالتجارة والإدارة ولذلك جنوا أرباحاً هائلة . وكانوا يجنحون إلى السلم ولذلك لم يفكروا فى الثورة ضد أمراء قرطبة الذين يعتبرونهم حماتهم [٧] ، إلا فى أواخر عهد الأمير عبد الله وذلك لمواجهة العصبية العربية المتزايدة . وكان مولدو إشبيلية بالذات يتمتعون بعطف الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، ذلك لأن أبناء سارة القوطية وهم بنو حجاج وبنو مسلمة وبنى سيد وبنى حجز الجزر ، كان يحيطهم برعايته ، لأنه كان قد شاهد أمهم فى دمشق وهو صبى ، فحفظ لها ذلك بالأندلس ، فكانت إذا أتت إلى قرطبة أذن لها ولأولادها فى دخول القصر [٨] .

ولقد تعصب المولدون لأصلهم الإسبانى — مع كونهم مسلمين — وتحالفوا مع

---

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 76.

(٢) ابن حيان ، المرجع السابق ص ١٦ .

(٣) ابن حيان ص ١٦ .

(٤) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 76.

(٥) ابن القوطية ص ٤٦ .

(٦) ابن حيان ، المقتبس ص ١٨ .

(٧) Dozy, Histoire de l'Espagne Musulmane, t. II, p. 40.

(٨) ابن القوطية ص ٥ ، والمصادر الآتية :

Dozy : Histoire, t. II, pp. 40-41 — Simonet, historia de los Mozarabes de España, p. 248.

Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 358 et sq.

العجم أو النصارى فى الأندلس ، وسنرى كيف استغل المولدون فرصة ضعف دولة بنى أمية أيام الأمير عبد الله ، وثاروا فى نواحى مختلفة من الأندلس ضد السلطة المركزية ، ففى ببشتر غلب عمر بن حفصون ، وفى ماردة وبطليوس ثار عبد الرحمن ابن مروان المعروف بابن الجليقى ، « وكانت دعوته عصبية المولدين على العرب »[١] ، وفى شنت مرية باشكونية ثار يحيى بن بكر بن ردلف[٢] .

ثانياً — العجم أو المستعربون :

هم نصارى الإسبان الذين كانوا يعاشرون المسلمين ويتكلمون العربية مع احتفاظهم بدينهم ولذلك عرفوا بالمستعربين . وكان العرب يسمونهم بعجم الذمة ، أما من كان لهم عهد منهم فقد سموا بالمعاهدين ، وكان المستعربون أو العجم فى الأندلس يؤلفون جمهرة سكان البلاد فى السنوات الأولى التى تبعت الفتح الإسلامى ، ولكن عددهم أخذ يتناقص تدريجيا بينما أخذ عدد المسالمة يزداد يوماً بعد يوم ، وما لبث المستعربون أن أصبحوا بمرور الزمن أقلية فى الأندلس بالنسبة للمسالمين والمولدين . وقد عومل هؤلاء المستعربون منذ الفتح معاملة طيبة ، فتمتعوا بحرية كبيرة فى إقامة شعائر دينهم ، وأقرهم موسى بن نصير « على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزاء منها مع أداء الجزية فى أرض الثمرة وأرض الزرع على ما فعله خير من اقتدى به صلى الله عليه وسلم بيهود خيبر فى نخيلهم وأرضهم »[٣]. وهكذا عاش النصارى جنباً إلى جنب مع المسلمين فى أحياء خاصة لهم ، وكان لهم رئيس فى كل مدينة يعرف بالقومس[٤] ، كما كان لهم قاض نصرانى يفصل فى منازعاتهم يعرف بقاضى العجم[٥] ، وإذا كان المتخاصمون مسلمين ومسيحيين ،

---

(١) ابن حيان ص ١٥ . (٢) نفس المرجع ص ١٦ .

(٣) الرسالة الشريفية ص ١٩٩ .

(٤) كان أرطباس أول قامسة الأندلس ، ومنصب القومس وضعه الأمير عبد الرحمن بن معاوية (انظر ابن القوطية ص ٣٨) ، وكان قومس الأندلس القومس الأعلى فى البلاد ، وكان حق تعيينه فى يد الأمير الأموى ، أما القامسة المحليين فكان ينتخبهم النصارى فى كل مدينة .

(٥) كان القاضى حفص بن البر أول قاضى للعجم (ابن القوطية ص ٥) وكان يتبع القوانين القوطية القديمة فى أحكامه .

فإن القاضي الذي يفصل بينهم كان قاضياً مسلماً يعرف بقاضي الجند ، ثم سمي فيما بعد بقاضي الجماعة ، [١] وعلى هذا النحو كان على القاضي المسلم أن يكون ملما إلماماً كبيراً بالقانون القوطي والشريعة الإسلامية ، حتى يوفق بينهما دون أن يتقيد بنص أحدهما ، وبذلك طبق المسلمون سياسة من التسامح على أهل الذمة من النصارى سواء كانت أرضهم أرض عنوة أو أرض شمل [٢] ، فتركوا لهم كنائسهم باستثناء الكنائس التي قسمها المسلمون بينهم وبين النصارى ، وأقاموا فيها مساجد جامعة ، مثل جامع قرطبة الذي أقيم في شطر من كنيسة شنت بنجنت San Vicente، ومسجد رفينة الذي أقيم في كنيسة سانتا رفينه Santa Rufina . كذلك كان للنصارى أديرتهم مثل دير أرملاط Guadimellato في الطريق من قرطبة إلى طليطلة [٣] ، ودير سان خوان دي لاپنيا San Juan de la Peña الذي أقامه الراهبان الأخوان Voto وفليكس في عهد عقبة بن الحجاج السلولي في شمال إسبانيا ، وكانت إشبيلية في العصر الأموي مركزاً أسقفيا هاما [٤]. وكان أول من تولى أسقفية إشبيلية المطران ابن المندبن غيطشة [٥]. وهذا دليل على أن المسلمين تركوا النصارى أحراراً في إنشاء ما يريدون من الأديرة [٦] ، وكان للنصارى كنائسهم في أحيائهم الخاصة بهم بقرطبة وسرقسطة وطليطلة وإشبيلية ، وكانوا يقرعون نواقيسهم رغم ما كان يسببه هذا من إزعاج المسلمين وإثارة بعض المتعصبين منهم عليهم . وفي قرع النواقيس دلالة واضحة على تسامح المسلمين وتركهم النصارى يمارسون شعائر دينهم في حرية تامة ، وقد نظم ابن حزم أبياتاً فيها ذكر لقرع النواقيس منها :

أتيتني وهلال الجو مطلع قبيل قرع النصارى للنواقيس [٧]

---

(١) النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس ، المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشره ليفي بروفنسال القاهرة ١٩٤٨ ص٢١ .

(٢) الرسالة الشريفية ص ١٩٩ .

(٣) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ٣ ص ٧١ وما يليها .

(٤) Isidro de las Gagigas, los Mozarabes, t. I, p. 58.

(٥) ابن القوطية ص ٤ .

(٦) Simonet, Historia de los Mozarabes de España, p. 190.

(٧) ابن حزم الأندلسي ، طوق الحمامة في الألفة والألاف ، نشره ليون برشيه ، الجزائر ١٩٤٩ ص ٣٤٧ .

ووصف الشاعر أبو عامر بن شهيد إحدى الكنائس فقال : «وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور واستيناس . . . وقرع النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحميا يسرح لمعه ، والقس قد برز فى عبدة المسيح متوشحاً بالزنانير ، أبدع توشيح »[١] . وظل النصارى يتمتعون بحريتهم الدينية حتى حد المرابطون منها ، وأخذوا يضطهدونهم ، فقد طالب ابن عبدون فى كتابه عن آداب الحسبة ، أن يمنع قرع النواقيس من الكنائس ، وأن يرتدى المسيحيون واليهود ثياباً معينة ، وألا يركب أحد منهم جواداً ، وألا يشترى مسلم رداء ارتداه مسيحى أو يهودى[٢] . ويغلب على الظن أن هذا الاضطهاد بدأ عقب توسع الحركة الاسترداد المسيحى فى قلب إسبانيا الإسلامية واتهام المسلمين لهؤلاء المستعربين بالتجسس عليهم لمصلحة الدول المسيحية فى شمال إسبانيا ، وخاصة بعد حملة ألفونسو المحارب سنة ١١٢٥ م[٣] التى اجتاح فيها بلاد الإسلام حتى أدرك قرطبة وإشبيلية . وزاد اضطهاد الموحدين لهم فنفوهم إلى بلاد المغرب حتى يكونوا بعيدين عن مؤازرة الممالك المسيحية فى الشمال ، واستطاع عدد كبير من المستعربين التسلل من الأندلس إلى هذه الممالك الشمالية . وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور أشد خلفاء الموحدين وطأة على أهل الذمة[٤] .

وقد برز من المستعربين شخصيات لعبت دوراً هاما فى تاريخ الإسلام ، بالأندلس مثل الأسقف ربيع بن زيد المعروف فى المدونات الإسبانية بريسيموندو Recemundo ، ومطران طليطلة عبيد الله بن قاسم ، وأسقف قرطبة أصبغ بن عبد الله ابن نبيل ، كما نبغ منهم مترجمون قاموا بترجمة كثير من الكتب القشتالية إلى العربية بحكم إجادتهم للغة العربية واللغة اللاتينية الحديثة ، وكانوا على هذا النحو حلقة الاتصال بين الثقافة العربية والأوربية . كذلك لعب المستعربون أو العجم دوراً سياسيا هاما بمحالفتهم للمولدين ضد العرب فى عصر الأمير عبد الله ، كما سنرى فيما بعد .

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ص ٥٢ .

(٢) ابن عبدون ، آداب الحسبة ، ترجمه الأستاذ ليفى بروفنسال تحت عنوان Le traité de Hisba باريس ١٩٤٧ ، والنص العربى نشر فى مجلة Journal Asiatique عدد أبريل - يونيو ١٩٣٤ ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) Codera, Decadencia y disaparicion de los Almoravides en España, pp. 13-16.

(٤) المراكشى ، المعجب ص ٣٠٥ .

ثالثاً — اليهود :

عانى اليهود كثيراً من اضطهاد القوط والرومان لهم ، وقد بلغ هذا الاضطهاد مبلغاً كبيراً إذ قرر المجمع الطليطلى الثامن ضرورة تعميدهم وحرموا عليهم إقامة شعائرهم الدينية . ثم أرغم اليهود فى عهد الملك إرفيج على التنصر ، فبدأ اليهود يتآمرون سراً ضد القوط ، فأسرف القوط فى سياسة الاضطهاد واعتبروا القوط جميعاً أرقاء يجب توزيعهم على المسيحيين ، وعملوا على فصل أولادهم عنهم وتنصيرهم . وحاول إخيكا أن يخفف عنهم هذا التعسف ولكنهم عادوا إلى التآمر على القوط بمجرد إحساسهم ببعض الحرية ، وذكروا أنهم اتصلوا بيهود المغرب وسألوهم إغراء العرب بفتح الأندلس، وعلم الملك بهذه الخطة فعاد إلى سياسة الاضطهاد التى جرى عليها أسلافه ، ولانستبعد اتصال اليهود فى الأندلس بيهود المغرب واستنجادهم بالعرب ، على الرغم من انعدام الأدلة التاريخية على ذلك ، لأن العرب عاملوا اليهود أحسن معاملة عند دخولهم الأندلس، وكانوا يثقون فيهم ويعهدون إليهم بحراسة المدن المفتوحة مع العرب .

وتمتع اليهود بتسامح كبير من جانب العرب ، لمؤازرة اليهود لهم عند الفتح[١] ، وكانت غرناطة تزخر بأكبر جالية يهودية ، فسميت لذلك باغرناطة اليهود[٢] ، وقد لعب اليهود دوراً هاما فى العلوم العربية فى الأندلس ، فترجموا الكتب العربية إلى العبرية واللاتينية ، ونبغ منهم كثيرون فى الطب والفلسفة والفلك والكيمياء أمثال حسداى بن شفروط طبيب عبد الرحمن الناصر ، وموسى بن ميمون الفيلسوف وإبراهيم بن سهل الإسرائيلى الشاعر .

وقد تجاوز نفوذ اليهود فى عصر ملوك الطوائف الحد خاصة فى مملكة غرناطة ، فكان لابن نغريلى الإسرائيلى كل السلطان فى غرناطة »[١] .

* * *

وأمام هذا الخليط العجيب من الأجناس تكتلت العناصر العربية وألفت نوعاً من العصبية ، وظهرت آثار ذلك فى صراع العرب من جهة مع البربر ، ومن جهة أخرى مع المولدين ، وسنوضح ذلك فى حينه .

---

(١) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ، القاهرة ١٩٢٨ ص ١٦ — ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ طبعة القاهرة ١٩٠١ ص ١٧ .

(٢) الحميرى ، الروض المعطار (ـ) عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور بالأندلس ص ١٠٧ ، وكتاب الشعب رقم ٦١ مقال غرناطة ص ٩٢ .

٢

عصر الولاة والتوسع الإسلامى فيما وراء البرتات

تم مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) بتدبير بعض رؤساء الجيش من العرب أمثال أيوب بن حبيب اللخمى ، وحبيب بن أبى عبيدة ، وزياد بن عذرة البلوى ، وزياد بن نابغة التميمى ، واجتمع جند الأندلس على أيوب بن حبيب اللخمى ابن اخت موسى بن نصير ، وأول ما فعله أيوب أن نقل العاصمة إلى قرطبة . والواقع إن قرطبة كانت جديرة بالاختيار لحسن موقعها وقربها من داخل الأندلس ، على أن أيوب هذا لم يطل عهده فى الإمارة ، فعزله سليمان بن عبد الملك بعد ستة أشهر من ولايته ، وبعث محمد بن يزيد ، والى أفريقية عاملا من قبله إلى الأندلس هو الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، فقدم فى ذى الحجة سنة ٩٧ هـ (٧١٦ م) ، وعلى الرغم من قصر عهد أيوب بن حبيب فإنه يبدو أنه وجه جهوده نحو الشمال لتطهير البلاد تماماً من أى مقاومة قوطية ، وقد ترك اسمه على مدينة من تأسيسه هى قلعة أيوب Calatayud التى تقع إلى الشمال الشرقى من طليطلة[١] .

ولا يذكر المؤرخون العرب شيئاً يتعلق بغزو الحر لجنوبى غالة ، ولكن كوديرة يذكر أنه غزا بلاد غالة حتى مدينة أربونة ، ويعتمد فى هذا على نص لإيزيدور الباجى[٢] ، ولم يتجاوز عهد الحر السنتين والثمانية أشهر ، إذ كان سليمان بن عبد الملك قد توفى فى صفر سنة ٩٩ هـ وخلفه عمر بن عبد العزيز ، فاختار لولاية

(تابع ص ١٣٣) ١ — ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول من المجلد الثانى ص ٢٦٨ — ٢٧٢ .

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٢٤٤ .

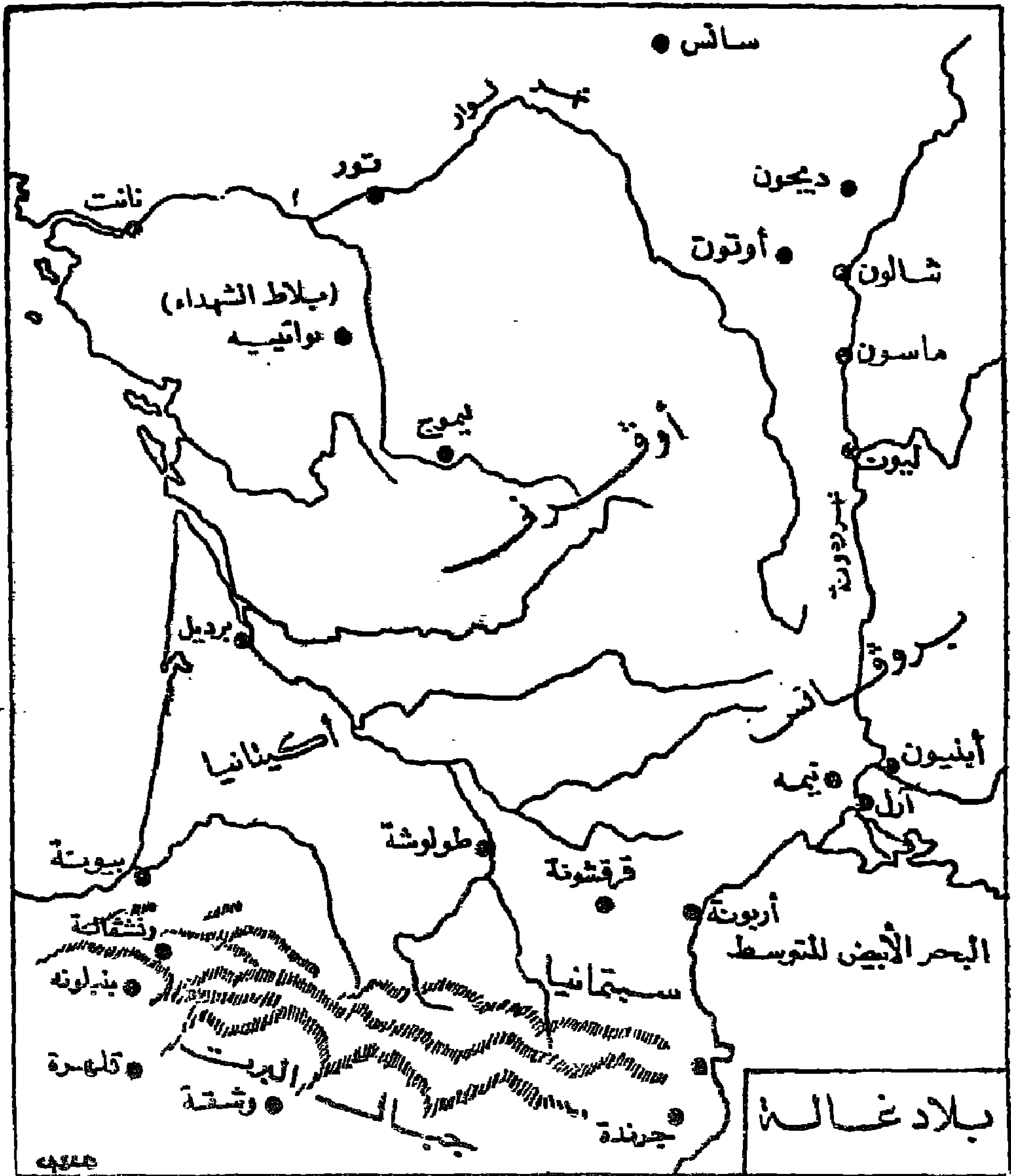
(٢) Codera, Limites probables de la conquista arabe en la cordillera pirenaica, p. 111.

الأندلس رجلاً فاضلاً صالحاً هو السمح بن مالك الخولاني(١) ، وأمره أن يخمس أرضها ويخرج منها ما كان عنوة خمساً لله من أرضها وعقارها ، ويقر القرى فى يدى غنامها بعد أن يأخذ الخمس ، فقدم السمح الأندلس فى رمضان سنة ١٠٠ هـ (أبريل سنة ٧١٩م) ،وكتب إليه الخليفة عمر يسأله أن يصف له الأندلس وأنهارها و بحرها ، ويبدو أنه كان لا يعلم شيئا عن الإسلام فى الأندلس ، وكان يرى إجلاء أهل الأندلس منها ، لانقطاعهم عن المسلمين(٢) ، فكتب إليه السمح يعرفه بقوة الإسلام فيها وكثرة مدنها ، وشرف معاقلها(٣) ، فلما استوثق عمر من أهمية الأندلس وثبات أقدام المسلمين فيها ، أولاها جزءاً كبيراً من عنايته ، فبعث إلى الأندلس رجلاً اسمه «جابر» لتخميس الأندلس، أى ضبط أموالها وتنظيم خراجها ، وهو أمر لم يسبق لأحد من الخلفاء قبله العناية به ، وأمره عمر ، أن « يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها(٤)، فعزل السمح ولاية الأندلس عن إفريقية وميز فيها أرض العنوة من أرض الصلح ليصح الخمس ، وأخرجت البطحاء المعروفة بمصلى بقبلي قرطبة فى الخمس ، وجعلت مقبرة للمسلمين(٥) » .

وهكذا مضى السمح فى سياسته الإصلاحية ، وأخذ ينظم إدارة الأندلس من الناحية المالية ، وفى الوقت نفسه كان يقوم بإخراج البعوث الإسلامية إلى بلاد غالة(٦) ، ثم كتب إلى عمر بن عبد العزيز يعلمه أن « مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله وامتناعه عن الخوض الشتاء عامة ، فإن أمرنى أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت ، فإن قبلى قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد ، وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم »(٧) ، وهكذا كان السمح يود أن يفعل شيئاً لتعمير

---

(١) أخبار مجموعة ص ٢٣ .
(٢) ابن القوطية ، ص ١٣ — أخبار مجموعة ص ٢٣ ، الرسالة الشريفية ص ٢٠١ .
(٣) ابن القوطية ص ١٣ .
(٤) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٣٤ .
(٥) الرسالة الشريفية ص ٢٠٥ ، ٢٠٧ .
(٦) أخبار مجموعة ص ٢٤ . (٧) المرجع السابق .


سانس
نهر لوار
تور
نانت
(بلاط الشهداء)
بواتييه
ليموج
أوفرن
ديجون
أوتون
شالون
ماسون
ليون
نهر الرودونة
بروفانس
أينيون
نيمه
آرل
برديل
أكيتانيا
بيونة
طولوشة
قرقشونة
أربونة
البحر الأبيض المتوسط
سبتمانيا
بنبلونة
قلهرة
وشقة
جبال البرت
جرندة
بلاد غالة

قرطبة ، إما أن يعيد بناء السور المتثلم من جهة العزب فتتحصن العاصمة الأندلسية ، ويصبح فى الإمكان أن تقف أسوارها فى وجه أى غاز ، بعد أن كانت متفتحة للداخلين إليها والخارجين منها ، وإما أن يرمم القنطرة من حجارة السور ثم يبنى السور باللبن ، إذ كان المسلمون حديثى عهد بالأندلس لا يعرفون بعد أماكن مقاطع الصخور[1] . فورد جواب عمر بن عبد العزيز بأن تبنى القنطرة من صخور السور ، ويجبر ما تثلم منه باللبن . واستخدم السمح الأحجار الضخمة المتخلفة من أجزاء السور الرومانى المهدمة بعد ترميمه فى إعادة بناء قنطرة قرطبة ، التى كانت تعد إحدى أعاجيب الدنيا ، وكانت تصل بين مدينة قرطبة وبين الربض الجنوبى المعروف بشقندة . وأنفق السمح على بنائها مما تجمع له من مال التخميس بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد .

ويهمنا من عهد السمح أمر له أهمية كبرى هو جهاده فى غالة من أراضى إفرنجة ، وكانت غالة قد انقسمت عقب سقوط الدولة الرومانية إلى عدة ولايات منها ولاية سبتمانيا أى المشتملة على سبعة مدن هى : أربونة ونيمة Nimes وآجد Agde ، وبيزييه Beziers ، ولوديف Lodéve ، وقرقشونة Carcassonne ، ومجلون Maguelone . وكانت أربونة هى عاصمة هذه الولاية . وإلى الشمال الغربى من ولاية سبتمانيا تقع دوقية أكيتانيا وعاصمتها برديل Bordeau الواقعة على مصب نهر الجارون ، وإلى الشمال الشرقى من ولاية سبتمانيا يقع إقليم بروڤانس وعاصمته مدينة أبنيون Avignon على وادى ردونة (نهر الرون) ، ويقع غربى هذا النهر إقليم برغندية ، وعاصمته مدينة لودون (ليون) . أما المنطقة الواقعة شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحاضرة ، فكانت خاضعة للدولة الميروفنجية .

بدأ السمح بالاستيلاء على أربونة[2] . ثم زحف إلى طرسكونة Tarascon ، فاستولى عليها ، ثم مضى فى تقدمه حتى أدرك طولوشة Toulouse ، غير أن الدوق

---

(١) نفس المرجع . يقول صاحب الرسالة الشريفية : « فإنه كان لا يعرف يومئذ فى جهة قرطبة مقطع صخر » ص ٢٠٧ .

(٢) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، مصر سنة ١٣٥٢ هـ ص ٦٤ معتمداً على J. Renaud, Invasion des Sarrazins

أودو ، دوق أكيتانيا تصدى للسمح ، واشتبك مع الجيش الإسلامى فى موقعة بالقرب من طولوشة انهزم فيها المسلمون، وقتل منهم عدد كبير ، واستشهد السمح بين من استشهد من المسلمين ، وذلك فى يوم عرفة سنة ١٠٢ هـ[١] (١٠ يونيو سنة ٧٢١م) . واجتمع المسلمون على عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى ، فقاد فلول الجيش الإسلامى إلى أربونة ، وكانت هذه هى ولايته الأولى، ولم يدم فيها أكثر من أشهر ، إذ أقام يزيد بن أبى مسلم والى إفريقية مكانه عنبسة بن سحيم الكلبى ، فقدم عنبسة فى صفر سنة ١٠٣ هـ (٧٢٢ م) . ولما قتل يزيد بن أبى مسلم استعمل الخليفة يزيد بن عبد الملك على إفريقية بشر بن صفوان ، فأمر عنبسة على الأندلس (١٠٣ – ١٠٧ هـ) . وكانت الأندلس فى اضطراب بسبب الهزيمة التى لحقت بالمسلمين فى قرقشونة ، وبسبب النزاع بين العصبيات العربية الذى استفحل أمره فى الأندلس فى ذلك الوقت . وكان العرب قد شغلوا بتصفية ثاراتهم القبلية عن القضاء على بقايا القوط فى الأندلس، وعن إتمام إخضاع البربر فى إفريقية . لذلك قضى عنبسة أربع سنوات من ولايته فى تنظيم أمور دولته ، وكان من الشخصيات الكبرى فى عصر الولاة ، فقد سلك نفس السبيل الذى سلكه السمح من قبل ، وكان يرى مواصلة غزو بلاد إفرنجة ، فما كادت أمور ولايته تستقر حتى بادر بإعداد جيوشه للسير شمالا فى بلاد غالة . وفكر بادئ ذى بدء فى تدعيم خط الدفاع أمام أربونة ، فافتتح مدينة قرقشونة عنوة[٢] ، ثم استولى على مدينة نيمة دون مقاومة ، وأخذ من أهلها رهائن نقلهم إلى برشلونة[٣]. وتذكر مدونة مواسياك Chronicon Moissiacense أن عنبسة واصل زحفه حتى وصل إلى وادى نهر

(١) يذكر ابن حيان أنه قتل فى طرسونة من أرض الأندلس (شمال تطيلة من إقليم أرغونة) انظر ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس رقم ٥٨٤ – ابن عذارى ج ٢ ص ٣٥ (يذكر أنه استشهد فى طرسونة) ولكننا نعرف أنه استشهد غازيا بأرض إفرنجة (المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢١٩) فى بلدة طرسكونة (انظر حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٢٤٦ حاشية ١) . فيما يختص بهذه الوقعة ارجع إلى Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 58 — Codera; Narbona, Gerona y Barcelona, p. 307

(٢) Lévi-Provençal, op. cit. p. 58 — Codera, op. cit. p. 311.

(٣) أخبار مجموعة, Chronicon Moissiacense, Appud, Appendices de Ajbar Machmuâ, No. 4, p. 165 "Carcasonam expugnat et capit, et usque Nemauso pace conquisivit, et obsides eorum Barchinona transmisit"

انظر أيضا شكيب أرسلان تاريخ غزوات العرب ص ٧٣ .

ردونة ، وانطلق فى زحفه سريعاً مصعداً فى النهر دون أن يقابل معارضة جدية ، حتى تمكن من الوصول إلى نهر الساءون ، وتوغل فى إقليم برغندية الواقع شمالى شالون Châlon ، واستولى على مدينة أوتون Autun ، ثم نهبها جيشه فى ٢٢ أغسطس سنة ٧٢٥م[١]. وذكر بعض المؤرخين الأوربيين أن عنبسة لم يقف إلى هذا الحد من الغزو ، بل اجتاحت جيوشه مدينة أوزه Uzès ، وفيفييه Viviers ، وفالانس Valence ، وتدفقت الموجة إلى ليون Lyon ، وماسون Màcon وشالون Châlon ، ومن هناك انقسمت إلى تيارين أحدهما حمل الدمار إلى ديجون Dijon وبيز Bèze ولانجر Langres ، بينما انحرف الآخر إلى أوتون ، ولم تقف هذه الموجة المدمرة إلا أمام بلدة سانس Sens وهنا توقف انطلاق المسلمين بسبب شجاعة أسقف هذه المدينة وهو الأسقف إيبون Ebbon[٢]. عزم عنبسة على العودة إلى قرطبة بعد أن وصلته أنباء بحدوث بعض الاضطرابات هناك . ولكن جموعاً من الفرنجة تصدت له فى طريق عودته فاستشهد فى إحدى المواقع سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) ، فقام بقيادة الجيش والعودة إلى أربونة عذرة بن عبد الله الفهرى ، وهكذا تمت الغارة الكبرى التى اخترق فيها عنبسة أرض غالة غازياً ، ونلاحظ أن عنبسة بعد أن تقدم إلى قرقشونة عدل عن مهاجمة أكيتانيا إلى إقليم بروڤانس وبرغندية ، ويرجع سبب عدوله عن التوغل فى أكيتانيا إلى صداقته للدوق أودو ، الذى كان مخاصماً وقتئذ لقارلة (شارل ابن ببين ديرستال Pepin d'heristal حاجب ملوك الدولة الميروڤنجيه) .

وتؤكد المصادر اللاتينية . أن دوق أودو صاهر مونوسة البربرى بأن زوجه من ابنته لامبيجيه Lampègie أو مينين Minine[٣] ، وأنه ساعد عنبسة فى غزو برغندية ليبعد خطرهم عن بلاده من جهة ولأنه لم يكن وقتئذ على علاقة طيبة مع دولة الفرنجة من جهة أخرى ، ويذكر الدكتور مؤنس أن « العرب انصرفوا عن أراضيه لأنه كان حليفهم ، وربما كان هذا الحلف هو السبب فيما

---

(١) Chronicon Moissiacense, op. cit. p. 165.

(٢) J. Calmette, L'effondrement d'un empire et la naissance d'une Europe, Appud, Lévi-Provençal, histoire, t. I, p. 59, note 2.

(٣) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ص ٨٨ — حسين مؤنس ص ٢٥٢ .

وفق إليه المسلمون من انتصارات فاقت كل ما كان منتظراً فى حملة عنبسة[١] .

وتولى عذرة بن عبد الله الفهرى إمارة الأندلس بعد مصرع عنبسة[٢] ، ويسميه إيزيدور الباجى حديرة[٣] Hodera ، ويبدو أن عذرة كان ينوى مواصلة الجهاد فى بلاد غالة بعد هزيمة عنبسة ومقتله ، ولكنه شغل عن ذلك بالخلافات التى نشبت بين المسلمين فى الأندلس فى ذلك الوقت ، وينسب إليه رينو أعمال العنف والتدمير التى أصابت كنائس إقليم ليون وبورجونى ، مثل كنيسة ڤيين ولودون وأوتون وسان مارتان[٤] ، ولكننا نستبعد أن يكون المسلمون فى عهد عذرة هم أصحاب هذه الأعمال ، فقد كانت ولاية عذرة قصيرة الأمد ، وقد تكون ثمة غارات شنها المسلمون المرابطون فى أربونة ، أما الغزو الحقيقى فلم يستأنفه المسلمون إلا بقدوم عبد الرحمن الغافقى ، إذ تولى الأندلس بعد أن عزل عذرة فى ربيع الأول سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ م) عدة ولاة لم يغز أحدهم فى غالة ، وهم يحيى بن سلمة الكلبى ، وحذيفة بن الأحوص الأشجعى ، وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، والهيثم بن عبيد الكنانى ، ومحمد بن عبد الله الأشجعى ، ولم تتجاوز مدة حكم كل منهم عن عدة شهور .

ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب والى إفريقية ، فدخلها سنة ١١٣ هـ (٧٣١ م) ، وكان عبد الرحمن الغافقى من أعظم قواد المسلمين فى الأندلس ، وكان معروفاً بحسن القيادة ، والشجاعة وقوة الشكيمة ، وكان قد أبلى بلاء حسنا فى موقعة طولوشة التى قتل فيها السمح ، فتركت هزيمة المسلمين أثراً عميقاً فى نفسه ، لذلك كان تواقاً إلى ملاقاة الفرنجة ، راغباً فى الانتقام منهم وجاء تقليده لولاية الأندلس فى وقت انبعثت فيه الفتنة بين العرب فى هذه البلاد بسبب العصبيات القبلية ، وكان عبد الرحمن إلى جانب صفاته السابقة معروفاً

---

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٢٥٢ .

(٢) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٩ .

(٣) Lafnuente Alcantara, Ajbar Machmua, apendice 1, p. 153.

(٤) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٢٥٨ — ٢٦٠ . ينسب الأستاذ سيد أمير على هذه الأعمال إلى الهيثم بن عبيد الكنانى (انظر مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف البعلبكى ، بيروت ١٩٦١ ص ١٤٦) .

بنزاهته وحياده ، لا يتحيز لفريق على فريق ، ولا يتعصب لعنصر على عنصر آخر ، ولذلك قوبلت ولايته بفرحة عمت قلوب أهل الأندلس ، واستبشر الناس لولايته . وشرع عهده برفع المظالم عن الناس ، وكان يطوف فى المدن ويحقق فى شكايات الرعية ، لا يميز بين مسيحى ومسلم ، وعزل كثيراً من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية .

كان عبد الرحمن يرى أولا ضبط البلاد ثم السير بعد ذلك للغزو ، وللأسف لم تصلنا عنه فى المصادر العربية إلا أخبار قصيرة لأن صدى الهزيمة التى حلت بالمسلمين فى واقعة بلاط الشهداء عند المؤرخين العرب كان أليماً ، فلم يشيروا إليها إلا إشارة عابرة .

قضى عبد الرحمن الغافقى ما يقرب من عام ، نظم خلالها شؤون البلاد ، ثم أعلن الجهاد ضد الفرنجة ، فتجمعت حوله جموع المتطوعين الذين كانوا يتوقون للقتال تحت قيادته ، وتكون من هذه الحشود جيش هائل يتراوح عدده ما بين سبعين ألفا ومائة ألف ، جلهم من البربر ، إذ أن العرب كانوا وقتئذ مشغولين بمنازعاتهم القبلية ، ويبدو أن خلافاً نشب بين عبد الرحمن الغافقى وبين أحد قواد المسلمين وهو مونوسة البربرى ، وكان عاملا على شرطانية Cerdana[1] من جبال البرت ، وانتهى ذلك بقتل مونوسة[2] ، وغضب الدوق أودو لما أصاب صهره ، وكانت جيوش المسلمين قد تدفقت على ولايته تدفق السيول ، فتناسى ما كان بينه وبين قارلة (شارل مارتيل) واستصرخه ، فزحف شارل بجيوشه وانتهى الأمر بهزيمة المسلمين فى بلاط الشهداء بسبب تحالف دوق أودو وشارل مارتيل

---

(١) Isidoro Pacense, Ajbar Machmua, Apendice 2, p. 155.

(٢) كان مونوسة قد تقرب من دوق أودو صاحب أكيتانيا ، وتزوج من ابنته الجميلة لمبيجية Lampégie وأصبح حليفاً له ، بعد أن عقد معه معاهدة سلم ومهادنة أمنه بها من غارات العرب . فلما ورد أمر عبد الرحمن الغافقى بالسير على بلاد حميه ، راجع مونوسة الأمير عبد الرحمن ، فغضب عبد الرحمن من تردد مونوسة وتلكئه ، وأرغمه على السير فى هذه الغزوة ، فأبلغ مونوسة حماه سراً بذلك ، ونصحه بالتأهب والاستعداد ، فعلم عبد الرحمن بما فعله مونوسة ، فعمل على القبض عليه ، ولكنه فر مع بعض أعوانه فى الجبال فأحاطته فرقة من جيش عبدالرحمن ، وقبض عليه ، واحتز رأسه ، وأسرت الأميرة الأكيتانية وأرسلت إلى بلاط= = الخليفة الأموى بدمشق(انظر شكيب أرسلان ص ٨٨ – Isidoro Pacense, ibid. p. 156. – سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ص ١٤٨) .

من جهة ، وتفرق كلمة المسلمين عقب مقتل مونوسة من جهة أخرى[1].

خرج عبد الرحمن على رأس جيوشه من بنبلونة عاصمة ولاية نبرة فى صيف عام ١١٤ هـ (٧٣٢م) مخترقاً جبال البرت فى شعاب رونشفالة[2] ، متجهاً رأساً إلى دوقية أكيتانيا ، أعظم ولايات غالة فى ذلك الوقت ، ويبدو أنه أراد أن يؤمن نفسه من الوراء أولا قبل أن يهاجم أكيتانيا ، فبعث فرقة من رجاله إلى وادى رودنة نجحت فى استرجاع مدينة آرل Arles الواقعة بالقرب من مصب نهر ردونة والتى كانت قد شقت عصا الطاعة على المسلمين ، ويعتقد بعض المؤرخين أن حملة عبد الرحمن على مدينة آرل لاتعدو أن تكون خدعة قصد منها صرف نظر الفرنجة عن الهدف الرئيسى للحملة وهو دوقية أكيتانية ومملكة الفرنجة[3] . وفى نفس الوقت الذى سقطت فيه آرل ، كانت جيوش عبد الرحمن تواصل زحفها نحو الشمال فى قلب دوقية أكيتانيا ، إلى العاصمة برديل (Bordeau) الواقعة على مصب نهر الجارون ، وأسرع دوق أودو لصد هذا الهجوم ، واشتبكت جيوشه مع جيوش المسلمين فى واقعة بالقرب من نقطة التقاء الدوردونى بالجارون ، وهناك انهزم هزيمة نكراء ، تقهقر على أثرها شمالا ، فدخل المسلمون برديل عنوة ، وغنموا غنائم هائلة ، وجردوا الكنائس والأديرة من كنوزها ، وقتلوا من خصومهم عدداً لا يحصيه إلا الله[4] . واتجه عبد الرحمن بجيوشه الظافرة نحو تور التى كانت تضم دير سان مارتان المشهور بنفائسه وكنوزه ، وأدرك دوق أودو عجزه عن صد المسلمين ، فاستنجد بقارلة ، ووجد قارلة أن من مصلحته مصالحة أودو والاتحاد معه مؤقتاً لصد المسلمين ، لأن هدفهم التالى كان يتركز على دولة الفرنجة نفسها ، خاصة وقد غزا المسلمون بقيادة عنبسة إقليما منها هو برغندية ، فجمع جيوشه من سائر انحاء غالة ، وبعث يطلب جنداً من حدود الرين ، ووفد هؤلاء الجند الشماليون ، وقد زودوا بأسلحة متفوقة

---

(١) كان العدد الأعظم من جيش عبد الرحمن الغافقى يتألف من البربر ، وقد نقم هؤلاء البربر على عبد الرحمن الغافقى لتنكيله بزعيمهم مونوسة ، فلم يتفق المسلمون على هذه الحملة لهذا السبب ، وكان لتفرق كلمتهم أثر عظيم فى الهزيمة التى لحقت بالمسلمين فى بلاط الشهداء .

(٢) Lévi-Provençal, op. cit. p. 60. — حسين مؤنس ، المرجع السابق ص ٢٦٥ .

(٣) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، عن رينو ص ٩٩ .

(٤) Isidoro Pacense, Ajbar Máchmuâ, p. 156. — شكيب أرسلان ، المرجع السابق ص ٩٠ ، ١٠٠ — Levi-Provençal, histoire, t. I, p. 61. — حسين مؤنس ، المرجع السابق ص ٢٦٦ .

على أسلحة المسلمين ، ثم إن هؤلاء المحاربون كانوا جنداً أقوياء ، لا يقلون عن العرب والبربر فى قوة الشكيمة وفى الشجاعة والبطش ، وكان عبد الرحمن الغافقى يدرك تمام الإدراك أهمية المعركة القادمة فى مصير غالة ، ولذلك كان يتحرق حماساً للقتال ، ولكنه كان يعلم أنه مقبل على مغامرة حربية أشد خطراً من مغامرة طارق بن زياد ، فقد كانت ظروف طارق أفضل بكثير من ظروف عبد الرحمن إذ كان التمهيد للفتح الإسلامى واضحاً ، فالبلاد منقسمة على نفسها والثورات تجتاح إسبانيا فى الشمال وفى الجنوب ، وكان طارق يعتمد على حزب آل غيطشة ومواليه ممن كانوا ساخطين على لذريق ، وانضم إلى هؤلاء جماعة اليهود الذين هللوا للمسلمين ودلوهم على عورات البلاد وكانوا عاملا هامـًا فى الفتح . أما عبد الرحمن الغافقى ، فكانت ظروفه أقل ملاءمة بكثير من ظروف طارق ، لأنه اقتحم بلاداً تختلف عن بلاد الأندلس من حيث المناخ والسكان ، كما أنه لم يكن للمسلمين فيها قواعد ثابتة يمكن أن يستمد منها عبد الرحمن ما شاء من النجدات ، ثم إن جنود المسلمين كانوا قد أوغلوا فى البلاد وأثقلوا كاهلهم بالغنائم الكثيرة التى كانوا يحملونها معهم أينما توجهوا ، وكانت هذه الغنائم عبئاً ثقيلا عليهم ، عاقهم عن سرعة الفتح[١] ، هذا إلى أن إمارات غالة كانت قد تكتلت جميعاً لمواجهة جيوش الإسلام وصدها إلى الجنوب ، ويمكننا أن نضيف إلى ما سبق عاملاً آخر كان سبباً هامـًا فى ركود ريح الإسلام ببلاد غالة ، ذلك هو انقسام المسلمين على أنفسهم[٢] . فقد كان جيش عبدالرحمن يتألف من أعداد هائلة من العرب اليمنيين ، والقيسيين الذين فرقت بينهم العنصرية القبلية ، كما أن البربر الذين يؤلفون العدد الأعظم من الجيش الإسلامى كانوا يحقدون على العرب بعد أن قتلوا زعيمهم مونوسة ، ونسى عبد الرحمن

---

(١) ذكر شكيب أرسلان نقلا عن رينو الذى اعتمد بدوره على مؤرخ عربى لم يذكر اسمه ، أن عبد الرحمن كان يخشى على المسلمين من الغنائم الكثيرة التى كانوا يجرونها وراءهم أثناء زحفهم ، وأنه فكر فى حملهم على تركها فى أرضها لئلا تشغلهم عن القتال ، فتكون عليهم وبالا ، ولكنه لم يشأ أن يثيرهم عليه فى الوقت الذى كان يعمل فيه على توحيد صفوفهم . (انظر تاريخ غزوات العرب ص ١٠٠) .

(٢) ذكر المقرى نقلا عن ابن خلدون «أن عساكر المسلمين احتلوا البسائط وراء دروب الجزيرة ، وتوغلوا فى بلاد الفرنجة ، وعصفت ريح الإسلام بأمم الكفر من كل جهة ، وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلاف وتنازع أوجد للعدو بعض الكرة » ص ٢١٩ .

الغافقى أن ذلك كله كان لا يمكن أن يسمح للعناصر المختلفة التى يتألف منها جيشه أن تتعاون فيما بينها ، كما أنه كان يشكل خطراً على وحدة الصف الإسلامى نتيجة لما قد يحدث من خلاف ونزاع بينها لو مات هو فى المعركة ، وهو ما حدث بالفعل .

وكان المسلمون قد وصلوا إلى مدينة بواتييه Poitiers ، ودخلوها بعد أن أحرقوا دير سانت إيميليان St. Emilien وكنيسة سانت إيلير St. Hilaire[1]. ثم واصل المسلمون زحفهم إلى الشمال نحو مدينة تور Tours ، وما كاد يخرج الجيش من بواتييه حتى علم عبد الرحمن بنبأ وصول جيش هائل للفرنجة يقوده قارلة .

ثم حدثت المعركة الكبرى فى سهل يقع شمالى بواتييه بالقرب من الطريق الرومانى الذى يصل شاتلرو Chatellerault ببواتييه ، على بعد ٢٠ ك . م تقريباً إلى الشمال الشرقى من بواتييه ، وقد تكون هذه المعركة قد حدثت بالقرب من موضع يطلق عليه اليوم اسم موسيه لاباتاى Moussais la bataille[2]. وتصمت المصادر العربية عن ذكر تفاصيل هذه الموقعة الفاصلة ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنها كانت كارثة على جيش المسلمين ، بحيث نفر قدامى المؤرخين من مجرد ذكرها ، فاندرجت أخبارها فى زوايا النسيان .

وقع اللقاء بين الجيشين فى أواخر شعبان ١١٤ هـ (أكتوبر سنة ٧٣٢ م) ، وتذكر المصادر المسيحية أن المعركة استمرت ثمانية أيام[3] ، وأن المسلمين هم الذين بدءوا بالقتال ، وحدثت مناوشات بسيطة فى اليومين الأولين ، ثم تحول القتال إلى صدام مروع ، ورجحت كفة المسلمين ، فقد أظهروا ثباتاً واستبسالا رائعاً ، ولكنهم عند ما حاولوا اختراق صفوف الفرنجة ذهبت محاولاتهم عبثاً إذ تماسك الفرنجة ومن انضم إليهم من ألمان وسواف وسكسون ، كالأسوار المنيعة ، ولم يتركوا

---

(١) المرجع السابق ، عن رينو ص ١٠٠ .

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 62.

(٣) شكيب أرسلان ، نقلا عن رينو ص ١٠١ .

ويذكر ليڤى بروڤنسال أن الموقعة امتدت ما بين يومى ٢٥ أكتوبر ، ٣١ منه (Hisoiret, t. I. p. 62)

للمسلمين مجالاً لاختراقها ، ويبدو أن أودو قد عرف نقطة الضعف فى جيش المسلمين ، لعلاقته السابقة بهم ، فقد كان يعرف أن من عادة المسلمين أن يتركوا غنائمهم فى مؤخرة الجيش ، فالتف مع فرقة من جيشه خلف جيش المسلمين وهاجم مؤخرته ، وبلغ هذا الهجوم المسلمين الذين يحاربون فى ميمنة الجيش الإسلامى وميسرته فتراجع كثير منهم إلى المعسكر لاستخلاص الغنائم من أيدى الفرنجة ، فأخل هذا التراجع بنظام الجيش ، وحاول عبد الرحمن الغافقى عبثاً أن يعيد تنظيم صفوف جيشه ، غير أن نصيبه كان سهماً أرداه قتيلا ، ولما رأى المسلمون قائدهم صريعاً ، اضطربت نفوسهم ، وارتبكت صفوفهم ، وأحاط بهم الفرنجة من كل مكان ، وراحوا يحصدونهم حصداً ، وصبر المسلمون على مدافعة الفرنجة حتى أقبل الليل بظلامه ، فحال بين الجيشين ، واجتمع كبار رجال الجيش ووجدوا أن صمودهم معناه القضاء على البقية الباقية من جيش المسلمين ، واختلفوا على تنصيب خلف لعبد الرحمن الغافقى ، فأجمعوا على الرجوع إلى ديار الإسلام فانتهزوا فرصة ظلام الليل وتسللوا من معسكرهم تاركين خيامهم وغنائمهم التى لم يتمكنوا من حملها وراءهم إلى الجنوب الشرقى أملا فى التحصن بقاعدة المسلمين فى سبتمانيا وهى أربونة وذلك فى أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ (أكتوبر سنة ٧٣٢ م) ، وهكذا عاد فل الجيش الإسلامى إلى أربونة بعد أن دمر فى طريقه ما صادفه من كنائس وأديرة مثل دير سولينياك[١] Solignac . أما الفرنجة ، فقد باتوا ليلتهم تلك وهم ينوون القضاء على المسلمين فى صباح اليوم التالى ، فلما أدركهم الصباح ، نظروا إلى معسكر المسلمين ، فألفوه خالياً من أصحابه ، ولم يحاول قارلة أن يتتبع فلول المسلمين ، لأنه خاف أن يكون وراء تراجعهم كميناً نصبوه لجيشه ، أو لأنه لقى صعوبة فى قتاله للمسلمين ، فآثر أن يعود إلى الشمال معتزاً بما أحرزه من انتصار على المسلمين[٢] .

أما الموقعة فقد سماها مؤرخو العرب « ببلاط الشهداء » لكثرة من استشهد فيها

---

(١) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ص ١٠٣ — حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٢٧٥ .

(٢) شكيب أرسلان ص ١٠٢ .

من المسلمين[1] ، وتعتبر هذه الموقعة من المواقع الفاصلة فى التاريخ العام ، وذلك لما ترتب عليها من نتائج ، إذ أنها وضعت حداً للتوسع الإسلامى فيما وراء جبال البرت . وأصبح قادة المسلمين فى الأندلس يحسبون لقوة قارلة حساباً كبيراً .

أحدثت كارثة المسلمين فى بلاط الشهداء دوياً هائلا فى إفريقية والأندلس ، فأسرع والى إفريقية بتنصيب وال من قبله على الأندلس هو عبد الملك بن قطن الفهرى . وفطن عبد الملك أول ولايته إلى الأثر السيئ الذى أحدثته هزيمة « أهل البلاط » فى نفوس سكان شمالى الأندلس الجبليين (البشكنس) ، وسكان سبتمانيا وما يليها من بلاد غالة . فغزا أرض الشكنس سنة ١١٥ هـ فأوقع بهم وغنم[2] ، ثم عبر جبال البرت إلى بلاد لانجدوك ، وعمل على تحصين المدن والمعاقل التى كانت فى أيدى المسلمين ، وكانت الفوضى مستحكمة وقتئذ ببلاد سبتمانيا وبروفانس على أثر هزيمة المسلمين فى بلاط الشهداء ، وكان أمراؤها قد انتهزوا تقهقر جيوش المسلمين من بروفانس إلى أربونة ، وانشغال قارلة ببسط سلطانه على برغندية وشمالى بروفانس ، وهى المناطق التى غزاها المسلمون أيام عنبسة ، ثم اضطروا إلى الجلاء عنها ، وانشغاله بعد ذلك بإخضاع الفريزون Frisons وهم أهل نهر الرين الأدنى ، ثم توزعوا البلاد فيما بينهم ، وعمد بعضهم إلى محالفة المسلمين فى أربونة لاتقاء بأس قارلة ، من أمثال هؤلاء مورونت Maurontes دوق مرسيلية الذى كان قد اقتطع لنفسه معظم إقليم بروفانس[3] ، وتمكن هذا الحاكم الإفرنجى من الاتفاق مع حاكم أربونة المسلم وتسميه مدونة موساك باسم يوسف بن عبد الرحمن

---

(١) مر مؤرخو العرب مراً سريعاً على هذه النكبة التى حلت بجيش المسلمين فى غالة ، بل إن كثيراً منهم أخطأ فى نسبة هذه الهزيمة إلى عبد الرحمن الغافقى ، ومن هؤلاء ابن حيان وابن خلدون ، ولقد سميت ببلاط بسبب وقوعها بالقرب من الطريق الرومانى المرصوف لأن كلمة بلاط تؤدى معانى كثيرة ، فهى تعنى القصر مثل بلاط مغيث ، ولكنها لا تؤدى هنا هذا المعنى ، كما أنها تعنى الممر الواقع بين صفى أعمدة وأقواس كما فى أروقة المساجد ، وهو معنى بعيد أيضاً عما يقصدونه ببلاط . والمعنى الثالث لكلمة بلاط الذى ينطبق على بلاط الشهداء هو الطريق المرصوفة أو الأرض المستوية أو الساحة الفسيحة المرصوفة (انظر الشريف الأدريسى : وصف المسجد الجامع بقرطبة ، نشر النص وترجمه Alfred Dessus Lamare ، الجزائر سنة ١٩٤٩ ، ملحوظة رقم ٥١ ص ٢٨ ، وانظر كذلك مقال بلاط الشهداء فى Encyclopédie de l'Islam ، هذا وليس من الضرورى أن الموقعة قد حدثت بالقرب من حصن أو قصر عظيم كما يذكر الدكتور حسين مؤنس (فجر الأندلس ص ٢٧١) فالمعروف أن المواقع كانت تحدث فى مواضع مستوية بعيدة عن العمران .

(٢) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٠ .

(٣) شكيب أرسلان ، ص ١٠٤ — حسين مؤنس ص ٢٧٧ .

وهو نفس يوسف بن عبد الرحمن الفهرى Jusseph ibin Abderaman (١)، آخر ولاة الأندلس من قبل الدولة الأموية ، على مهاجمة وادى ردونة(٢) بعد مضى سنتين من هزيمة بلاط الشهداء ، أى فى سنة ٧٣٤ م . فلقد أعد الحاكان جيشاً كثيفاً عبر نهر ردونة ، واستولى على مدينة آرل ، ونهب أديرة سان أبوتر Couvents de Sts. Apôtres ، ودير العذراء ، وهدم ضريح سان سيزير St. Césaires ، ثم زحف الجيش إلى قلب بروڤانس واستولى على مدينة فريتا Fretta المعروفة اليوم بسان ريمى دى بروڤانس St. Rémi - de - Provence ، وأدرك صخرة أبنيون Avignon وافتتحها بعد قتال عنيف ، ووصل المسلمون بعد ذلك حتى أعالى نهر دورانس وتمكنوا من احتلال بلاد بروڤانس زهاء أربع سنوات أى حتى سنة ٨٣٨ م ، ثم أرغموا قارلة بعد ذلك على العودة إلى أربونة بعد أن ضم دوقية أكيتانيا إلى ممتلكاته عقب وفاة دوق أودو سنة ٧٣٥ (٣) .

وكان عبد الملك بن قطن قد عزل فى رمضان سنة ١١٦ هـ (٧٣٤ م) عن إمارة الأندلس لظلمه وجوره(٤) ، وتولى مكانه عقبة بن الحجاج السلولى من قبل عبيد الله بن الحبحاب ، وكان عقبة هذا محمود السيرة مجاهداً ، فأغار بجيشه على منطقة دوفينة Dauphiné ، وخرب بلدة سان بول المعروفة بالقصور الثلاثة Trois Chateaux. ومدينة دوزير(٥) Donzaire ، واستولى على مدينة ڤالنس Valence الواقعة على نهر ردونة ، وخرب كنائس منطقة ڤيين (على نهر ردونة) ، وهنا بعث قارلة أخاه شيلدبراند Childebrand على رأس جيش إلى ليون لإيقاف تقدم المسلمين وإجلائهم عن البلاد ، كما أرسل إلى لويتبراند Luitprand ملك اللومبارديين يستنجده ضد المسلمين ويسأله مهاجمتهم من الشرق ، فقدم شيلدبراند وحاصر المسلمين

---

(١) Chronicon Moissiacensē, Apud Ajbar Machmuā, p. 166.

(٢) كان يوسف الفهرى عاملا على أربونة فى عهد عبد الملك بن قطن ، وفى عهده صار رباط المسلمين على نهر ردونة (انظر نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٠) .

(٣) شكيب أرسلان ، ص ١٠٥ . — Lévi-Provençal, Histoire. t. I, p. 63. — حسين مؤنس ، ص ٢٧٨ .

(٤) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٠ — شكيب أرسلان ص ١٠٥ .

(٥) شكيب أرسلان ص ١٠٥ — حسين مؤنس ص ٢٨٠ وما يليها .

فى أبنيون، وتبعه قارلة بجيش آخر لإحكام الحصار حول أربونة ، وفى الوقت نفسه أقبل لويتبراند بجيوشه من جهة بيمونت : فاستمات المسلمون بداخل المدينة فى الدفاع عنها ، ولكن الفرنجة دخلوها عنوة ، واستأصلوا من بها من المسلمين . وزحف جيش الفرنجة بقيادة قارلة نحو أربونة بقصد الاستيلاء على سبتمانيا بعد أن ضم بروفانس ، وحاصر قارلة عاصمة الإقليم ، فلما علم عقبة بأن قارلة قد ضيق الحصار على أربونة أرسل جيشاً لنجدة أهل المدينة تحت قيادة رجل يسميه إيزيدور الباجى Amor iben Ailet[(١)] ولعله عامر أو عمر بن الليث ، وقدم هذا الجيش بحراً نظراً لوجود البشكنس حائلا بين الأندلس وسبتمانيا ، ويبدو أن قارلة علم بوصول هذه النجدة ففاجأها على نهر برى Berre Fluvio.[(٢)] وأنزل بها هزيمة نكراء ، وقضى على معظمها ، وقتل قائدها عمر ، ولم ينج من المسلمين سوى فل قليل عاد بعضهم إلى سفنهم ، وفر الباقون إلى أربونة . حاول قارلة بعد ذلك أن يستولى على المدينة ولكن أهلها استبسلوا فى الدفاع عنها ، فاضطر أخيراً إلى رفع الحصار عنها[(٣)] ، خاصة عند ما بلغه قيام الفريزون والسكسون بالثورة عليه ، وقام أثناء عودته إلى الشمال بتخريب القلاع الإسلامية فى سبتمانيا ، مثل بيزييه Béziers ، وأجدة Agde ، ونيم Nimes ، وماجلون Maguellon وأسر من كان بهذه المدن من المسلمين وكبار الغاليين ، وقاد هؤلاء معه كرهائن حتى يرغم أهل سبتمانيا على خذلان المسلمين ، إذ أن هؤلاء السكان كانوا ينظرون إلى قارلة وقومه كبرابرة من أهل الشمال ، بينما يعتبرون أنفسهم أمة متحضرة ورثت مدنية الرومان[(٤)] .

ما كاد قارلة يعود إلى الشمال حتى ظهر مورونت دوق مارسيليا من جديد، وأخذ يجدد علاقاته مع المسلمين فخاف قارلة من نتائج ذلك ، وعمد إلى القضاء على مورونت ، فزحف إلى الجنوب ، هو وأخوه شيلدبراند سنة ٧٣٩ م ، واستوليا

(١) Chronicon Moissiacense, apud Ajbar Machmuâ, p. 166.

(٢) Ibid. p. 166.

(٣) شكيب أرسلان ، عن رينو Reinaud ص ١٠٧ — حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٢٨٤

(٤) لم يطل العهد بأربونة إذ استولى عليها ببين بن قارلة سنة ١٣٣ هـ (٧٥١ م) انظر : Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 64, Note 1.

على مارسيليا ، وقضيا بذلك على آمال موررونت فى إقامة دولة مستقلة تتعاون مع المسلمين.

ثم ابتسم الحظ للمسلمين ، إذ توفى قارلة سنة ٧٤١ م (١٢٣ هـ) ، واضطربت أحوال الدولة الميروفنجية بعد وفاته ، وكان فى مقدور المسلمين أن يستغلوا هذه الفترة ويتوسعوا فى غالة ، ولكنهم انهمكوا فى القضاء على ثورة البربر ، وكان عبد الملك ابن قطن الفهرى قد وثب سنة ١٢١ هـ هو ومن معه من اليمنية على ولاية الأندلس ، واغتصبها من عقبة بن الحجاج[1] ، واستبد بالبلاد ، واشتعلت على يديه نيران الفتنة ، بين العصبيتين اليمنية والمضرية فى الأندلس ، إذ أنه استعان بالعرب الشاميين الذين كان يحاصرهم البربر فى سبتة لإخماد ثورة البربر البلديين فى شمال الأندلس بجليقية والدروب واسترقة وطليطلة ، ثم أراد أن يخرجهم من الأندلس إلى حيث كانوا بسبتة ، مدفوعاً فى ذلك بعصبيته ضد الشاميين ، لأنه كان قد شهد موقعة الحرة[2] وهو صغير ولم ينس أهوالها ، فأخرجوه من قصره إلى داره ، كأنه «فرخ نعامة لكبر سنه » ، وهم ينادونه « أفلت من سيوفنا يوم الحرة ، فطلبتنا بثأرنا فى أكل الدواب والجلود ، ثم أردت إخراجنا إلى القتل » ، ثم قتلوه وصلبوه وصلبوا خنزيراً عن يمينه وكلباً عن شماله[3].

---

(١) يقول صاحب أخبار مجموعة عن عقبة ، أنه «افتتح الأرض حتى بلغ أربونة ، وافتتح جليقية وألبة وبنبلونة ، ولم تبق بجليقية قرية لم تفتتح غير الصخرة فإنه لاذ بها ملك يقال له بلاى ، فدخلها فى ثلاث مائة رجل ، فلم يزالوا يقاتلونه ويغاورونه حتى مات أصحابه ، وترامت طائفة منهم إلى الطاعة ، فلم يزالوا ينقصون حتى بقى فى ثلاثين رجلا ليست معهم عشر نسوة فيما يقال إنما كان عيشهم بالعسل ، ولاذوا بالصخرة ، فلم يزالوا يتقوتون بالعسل معهم جباح والنحل عندهم فى خروق الصخرة ، احتوزوا ، وأعيا المسلمين أمرهم فتركوهم وقالوا ثلاثين علجاً ما عسى أن يكون أمرهم ، واحتقروهم . » (أخبار مجموعة ص ٢٨ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٤١) . وذكر ابن عذارى أنه « كان يجاهد المشركين فى كل عام ، وينتح المدائن وهو الذى فتح مدينة أربونة وافتتح جليقية وبنبلونة ، وأسكنها المسلمين ، وعمت فتوحاته جليقية كلها غير الصخرة فإنه لجأ إليها . . . » (البيان المغرب ج ٢ ص ٤١) . وذكر المقرى أنه كان مظفراً حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة ، وصار رباطهم على نهر ردونة . (المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٠) .

(٢) موقعة دارت بين الأمويين وأهل المدينة سنة ٦٢ هـ بالقرب من مكة وفيها أشفوا غليلهم بقتل زهرة شباب أهل المدينة .

(٣) أخبار مجموعة ص ٤٢ — ابن عذارى ج ٢ ص ٤٥ .

فلما علم عبد الرحمن بن علقمة اللخمى صاحب أربونة ، وقائد جيش المسلمين فى غالة ، بمقتل عبد الملك بن قطن غضب غضباً شديداً وعزم على الانتقام من الشاميين ، فحشد جيشاً مؤلفاً من غالبية عساكر المسلمين فى أربونة[١] ، وأقبل به إلى الأندلس لمحاربة بلج بن بشر القشيرى والشاميين ، وتضخم جيشه بمن انضم إليه من عسكر الثغر ، واشتبك جيشه مع جيش بلج فى موضع يقال له أقوة برطورة Agua Bortora من إقليم ولبة Huelva ، فانهزم جيش عبد الرحمن وقتل من قواته نحو عشرة آلاف ، ولكن عبد الرحمن تمكن من قتل بلج القشيرى بسهم فوقه إليه ، ثم انصرف عبد الرحمن بن علقمة إلى الثغر[٢] . والواقع أن رحيل عبد الرحمن بن علقمة إلى الأندلس مع جيوش المسلمين ، كان له أثر سيء على مركز المسلمين فى غالة ، إذ أنه رحل إلى الأندلس بعد أن سحب معظم قوات المسلمين ، ونتيجة لذلك خرجت كثير من مدن سبتمانيا عن الحكم الإسلامى ، مثل نيم ومجلونة وأجدة وبيزييه[٣] ، كما استقلت بعض إمارات البرتات مثل قنطابرية ونبرة .

ولما تولى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى إمارة الأندلس أنفذ ابنه عبد الرحمن على رأس جيش إلى أربونة وما يليها لضبطها ، ويبدو أن عبد الرحمن فشل فى مهمته بسبب ضعف النفوذ الإسلامى هناك ، وبسبب انقطاع الاتصال بين الأندلس وسبتمانيا عقب انتقاض أهل جليقية على المسلمين ، وتغلب بلاى على أشتوريش ، وانتهز ببين الثانى ابن قارلة المعروف باسم Pepin Le Bref هذه الفرصة وعجل بالسير نحو أربونة قبل أن يسبقه إليها فايفر Vaifre ابن أودو ، دوق أكيتانيا . سار ببين إلى اللانجدوك واستولى على نيم وأجدة ومجلونة وبيزييه ، ، ومن هناك تقدم إلى أربونة حيث حاصرها ، وضيق عليها ، وافتتحها سنة ١٣٣هـ (٧٥٢ م) ، وإن

---

(١) ذكروا أن عدد جنود جيشه بلغ مائة ألف (انظر أخبار مجموعة ص ٤٣) ويذكر ابن القوطية أن عدد قواته بلغ ٤٠ ألفاً ، وهذا العدد أقرب إلى الصواب .

(٢) ابن القوطية ، ص ١٦ وما يليها — أخبار مجموعة ص ٤٣ .

(٣) شكيب أرسلان ص ١١٢ — حسين مؤنس ص ٢٨٨ .

كان رينو يؤكد أنه لم يفتتحها إلا عام ١٤١ هـ (٧٥٩ م)[١].

ثم أخذ نفوذ الفرنجة فى أواخر أيام بيين وبداية عهد ابنه شارل المعروف بشارلمان يتغلغل فى شبه جزيرة أيبيريا ، فى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) سلمت مدينة جرندة للقوات الإفرنجية[٢] ، وذلك قبيل وفاة الأمير عبد الرحمن بن معاوية بزمن وجيز ، كذلك أغزى الأمير هشام بن عبد الرحمن قائده عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة إلى هذه المدينة ، ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء عليها ، فرفع عنها الحصار ، واستمر فى زحفه إلى سبتمانيا ، حتى انتهى «إلى مدينة أربونة فأوقع بها وأحرق أرباضها»[٣] ، وكان لويس بن شارلمان ملك أكيتانيا مشغولا فى حروبه بإيطاليا ، وكان أبوه شارلمان مشغولا بمقاتلة الآفاريين ، فاضطر دوق طولوشه جيين Guillen المعروف فى شعر الملاحم الفرنسية باسم جيوم ذى الأنف القصيرة Guillaume au nez court إلى صد الجيش الإسلامى الذى تأهب للتقدم نحو قرقشونة ، والتقى الجيشان على ضفاف نهر أربيو Orbieu بالقرب من قرية فيلديني Ville daigne ، وتقع بين قرقشونة وأربونة ، وفيها انهزم جيش جيوم هزيمة نكراء[٤] ، وغنم المسلمون غنائم هائلة ، وحملوا معهم إلى قرطبة عدداً كبيراً من الأسرى ، ويذكر ابن عذارى أن عبد الملك بن مغيث جال فى بلاد العدو شهوراً يحرق القرى ويخرب الحصون[٥] ، وإن كان بعض المؤرخين العرب يؤكد أن عبد الواحد بن مغيث افتتح أربونة ، وأن الأمير هشام أقام قنطرة قرطبة

---

(١) شكيب أرسلان ، عن رينو ص ١١٣ . ذكر رينو أن بيين اضطر إلى رفع الحصار عن أربونة ، فلما كان عهد عبد الرحمن الداخل فكر فى تدعيم السلطان الإسلامى فى مدينة أربونة وما يليها ، وأنفذ جيشاً تحت قيادة أمير اسمه سليمان أملا فى تخفيف الضغط عليها ، ولكن النصارى هاجموا الجيش الإسلامى فى شعاب الجبال وهزموه هزيمة شنعاء ، وانتهز نصارى أربونة هذه الفرصة واتفقوا مع بيين سراً على تسليم المدينة نظير أن يتركهم أحراراً فى مدينتهم ، وفاجأوا الحامية الإسلامية وقتلوا رجالها جميعاً ، وسلموا المدينة للفرنجة سنة ٧٥٩ م (انظر شكيب أرسلان ص ١١٣ — فجر الأندلس ص ٢٩١) .

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 128 et sq.

(٣) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٩٥ .

(٤) Lévi-Provençal, op. cit. p. 145. — شكيب أرسلان ص ١٢٧ .

(٥) ابن عذارى ص ٩٥ .

وجامعها من خمس غنائمه[١] .

ولاشك أن المسلمين اقتصروا على الإغارة على أربونة وما يليها ، وأنهم لم يفتحوا عاصمة سبتمانيا بدليل أن المدونات المسيحية لم تشر إلى شيء من ذلك ، ثم إن المقرى يعاود الحديث عن مهاجمة المسلمين لبلاد الفرنجة فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فقد « أغزى حاجبه عبد الكريم فى العسكر إلى بلاد برشلونة فعاث نواحيها ، وأجاز الدروب التى تسمى البرت إلى بلاد الفرنجة ، فدوخها قتلاوأسراً وسبياً ، وحاصر مدينتها العظمى جرندة وعاث فى نواحيها ، وقفل »[٢] ، وقد أحاط الأعداء بعساكره ليلا عند ما عسكرت بين أربونة وشرطانية Cerdana فقاتلهم المسلمون الليل كله وهزموهم[٣] .

وعاود المسلمون غزو أربونة فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، فقد ذكر بن بشكوال أن من أبواب قصر قرطبة باب يطل على السطح المشرف « وعليه باب حديد فيه حلق لاطون ، قد أثبتت فى قواعدها ، وقد صورت صورة إنسان فتح فه ، وهى حلق باب مدينة أربونة من بلد الإفرنج ، وكان الأمير محمد قد افتتحها ، فجلب حلقها إلى هذا الباب[٤] » .

ومع كل هذه الغزوات ، فقد امتنعت أربونة على المسلمين ، واستعصت عليهم ، ولم يمض عهد قصير حتى انقطعت هذه الغزوات تماماً ، بانقطاع الاتصال بين الأندلس وسبتمانيا .

---

(١) ابن القوطية ص ٤٣ . وذكر المقرى أن مدينة أربونة الشهيرة فتحت فى أيام الأمير هشام الذى « اشترط على المعاهدين من أهل جليقية من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة ، وبنى منه المسجد الذى قدام باب الجنان ، وفضلت من منه فضلة بقيت مكومة » (ج ١ ص ٣١٦) . وفى موضع آخر يقول إنه أزاد فى جامع قرطبة زيادته المشهورة من خمس فى أربونة (ج ٢ ص ٩٧) . ويحدد ابن عذارى هذا القدر بنحو ٤٥ ألفاً من الذهب العين (ابن عذارى ج ٢ ص ٩٥) .

(٢) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٤ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ص ١٢ .

٣

النزاع بين العرب والبربر

يبدأ هذا النزاع منذ ولاية يزيد بن أبى مسلم على أفريقية فى عهد يزيد عبد الملك سنة ١٠١ هـ (٧٢١) م . وكان يزيد بن أبى مسلم كاتباً للحجاج ابن يوسف المعروف بتعصبه للعرب على الموالى واستبداده بهم ، فتشبه يزيد بالحجاج ، واستبد مع البربر ، واستخف بهم ، واشتد عليهم فى جمع أموالهم ، وسبى نسائهم ، وأسرف فى ذلك حتى أوغر عليه صدورهم ، وذكروا أنهم خرجوا على ولاة المغرب وعماله لأن الخليفة وولده كانا يكتبان إلى عمال طنجة « فى جلود الخرفان العسلية فتذبح مائة شاة فربما لم يوجد فيها جلد واحد »[1] . وكان يزيد بن أبى مسلم « ظلوماً غشوماً ، وكان البربر يحرسونه ، فقام على المنبر خطيباً ، فقال : إنى رأيت أن أرسم اسم حرسى فى أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحراسها ، فأرسم فى يمين الرجل اسمه وفى يساره « حرسى » ، ليعرفوا بذلك بين سائر الناس ، فإذا وقفوا على أحد أسرع لما أمرت به . فلما سمعوا ذلك منه اتفقوا على قتله وقالوا : جعلنا بمنزلة النصارى ، فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب قتلوه فى مصلاه »[2].

وخلفه بشر بن صفوان وكان كلبياً فأقام عنبسة على الأندلس وقتل عبد الله ابن موسى بن نصير ، وتتبع أنصاره بالتعذيب واستصفى بقاياهم . فلما مات بشر سنة ١٠٩ هـ (٧٢٧)م ولى هشام بن عبد الملك مكانه قيسياً ، هو عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، وكان عبيدة رغم حسن رأيه وحزمه شديداً فى معاملته للبربر ، فأسرف فى غزو قبائلهم وسبى نسائهم وبالغ فى التعسف معهم والجور بهم ، ثم استعفى من منصبه ، بعد أن ولى ما يقرب من أربع سنوات ونصف ، وولى الخليفة

---

(١) أخبار مجموعة ص ٣٢ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٤٨ .

هشام مكانه عقبة بن قدامة فى شوال سنة ١١٤ هـ، ثم خلفه عبيدالله بن الحبحاب ، الذى قدم أفريقية فى ربيع الآخر سنة ١١٦ هـ (٧٣٤ م) . وكان قيسياً متعصباً لقيسيته ، كما كان متعصباً للعرب ضد البربر ، فجعل يتعسف معهم كما كان يتعسف مع اليمنية ، وبدأ البربر يتطلعون إلى الخلاص ، وبلغ من استخفاف عبيد الله بهم أن اعتبرهم جميعاً فيئاً للمسلمين أو عبيداً لهم ، إذ أنه أقام على طنجة عمر بن عبد الله المرادى ، « فأساء السيرة وتعدى فى الصدقات والعشر ، وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فىء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله ، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للاسلام ، فكان فعله الذميم سبباً لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل فى العباد »[١]. وهكذا كانت نفوس البربر تغلى فى الوقت الذى انقسم فيه العرب إلى عصبيتين ؛ القيسية واليمنية . وفى أثناء ذلك كثر مجىء الخوارج إلى بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة ، وتسللوا بين قبائل البربر ، وأخذوا يبثون تعاليمهم بينهم ، واقتنع البربر بهذه التعاليم ، فاعتنقوها ، وظهر لهم رئيس يعرف بميسرة المدغرى [٢]، نصب نفسه إماماً وتسمى بالخلافة ، والتف حوله البربر . واقتدى خوارج البربر بالخوارج الأزارقة وأهل النهروان أصحاب الراسبى عبد الله بن وهب ، فحلقوا الرءوس[٣] ، وسنحت الفرصة لميسرة للخروج على العرب ، فقد انتهز فرصة خروج جيش العرب بقيادة حبيب بن أبى عبدة فى حملة إلى صقلية ، فجمع أنصاره ونقضوا الطاعة لعبيد الله بن الحبحاب بطنجة وأقاليمها ، وتداعت برابر المغرب بأسره ، فثار البربر فى المغرب الأقصى سنة ١٢٢ هـ (٧٣٩ م) ، وخرج ميسرة المدغرى ووثب على عمر بن عبد الله المرادى بطنجة فقتله . ثم ترك ميسرة على طنجة عبد الأعلى بن حديج ، وزحف إلى إسماعيل ابن عبيد الله ابن الحبحاب فى منطقة السوس فقتله ، وهكذا تحرج موقف عبيد الله ابن الحبحاب فى بلاد المغرب ، وساء مركز العرب ، وغضب عبيد الله لمقتل ابنه اسماعيل وعامله عمر بن عبد الله المرادى ، فكتب إلى حبيب بن أبى عبدة يأمره

---

(١) ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٥٢ .

(٢) هو ميسرة المدغرى أو المطغرى ويعرف بالحقير بائع الماء بسوق القيروان (انظر ابن القوطية ص ١٤ — البكرى ، ص ١٣٤) .

(٣) أخبار مجموعة ص ٣٢ .

بالرجوع من صقلية حتى يتمكن العرب من مواجهة ثورة البربر ، وأعد عبيد الله جيشاً مؤلفاً من خيار العرب ، جعل على رأسه خالد بن أبي حبيب الفهرى ، وتقدم جيش العرب قاصداً جيش ميسرة ، وعبر خالد وادى شليف بالقرب من تاهرت ، والتقى بجيش حبيب بن أبي عبدة القادم من صقلية . ومضى خالد حتى لقى ميسرة بالقرب من طنجة فاقتتل جيشاهما ، وتراجع ميسرة ، فثار عليه البربر وقتلوه ، وولوا أمرهم مكانه زعيما من زعمائهم هو خالد بن حميد الزناتى ، فالتقى خالد بن أبي حبيب بالبربر وعلى رأسهم ابن حميد الزناتى ، ولكنه لم يستطع أن يصمد أمام جموعهم الهائلة ، فانهزم ، وانهزم وراءه العرب هزيمة نكراءلم يسمع بمثلها قط ، وقتل ابن أبي حبيب ومن معه ، « ولم يبق من أصحابه رجل واحد ، فقتل فى تلك الواقعة حماة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها فسميت الغزوة غزوة الأشراف »[1]

وانتقضت البلاد ، وعمت الفوضى ، وانتشر الذعر فى نفوس العرب ، وبلغ أهل الأندلس ثورة البربر بالمغرب ، فوثبوا على أميرهم عقبة بن الحجاج فعزلوه وولوا عبد الملك بن قطن[2] ، فاختلت الأمور على ابن الحبحاب . ولما علم الخليفة هشام بن عبد الملك بهذه الهزيمة ، عزل عبيد الله عن أفريقية سنة ١٢٣ هـ (٧٤٠ م) وقال : « والله لأغضبن لهم غضبة عربية ، ولأبعثن لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندى[3] » . وأرسل جيشاً ضخماً عدته ٢٧ ألفاًمن الشاميين[4] ، انضم إليهم ثلاثة آلاف من مصر ، فأصبح مجموع الجيش ثلاثين ألفاً جعل على قيادته كلثوم بن عياض القشيرى الذى تولى المغرب بدلا من عبد الله بن الحبحاب . وأوصاه هشام بمحاربة البربر ، وجعل الأمر من بعده إلى ابن أخيه بلج بن بشر القشيرى إن هو أصيب ، وجعل الأمر بعد بلج إن أصيب إلى ثعلبة بن سلامة العاملى[5] ، وكلهم من غلاة القيسية على خلاف العرب الأفارقة أى الذين توطنوا

---

(١) ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٥٢ .

(٢) ابن القوطية ص ١٤ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) كان هذا الجيش يتألف من أجناد من الشام منها : جند أهل الأردن وعلى رأسه ثعلبة بن سلامة العاملى وجند قنسرين وعدده ثلاثة آلاف ، وجند مصر وعدده ثلاثة آلاف (انظر أخبار مجموعة ص ٣١) .

(٥) ابن القوطية ص ١٤ — أخبار مجموعة ص ٣٠ .

إفريقية منذ أيام الفتح العربي للمغرب، وأصبحوا بلديين شأنهم فى ذلك شأن عرب الأندلس، وكان معظمهم من اليمنيين وأهل الحجاز، وكانت بين عرب الحجاز وعرب الشام ثارات وأحقاد دفينة ترجع إلى أيام وقعة الحرة سنة ٦٣ هـ ، وكان الموقف يستلزم نسيان هذه الأحقاد أمام الخطر الجاثم . فاتحد العرب البلديون برئاسة حبيب بن أبى عبدة بن عقبة مع العرب الشاميين الذين أرسلهم الخليفة هشام لنجدة عرب المغرب ، وأصبح بذلك عدد الجيش سبعين ألفاً [١] ، وكان الخليفة قد أمر كلثوم أن يستخدم هرون القرنى مولى معاوية بن هشام ومغيثاً مولى الوليد لمعرفتهما بالبلاد ، فجعل كلثوم على رجالة إفريقية مغيثاً وجعل على خيلها هرون القرنى .

ثم أقبل البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتى فى جموع هائلة لا عدد لها ولا حصر ، حتى التقوا بجيش العرب على وادى سبو عند بليدة بقدورة ، وذلك سنة ١٢٤ هـ ، ونصح مغيث وهرون كلثوم بإقامة خندق بمعسكر المسلمين وقالا له: « خندق أيها الأمير وتلوم بالكراديس [٢] ، وأعطنا الخيل نخالفهم إلى قراهم ودراريهم [٣] » ويبدو أن كلثوم قد اقتنع بوجاهة رأيهما فقد هم بحفر الخندق حول المعسكر، غير أن بلج قاطعه فى ذلك، وكان كلثوم لا يعصيه، فقال له بلج: « لا تفعل ولا يرعك كثرة هؤلاء فإن أكثرهم عريان أعزل لا سلاح لهم » [٤]، فناشبهم كلثوم القتال، وجعل بلج ابن أخيه على قيادة الخيالة الشاميين وهرون القرنى على خيالة عرب إفريقية ، ومغيثاً على رجالة عرب إفريقية بينما قاد كلثوم رجالة أهل الشام ، واشتد القتال ، ولجأ البربر إلى وسيلة مبتكرة كسبوا بها المعركة ، فقد كانوا يستقبلون خيل بلج بالجلود اليابسة المحشوة بالحجارة ، فيرغمون خيل أهل الشام على النكوص ، كما عمدوا إلى الرمك الصعبة فعلقوا فى أذنابها القرب والأنطاع اليابسة ثم وجهوها نحو معسكر كلثوم ، فنفرت الخيل » [٥] . عندئذ اضطر كلثوم إلى المناداة

---

(١) أخبار مجموعة ص ٣١ .
(٢) الكراديس: المبارزات .
(٣) أخبار مجموعة ص ٣٢ .
(٤) نفس المرجع ص ٣٢ .
(٥) نفس المرجع ص ٣٣ .

بالنزول عن الخيل ، وكان هذا هو ما كان يقصده البربر ، فلم تكن لديهم خيول تكافئ خيل المسلمين ، فاعتمدوا على كثرتهم ، أما بلج فقد بقى فى طائفة من خيله اثنى عشر ألفاً ويقال سبعة آلاف وهو أصح العددين ، وزحف البربر وبلج يحاول أن يصدهم دون جدوى ، وخالط البربر جيش أهل الشام وانقضوا على صفوفهم ، وحاصروا بلجاً ، فحالوا بينه وبين العودة إلى عسكره ، واشتد الأمر على جيش العرب فقتل حبيب بن أبى عبدة القرشى ، وقتل مغيث ، وقتل هرون ، وقتل سليمان بن أبى المهاجر ، وانهزمت خيل أهل إفريقية ورجالها ، وثبت كلثوم ولكنه قتل ، وهزم جيشه هزيمة شنيعة ، وركب من نجا من العرب منهزماً إلى إفريقية ، وتبعهم البربر يقتلونهم ويأسرونهم ، حتى لقد ذكروا أن البربر قتلوا ثلث الجيش وأسروا ثلثه الثانى وطاردوا الثلث المنهزم[1] . أما بلج فلم يجد بداً من الفرار هو ومن بقى من فرقته وعددهم عشرة آلاف فلاذ بمدينة سبتة ، وأقبل البربر يحاصرون المدينة ويهاجمونها المرة بعد المرة ولكنهم لم يتمكنوا من دخولها لحصانتها ومناعتها ، فعمدوا إلى نسف مزارعها وتخريبها فأقفرت الأرض حول سبتة مسيرة يومين ، وبذلك قطعوا عن العرب المعاش ، فجاعوا حتى أكلوا دوابهم ، وأكلوا الجلود ، وأشرفوا على الهلاك[2] ، واضطر بلج إلى الاستنجاد بعبد الملك بن قطن والى الأندلس ، واستأذنه فى العبور إلى الأندلس هو وأصحابه . وذكر له ما صاروا إليه من الجهد . فتغافل بهم ابن قطن ، وسره هلاكهم وخافهم على سلطانه [3] ، فلما رأى عرب الأندلس إشراف إخوانهم على الهلاك فى سبتة أمدهم رجل من لخم يقال له عبد الرحمن بن زياد الأحرم بقاربين قد شحنهما بالشعير والأدم ، فأتاهم ذلك ولكنه لم يكفهم ، حتى أشرفوا على الهلاك فأكلوا العشب . واتفق أن ثار بربر الأندلس على عربها عند ما بلغهم ظهور بربر العدوة على عرب المغرب والشام ، فأخرجوا « عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب استرقة والمداين التى خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن إلا فلهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس »[4] ويبدو أن

---

(١) ابن القوطية ص ١٥ — أخبار مجموعة ص ٣٤ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٣٧ — ابن عذارى ج ٢ ص ٤٢ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٣٧ وما يليها — ابن عذارى ص ٤٢ . وذكر ابن القوطية أنه شاور أهل الرأى عنده فى استقدام العرب الشاميين إلى الأندلس فقالوا له : إن دخل عليك هذا الشامى عزلك ، فلم يجاوبه » (انظر ابن القوطية ص ١٦) .

(٤) أخبار مجموعة ص ٣٨ .

البربر وثبوا على العرب فى المناطق البعيدة عن مركز الإمارة ، الواقعة فى أطراف الأندلس ، مثل المناطق الشمالية فى جليقية وأشتوريش وغرب الأندلس ، وهى المناطق التى يسكنها جمهور البربر ، حيث يؤلفون هناك أغلبية السكان ، بينما كان العرب أقلية بالنسبة إلى كثرة البربر العددية [١] ، ويدل على ذلك أن البربر لم يهاجموا عرب سرقسطة وثغرهم لأنهم كانوا يتفوقون فى العدد على البربر . التف بربر الأندلس حول زعيم لهم اسمه ابن هدين [٢] أو زقطرتق [٣] على نحو ما فعله بربر المغرب من مبايعتهم لميسرة ثم لابن حميد الزناتى ، ولما تحرج مركز ابن قطن بثورة البربر ، أخرج إليهم جيوشاً ، هزموها وقتلوا العرب فى الآفاق ، فخاف أن يكون مصير العرب فى الأندلس مصير بلج ورفاقه المحصورين فى سبتة ، فاضطر إلى التعاون مع الشاميين للقضاء على العدو المشترك ، وعزم على السماح لهم بالعبور إلى الأندلس بشرط أن يبارحوا الأندلس بعد انتهاء مهمتهم ، فأرسل إليهم السفن وعليها الأطعمة والأدم ، ولكنه اشترط عليهم مقام سنة بالأندلس ثم يخرجون عنها إلى إفريقية ، فرضوا بذلك ، كما اشترط عليهم أيضاً أن يسلموه رهائن منهم ، أنزلهم بجزيرة أم حكيم ، ثم أذن لبلج وأصحابه بالدخول إلى الأندلس ، فدخلوا عراة لا يواريهم إلا دروعهم ، وقد بلغ بهم الجهد كل غاية ، « وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام ، فلما دخلوا كساهم عرب الأندلس على قدر أقدارهم ، فرب رجل يكسو مائة رجل ، وآخر عشرة ، وآخر واحداً إلى ما بين ذلك » [٤] ، وأعطاهم ابن قطن العطايا . وبدأ عرب الشام مهمتهم بمهاجمة جماعة من البربر بقيادة رجل من زناتة ، كانوا قد انتقضوا على عبد الملك بن قطن فى شذونة ، فلم يكن للعرب فيهم إلا نهضة حتى أبادوهم ، وأصابوا أمتعتهم ودوابهم ، فاكتسى أصحاب بلج ، وانتعشوا ، وأصابوا المغانم ، ثم نهضوا مع عبد الملك إلى قرطبة [٥] ،

---

(١) يوضح صاحب فتح الأندلس ذلك فيقول : « وتطاولت البربر أيضاً بالأندلس على العرب الساكنين بجليقية واسترقة والمداين التى خلف الدروب ، وقاتلوهم وطردوهم لكثرتهم هناك وقلة العرب » ص ٣١

(٢) أخبار مجموعة ص ٣٩ .

(٣) فتح الأندلس ص ٣١ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٣٩ .

(٥) ابن عذارى ج ٢ ص ٤٣ .

ومنها اتجهوا شمالا . أما البربر فقد أقبلوا فى حشود هائلة من جليقية واسترقة وماردة وقورية وطلبيرة متجهين جنوباً نحو قرطبة ، وعبروا نهر تاجة ، والتقوا مع قوات العرب البلديين والشاميين ، فى حوز طليطلة على وادى سليط ، فحلق البربر رؤوسهم اقتداء بميسرة ، «ولكى لا يخفى أمرهم وليضربوا ولا يختلطوا»[١]، ثم انحط الشاميون على البربر كالبواشق حانقين ، فزقوا صفوفهم ، وأذرعوا فيهم القتل ، وأبادوهم ، فأطفأوا بذلك جمرة تقمّهم ، بحيث لم ينج من البربر إلا من فر بحياته ، وبذلك انتهت مهمة بلج ، وطالبه عبد الملك بن قطن بالخروج من الأندلس ، فسأله بلج وأصحابه أن يهيء لهم الرحيل من ساحل البيرة أو ساحل تدمير[٢] فى سفن إلى تونس ، فاعتذر عبد الملك عن ذلك بوجود السفن فى الجزيرة الخضراء لكى تنقلهم إلى سبتة ، فقالوا له : «تعرضنا لبربر طنجة ، اقذف بنا فى لجة البحر أهون علينا فلما رأوا ما يريد بهم ، وثبوا عليه فأخرجوه من القصر وأدخلوه بلجا صاحبهم ، وبايعوا له ونزل ابن قطن داره وهى التى يقال لها دار أبى أيوب»[٣]، وتم ذلك فى أول ذى القعدة سنة ١٢٥ هـ . ونتيجة لذلك اختلط أمر الناس فى الأندلس ، وأمسك والى الجزيرة عن إمداد الرهائن الشاميين الذين كان قد وضعهم ابن قطن فى جزيرة أم حكيم بالطعام والشراب ، فمات من الرهائن رجل غسانى من أشراف أهل الشام ، واتهم عرب الشام ابن قطن بأنه السبب فى موته ، وثار عرب اليمن لموت الغسانى ، وطالبوا بلجا بأن يسلم لهم ابن قطن ليقتلوه مقابل الغسانى ، فحاول بلج أن يردهم عن ذلك عبثاً ، إذ اتهموه بأنه يحمى مضراً ، فخاف أن تتفرق كلمتهم ، فأمر بإخراجه من داره ، فأخرجوه وهو شيخ كبير تجاوز التسعين ، وهم ينادونه : «يا فال : فلت من سيوفنا يوم الحرة ، ثم عرضتنا أكل الكلاب والجلود طلباً بثأر الحرة ، ثم بعث جند أمير المؤمنين[٤]» ، فقتلوه عند رأس القنطرة وصلبوه .

---

(١) أخبار مجموعة ص ٤٠ .

(٢) ابن عذارى ص ٤٤ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٤١ .

(٤) نفس المرجع ص ٤٢ .

٤

تحول النزاع بين البلديين والشاميين
إلى صراع بين القيسية واليمنية

أثار مقتل عبد الملك بن قطن موجة من الغضب فى الأندلس ، واتحد العرب البلديون بقيادة قطن وأمية ابنى عبد الملك مع البربر الذين كانوا يتلهفون لنيل ثأرهم من أهل الشام، وانضم إليهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمى عامل عبد الملك فى أربونة وجيوشه الإسلامية المرابطة فى سبتمانيا ، كما انضم نفر من أصحاب بلج ممن سخطوا على بلج فتكه بعبد الملك مثل عبد الرحمن بن حبيب ، والتقى هذا الجيش مع جيش الشاميين فى موضع يقال له أقوة برطورة ، وانتهت الموقعة بهزيمة البلديين ومقتل بلج ، فتولى أمر قرطبة والشاميين والأمويين ثعلبة بن سلامة العاملى ، ولما بلغ الخليفة هشام بن عبد الملك ما أصاب اليمنية على أيدى القيسية والشامية ، شاور أخاه العباس ابن الوليد فى هذا الأمر ، فنصحه بتولية أحد اليمنيين على الأندلس ، فقبل الخليفة منه ذلك ، واتفق فى ذلك الوقت ورود أبيات كتبها أبو الخطار بن ضرار الكلبى من إفريقية يقول له فيها :

أفأتم بنى مروان قيسا دماءنا ... وفى الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط ... ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقيناكم حر الوغى بصدورنا ... وليست لكم خيل تعد ولا رجل
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا ... وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا ... بلاء وأنتم ما علمت لها فعل
فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة ... وزلت عن المرقاة بالقدم النعل
تصرم حبل الوصل وانقطع القوى ... ألا ربما يلوى فينقطع الحبل (١)

فلما وردته هذه الأبيات ولى حنظلة بن صفوان الكلبى على إفريقية ، وأمره أن يولى ابن عمه أبا الخطار الأندلس ، ليضع حداً للفتنة القائمة بين البلديين والبربر

(١) ابن القوطية ص ١٨ .

وبين الشاميين ، فقدم إليها فى رجب سنة ١٢٥ هـ (مايو سنة ٧٤٣ م) ومعه سجل الولاية من حنظلة بن صفوان ، وفى رفقته ثلاثون رجلا ، هم الطالعة الثانية من العرب الشاميين [١] .

وكانت الحرب ما تزال ناشبة بين الشاميين والبلديين ، فبعد أن قتل بلج من ضربتى علقمة ، تولى ثعلبة بن سلامة العاملى ، وقام بمحاربة حشود أهل البلد العرب والبربر فى ماردة ، فقاتلهم قتالا شديدا فهزمهم وأذرع فيهم قتلا ثم سبى ذراريهم ، وقيل إنه عاد إلى قرطبة يحمل ما يزيد على عشرة آلاف من السبى [٢] ، ونزل ثعلبة فى المصارة من أرباض قرطبة يبيع سبى ذرارى أهل البلد ، وكان يبيع شيوخ البلديين من العرب فيمن ينقص من الثمن ، وبالغ فى ذلك حتى باع أحد رجال عرب المدينة بكلب ، وبينما كان يقوم ببيع الأسرى والسبى من عرب قرطبة ، قد شبك فى الحبائل الوالد بالولد ، إذ أقبل أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى والياً من قبل حنظلة بن صفوان ومعه ثلاثون رجلا ، وكان يحمل لواء فى سن [٣] ، فأمر بإطلاق الأسرى والسبى ، فسمى عسكره لذلك عسكر العافية [٤] . واجتمع على أبى الخطار عرب البلد وعرب الشام ، ودانت له الأندلس بعد أن جمع كلمة المسلمين بعد الفرقة ، واجتث أصول الفتنة ، فأمر بإخراج ثعلبة بن سلامة العاملى [٥] والوقاص ابن عبد العزيز الكنانى ، وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى من الأندلس إلى طنجة ، هم وعشرة من قواد الشام ، وأمن ابنى عبد الملك بن قطن فاستقامت حال الناس فى فى البلاد واطمئنوا إلى معاشهم [٦] . ثم نظر فى توزيع جند الشام عن قرطبة إلى كور الأندلس ليقضى على عوامل الاضطراب ، فأنزل جند دمشق بالبيرة وسماها دمشق [٧] ، وأنزل جند الأردن بكورة رية ، وجند فلسطين بشذونة ، وجند حمص بإشبيلية ، وجند

---

(١) ابن القوطية ص ١٩ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٤٥ .

(٣) ابن القوطية ص ١٩ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٤٦ — ابن عذارى ج ٢ ص ٤٩ .

(٥) ذكر ابن خلدون أن ثعلبة مضى إلى المشرق ولحق بمروان بن محمد وحضر حروبه (المقرى ج ١ ص ٢٢٢) .

(٦) ابن القوطية ص ٢٠ — أخبار مجموعة ص ٤٦ — ابن عذارى ج ٢ ص ٤٨ وما يليها .

(٧) نفح الطيب ج ١ ص ٢٢١ .

قنسرين بجيان، وجند مصر بباجة وتدمير ، وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم من أرض ونعم ، ولم يمس غنائم البلديين من العرب والبربر بنقص . وهكذا بدأ أبو الخطار عهده بداية طيبة ، ولكنه بالرغم مما قام به من جمع الكلمة والقضاء على الفتنة، كان يمنيا متعصبا ليمنيته ،فما لبث أن انحرف عن طريق الإصلاح بالرغم منه لتعصبه لليمنية ، واعتزاله القيسية، وكان سبب ذلك أن أحد القيسيين قتل أحد أصحابه وهوسعد بن جواس ،فكان ذلك بمثابة الشرارة الأولى، وحدث أن اختلف أحد المضريين مع أحد اليمنيين ، فشكاه اليمنى إلى أبي الخطار ، فجار أبو الخطار فى حكمه وتعصب لليمنى ، فالتجأ المضرى إلى الصميل بن حاتم بن شمر ويلقب بذى الجوشن، وكان زعيما للقيسية فى الأندلس، فأقبل الصميل إلى أبي الخطار للتفاهم معه فيما حدث ، فسبه ولكزه أمام الجند ، فخرج من حضرته وهو عازم على إثارة قومه على اليمنيين [1] ، وعاد إلى داره، وبعث إلى خيار قومه، فشكا إليهم ما لقى عند أبي الخطار [2] ، وألبهم عليه، واستعان بالمنحرفين عن أبي الخطار من اليمنية [3] ، ويبدو أن قومه أجمعوا على نصرته وقالوا له : « نحن تبع لك [4] ، فقال : والله ما أحب أن أعرضكم للقضاعية ولا لليمانية ، ولكنى سأتلطف ، وأدعو ألفة مرج راهط [5] ، وأدعو لخما وجذاما ، ونقدم رجلا يكون له الاسم ولنا الحظ [5] » .

فكتبوا إلى ثوابة بن سلامة الجذامى من جند فلسطين بذلك ، فوافق عليه وأجابته لخم وجذام . ولما علم أبو الخطار بذلك خرج لمحاربتهم فهزمه ثوابة بالقرب من نهر شذونة وأسره ،ودخل قصر قرطبة، وأبو الخطار معه يرسف فى قيوده [6] . وتولى ثوابة إمارة الأندلس بتدبير الصميل سنة ١٢٨هـ (٧٤٥ م)، وأقام عاماً واحداً ثم توفى

---

(١) ذكر ابن خلدون (عن المقرى ج ١ ص ٢٢٢) أن أبا الخطار أمر جنده بضرب الصميل ، فضربوه حتى مالت عمامته من على رأسه ، ولما خرج سأله أحد الحراس : أصلح عمامتك يا أبا الجوشن ، فرد عليه : إن كان لى قوم فسيقيمونها ، وكان هذا بمثابة إعلان للحرب بين المضرية وبين اليمنية .

(٢) أخبار مجموعة ص ٥٦ .

(٣) المقرى ج ١ ص ٢٢٢ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٥٦ — ابن عذارى ج ٢ ص ٥٠ .

(٥) هى موقعة حدثت بالقرب من دمشق فى عهد مروان بن الحكم فى بداية خلافته بين اليمنيين أصحاب مروان وبين الضحاك بن قيس زعيم المضريين الذى كان يؤيد عبد الله بن الزبير ، وفيها قتل اليمنيون الضحاك وعدداً كبيراً من المضرية .

(٦) أخبار مجموعة ص ٥٧ — ابن عذارى ج ٢ ص ٥٠ .

فى سنة ١٢٩ هـ . فاجتمع أهل الأندلس على أحد أحفاد عقبة بن نافع الفهرى، وهو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وكان طاعنا فى السن، ضعيف الإرادة ، مما سهل على الصميل تحريكه وفقا لرغباته ، وتمت تولية يوسف الفهرى دون إراقة دماء . إلا أن يحيى بن حريث الجذامى من جند الأردن قد دعا إلى نفسه، وتنافس معه فى ذلك ثوابة بن عمرو ، ولكنهم اتفقوا أخيرا على ولاية يوسف على أن تترك كورة رية ليحيى بن حريث ، كذلك اجتمعت قضاعة على رئاسة عبد الرحمن بن نعيم الكلبى ، فجمع مائتى رجل وأربعين فارساً، فبيت القصر بقرطبة، وقاتل الحراس، وهجم على السجن، وأخرج أبا الخطار وهرب به إلى قبائل كلب ، فاكتنفوه ومنعوه[١]، ولكن تحرير أبى الخطار لم يؤثر فى إجماع اليمنية والمضرية على يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، فاستقام له الأمر . ولكنه ما لبث أن غدر بابن حريث فعزله عن كورة رية ، فغضب ابن حريث وتضامن مع أبى الخطار على الصميل ويوسف الفهرى ، وأصفقت يمن الأندلس حميرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها على تقديم يحيى بن حريث ، بينما التفت مضر وربيعة حول يوسف والصميل[٢] . وهنا اشتعلت نار الحرب بين العصبيتين اليمنية والمضرية « وهى أول حرب كانت فى الإسلام بهذه الدعوة ، لم تكن حرب قبل هذه الوقيعة، وهى الفتنة العظمى التى بها يخاف بوار الإسلام بالأندلس ، إلا أن يحفظه الله »[٣] .

اصطدم الفريقان فى شقندة جنوبى قرطبة ، واشتد القتال « فما تسمع إلا صهيلا وصليلا ، ولا ترى إلا قتيلا، حتى تكسرت الخطيات ، وتثلمت المشرفيات ، والتفت الساق بالساق ، وانضمت الأعناق إلى الأعناق ، فلم يعهد حرب مثلها فى المسلمين بعد حرب الجمل وصفين[٤] » وكانت الكفتان متعادلتين ، فرأى الصميل أن يبعث فى طلب أهل السوق بقرطبة للاشتراك فى القتال فى الوقت الذى تعبت فيه عساكر الفريقين ، فبعث إلى غوغاء قرطبة خالد بن يزيد مولى يوسف الفهرى ، فأقبل ومعه

---

(١) أخبار مجموعة ص ٥٨ — ابن عذارى ج ٢ ص ٥٢ .

(٢) نلاحظ أن الصميل هو الذى أقام يوسف — بناء على طلب أهل الأندلس — والياً على البلاد وذلك لانشغال مروان بن محمد عنهم بكثرة الخوارج وعظم أمر المسودة .

(٣) أخبار مجموعة ص ٥٩ .

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ٥٣ .

نحواً من ٤٠٠ رجل يحملون العصى والسيوف والمزاريق ، وخرج الجزارون بسكاكينهم ، « فجاءوا إلى قوم موتى » قد أنهكهم التعب وأضناهم طول القتال ، فرجحت كفة المضرية ، وانهزم ابن حريث وأبو الخطار بمن معهما من اليمنية ، وأمعن أصحاب الصميل فى اليمنية تقتيلا وأسراً ، وكان من بين الأسرى أبو الخطار وابن حريث ، فاستقدمهما الصميل مع جموع الأسرى إلى كنيسة شنت بنجنت بقرطبة حيث قتل سبعين منهم ، وأصبح الصميل بذلك هو الوالى الفعلى للأندلس ، فكانت له الرئاسة والتدبير أو الرسم بينما كان ليوسف الاسم .

واجتاحت الأندلس عقب هذه الفتنة مجاعة كبرى دامت ما يقرب من خمس سنوات (١٣١ — ١٣٦ هـ) . وتعرف هذه السنوات الخمسة بسنى برباط ، بسبب هجرة كثير من المسلمين عن طريق وادى برباط إلى المغرب فيقول صاحب أخبار مجموعة : « فأعقبهم الله بالجوع والقحط ، فجاعت الأندلس سنة ستين ، ثم جاء سنة ثلاث عام سعيد ، فثار أهل جليقية على المسلمين ، وغلظ أمر علج يقال له بلاى قد ذكرناه فى أول كتابنا ، فخرج من الصخرة وغلب على كورة اشتوريش ، ثم غزاه المسلمون من جليقية ، وغزاه أهل استرقة زمانا طويلا ، حتى كانت فتنــة أبى الخطار وثوابة ، فلما كان فى سنة ثلاث وثلاثين هزمهم وأخرج عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذبذب فى دينه ، وضعف عن الخراج ، وقتل من قتل ، وصار فلهم إلى خلف الجبل إلى استورقة ، حتى استحكم الجوع ، فأخرجوا أيضا المسلمين عن استورقة وغيرها ، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر ، وإلى قورية وماردة فى سنة ست وثلاثين ، واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين ، وكانت إجازتهم من وادى بكورة شذونة يقال له وادى برباط ، فتلك السنون تسمى سنى برباط ، فخف سكان الأندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو إلا أن الجوع شملهم »[١] وفى نفس المعنى يقول ابن عذارى : « وفى سنة ١٣١ أمحلت الأندلس وعم المحل ، وتمادى إلى سنة ١٣٦ ، وتمادى ذلك سنة محل وسنة غيث ، واتصل المحل الشديد سنة ١٣١ أو ١٣٢ ، ثم سقى الناس سنة ١٣٣ ، وعادت إلى بعض الصلاح . وفى سنة ١٣٣

---

(١) أخبار مجموعة ص ٦١ وما يليها .

ثار أهل جليقية ، وترددت الغارات عليها . ثم استحكم الجوع والقحط فى سنة ١٣٤ و ١٣٥ وبعض سنة ١٣٦ ، فخرج أكثر الناس إلى طنجة وزويلة وريف البحر فى العدوة ، وكانت إجازتهم من وادى شذونة ، وهو المعروف بوادى برباط وبه سميت السنة[١] » . وسبب المحل المذكور يرجع إلى هجرة كثير من البربر من المناطق الشمالية عقب ثورتهم التى قاموا بها سنة ١٢٤ هـ ، ثم إلى الفتنة التى اشتعلت بين العصبيتين العربيتين : المضرية واليمنية ، وشملت جميع أنحاء الأندلس . ولم تفلت من المجاعة فى الأندلس سوى مدينة سرقسطة عاصمة الثغر ، فقد كان أهله أمثل حالا[٢] بمزارعه وخيراته الوفيرة . وكان معظم سكان إقليم سرقسطة والثغر من اليمنيين الذين اعتزلوا الفتنة ، فعمد يوسف إلى إذلالهم بوال قيسى مشهور بعصبيته ضد اليمنية ، فبعث بالصميل إلى سرقسطة واليا من قبله عليها سنة ١٣٢هـ ، وفى نفس الوقت كان يوسف يهدف إلى التخلص من الصميل بعد ما عاينه من ازدياد سلطانه ، فقد كان يوسف يخشى من جانبه بعد أن تمكن بالدولة ، فرأى أن يبعده من قرطبة . وفطن الصميل إلى خطة يوسف الفهرى ، فلم يضطهد سكانها ولم يتعصب ضدهم ، وإنما اكتسب محبتهم ، وفتح داره لذوى الحاجات يفدون إليه فيعطيهم الأموال « ولم يأته صديق ولا عدو فحرمه ، فازداد سؤددا[٣] » .

أما يوسف الفهرى فانفرد بالسلطان فى قرطبة بعد أن أبعد الصميل ، وكان بقرطبة فتى من بنى عبد الدار يقال له عامر بن هاشم[٤] أخو مصعب بن هاشم صاحب لواء رسول الله يوم بدر وأحد ، وكان عامر هذا فارسا مقداما ، كما كان سخيا عاقلا ، وكان يلى الصوائف قبل ولاية يوسف ، فشرف وعلا قدره ، فحسده يوسف[٥] ، وأخذ يكيد له ويتآمر عليه ، وأحس عامر بذلك ، وساءه ما صنع يوسف باليمنيين وما سفك من الدماء ، فبعث إلى أبى جعفر المنصور يسأله أن يبعث إليه بسجله لولاية الأندلس ، ولكنه كان يخشى على نفسه من يوسف ومكائده ،

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٥٥ .
(٢) أخبار مجموعة ص ٦٢ .
(٣) نفس المصدر ص ٦٣ .
(٤) إليه تنسب مقبرة عامر التى تقع غربى سور مدينة قرطبة وباب عامر المفتوح فى هذا السور .
(٥) أخبار مجموعة ص ٦٣ .

فبدأ يتأهب لمهاجمته قبل أن يهاجم يوسف ، فشيد سورا حول منيته المعروفة باسم منية قناة عامر ، وكانت تقع أيضا غربى قرطبة ، وهم أن يجعلها مدينة يتحصن فيها ، ومركزا يغاور منها يوسف ، وكان عامر يعتمد على أمداد اليمنيين وأكثرهم كان مقيما بإشبيلية وسرقسطة ، وبينما كان عامر يتأهب لخوض المعركة المقبلة ، ويتقوى على خصمه ، كان نفوذ يوسف يضعف تدريجيا حتى كان لا يركب معه خمسون رجلا من حشمه ، وانفض الناس من حوله . وكان يوسف يدرك تماما أن السبب فيما أصابه من ضعف يرجع قبل كل شىء إلى عامر بن هاشم ، فأراد أن يقبض عليه ، ولكنه وجده حذراً ، قد عرف بما يراد به ، « وكان يوسف جبانا ، فلم يرد أن ينازعه حتى يحضره الصميل ، فكتب إلى الصميل يعلمه بما تبدل من أمر عامر ، فأجابه يشجعه على قتله ، وكان عامر لا يخفى عليه شىء من سير يوسف ، وكان سخيا لبيبا عاقلا أديبا ، فأتاه آت ، فقال له انظر لنفسك ، فقد أتاه كتاب الصميل يشجعه على قتلك »[1] ، عندئذ اضطر عامر إلى الفرار من قرطبة إلى سرقسطة حيث كان يقيم الصميل ، ولم ير لنفسه أمنع منها لكثرة اليمنيين فيها ، وكتب إلى الحباب بن رواحة من بنى زهرة بن كلاب بسرقسطة ، واجتمع معه فى بعض نواحى هذه المدينة ، فدعوا الناس إلى سجل أبى جعفر ، فأجابهما رجال من اليمنيين وأقوام من البربر ، فلما علم الصميل بذلك بعث إليهم فرقة من جيشه ، ولكنها هزمت وتراجعت إلى سرقسطة ، وهنا أقبل عامر والحباب بجموع هائلة من اليمنيين فحاصروا الصميل بسرقسطة ، فاستنجد الصميل بيوسف الفهرى ، ولكن يوسف قعد عن إغاثته ، واعتذر بشدة الأندلس فى ذلك الوقت ومجاعته ، رغبة فى إهلاكه ، وحرصا على الراحة منه لاستحواذه واستملاكه[2] . وطال الحصار مدة سبعة أشهر ، ويظهر أن الصميل وجد نفسه فى موقف سيىء للغاية بدليل أنه بعث يستنجد قومه من القيسيين ، فى جند قنسرين ودمشق وكتب « إليهم يعظم عليهم حقه ويسألهم إمداده ، ويعلمهم أنه يجتزى من المدد بالقليل[3] » ، وهذا هو غاية التوسل والرجاء مما يدل قطعا على سوء حالته

---

(١) أخبار مجموعة ص ٦٤ .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٥٤ — المقرى ج ١ ص ٢٢٣ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٦٥ .

وإوشاكه على الاستنزال لخصومه ، فأجابه عبيد الله بن على الكلابى وجماعة كلاب ومحارب وسليم ونصر وهوازن كلها باستثناء بنى كعب بن عامر وعقيل وقشير والحريس، فإنهم كانوا منافسين لبنى كلاب . فنهض عبيد الله بن على الكلابى وجماعته ، ودعوا فى الجند إلى نصرة الصميل ، فأصفقت بنو عامر كلها على الخروج إليه وكذلك قبائل هوازن وسليم بن منصور ، وتابعهم بعد ذلك بنو غطفان بن سعد . فلما رأى سليمان ابن شهاب من جند دمشق ، والحصين بن الدجن العقيلى من جند قنسرين هذا الإجماع فى نصرة الصميل ، عدلا عن تقاعسهما وخرجا على رأس قومهما ، وكان جميع من لبى نداء الصميل نحوا من ٣٦٠ فارساً وانضم إليهم موالى بنى أمية فى نحو ٣٠ فارسا على رأسهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان ، وعبد الله بن خالد ، ويوسف ابن بخت . ولم يكن هؤلاء الموالى يفكرون فى إنقاذ الصميل بقدر ما كانوا يفكرون فى أمر فتى من أمراء بنى أمية كان مقيما على الجانب الآخر من الزقاق ، هو الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام .

وسار المدد حتى وصل إلى وادى أنه ، وكان يقيم هناك عقدة بن بكر بن وائل ، وبنى على ، فاستعانوهم ، فخرج معهم نحو ٤٠٠ فارس ، واستأنفوا السير نحو سرقسطة ، فلما بلغوا طليطلة علموا أن الحصار أضر بالصميل ، وخافوا أن يستسلم إذا يئس من وصول المدد ، فعجلوا إليه رسولا يسبقهم ، وبعثوا معه حجارة وكتبوا فيها بيتى شعر هما :

تبشر بالسلامة يا جدار ... أتاك الغوث وانقطع الحصار
أتتك بنات أعوج ملجمات ... عليها الأكرمون وهم نزار (١)

وأوصوه أن يخترق صفوف المحاصرين من بنى عامر والزهرى ، ويرمى الحجارة داخل المدينة . ففعل الرسول ذلك ، وأمر الصميل بقراءة الحجارة ، فقرئت ، ففرح وتمسك بالحصن واشتد عزمه . ولما علم بنو عامر والزهرى بخبر الإمداد ، رفعوا الحصار عن سرقسطة .

---

(١) أخبار مجموعة ص ٦٨ – ابن عذارى المراكشى ج ٢ ص ٦٣ وما يليها .

٥

بدء حركة الاسترداد المسيحي

رأينا فيما سبق كيف أن فتح المسلمين للأندلس كان في الحق مغامرة حربية جريئة، تمت دون إعداد سابق أو وفقا لخطة مرسومة، وإنما كانت ثمة أحداث أملتها الظروف السياسية في إسبانيا القوطية تمخض عنها هذا الفتح، ورأينا أيضاً كيف أن واقعة وادي لكة في رمضان سنة ٩٢ هـ (يوليو سنة ٧١١ م) كانت نصراً حاسما لجيوش الإسلام الظافرة، مهدت للمسلمين السيطرة الشاملة على سائر أنحاء شبه جزيرة إبارية، باستثناء منطقة جبلية تقع في أقصى الشمال الغربي من قنطابرية على خليج بسكاية، كانت تعرف عند العرب باسم صخرة بلاي[1]، فرت إليها جماعة من القوط وبقايا الأيبيريين الرومان وأقاموا بها زمنا ينتظرون أن تواتيهم الفرصة ليجمعوا شملهم، ويستردوا وطنهم، واستهون المسلمون أمرهم، فتركوهم وشأنهم، وانصرفوا هم إلى منازعاتهم الداخلية، ولم يدر هؤلاء الفاتحون أنه من هذه المنطقة الجبلية انطلقت أولى الحركات المناهضة للإسلام في إسبانيا، والتي كانت تهدف إلى استرداد البلاد وتحريرها من الحكم الإسلامي.

وجاءت اللحظة التي انقسم فيها المسلمون على أنفسهم، ودبت في صفوفهم عوامل الخلاف والفرقة، فثار البربر على العرب، وهجروا المناطق الجبلية الباردة التي تركها لهم العرب في أقصى الشمال، وانحدروا نحو الجنوب الذي اختص به العرب دونهم

---

(١) نسبة إلى بلايه Pelayo الذي كان ابناً لفافيلا دوق قنطابرية، كما كان الساعد الأيمن للملك القوطي لذريق. فلما فتح المسلمون الأندلس، وقع بلايه أسيراً في أيدي المسلمين، وزج به في سجن قرطبة، ولكنه تمكن من الفرار في أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفي سنة ٩٨ هـ (٧١٨ م)، وأخذ يتنقل في البلاد حتى استقر به المقام في بليدة كانجاس دي أونيس، وهناك التف حوله عدد كبير من القوط الهاربين من المسلمين وبعض الأيبيريين الرومان، المقيمين في هذه الناحية، فجمعهم بصخرة في أقصى الشمال الغربي من قنطابرية وأخذ يحثهم على الوثوب بالمسلمين، ونجح في خطته، وساعدته الظروف على تحقيق أمنيته عقب مقتل مونوسة البربري عامل أشتوريش وما يليها سنة ١١٣ هـ (٧٣١) انظر: حسين مؤنس، فجر الأندلس ص ٣٣٤.

حيث الخصب والدفء والحياة . وهنا شرع القوط وبقايا الأيبيريين الرومان فى استغلال الفرصة ، وخرجوا من كهوف الجبال ، وأخذوا يحتلون الأراضى التى تركها البربر وراءهم ، وتم ذلك على نحو تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، دون أن يتنبه المسلمون لحركتهم ، لانصرافهم إلى خصوماتهم القبلية ومنازعاتهم العنصرية ، وقويت بذلك شوكة نصارى إسبانيا فى الشمال ، وتكاثرت أعدادهم ، وثبتت أقدامهم ، وعزموا عزما أكيدا على استرداد وطنهم . وهنا تنبه المسلمون إلى الخطر الجاثم ، وأعلن ولاتهم الجهاد لمدافعة النصارى ، والوقوف أمام حركتهم التى كانت ترمى إلى طرد المسلمين من الأندلس . ولكن تنبههم جاء متأخرا ، بعد أن انتصر بلاى وأصحابه على جيوش المسلمين بقيادة ابن علقمة اللخمى فى كوفا دونجا Covadonga أو بمغارة أونجا ، وانهزمت جيوش المسلمين هزيمة نكراء ، وقتل ابن علقمة اللخمى ، وارتد المسلمون إلى استرقة ، وتقدمت جيوش بلايه واستردت ما كانت قد فقدته من قبل أيام عقبة بن الحجاج السلولى والى الأندلس ما بين عامى ١١٦ ، ١٢١ هـ[٢]. (٧٣٤ – ٧٣٩ م) ، ويعتز الإسبان بهذه الموقعة ، ويجعلونها بداية موفقة لحركة المقاومة المسيحية فى شبه الجزيرة ، تلك الحركة التى انتهت بإعادة البلاد إلى النصرانية بعد مضى ثمانية قرون من صراع مرير .

وهكذا نجح بلايه فى تأسيس مملكة أشتوريش الصغيرة التى كانت إيذانا بمولد الإمارات المسيحية فى شمال الأندلس ، واتسعت مملكة أشتوريش الصغيرة ، وأخذت تضم إليها المناطق الشاسعة التى هجرها المسلمون منذ ثورة البربر التى أجلوا فيها العرب من جليقية واسترقة والمدن الواقعة خلف الجبال ، وانتهزوا الفتنة التى حدثت بين أبى الخطار وثوابة بن سلامة الجذامى ، وضموا المناطق التى هجرها سكانها المسلمون فى ليون وسمورة وشلمنقة وشنت مانكش وشقوبية وآبلة وغيرها[٣]. وتم ذلك

---

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٣٠٨ – ٣٥٢ .

(٢) افتتح جليقية وألبة وبنبلونة ولم تبق بجليقية قرية لم تفتتح غير الصخرة التى لاذ بها بلاى (انظر أخبار مجموعة ص ٢٨) .

(٣) يذكر صاحب أخبار مجموعة أنه « لما كان فى سنة ثلاث وثلثين هزمهم وأخرج (المسلمين) عن جليقية كلها وتنصر كلّ مذبذب فى دينه وضعف عن الخراج ، وقتل من قتل ، وصار فلهم إلى خلف الجبل إلى أسترقة حتى استحكم الجوع فأخرجوا المسلمين عن أسترقة وغيرها ، وانضم الناس إلى ما وراء

على يدى الملك الفونسو الأول (٧٣٩ — ٧٥٧) الذى يسميه العرب أذفونش بن بطرة، ويسميه لسان الدين بن الخطيب بالقاطوليق[1] أى الكاثوليكى، وأصبحت منطقة الثغور أى الحدود التى تفصل ملك المسلمين عن ملك النصارى قبل تأسيس دولة بنى أمية فى الأندلس تبدأ من بنبلونة فى الشمال الشرقى وتنحدر إلى تطيلة ثم وادى الحجارة ثم هنارس ثم طليطلة ثم طلبيرة ثم قورية وتنتهى عند قلمرية[2]

= الدرب الآخر، وإلى قورية وماردة فى سنة ست وثلاثين، واشتد الجوع فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وآصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين » ص ٦١ ، ٦٢ ..

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٣٧٢ .

(٢) G. Palencia, Histoira de la Espanâ Musulmana, p. 15 — Aguagdo Bleye, Historia, p. 478.

الفصل الرابع

قيام دولة بنى أمية فى الأندلس

(١) الأمير المغامر : عبد الرحمن بن معاوية
(٢) مفاوضات بدر مع موالى بنى أمية لاستقدام عبد الرحمن
(٣) دخول عبد الرحمن الأندلس وبداية الصراع مع يوسف الفهرى
(٤) ثورات عربية ومؤامرات إفرنجية

الفصل الرابع

قيام دولة بنى أمية فى الأندلس

١

الأمير المغامر : عبد الرحمن بن معاوية

اعتمد الأمويون على العرب ، واعتبروهم مادة الإسلام ، وتعصبوا لهم على الأجناس الأخرى التى دخلت فى الإسلام ، من موالى فرس ، وبربر فى المغرب ، ومسالمة ومولدين فى الأندلس . واتبع خلفاء بنى أمية مع الموالى سياسة تقوم على الشدة والعسف ، إذ كانوا يرتابون فيهم ، ولا يثقون بهم ، ولذلك كانوا ينظرون إليهم نظرة السيد إلى المسود ، فنحوهم عن المناصب الكبرى ، وأبعدوهم عن أمور السلطان كلها ، واحتقروهم وامتهنوهم ، وأساءوا معاملتهم ، فضاق الموالى بذلك ، وحنقوا على الأمويين ، وأبغضوهم وأضمروا لهم السوء ، لنزعتهم التعصبية ، وابتعادهم عن الروح الإسلامية التى تدعو إلى المساواة بين المسلمين جميعاً . وقد توسل الموالى بكل الوسائل الممكنة فى محاربتهم للأمويين وللعرب ، فاستندوا إلى مبادئ الإسلام التى تدعو إلى وحدة الجماعة ، وجعلوا هذه المبادئ أساسا لمحاربة نظام الحكم القائم ، انتصارا للحق على الاستبداد والعسف ، وارتموا فى أحضان الأحزاب المعارضة للدولة الأموية من خوارج ومرجئة وشيعة ، وهى الأحزاب التى كانت تستنكر كل تمييز للعرب على الموالى المسلمين ، ولما نادى الشيعة بحصر الخلافة فى آل بيت الرسول ، اعتنق الموالى هذه الدعوة وتشيعوا لها ، واعتمد عليهم الشيعة اعتمادا كليا فى الإطاحة بالدولة الأموية واحتضنوا قضيتهم وتبنوها ، ثم استغل العباسيون الدعوة لآل بيت الرسول لمصلحتهم الشخصية ، وأخذوا يدعون لأئمتهم سرا ، وتوالت الأحداث فى سرعة مذهلة ، إذ سرعان ما اشتعلت نيران الثورة على بنى أمية فى خراسان ، وحمل أبو مسلم الخراسانى لواءها ، وفشل قواد بنى أمية أمثال ابن هبيرة ونصر بن سيار فى القضاء على الثورة ، وسجل انتصار

العباسيين على مروان بن محمد فى موقعة الزاب فى ١١ من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ نهاية الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، ويعتبر قيام الدولة العباسية انتصارا للموالى الفرس، فقد انتصرت لهم الدولة، واعتمدت عليهم اعتمادا كليا، لأنها تدين بقيامها لهم ، « فكانت دولة أعجمية ، سقطت فيها دواوين العرب ، وغلب عجم خراسان على الأمر ، وعاد الأمر ملكا عضوضا كسرويا[1] » .

وأخذ العباسيون يتعقبون أمراء بنى أمية حيث كانوا ، ويقتلونهم أينما وجدوهم ، فقد أمر السفاح بقطع يدى أبان بن معاوية بن هشام ورجليه، ثم طيف به فى كور الشام ، ينادى على رأسه : هذا أبان بن معاوية ، فارس بنى أمية ، حتى مات . كذلك قتلوا النساء والصبيان ، فقد ذبحوا عبدة بنت هشام بن عبد الملك ذبحا[2] . ولذلك تفرق بنو أمية فى أطراف البلاد للنجاة بأرواحهم من بطش العباسيين بهم ، وكان فيمن فر منهم عبد الواحد بن سليمان ، والغمر بن يزيد . فعمد بنو العباس إلى التظاهر بالأسف والندم على ما اقترفوه من آثام بأمراء البيت الأموى ، وبسطوا الأمانات لأمراء بنى أمية حتى يجمعونهم ، ثم يضربوا رقابهم جميعاً ، فيقضوا بذلك عليهم أجمعين ، ووزعوا المنشورات فى كور الشام بأن « أمير المؤمنين قد ندم على ما كان فى بنى أمية وأحب البقاء، وقد أمرنى بتأمينهم ، فقد أمنتهم فلا أعلمن أحدا يعرض لهم بمكروه »[3] . فاستأمن الخليفة السفاح بذلك بضعا وسبعين رجلا وقيل ثمانين ، منهم عبد الواحد بن سليمان ، والغمر بن يزيد ، والأصبغ بن محمد بن سعيد .

وعلى هذا النحو أخذ العباسيون كلما أتاهم أموى قربوه وأنزلوه معسكر صالح بن على بالقرب من نهر أبى فطرس ، وأعطوه العهود والمواثيق ، وتسامع بذلك أمراء بنى أمية الفارين فى أنحاء الأرض ، فتداعوا من كل فج أملا فى الظفر بالأمان .

وكان يحيى بن معاوية بن هشام مقيما بالقرب من معسكر صالح بن على ، فلم يضطرب مع من اضطرب فى العسكر من بنى أمية ، ولم يتعجل الذهاب طلبا للأمان ، كما فعل غيره من بنى أمية ، وآثر أن يترقب الأحداث من قريته ، حتى

---

(١) ابن عذارى ، نقلا عن أبى محمد بن حزم ، ص ٥٩ .
(٢) أخبار مجموعة ص ٤٧ .
(٣) أخبار مجموعة ص ٤٧ .

إذا ما أتم الخليفة العباسى الفصل فى مصيرهم ، انضم إلى المعسكر لقربه من قريته ، ثم أنه بعث رسولاً من قبله للنظر فى الأمر ، فشاهد القوم يقتلون ، فعاد مسرعا وأبلغ يحيى ، فارتبك هذا ، ولم يتمكن من الهرب إذ أدركه المسودة وقتلوه . وكان أخوه عبد الرحمن بن معاوية غائبا يومئذ فى الصيد ، فلما علم بما حدث أسرع بالفرار ، وكان ينوى الذهاب إلى إفريقية لتطرفها عن مركز الخلافة العباسية ، واستقلال عبد الرحمن بن حبيب بولايتها ، ولتأثره بنبوءة[1] مسلمة بن عبد الملك له وهو صبى بأن دولة بنى أمية ستحيى على يديه . ولم يكن عبد الرحمن بن معاوية أول من فكر فى الذهاب إلى المغرب ، فقد سبقه إلى إفريقية ، السفيانى الثائر ، وأبناء الوليد بن يزيد العاصى ، وموسى وحبيب بن عبد الملك بن عمرو بن الوليد ، وجزى بن عبد العزيز ابن مروان ، وعبد الملك بن عمر بن مروان . ويروى عبد الرحمن قصة هربه من مذبحة نهر أبى فطرس وذهابه إلى داره بدير حنا من كورة قنسرين لجمع ما يلزمه قبل التوجه إلى إفريقية ، فيقول : « فإنى لجالس فى القرية فى دار كنا فيها ، ولم يبلغنا بعد إقبال المسودة ، فكنت فى ظلمة البيت وأنا رمد شديد الرمد ، ومعى خرقة سوداء أمسح بها قذا عينى ، والصبى سليمان يلعب وهو ابن أربع سنين أو نحوها ، إذ دخل من باب البيت ، فترامى فى حجرى ، فدفعته لما كان بى ، ثم ترامى وجعل يقول

---

(١) يروى الأمير عبد الرحمن بن معاوية هذه النبوءة فيقول : « وخرجت حتى صرت فى قرية على الفرات ذات شجر وغياض وأنا والله ما أريد إلا المغرب ، وكنت قد بلغتنى رواية ، كان والدى رحمه الله قد هلك فى زمن جدى رحمه الله ، وكنت صبياً إذ هلك ، فأقبل بى وبإخوتى إلى الرصافة ، إلى جدى ، ومسلمة بن عبد الملك رحمه الله لم يمت بعد ، فنحن وقوف ببابه على دوابنا ، إذ سأل مسلمة عنا ، فقيل أيتام معاوية ، فاغرورقت عيناه بالدمع ، ثم دعا بنا الاثنين فالاثنين ، فأقبل يدعو بنا حتى قدمت إليه ، فأخذنى وقبلنى وقال للقيم : هاته . فأنزلنى عن دابتى وجعلنى عن أمامه ، وجعل يقبلنى ويبكى بكاء شديداً ، فلم يدع بعدى من كان أصغر من إخوتى ، وشغل بى ، فلم يفارقنى ، فأنا أمامه على سرجه حتى خرج جدى ، فلما رآه قال : ما هذا يا أبا سعيد ، فقال بنى لأبى المغيرة رحمه الله ، ثم دنا من جدى فقال له : تدانى الأمر هو هذا ، قال أهو ، قال أى والله ، قد عرفت العلامات والإمارات بوجهه وعنقه . قال ، ثم دعا القيم ، فدفعت إليه وأنا ابن عشر سنين يومئذ أو نحوها ، فكان جدى رحمه الله يؤثرنى ويتعاهدنى بالصلة والبعثة إلى فى كل شهر » أنظر : أخبار مجموعة ص ٥١ وما يليها .

ويضيف ابن عذارى المراكشى على رواية عبد الرحمن بن معاوية ما يلى : « حدث عبد الرحمن قال : دخلت الأندلس وأنا أضبط جلية مسلمة بن عبد الملك ، فإنه أتى جدى هشاما يوماً ، فوجدنى عنده صبياً ، فأمر جدى بتنحيتى عنه ، فقال له مسلمة : دعه يا أمير المؤمنين ، فإنه صاحب بنى أمية ، ومحيى دولتهم بعد زوالها ، فلم أزل أعرف لى مزية من جدى بعد » البيان المغرب ج ٢ ص ٦١ .

ما يقول الصبيان عند الفزع . قال ، فخرجت ، فإذا أنا برايات مطلة ، فلم يرعنى إلا دخول أخى فلان فقال : يا أخى ، رأيت المسودة . وكنت لما فعل بى الصبى ما فعل قد خرجت فرأيتهم ، فلم أدرك شيئا أكثر من دنانير تناولتها ثم خرجت أنا والصبى أخى ، وأعلمت أخواتى أم الإصبغ وأمة الرحمن بمتوجهى ، وأمرتهما أن يلحقنى غلامى (يقصد مولاه بدر) بما يصلحنى إن سلمت ، فخرجت حتى اندسست فى موضع ناء عن القرية ، وأقبلوا فأحاطوا بالقرية ، ثم بالدار فلم يجدوا أثرا ، ومضينا حتى لحقنى بدر ، ثم خرجت حتى أتيت رجلا على شاطئ الفرات ، وأمرته أن يبتاع لى دواب وما يصلحنى ، فأنا أرقب ذلك ، إذ خرج عبد له أو مولى ، فدل علينا العامل ، فأقبل إلينا ، فوالله ما راعنا إلا بجلبة الخيل إلينا فى القرية ، فخرجنا نشتد على أرجلنا ، وأبصرتنا الخيل ، فدخلنا بين أجنة على الفرات ، واستدارت الخيل فخرجنا وقد أحاطت بالأجنة ، فتبادرنا وسبقناها إلى الفرات ، فترامينا فيه ، وأقبلت الخيل ، فصاحوا علينا : ارجعا لا بأس عليكما ، فسبحت وسبح الغلام أخى ، فلما سرنا ساعة سبقته بالسباحة وقطعت قدر نصف الفرات ، فالتفت لأرفق وأصيح عليه ليلحقنى ، فإذا هو والله لما سمع تأمينهم إياه وعجل ، خاف الغرق فهرب من الغرق إلى الموت ، فناديته : أقبل يا حبيبى إلى ، فلم يأذن الله بسماعى ، فمضى ، ومضيت حتى عبرت الفرات ، وهم بعضهم بالتجرد ليسبح فى أثرى ، ثم بدا لهم ، وأخذوا الصبى فضربت عنقه وأنا أنظر ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، رحمه الله . قال ثم مضيت[1] » .

نجح الأمير عبد الرحمن بن معاوية فى الإفلات من أيدى العباسيين ، رغم المحاولات العديدة التى قام بها هؤلاء لاقتناصه ، واستطاع أن يصل سليما إلى كورة فلسطين ، وهناك التقى بغلامه بدر وبسالم أبى شجاع غلام شقيقته[2] وكانا يحملان إليه نفقة وشيئا من جوهر ، وانطلق معهما من موضع إلى موضع متخفيا حتى وصل إلى مصر ، ثم سار منها إلى برقة ، فبقى فيها مستترا مدة ثم رحل عنها ، فأوغل

---

(١) أخبار مجموعة ص ٥٢ — ٥٤ .

(٢) وقيل أدركه أربعة هم بدر مولى أبيه ، وأبو شجاع وزياد وعمرو (انظر نفح الطيب ج ١ ص ٣١٢) .

فى إفريقية ، وقد توافى بها عدد من أهل بيته . وكان يلى إفريقية والمغرب منذ أيام مروان بن محمد سنة ١٢٩ هـ رجل يعرف بعبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، من نسل عقبة بن نافع ، ثار بإفريقية أيام ولاية حنظلة بن صفوان ، وأسر جماعة من الأشراف الذين أرسلهم حنظلة إليه لإقناعه بالعدول عن ثورته ، فسار بهم إلى القيروان ، وهدد حنظلة بقتلهم لو هاجمه ، ولم يسع حنظلة إلا اعتزال إمارة المغرب ، فظفر بها عبد الرحمن بن حبيب . فلما قتل مروان بن محمد وسقطت الدولة الأموية ، استقل عبد الرحمن بن حبيب بولاية إفريقية والمغرب وخرج عن طاعة الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور .

وكان فى بلاط ابن حبيب يهودى عالم بالحدثان ، قد صحب مسلمة بن عبد الملك ، فذكر لابن حبيب أنه يغلب على الأندلس رجل من أبناء الملوك يقال له عبد الرحمن له ضفيرتان ، فلما قدم ابن معاوية ، وكانت له ضفيرتان ، هم بقتله[1] حتى لا تتحقق النبوءة . وأغلب الظن أن قصة اليهودى هذه قصة ملفقة ، وقد أشرنا إلى أمثال هذه القصص التى تنسب إلى البطل نبوءات بنجاحه تتحقق مع الأيام ، والذى لا شك فيه أن عبد الرحمن بن حبيب كان يخاف على إمارة إفريقية والمغرب من أمراء بنى أمية ، أصحاب الحسب والنسب ، وسادة العرب وأشرافهم ، الذين أخذوا يفدون إلى بلاده لتطرفها عن مركز الخلافة العباسية ، فقتل ابنى الوليد بن يزيد ، وصار يقتل كل من يدخل من بنى أمية فى بلاده ، وخاف من عبد الرحمن بن معاوية بالذات لنشاطه السياسى ، وسطوته ، وعمد إلى مطاردته ، والتخلص منه . وكان عبد الرحمن فى الواقع يهدف إلى تكوين إمارة أموية فى بلاد المغرب أو الأندلس تكون استمرارا للدولة الأموية التى أسقطها العباسيون فى المشرق ، فقد كان شابا طموحا فى العشرين من عمره ، يفيض حماسة وأملا فى إحياء هذه الدولة فى المغرب ، وكان يدفعه إلى ذلك ويجدد عزمه ما زعموه من نبوءة مسلمة بن عبد الملك له وهو ابن عشر سنوات . ويبدو أن شيئا من ذلك وصل إلى أسماع عبد الرحمن بن حبيب فعزم على قتله . وعلم ابن معاوية بما يضمره له عبد الرحمن بن حبيب ،

---

(١) أخبار مجموعة ص ٥٥ .
ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٦٠ وما يليها .

ففر من القيروان إلى موضع يقال له بارى ، فنزل فى قبيلة مكناسة حيث ناله بعض الضيق ، وقيل إنه نزل بمغيلة عند شيخ من رؤساء البربر الموالين لعبد العزيز بن مروان يدعى وانسوس ويكنى أبا قرة ، فاستتر عنده وقتا ، ويبدو أن رسل ابن حبيب وأعوانه اهتدوا إلى مخبأه فخبئه تكفات زوجة أبى قرة تحت ثيابها ، وأنقذته من موت أكيد . ولم ينس ابن معاوية هذا الصنيع بعد أن أصبح أميرا على الأندلس ، فقد قصده أبو قرة وزوجته فأكرمهما ، واستظلا بظله فى الأندلس[١] .

وقاسى هذا الشاب الطريد الشريد مرارة العيش فى بلاد المغرب دون كلل ، واحتمل الآلام دون ضعف أو استسلام ، واستقر به المطاف أخيرا عند أخواله من قبيلة نفزة ، وكانت تقيم قريبا من سبتة[٢] معبر الأندلس ، وقيل فى طرابلس[٣] وقيل بسبرة[٤] ، إذ كانت أمه بربرية من سبى نفزة اسمها راح أو رداحا[٥] .

وكانت الأندلس وقتئذ تموج بالفوضى والاضطراب بسبب الفتن والعصبيات القبلية ، وهنا لاحت لعبد الرحمن بن معاوية بارقة من الأمل ، فلابد له وهو سليل خلفاء بنى أمية العظام أن يجد لنفسه وسط هذا الصراع مجالا يجدد فيه دولة أجداده ، وتملكه هذا الأمل تملكا شديدا ، وشرع فى استغلال هذا الموقف لمصلحته ، فبدأ من جديد محاولاته التى أخفقت فى المغرب .

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣١٣ .

(٢) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٦٦٤ .

(٣) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٠٧ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٥٥ .

(٥) أخبار مجموعة ص ٥٥ — ابن عذارى ج ٢ ص ٦١ ، ٧١ .

٢

مفاوضات بدر مع موالى بنى أمية لاستقدام عبد الرحمن

أقام عبد الرحمن عند أخواله النفزيين ، وبقى معه مولاه بدر ، أما أبو الشجاع سالم فقد عاد إلى مولاته أم الأصبغ بالشام ، ورأى الأمير الشاب أن يبادر بالاتصال بزعماء موالى بنى أمية فى الأندلس ، فبعث مولاه بدرا رسولا إلى أبى عثمان عبيد الله ابن عثمان وأبى عبد الله بن خالد زعيمى حزب موالى بنى أمية[1] ، وأرسل إليهما كتابا « يشكو فيه ما ابتلوا به ويعظم عليهم حقه ، ونزوعه إليهم وما صنع به ابن حبيب وبقومه بإفريقية ، ويعلمهم أنه إن دخل إلى يوسف لم يأمنه ، ويعرض أنه إنما يريد الاعتزاز بهم وأن يمنعوه ، وإن تهيأ لهم ما فيه طلب سلطان الأندلس ، أن يعلموه[2] » .

نزل بدر بقرية طرش من ساحل إلبيرة فى آخر سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣ م) ، وقصد أبا عثمان ، فبعث أبو عثمان فى صهره عبد الله بن خالد ، فبحثا ما عرضه عليهما عبد الرحمن ، ثم بعثا إلى يوسف بن بخت ، وكان من رجالهما وأنجادهما ، ويبدو أن هذا الكتاب أحدث تأثيرا عميقا ، فى نفوسهم فتناولوا الرأى مع غيرهم من موالى المروانية ، واتضح لهم أن الأمر رغم خطورته جدير بالمحاولة ، فلم يترددوا فى الموافقة على تعضيد عبد الرحمن مدفوعين فى ذلك بدافع من الإخلاص والوفاء لساداتهم ، وأجمعوا الرأى على إجراء اتصالات مع زعماء اليمنية ، وواتتهم الفرصة ، إذ كان يوسف يتأهب وقتئذ للخروج فى غزوة ، وكان عليهم أن يخرجوا مع يوسف فى هذه الغزوة ، وتمكنوا فى هذه الغزوة من مخاطبة سادات العرب اليمنية ، المقيمين فى غرب الأندلس مثل أبو الصباح اليحصبي ، وعلقمة بن غياث اللخمى ، وأبو علاقة الجذامى ، وزياد بن عمرو الجذامى . ثم خاطبوا رؤساء اليمنية فى إلبيرة وجيان مثل جد بنى أضحى ، وبنى حسان ، وبنى عمر أصحاب وادى آش ، وميسرة ، وقحطبة الطائيين بجيان ، وخاطبوا الحصين بن الدجن العقيلى للتباعد الذى كان بينه وبين الصميل ، فكان المضرى الوحيد الذى أيد عبد الرحمن بن معاوية ، فلما تم ذلك لهم

(١) كانا يتوليان لواء بنى أمية بالتعاقب . (٢) أخبار مجموعة ص ٦٧ .

طلبوا من بدر أن يبلغ عبد الرحمن بأنهم أجابوه إلى ملتمسه ، وأنهم ينتظرون مجيئه ، فعاد بدر إلى مولاه عبد الرحمن فى سنة ١٣٧ هـ ، ولكن عبد الرحمن أجابه بقوله « ليس تطيب نفسى على دخول الأندلس إلا أن يكون معى واحد منهم [١] » ، فانصرف بدر إليهم بجوابه .

فلما عاد بدر إلى الأندلس ، وسلم أبا عثمان إجابة ابن معاوية رأى زعماء الموالى ضرورة مشاورة الصميل إلى الأمر ، وكانوا واثقين من كتمانه لموضوع ابن معاوية ، إن لم يجبهم إلى طلبهم . فكان هذا سببا فى خروجهم مع من خرج من القيسية لفك الحصار عن الصميل فى سرقسطة ، ويبدو أن موالى بنى أمية أرادوا أن يقدموا بمساهمتهم فى فك الحصار عنه يداً عنده فيؤيد قضية ابن معاوية . وكان عبد الرحمن قد بعث إليهم خاتمه ليكتبوا به عنه إلى كل من رجا نصره ، فكتبوا عنه للصميل يذكرون له أيادى بنى أمية عنده ويعدونه ويمنونه [٢] .

ثم اجتمع به الأمويون الثلاثة بعد رحيله من سرقسطة ، وكان ما يزال متأثراً بجهودهم فى إنقاذه ، فأطلعه عبيد الله بن عثمان على قصة ابن معاوية ، وأعطاه الكتاب وقال له : « تقدم علىّ ، لا رضىً ولا سخط إلا برأيك ، فإن ترض أمراً رضيناه ، وإن تسخطه سخطناه [٣] » ، ولكن الصميل بما عرف عنه من حذر وحيطة ، لم يتعجل الإجابة ، فقد فاجأه عبيد الله بمسألة ابن معاوية ، والأمر يقتضى منه أن يتروى ويفكر ، ولا بد أنه أدرك أن ابن معاوية كان يطمع فى السلطان على عكس ما يراه الدكتور مؤنس [٤] ، وإلا لما قال لعبيد الله عندما قابله بعد ذلك فى قرطبة « فإن أحب (ابن معاوية) غير السلطان ، فله عندى أن يواسيه يوسف ويزوجه ويحبوه » [٥] ، وإن كان يعتقد تماما أن مجرد وجود ابن معاوية فى الأندلس يعنى القضاء على نفوذ الصميل نفسه ، لأن ابن معاوية على حد قول الصميل لأبى عثمان « من قوم لوبال أحدهم فى هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم فى

(١) ابن القوطية ص ٢٣ .
(٢) أخبار مجموعة ص ٦٩ — ابن عذارى ج ٢ ص ٦٤ .
(٣) أخبار مجموعة ص ٦٩ وما بعدها — ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٦٤ .
(٤) فجر الأندلس ص ٦٦٨ .
(٥) ابن القوطية ص ٢٤ — أخبار مجموعة ص ٧٣ وما يليها — ابن عذارى ص ٦٤ ، ٦٥ .

٢

ثورة يوسف الفهرى على ابن معاوية ومقتله هو والصميل

دخل ابن معاوية قصر الإمارة بقرطبة دون مقاومة ، فاستنجدت به زوجة يوسف الفهرى وابنتاه وقلن له : « يا ابن عمنا أحسن كما أحسن الله إليك[1] » ، وكانت عساكره قد سبقته إلى القصر ، فأصابت ما فى مطابخه من أطعمة ، وامتدت أيديهم إلى محتوياته ، فأمرهم عبد الرحمن برد ما سلبوه من أهل القصر ، ثم طردهم منه ، وكسى عرى بنات يوسف[2] . ثم أمر صاحب الصلاة بقرطبة ، وهو جد بنى سلمان القرائين ، وكان مولى ليوسف الفهرى ، بضم النساء إلى داره . ولكن تصرف ابن معاوية فى نهيه اليمنية عن النهب والسلب ، كان سببا فى إغضابهم عليه ، وساءهم طرده لهم من القصر ، وحمايته لبنات يوسف الفهرى ، إذ كانوا يزمعون فضيحتهن ، وأخذوا يهمسون بالوثوب عليه ، فقالوا « عصب ، وكأن ذلك لم يشتد على أهل العقول منهم ، وأضمروا إن قالوا قد أحسن ، وفى أنفسهم غير ذلك ، وقال بعضهم لبعض : ويحكم قد فرغنا من أعدائنا من مضر ، وهذا ومواليه منهم ، فضع بنا يداً عليهم فيصير لنا فتحان فى يوم واحد ، فكره كاره ، ورضى راض ، وأصفقت قضاعة على الكراهة[3] » . وذكر ابن القوطية أن أبا الصباح بن يحيى اليحصبى زعيم اليمنية بغرب الأندلس قال لثعلبة بن عبيد الجذامى ، من وجوه جند فلسطين عند انهزام يوسف الفهرى ، ودخول عبد الرحمن بن معاوية قصر قرطبة « يا ثعلبة ، هل لك رأى فى فتحين فى فتح . قال له ثعلبة : وكيف ذلك . قال أبو الصباح : قد استرحنا من يوسف فاسترح بنا من هذا ، وتكون الأندلس قحطانية[4] » . فقدم إلى ابن معاوية ، وأفضى إليه بما أسره إليه أبو الصباح . فاحتاط عبد الرحمن

---

(١) ابن القوطية القرطبى ص ٢٨ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٩٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٩١ .

(٤) ابن القوطية ص ٣٠ .

فى هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم فى بوله ، وهذا رجل (يقصد يوسف الفهرى) قد حكمنا عليه مع ما له فى أعناقنا ، والله لو بلغتما بيوتكما ثم رأيتما هذا لظننت ألا أقصر حتى أرجع إليكما ، لئلا أغركما ، وأنا أعلمكما أن أول سيف يسل عليه فسيفى ، فبارك الله لكما فى رأيكما ومولاكما » ثم قال : « فإن أحب غير السلطان فله عندى أن يواسيه يوسف ويزوجه ويحبوه ، انطلقا راشدين[١] » . فانقطع رجاؤهما من مضر وربيعة بأسرها ، وعمدا إلى معاودة الاتصال باليمنية ، وكان اليمنية يتلهفون للثأر من المضرية ، فوجدا منهم ترحيبا بالغا واستعداداً حسناً لإستقبال الأمير الأموى وتعضيده ، لأنهم كانوا قوما « قد وغرت صدورهم ، يتمنون شيئا يجدون به سبيلا إلى طلب ثأرهم ، ورغبوا فى عقد لواء بنى أمية فى الأندلس »[٢] .

عاد الزعيمان الأمويان بعد اتصالهما باليمنية إلى جندهما ، فابتاعا مركبا وجها فيه أحد عشر رجلا يرافقون بدرا ، منهم تمام بن علقمة الثقفى وأبو فريعة الذى كان له بصر فى ركوب البحر[٣] ، وأعطيا بدرا خمسمائة دينار للنفقة على ابن معاوية ولفدية البربر[٤] .

وكان ابن معاوية ما يزال مقيما عند أخواله النفزيين على ساحل سبتة ، وكان يمضى نهاره متجولا على الساحل ناظراً البحر ، مرتقبا وصول بدر وأصحابه ، ومضت الأيام متثاقلة وهو على تلك الحال ، حتى جاء يوم ، وبينما كان يؤدى صلاة المغرب إذ لمح مركبا « مقبلاً فى اللج حتى أرسى وخرج إليه بدر سابحا ، فبشره بما تم له بالأندلس ، وما خلف فيه أبا عثمان وعبد الله بن خالد وغيرهما من رجال الأندلس من الاجتماع عليه والرضاء به[٥] » . ثم خرج إليه تمام بن علقمة من الغراب ، « فقال له عبد الرحمن : ما اسمك ، قال : تمام ، قال : وما كنيتك ؟ قال : أبو غالب ، قال : تم أمرنا وغلبنا عدونا ، فاستحجبه لذلك ، فلم يزل حاجبا فى أيامه حتى مات »[٦] ثم سأل بدراً عن أبى فريعة ، فقال له : هذا مولاك أبو فريعة : قال « اقترعنا البلد إنشاء الله »[٧] . ثم ركب عبد الرحمن معهم البحر حتى أرسوا بثغر المنكب Almunecar فى آخر ربيع الثانى سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) .

---

(١) ابن القوطية ص ٢٤ — أخبار مجموعة ص ٧٣ وما يليها — ابن عذارى ج ٢ ص ٦٤ وما يليها

(٢) أخبار مجموعة ص ٧٤ — ابن عذارى ج ٢ ص ٦٥ .

(٣) ابن القوطية ص ٢٤ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٧٤ .

(٥) أخبار مجموعة ص ٧٥ .

(٦) ابن القوطية ص ٢٤ .

(٧) ابن القوطية ص ٢٤ .

- ٣ -

دخول عبد الرحمن الأندلس وبداية الصراع مع يوسف الفهري

أقام يوسف الفهري في طليطلة ينتظر عبثا قدوم جند بني أمية إلى هذه المدينة ، وظل كذلك حتى وافاه الصميل واضطر إلى السير نحو سرقسطة ، وافتتحها ، وقبض على عامر القرشي وابنه وهب والحباب بن رواحة الزهري ، وكبلهم بالحديد وأراد قتلهم ، فاستشار فيهم خيار القيسية ، فأشاروا عليه بالإبقاء عليهم ، وألح سليمان ابن شهاب في عدم قتلهم ، فاضطر يوسف إلى الرضوخ لإجماعهم ، ثم أوفد بعثا إلى البشكنس ببنبلونة[1]، إذ انتقضوا بنقض أهل جليقية ، وجعل على رأس هذا البعث سليمان بن شهاب وعدداً من رؤساء القرشيين ، وتعمد يوسف أن يكون هذا البعث هزيلا ، حتى يتخلص من ابن شهاب والحصين بن الدجن وغيرهما من ذوي النفوذ ممن عارض في قتل عامر القرشي ثم قرر العودة إلى قرطبة ، فما كاد يبلغ وادي شرنبة Jaramara حتى أدركه الرسول بهزيمة الجيش الذي أوفده إلى جليقية ، وقتل قائده وعامة الجند ، والتجاء فله بقيادة الحصين بن الدجن إلى سرقسطة عند واليها أبي زيد عبد الرحمن بن يوسف[2] . اغتبط يوسف لهذا النبأ ، فقد خلا له الجو بعد موت معارضيه ، وأصبح حرا في تصرفه إزاء خصومه السجناء ، ونصحه الصميل بالتخلص منهم بضرب أعناقهم ، فدعا بعامر القرشي وابنه وهب وبالزهري وأمر بهم فضربت أعناقهم ، وبذلك قضى الصميل على أعدائه الذين حاصروه في سرقسطة زهاء سبعة شهور وكادوا يفتكون به ، وأخذ يوهم يوسف بأنه ضمن بقتلهم الاحتفاظ لنفسه ولابنه من بعده بولاية الأندلس ، فقال له : « قد قتل ابن شهاب ، وقتلت عامراً والزهري ، وهي والله لك ولولدك ، إلى الدجال من هذا ينازعك[3] » .

وهدأت نفس الصميل بعد مقتل أعدائه، فانصرف إلى ابنتيه ليقيل، وبقي يوسف وحده في خيمته ، « واضطجع مفكراً فيما صنع ، ووضع رجله اليمنى على

---

(١) أخبار مجموعة ص ٧٦ – ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٧٧ – ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ٦٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٧ .

اليسرى وهو مستلق مفكر ، قال المحدث ، فوالله ما أنزل رجله اليمنى عن اليسرى حتى صاح أهل العسكر : رسول! رسول من قرطبة[١] » . فما راعه إلا رسول من أم عثمان أم ولده ، يحمل إليه رقعة عليها : « ابن معاوية قد دخل ، ونزل بطرش[٢] عند الفاسق عبيد الله بن عثمان ، وأصفقت معه بنو أمية ، وإن خليفتك على إلبيرة زحف إليه بمن خف من أهل الطاعة ليخرجه ، فهزم وضرب أصحابه ، ولم يقع قتل ، فالرأى رأيك[٣] » .

بهت يوسف لهذا النبأ ، وأحس بعظيم ما اجترمه ، وأن الله قد أنزل نقمته عليه لما سفكه من دماء عامر القرشي وابنه والزهري . فدعا الصميل في الحال ، فأتاه مذعوراً من نومه ، وحدثه يوسف بما جاء به الرسول ، فقال له الصميل : « خطب جليل ، والرأى أن نقطع إليه من فورنا هذا ، بمن معنا من الناس ، فإما قتلناه وإما شردناه فهرب ، فإن هرب لم يستقلها أبداً »[٤] . وانتشر الخبر في معسكر يوسف ، وكان الناس قد سئموا به وتبرموا منه لما صنعه بالقرشيين ، فأخذوا ينفضون من حوله ، ويتفرقون إلى كورهم ، ولم يبق مع يوسف إلا عدد قليل من قيس ومن قبائل مضر ، قفلوا عائدين معه إلى قرطبة . أراد يوسف أن يجمع الأجناد لمواجهة ابن معاوية ، فأقام بقرطبة ، فلم يأته من الأجناد إلا يسيراً ، إذ أقبل الناس على ابن معاوية وأيدوه وبايعوه . فنصحه الصميل بالتوسل بالخديعة للإيقاع بابن معاوية، فهو شاب حدث لا خبرة له ، ثم هو قريب عهد بزوال النعمة ، مما يساعد على سهولة خداعه ، وعندئذ يتحكم فيه يوسف وفيمن سعى له من موالى بنى أمية ، وفيمن أيده من اليمنية ، أما الطريقة التي نصحه بانتهاجها فهى أن يزوجه يوسف ابنته ، ويسكنه في جند دمشق أو الأردن ، وتؤول إليه شؤون الكورتين ، فعمل يوسف بما نصحه به الصميل ، وكتب إلى ابن معاوية رسالة من إنشاء خالد بن زيد منها ما يلى : « أما بعد ، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب وتأبش من تأبش إليك ، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الإيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها ، وكذبونا ، وبه ، جل وعلا ، نستعين عليهم ، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمصوا ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفا ، وجنحوا إلى

---

(١) أخبار مجموعة ص ٧٧ .

(٢) هى مدينة Torrox الواقعة على ساحل المنكب Almunecar

(٣) أخبار مجموعة ص ٧٧ . (٤) نفس المرجع ص ٧٨ .

النقض ، والله من ورائهم محيط ، فإن كنت تريد المال وسعة الجناب فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك ، وأنزلك معى إن أردت ، أو بحيث تريد . ثم لك عهد الله وذمته بى ألا أغدرك ، ولا أمكن منك ابن عمى صاحب إفريقية ولا غيره . . »[١] . وأمر يوسف بتأليف وفد مكوّن من عبيد بن على ، أحد شيوخ القيسية ، وخالد بن زيد كاتبه ومولاه ، وعيسى بن عبد الرحمن الأموى ، وكان يومئذ على أرزاق الأجناد ، وحشم يوسف عارضا ، وبعث معهم بكسى وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار[٢] . فسار الرسل حتى بلغوا أرش (بالقرب من لوشه) فى أدنى كورة رية ، وهناك اتفق الثلاثة على أن يبقى عيسى بن عبد الرحمن بالأموال والهدايا ، فإذا وجدا من عبد الرحمن بن معاوية تجاوبا ورغبة فى الصلح أرسلا إلى عيسى رسولا لتقديم الهدايا ، وإذا لم يجدا شيئا من القبول لدى ابن معاوية ، فإن يوسف الفهرى أحق بماله ، فسار عبيد وخالد وبقى عيسى بما معه فى أرش ، حتى قدما إلى جماعة بنى أمية .

* * *

نزل عبد الرحمن بن معاوية فى ثغر المنكب فى ربيع الآخر من سنة ١٣٨ هـ[٣] وقيل فى غرة ربيع الأول[٤] (١٤ أغسطس سنة ٧٥٥ م) ، وهناك استقبله أبو عثمان وعبد الله بن خالد ، زعيما المروانية ، استقبالا حافلا أنساه ما عاناه من آلام أثناء فراره من موضع إلى موضع ، ثم انتقل من المنكب مع وفد مستقبليه إلى الفنتين Alfontin منزل ابن خالد ، ثم مضى منها إلى مدينة طرش Torrox بكورة إلبيرة بالقرب من Iznajar ، مركز حزب المروانية من موالى بنى أمية ، ونزل منزل أبى الحجاج[٥] فجاءه أبو الحجاج يوسف بن بخت ، وأقبلت عليه وفود الأمويين ، وقد أعد للأمير ما يصلحه من المركب والمنزل والملبس ، وأقبل إليه الناس من كل مكان بعد أن أخذ يوسف بن بخت البيعة له من جند الأردن ، كما أخذها له كل من عبد الله بن خالد من

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٧٩ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٧٥ .

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ٦٦ . Lévi-Provençal, Histoire, op. cit. p. 101

(٥) منزل أبى عثمان وفقاً لابن القرطية (انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٤) :

جند حمص ، وتمام بن علقمة من جند فلسطين(١) . وفيها جاءه جداد بن عمرو المذحجى من أهل رية ، فأصبح بعد ذلك قاضيه فى العسكر ، كما جاءه عاصم ابن مسلم الثقفى ، وأبو عبدة حسان فاستوزره ، وجاءه كذلك أبو بكر بن الطفيل(٢) وأقام عبد الرحمن بن معاوية فى طرش بعد الخطة لمواجهة يوسف والصميل ، ويجمع الأجناد .

وبينما كان معاوية مقيما عند أبى عثمان فى طرش بين أنصاره ، إذ قدم عليه عبيد بن على وخالد بن زيد ، وخاطباه فى الألفة وفى مقابل ذلك يصاهره يوسف ويحسن وفوده ، «ثم جلسا فأخرج خالد كتاب يوسف وناوله لابن معاوية ، فأخذه ابن معاوية منه وسلمه إلى أبى عثمان ، فقال اقرأه وأجب فيه بما تعلم من رأينا(٣) » ، ولقى عرض يوسف لابن معاوية استحساناً لدى عدد كبير من موالى بنى أمية ، وقالوا : « ما أحسن ما عرضتما وما جاء إلا طالبا لموارثيه(٤) » . ومع ذلك فقد كانت هناك جماعة من العرب والأمويين استنكروا ذلك وأشاروا عليه ألا يقبل ذلك منه إلا أن يعتزل له عن الملك ويبايعه ، وقالوا له : « إنما يمكر بك ولا يفى لك بشىء لأن وزيره ومالك أمره الصميل ، وهو غير مأمون(٥) » .

ولكن وقع حادث غير الموقف تغييراً تاما ، فى الوقت الذى أخذ أبو عثمان عبيد الله فيه الخطاب وطالعه وتأهب لإملاء الرد ، قال له خالد بن زيد ، مولى يوسف مزهواً ، وكان هو الذى أملى خطاب يوسف إلى ابن معاوية : « يا أبا عثمان لتعرقن إبطاك قبل أن تحبر فيه جوابا » ، فرفع أبو عثمان يده وضرب بالكتاب وجه خالد »(٦)، وسبه سبا قبيحا ، ثم أمر به فأخذ وكبل بالأغلال من ساعته ، واعتبر أنصار ابن معاوية ذلك بداية للفتح ، وحاول عبيد الله بن على أن يقنع أبا عثمان بالإفراج عن خالد فقال لهم : « هو رسول ولا سبيل إليه » ، فقالوا له « أنت الرسول وهذا متعدى قد بدأ بالشتيمة والانتقاص ابن الخبيثة العلج(٧)» ، ثم سرحوا عبيدا

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٦٦ .
(٢) أخبار مجموعة ص ٧٦ .
(٣) نفس المرجع ص ٨١ .
(٤) نفس المرجع .
(٥) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٦٨ .
(٦) أخبار مجموعة ص ٨١ .
(٧) كان خالد بن زيد المذكور مولى ليوسف والموالى أصلهم عجم أو علوج دخلوا فى الإسلام واصطنعهم العرب فكانوا موالى لهم ، والعلج أى الأعجمى . وقد اعتبر أبو عثمان عبارة خالد التى وجهها إليه سبا وإهانة من أعجمى لعربى فكان انقلابه عليه .

وحبسوا خالداً وبلغ عيسى بن عبد الرحمن ما حدث وهو بأرش فأسرع بالعودة بكل ما كان معه ، ولم يغتفر له ابن معاوية بعد ذلك ما فعله .

كان ما فعله أبو عثمان بخالد بمثابة إعلان الحرب على يوسف والقيسية ، وكان لابد لابن معاوية من تنظيم صفوفه لمواجهة أعدائه ، فكان لزاما عليه أن يجند الأجناد ويحشد الحشود ، فاجتمع إليه بطرش نحو ثلاثمائة فارس من جماعة الأمويين ، وكان لابد من أن يشهر أمره بين أجناد العرب فى كورة رية وشذونة وغيرها ، ويقول تمام بن علقمة : « واجتمعنا إليه ، فأتيناه فى ثلاثمائة فارس من جماعة الأمويين ، وممن أقبل إليه من وجوه العرب ، ثم كاتبنا أهل قنسرين وفلسطين . فلما أقبلت رسلهم بما أردنا نهضنا إليهم ، وكنا قد وطنا على الموت ، وعزمنا على أن نقتل دونه ، وعقدنا له لواء ، وأقمنا معه ستة اشهر نبرم له أموره ، ونكاتب له الناس[١] » .

ثم انتقل ابن معاوية من كورة إلبيرة إلى كورة رية ، فدخلها فى ستمائة فارس ، وخرج منها فى ألفى فارس[٢] ، ولما دخل أرشذونة Archidona يوم الفطر ، ودخل معاوية الجامع وأقبل الخطيب ، قام إليه جدار بن عمرو القيسى جد بنى عقيل — وكانت له رياسة العرب فى كورة رية — فقال له : « أخلع يوسف بن عبد الرحمن ، واخطب لعبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، فهو أميرنا وابن أميرنا » . ثم قال : « يا أهل رية ، ما تقولون ؟ » فقالوا : « نقول ما تقول » . فخطب له ، وبايعوه عند انقضاء الصلاة[٣] . وأنزله جدار فى منزله ، وعندما وصل خبر عبد الرحمن بن معاوية إلى بنى الخليع موالى يزيد بن عبد الملك بتاكرنا Tecorona ، أقبلوا فى أربعمائة فارس[١] . ثم سار عبد الرحمن بن معاوية من أرشذونة إلى شذونة[٢] ، فتلقاه جد بنى إلياس فى عدد كبير من الفرسان ، فتضخم بهم جيش ابن معاوية ، وكثر عدده كثرة هائلة بمن انضم إليه من أجناد العرب شاميهم وبلديهم ، ووفد إليه أبو الصباح بن يحيى اليحصبى ، وحيوة بن ملامس ، سيدا

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢، ص ٦٨ . (٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٦٩ .

(٣) ابن القوطية ص ٢٥ . (٤) نفس المرجع .

(٥) يخلط الدكتور حسين مؤنس بين مدينة أرشذونة Archidona ومدينة شذونة Sidonia ، والواقع أنهما مدينتان لا مدينة واحدة ، فأرشذونة هى حاضرة كورة رية Reiyo ، وكان قد نزلها جند الأردن منذ أيام أبى الخطار ، أما شذونة فهى حاضرة كورة شذونة التى نزلها جند فلسطين (انظر فجر الأندلس ص ٦٧٩ وما يليها) .

غرب الأندلس كله ، قادمين من إشبيلية ، فتلقياه وهو فى طريقه إلى إشبيلية حاضرة الغرب وبايعاه[١] ، ونزل بإشبيلية فى شوال سنة ١٣٨ هـ (مارس ٧٥٦ م) ، وفيها أتاه أهل الغرب فبايعوه ، « وتم أمره فى جميع غرب الأندلس[٢] » .

رجع عبيد بن على إلى قرطبة عقب مقابلته للأمويين ، وأبلغ يوسف والصميل ما فعل هؤلاء بخالد ، فجن جنونهما ، وجعل الصميل يثرب على يوسف فى خلافه رأيه ، إذ لم يمض لمحاربة ابن معاوية وقت أن بلغه خبره ، وهم يوسف بالخروج لمحاربة ابن معاوية ، ولكن الشتاء كان قد زحف ببرده وثليجه ، فنعه من الخروج ، فلما انتهى فصل الشتاء ، أراد يوسف أن يزحف بجيشه للقاء ابن معاوية فى إشبيلية ، فسار حتى نزل حصن نبية[٣] ، فلما علم ابن معاوية بذلك أعد العدة لملاقاته فى قرطبة[٤] .

وزحف عبد الرحمن بمن معه من الأجناد الثلاثة : جند فلسطين وجند الأردن وحمص وكلها يمنية ، وانضم إليه من القيسيين جابر بن العلاء بن شهاب ، وأبو بكر بن هلال العبدى ، والحصين بن الدجن ، وكانوا ينقمون على يوسف لغدره بابن شهاب[٥] . ولم يكن لابن معاوية لواء بينما كانت الأجناد قد خرجت بألويتها ، فلما وصل جيش ابن معاوية إلى قرية بلة نوبة البحرين Villanova de los Bahriés[٦] ، من إقليم طشانة Tocina من كورة إشبيلية ، ويسميها صاحب أخبار مجموعة قرية قلنبيرة Colomera[٧] قال شيوخ الأجناد : « إمام لا لواء له خطأ فى الرأى » فعزموا على العقد له ، فأقبل أبو الصباح يحيى اليحصبي بقناة وعمامة ، والعمامة والقناة لرجل من حضرموت ، ودعوا رجلا من الأنصار تفاءلوا باسمه ونسبه ، وعقدوا اللواء لعبد الرحمن ابن معاوية بهذه القرية بين شجرتى زيتون ، وشهد ذلك أبو الفتح الصدفورى العابد المجاهد ، كما شهده فرقد السرقسطى[٨] .

---

(١) ابن القوطية ص ٢٥ . (٢) المرجع السابق .
(٣) ابن القوطية ص ٢٦ .
(٤) ابن القوطية ص ٢٦ — أخبار مجموعة ص ٨٤ .
(٥) أخبار مجموعة ص ٨٤ .
(٦) ابن القوطية ص ٢٦ .
(٧) أخبار مجموعة ص ٨٤ .
(٨) ابن القوطية ص ٢٦ — أخبار مجموعة ص ٨٤ .

تقدم يوسف فنزل بمدور Almodovar ، ثم سار بحذاء الوادى الكبير لمقابلة ابن معاوية فى طشانة ، فتناوشا والنهر بينهما ، وكان النهر زائداً فى هذا الفصل من السنة ، فمنعهما من الاشتباك ، وأرغمهما على انتظار نقصه ، ليتمكنا من عبوره . وقيل لابن معاوية إن قرطبة تزخر بموالى بنى أمية ممن يؤيدونه ، فشجعه ذلك على السير إليها قبل يوسف ، وعمد إلى دهائه ، فأوقد ناراً فى معسكره حتى يوهم يوسف بأنه باق فى موضعه ، « ورحل من جوف الليل ليسبقه وبينه وبين قرطبة ٤٥ ميلا ، فلم يسر ميلا واحداً حتى أتى يوسف من يعلمه بما أراد من مخالفته إلى قرطبة ، فأصبحا كفرسى رهان والنهر بينهما »[١] . عندئذ عدل ابن معاوية عن خطته ، وتوقف عن المسير ، فتوقف يوسف كذلك ، ثم سار ابن معاوية ، فسار يوسف حتى نزل يوسف بالمصارة ونزل ابن معاوية ببايش Bayex ، وكان جند عبد الرحمن قد نفدت عنهم المؤونة حتى أصبحوا لا يتقوتون إلا بالفول الأخضر ، بينما كان جند يوسف ينعمون بأطايب الأقوات ، ومع ذلك فقد انضم إلى ابن معاوية من اليمنية وبنى أمية من أهل قرطبة كل من استطاع اللحاق به . ثم نقص النهر يوم الخميس ٩ ذى الحجة يوم عرفة ، « فقال عبد الرحمن : فى أى يوم نحن ، فقيل له فى الخميس وهو يوم عرفة ، فقال : يوم عرفة وغداً الأضحى والجمعة ، وأمرى مع فهرى ، أرجو أنها أخت يوم مرج راهط[٢] » . ويبدو أن يوسف الفهرى خاطب ابن معاوية للصلح حقنا لدماء المسلمين ، فاجتمع عبد الرحمن مع قواد الجيش وقال لهم : « إنا لم نجىء للمقام ، وقد دعانا هذا الرجل إلى ما علمتم ، وعرض ما سمعتم ، ورأيى لرأيكم تبع ، فإن كان عندكم صبر وجلد وحب للمكافحة فأعلمونى ، وإن يكن فيكم جنوح إلى السلم والصلح فأعلمونى[٣] » . فأصفقت أجناد اليمنية بأسرها على الحرب وكذلك أجمع موالى بنى أمية ، فتظاهر عبد الرحمن برغبته فى مفاوضة يوسف ، وانخدع يوسف بهذه الرغبة ، فكتّب كتائبه ، وبعث على خيل أهل الشام عبد الرحمن بن نعيم الكلبى ، وعلى مشاة اليمنية بلوهة اللخمى من جند فلسطين ، وعلى رجالة بنى أمية ومن جاءهم من البربر عاصم العريان[٤] ، وعلى خيل

---

(١) أخبار مجموعة ص ٨٦ . (٢) ابن القوطية ص ٢٦ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٨٧ .

(٤) سمى كذلك لتجرده من سراويله فى الحرب بين ابن معاوية ويوسف الفهرى .

بنى أمية حبيب بن عبد الملك القرشى ، وعلى خيل من صحبه من البربر إبراهيم بن شجرة الأودى . وانخدع يوسف بما أبداه عبد الرحمن بن معاوية الذى عرف بالداخل لطروقه الأندلس ودخوله لها ، من رغبته فى الصلح فلم يتعرض لجيشه وتركه يجتاز النهر ، ويعسكر بجوار معسكر يوسف بالمصارة . وأقام الفريقان بقية يومهما فى هدوء ، والرسل تختلف من قبل يوسف عشية الخميس ، سعيا لعقد الصلح ، وعبد الرحمن يتظاهر بحرصه على الصلح ، وأراد يوسف أن يعبر عن صدق نيته ، فأمر بإخراج الغنم والبقر ، فذبحت ، وشغل الطباخون بإعداد الطعام لكلا المعسكرين طوال الليل ، وبات الناس وكلهم لا يشك فى أن الصلح قد تم! فلما أصبح الصباح ، أفصح ابن معاوية عن نيته فى الحرب ، وأعلن أنه لا يقبل المفاوضة إلا على أساس اعتراف يوسف والصميل له بالإمارة ، باعتباره وريثا لبنى أمية على الأندلس . وهكذا اشتبك الطرفان فاقتتلا قتالا شديداً ، وكان يرأس خيالة يوسف من أهل الشام ومضر عبيد بن على ، وعلى الرجالة كنانة بن كنانة الكنانى ، وجوشن بن الصميل ، وعبد الله بن يوسف الفهرى ، وعلى خيل غلمانه من البربر خالد سودى ، وكان ابن معاوية يركب فرسا أشقر ، وبيده قوسه ، فانتقده اليمنية ، فقال بعضهم لبعض : « غلام حدث فما يؤمننا أن يطير على هذا الفرس ، فنهلك . فبلغه ذلك حتى لفظوا به ، فنادى أبا الصباح ، فأقبل إليه ، فقال : ليس فى عسكرنا بغل أوفق من بغلك . وإن هذا الفرس يقلق تحتى ، فلا أقدر على ما أريد من الرمى من قوسى ، فخذ فرسى وهات بغلك[1] » . فاطمأنت اليمنية ، بعد أن تم تبادل الدابتين ، وسكتت الألسنة ، واشتد القتال ، وانتهى بهزيمة يوسف والصميل هزيمة شنعاء ، وقتل ولداهما وقتل عبيدالله بن على ، وكنانة بن كنانة ، وغيرهما من وجوه القيسية . ودخل عبد الرحمن قرطبة دخول الأبطال ، واستقر بقصر مغيث وأصبح أمير الأندلس بلا منازع ، وهنا يبدأ عهد جديد فى تاريخ الأندلس .

---

(١) أخبار مجموعة ص ٨٩ .

٢

ثورة يوسف الفهرى على ابن معاوية ومقتله هو والصميل

دخل ابن معاوية قصر الإمارة بقرطبة دون مقاومة ، فاستنجدت به زوجة يوسف الفهرى وابنتاه وقلن له : « يا ابن عمنا أحسن كما أحسن الله إليك[١] » ، وكانت عساكره قد سبقته إلى القصر ، فأصابت ما فى مطابخه من أطعمة ، وامتدت أيديهم إلى محتوياته ، فأمرهم عبد الرحمن برد ما سلبوه من أهل القصر ، ثم طردهم منه ، وكسى عرى بنات يوسف[٢] . ثم أمر صاحب الصلاة بقرطبة ، وهو جد بنى سلمان القرائين ، وكان مولى ليوسف الفهرى ، بضم النساء إلى داره . ولكن تصرف ابن معاوية فى نهيه اليمنية عن النهب والسلب ، كان سببا فى إغضابهم عليه ، وساءهم طرده لهم من القصر ، وحمايته لبنات يوسف الفهرى ، إذ كانوا يزعمون فضيحتهن ، وأخذوا يهمسون بالوثوب عليه ، فقالوا « عصب ، وكأن ذلك لم يشتد على أهل العقول منهم ، وأضمروا إن قالوا قد أحسن ، وفى أنفسهم غير ذلك ، وقال بعضهم لبعض : ويحكم قد فرغنا من أعدائنا من مضر ، وهذا ومواليه منهم ، فضع بنا يداً عليهم فيصير لنا فتحان فى يوم واحد ، فكره كاره ، ورضى راض ، وأصفقت قضاعة على الكراهة[٣] » . وذكر ابن القوطية أن أبا الصباح بن يحيى اليحصبى زعيم اليمنية بغرب الأندلس قال لثعلبة بن عبيد الجذامى ، من وجوه جند فلسطين عند انهزام يوسف الفهرى ، ودخول عبد الرحمن بن معاوية قصر قرطبة « يا ثعلبة ، هل لك رأى فى فتحين فى فتح . قال له ثعلبة : وكيف ذلك . قال أبو الصباح : قد استرحنا من يوسف فاسترح بنا من هذا ، وتكون الأندلس قحطانية[٤] » . فقدم إلى ابن معاوية ، وأفضى إليه بما أسره إليه أبو الصباح . فاحتاط عبد الرحمن

---

(١) ابن القوطية القرطبى ص ٢٨ .
(٢) أخبار مجموعة ص ٩٠ .
(٣) المرجع السابق ص ٩١ .
(٤) ابن القوطية ص ٣٠ .

لذلك ، وولى شرطته يومئذ عبد الرحمن بن نعيم ، وضم مواليه فجعلهم أحراسه ، وانضم إليه موالى بنى أمية فى قرطبة . ولما عاين اليمنية من عبد الرحمن احتياطه الشديد وتحرزه منهم ، عدلوا عن خططهم . ثم خرج ابن معاوية إلى الجامع ، فصلى بالناس صلاة الجمعة ، وأعلن نفسه أميراً على الأندلس ، ولم يكن عمره وقتئذ يتجاوز السادسة والعشرين عاما[1] .

وكان لابد لعبد الرحمن منذ اليوم الذى استقر فيه بدار الإمارة بقرطبة ، أن يقضى على مقاومة يوسف الفهرى والصميل ، فلم تكن هزيمتهما فى المصارة كافية للقضاء على آمالهما فى الظفر بالإمارة ، فمضى يوسف إلى طليطلة ليحشد من بقايا مضر فيها من خف له منهم ، وقدم إليه واليها هشام بن عروة الفهرى كل ضروب التسهيلات ، أما الصميل فمضى إلى جيان ليجمع من أنصاره القيسيين جيشا يناوئ به ابن معاوية . واجتمع جيش الفهرى مع جيش الصميل ، ثم أقبل يوسف والصميل بهذا الجيش إلى جيان ، وأرادا اجتذاب ابن معاوية إليهم ، فيخرج من قرطبة ، وعندئذ يسير عبد الرحمن بن يوسف الفهرى إليها ويحتل قصر الإمارة وكان عبد الرحمن بن معاوية قد ولى جابر بن العلاء بن شهاب كورة إلبيرة ، فلما زحف جيش الصميل ويوسف إلى إلبيرة ، اضطر جابر إلى الفرار إلى بعض جبالها ، واجتمع أهل إلبيرة من القيسية ليوسف ، وبلغ ابن معاوية نزول يوسف والصميل بإلبيرة ، فحشد أجناده و زحف إليهما بعد أن خلف على قرطبة أبا عثمان فى جماعة من يمن قرطبة وموالى بنى أمية . وكان يوسف قد اتفق مع ابنه عبد الرحمن أبى زيد الذى كان مقيما فى ماردة[2] أن ينتهز فرصة خروج ابن معاوية ويحتل قصر قرطبة ، وبالفعل ، ما كاد عبد الرحمن بن معاوية يسير إلى يوسف بإلبيرة حتى أغار أبو زيد على قرطبة ، وحاصر أبا عثمان فى صومعة المسجد الجامع ، وكانت برجا من أبراج القصر ، ثم استنزله أبو زيد بعهد ألا يقاتله ، واكتفى بأن كبله بالأغلال . وما كاد ابن معاوية يعلم بما حدث حتى قفل عائدا إلى قرطبة ، ففر أبو زيد من القصر بأبى عثمان وجاريتين أصابهما لابن معاوية ، فقال له بعض العقلاء من أصحابه :

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 104. أمر عبد الرحمن بلعن المسودة وقطع الدعاء لأبى جعفر المنصور (انظر ابن عذارى ج ٢ ص ٧٣) .

(٢) ابن القوطية ص ٢٩ .

« صنعت ما لم تسبق إليه ، ظفر (ابن معاوية) بأخواتك وأمهاتك فستر عورتهن وكسا عريهن ، وظفرت بخادمين فأخذتهما[1] » ، فظهر له سوء تصرفه ، وندم على أخذه الجاريتين ، وصمم على تركهما فى الطريق ، فأمر بخباء فضرب فى قلعة تدمين بجوفى قرطبة ، على بعد ميل من المدينة ، وترك فيه الخادمتين بما كان لهما من متاع ، ومضى بأبى عثمان مكبلا حتى أتى أباه بالبيرة .

ولما عاد ابن معاوية إلى قرطبة وعاين ما حدث أثناء غيابه ، أرسل فى طلب عامر بن على ، وكانت له سورة وسيادة عند اليمنية ، فاستخلفه فى القصر وعاد لمواجهة يوسف بالبيرة ، فلما بلغ قرية أرملة Armilla من قرى إلبيرة ، أرسل إليه يوسف والصميل يدعوانه إلى أن يسلما له الأمر[2] ، ويعترفا بإمارته على الأندلس بشرط أن يؤمنهما فى أموالهما ومنازلهما ، ويؤمن الناس كلهم ، فأجابهما إلى رغبتهما . واصطلحا فى سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م) ، وكتب بينهما كتاب صلح ، واتفق الطرفان فيه أن يفرج ابن معاوية عن خالد بن زيد ، فيفرج يوسف عن أبى عثمان ، كما اشترط ابن معاوية على يوسف أن يرتهن ابنيه عبد الرحمن أبا زيد ، ومحمد أبا الأسود ، على أن يبقيهما معه فى قصر قرطبة حتى تهدأ الأمور ، فإذا هدأت ردهما[3]. ولما اصطلح معاوية مع خصميه دعاهما للنزول معه بقرطبة ، فركب يوسف عن يمينه والصميل عن يساره ، فلما دخلوا قرطبة دخل ابن معاوية القصر ، ونزل يوسف بمنزله المعروف ببلاط الحر[4] ، ونزل الصميل فى داره بالربض[5] ، وكان الصميل صامتا طوال مسيره بجوار ابن معاوية من إلبيرة إلى قرطبة ، ما مست ركبته ركبة ابن معاوية ولا تقدم رأس بغلته رأس بغلها ، ولا استفهم فى حديث ، ولا افتتح حديثا بغير أن يسأله عنه . وأقام يوسف والصميل بقرطبة فى أحسن حال ،

---

(١) أخبار مجموعة ص ٩٣ .

(٢) ذكر ابن عذارى أن ابن معاوية حاصر يوسف الفهرى بغرناطة ، فلما تمادى بالفهرى الحصار ، سأل الأمان فأعطاه له والصميل (البيان المغرب ج ٢ ص ٧٢)

(٣) أخبار مجموعة ص ٩٤

(٤) هو بلاط الحر بن عبد الرحمن الثقفى والى الأندلس ، فيقال أن يوسف تجنى على ابن الحر فقتله وأخذ المنزل ويقال أنه اشتراه منه (أخبار مجموعة ص ٩٤) .

(٥) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٧٢

وكانا يترددان على ابن معاوية فيستشيرهما المرة بعد المرة، ودخل يوسف الفهرى فى عسكر الأمير كأحد رجاله ، فأنزله على ماله وأطلق له عياله[١] .

وكانت سياسة التسامح والتصالح التى جرى عليها ابن معاوية ، وعفوه عن خصومه ، وجهوده التى بذلها لمحو الأحقاد ، قد أكسبته محبة أهل الأندلس له ، وقد شجعت هذه السياسة على إقبال كثير من المشارقة إلى الأندلس ، كذلك كان دوى النجاح الذى صادف ابن معاوية فى الأندلس قد وصل إلى المغرب والمشرق ، فوفد إلى الأندلس سنة ١٤٠ هـ كثير من بيت أمية ومواليهم، واستقبلهم الأمير أحسن استقبال ، وأنزلهم وأكرمهم، وأحسن جوائزهم[٢]، ومن بين من دخل الأندلس من بنى أمية عبد الملك بن عمر بن مروان ويقال له المروانى ، وجزى بن عبد العزيز بن مروان ، إذ دخلا ومعهما أولادهما[٣] ، وشجع عبد الرحمن بن معاوية على وفود موالى بنى أمية إلى الأندلس ، فبعث القاضى معاوية بن صالح الحضرمى فقيه أهل الشام[٤] إلى الشام لاستقدام أختيه ، فلما قدم عليهما قالتا له « إن السفر لا تؤمن آفته ، وقد أمنا بحمد الله ، ووسعنا فضل القوم ، وحسبنا أن نكون بعافية » .

ولم يتح لهذا العهد السلمى أن يمتد أجله أكثر من عام واحد ، فقد أخذ بعض أنصار يوسف فى قرطبة من موالى بنى هاشم وبنى فهر وقبائل قريش وغيرهم يدفعونه إلى الثورة على ابن معاوية ، إذ أزال عنهم الأمير الأموى ما كانوا يتمتعون به من رفعة ومنازل أيام يوسف الفهرى فحنقوا عليه ، وأخذوا « يختلفون إلى يوسف ، ويلقون عليه التحريف، ويندمونه على ما كان ، فلم يزالوا حتى كاتب الناس »[٥]، فلم يجبه أهل الأجناد إلى دعوته لمحاربة ابن معاوية ، إذ ألفوا حياة السلم والاطمئنان بعد حياة

---

(١) المرجع السابق ص ٧٣ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٧٣ — Lévi-Provençal, Histoire, t. 1, p. 106.

(٣) أخبار مجموعة ص ٨٥ — وكان عبد الملك بن عمر مقيما بمصر منذ أيام الأمير عبد العزيز بن مروان ، فلما دخل المسودة أرض مصر ، خرج عبد الملك يؤم الأندلس فى عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة حتى نزل على عبد الرحمن سنة ١٤٠ هـ ، فعقد له على إشبيلية ولابنه عمر بن عبد الملك على مورو — (انظر المقرى ج ١ ص ٣٠٨) .

(٤) الخشنى ، تاريخ قضاة قرطبة ص ٣٢ ، وما يليها — ابن القوطية ص ٣٤ .

(٥) أخبار مجموعة ص ٩٥ .

الفوضى والحرب الأهلية، كذلك كره الصميل وأنصاره من القيسية ما دعا إليه يوسف، وقالوا له : « حسبنا قد قضينا الذمام ولا والله نخلعه[١] » ، فلما يئس منهم كاتب أهل البلد (وهم العرب والبربر البلديون) وأهل ماردة ولقنت ، حيث كانت بناته يعشن هناك مع أزواجهن وأولادهن ، فأجابوه إلى دعوته ، فهرب يوسف الفهرى من قرطبة سنة ١٤١ هـ ، ناكثا بعهده ، ناقضا للإيمان بعد توكيدها ، حتى نزل ماردة ، واجتمعت إليه حشود هائلة من البربر والعرب البلديين ، فلما علم ابن معاوية بهربه أتبعه الخيل ، وقبض على ابنيه ، واعتقل الصميل ، إذ اتهمه بأنه هو الذى نصحه بالثورة على ابن معاوية ، فاحتج الصميل بأنه لا ذنب له ، وأنه لو كان قد دبر الأمر مع يوسف لكان قد هرب معه ، ولم يأخذ ابن معاوية باحتجاجه ، فسجنه ، أما يوسف الفهرى ، فقد غرته كثرة جموعه ، فزحف إلى لقنت، حيث انضم إليه حشد جديد ، ثم أقبل إلى إشبيلية، حيث تأبش إليه من أهل نواحيها عدد جم ، تضخم به عسكره وانتفخ حتى تجاوز العشرين ألف . فزحف إلى عبد الملك بن عمر المروانى والى إشبيلية من قبل عبد الرحمن بن معاوية ، وكان جيش عبدالملك قليل العدد ، فتحصن داخل سور إشبيلية ، وأهمل يوسف شأنه لقلة من معه من أهل الشام ، وقصد محاربة ابن معاوية بقرطبة . وزحف ابن معاوية من قرطبة بجيش كثيف حتى نزل بمحلة يقال لها برج أسامة[٢] . وكان عبد الملك قد أرسل ابنه عبد الله عمر بمورور يأمره بالقدوم إليه لفك حصار يوسف عنه ، فأقبل عبد الله إلى عمر على رأس حشد كثيف انضم إلى جموع أبيه عبد الملك، وزحف بها عبد الملك وولده وراء يوسف الفهرى . وكانت الأخبار قد وصلت إلى ابن معاوية بأن يوسف فى طريقه إليه ، فزحف حتى نزل المدور ، فخاف يوسف أن يقع بين جيشى ابن معاوية وعبد الملك ، وآثر أن يتخلص أولا من المروانى وابنه ، ثم يتفرغ بعد ذلك لمقاتلة ابن معاوية . فبادر يوسف بمواجهة عبد الملك ، وبدأت المعركة بنزول أحد موالى يوسف من البربر ، معروف بالشجاعة، لمبارزة أحد أنصار عبد الملك المروانى ، فنزل مولى حبشى لعبد الله بن عبد الملك يكنى بأبى البصرى ، وتمكن هذا الحبشى من التغلب على البربرى وقطع رجليه بسيفه ، « ثم

---

(١) أخبار مجموعة ص ٩٦ . (٢) نفس المرجع ص ٩٧ .

كبر القوم وحملوا حملة رجل واحد ، فانهزم يوسف من ساعته وتفرق من معه[١] » .

وفر يوسف الفهرى إلى قريش ، ومضى منها إلى فحص البلوط ، ثم سار فى المحجة المؤدية إلى طليطلة ، بقصد الاحتماء عند ابن عروة والى طليطلة ، فأدركه عبد الله بن عمر الأنصارى قبل طليطلة بأربعة أميال ، فقتله سنة ١٤٢ هـ حتى يريح الناس من شره واحتز رأسه وأقبل به إلى عبد الرحمن بن معاوية[٢] . وكان لابد لعبد الرحمن من تغيير سياسة التسامح التى جرى عليها ، بعد أن ثبت له فشلها ، وعمل على تطبيق سياسة جديدة تقوم على الشدة والعنف فى مواجهة أعدائه ، لذلك رأى أن يتخلص من أعدائه جملة ، فبادر بعبد الرحمن بن يوسف فأمر بإخراجه من سجنه ، وضرب عنقه لأنه لم ينس دخوله فى قصره أثناء غيابه ، وانتهاكه لحرماته ، كذلك عمد إلى التخلص من الصميل ، فأدخل عليه من خنقه[٣] ، وبذلك انتهى عبد الرحمن من أولى مشكلاته .

---

(١) أخبار مجموعة ص ٩٩ .

(٢) نفس المرجع ص ١٠٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠١ .

٣

ثورات عربية ، ومؤامرات إفرنجية

لم يمض عام وأربعة أشهر على مقتل يوسف والصميل ، وشروع عبد الرحمن فى توطيد سلطانه ، حتى ثار بمدينة طليطلة أحد زعماء القيسية من أتباع يوسف الفهرى ، وهو هشام بن عروة الفهرى[١] ، وانضم إليه عدد كبير من العرب أمثال حيوة بن الوليد التجيبى ، والعمرى من ولد عمر بن الخطاب[٢] ، فخرج إليه عبد الرحمن بطليطلة ، وحاصره فيها حصاراً شديداً ، أرغم هشام على طلب الصلح ، وبعث ولده إلى عبد الرحمن رهينة ، فانصرف عنه الأمير ، ولكنه نكث عهده ، فغزاه الأمير فى العام التالى ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ، فنزل به وحاربه ودعاه إلى الرجوع ، فلما يئس منه ، أمر بضرب عنق ابنه ، ثم أمر بقذف الرأس فى المنجنيق ، فسقط فى المدينة ، ورجع عنه ذلك العام ، لانشغاله بقمع ثورة العلاء بن مغيث اليحصبى بباجة سنة ١٤٦ هـ ، فى الغرب ، ودعوته لأبى جعفر المنصور الذى بعث إليه بسجل ولواء ، فقام العلاء ودعا إلى طاعة أبى جعفر المنصور ، وتبعه خلق كثير ، وتطلع أكثر أهل الأندلس إلى خلع عبد الرحمن[٣] ، وعلى الأخص جماعات اليمنية التى عقدت العزم على التخلص من ابن معاوية منذ اليوم الذى حال فيه بينهم وبين أعمال القرصنة عقب هزيمة يوسف الفهرى ، ويبدو أن العلاء اختار الوقت المناسب للقضاء على دولة عبد الرحمن الفتية ، فقد كانت الثورات تجتاح الأندلس فى شماله وجنوبه وعلم الأمير عبد الرحمن بثورة العلاء ، وانضمام الثوار إليه ، فخرج من قرطبة إلى حصن قرمونة ، حيث تحصن بها مع مواليه وثقات رجاله . وقدم العلاء ونازله بقرمونة ، وحاصره بها ما يقرب من شهرين حتى ساءت حالته ونفذت مؤونته ،

---

(١) ثار قبل هشام بن عروة رجل اسمه رزق بن النعمان الغسانى ، فقتله الأمير عبد الرحمن بن معاوية .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٠١ .

(٣) ابن القوطية ص ٣٣ — أخبار مجموعة ص ١٠٢ — ابن عذارى ج ٢ ص ٧٧ .

وهبطت روح قواته المعنوية ، كذلك انخذل عن العلاء أكثر أنصاره لطول الحصار ، وأدرك عبد الرحمن أن هذه هى فرصته للانقضاض على عسكر العلاء ، وكان لابد له أن يغامر بكل شىء ، فجمع قواته — وكانوا نحو سبعمائة — وأمر بنار فأوقدت عند باب إشبيلية من أبواب مدينة قرمونة ، ثم أمر بأغماد سيوف أصحابه فطرحت فى النار ، وقال لهم : « اخرجوا معى لهذه الجموع خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع [1] » . وسل سيفه فى المقدمة واندفع من باب المدينة وخلفه كماة رجاله ، وانقضوا على جيش العلاء بن مغيث فمزقوه شر ممزق ، وبلغ عدد القتلى منه نحو سبعة آلاف [2] ، وكان العلاء نفسه من بين القتلى . وأمر عبد الرحمن مبالغة منه فى السخرية من خصمه المنصور أن يبعث رأس العلاء إليه ، فأخذ رأس العلاء وصبره ، ولفه فى السجل واللواء ، وأدخله فى سفط وبعث به مع رجل من أهل قرطبة فى جملة الحجاج ، وأمره أن يضع السفط فى مكة أمام سرادق المنصور الذى كان يحج هذا العام ، ففعل القرطبى ما أمره به ابن معاوية ، فلما نظر إليه المنصور ارتاع وقال : « إنا لله ، عرضنا بهذا المسكين للقتل ، الحمد لله الذى جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان [3] » .

وقد شهد له أبو جعفر المنصور بقوة الحيلة وشدة البأس وطول المراس ، فذكروا أنه قال يوماً لبعض جلسائه « أخبرونى من صقر قريش من الملوك ؟ قالوا : ذاك أمير المؤمنين الذى راض الملوك ، وسكن الزلازل ، وأباد الأعداء وحسم الأدواء . قال : ما قلتم شيئا . قالوا : فمعاوية . قال : لا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال : ما قلتم شيئا . قالوا : يا أمير المؤمنين فمن هو ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجميا منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ .

(٢) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣١١ .

(٣) ابن القوطية ص ٣٤ — ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٧٨ .

بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين . فقال الجميع صدقت والله يا أمير المؤمنين[١] » .

لما قضى عبد الرحمن الداخل على ثورة العلاء بن مغيث وجه مولاه بدراً وتماما فى جيش كثيف إلى طليطلة لإخماد ثورة هشام بن عروة ، فحاصراها حصاراً طويلا منعا فيه دخول الأقوات إلى المدينة حتى مل أهلها الحصار ، فكاتبوا بدراً وتماما ، وسألوهما الأمان ، على أن يسلموا لهما ابن عروة وهشام بن حمزة بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وحيوة بن الوليد التجيبى . وتم الأمر على ذلك ، فأخذهم تمام معه إلى قرطبة وأقام بدر فى طليطلة منتظراً أمر عبد الرحمن ، فلما صار تمام بأوريط Oreto ، التقى بعاصم بن مسلم الثقفى رسولا من الأمير يأمره بالعودة إلى طليطلة ، ويقلده أمرها ، على أن يسلم الثوار إلى ابن مسلم كما طلب منه أن يعمل على عودة بدر إلى قرطبة ، ففعل تمام ، ومضى ابن مسلم بالثوار متجها إلى قرطبة وفى قرية حلوة أرغم الثوار على حلق رؤوسهم ولحاهم وارتداء جبب صوفية وركوب الحمير ، ودخلوا قرطبة على تلك الحال ، وأمر بهم عبد الرحمن فقتلوا وصلبوا[٢] .

أما المشكلة التالية التى واجهت عبد الرحمن بن معاوية فهى مشكلة اليمنية الذين آزروا عبد الرحمن أول الأمر رغبة فى الانتقام من المضرية والتشفى منهم ، فلما أوقفهم عبد الرحمن عن ذلك عند دخوله قرطبة أضمروا له الكيد ، ولكنهم عدلوا عن خطتهم فى قتله عندما تبين لهم أنه محتاط لنفسه ، ورأيناهم ينتهزون الفرصة فيؤازرون العلاء بن مغيث فى ثورته على ابن معاوية .

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٨٨ — ٨٩ .

وجاء فى نفح الطيب أن أبا جعفر قال لبعض جلسائه : « لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى الفذ فى جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ، ونشبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ، ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه فى لجج الممالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمح ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيته بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته ملكاً على قطيعته ، قاهراً لأعدائه ، حامياً لذماره ، مانعاً لحوزته ، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه » المقرى ج ١ ص ٣١٠ .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٠٥ .

ابن عذارى ص ٧٩ .

ولم يمض عامان على مقتل هشام بن عروة وصاحبيه حتى ثار أحد زعماء اليمنية ، وهو سعيد اليحصبي المطرى بمدينة لبلة سنة ١٤٩ هـ (٧٦٦ م) ، فانضم إليه عدد كبير من اليمنية ، فسار إلى إشبيلية ، واستولى عليها قسراً ، ثم نزل بقلعة رعواق المعروفة بقلعة وادى أيرة Guadaira أو قلعة جابر ، فتحصن فيها ، فسار إليه ابن معاوية وحاصره حصاراً شديداً ، فاضطر المطرى إلى الخروج فى جماعة من أنصاره ، فحطت عليهم عساكر ابن معاوية وقتلتهم قتلا ذريعا ، وجيء برأس المطرى إلى الأمير[1] .

وفى نفس هذا العام ثار أبو الصباح بن يحيى اليحصبي ، وكان الأمير قد ولاه إشبيلية ، ثم عزله عنها بعد ثورة سعيد اليحصبي لشكه فى أمره ، فنقم عليه أبو الصباح لذلك ، وألب عليه الأجناد فى غرب الأندلس ، فتحايل الأمير على استقدامه إلى قرطبة بالأمان ، فقدم فى أربعمائة رجل من أتباعه ، فعاتبه الأمير عبد الرحمن ، فأغلظ له أبو الصباح القول ، فأمر به عبد الرحمن فقتل ، ولما علم أتباعه بقتله تفرقوا[2] .

ومضت ثلاث سنوات على ثورة أبى الصباح ثم ثار رجل من بربر بلدانية Lusitania اسمه سفين بن عبد الواحد سنة ١٥٢ هـ (٧٦٩ م) ، ادعى أنه من ولد الحسن بن على وأنه فاطمى ، فوثب على عامل ماردة وقتله وتغلب على ناحية قورية ، فخرج إليه الأمير على رأس جيش ، فهرب سفين إلى الجبال ، واستعصى على عبد الرحمن أمره ، وبينما كان مشغولا بمطاردته ، وصله كتاب من مولاه بدر بقرطبة يخبره فيه بثورة حيوة بن ملامس الحضرمى ، ومعه عبد الغافر اليحصبي فى إشبيلية ، طلبا لثأر أبى الصباح . فعاد الأمير إلى قرطبة ، ومنها سار إلى غرب الأندلس ، وهزمهم هزيمة شنعاء قتلهم فيها قتلا ذريعاً ، وقتل حيوة ، وأفلت عبد الغافر ، فركب البحر إلى المشرق . ثم تفرغ عبد الرحمن بعد ذلك لمحاربة الفاطمى ، وامتد أمره معه حتى قتله سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ م) .

* * *

(١) أخبار مجموعة ص ١٠٥ — ابن عذارى ج ٢ ص ٨٠ .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٠٥ وما يليها — ابن عذارى ج ٢ ص ٨٠ .

أما أعظم المشاكل التى صادفته فهى مؤامرة كبرى دبرها له بعض ثوار الأندلس من العرب المعارضين لدولة عبد الرحمن بن معاوية ، وذلك سنة ١٦١ هـ (٧٧٨ م) وما يليها ، بالاتفاق مع الخليفة العباسى محمد المهدى (١٥٨ - ١٦٩ هـ ؛ ٧٧٥ - ٧٨٥ م) ومستعينين فى ذلك بقارلة (شارلمان بن بيبان) ملك الفرنجة الذى كان على علاقة من الصداقة والمودة مع الخليفة العباسى بدافع من المصلحة المشتركة . ونلاحظ وجود تقارب بين الدولة العباسية والدولة الإفرنجية بسبب عدائهما المشترك للدولة الأموية فى الأندلس ، وكذلك وجود تقارب بين الدولة الأموية بالأندلس والدولة البيزنطية بسبب عدائهما المشترك للدولة العباسية وبسبب العداوة بين البابوية والدولة البيزنطية ، وتعضيد الفرنجة للسياسة البابوية .

هؤلاء الثوار العرب هم : عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى ، أحد أصهار يوسف الفهرى ، وسمى بالصقلبى لأنه كان طويلا أشقر ، أزرق ، أمعر[1] ؛ وقد ثار ابن حبيب بتدمير سنة ١٦٣ هـ . كذلك ثار عليه سليمان بن يقظان الأعرابى والى برشلونة وثار معه بسرقسطة حسين بن يحيى الأنصارى من ولد سعد بن عبادة ، وأخيراً ثار عليه الرماحس بن عبد العزيز الكنانى ، والى الجزيرة الخضراء ، سنة ١٦٤ هـ .

ولم يكن قارلة يزهد فى امتلاك الأندلس ، فقد كان قد فرغ من حروبه فى الجزء الأعظم من أوربا ، وضم إلى ملكه لمبارديا وسكسونيا وباڤيير وبلاد الآفاريين وامتد ملكه حتى الدانوب[2] . وكان قارلة يحلم بطرد المسلمين من الأندلس[3] ، ويطمع فى ضم مملكة القوط القديمة إلى إمبراطوريته . ويبدو أن المؤامرة قد دبرت بعلم محمد المهدى العباسى وموافقته وليس أدل على ذلك من التجاء الرماحس إليه بعد أن فشلت ثورته على ابن معاوية فى الجزيرة الخضراء[4] .

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١٠ - ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٨٣ .

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 120.

(٣) فى رؤيا رآها قارلة ناداه القديس جيمس قائلا : « إن جثمانه الذى لا يعرفه المسلمون والمسيحيون يرقد فى تلك الأرض النائية ، وأمر شارلمان بأن ينهض وأن يستخلص جليقية من يد المسلمين . » وتكرر ظهور الرؤيا ثلاث مرات ، ولم يسع قارلة إلا أن يلبى النداء فى المرة الرابعة . (انظر كارلس ديفز : شارلمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٩٨) .

(٤) ذكر صاحب أخبار مجموعة اسم الخليفة أبى جعفر المنصور بدلا من محمد المهدى ، ويبدو أنه خلط بين مؤامرة العلاء بن مغيث وبين مؤامرة الرماحس (ص ١١٢) .

وبدأ عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الصقلبي بالعبور إلى إفريقية ، ثم عاد بجيش كبير من البربر نزل به فى مدينة تدمير ، التى ستصبح فيما بعد مدينة مرسية ، وكانت مهمة سليمان بن يقظان الأعرابى ، الذهاب إلى سرقسطة وإعلان الثورة مع أحد المغامرين العرب وهو حسين بن يحيى الأنصارى . وكان على الرماحس أن يعلن الثورة فى جنوب الأندلس فى نفس الوقت . وكان لابد لعبد الرحمن بن معاوية أن يحارب هؤلاء الثوار الواحد بعد الآخر ، فبدأ بأخطرهم وهو عبد الرحمن بن حبيب ، الذى هرب وتعلق بالوعر ، وتمكن عبد الرحمن من إحراق سفن ابن حبيب الراسية بساحل البحر قرب بلنسية[1] ، فأرسل ابن حبيب إلى سليمان بن يقظان الأعرابى ببرشلونة يدعوه إلى الدخول فى أمره ويسأله أن يمده بمعونته ، ولكن سليمان لم يجبه إلى طلبه ، فامتعض الفهرى وغزاه ، ولكنه انهزم وفر إلى تدمير والتجأ عند رجل من بربر البرانس يقال له مشكار البربرى[2] ، فصار مشكار المذكور من ثقات أصحابه واطمأن إليه ابن حبيب ، فقتله البرنسى[3] فى أواخر سنة ١٦٢ هـ (٧٧٨ م) .

ثم وجه ابن معاوية همه بعد ذلك لمقاتلة الرماحس ، فأرسل إليه وزيره عبد الله بن خالد على رأس جيش ، ففر الرماحس على مركب جاز به البحر حتى قدم إلى الخليفة العباسى . أما سليمان الأعرابى فقد ثار بسرقسطة وثار معه حسين بن يحيى الأنصارى ، فبعث إليهما ابن معاوية قائده ثعلبة بن عبيد الجذامى فى جيش ، غير أن سليمان نجح فى هزيمة هذا الجيش ، وأسر ثعلبة . وعمل على الاستفادة من أسره . فترك على سرقسطة زميله حسين بن يحيى الأنصارى ، ومضى هو وأسيره إلى إفرنجة حيث قابل قارلة وسلمه ثعلبة ، وحرضه على غزو شمال الأندلس[4] . ووجد قارلة فى ذلك فرصة مواتية لغزو الأندلس ، فخرج على رأس جيوشه فى ربيع سنة ٧٧٨ م متجها نحو جبال البرتات ، فاجتازها إلى رنشفالة وهاجم بنبلونة واستولى

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٨٣ .

(٣) أخبار مجموعة ص ١١١ .

(٤) يرى ليڤى بروڤنسال أنه من المحتمل أن يكون سليمان الأعرابى قد توجه إلى افرنجة وفى صحبته أحد الخارجين من العرب على عبد الرحمن بن معاوية وهو أبو ثور ، وكان قائداً على إقليم وشقة Huesca ويستند فى ذلك إلى فقرة من الحوليات الملكية لدولة الفرنجة التى تروى أن ملك الفرنجة تلقى سنة ٧٧٨ م من أبى ثور صاحب وشقة وابن الأعرابى صاحب برشلونة وجرندة بعض الرهائن (ص ١٢٣) .

عليها ، ثم استمر فى زحفه نحو سرقسطة ، وهو يعتقد أنها ستفتح له أبوابها ، إذ كان ابن الأعرابى قد مهد السبيل أمامه لدخولها . ويبدو أن حسين بن يحيى طمع فى الانفراد بولاية سرقسطة ، فأغلق أبوابها أمام جيوش قارلة ، وأصم أذنيه عن عن توسلات ابن الأعرابى ، وطال حصار قارلة للمدينة عبثا حتى يئس من فتحها ، وكانت الأنباء قد وصلته بحدوث اضطرابات فى بلاده ، فاضطر إلى رفع الحصار عن المدينة ، وقفل عائداً إلى بلاده ، وقد أرغم سليمان على التراجع معه لعجزه عن تحقيق وعده لقارلة بإدخاله سرقسطة .

انسحب قارلة بجيشه نحو غالة ، ولما أدرك بنبلونة سحب حاميتها الإفرنجية وهدم أسوار المدينة . ولكن عبد الرحمن بن معاوية لم يتركه يرحل فى سلام ، فقد أثار عليه قبائل البشكنس[١] ، وكانوا يحقدون على قارلة لتخريبه بنبلونة ، فترصدوا مؤخرة جيشه الكبير وهو يجتاز أحد دروب شعاب رنسفالة ، وأمطروها وابلا من السهام وكتل الحجارة ، حتى قضوا على هذه المؤخرة قضاء مبرماً وقتل فى رنشفالة عدد كبير من أعاظم قواده ، نخص بالذكر منهم إيجهار Eggihard ، وانسيلم Anselme ، كما قتل صفيه وأعظم قواده رولان Roland ،[٢] فحزن قارلة لقتله حزنا شديدا ، وكان مصرعه موضوع أنشودة من شعر الملاحم الفرنسى تعرف بأنشودة رولان La Chanson de Roland . وفى أثناء المعركة تمكن مطروح وعيشون ولدا سليمان بن الأعرابى من تخليصه ، ورجعا به إلى سرقسطة . وهكذا انتصر الأمير عبد الرحمن على المتآمرين عليه ، واضطر قارلة إلى مهادنته حتى يتفرغ لمشاكله الداخلية ، وفى ذلك يقول المقرى : « وخاطب عبد الرحمن قارلة ملك الإفرنج ، وكان من طغاة الإفرنج بعد أن تمرس به مدة فأصابه صلب المكسر ، تام الرجولية ، فمال معه إلى المداراة ، ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه للسلم ، ولم تتم المصاهرة[٣] » ويؤيد الأستاذ ليفى بروفنسال ماذكره المقرى مستنداً إلى أن قارلة لم يقم بأى مغامرة أخرى فى إسبانيا الإسلامية منذ حملته الفاشلة التى قام بها سنة ٧٧٨م حتى سقوط برشلونة سنة ٨٠١م[٤] .

(١) أشار صاحب أخبار مجموعة إلى خروج الأمير عبد الرحمن إلى بنبلونة فى ذلك الوقت (انظر أخبار مجموعة ص ١١٤) .

(٢) ما زال شاهدا قبرى إيجهار ورولان قائمين . يحملان تاريخ ١٥ أغسطس سنة ٧٧٨ .

(٣) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠ .

(٤) Lévi-Provençal. Histoire, t. I, p. 121.

ولقد أيقن قارلة أنه لن يتمكن من بسط نفوذه فى إسبانيا الإسلامية ، طالما لا يرتكن فى إسبانيا نفسها على قوى مناوئة للأمير الأموى ، كما وضح لديه استحالة تفوقه على الإسلام فى إسبانيا ما لم يؤمن بلاد غالة الإفرنجية والغرب المسيحى . ولذلك عمد فى نفس العام الذى عاد فيه إلى بلاده من حملته الفاشلة إلى ضم مملكة أكيتانيا إلى مملكة إفرنجة بقصد مراقبة نشاط أمراء المسلمين الموالين لقرطبة أو الخارجين على طاعتها ، على تخوم البرتات ، أو الحد من هذا النشاط . ومنح قارلة هذه المملكة الكارولنجية إلى ابنه لويس الذى سمى فيما بعد باسم لويس التقى ، وتألفت من هذه المملكة ومملكتى غسقونية وسبتمانيا جبهة قوية تواجه أملاك المسلمين فى إسبانيا ، وقد آتت هذه السياسة الواقعية ثمرتها ، إذ أن سكان المدن الإسلامية فى إسبانيا ، الواقعة بعيداً عن قرطبة، مركز الإمارة الأندلسية ، وقريباً من الممالك الإفرنجية ، كانوا يتوجهون بالطاعة لهذه الممالك ، فقد حدث قبل وفاة عبد الرحمن الداخل بثلاث سنوات أن سلم أهالى جرندة Gerona مدينتهم سنة ٧٨٥م إلى ممثل السلطات الإفرنجية ، وتبع ضياع جرندة سقوط مدينة برشلونة فى أيدى الفرنجة[1] سنة ٨٠١ م .

* * * *

وبينما كان جيش قارلة يتراجع عن سرقسطة كان جيش عبد الرحمن بن معاوية يتأهب للسير نحو سرقسطة للقضاء على الثوار ، وقبل أن يصل الأمير عبد الرحمن إلى سرقسطة أوعز حسين بن يحيى الأنصارى إلى أحد أتباعه بقتل الأعرابى فى المسجد الجامع سنة ١٦٤هـ(٧٨٠م) ، حتى ينفرد بحكم سرقسطة . أما عيشون بن سليمان فقد فر بعد مصرع أبيه إلى أربونة ، ثم عاد إلى سرقسطة عندما بلغه قدوم الأمير عبد الرحمن إليها وافتتاحها . وتمكن أخيراً من اصطياد قاتل أبيه وقتله ، وانضم إلى جيش الأمير وساهم فى حصار حسين بن يحيى . فلما ضاق حسين بهذا الحصار ، أرسل إلى الأمير يطلب الصلح ، وأرسل إليه ابنه سعيد رهينة ، فقبل الأمير ذلك ، وفك الحصار عن سرقسطة ومضى إلى بنبلونة وقلنيرة San Miguel de Culera وكر على « البشقنس ثم على بلاد الشرطانيس « Cardaña ، ولكن سعيداً تمكن من الفرار وعاد إلى سرقسطة سنة ١٦٥ ، وهنا نكث

(١) Lévi-Provençal, op. cit. p. 128.

حسين عهده مع الأمير ، فسير إليه عبد الرحمن قائده غالب بن ثمامة بن علقمة على رأس جيش حاصر به المدينة، ثم أدركه الأمير فى العام التالى ١٦٦ هـ (٧٨٢م) وقد عزم عزما صادقا على افتتاح المدينة ، فشدد عليها الحصار ، ونصب عليها ستة وثلاثين منجنيقا من كل جانب ، فترامى القوم إليه وأسلموا إليه حسينا فقتله عبد الرحمن . وانتهت بذلك ثورة حسين بن يحيى [1] .

* * *

وكانت آخر حلقة من سلسلة هذه المؤامرات ، مؤامرة دبرها ابن أخت الأمير عبد الرحمن الداخل ، واسمه المغيرة بن الوليد بن معاوية [2] سنة ١٦٨ هـ ، وساعده فيها هذيل بن الصميل بن حاتم ، وكشف عبد الرحمن المؤامرة ، وقبض على المغيرة وهذيل واستنطقهما فاعترفا ، فأمر بقتلهما .

ثم كانت مؤامرة محمد بن يوسف الفهرى المعروف بأبى الأسود ، وإعلانه الثورة على الأمير عبد الرحمن بمدينة قسطلونة Cazlona بشرق الأندلس ، وهزمه عبد الرحمن فى مخاضة الفتح فى مستهل ربيع الأول سنة ١٦٩ هـ ، ففر إلى قورية [3]، فطارده الأمير عبد الرحمن ، وأرغمه على الفرار إلى المفاز ، بأقصى شمال إسبانيا . وكان ذلك آخر ما قام به عبد الرحمن الداخل من حروب ، إذ مات فى جمادى الأول سنة ١٧٢ هـ (أكتوبر ٧٨٨ م) ، ودفن بالروضة من قصر الإمارة الذى أصبح منذ ذلك الحين بمثابة سان دنيس وقصر اللوفر .

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١٤ وما يليها .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٨٥ .

(٣) أخبار مجموعة ص ١١٦ — ابن عذارى ج ٢ ص ٨٥ .

٥

حضارة الأندلس فى عهد عبد الرحمن

يعتبر الأمير عبد الرحمن الداخل بحق أول من نثر بذور الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، فقد عمل منذ قيام دولته فى هذه البلاد على تجديد ما زال من حضارة بنى أمية فى المشرق ، وما انقرض من آثارها ، وكان ولاة الأندلس السابقون عليه قد أدخلوا بعض النظم الأموية فى الإدارة فى أرض الأندلس ولكن بنسبة محدودة ، مثل تقسيم البلاد إلى كور ، يتولى كل منها عامل يقيم فى قاعدتها ، ومثل النظام الحربى للدولة ، فلما استقرت أركان دولة عبد الرحمن فى الأندلس عمل على توثيق النظم الإدارية المعروفة فى المشرق الإسلامى فى عهد بنى أمية ، وتطبيقها تطبيقا عمليا ، وقد تم ذلك على نحو يثير الإعجاب ، وسرعان ما ارتقت الأندلس من مجرد ولاية تابعة للخلافة إلى مصاف الدول الكبرى المستقلة[1] . ونجح الأمير فى إنقاذ الأندلس من الحرب الأهلية ومن المؤامرات والثورات ، حتى أرغم خصمه اللدود أبا جعفر المنصور على أن يعترف له بأمجاده وبطولاته ويسميه « صقر قريش » دون غيره من رجالات العرب .

ويرجع الفضل فى نجاح سياسة ابن معاوية وتوطيد ملكه إلى أعوان له كان يخصهم بالمجالسة وينفرد بهم للإعانة والمشاورة هم : عبيد الله بن عثمان ، وعبد الله ابن خالد ، ويوسف بن بخت ، وحسان بن مالك ، ومولاه بدر ومنصور فتاه ، وتمام بن علقمة ، وعبد الكريم بن مهران ، وعبد الحميد بن مغيث . وكانوا بمثابة وزراء وحجاب له .

واتبع الأمير سياسة واقعية فى حكمه ، فلم يعمد إلى تلقيب نفسه بألقاب

---

(١) عبر ابن سعيد المغربى عن ذلك بقوله : « كانت سلطنة الأندلس فى صدر الفتح على ما تقدم من اختلاف الولاة عليها من سلاطين إفريقية واختلاف الولاة داع إلى الاضطراب وعدم تأثل الأحوال وتربية الضخامة فى الدولة ، ولما صارت الأندلس لبنى أمية وتوارثوا ممالكها وانقاد إليهم كل أبى وأطاعهم كل عصى عظمت الدولة بالأندلس وكبرت الهمم وترتبت الأحوال » المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٩٨ .

الخلافة خوفا من تعددها واكتفى بالإمارة وسمى نفسه بابن الخلائف واستمر أعقابه يتلقبون من بعده بهذا اللقب « أبناء الخلائف » حتى سنة ٣١٦ هـ عندما تلقب الأمير عبد الرحمن بن محمد بلقب الخلافة ، وذلك بعد أن تضخم ملكه واتسع سلطانه ، فى الوقت الذى ضعفت فيه الخلافة العباسية . كذلك تلقب الأمير فى عقد معاهدة الصلح بينه وبين القشتاليين بلقب « الأمير الأكرم الملك المعظم »[١] .

وعمل الأمير عبد الرحمن الداخل على إحاطة نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء ، فأمهر حاضرته قرطبة التى أخذت تظهر منذ ذلك الحين بمظهر العاصمة ، بروائع المنشآت والمبانى ، وقامت فى البلاد فى عهده حركة معمارية وعمرانية[٢] لم يسبق لها مثيل ، منذ وطئت أقدام المسلمين أرض الأندلس ، فأقام منية الرصافة فى أول أيام إمارته إلى الشمال الغربى من قرطبة لتنزهه ومقامه ، وسماها برصافة جده هشام التى أقيمت إلى الشمال الشرقى من تدمر ، بين تدمر والفرات سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ م) ، والتى كان يحن إليها حنينا متواصلا ، إلى حد أنه كان يتردد على رصافة قرطبة كثيراً ويطيل فى قصرها مقامه . وكانت منية الرصافة جنانا واسعة نقل إليها الأمير غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه رسوله إلى الشام من النوى المختارة والحبوب الغريبة ، حتى نمت سريعا بحسن التعهد والرعاية وأصبحت أشجاراً معتمة ، أثمرت بغرائب من الفواكه ، التى انتشرت فى عهد قصير إلى سائر أنحاء الأندلس ، وأقام الأمير فى هذه المنية قصراً أبدع فى تشييده وتأنق فى زخرفته وسماه قصر الدمشق ، وكان يعرف أيضا باسم منية الرصافة أى «قصر الرصافة» . ومن أشهر فواكه هذه المنية الرمان المعروف بالسفرى ، وينسب إلى سفر ابن عبيد الكلاعى من جند الأردن الذى زرعه فى كورة رية ، « فأثمر وأينع ، فنزع إلى عرقه وأغرب فى حسنه ، فجاء به عما قليل إلى عبد الرحمن ، فإذا هو أشبه شيء بذلك الرصافى ، فسأله الأمير عنه ، فعرفه وجه حيلته[٣] » فأعجب به

---

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 116.

(٢) ذكر المقرى أنه « لما تمهد ملكه شرع فى تعظيم قرطبة ، فجدد معانيها وشيد مبانيها وحصنها بالسور وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع ، ووسع فناءه » ، وأصلح مساجد الكور ، ثم ابتنى مدينة الرصافة » المقرى ج ٢ ص ٨٤ .

(٣) المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ص ١٥ .

الأمير وأجزل صلته ، واشتهر هذا الرمان فى الأندلس .

وذكر الرازى أن عبد الرحمن عندما نزل الرصافة لأول مرة شاهد نخلة أهاجت شجنه ، فتذكر وطنه الشامى فقال بديهة :

تبدت لنا بين الرصافة نخـــلة تناءت بأرض الغرُب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقاك غوادى المزن من صوبها الذى يسح ويستمرى السماكين بالوبل

وفى قصر الدمشق يقول الفتح بن خاقان : « وهو قصر شيده بنو أمية بالصفاح والعمد ، وجروا فى إتقانه إلى غاية وأمد ، وأبدع بناؤه ، ونمقت ساحته وفناؤه ، واتخذوه ميدان مراحهم ، ومضماراً لانشراحهم ، وحكوا به قصرهم بالمشرق ، وأطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق[1] » . ولقد كان هذا القصر من القصور التى آثرها أمراء بنى أمية وخلفاؤهم ، فزادوا فى عمارته وانبرى وصاف الشعراء له ، وفيه يقول ابن عمار الشاعر :

كل قصر بعد الدمشق يذم فيه طاب الجنى ولذ المشم
منظــر رائق ومــاء نمــير وثـــرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عنـــدى عـــنبر أشهب ومسك أحم

وما زال اسم الرصافة Arrizafa يطلق على قرية فى سفح جبل قرطبة فى الموضع نفسه الذى كانت تقوم فيه منية الرصافة فى العصر الأموى . وهناك نخلة هرمة ، قد قدم عليها العهد حتى تآكلت أجزاء منها ، وتداخلت فيها الحجارة وبقايا الأبنية القديمة ، ويطلق الناس عليها اليوم « نخلة عبد الرحمن » .

ولا شك أن عبد الرحمن كان يحن إلى وطنه ومسقط رأسه ، وقد ظهر هذا الحنين فى أشعاره وفى أسماء قصوره وفى عناصرها المعمارية . فمن شعره قوله :

أيهـــا الراكب الميمم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما تراه بأرض وفــؤادى ومالكيه بأرض
قـــدر البين بيننـــا فافترقنـــا وطوى البين عن جفونى غمضى

(١) المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ص ١٧ ، ١٩٠ .

قد قضى الله بالبعـاد علينـا فعسى باقترابنا سوف يقضى[١]

وجامع قرطبة الذى أعاد عبد الرحمن بناءه سنة ١٦٩ هـ بعد أن ضم إليه كنيسة سنت بنجنت متبعا فى ذلك ما فعله الوليد عند بنائه لجامع دمشق ، يجلو لنا تأثيرات فنية سورية لا سبيل إلى إنكارها سواء فى زخارفه المعمارية أم فى بعض عناصر بنائه ، وفى نظام عقوده ، ووضع مئذنته ، وكذلك تذكرنا أغلب منشآت عبد الرحمن المعمارية بنظائر لها فى الشام مثل قصر الرصافة أو الدمشق الذى ذكرناه آنفا ، ومثل قصر الحير الذى ذكره الوزير ابن القبطرنة بقوله :

بالحـير ما عبست هناك غمامة إلا تضاحك اذ خرا وجليلا

وهو حير الزجالى الواقع خارج باب اليهود بقرطبة ، وكان صحنه على حد قول الفتح بن خاقان « صافى البياض ، يخترقه جدول كالحية النضناض » ، وفى أسقفه وجدرانه يقول : « قد قربصت بالذهب واللازورد سماؤه ، وتأزرت بهما جوانبه وأرجاؤه[٢] » . كذلك يذكرنا قصر الحائر من قصور الإمارة بقرطبة بقصر الحائر الذى أسسه هشام بن عبد الملك فى بادية تدمر .

* * *

وهكذا طعم عبد الرحمن حضارة الأندلس بالطابع السورى ، وإليه يرجع الفضل فى غرس بذور نهضة علمية زاهرة بقرطبة ، وستنمو هذه النهضة على مر الأيام ، حتى تصبح قرطبة فى عهد أحد أحفاده عاصمة الدنيا ومركز العلم والحضارة ؛ وهو لذلك يعتبر أعظم أمراء بنى أمية فى الأندلس ، ولولا أن الخليفة عبد الرحمن الناصر سيقوم بدور مشابه لدوره ، لقلنا إنه أعظم من تولى الأندلس من بنى أمية .

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ص ١٦١ .

الفصل الخامس

أمراء بنى أمية بعد عبد الرحمن الداخل

١ – عهد الأمير هشام الرضا

٢ – الحكم الربضى والثورات فى عهده

٣ – ذروة عصر الإمارة أيام عبد الرحمن الأوسط

٤ – عصر الاضمحلال الأول أو دويلات الطوائف الأولى

الفصل الخامس

أمراء بنى أمية بعد عبد الرحمن الداخل

١

عهد الأمير هشام الرضا (١٧٢ – ١٨٠ هـ؛ ٧٨٩ – ٧٩٦ م)

كان عبد الرحمن قد عقد العهد لابنيه هشام وسليمان ، وكان هشام عند وفاة أبيه بماردة ، بينما كان سليمان بطليطلة ، وذكروا أن عبد الرحمن لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عبد الله المعروف بالبلنسى — وكان موجوداً بالقصر وقتئذ — بأن يسلم خاتم الإمارة لمن يسبق من ولديه هشام وسليمان فى الوصول إلى قرطبة ، وكان عبد الرحمن يرى أن كلاهما جدير بالإمارة ، فهشام لأن له «فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه» ، وسليمان لأن له «فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له»[١]. فلما علم هشام بوفاة أبيه أسرع فى العودة إلى قرطبة فوصلها بعد ستة أيام ، قبل وصول أخيه سليمان ، فنزل بالرصافة ، وخاف أن يكون أخوه عبد الله قد تمكن من الإمارة ، ولكن عبد الله نفذ وصية أبيه ، فخرج إلى هشام وسلم عليه بالخلافة ودفع إليه الخاتم وأدخله القصر[٢].

ولا شك أن عبد الرحمن كان يفضل هشاما على سليمان مع أن هذا الأخير كان يكبر هشاما فى السن بل كان أكبر أبناء عبد الرحمن ، وكان هشام رجلا فاضلا كريما كما كان عاقلا حسن التدبير ، بينما كان سليمان أهوجاً سيئ التصرف ، وقد أورد صاحب أخبار مجموعة مثالا لذلك[٣]، ولا شك أن الأمير عبد الرحمن

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) ذكر صاحب أخبار مجموعة مثلا من أمثلة جوده وإنصافه وهو أنه أدخل عليه أحد صنائعه من جيان وهو كنانى ، وسأله عن سر قدومه فأخبره أنه قدم متظلماً من أبى أيوب سليمان بن عبد الرحمن الداخل وكان والياً على جيان ، فذهب هشام إلى أبيه وطلب منه أن ينصف الكنانى فأنصفه وكتب إلى ابنه سليمان بذلك . (انظر تفاصيل القصة فى أخبار مجموعة ص ١٢٢ ، والمقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣١٥)

الداخل كان يدرك ذلك حق الإدراك ، فكان يضع هشاما فى المحل الأول، وولاه ماردة موطن الثورات . وكثيراً ما كان يسأل الناس عن ابنيه هشام وسليمان ليرى رأى الناس فيهما فيذكرون له ، « أن هشاما إذا حضر مجلساً امتلأ أدبا وتاريخا وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال ، وما أشبه ذلك ، وإذا حضر سليمان مجلساً امتلأ سخفا وهذيانا » ، فيكبر هشام فى عينه بمقدار ما يصغر سليمان[1] . وكانت بين هشام وسليمان جفوة ومباعدة[2] من أجل تفضيل عبدالرحمن لهشام . فلما دخل هشام القصر بايعه الخاصة والعامة ، فلما علم سليمان بذلك حشد الحشود وجند الأجناد وبايعه أهل طليطلة وما جاورها ، ثم زحف نحو قرطبة ، والتقى مع أخيه هشام فى جيان ، بجهة بلج فانهزم سليمان[3] وعاد إلى طليطلة .

وكان سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصارى قد فر بعد مقتل أبيه فى سرقسطة إلى شاغنت من إقليم طرطوشة واجتمع حوله حشد هائل من اليمنيين الموتورين ، وتمكن بمساعدتهم من الاستيلاء على مدينة طرطوشة . وكان يحكم الثغر الأعلى موسى بن فرتون القومس ، وكان قد بايع هشاما فى ذلك الوقت ، فهاجم موسى سعيداً وهزمه وقتل سعيد ، واستولى موسى على سرقسطة ، ولكنه قتل بيد جحدر مولى حسين بن يحيى ، فخرج مطروح بن سليمان الأعرابى من مدينة برشلونة حيث أقام منذ مقتل أبيه ، فملك مدينة سرقسطة ووشقة والثغر الأعلى كله[4] ، فى الوقت الذى كان هشام مشغولاً فيه بمحاربة أخيه سليمان . فتركه هشام ريثما يفرغ من القضاء على فتنة أخيه سليمان ، ولكن أخاه عبد الله البلنسى طمع هو الآخر فى الإمارة بعد سبعة أشهر

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣١٣ . وذكر المقرى أن عبد الرحمن قال يوماً لهشام يختبره : لمن هذا الشعر ؟

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ... ومن خاله أو من يزيد ومن حجر
سماحة ذا مع بر ذا ووفاء ذا ... ونائل ذا ، إذا صحا وإذا سكر

فقال له : يا سيدى لامرئ القيس ، وكأنه قاله فى الأمير أعزه الله . فضمه إليه استحساناً بما سمع منه ، وأمر له بإحسان كثير ، وزاد فى عينه ، ثم قال لسليمان على انفراد : لمن هذا الشعر ؟ وأنشده البيتين : فقال ، لعلهما لأحد أجلاف العرب . أمالى شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب ؟ فأطرق عبد الرحمن وعلم قدر مابين الاثنين من مزية .

(٢) ابن القوطية ص٣٥ .

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٢ .

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٣ .

من وفاة أبيهما ، وكان هشام يبره ويترضاه ويؤثره على بقية إخوته ، ولكنه كان يريد مشاركة هشام فيها ، فخرج من قرطبة وانضم إلى أخيه الثائر بطليطلة . وتخلى هشام من سياسته اللينة إزاء أخويه الثائرين ، على الرغم من بغضه لسياسة العنف ، فخرج على رأس جيش كثيف فى نفس هذا العام لاستنزال أخويه بطليطلة ، وطوق المدينة ، ولكن سليمان تسلل منها تاركا أخاه عبد الله وابنه داخل المدينة ، واتجه نحو قرطبة ، فلما نزل بشقندة خرج إليه أهل قرطبة يحاربونه ، ووصلت الأنباء بذلك إلى هشام وهو بطليطلة فلم يكترث لذلك ، واكتفى بإرسال ابنه عبد الملك لمطاردته ، فلما اقترب عبد الملك بن هشام من قرطبة فر سليمان إلى ماردة ولكنه هزم هناك . ولما لم يجد فائدة من محاولاته ، أقام بتدمير. أما الأمير هشام فظل محاصراً لطليطلة ما يزيد على شهرين . ثم قفل إلى قرطبة . على أن عبد الله لم يجد هو الآخر فائدة من بقائه بطليطلة ، فاتجه إلى قرطبة وأنزله الإمام هشام عند ابنه الحكم .

وتفرغ هشام لمحاربة أخيه سليمان فسير إليه جيشا على رأسه القائدان شهيد ابن عيسى وتمام بن علقمة واضطر سليمان إلى طلب الأمان ، فاشترط عليه الأمير الرحيل عن الأندلس ، وأعطاه ستين ألف دينار ، فنزل بأولاده وأهله ببلاد المغرب[١] . ثم أتبعه هشام بأخيه عبد الله بعد أن عوضه مالا جزيلا . وهكذا تخلص هشام من أولى العقبات التى صادفته فى بداية إمارته . وشرع فى مواجهة خصمه الآخر مطروح بن سليمان بن الأعرابى ، فبعث إليه هشام سنة ١٧٥ هـ (٧٩١ م) قائده عبد الله بن عثمان[٢] على رأس جيش لمحاربته ، فحاصرها عبيد الله ، حصاراً شديداً حتى ضج أهل سرقسطة لذلك ، وفى الوقت نفسه احتل عبيد الله مدينة طرطوشة ، وحالفه الحظ إذ تمكن بعض أعوان مطروح من قتله وأرسلوا رأسه إلى ابن عثمان وهو بطرطوشة فبادر بدخول سرقسطة[٣] .

أما الثورة الثالثة التى قامت فى عهده فحدثت سنة ١٧٨ هـ (٧٩٥ ؛ ٧٩٦ م) ،

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٤ .

(٢) كان عبيد الله بن عثمان الذى لعب الدور الأول فى تأسيس دولة بنى أمية قد كوفىء على خدماته بولاية الثغر الأعلى فكان يقيم بمدينة طرسونة Tarrazona ، فقد آثرها على مدن الثغور منزلا وكانت ترد عليه عشر مدينة أربونة و برشلونة ، ولذلك عرف بصاحب الأرض (انظر الحميرى ص ١٢٣) .

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٤ .

إذ ثار عليه بربر تاكرنا من إقليم رندة ، وخرجوا عن طاعته ، وهاجموا الإقليم كله وقتلوا عدداً كبيراً من السكان العرب ، فبعث الأمير هشام إليهم جيشا ضخما ، أنذرهم بادئ ذى بدء فلم يجد منهم إلا إصراراً على الثورة ، فلم يسع قائد الجيش إلا أن يهاجمهم ويقضى على أكثرهم ، فانهزموا ، وفر من بقى منهم إلى طلبيرة Talavera ، وترجيلة Trujillo . وأقامت تاكرنا خالية قفراً طوال سبع سنوات[١] وكان ميل هشام إلى الورع والدين سببا من أسباب إقباله على الخير وإيثاره له ، كما كان سببا من أسباب قضائه سنى حكمه فى الجهاد ضد النصارى بشمال إسبانيا ، فبينما كانت أيامه كلها تتميز بالدعة والهدوء فى الداخل ، نراه من وجهة السياسة الخارجية مجاهداً من خير المجاهدين ومثاغراً من كبار المثاغرين ، ذلك أن الناس أشاعوا فى أوائل سنى حكمه بأنه لا خير فى أمير لا يحارب إلا بنى دينه من المسلمين ، فأعلن الجهاد ، وعبأ جيشا كبيراً سنة ١٧٥ هـ (٧٩١ م) وجعل على رأسه قائده أبا عثمان عبيد الله بن عثمان ، وسيره إلى ألبه Alava والقلاع Castilla la Vieja فمضى الجيش حتى وصل وادى إبرة ، ومضى مصعداً مع النهر حتى ألبه حيث اصطدم مع النصارى فهزمهم هزيمة شنعاء وقتل منهم نحو تسعة آلاف[٢] . وفى هذا العام نفسه ، خرج جيش آخر من قرطبة على رأسه يوسف بن بخت وكان هدفه بلاد جليقية وأشتوريش ، والتقى هذا الجيش بجيش الملك برمود الكبير Vermudo I ملك أشتوريش على نهر بوربيا Burbia[٣] فهزمه جيش يوسف وانتهب المسلمون معسكره ، وقتل من النصارى ما يزيد على عشرة آلاف .

وفى العام التالى ١٧٦هـ (٧٩٢م) بعث هشام قائده ووزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو فبلغ ألبه والقلاع فأثخن فى نواحيها[٤] ، وكان برمود قد مات إذ ذاك وخلفه ألفونسو العفيف Alfonso II el Casto (٧٩١ — ٨٤٢) الذى نقل حاضرته إلى أبيط Oviedo .

وفى العام التالى بعثه الأمير فى جيش كثيف إلى أربونة وجرندة ، وكانت جرندة

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٩٥ .

(٣) Lévi Provençal, op. cit. p. 143.

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٥ — المقرى ج ١ ص ٢١٦ .

قد سقطت فى أيدى الفرنجة سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) فبدأ عبد الملك بن مغيث بمحاصرة جرندة ، وثلم أسوارها بالمجانيق[١] ، ولكنه لم ينجح فى افتتاحها فمضى إلى سبتمانيا ، وظل شهوراً يحرق القرى ويخرب الحصون ، حتى وصل إلى أربونة ، وكان ملك الفرنجة لويس إذ ذاك مشغولا فى حروبه فى إيطاليا ، واشتبك عبد الملك مع كونت طولوشة جيوم المعروف بذى الأنف القصيرة فى موقعة بين قرقشونة وأربونة انتصر فيها على الفرنجة انتصارا رائعا ، حتى إن خمس السبى بلغ خمسة وأربعين ألفا من الذهب العين[٢] . ويؤكد المقرى أن أربونة افتتحت فى أيامه وأنه اشترط على المعاهدين من أهل جليقية من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة ، ومنه بنى المسجد الذى يقع تجاه باب الجنان من أبواب قصر الإمارة[٣] .

أما الصائفة التالية فقد كانت أقل توفيقا من الصوائف السابقة ، ففى عام ١٧٨ هـ (٧٩٤) م بعث جيشين فى آن واحد ، أحدهما بقيادة عبد الكريم بن عبدالواحد وجهه إلى البة والقلاع ، والآخر بقيادة عبدالله بن عبدالواحد ، وكان هدفه بلاد أشتوريش ونجح عبد الكريم فى التغلب على الحلالقة وانتهى إلى استرقة ، أما عبد الملك فوصل إلى أبيط وخربها وأثخن فى البلاد ، ولكنه فوجئ أثناء عودته بهجوم قام به نصارى أشتوريش[٤] ، وقامت معركة فى بطيحة نال فيها النصارى من جيش عبد الملك ، ولكن الجيش الإسلامى تراجع من الموقعة بعد أن تكبد بعض الخسائر[٥] .

أحدثت هذه الهزيمة رد فعل عند المسلمين ، فأراد عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث أن ينتقم لأخيه فخرج بالصائفة سنة ١٧٩ هـ (٧٩٥ م) متجها نحو أسترقة وانتهى إليها واستولى عليها ، فتراجع ألفونسو الثانى (أذفونش) إلى الشمال

---

(١) المرجع السابق ص ٩٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٥ يرى ليڤى بروڤنسال أن المؤرخين يبالغون فى ذكر هذه الغنائم والواقع أن ما ذكره ابن عذارى ليس فيه شىء من المبالغة ، فن هذا الخمس ابتنى الزيادة بجامع قرطبة وبنى الجسر الذى تهدم وكان يوزع المال على الفقراء .

(٣) المقرى ج ١ ص ٣١٦ .

(٤) المقرى ج ١ ص ٣١٧ ، Lévi-Provençal, op. cit. p. 143.

(٥) ذكر ليڤى بروڤنسال أن المؤرخين الأسبان المحدثين والمعاصرين يسمون هذه الموقعة موقعة لوتوس batalla de Lutos انظر المرجع السابق ص ١٤٣ ملحوظة رقم ٤ .

واستمد العون من البشكنس وغيرهم من سكان تلك النواحي ، وبلغ عبد الكريم أنه حشد عسكراً ضخما « ما بين حيز جليقية والصخرة »(١) ، فاستعان عبد الكريم بأحد كبار قواده هو فرج بن كنانة ، وقدمه على رأس أربعة آلاف من الفرسان لاقتفاء أثر ملك أشتوريش ، ونجح فرج فى هزيمة فرقة مسيحية بقيادة غدشارة فى واد يقال وادى كرثية ، وأخذ غدشارة المذكور أسيراً وقتل من أصحابه عدداً كثيراً ، وتقدم بعد ذلك لملاقاة ألفونسو ، فتحصن ألفونسو فى حصن على وادى نلون Nalon . وهناك قدمت جيوش عبد الكريم لمحاصرة الحصن ، ففر الملك الأشتورى إلى حصن آخر ، فاستولى عبد الكريم على الحصن المذكور ، وأرسل فرج بن كنانة فى عشرة آلاف فارس خلف ألفونسو ، وهزمه واستولى على جميع معداته وذخائره(٢) . ولم يطل العهد بهشام إذ توفى سنة ١٨٠ هـ .

* * *

وأهم ما حدث فى عهد هشام فى المجال الداخلى دخول المذهب المالكى فى الأندلس ، فقد كان أهل الأندلس يتبعون مذهب الإمام الأوزاعى الشامى المتوفى سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) ، وكان تلميذه فى الأندلس الفقيه صعصعة بن سلام الشامى صاحب الصلاة بقرطبة وقاضيها (ت ١٩٢ هـ) ، وهو الذى غرس صحن المسجد بالأشجار . وأول من أدخل مذهب مالك فى الأندلس أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمى المعروف بشبطون ، وكان قد رحل إلى المشرق فى بداية عهد هشام(٣) ، بعد عام واحد من إمارته ، وذهب إلى المدينة حيث أخذ عن مالك ، وسأله مالك بن أنس عن هشام ، فأخبره عن مذاهبه وحسن سيرته ، فقال مالك : ليت الله زين موسمنا بمثله .

ورحل فى عصر هشام عدد آخر من رواة الحديث منهم فرغوس بن العباس ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبى هند ، فلما رجعوا إلى الأندلس وصفوا ما رأوه من فضل مالك وسعة علمه ، وجلالة قدره ، ما عظم به صيته بالأندلس فانتشر يومئذ رأيه ومذهبه فى الأندلس وكان رائد الجماعة فى ذلك شبطون(٤) ، وهو أول من

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٦ . (٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٧ .
(٣) ابن القوطية ص ٤٣ .
(٤) المقرى ج ٢ ص ٢٥١ وما يليها .

أدخل موطأ مالك إلى الأندلس كاملا ، فأخذه عنه الفقيه يحيى بن يحيى الليثى ، وكان طالبا إذ ذاك ، وأشار عليه زياد بالرحيل إلى مالك ما دام حيا ، ففعل وأخذ عن مالك وسمع منه الموطأ ، ولازمه ، كما سمع بمصر من الليث بن سعد وعبد الرحمن ابن القاسم وبمكة من سفيان بن عيينة[1] .

وعندما عاد إلى الأندلس عمل على نشر المذهب المالكى فى البلاد ، وتولى الرئاسة فى الفقه والقضاء ، ونال مكانة سامية لدى الأمير ، وأصبح إمام عصره. وأصبح للفقهاء مكانة عظيمة فى الأندلس فى عهد هشام ، فقد استسلم لهم الأمير وقضى هشام حياته خاضعا لأحكامهم . وكان هشام بطبعه تقياً ورعا فقد ذكروا أنه لما تولى إمارة الأندلس استقدم المنجم المعروف بالضبى من وطنه الجزيرة الخضراء إلى قرطبة وطلب منه أن ينبأه بما ظهر له فى نجمه ، ففعل الضبى ثم طلب أن يعفيه هشام من القول فما زال به هشام حتى أخبره الضبى أنه لن يعيش فى ملكه أكثر من ثمانية أعوام ، ومنذ ذلك الحين انقطع هشام عن الدنيا ، وزهد فيها ، ولزم أفعال الخير والبر[2] ، وذهب مذهب عمر بن عبد العزيز فكان يبعث ثقات القوم إلى كور الأندلس فيسألون الناس عن سير عماله ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه ، وأنصف منه[3] .

وكان مصلحاً محبا لبناء المساجد[4] ، وتعمير المبانى ذات المنافع العامة ، وهو الذى أكمل سقائف جامع قرطبة ، وأسس منارته القديمة ، وبنى الميضأة فى صحنه . وكانت قنطرة قرطبة قد تهدمت فى حياة عبد الرحمن الداخل بسبب السيل ، فنظر هشام فى بنيانها وأنفق فى إصلاحها أموالا عظيمة وتولى بناءها بنفسه ، وكان يعطى الأجرة للعمال بنفسه[5] ، وذكر ابن وضاح أنه بعد أن أتم بناءها سأل يوماً أحد وزرائه عما يقوله أهل قرطبة فى القنطرة ، فذكر له أنه ما بناها إلا ليمضى عليها إلى صيده وقنصه ، فأقسم ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة ، وأوفى بيمينه .

---

(١) نفس المرجع ص ٢١٧ . (٢) المقرى ج ١ ص ٣١٤ .

(٣) ابن عذارى ص ٩٨ – المقرى ج ١ ص ٣١٦ .

(٤) ذكر صاحب أخبار مجموعة أنه كان يصر الصرر بالأموال ويبعث بها فى ليالى المطر والظلمة إلى المساجد فتعطى من وجد فيها ، يريد بذلك عمارة المساجد . (ص ١٢١) .

(٥) ابن عذارى ص ٩٨ .

٢

الحكم الربضى والثورات فى عهده ١٨٠ – ٢٠٦ (٧٩٦ – ٨٢٢ م)

بويع أبو العاصى الحكم بن هشام بعد وفاة أبيه بليلة واحدة يوم ٨ من صفر سنة ١٨٠ هـ، وهو ابن ٢٦ سنة، وكان أبوه هشام قدعهد إليه بولاية العهد، دون أكبر أبنائه عبد الملك، وبدأ الحكم عهده بمحاربة بعض أقربائه الطامعين فى الإمارة، فقد كان عماه سليمان وعبد الله ابنى عبد الرحمن الداخل قد نفيا فى عهد أبيه بالمغرب، فأقام سليمان بطنجة بينما كان عبد الله يمضى وقته متجولا فى بلاد المغرب، فزار إبراهيم بن الأغلب بالقيروان، كما زار الإمام عبد الوهاب بن رستم الإباضى فى تاهرت، وهناك علم بموت أخيه هشام وتولية ابن أخيه الحكم، فأسرع بالجواز إلى الأندلس، عله يسبق أخاه سليمان، فنزل بالثغر الأعلى، إذ كان يعلم كراهية سكان هذا الثغر للأمير الجديد، ونزل بسرقسطة عند بهلول بن مرزوق الثائر على الأمير الحكم فى ناحية الثغر[١]، ولكنه لم يجد هناك من يؤيده لعزل الحكم وتولية مكانه، وباءت جهوده بالفشل، فرحل مع ولديه عبيد الله وعبد الملك لمقابلة شارلمان[٢] فى إكس لاشابل، وهناك قابله وحثه على مهاجمة الأندلس، أما سليمان، فقد دخل الأندلس من العدوة فى سنة ١٨٢ هـ (٧٩٨ م)، أى فى العام الثانى لولاية الحكم، واستطاع أن يجمع جيشا ليهاجم به قرطبة، وفى شوال من السنة نفسها انهزم سليمان بعد معركة شديدة بينه وبين ابن أخيه. ومع ذلك فقد عاود سليمان القتال من جديد، فاشتبك مع الأمير الحكم فى بجيطة، فانهزم سليمان للمرة الثانية ثم عاد للمرة الثالثة على رأس جيش من البربر لمقاتلة الحكم، فخرج سنة ١٨٣ هـ إلى ناحية استجة ولكنه انهزم بمن كان معه، ثم التقيا للمرة الرابعة، وكان نصيبه هذه المرة أيضا مثل المرات السابقة. وفى سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) حشد سليمان جيشاً من شرق الأندلس، فاستولى به على جيان ثم إلبيرة.

---

(١) Lévi-Provençal, op. cit. p. 152, 153.

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٣.

وانضم إليه جمع من أهل المدينتين ضد الأمير ، فلما التقى جيشه مع جيش الحكم ، انهزم سليمان هزيمة شنعاء وقتل فى الموقعة عدد كبير من أنصاره ، وتمكن سليمان من الفرار ، فأرسل الحكم أصبغ بن عبد الله بن وانسوس وراءه للقبض عليه ، فأسره اصبغ وأتى به إلى الحكم ، فأمر بقتله ، وبعث برأسه إلى قرطبة[1] ، حيث طيف به على رأس رمح ، ثم أمر الحكم بدفنه فى روضة القصر بالقرب من قبر عبد الرحمن بن معاوية .

أما عبد الله بن عبد الرحمن ، فقد استولى على حصن وشقة بعد عودته من إكس لا شابل سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) ، ولكن بهلول بن مرزوق لم يلبث أن أخرجه من سرقسطة ، فاتجه إلى بلنسية ، وهناك وجد تأييداً له عند أهالى بلنسية ، فأقام بها شبه مستقل عن قرطبة بعد أن عفا عنه الحكم[2] ، وصالحه سنة ١٨٦ هـ مقابل بقائه طول حياته ببلنسية . وبالفعل قضى عبد الله بن عبد الرحمن الداخل بقية حياته فى بلنسية ، حتى إنه عرف بعبد الله البلنسى ، وهو الذى أقام ربض الرصافة ببلنسية[3]. وقد استقدم الحكم ولديه فولى أحدهما وهو عبيد الله قيادة جيوشه ، فعرف لذلك بصاحب الصوائف ، ومن غزواته غزوته إلى قطلونية ومهاجته برشلونة[4] التى كانت قد سقطت فى أيدى القطلانيين سنة ١٨٥ هـ[5] .

وكان الحكم أميراً شديد الحزم ، ماضى العزيمة ، عظيم الصولة ، حسن التدبير ، وكان أفحل أمراء بنى أمية ، وأشدهم إقداما ونجدة وصرامة وأنفة وأبهة وعزة ، « وهو أول من جند بالأندلس الأجناد والمرتزقة ، وجمع الأسلحة والعدد ، واستكثر من الحشم والحواشى ، وارتبط الخيول على بابه ، واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وبلغت عدتهم خمسة آلاف ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، وكانت له عيون يطالعونه

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٥ .

(٢) كاتبه عبد الله طالباً الأمان فأمنه سنة ١٨٦ هـ ، ثم صالحه سنة ١٨٧ هـ بإجراء الأرزاق عليه وذلك ألف دينار لكل شهر ، وخرج إليه بهذا الأمان الفقيه يحيى بن يحيى الليثى وابن أبى عامر ، فعقد الصلح على ذلك ، على أن يسكن عبد الله بلنسية ، ثم بعث الحكم فى ولدى عبد الله فزوج أحدهما أخته أم سلمة (انظر ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٦) .

(٣) Lévi-Provençal, op. cit. p. 136 Note 2.

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ١١٠ .

(٥) المقرى ج ١ ص ٣١٧ .

بأحوال الناس[١] » ، وكان يشبه بأبي جعفر المنصور فى شدة البأس وتوطيد الدولة وقمع الأعداء[٢] ، ومع ذلك كله فقد كان عادلا بين رعيته ، متخيراً لحكامه وعماله ، مثاغراً فى سبيل الله ، واستطاع بفضل هذه الصفات جميعاً أن يطفئ نيران الفتن بالأندلس ، ويقضى على ثورات المولدين فيها .

وكانت للحكم ألف فرس مرتبطة بباب قصره الجنوبى المطل على نهر الوادى الكبير ، « عليها عشرة من العرفاء تحت يد كل عريف مائة فرس ، فإذا بلغه عن ثائر ثار فى أطرافه أمر ، عاجله قبل استحكام أمره ، فلا يشعر حتى يحاط به[٣] » . وعلى هذا النحو استطاع الحكم أن يقضى على ثورتين كبيرتين كادتا تطيحان بإمارته : الأولى هى ثورة المولدين بطليطلة التى حدثت عام ١٨١ هـ (٧٩٧ م) ، وذلك أنهم كانوا يستخفون بولاتهم ويميلون إلى الثورة على أمراء بنى أمية ، والانفصال عن سلطان قرطبة ، وعرف الحكم كيف يوقع بهم[٤] ، إذ استقدم عمروس المولد من وشقة ، واختصه وقربه إليه ، وولاه على طليطلة حتى يطمئن إليه سكانها المولدون . وأخذ عمروس هذا يتظاهر أمامهم بكراهيته للأمير ، وبغضه له حتى أنسوا إليه وأمنوا جانبه ، فبنى قصبة بالقرب من جسر طليطلة ، وأقام فيها حفلا دعا إليه وجوه طليطلة وزعماءها وكبار رجالها ، فحضروا وأوهمهم أنهم إذا انتهوا من تناول الطعام والشراب ، انصرفوا من باب غير الباب الذى دخلوا منه ، ووقف السيافون على شفير حفرة بداخل القصبة ، وأخذوا يتلقون كل من دخل منهم فيضربون عنقه ، حتى بلغ عدد القتلى خمسة آلاف وثلثمائة[٥] . فلانت بعد ذلك شوكة أهل طليطلة طوال عهده وعهد ابنه من بعده[٦] .

والثورة الثانية هى ثورة أهل الربض بقرطبة عام ٢٠٢ هـ (٨١٧ م) ، وكانت

---

(١) ابن خلدون ، كتاب العبر ج ٤ ص ١٢٧ — نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٠ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٣١٩ .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٣٠ ابن عذارى ج ٢ ص ١١٨ — المقرى ج ١ ص ٣٢٠ .

(٤) التف أهل طليطلة حول واليهم غربيب الطليطلى الشاعر وكان من أهل الحكمة والدهاء ، فلم يطمع الحكم فيهم أيام غربيب ، وانتهز فرصة وفاة غربيب واستقدم عمروس (انظر ابن القوطية ص ٤٦) .

(٥) ابن القوطية ص ٤٨ . وقيل سبعمائة (ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٤) .

(٦) ذكر ابن عذارى أن أهل طليطلة خرجوا على الأمير الحكم سنة ١٩٩ هـ ، فنهض إليهم وغافلهم ليلا ، ودخل المدينة وقضى على الثوار ، وأخمد الفتنة (ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١١) .

السبب فى تلقيبه بالحكم الربضى ، ذلك أن أباه هشاما كان قد أحاط نفسه بالفقهاء واستسلم لهم ، وعظم بذلك شأنهم ، وتجاوزوا حدودهم ، فلما تولى الحكم الإمارة ، حاول أن ينتزع منهم سلطتهم ، ويسلبهم ما كانوا يتمتعون به فى عهد أبيه ، ويكف أيديهم عن التدخل فى شئون دولته ، فانقلبوا عليه ، وسخطوا من تصرفاته ، واستغلوا نفوذهم الروحى فى إثارة الناس على الأمير . وحاول بعض الفقهاء أن يغدروا به سنة ١٨٩هـ ، فانكشف أمرهم وقبض عليهم الأمير وصلبهم ، وكانوا ٧٢ رجلا بقرطبة ، منهم الفقيه أبو زكريا يحيى بن مضر القيسى ، وكان قدوة فى الدين والورع ، ومنهم أبو كعب بن عبد البر ، ومصرور الخادم ، وموسى بن سالم الخولانى ، وولده ، وغيرهم[١] . وبلغ من تبرم أهل الربض بقرطبة من أعماله أنهم كانوا ينادونه ليلا من أعالى الصوامع « الصلاة الصلاة يا مخمور » ، وامتلأ الجو بالسخط بعد مقتل الثوار ، وأنكر الناس عليه إطلاقه يد ربيع القومس متولى المعاهدين بالأندلس من النصارى ، وكان حظيا فى رجاله ، سوغه فرض المغارم على المسلمين[٢] . وحدث فى ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ هـ (٢٥ مارس سنة ٨١٨ م) حادث بسيط أشعل — كالشرارة التى تحدث أشد الحرائق — نيران الفتنة بين سكان الربض بقرطبة . فقد قتل أحد مماليك الأمير غلاما ، فغلت مراجل غضبهم ، وانفجرت براكين أحقادهم على الأمير ، وكأنما كانوا يرتقبون هذا الحادث ، فهبوا مرة واحدة ، وتجمعوا على مملوك الأمير فقتلوه ، وخرجوا يهتفون بخلع الأمير . وأول من شهر السلاح ضده ، أهل الربض القبلى بعدوة النهر ، ثم ثار أهل المدينة والأرباض ، وتحصن الأمويون وأتباعهم فى القصر ، وتولى الدفاع عن القصر الأميرى قائدان عظيمان هما : عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وفطيس بن سليمان ، وارتقى الحكم السطح ، وأظهر شجاعة نادرة فى مثل هذا الموقف ، فقد دعا والقتال يدق أسفل قصره بقارورة من العطر ، فجاءه بها الخادم وكان اسمه يزنت ، فأفرغها على رأسه ، فلم يملك الخادم نفسه أن سأله « وأية ساعة طيب هذه ؟ فقال له الحكم « اسكت لا أم لك ، ومن أين يعرف قاتل الحكم رأسه من رأس غيره[١] » . وكان لا بد للحكم أن يلجأ إلى ذكائه ودهائه ، فبعث رجلين

---

(١) ابن القوطية ص ٥٠ — ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٦ — المقرى ج ١ ص ٣٢٢ .
(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٥ .
(٣) أخبار مجموعة ص ١٣١ .

من رجاله الذين يثق بهم ، هما : صاحب الصوائف عبيد الله بن عبد الله البلنسى ، وإسحق بن المنذر ، على رأس فرقة من الفرسان إلى الربض لإشعال النار فى مساكن الثائرين ، وأبقى لحمايته بالقصر فرقة أخرى من جيشه . ونجح عبيد الله فى عبور النهر والثوار لا يشعرون به لاشتغالهم بالقتال ، وتمكن من الالتفاف حولهم من جهة الربض ، وإشعال النار فى بيوتهم . فلما شاهد الثوار ما حدث لبيوتهم ، بادروا بالعودة لإنقاذ أولادهم ونسائهم ، فأخذتهم السيوف من أمامهم ، وتلقاهم حرس القصر من خلفهم ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، وتتبعوا الفارين فى الأزقة والطرق وتمكنوا من القبض على ٣٠٠ منهم فصلبوا على نهر الوادى الكبير صفا واحداً من المرج إلى المصارة[1] ، وتمكن بعض الفقهاء من مدبرى الفتنة من الفرار إلى طليطلة أمثال يحيى بن يحيى ، وطالوت بن عبد الجبار . ولما كان اليوم التالى أمر الحكم بهدم الربض القبلى ودكه حتى صار مزرعة ، ولم يعمر طول مدة بنى أمية ، وتتبع دور الثوار بالهدم والإحراق . وبعد ثلاثة أيام أمر برفع القتل والأمان ، على أن يخرج أهل الربض من قرطبة ، فذهب فريق منهم إلى بلاد المغرب ونزلوا بمدينة فاس التى كان قد أسسها إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن ، فأقاموا بالحى المعروف اليوم بحى الأندلسيين . أما الفريق الآخر ، فقد اتجه بحراً إلى الإسكندرية واستولى عليها . وصل أهل الربض إلى الإسكندرية فى الوقت الذى كانت الفوضى مستحكمة فى البلاد ، والثورات مشتعلة فى كل مكان ، وكانت الإسكندرية وقتئذ عرضة لهجمات العرب من قبيلتى لخم وجذام ، واستغل الربضيون هذه الفرصة واستولوا على الإسكندرية[2] ، وفى هذه الأثناء قلد الخليفة المأمون قائده عبد الله بن طاهر ولاية مصر ، فاستتب له الأمر فى الفسطاط ولم يبق له سوى استرداد الإسكندرية من أيدى الربضيين ، فسار إليها فى قواته فى طليعة صفر سنة ٢١٢ هـ (مايو ٨٢٧ م) وضرب عليها الحصار مدة عشرة أيام ، فاضطر الربضيون إلى مصالحته ، وأرغموا على مغادرة المدينة ، فرحلوا عن الإسكندرية ، ونزلوا بجزيرة إقريطش حيث أسسوا دولة دامت نحو ١٣٥ سنة ، ونشروا فيها الإسلام ، وأسسوا المدن ، وأنشأوا قاعدة لحكمهم هى مدينة الخندق التى سميت

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ١١٤ .

(٢) صديق شيبوب : جمهورية أندلسية بالإسكندرية ، مقال بمجلة الكتاب ، فبراير سنة ١٩٤٩ ص ٢٢٣ وما يليها .

فيا بعد باسم قندية، وانتهى أمر هذه الدولة بتغلب الإمبراطور رومانوس الثانى عليها فى ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م[١]) .

إلى جانب هذه الثورات السابقة، قامت ثورات أخرى فى ماردة وفى الثغر الأعلى، فنى ماردة ثار القائد السابق اصبغ بن عبد الله بن وانسوس مدة سبع سنوات، وكان سبب ثورته أن أحد أعدائه أوقع بينه وبين الأمير ، وقد تمكن الأمير من افتتاح ماردة فى العام السابع بعد أن طلب الأصبغ الأمان فأمن وعاد فى مصف الحكم[٢] . وفى الثغر الأعلى قضى الحكم على ثورة بهلول بن مرزوق فى سرقسطة ووشقة سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م) ، وأذعنت الأندلس كلها بالطاعة له ، ولم يختلف عليه فيها مخالف حاشا بنى قسى فى الثغر فإنهم بقوا على عنادهم [٣] .

لقد قضى الأمير الحكم سنين طويلة فى إخماد الثورات والفتن ، مما أتاح الفرصة للمالك المسيحية بشمال إسبانيا ، أن تعبث فى ثغور المسلمين ، فنى سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) استولى الفرنجة على برشلونة ، ولما أرسل الأمير حملة لغزو ألبة والقلاع بقيادة أخيه معاوية بن هشام ، انهزم المسلمون هزيمة نكراء على فج أرغنصون Arganzon عند التقاء وادى زادورا بوادى ابره، وقتل فى هذه الموقعة عدد كبير من قواد المسلمين . ومضى وقت طويل قبل أن يبعث الحكم ابنه هشاما سنة ١٩٢ هـ (٨٠٨ م) على رأس جيش إلى جليقية ، وكانت هذه الحملة موفقة، إذ عاد هشام منتصرا ظافراً . ومضت ثمان سنوات أغزى الحكم وزيره عبد الكريم إلى أشتوريش إذ أن سكان هذه البلاد انضموا إلى الملك ألفونسو الثانى، وكانت بنبلونة قد خرجت على طاعة المسلمين سنة ١٨٢هـ ، وكان أهلها قد قتلوا عامل المدينة المسلم وهو مطرف بن موسى بن قسى ، وأقاموا واحداً منهم هو ڤلاسكو Velasco ، ونجح عبد الكريم فى غزوته إذ اصطدم مع ألفونسو الثانى على نهر أرون Oron، وانتصر على قواته

(١) المرجع السابق ص ٢٣٦ – حسين مؤنس أثر ظهور الإسلام فى الأوضاع السياسية والاقتصادية فى البحر المتوسط ، مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو سنة ١٩٥١ – إبراهيم أحمد العدوى :- الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ، القاهرة ١٩٥٨ ص ١٠٧ – ١١٠ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الأسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى الأسكندرية ١٩٦١ ص ٥٢ .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٨ .

(٣) ابن القوطية ص ٥٢ .

انتصاراً حاسما فقتل من قواد جيشه عدداً كبيراً، وكان من بين القتلى غرسية بن لب خال ألفونسو الثانى، وشانجة أحد زعماء البشكنس(١) .

وأخيراً يذكر المؤرخون العرب أن لذريق بن قارلة ملك الفرنج (وهو لويس ابن شارلمان) جمع جموعه سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) وزحف بها لحصار طرطوشة ، فأغزى الحكم ابنه الأمير عبد الرحمن فى جيش كثيف ، وكتب إلى عمروس وعبدون عاملى الثغر بالغزو معه ، فجمع أهل الثغر ، وتقدم الأمير عبد الرحمن بالجيوش وانضمت إليه قوات المطوعة ، واشتبك المسلمون مع لويس ودارت بين الفريقين حرب شديدة انتهت بانتصار المسلمين انتصاراً حاسما على جيش الفرنجة(٢) . وهكذا انهزمت قوات الفرنجة ، ولم يعاود لويس الكرة مرة أخرى على طرطوشة . ومع ذلك فقد حاول الفرنجة بعد ذلك بسنوات الاستيلاء على وشقة ، ولكن هذه المحاولات لم تأت بنتيجة ، ولكن الفرنجة ظلوا يعيثون فى الثغور بسبب اشتغال الأمير بالخارجين عليه ، مما دعا الحكم إلى الخروج بنفسه لملاقاة الفرنجة سنة ١٩٧ هـ ، « فافتتح الثغور والحصون ، وخرب النواحى ، وأثخن فى القتل والسبى والنهب وعاد إلى قرطبة ظافرا(٣) » . وفى سنة ١٩٩ هـ (٨١٥ م) أغزى الحكم ابن عمه عبد الله البلنسى . الغزوة المشهورة إلى برشلونة ، فانتصر على الفرنجة وهزمهم وقتل عامتهم وفرق جموعهم ولما انجلت الحرب نصب قناة طويلة وأمر بالرؤوس فجمعت وطرحت حول القناة حتى غابت القناة فيها(٤) .

وتوفى الحكم فى آخر سنة ست ومائتين (٨٢١ م) بعد أن وطد ملك بنى أمية ، وقضى على أعدائه . لقد كان الحكم على عكس أبيه رجلا شديد البأس قوى الشكيمة ، استعمل العنف والشدة فى مواجهة خصومه ، فقضى على عمه سليمان بالقتل ، وهو الذى دبر مذبحة المولدين بطليطلة ، ومذبحة الربض ، وقد أجمع المؤرخون العرب على حزمه وقوته وتقواه باستثناء ابن حزم الذى قال عنه « إنه كان من المجاهرين بالمعاصى ، السافكين للدماء ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء(٥) » ومع ذلك فقد

---

(١) ابن عذارى ص ١١٢ — المقرى ج ١ ص ٣١٩ . Lévi-Provençal, op. cit. p. 176.
(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٩ — المقرى ج ١ ص ٣١٨ .
(٣) المقرى ج ١ ص ٣١٨ . (٤) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١١١ .
(٥) المقرى ج ١ ص ٣٢٠ .

ذكروا أنه أقام على القضاء بعد وفاة المصعب بن عمران قاضى أبيه ، محمداً بن بشير المعروف بحبه للعدل، وبعده عن الجور، وإنفاذه للحكم ، وكان الحكم يحبه ويقربه، وكان يسلطه على نفسه وعلى ولده وخاصته[١] وكان يتخير لأحكامه أورع من يقدر عليه وأقضاهم بالحق[٢] ، ولذلك قلد محمد بن بشير القضاء لتوفر هذه الصفات فيه، وكان الحكم يحب بناء المساجد، فهو الذى جعل جارياته يقمن بإنشاء المساجد على نفقاتهن الخاصة مثل مسجد عجب الذى أمرت جاريته عجب ببنائه غربى قرطبة، ومقبرة متعة، والمسجد المعروف بهذا الاسم ، اللذين أقامتهما جاريته متعة .

وكان الحكم رغم فظاظته وقسوته شاعراً مطبوعا أحاط نفسه بالشعراء المجيدين أمثال عباس بن فرناس ، ويحيى الغزال ، وإبراهيم بن سليمان الشامى الذين أصبحوا فى عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط الشعراء المفضلين . ومن قول الحكم قصيدته التى أنشدها بعد موقعة الربض :

رأبت صدوع الأرض بالسيف راقعا ... وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغورى : هل بها اليوم ثغـرة ... أبادرهـا مستنضى السيف دارعا
وشافه ، على الأرض الفضاء ، جماجما ... كأقحاف شريان الهبيـد لوامعا
تنبئـك أنى لم أكن فى قـراعهم ... بوان ، وأنى كنت بالسيف قارعا
وأنى إذا ما حادوا سراعا عن الردى ... فما كنت ذا حيد عن الموت جازعا
حميت ذمارى فاستبحت ذمـارهم ... ومن لا يحـامى ظل خزيان ضارعا
فهذى بلادى . . . إننى قد تركتهـا ... مهاداً ، ولم أترك عليهـا منـازعا

ومن شعره يتغزل فى خمس جوار تأبين عليه قوله :

قضب من البان ماست فوق كثبـان ... ولين عنى وقد أزمعن هجرانى
ناشـدتهن بحـقى فاعـتزمن ... على العصيان لما خلا منهن عصيانى
ملـكننى ملـكا ذلت عزائمـه ... للحب ذل أسير موثق عـانى
من لى بمغتصبات الروح من بـدنى ... يغصبننى فى الهوى عزى وسلطانى

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ١١٨ .
(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٤ .

٣

ذروة عصر الإمارة أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط

هو الأمير أبو المطرف عبد الرحمن ، الابن الأكبر للحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ولد بطليطلة فى شعبان سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م ، وعنى أبوه بتعليمه وتخريجه فى العلوم الحديثة والقديمة ، وعهد إليه بولاية العهد باعتباره أكبر أولاده ، ثم لأخيه المغيرة من بعده ، فلما توفى الحكم عام ١٠٦ هـ (٨٢١ م) خلفه ابنه الأمير عبد الرحمن وهو فى سن الثلاثين ، وعرف بعبد الرحمن الأوسط لأنه ثانى ثلاثة سموا بهذا الاسم ، وقاموا بأمر الأندلس . واكتسب عبد الرحمن كثيراً من صفات أبيه وجده ، ولكنه كان أكثر منهما لينا ورقة ، فكان وسطا بين العنف واللين ، وقد أثرت نشأته وتربيته الأولى فى تكوين شخصيته : فكان رجلا على مستوى عال من الثقافة والعلم ، وكان عالما متبحراً فى علوم الشريعة والفلسفة[1] ، كما كان شاعراً أديبا ذا همة عالية[2] ، وفنانا يقدر الفن ويرفع منزلة أصحابه ، فاحتضن العلماء ورجال الفن والأدباء ، ممن ضاق الشرق بمواهبهم فكان يرحب بهم فى بلاطه ، ويحسن إليهم ويكرمهم ، ولذا كانت أيامه أيام هدوء وسكون[3] ، وكان عهده عهد سلم ورخاء بعد عهد الفتن والثورات الذى اتسم به عصر عبدالرحمن الداخل والحكم الربضى ، وكثرت الأموال لديه « فاتخذ القصور والمتنزهات ، وجلب إليها الماء ، وجعل له (أى لقصره) مصنعا[4] اتخذه الناس شريعة ، وزاد فى جامع قرطبة رواقين ، ومات قبل أن يستتمه ، فأتمه ابنه محمد بعده ، وبنى بالأندلس

---

(١) ابن خلدون ، كتاب العبر ج ٤ ص ١٣٠ — المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٥ .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٣٥ . كان أخص شعرائه عبيد الله بن قرلمان بن بدر الداخل ، وزرياب ، وعبد الرحمن بن الشمر ويحيى الغزال .

(٣) ابن خلدون ، المرجع السابق ص ١٣٠ — المقرى ، ج ١ ص ٣٢٥ .

(٤) المصنع هو الحوض الذى يتخذ للسقيا . ويذكر ابن عذارى أنه عمل السقاية على رصيف قرطبة (انظر ابن عذارى ج ٢ ص ١٣٦) .

جوامع كثيرة ، ورتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة[1] » ، وهو الذى أسس مدينة مرسية[2] ، ورتب رسوم المملكة ، واتخذ للوزراء قصراً داخل قصره ، وكان يجتمع بهم متى أراد ذلك[3] . وعبد الرحمن أول من فخم السلطنة بالأندلس ، « وأول من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة ، وكسا الخلافة أبهة الجلالة »[4] ، وهو أول من أحدث بقرطبة دار السكة وضرب النقود باسمه ، ولم يكن فيها ذلك منذ افتتحها العرب ، ولذا عرفت أيامه بأيام العروس لكثرة الخيرات ، وهكذا سمت الحياة فى الأندلس وتألقت الحضارة ، وأصبحت الأندلس فى عداد الدول العظمى فى العالم الإسلامى والمسيحى على السواء ، وتحول المجتمع الأندلسى الذى كان يقوم على أخلاط بشرية غير منظمة إلى مجتمع منظم مظهره ، مصقولة صورته ، وتأثر هذا المجتمع فى عصره بالتقاليد العراقية التى أخذت تغزو الأندلس وتمتزج بالتقاليد الشامية ، وتؤلف فيما بعد طابعا أندلسيا أصيلا تميزت به الأندلس منذ خلافة عبد الرحمن الناصر لدين الله حتى سقوط غرناطة .

واستجلب عبد الرحمن إلى الأندلس روائع التحف التى كانت فى قصور بغداد عند قتل الأمين بن الرشيد مثل عقد الشفاء وأعلاق زبيدة بنت جعفر[5] .

---

(١) ابن خلدون ص ١٣٠ — المقرى ج ١ ص ٣٢٥ .

(٢) يقول ابن عبد المنعم الحميرى عن مرسيه : بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، واتخذت داراً للعمال وقراراً للقواد ، وكان الذى تولى بنيانها ، وخرج العهد إليه فى اتخاذها جابر بن لبيد ، وكان تاريخ الكتاب يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول سنة ٢١٦ » ص ١٨١ . ويبدو أنه أمر ببنائها لتقوم مقام مدينة اله Ello وهى الحاضرة القديمة لكورة تدمير التى أمر عبد الرحمن بتهديمها بسبب الصراع الذى قام فيها بين المضرية واليمنية والذى استمر حتى ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) انظر مادة مرسيه فى دائرة معارف الشعب عدد ٦١ ص ٤٧) .

(٣) ذكر ابن القوطية ذلك فقال : « وعبد الرحمن أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر والتكلم فى الرأى على ما هو جار إلى اليوم ، وكان له وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده مثلهم بعبد الكريم بن مغيث الحاجب الكاتب المتقدم ، فمنهم عيسى بن شهيد و يوسف بن بخت وعبد الله بن أمية بن يزيد ، وعبد الرحمن بن رستم » ص ٦٢ .

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ١٣٦ .

(٥) يقول ابن عذارى فى هذا المعنى : « وفى أيامه دخل الأندلس نفيس الوطا وغرائب الأشياء ، وسيق ذلك إليه من بغداد وغيرها ، وعند ما قتل محمد الأمين بن هارون الرشيد ، وانتهب ملكه ، سيق إلى الأندلس كل نفيس غريب وجوهر نفيس من متاعه ، وقصد بالعقد المعروف بعقد الشفا وكان لزبيدة أم جعفر » البيان ج ٢ ص ١٣٦ ، انظر أيضاً ابن الخطيب ص ٢١ .

تمت بيعة الأمير عبد الرحمن فى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ (٢٢ مايو سنة ٨٢٢ م)، وخرج عليه فى أول ولايته عم أبيه عبد الله البلنسى — وكان لم ييأس بعد فى الظفر بالإمارة — وسار إلى تدمير، يريد قرطبة، فتجهز عبد الرحمن للقائه ولكن عبد الله اضطر إلى العودة إلى بلنسية حيث مات[1] سنة ٢٠٨ هـ (٨٢٣ — ٨٢٤ م). وبموته عادت بلنسية إلى حظيرة الحكومة المركزية، وتولى أمرها، عامل من قبل الأمير عبد الرحمن. ولم يقطع السكون الذى كان يسود عصر عبد الرحمن سوى فتنة قامت فى تدمير سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٣ م) بين المضرية واليمنية دامت سبع سنين، حتى سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ — ٨٢٩ م)، وكان سبب هذه الفتنة أن أحد المضريين المقيمين بتدمير انتزع ورقة دالية من جنان يمانى، فقتله اليمانى[2]، فقامت الحرب بين العصبيتين المضرية واليمانية. واضطر الأمير عبد الرحمن أن يتدخل فى هذه الحرب، فأغزى إلى الفريقين المتقاتلين سنة ٢٠٧ هـ (٨٣٢ م) قائده يحيى بن عبد الله بن خلف، فالتقى معهم فى موقعة تعرف بوقعة المصارة بلورقة قتل منهم نحو ٣ آلاف، وفى سنة ٢٠٩ (٨٢٥ م)، أرسل قائده أمية بن معاوية ابن هشام إلى تدمير واشتبك مع اليمنية بقيادة أبى الشماخ محمد بن إبراهيم، فقضى على عدد كبير منهم. ولم يكتف الأمير عبد الرحمن بذلك بل عمد إلى هدم مدينة أله حاضرة تدمير التى انبعثت منها الفتنة سنة ٢١٠ هـ (٨٢٥م)، وأمر ببناء مدينة مرسية فتم بناؤها سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م). كذلك ثار طوريل البربرى بتاكرنا سنة ٢١١ هـ (٨٢٦ م)، ولكن الأمير بعث إليه قائده عبد الرحمن بن معاوية بن غانم فظفر به وقطع عاديته[3]. وفى سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) ثار هاشم الضراب[4] بطايطلة، فأرسل إليه الأمير عامله على الثغر محمد بن رستم لمحاربته، ولكنه لم يفلح فى هزيمته،

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٨.

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٢٤ وذكر الحميرى سبب هذه الفتنة بشىء من التفصيل فقال: «وكان السبب فى ذلك أن رجلا من اليمانية استقى من وادى لورقة قلة، وأخذ ورقة من كرم لرجل من المضرية، فغطى بها القلة فأنكر ذلك المضرى، وقال إنما ذلك استخفافاً بى إذ اقتطعت ورق كرمى» ص ١٨١.

(٣) ابن عذارى ص ١٢٤.

(٤) سمى بالضراب لأنه كان أحد الرهائن الذين أخذهم معه الحكم من طليطلة إلى قرطبة فصار يعمل أجيراً فى حارة الحدادين يضرب بالمعول فعرف بالضراب. ثم عاد إلى طليطلة فألب أهل الفساد والشر وحشد منهم حشداً كبيراً وتمكن بهذا الحشد من الإغارة على العرب والبربر فى أحواز طليطلة وفى شنت برية.

فاستفحل أمر الضراب وتغلب على جانب من الثغر ، وفى سنة ٢١٤هـ حدثت معركة بين محمد بن رستم وبين الضراب انتهت بهزيمة الضراب هزيمة شنعاء ، وقتل هو وكثير من أتباعه . ومع ذلك فقد استمرت طليطلة خارجة على طاعة الأمير ، فأرسل إليها أمية بن الحكم سنة ٢١٩ هـ (٨٣٤ م) فحاصرها، وأتلف زروعها، وقطع ثمارها ، وترك أمية على قلعة رباح أحد القواد المسلمين وهو ميسرة الفتى لمحاصرة طليطلة ، أما هو فعاد إلى قرطبة . وتشجع أهل طليطلة على مهاجمة قلعة رباح ، فلما خرجوا لمهاجمة المدينة ، أعد لهم ميسرة كميناً ، وعند ما اقتربوا منها خرج عليهم ميسرة ورجاله فأذرع فيهم القتل[1]. ولما مات ميسرة تولى بعده أبو الشماخ اليمانى ، ولم يتم فتح طليطلة إلا سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م) ، وكان السبب فى ذلك أن رجلا من طليطلة اسمه ابن مهاجر خرج عنها ، وتوجه إلى قلعة رباح حيث استدعى القواد ، ونهض بهم إلى طليطلة ، فحاصروا أبوابها ، فلما قدم القائد عبد الواحد الاسكندرانى الذى بعثه الأمير عبد الرحمن إلى طليطلة لمحاصرتها ، وجد أهلها قد بلغ بهم الجهد مبلغاً عظيماً ، فافتتحها قهراً فى شهر رجب سنة ٢٢٢ هـ .

وفى سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ م) ثار أحد البربر واسمه حبيب البرنسى بجبال الجزيرة الخضراء ، والتف حوله جماعة من أهل الفساد ، فأخرج إليه الأمير الأجناد ، ففرقوا جموعه وقتلوا عدداً كبيراً من رجاله .

وفى عهد عبد الرحمن ثار أهل ماردة على الأمير سنة ٢١٣هـ (٨٢٨م) إذ أشعل نيران الثورة فيها رجل بربرى اسمه محمود بن عبد الجبار ، وانضم إليه أحد المولدين واسمه سليمان بن مرتين ويعرف باسم قعنب ، واستقل هذان الثائران بالمدينة ، وشقا عصا الطاعة على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وقتلا حاكم المدينة مروان الجليقى . فاضطر الأمير إلى إرسال فرقة حاصرت ماردة سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) تمكنت من تدمير سهولها ، وقطع الأقوات عن المدينة . إلا أن هذه الحملة لم تأت بنتيجة تذكر . وفى سنة ٢١٥ هـ (٨٣٠ م) حاصر الأمير عبد الرحمن مدينة ماردة حصاراً شديداً أدى إلى استسلام حاكمها حارث بن بزع . غير أن إخضاع ماردة لم يتم

---

(١) ابن عذارى ص ١٢٦ .

إلا في عام ٢١٩ هـ (٨٣٤ م)[١]، وقد سجل عبد الرحمن الأوسط إخضاعه لثورة ماردة ببنائه قصبتها التي تعرف اليوم لدى العامة بالدير، وبها نقش عربي محفوظ اليوم بمتحف القصبة يحمل تاريخ سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م[٢]).

ولقد تألقت في عصر عبد الرحمن عدة شخصيات كان لها أثر كبير في التقدم الحضاري الذي أصابته الأندلس على يديه.

وأولى هذه الشخصيات البارزة شخصية الفقيه المحدث يحيى بن يحيى الليثي، وأصله من بربر مصمودة، وكان يحيى يروي الموطأ بقرطبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون، كما سمع من يحيى بن مضر القيسي الأندلسي، ثم رحل إلى المشرق وهو في الثامنة والعشرين من عمره، وتوجه إلى الحجاز رأساً، فسمع من مالك بن أنس، وأعجب به مالك وسماه عاقل الأندلس ولذلك قيل: «إن يحيى هذا عاقل الأندلس، وعيسى بن دينار فقيهها، وعبد الملك بن حبيب عالمها[٣]».

ولم يكتف يحيى بذلك، بل سمع بمكة من سفيان بن عيينة، وتفقه بالمدنيين، كعبد الله بن وهب، وعبد الله بن نافع، ثم نزل بمصر عند عودته إلى الأندلس، فسمع من الليث بن سعد، وتفقه بفقهه، ولما عاد إلى قرطبة، انتهت إليه الرئاسة في الفقه والقضاء، وروى عنه عدد كبير من الفقهاء والمحدثين، ونال يحيى مكانة سامية عند الأمير، وأصبح بيده تعيين القضاة في مدن الأندلس، ويقول ابن حزم عنه إنه «كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاء، وكان لا يلي قاض في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه، ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به»[٤] وهكذا نال يحيى عند هشام حظوة وقدراً عظيماً لم ينله أحد من أهل الأندلس قبله، وأصبح للفقهاء مكانة عظيمة في عهد هشام، فقد رفع منازلهم لتقواه وتدينه، واستسلم

---

(١) فر عنها الثائران، وقتل سليمان بن مرتين سنة ٢٢٠ هـ، أما محمود فقد قتل هو الآخر سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م).

(٢) انظر مادة ماردة بدائرة معارف الشعب عدد ٦١.

(٣) المقري، نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٧.

(٤) نفس المرجع ص ٢١٨.

لهم في كل أموره . فلما كانت أيام الحكم الربضى أراد أن يحد من نفوذهم ، فانقلبوا عليه على نحو ما شاهدناه، وكان يحيى بين من اتهم بإثارة الناس على الحكم فى وقعة الربض الشهيرة ، ففر إلى طليطلة ، ثم استأمن فكتب له الأمير الحكم أماناً وبذلك عاد إلى قرطبة[١] . وتمكن يحيى من استعادة نفوذه فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وبرز على غيره من الفقهاء، وكان الأمير يجله ويأخذ بفتواه . ومن الأمثلة التى تدل على ذلك أن الأمير عبد الرحمن وقع على جارية يحبها فى شهر رمضان ، ثم ندم على ذلك أشد الندم فاستدعى الفقهاء فى قصره وسألهم عن التوبة والكفارة ، فقال يحيى : « تكفر بصوم شهرين متتابعين » فلما بادر يحيى بهذه الفتيا سكت الفقهاء حتى خرجوا ، فقال بعضهم له : « لم لم تفت بمذهب مالك بالتخيير ؟ فقال : لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود »[٢] . وتوفى يحيى فى رجب سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) .

وتلى شخصية يحيى بن يحيى من حيث المكانة شخصية أخرى معروفة ، هى شخصية المغنى الشهير الحسن بن على بن نافع المعروف بزرياب ، وكان من أعظم شخصيات هذا العصر وأجلها قدراً . قدم إلى الأندلس سنة ٢٠٦ هـ (٨٢١ م) من العراق ، وركب الأمير عبد الرحمن بنفسه لاستقباله وتلقيه ، وبالغ فى إكرامه وكان زرياب مولى للمهدى العباسى ، كما كان تلميذاً للمغنى والموسيقى العظيم إسحق الموصلى ، رئيس الموسيقيين والمغنيين فى بلاط الرشيد . وقد نبغ زرياب فى فن الألحان على يد أستاذه اسحق الموصلى ، وتميز بفهم هذا الفن وصدق العقل مع طيب الصوت ، فتفوق على أستاذه إسحق دون أن يدرى هذا إلى أى درجة من الإجادة وصل تلميذه. وأثبتت الظروف لاسحق تبرز تلميذه، فثارت به الغيرة والحسد ، فخلا بزرياب ، وهدده بالموت أو مغادرة البلاد على الفور ، فآثر زرياب أن يفر بنفسه وأولاده، ورحل إلى المغرب. ثم كتب إلى الأمير فرحب بمقدمه وخرج بنفسه لاستقباله ، وأكرم وفادته وأنزله فى دار من أعظم الدور بقرطبة ، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه ، وأجزل له العطاء ، ورتب له ولأفراد أسرته

(١) المقرى ، ج ٢ ص ٢١٩ .
(٢) نفس المرجع ص ٢١٨ – ٢١٩ .

الرواتب والإقطاعات . وبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه ، فما إن سمعه حتى كره كل غناء سواه[١] ، وقدمه على جميع المغنيين فى بلاطه ، وأدنى منزلته ، وفتح له باباً خاصاً فى قصره يستدعيه منه متى شاء. وأسس زرياب مدرسة فى الغناء والموسيقى ، ووضع الأسس الراسخة التى قام عليها هذا الفن فى الأندلس[٢]. ولم يكن زرياب صاحب ثورة فى تاريخ الموسيقى الأندلسية فحسب بل كان مجدداً اجتماعياً ، كما كان شاعراً أديباً ، فأجاد فنون الآداب كما أجاد آداب المجالسة والمحادثة .

والشخصية الثالثة التى كان لها أثر كبير فى عصر عبد الرحمن هى شخصية طروب جارية الأمير ، وأم ولده عبد الله ، الذى ولى الإمارة بعد المنذر . وكلف بها عبد الرحمن وأحبها حباً ملك عليه نفسه[٣]. وطروب هذه واحدة من جاريات شماليات كثيرات أحببن عبد الرحمن إذ كان كثير الميل للنساء[٤] مثل مدثر والشفاء وفله . وكانت طروب تطمع فى ولاية ابنها عبد الله الإمارة بعد أبيه بدلا من ولى عهده محمد ، وكانت من أجل ذلك تسعى إلى المال حتى تستميل الناس إليها . أما الأمير عبد الرحمن فكان يعمل على إرضائها وإكرامها ، ولكنها كانت تهجره وتصده عنها ، بل لم تتردد فى تدبير مؤامرة لقتله ، مستعينة فى ذلك بفتاه نصر الصقلى ، وانكشفت المؤامرة سنة ٢٣٦ هـ وقتل فيها نصر[٥]. . . ومع معرفة

---

(١) ذكر ابن القوطية أنه غناه يوماً صوتاً استحسنه فقال « يؤمر الخزان أن يدفعوا إليه ثلاثين ألف دينار » ، فامتنع الخزان من دفع هذا المبلغ الكبير لمغن ، وأرسلوا إلى الأمير يطلبون منه أن يدفعه من ماله . ففعل الأمير وأمر بدفع هذا المبلغ مما عنده . (ابن القوطية ص ٦٩) .

(٢) انظر بحثنا عن فن الغناء والموسيقى بالأندلس ، دائرة معارف الشعب عدد ٦١ ص ٩٩ — ١٠٥

(٣) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٦ وما يليها . (٤) نفس المرجع .

(٥) وردت تفاصيل هذه المؤامرة فى كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، فذكر أن طروب أم عبد الله بن عبد الرحمن كانت تعمل على إقصاء ولاية العهد عن محمد بن عبد الرحمن وتدبيرها لابنها عبد الله ، فكانت تصطنع أهل القصر من النساء والفتيان وأكثر الخدمة طمعاً فى ذلك ، وكان الفتى نصر يبغض محمد ويميل إلى عبد الله بن طروب بينما كان عبد الرحمن يميل إلى ابنه محمد ، فشق ذلك على نصر ، واتفق مع طروب على قتل عبد الرحمن وأخذ البيعة لابنها عبد الله . فبعث نصر إلى طبيب القصر واسمه الحرانى وداخله فى أن يسم عبد الرحمن ، ورشاه بألف دينار ، واتفق معه على أن يعد سماً يدسه له فى شراب الأمير ، وهذا السم يعرف باسم بشون الملك . فتظاهر الطبيب بالموافقة وأوصى إلى « رمانة القصر » فخره بأن تبلغ الأمر إلى الأمير وتطلب منه أن يحترز من الشراب . وباكر نصر القصر ودخل على الأمير يستفهمه عن شرب الدواء فوجده بين يديه ، وقال له إن نفسى بشعته فاشربه أنت . فشربه نصر وهلك بعد شربه له . (انظر ابن القوطية ص ٧٦ — ٧٧ ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠) .

الأمير بما كانت تضمره له طروب من غدر ، فقد ظل يهيم بها وجداً ولا يتحمل أن تغيب عنه . وقد روى بعض المؤرخين أن الأمير أغضبها يوماً فهجرته ولزمت مقصورتها ، فأرسل إليها فامتنعت عليه وأغلقت على نفسها باب مجلسها ، فأمر بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم ، استرضاء لها واستعطافاً بوصلها ، فلما فتحت الباب تساقطت البدر من كل جانب فأخذتها ، وأكبت على رجله تقبلها[1]

ومن الأحداث الهامة فى عصر عبد الرحمن غارات النورمنديين[2] على سواحل الأندلس الغربية والشرقية ، وكانوا يقبلون فى سفن ذات أشرعة سوداء ويرسون بها على الشواطىء فيقسمون رجالهم قسمين : قسم يعسكر على الشاطئ وقسم يغير على المدينة ، وينهب ما استطاع ، ويدمر كل شيء . وقد أغار النورمنديون على الأندلس أول مرة سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) ، فى يوم الأربعاء أول ذى الحجة (٢٠ أغسطس سنة ٨٤٤) ظهرت نحو ٥٤ سفينة نورمندية وعدد آخر من المراكب الصغيرة عند مصب نهر تاجة[3]، فنزلوا بثغر أشبونة Lisbonne واحتلوا بسيط هذه المدينة ، فقاتلهم أهلها قتالا شديداً وصدوهم ، وأنذر وهب الله بن حزم، والى المدينة ، الأمير بقدومهم ليتخذ أهبته ، ولما وجد النورمنديون استحالة تقدمهم اضطروا إلى العودة إلى سفنهم ، واتجهوا جنوباً بحثاً عن مصب وادى آخر يصعدون فيه ، فحلوا بكورة إشبيلية ونزلوا عند مصب نهر الوادى الكبير ، بينما اتجه فريق منهم نحو الجنوب بحذاء الساحل الإسبانى ، ونزل هذا الفريق على ساحل كورة شذونة ، واحتل ثغر قادس . أما الفريق الأول وهو الأعظم فقد تجمع بسفنه عند مصب نهر الوادى الكبير ، ثم اتجه نحو إشبيلية . وفى ١٢ من محرم سنة ٢٣٠ هـ (٢٩ سبتمبر) احتلت هذه السفن جزيرة قبطيل Captel المعروفة اليوم بالجزيرة الصغرى Isla Minor ، بينما احتلت سفن أخرى قرية قورة Coria del Rio ، ونزل النورمنديون من سفنهم وأغاروا على القرية ، فقتلوا وسبوا ونهبوا . ثم اتجه الأسطول النورمندى كله بعد ذلك بثلاثة أيام مع النهر ، فدخلوا طلياطة Tablada، وتقدموا

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ١٣٧ — المقرى ج ١ ص ٣٢٧ .

(٢) يسميهم مؤرخو العرب المجوس أو الأردمانيين .

(٣) ذكر ابن عذارى مجموع سفن النرمنديين كانت ثمانين سفينة « كأنما ملأت البحر طيراً جوناً » ج ٢ ص ١٣٠ .

بعد ذلك فقابلتهم بعض سفن إشبيلية ، فانهزم المسلمون وقتل منهم عدد لا يحصى. وفى يوم الأربعاء ١٤ محرم سنة ٢٣٠هـ . احتلوا إشبيلية قسراً ، إذ كانت بدون أسوار تحميها . وأشعلوا النار فى المسجد الجامع بإشبيلية ، فكانوا يحمون سهامهم فى النار ويرمون بها سما المسجد[1]. وأخذ النورمنديون ينهبون المدينة ، ويقتلون أهلها ويأسرونهم ، وأقاموا فيها سبعة أيام ، وقيل ثلاثة عشر يوماً : « وجعلوا يقتلون الرجال ويسبون النساء ويأخذون الصبيان [2]» ، ثم حملت سفنهم الأسرى والغنائم وعادت بهم إلى قبطيل ، فأنزلوهم فى الجزيرة ، ورجعوا إلى إشبيلية مرة ثانية[3] ، وفى هذه المرة كانت إشبيلية قد خلت تماماً من سكانها إذ فر الناس بين أيديهم وأخلى أهل إشبيلية المدينة ، وفروا منها إلى قرمونة وإلى جبال إشبيلية ، ولم يجد النورمنديون من أهل إشبيلية يقتلونهم سوى جماعة من شيوخها قد احتموا فى مسجد سمى منذ ذلك « مسجد الشهداء » .

وكان لا بد للنورمانيين من استخدام البرلشن الغارات فى الأندلس إذ أن نهر الوادى الكبير صعب الملاحة ما بين إشبيلية وقرطبة ، فاستخدموا الخيل للاغارة على نواحى إشبيلية . ولم يكن الأمير عبد الرحمن ساكناً وقتئذ فقد قدم على الخيل حاجبه عيسى بن سعيد ، واشترك فى قيادة الجيش الذى وجهه الأمير إلى إشبيلية عدد من القواد المشهورين ، منهم عبد الله بن كليب ، ومحمد بن رستم ، وعبد الواحد الأسكندرانى ، واحتل هذا الجيش بالشرف Aljarafe من إشبيلية ، وفى نفس الوقت نفسه ، كتب الأمير عبد الرحمن إلى عمال الكور فى استنفار الناس ؛ فأقبلوا من كل صوب إلى قرطبة ، ونفر بهم نصر الفتى ، كذلك استنفر أهل الثغر ، فقدم موسى ابن قسى[4] فى عدد كثيف . وكان جيش قرطبة قد اشتبك مع النورمنديين فى قرية طلياطة يوم الثلاثاء ٢٥ من صفر سنة ٢٣٠ هـ (١١ نوفمبر سنة ٨٤٤ م) ، فانهزم النورمنديون وقتل منهم عدد كبير ، وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركباً[5] وتشفى الناس بقتلهم وعلقوا منهم عدداً كبيراً فى جذوع النخل بإشبيلية ، وقتلوا أميرهم ، وذكر ابن القوطية أن موسى بن قسى هزم النورمنديين عند ما خرجوا من

---

(١) انظر ابن القوطية ص ٦٦ . (٢) ابن عذارى ص ١٢٠ .

(٣) Lévi-Provençal op. cit. p. 222.

(٤) ابن القوطية ص ٦٣ . (٥) ابن عذارى ج ٢ ص ١٣١ وما يليها .

إشبيلية متجهين إلى موررور ، وقتل منهم ١٦ ألف ، ودخل جيشه إشبيلية وحرر عاملها ، وكان محصوراً فى قصبتها ، ففر من كان فيها من النورمنديين إلى مراكبهم ، والتقوا مع رفقائهم (١). وهكذا خرج النورمنديون من اشبيلية بعد أن احتلوها مدة ٤٢ يوماً ، وخرجت كتب الأمير عبد الرحمن إلى الآفاق بخبرهم ، كما كتب الأمير « إلى من بطنجة من صنهاجة يعلمهم بما كان من صنع الله فى المجوس وبما أنزل بهم من النقمة والهلكة ، وبعث إليهم برأس أميرهم وبمائتى رأس من أنجادهم »(٢).

رحل النورمنديون بعد هزيمتهم إلى لبلة ، ثم توجهوا من هناك إلى الأشبونة . وانقطع خبرهم بعد ذلك . ويذكر المقرى أن المجوس أقلعوا إلى لبلة ، فأغاروا على المدينة وسبوا ، ثم مضوا إلى باجة بالبرتغال ، ومنها إلى أشبونة ثم انقطع خبرهم حين أقلعوا من أشبونة إلى بلادهم(٣). ومع ذلك فقد بقيت من النورمنديين بقية ، ممن تفرقوا بعد الغزو النورمندى إلى جنوب شرق إشبيلية وشرقيها فى نواحى قرمونة ، وموررور ، وقلعة الرعواق ، ولقنت ، فأمر الأمير عبد الرحمن قائده ابن رستم بتعقبهم واعتقالهم ، ونجح ابن رستم فى أسرهم ، وقد اعتنق هؤلاء الإسلام : وأقاموا فى الوادى الكبير الأدنى جنوبى إشبيلية واشتغلوا بتربية المواشى وصناعات الألبان ، ولم تلبث هذه المستعمرة النورمندية الصغيرة أن انتجت أجود أنواع الجبن وأمدت به إشبيلية(٤).

ولقد احتاط الأمير عبد الرحمن لأى غزو يحتمل أن يقوم به النورمنديون ، فأمر بإنشاء دار لصناعة الأسطول بإشبيلية لبناء السفن والمراكب ، « واستعد برجال البحر من سواحل الأندلس ، فألحقهم ووسع عليهم ، فاستعد بالآلات والنفط(٥)» . وهكذا أصبحت إشبيلية منذ ذلك الحين الميناء الأول فى الأندلس ، وقد كان لميلاد البحرية الأندلسية نتائج هامة ، لأن الأسطول الأندلسى لم يلعب دوراً خطيراً فحسب فى فتح جزر ميورقة ومنورقة ويابسة سنة ٢٣٤ هـ(٦) بل فى تاريخ

---

(١) ابن القوطية ص ٦٤ . (٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٣٢ .

(٣) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٤ .

(٤) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, op. cit., p. 224.

(٥) ابن القوطية ص ٦٧ .

(٦) ابن عذارى ص ١٣٢ .

الأندلس وحوض البحر المتوسط بوجه عام ، فدور الصناعة التى أسسها الأمير عبد الرحمن الأوسط كانت مقدمة لإنشاء دور أخرى لصناعة الأسطول فى العهود التالية ، إذ أقيمت دور للصناعة فى قرمونة ، والقنت ، ومرسية ، وبلنسية. وسيكون هذا الأسطول الساعد الأيمن لخلفاء قرطبة لغزو بر العدوة ومنافسة الفاطميين فى شؤون البحر[١]. ولقد استخدم أمراء بنى أمية أخشاب أشجار طرطوشة الصنوبرية فى صناعة السفن ، وهو خشب مشهور بجودته وعدم تعرضه للتلف الناشئ من السوس[٢]. وذكر معاوية بن هشام القرشى الشبنيسى . فى رسالته أن عبد الملك بن حبيب كتب إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم بعد نكبة أهل إشبيلية بإغارة النورمنديين ، وعندما أثير موضوع تحصين مدينة إشبيلية ، فى الوقت الذى كان الأمير مشغولا بعمل زيادته بالمسجد الجامع بقرطبة ، وذكر له عبد الملك فى كتابه المذكور « أن بنيان سور مدينة إشبيلية أوكد عليه من بنيان الزيادة فى المسجد الجامع »[٣]. فعمل برأيه فى بنيان هذا السور وبناه بالحجارة فى سنة ٢٢٦ هـ (٨٤٠ م) ، وكان المهندس الذى أشرف على بناء السور هو عبد الله بن سنان أحد الموالى الشاميين ، وكان قريب الخاصة بعبد الرحمن وهو غلام ، فاستقدمه الأمير بعد أن تولى الإمارة ، ونقش عبد الله اسمه على أبواب إشبيلية[٤]. وكذلك أمر عبد الرحمن بإعادة بناء جامع إشبيلية فتم ذلك فى عهده[٥].

ونختم عهد الأمير عبد الرحمن بذكر غزواته ضد نصارى اشتوريش وضد البشكنس . فى ٢٠٨ هـ (٨٢٣ م) كانت الغزاة المعروفة بغزاة ألبة والقلاع غزاها القائد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة ، فاقتحم جيش عبد الرحمن ألبة من فج معروف لعبد الكريم تمام المعرفة يقال له فج جرنيق ، ولعله الممر المعروف

---

(١) حسين مؤنس : غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتى ٢٢٩ و ٢٤٥ هـ ، نشر فى العدد الأول من المجلد الثانى من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٠ ص ٤١ .

(٢) الحميرى ص ١٢٤ .

(٣) Lévi-Provençal, Documents : Les citations du Muqtabis d'Ibn Hayyan relatives aux agrandissements de la grande Mosquée de Cordoue, dans la revue Arabica, t. I, fasc. I, Janvier 1954, p. 90.

(٤) ابن القوطية ص ٦٥ .

(٥) الحميرى ص ٢٠ — انظر مقالى عن العمارة الحربية بالأندلس كتاب الشعب ٦٤ ص ١٥٤ .

اليوم باسم elpuerto de Herenchu-Guernu أو Guernica الواقع بين سيرا دى انثيا Sierra de Encia وجبال إتوريتا Iturrieta[1].

ويذكر المؤرخ ابن عذارى أن وراء هذا الفج كان بسيط للعدو يحتفظ فيه، بخزائنه الحربية وذخائره، فوقع جند عبد الكريم على هذه البسائط فنهبوها ودمروا الأراضى والبقاع التى مروا عليها وأقفروها[2].

وفى سنة ٢١٠ هـ (٨٢٥ م) كانت غزوة الفتح التى انتصر فيها المسلمون بقيادة عبيد الله البلنسى على جيوش أشتوريش فى موقعة عند جبل يقال له جبل المجوس، وفى نفس السنة تمكن جيش المسلمين بقيادة العباس بن عبد الله القرشى من مهاجمة جليقية والتوغل إلى بازو Vizeu[3]. كذلك غزا عبيد الله بن عبد الله البلنسى بصائفة أخرى بلاد جليقية والقلاع عام ٢١١ هـ (٨٢٦ م). كما غزا هو نفسه سنة ٢١٢ هـ بالصائفة إلى برشلونة. ويرجع الأستاذ ليڤى بروڤنسال سبب غزوة الأمير لهذه المدينة إلى قيام أحد النبلاء من سلالة القوط ويدعى ايزون Aison بالثورة ضد الفرنجة فى إقليم برشلونة سنة ٢٠٩ هـ، واستيلائه على عدد من المدن والحصون مثل أوسونة ورودة، واستنجاده بالأمير عبد الرحمن على الفرنجة. غير أن حاكم برشلونة واسمه برنارد بن جيوم دوق طولوشة استمات فى الدفاع عن المدينة، ولم يمكن عبيد الله من افتتاحها، فاضطر هذا إلى رفع الحصار عنها، واكتفى بالإغارة على نواحى برشلونة مدة ستين يوماً[4]. ولم يعاود الأمير مهاجمة برشلونة إلا سنة ٢٢٤ هـ (٨٤٠ م) بعد وفاة الملك لويس التقى بن شارلمان فى ٢٠ يونيو سنة ٨٤٠ م.

ثم عاود الأمير عبد الرحمن الغزو إلى بلاد اشتوريش سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) فأغزى ثلاثة جيوش إسلامية إلى مملكة أشتوريش، أحدها بقيادة عمه الوليد بن هشام، وقد دخل جليقية عن طريق بازو Vizéu، وخرب هذه البلاد[5]، والثانى

---

(١) ارجع إلى Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 203.

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٢٣ — المقرى ج ١ ص ٣٢٢ وما يليها.

(٣) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 204.

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ١٢٤.

(٥) يقول ابن عذارى أنه أغزى أخاه الوليد بن الحكم إلى جليقية فدخل من باب الغرب مع قطيع من العسكر فدوخها — انظر ابن عذارى ص ١٢٧.

تحت قيادة الأمير سعيد الخير أخ الأمير عبد الرحمن ، وقد تمكن من دخول ألبة وقشتالة القديمة ، والثالث بقيادة أخيه أمية الذى نجح فى هجومه على حصن القرية Alqueria ولعلها القلعة Alcolea التى سقطت قبل ذلك بثلاثة عشر عاماً فى أيدى المسلمين بقيادة مرج بن مسرة عامل جيان[١]. وفى سنة ٢٢٤ هـ (٨٣٩ م) بعث عبد الرحمن ابن عم أبيه عبيد الله بن البلنسى فى العساكر لغزو ألبة والقلاع ، فسار ولقى العدو ، فهزمه وأكثر من القتل والسبى ، وفى هذا العام نفسه خرج لذريق ملك الجلالقة وأغار على مدينة سالم Medinaceli بالثغر فسار إليه فرتون بن موسى وقاتله فهزمه وأكثر القتل والسبى فى العدو ،[٢]. وفى العام التالى خرج الأمير عبد الرحمن بنفسه « إلى أرض جليقية ، ففتح حصونها وجال فى أرضها وطالت غزاته فتعب كثيراً[٣]» . ويرجح الأستاذ ليفى بروفنسال أن الأمير عبد الرحمن لم يلق فى غزاته هذه نجاحاً ، وأن هذه الغزوة أثبتت عدم مقدرة الأمير من الناحية العسكرية[٤] ، فلم يعد الأمير يكثر من الخروج للغزو بنفسه ، وسنرى أنه يعهد بالصائفة التالية (٢٢٦ هـ) إلى ابنه مطرف بن عبد الرحمن فى صحبة القائد عبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى[٥]، ثم يقل خروج المسلمين إلى بلاد جليقية فلا نسجل لغزواتهم فى عهد الأمير عبد الرحمن سوى غزوتين ، الأولى حدثت سنة ٢٣١ هـ (٨٤٦ م) ، إذ قام الأمير محمد بن عبد الرحمن بالصائفة إلى جليقية ، فحاصر مدينة ليون ، وقذف أسوارها بالمجانيق بغية هدمها ، ولكنه لم يتمكن من تحقيق هدفه[٦]، والثانية حدثت سنة ٢٣٥ هـ (٨٤٨ م) وقادها الأمير المنذر. أما فيما يختص بالبشكنس ، فتذكر المصادر العربية أن عبد الرحمن الأوسط أغزى عبيد الله بن البلنسى سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) لمحاربة البشكنس فهزمهم بين أربونة وشرطانية[٧] ؛ وفى العام التالى خرج الأمير بنفسه على رأس جيش كثيف

---

(١) نفس المرجع ص ١٢٤ انظر Lévi-Provençal, op. cit. p. 205.

(٢) المقرى ج ١ ص ٣٢٣ .

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ١٢٨ — المقرى ج ١ ص ٣٢٣ .

(٤) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 206.

(٥) ابن عذارى ج ٢ ص ١٢٩ .

(٦) ابن عذارى ص ١٣٢ — المقرى ج ١ ص ٣٢٤ .

(٧) المرجع السابق ص ١٢٩ .

وجعل على ميمنته ابنه محمد وعلى ميسرته ابنه المطرف ، وهاجم بنبلونة[١]. ويؤكد ليڤى بروڤنسال استناداً على رواية ابن حيان فى المقتبس ، أن عبد الرحمن هاجم قوات موسى بن موسى الذى خرج على طاعة الأمير ، وقوات ملك بنبلونة بالإضافة إلى قوات أخرى شرطانية وألبيه وجليقية[٢]، وأنه التقى مع هذه الجيوش مجتمعة فى آخر شوال سنة ٢٢٨ هـ (آخر يوليو سنة ٨٤٣) وأحرز عليها انتصاراً ساحقاً ، وعاد إلى قرطبة مظفراً منصوراً . ولم يكتف الأمير بهذا الانتصار ، فخرج فى العام التالى لمحاصرة موسى بن موسى عامل تطيلة المتمرد ، « ودوخ بلاده ثم صالحه ، ثم تقدم إلى بنبلونة ، فكانت له بها وقعة عظيمة على المشركين فنى فيها أعداء الله ، وكان معهم موسى بن موسى ، فناله ورجاله ما نالهم[٣]» .

* * *

وقبل أن نختتم عصر الأمير عبدالرحمن الأوسط يجب أن نشير إشارة عابرة إلى موجة عاتية اكتسحت الأندلس فى ذلك الوقت ، وكان أبطالها جماعة من غلاة المستعربين ممن كانوا ينقمون على الإسلام سيادته على الأندلس ، فكانوا يسبون رسول الله وينكرون عليه نبوته ثم يستخفون بالإسلام ويقذفونه بالسب، وكانت العقوبة التى يلقاها أمثال هؤلاء هى الموت . والواقع أن طائفة النصارى بالأندلس الذين أقاموا فى ظل المسلمين وتأثروا بالثقافات العربية وتعربوا تعرباً أنساهم لغتهم اللاتينية ، تمتعوا فى عصر أمراء بنى أمية بحرية العقيدة والتسامح التام[٤]، وقد أبقت لهم الحكومة الأموية أيام عبد الرحمن الداخل وخلفائه كنائسهم وأديرتهم ، بل منحتهم الحق فى بناء كنائس جديدة ، واهتم هؤلاء المستعربون بدراسة التراث العربى من شعر وأدب وفلسفة ، وشارك كثيرون منهم فى الحياة السياسية والأدبية فى البلاد . غير أن تغلغل حركة الاستعراب عند النصارى أحدث رد فعل قوى عند المتعصبين منهم ، إذ أخذوا يأسفون لانصراف اهتمام النصارى عن قراءة المصنفات الدينية المكتوبة باللاتينية إلى نظم الشعر العربى أو قراءة الكتب العربية ، وحاول هؤلاء الغلاة

---

(١) نفس المرجع .

(٢) Lévi-Provençal, op. cit. p. 217.

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) انظر العمارة الدينية بالأندلس « الكنائس » للمؤلف فى دائرة معارف الشعب عدد ٦١ ص ١١٨

المتعصبون عبثاً أن يوقفوا هذا التيار الجارف نحو الاستعراب ، واضطروا إلى تكوين حزب مستعرب معارض فى قرطبة يرأسه محرضان على الثورة هما ايولوخيو وصديقه ألفارو ، وكانا يدعوان النصارى إلى سب الرسول عليه السلام والطعن فى الإسلام علناً فى سبيل المسيحية ، وكان عقاب من يفعل ذلك الموت . واجتاح هذا التيار الجارف من الغلو الروحانى الجنونى الأندلس ، وكثر عدد الشهداء بإرادتهم ، وازدادت الموجة الانتحارية عنفاً على مر الأيام . وعنا تصدى لهذه الحركة فريق من المستعربين المعتدلين ممن أنكروا على الغلاة هذا الجنون ، فأظهروا استياءهم لتصرفاتهم ، واعتبروا هذا الاستشهاد نوعاً من الانتحار الذى حرمه الدين المسيحى ، ومع ذلك فقد استمرت موجة الاستشهاد فى بقية عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط وفى بداية عهد الأمير محمد من بعده ، ولم تنطفىء نيرانها إلا عند ما استشهدا يولوخيو المحرض فى ١١ مارس سنة ٨٥٩ م[١].

---

(١) ارجع إلى Simonet, Historia de los Mozarabes de Espana - Isidoro de Las Cagigas, Los Mozarabes, t. I, p-193-209.—Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne — Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, t. I, p. 225-239.

فلاحظ أن مؤرخى العرب لم يشيروا فى كتاباتهم إلى موجة الاستشهاد ولذلك اعتمدنا فيما ذكرناه على المراجع السابقة .

٤

عصر الاضمحلال الأول أو دويلات الطوائف الأولى

رأينا فيما سبق كيف حافظ الثلاثة الأوائل من أمراء بنى أمية فى الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل على أملاك المسلمين فى الأندلس ، وكيف أخمدوا الثورات والفتن الداخلية ، وأوقفوا التوسع المسيحى فى قلب إسبانيا الإسلامية ، ورأينا كيف نجح هؤلاء الأمراء الثلاثة فى المحافظة على التفوق السياسى والحربى الذى أحرزه الإسلام فى الأندلس ، ففى الوقت الذى كانت تتسم فيه عهودهم بالهدوء والسلم ، كانوا لا يترددون فى محاربة الممالك المسيحية بشمال إسبانيا ، فيخربوا القلاع والحصون المسيحية بألبة وجليقية واشتوريش ، وينزلوا بالثوار المسلمين والمستعربين أقسى صنوف العقاب ، كما حدث للمستعربين فى طليطلة وأهل الربض المسلمين بقرطبة فى عهد الحكم الربضى ، وغلاة النصارى الذين استشهدوا برغبتهم وإرادتهم فى عهد عبد الرحمن الأوسط . ولا شك أن يقظة هؤلاء الأمراء ، وقوة مراسهم وبعد مرقى هممهم ، كل ذلك اتاح للدولة الأندلسية فرصة الحياة والبقاء وسط العواصف المدمرة والأنواء ، فلما توفى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وتولى الإمارة أمراء ضعاف امتد حكمهم ما يقرب من ثلثى قرن من الزمان (٢٣٨ — ٣٠٠ هـ (٨٥٢ — ٩١٢ م) ، تمزقت وحدة الأندلس ، وقام الثوار فى سائر أنحائها بشق عصا الطاعة على الحكومة المركزية ، واستقلوا بحكم المناطق التى ثاروا فيها ، وتقلص نفوذ أمراء بنى أمية وأصبح سلطانهم لا يتعدى قرطبة ونواحيها . وهكذا أحاطت الأخطار بدولة بنى أمية التى كانت تجتاز وقتئذ مرحلة من أدق مراحل تاريخها السياسى ، وتفككت الوحدة السياسية ، وتعددت أجناس أمراء الطوائف أو أصحاب الدويلات المستقلة ، فنهم من كان من أصل إسبانى ، ومنهم من كان بربرياً ، ومنهم من كان عربياً ، فمن البربر موسى بن ذى النون الذى استقل فى جيان ، ومن المستعربين عمر بن حفصون فى ببشتر ، ومن المولدين عبد الرحمن بن مروان الجليقى فى بطليوس وماردة ، ومن العرب إبراهيم بن حجاج فى إشبيلية وقرمونة . ويعلل ابن الخطيب

كثرة الثوار فى الأندلس بثلاثة أسباب هى :

أولا : منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بمقاربتهم للنصارى فى الشمال .

ثانياً : علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان منهم الأشراف الذين يأنفون الخضوع والإذعان .

ثالثاً : الاستناد عند الضيقة والأضطرار إلى ملوك النصارى الذين كانوا يحرصون على ضرب المسلمين بعضهم ببعض[١] .

تولى الأمير محمد بن عبد الرحمن الإمارة فى ٤ ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) وحكم ما يقرب من خمس وثلاثين سنة . وكان محمد محباً للعلم، مؤثراً لأهل الحديث، عارفاً حسن السيرة ، وكان قدفوض أمور دولته لهاشم بن عبد العزيز أعظم وزرائه ، وكان هاشم هذا مغروراً بنفسه ، حقوداً لجوجا ، أفسد الدولة ، وكان الأمير محمد يقدمه على جيوشه ، فخرج مرة إلى غرب الأندلس ليقمع ما هنالك من الثورات فأساء السيرة مع جنده ومع بعض الثوار ، وقيل إنه أهان عبد الرحمن بن مروان الجليقى الثائر ببطليوس[٢] فى حملته التى قادها سنة ٢٦٢ هـ . ففر منه عبد الرحمن بن مروان إلى سعدون السرنباقى الثائر بالثغر ، واشتبك الوزير هاشم معهما فهزماه وأسراه ووقع بين يدى من صفعه ، فأحسن إليه ، ثم افتداه الأمير محمد بمال كثير ، وأرسله الأمير محمد مرة فى جيش كبير مع ابنه المنذر إلى ثغر سرقسطة ، فأساء الأدب معه حتى أحقده عليه[٣]، وقامت الثورات فى الأندلس بسببه .

وأولى هذه الثورات على الأمير محمد ثورة أهل طليطلة ، وكانت طليطلة بحكم موقعها الجغرافى وكثرة عدد سكانها المولدين موطناً للثورات ، ولقد بدأ أهل طليطلة بالثورة على الأمير فى نفس عام ولايته، وسجنوا عامل طليطلة عندهم حتى يطلق الأمير رهائنهم من دار الرهائن بقرطبة، ففعل الأمير، وأطلقوا عامله، ثم تجرأوا

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٤١ .

(٢) ابن القوطية ص ٩٠ ، ٩١ – ابن عذارى ج ٢ ص ١٥٢ – ابن الخطيب ص ٢٢ . وفى هذه الإهانة يقول ابن عذارى : « قال هاشم لابن مروان الجليقى من بين الوزراء : الكلب خير منك ، وأمر بصفع قفاه واستبلغ فى خزيه » .

(٣) ابن سعيد المغربى ، المغرب ص ٥٣ .

بعد ذلك على الأمير وأغاروا على قلعة رباح وأرغموا حاميتها على الانسحاب . وعندئذ بعث أخاه الحكم على رأس جيش لغزو طليطلة سنة ٢٧٩هـ ، فاحتل الحكم قلعة رباح ، وأمر ببنيان سورها ، واسترجاع من فر من حاميتها[١]. وفى نفس هذا العام أخرج الأمير محمد إلى شندلة Jandula قائديه قاسم بن العباس وتمام بن أبى العطاف ومعهما الحشم ، فلما اقتربا من اندوجر Andujar ، خرجت عليهم كمائن أهل طليطلة . فانهزم قاسم وتمام هزيمة مخزية . وشجع هذا النجاح أهل طليطلة على مواصلة العصيان ، ولكنهم كانوا يخشون مغبة عمله. فالتمسوا عون أردون بن ردميرة Ordono I b. Ramiro I ملك أشتوريش . ولم يتردد هذا الملك فى تقديم كل وسائل المساعدات لثوار طليطلة ، إذ كانت مصلحته تقتضى إشعال نيران الحرب الأهلية فى الأندلس ، فأرسل إلى أهل طليطلة جيشاً قوياً بقيادة أحد أقاربه ويدعى غثون Gaton قومس بيرذو Bierzo ؛ وأمام ذلك لم يقف الأمير محمد مكتوف اليدين ، فخرج بنفسه فى محرم سنة ٢٤٠ هـ (يونيو فى ٨٥٤ م) على رأس جيشه وسار فى الطريق الرومانى الممتد ما بين قرطبة وطليطلة ، حتى وصل إلى الفحص الواقع جنوب غربى طليطلة ، الذى يخترقه رافد لنهر التاجة وهو المعروف بوادى سليط Guazalete وهناك علم الأمير نبأ وصول حشود النصارى الأشتوريين ، فأعمل الحيلة والكيد ، فعبأ الجيوش ، وكمن الكمائن ، خلف النتوءات البارزة من سطح الأرض فى نواحى النهر ، ومضى هو مع فرقة من جيشه قليلة العدد ، فلما رأى أهل طليطلة قلة عسكره أخبروا النصارى ، ففرح رئيسهم غثون ، وطمع فى الظفر والغنيمة ، فلما التقى الجمعان خرجت الكمائن المنصوبة عن يمين وشمال ، فانهزم غثون وقتل من رجاله ثمانية آلاف ، جزت رؤوسهم وجعل منها جبل ارتقاه المسلمين وأذنوا ، وكان عدد القتلى من أهل طليطلة اثنى عشر ألفاً ، وبعث الأمير محمد بأكثر رؤوس النصارى إلى قرطبة وإلى سواحل البحر والعدوة[٢].

وفى سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) وجه الأمير محمد ابنه المنذر بالجيوش إلى طليطلة ، فحاصرها وأقام عليها ينسف معايشها . وفى العام التالى خرج أهل طليطلة إلى طلبيرة

(١) ابن عذارى ص ١٤٢ أمر الأمير سنة ٢٤١هـ بشحن قلعة رباح وطلبيرة بالحشم والفرسان وترك فيها عاملا هو حرث بن بزيغ .

(٢) نفس المرجع ص ١٤٣. Lévi-Provençal op. cit. p. 294.

لمهاجمتها ، فتصدى لهم قائدها مسعود بن عبد الله العريف ومن وضعهم فى الكمائن فهزموا أهل طليطلة وقتلوا منهم عدداً كبيراً . وكانت هذه النكبة لاتقارن بما أصابهم فى العام التالى ، فقد خرج الأمير محمد سنة ٢٤٤ هـ (٨٥٨ م) إلى طليطلة بعد أن قل حدهم بسبب ما نزل بهم من مصائب ، فلم تكن لهم حرب إلا على القنطرة ، فأمر محمد بقطع القنطرة ، وجمع العرفاء من البنائين والمهندسين وأداروا الحيلة لهذا الغرض دون أن يعلم بها أهل طليطلة فلما تدفقت عليها قوات طليطلة انهارت بهم ، فغرقوا فى النهر عن آخرهم. وأخيراً لم يجد أهل طليطلة بداً من التسليم بالهزيمة والإذعان للأمير ، فدعوا فى العام التالى إلى الأمان فعقده لهم الأمير . دخلت طليطلة فى فى فلك الإمارة بقرطبة ولكن ذلك لم يدم أكثر من عشر سنوات ثم ثاروا على الأمير للمرة الثانية سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٥ م) ، واضطر الأمير إلى الخروج بنفسه لوضع الأمور وضعها الصحيح ، وأرغمهم على تقديم فروض الطاعة ، فأخذ منهم رهائن وعقد لهم أمانهم للمرة الثانية ، وأغرمهم ضريبة من العشور يؤدونها إليه فى كل عام . ثم اختلفت أهواؤهم عند ما عزم الأمير على تولية أخيه مطرف ابن عبد الرحمن ، إذ طلب بعضهم تولية طربيشة بن ماسديه ، وأخيراً اتفق على تقسيم طليطلة وأقاليمها إلى قسمين فولى كل منهما قسماً ، ثم تنازع الواليان وأراد كل منهما الانفراد بولاية طليطلة ، ثم رجحت كفة طربيشة ، فتولى المدينة [١].

وتبعت ثورة أهل طليطلة ثورة أهل ماردة ، إذ ثار بها عبد الرحمن بن مروان بن يونس المعروف بابن الجليقى مع جماعة من المولدين [٢] أمثاله ، نخص بالذكر منهم ابن شاكر ومكحول ، فى ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م)

فخرج الأمير محمد إلى ماردة وقد تظاهر بتوجهه نحو طليطلة لحصارها ، فلما سار فى طريق طليطلة ، انحرف إلى الطريق المؤدى إلى ماردة ، فحاصر المدينة أياماً واضطر أهل ماردة إلى التسليم ، واشترط عليهم الأمير أن يخرج من المدينة فرسانهم والمحرضين على الثورة وعلى رأسهم عبد الرحمن بن مروان وغيره ، فخرج المذكورون بأولادهم وذراريهم ، وولى الأمير عليها سعيد بن عباس القرشى ، ثم أمر بهدم

---

(١) راجع ابن عذارى ج ٢ ص ١٤٢ — ١٥٢ .

(٢) اتفق عبد الرحمن بن الجليقى المولد مع سعدون السرنباقى على الثورة ضد الأمير والاتفاق مع ملوك النصارى انظر (ابن القوطية ص ٨٩) .

سوزها ، ولم تبق إلا قصبتها باعتبارها مركز الحكومة . وظل ابن مروان فى قرطبة حتى سنة ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) ثم هرب مع أنصاره ، واستقروا بقلعة حنش Alange على بعد نحو ٢٠ ك . م جنوب شرقى ماردة . فغزاه الأمير محمد، وحاصره مدة ثلاثة أشهر ، وقطع عنه الأقوات والمياه حتى اضطر عبد الرحمن إلى طلب الأمان ، فأمنه الأمير ، وطلب منه ابن الجليقى الرحيل إلى بطليوس والحلول بها، وكانت يومئذ قرية ، فوافقه الأمير[1] . فابتنى بطليوس وجعل منها حصناً يتحصن فيه ضد الأمير ، إذ كان يزمع العصيان عند ما تهيأ له الظروف . وفعلا لم يمض عام واحد حتى عاد إلى إعلان الثورة على الأمير واستولى على بعض المدن بإقليم إشبيلية مثل طلياطة ، واكشنوبة ، واحتل جبلا يقال له منت شاقر Monte Sacro[2]،

عندئذ أغزى إليه الأمير ولده المنذر، وكان قائد هذه الحملة هاشم بن عبدالعزيز الذى كان السبب فى هروب ابن مروان الجليقى إذ سبه وصفعه على قفاه . فلما علم ابن مروان بقدوم هاشم بن عبد العزيز لمحاربته ، انتقل من بطليوس وحل بحصن كركر ، وكان ابن مروان قد اتفق مع زميله فى العصيان سعدون السرنباقى الثائر فى منت شلوط Monsalud على مكاتبة الفونسو الثالث بن أردون الأول ملك اشتوريش والتظاهر بأنه فى قلة من الجند فبادر هاشم إلى مهاجمة ابن مروان الجليقى على غير أهبة أو استعداد ، إذ انخدع بقلة عدد قواته ، فانهزم هزيمة نكراء ، وأسر ، وقتل من رجاله خمسون ، وأرسله ابن مروان الجليقى إلى ملك اشتوريش الفونسو إظهاراً لعرفانه بجميله ، فأقام بأبيط Oviedo عامين ثم افتداه الأمير سنة ٢٦٤هـ من الفونسو بمائة وخمسين ألف دينار[3].

لم يستطع الأمير محمد أن ينتظر من ابن مروان أكثر من ذلك ، فى سنة ٢٦٣ (٨٧٧ م) أرسل ابنه المنذر على رأس جيش كثيف إلى ماردة ، فلما علم ابن

---

(١) ذكر ابن القوطية أن عبد الرحمن بن الجليقى طلب من الأمير أن يبيح له البشرنل وهى قرية من قرى غرب الأندلس يبتنيها ويمدنها ويستقل بحكمها وجبايتها ، ويوضح ابن القوطية موقع البشرنل فيذكر أنها تقابل بطليوس ، ويفصلها عنها نهر وادى أنه المسمى بالغور (انظر ابن القوطية ص ٩٠) . ويذكر الحميرى أنه شرع فى بناء جامع بطليوس فبناه باللبن والطابية وبنى له صومعة بالحجر ؛ كما بنى أسوار المدينة الجديدة بالتراب . (الحميرى ص ٤٦) .

(٢) ابن القوطية ص ٨٩ .

(٣) ابن القوطية ص ٨٩ .

مروان بذلك خرج عن بطليوس فاحتلها القائد الوليد بن غانم وخربها ودمر أسوارها ، واضطر ابن مروان إلى اللحاق بالفونسو الثالث ، حيث أقام فى كنفه ثمان سنوات ثم عاد إلى ماردة وبطليوس سنة ٢٧١ هـ (٨٨٤ م) ، فحاربه الأمير وأرغمه إلى الهروب فى المرتفعات ، ثم تحصن فى جبل أشبرغوزة (Esparragosa)[١] وحاصره المنذر ولكن حصاره له لم يأت بنتيجة . وأخيراً وافق الأمير محمد على أن يستقل ابن مروان ببطليوس .

وثار سليمان بن عبدوس سنة ٢٥٥ هـ فى شرية ، وعمروس الوشقى فى وشقة سنة ٢٥٦هـ ، ومطرف واسماعيل بن لب ويونس بن زنباط فى الثغر (تطيلة وسرقسطة) سنة ٢٥٨هـ ، ويحيى الجزيرى فى جانب من كورة رية والجزيرة وتاكرنا سنة ٢٦٥هـ ، وحارث بن حمدون من بنى رفاعة فى مدينة الحامة من كورة رية سنة ٢٧٣ . وأعظم هذه الثورات شأناً ثورة عمر بن حفصون فى ببشتر سنة ٢٦٧ هـ ، وكان والد عمر من مسالمة أهل الذمة ، وكان يقيم فى إقليم رندة بقرية توريثيا Torrecilla ، وذكروا فى سبب ثورته أن عامل رية وهو واحد من بنى خالد ويعرف باسم دونكير أخذ عليه مآخذ فضربه بالسياط ، فاضطر عمر إلى العبور إلى بر العدوة ولاذ بتاهرت عاصمة الرستميين وهناك اتخذه خياط أصله من رية مساعداً له ، وبينا هو « جالس فى حانوته إذ أتاه شيخ معه ثوب يقطعه ، فقام إليه الخياط ووضع له كرسياً ، فقعد عليه ، فسمع الشيخ كلام ابن حفصون ، فأنكره عند الخياط ، فقال له : من هذا . فقال غلام من جيرانى برية أتى ليخيط عندى ، فالتفت الشيخ إليه فقال له متى عهدك برية ؟ قال له : منذ أربعين يوماً . قال تعرف جبل ببشتر ، فقال له أنا ساكن عند أصله . قال له الشيخ . فيه حركة . قال : لا قد آن له ذلك . ثم قال له : هل تعرف فيما يجاوره رجلا يقال له عمر بن حفصون فذعر من قوله ، وأحد الشيخ النظر إليه ، وكان ابن حفصون أفضم الثنية فقال له : يا منحوس تحارب الفقر بالإبرة ، ارجع إلى بلدك فأنت صاحب بنى أمية ، وسيلقون منك غيا وستملك ملكاً عظيماً ، فقام من فوره ، وذلك خوفاً من أن ينتشر الأمر وأن يتقبض عليه بنو أبى اليقظان ، وكانوا مالكى تاهرت وولاؤهم لبنى أمية ،

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ١٥٧ Lévi-Provençal, op. cit. p. 298 Note. 3

فأخذ خبزتين من الخباز وألقاهما فى كمه وخرج ، فأتى الأندلس[1] ، واتصل سراً بعمه ، وأعلمه بقصة الشيخ ، فأمده بأربعين رجلا تمكن بفضلهم من إشعال نيران الثورة فى رية .

كما ثار بسببه فى جبل الجزيرة رجل يقال له لب بن مندريل وآخر اسمه ابن أبى الشعرا[2]، وحاول والى رية عامر بن عامر أن يقمع ثورة ابن حفصون ولكنه انهزم هزيمة مخزية، فعزله الأمير محمد وأقام مكانه عبد العزيز بن عباس ، فهادنه ابن حفصون ثم عزل عبد العزيز ، وعاد ابن حفصون بعد عزل عبد العزيز الى مثل ما كان عليه ، انضم إليه كثير من قطاع الطرق والمفسدين فى الأرض . فاضطر الأمير إلى ارسال هاشم بن عبد العزيز لمحاربة ابن حفصون سنة ٢٨٠ هـ ، وتمكن هاشم من القضاء على الفتنة فاستنزل جميع الثوار فى ببشتر وتاكرنا والجزيرة وقدم بهم إلى قرطبة وألحقهم فى الحشم[3]، وكان ابن حفصون بينهم ، ففر فى هذا العام من هاشم بن عبد العزيز إلى الثغر .

وكان هاشم بعد أن هزم ابن حفصون قد أمر ببنيان دار حصينة فى أعلى جبل ببشتر وأقام فيها التجوبى العريف مع فرقة من الجند .

فلما أهان صاحب المدينة بقرطبة وهو محمد بن وليد بن غانم إلى ابن حفصون خرج من قرطبة ولاذ بحصنه القديم ببشتر سنة ٢٧٢ هـ ، بعد أن طرد منه التجوبى ، وأخذ جاريته المعروفة بالتجوبية التى صارت أم ولده أبى سليمان ، وهنا اجتمع إليه أتباعه القدامى، فاستفحل أمره حتى ضم إليه ما بين الجزيرة ومرسية ، وقبل وفاة الأمير محمد ، لقب ابنه المنذر سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) إلى كورة رية فى جيش جيش بقيادة القائد محمد بن جهور فقصد أولا مدينة الحامة ، التى ثار فيها حارث بن حمدون من بنى رفاعة وكان مظاهراً لابن حفصون الذى اجتمع معه فى الحامة ، فنازلها الأمير المنذر وحاصرها مدة شهرين ، فلما يئسا خرجا من باب

---

(١) ابن القوطية ص ٩١ — ٩٢ .

(٢) ابن القوطية ص ٩٢ .

(٣) نفس المرجع ص ٩٢ .

المدينة متعرضين للنبال ، فأصيب ابن حمدون وانهزم هو وأصحابه[1]، ودخلت جنود المنذر مدينة الحامة ، وبينما كان المنذر يحتفل بانتصاره إذ بلغه نبأ وفاة أبيه الأمير محمد فى ٢٨ صفر سنة ٢٧٢ (٤ أغسطس سنة ٨٨٦ م) فعجل بالعودة إلى قرطبة ، حيث أدرك أباه قبل أن يوارى التراب فى الروضة .

وعلى الرغم من التمزق السياسى الذى أصاب الأندلس على عهده ، فقد كان الأمير أحسن الناس تمييزاً، وأبصرهم بوجه الرأى ، وكان محبوباً فى جميع البلدان ، فكان الامام أبو اليقظان محمد بن أفلح الذى تولى على دولة الرستميين بتاهرت منذ سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) « لا يقدم ولا يؤخر فى أموره ومعضلاته إلا عن رأيه وأمره وكذلك بنو مدرار بسجلماسة[2]» ولم تكن علاقته وقفاً على أمراء المسلمين ، بل نراها تمتد إلى الدول المسيحية المجاورة ، فيعقد أواصر الصداقة مع قارله Charles le Chauve ملك افرنجه ، وكانت هذه العلاقات قد تحسنت منذ أواخر أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط إذ كان يوفد إلى قارلة رجلا يعرف بالقصبى[3]، ولا شك أن ابن عذارى وابن الخطيب كانا يعنيانه عند ما ذكرا اسم فرذلند بدلا من اسمه[4].

* * *

وبموت الأمير محمد زال ستر الحرمة ، وخرقت هيبة الإمارة ، واستقبل ابنه المنذر (٢٧٣ — ٢٧٥ هـ ؛ ٨٨٦ — ٨٨٨ م) نيران الفتنة ، فأصلته مدى حياته ، ودامت فى عهد عبد الله حتى خمدت على يدى الأمير عبد الرحمن بن محمد . وما كاد الأمير المنذر يتولى زمام السلطة حتى قبض على وزير أبيه هشام بن عبد العزيز ، وزج به فى السجن ، وأثقله بالحديد ، وذكره بذنوبه وآثامه ، ثم ضرب عنقه ، وقيل أنه حمل عليه لأنه قال عند مواراة الأمير محمد فى قبره البيتين الآتيين :

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ١٥٨ .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٦١ ويقول ابن الخطيب « وخدمته ملوك البلاد المغربية واعترفت بطاعته بتاهرت وبجلماسة » انظر أعمال الأعلام ص ٢٤ .

(٣) ابن القوطية ص ٧١ .

(٤) يقول ابن عذارى : « وكان فردلند ملك إفرنجة يسترجع عقله فيهاديه ويتحفه » ص ١٦٢ . أما ابن الخطيب فيقول : « وكان على عهده من ملوك إفرنجة أعظمها وأفخمها فرذلند يهاديه ويتاحفه على ترامیه بنفسه إلى الغاية التى لم يذهب إلى مثلها قومه » ص ٢٤ .

أعزى يامحمد عنك نفسى أمين الله ذا المنن الجسام
فهلا مات قدم لم يموتوا ودوفع عنك لى كأس الحمام[1]

فظن المنذر أنه يقصده عند قوله « فهلا مات قوم لم يموتوا » ، ثم قبض عليه وسجنه هو وخاصته ، ثم أمر بقتله فى جمادى الأولى سنة ٢٧٣ هـ . وأشفى نفسه بالانتقام منه . وذكروا فى أسباب تحامل المنذر على هاشم، أن هاشم كان يحسده الناس لمكانته عند الأمير محمد ، فسعوا به عند المنذر[2].

وكان عمر بن حفصون قد انتهز فرصة وفاة الأمير محمد ، وعودة المنذر إلى قرطبة على أثر ذلك فراسل الحصون التى تمتد من ببشتر حتى الساحل، فأجابته بالطاعة وأغار على باغة، وقبرة،وعلى قرى البيرة، وأحواز جيان ، وانضم إليه كثير من شطار الناس وشرارهم . فاضطر الأمير المنذر إلى الخروج إليه بجيوشه فى عام ٢٧٤ هـ ، فافتتح حصون ابن حفصون فى كورة رية وقبرة ، وحاصر ببشتر وضيق عليها ، ثم مضى إلى مدينة أرشذونة ، وكانت تابعة لابن حفصون وفيها عامل من قبله اسمه عيشون ، وتغلب الأمير على قصبة أرشذونة ،وأسر العامل، وأسر معه بنى مطروح، وافتتح حصونهم بجبل باغة ، وأمر بقتل بنى مطروح ومعهم عيشون فصلبوا جميعاً بقرطبة وصلب مع عيشون خنزير وكلب[3] . ولما استفحل أمر ابن حفصون وزاد عن الحد[4]، أقسم الأمير أن يقصده، وأن يحاصر ببشتر ولا يبرحها حتى يتمكن من ابن حفصون ، فقضى الأمير نحو ٤٣ يوماً فى حصاره لببشتر ، ثم أصابته علة ، فبعث إلى أخيه عبد الله لينوب عنه ، فى الحصار ، ومات الأمير المنذر فى ١٥ صفر سنة ٢٧٥ هـ ، فحمل الأمير على جمل إلى قرطبة حيث دفن مع أجداده فى تربة الخلفاء المعروفة بالروضة بداخل القصر .

* * *

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٤٩ — ابن عذارى ج ٢ ص ١٧٤ .

(٢) ابن عذارى ص ١٧٣ .

(٣) ابن عذارى ص ١٧٥ .

(٤) ذكر ابن عذارى أنه خدع الأمير إذ سأله أن يبعث إليه مائة بغل حتى يضع عليها متاعه ومتاع أولاده ويأتى إلى قرطبة ليعيش فى كنف الأمير، وكان الأمير قد بعث إليه عسكراً يحاصر ببشتر بعد أن عدم ابن حفصون أعوانه . فلما أرسل إليه الأمير البغال وسحب عسكره، استولى ابن حفصون على البغال ونكث وعده للأمير وعاد إلى سيرته الأولى .

وتولى الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بعد وفاة أخيه فى اليوم الذى مات فيه أخوه المنذر فى المعسكر الإسلامى الضارب على ببشتر ، وكانت الأندلس عند ما ولى الإمارة قد مزقها الشقاق، وتحيفها النكث ، واستولت عليها الفتنة . ولم يدر عبد الله إلى أين يصرف وجهه ، إلى ابن حفصون كبير الثوار الذى طغى وبغى واستولى على أعظم مدن الجنوب وبات يهدد قرطبة حاضرة الإمارة ، أم لابن حجاج وقد استقل بإشبيلية وقرمونة ، وعبد الرحمن بن مروان الجليقى ببطليوس ، وعبد الملك بن أبى الجواد بباجة ، وابن السليم بشذونة ، وخير بن شاكر بشوذر ، وبنى هابل بن هذيل بجيان ، وسعيد بن سليمان بن جودى بغرناطة ، وسليمان بن محمد الشذونى بشريش ، ويحى التجيبى الأنقر بسرقسطة ، وديسم بن إسحق بمرسية . ولكنه آثر أن يبدأ بابن حفصون ، فتوجه إليه فى جيش كبير وهزم ابن حفصون هزيمة منكرة ، ثم صرف الأمير همه بعد ذلك إلى مهادنة ابن حجاج بإشبيلية ، وظل فى صراع مع ثوار الأندلس حتى وفاته سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) على نحو ما سنوضحه فى موضعه. ولقد أجمع مؤرخو العرب باستثناء ابن حزم(١) على أن الأمير عبد الله كان تقياً ورعاً ، كثير الصلاة ، كثير الصدقات ، محباً للخير ، شديد التواضع .

وقال عيسى بن أحمد الرازى عن أبيه أحمد بن محمد أن الأمير عبد الله كان « من أصلح خلفاء بنى أمية فى الأندلس ، وأمثلهم طريقة ، وأتمهم معرفة ، وأمتنهم ديانة ، كان يتهجد بالليل ويقوم ليالى شهر رمضان بالاشفاع مع الأئمة المرتبين لها بالمسجد الجامع بقرطبة . . . وكان قد خص قعوده للعامة بيوم الجمعة ، لا يخل به ، رتب قعوده فيه لهم بمجلس له عند الباب الذى فتحه عند ركن القصر وسماه باب

(١) ذكر ابن حزم أنه كان قاتلا تهون عليه الدماء مع ما كان يظهره من عفة ومع كثرة إقباله على الخيرات وترك المنكرات ، فإنه احتال على أخيه المنذر على إيثاره له ، وواطأ عليه حجامه بأن سم له المبضع الذى فصده به ، وهو نازل بعسكره على ابن حفصون ، ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد واحد : قتل محمدا والد الناصر لدين الله ، وقتل أخاه المطرف ، ثم قتل أخوين له معاً أيضاً ، قتل هشاماً منهما بالسيف والقاسم بالسم . (انظر ابن القوطية ص ١٠٢ — ابن عذارى ج ٢ ص ٢٣٣ — ابن سعيد المغربى المغرب ص ٥٤ — ابن الخطيب ،أعمال الأعلام) . أما صاحب أخبار مجموعة فيذكر أنه لما توفى أخوه وكان الجند قد سئموا من طول المقام ، تفرقوا عن الأمير فانتقل خائفاً على نفسه من عدوه ، وقدم أخاه بين يديه وأبى أن يدفنه إلا مع آبائه فى قصر قرطبة (أخبار مجموعة ص ١٥٠) .

العدل ، وهو باب قبلى رسمه بأن لا يأتيه منه إلا متظلم أو رافع كتاب بظلامة ، لا يصل حاجبه أحداً عنه ، نظراً للناس ، وتسهيلا لسبيل إنصافهم[1] » .

* * *

وإذا تحدثنا عن المتنزين فى الأندلس فى عصر الأمير عبد الله ، فالمجال لا يتسع لذكر كل شىء ، وسنكتفى بالإشارة أولا إلى هؤلاء الثوار ومناطق نفوذهم ، ثم التحدث عن حروب الأمير ضد خصمه العنيد عمر بن حفصون ثم ننتهى إلى ذكر الفتنة بين العرب وبين المولدين والعجم فى سائر أنحاء الأندلس .

أولا : المتنزون فى الأندلس :

(١) الثوار المولدون :

١ — يرأس عمر بن حفصون قائمة الثوار فى الأندلس فهو إمامهم وقدوتهم وأعلاهم ذكراً وأشدهم سلطاناً وسنشير إلى خروج الأمير إليه فى النقطة التالية .

٢ — ديسم بن إسحق الذى غلب على مدينتى لورقة ومرسية وما يليهما من كورة تدمير ، وكان له جيش يحارب به من يخالفه ، وكان محبوباً من جميع طبقات الناس ، كما كان محباً للشعراء والأدباء ، وقد مدحه الشاعر عبيديس بن محمود[2] .

٣ — عبيد الله بن أمية بن الشالية : استولى على جبل شنتمان Somontin وما يليه فى كورة جيان ، وامتد ملكه إلى حصن قسطلونة Cazlona ، واستطاع أن يصطنع شجعان الرجال والقواد . وحاول الأمير أن يقضى على حركته فأرسل إليه جيشاً بقيادة الوزير القائد عبد الملك بن عبد الله بن أمية ، فأظهر ابن الشالية الإذعان والخضوع بعد أن هزمه جيش الأمير ، فلما أرخى الأمير مخنقه عاد إلى غيه ، فنكث بعهده للأمير ، واتصل بابن حفصون ، وحالفه ، وزوج ابنته من جعفر ابن عمر بن حفصون ، ونقلها إلى ببشتر ، وقد لزمه الشاعر عبيديس بن محمود

---

(١) ابن حيان : المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ، نشره الأب ملشور باريس ١٩٣٧ ص ٣٣ وما يليها ابن عذارى ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٢) ابن حيان : المقتبس ج ٣ ص ٩ - ابن عذارى ج ٢ ص ٢٠٥ .

ومدحه[١]، وظل عبيد الله بن أمية مستقلا فى دويلته حتى أيام الأمير عبد الرحمن ابن محمد فاستنزله ، وحمله على الإقامة بقرطبة .

٤ ــ **سعيد بن وليد بن مستنة** : يتلو ابن حفصون فى التمرد وشدة الشكيمة ، وكان صاحباً له ، ولذلك كان زميلا لابن حفصون فى التعصب للمولدين والعجم ، ولقد ثار ابن مستنة فى كورة باغة واستولى على حصونها وأهمها حصن لقوبش Locubin وأقوط Luque، ونجح ابن مستنة فى هزيمة القائد إبراهيم بن خمير الذى بعثه الأمير عبد الله لإخماد حركته . ودامت دولته حتى نهاية عهد عبد الله[٢] .

٥ ــ **بنو هابل** : ثار أولهم منذر بن حريز بن هابل ببعض حصون جيان ، وبنى لنفسه حصنى مرغيطة Margarita، وشنت اشتيبن Santisteban del Puerto . وثار أخوته أبو كرامة هابل بن حريز ، وعامر بن حريز بحصن شنت اشتيبن وعمر بن حريز . وقد استطاع عبد الرحمن بن محمد استنزالهم جميعاً فخدموا فى جيشه ، فأقام عبد الرحمن بن محمد كبيرهم هابل على حصنه مرغيطة ؛ واستشهد عامر فى موقعة شنت مانكش Simancas ، المعروفة بالخندق ، وقتل عمر فى غزوة الأمير إلى بطليوس سنة ٣١٧ هـ .

٦ ــ **خير بن شاكر** : قام بدعوة المولدين والعجم على العرب فى حصن شوذر Jodar من كورة جيان ، وقد ظاهر خير عمر بن حفصون سنة ٢٧٧ هـ . وقد هاجم خير عدداً كبيراً من حصون العرب بكورة إلبيرة فقتل خلقاً كثيرين . وقد تمكن الأمير عبد الله من قتله بايعاز من عمر بن حفصون إذ أوقع بينه وبينه[٣]

٧ ــ **سعيد بن هذيل** : ثار بحصن المنتلون Monteléon من جيان ، فبنى قصبة الحصن وحصنها ، فبعث إليه الأمير عبد الله القائد عبد الملك بن عبد الله بن أمية ، فأذعن بالطاعة ثم نكث ، وعاقد عمر بن حفصون . وقد استنزله عبد الرحمن بن معاوية وأسكنه قرطبة . وأقام على المنتلون عاملا من قبله هو أحمد بن عبد الوهاب ؛ فثار عليه أهل المنتلون وطلبوا أميرهم سعيد بن هذيل ، فأقر الناصر على ولاية

---

(١) المرجع السابق ص ١٠ ، ١١ .
(٢) ابن حيان ص ٢٧ ــ ابن عذارى ص ٢٠٦ .
(٣) نفس المرجع ص ٢٤ ــ ابن عذارى ص ٢٠٦ .

الحصن عبد الله بن سعيد ، فسكن الناس إليه .

٨ — عبد الرحمن بن مروان بن يونس المعروف بابن الجليقى : كانت ثورته تقوم على التعصب للمولدين على العرب ، وقد استقل ببطليوس وماردة .

٩ — عبد الملك بن أبى الجواد : استقل بمدينة باجة Béja ، وتحصن بحصن مرتلة Mertola بالبرتغال ، وكان قائماً بدعوة المولدين ، متحالفاً مع ابن مروان الجليقى صاحب بطليوس وابن بكر صاحب اكشونبة Ocsonoba ، « فكانوا إلبا على من خالفهم ويدا على من خرج عنهم[1] »

١٠ — بكر بن يحيى بن بكر : استقل بمدينة شنت مرية Santa Maria de Algarve من كورة اكشونبة وتعرف اليوم باسم Faro [2] . وهو الذى حصن هذه المدينة واتخذ لها أبواباً من الحديد ملبسة وكان يتشبه فى دولته بإبراهيم بن حجاج ، فكان له الوزراء والكتاب ، وكان يجتذب إليه النزال فيستضيفهم فى مدينته حتى قيل أن السالك بناحيته كان كالسالك بين أهله وأقاربه[3] . وكان جده زدلف Zadulfo من العجم مولى لبكر بن نجاد الأوربى ، فسمى ابنه باسم مولاه ، بكر ، وتمكن ابن ابنه يحيى بن بكر المذكور من الاستقلال بمدينة شنت مرية فى أواخر عهد الأمير محمد . ولما استفحل أمره وغلب على جميع كورة اكشونبه اضطر الأمير إلى الاعتراف بالأمر الواقع وولاه على بلده ، فاستوطن مدينة شلب Silves وعمرها[4] .

١١ — محمد بن لب بن موسى بن موسى بن فرتون القسوى : ثار بالثغر الأعلى ، وحاصر مدينة تطيلة ، وتمكن من أسر محمد بن طملس قائد الأمير عبد الله فقتله على باب تطيلة . وعلى الرغم من خروجه على الحكومة المركزية بقرطبة فقد كان مجاهداً ضد النصارى ، فأغار على ألبة وبنبلونة . وقد ولى ابنه لب بن محمد على طايطلة ، وقد قتل محمد بن لب وهو يحاصر محمد بن عبد الرحمن التجيبى بسرقسطة ،

---

(١) نفس المرجع ص ١٥ — ابن عذارى ص ٢٠٥ .

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, op. cit. p. 340.

(٣) ابن حيان ص ١٦ — ابن عذارى ص ٢٠٧ .

(٤) ابن حيان ص ١٦ — ابن عذارى ص ٢٠٧ — Lévi-Provençal, op. cit. p. 341.

وانفذ محمد بن عبد الرحمن المذكور رأسه إلى الأمير عبد الله بقرطبة . وتولى مكان محمد بن لب ابنه لب بن محمد ، فأعلن طاعته للأمير ، فولاه الأمير على تطيلة Tudela وطرسونة وأعمالها ، واستشهد وهو يقاتل النصارى سنة ٢٩٤ هـ .

١٢ — **سعدون بن فتح السرنباقى** : ثار بأحد الحصون الواقعة بالقرب من مدينة قلنبرية Coimbra بالبرتغال ، وكان صديقاً لابن مروان الجليقى .

١٣ — **عبد الوهاب بن جرج** : ثار بحصن بكور من البيرة ، بعد أن اجتمع إليه الموالى ، ثم مات سنة ٣٠٣ هـ .

ب الثوار البربر

١٤ — أول المنترون من البربر (**بنو موسى بن ذى النون**) ، وأول من ثار منهم الفتح ومطرف ، فقد ثارا بكورة شنت برية واتخذاها حاضرة لهما ، وأقاما فيها الحصون والمعاقل والمنازل والقرى ، فعمرت ، وكثرت فيها المرافق . وقد استأثر يحيى بن موسى بحصن ولمة أكبر حصونهم ، وابتنى الفتح حصن أقليش ومصره وعمره ، واستقل مطرف بحصن وبدة . وقد توفى الفتح بن موسى مقتولا سنة ٣٠٣ ودخل أخوه يحيى فى خدمة الناصر وغزا معه سرقسطة سنة ٣٢٥ هـ . فتوفى هناك . أما مطرف فقد خدم الناصر واشترك معه فى غزواته فولاه على مدينة الفرج من الثغر الأوسط[1].

١٥ — **عمر بن مضم الهترولى المعروف بالملاحى**: كان من بربر قرية الملاحة من كورة جيان ، وكان جندياً من جنود عامل جيان ، فوثب على العامل وقتله واستولى على القصبة ، ولما استفحل أمره وأخذ يعيث فيما جاوره من بلدان ، أخرج إليه الأمير عبد الله القائد أحمد بن محمد بن أبى عبده لحربه ، فتمكن ابن أبى عبده من القبض عليه وقدم به إلى قرطبة .

١٦ — **خليل وسعيد ابنا مهلب** : ثارا بكورة البيرة . فاستولى خليل على حصن قرذيرة Torre-Cardela ؛ أما سعيد فتمكن بدوره من الاستيلاء على حصن اشبرغرة Esparraguera ، وعلى الرغم من ثورتهما على الأمير فقد دانا بالطاعة له

---

(١) ابن حيان ص ١٩ .

فولاهما على ما بأيديهما ، وقد كان لهما فضل محاربة عمر بن حفصون وصاحبه سعيد بن مستنة ، فلما مات خليل قام أخوه سعيد بأمر الحصنين ، حتى كانت أيام الأمير عبد الرحمن بن محمد فاستنزل بين من استنزل من الثوار [١].

١٧ — زعال بن يعيش بن فرانك النفراوى : ثار على الأمير عبد الله فى حصنه أم جعفر من ماردة ، وكان مستقلا فى هذا الحصن استقلالا جزئياً إذ كان متمسكاً بحبل الطاعة للأمير ، فلما مات خلفه ابن عمه عبد الله بن عيسى بن قوطى ، ثم استنزل أيام عبد الرحمن بن محمد .

ج — الثوار من العرب :

١٨ — محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمدانى : وكان من أعيان العرب بكورة إلبيرة ، استدعاه أهل حصن نوالش Noalejo (شمال غرناطة)، وأقام هناك مستمسكاً بطاعة الأمير ، فولاه الأمير على هذا الحصن ، وظل كذلك حتى توفى الأمير عبد الله ، فأبقاه عليه عبد الرحمن بن محمد ، ثم عزله سنة ٣١٣ ﻫ

١٩ — سعيد بن سليمان بن جودى : لما مات سوار بن حمدون أقام عرب غرناطة عليهم سعيد بن سليمان المذكور وبعثوا إلى الأمير يطلبون منه أن يوافق على ولايته ، ففعل ، وقد قام سعيد بمحاربة أعدائهم من المولدين وعلى رأسهم عمر ابن حفصون ، فهزمه ، وكان ابن حفصون يهابه ويعمل حسابه . ولكنه قتل سنة ٢٨٤ ﻫ[٢].

٢٠ — ابن عطاف العقيلى : هو إسحق بن إبراهيم بن صخر بن عطاف ، وكان قائداً من قواد الأمير محمد ، فلما ثارت الفتنة أيام عبد الله ، دخل إسحق حصن منتيشة Mentesa بكورة جيان، فبناه وحصنه وامتنع فيه من ابن حفصون ، وظل قائماً فيه حتى استنزله الأمير عبد الرحمن بن محمد سنة ٣١٣ﻫ [٣].

---

(١) ابن حيان ص ٣٢ — ابن عذارى ص ٢٠٨ .
(٢) ابن حيان ص ٣٠ — ابن عذارى ص ٢٠٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٩ .

٢١– سوار بن حمدون : ثار بحصن منت شاقند Montejicar ، وسنذكره عند ما نتناول بالحديث الفتن بين العرب والمولدين .

٢٢– إبراهيم بن حجاج : تغلب على إشبيلية وقرمونة، وارتفع شأنه وبعد صيته ، وقد استقل بإشبلية عندابتداء الفتنة واتخذلنفسه جنداً بلغ عددهم نحو ٥٠٠ فارس ، وكان موالياً للأمير فلم يجاهر بمعصية له وكان بلاطه فى إشبيلية لا يقل عن بلاط بنى أمية فى قرطبة ، وقد ازدهرت مدينة إشبيلية فى عهده ازدهاراً لم تشهده من قبل ، ثم أنه حصن مدينة قرمونة ، وجعلها مربط خيوله ، وكان ممن شعرائه أبوعمر بن عبد ربه الشاعر ، وقد قال فيه :

ألا إن إبراهيم لجة ساحل   من الجود أرست فوق لجة ساحل
فإشبيلية الزهراء تزهى بمجده   وقرمونة الغراء ذات الفضائل

ومدحه الشاعر محمد بن يحي بن القلفا بقصيدة، هجا فيها أهل قرطبة وأفحش فى الهجاء ، فأساء إليه إبراهيم بن حجاج لذلك ، فانصرف إلى قرطبة وبدأ يهجو إبراهيم بن حجاج ، فبعث إليه إبراهيم من قال له عنه : « بالله الذى لا إله غيره ، لئن لم تكف عما أخذت فيه ، لآمرن من يأخذ رأسك وأنت فوق فراشك بقرطبة » فارتاع لذلك وكف عن هجائه[1] .

وكان إبراهيم بن حجاج يقلد أمراء بنى أمية فى إحاطة نفسه بهالة من العظمة والمجد، واستقدام الشعراء والأدباء ، وتشجيع العلماء ورجال الفن ، فذكروا أنه سمع بجارية بغدادية اسمها قمر فأرسل الأموال لشرائها واستقرت فى بلاطه باشبيلية[2] . وسنذكر بقية أبنائه عند دراستنا للفتنة بين العرب والمولدين فى إشبيلية .

٢٣– بنو المهاجر التجيبيون : كان بدء أمرهم أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن، إذ اصطنعهم لمواجهة بنى قسى الثائرين عليه ، وولاهم مدينة قلعة أيوب Calatayud ، وبنى لهم حصن دروقة Darroca ، وكانت سرقسطة قد دخلت فى فلك الإمارة فتولاها من قبل الأمير عبد الله ، أحمد بن البرا بن ملك القرشى ، فتآمر عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الله التجيبى مع ابنه أبى يحي محمد المعروف بالأنقر

---

(١) ابن حيان ص ١٣ .
(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٩٤ .

للاستيلاء على سرقسطة ، فتظاهر محمد بن عبد الرحمن بأنه هارب من أبيه واستجار بابن البرا ، فأجاره وأدخله المدينة ، فتمكن منه يوماً وقتله ، وانفرد بحكم سرقسطة ، وأظهر التمسك بطاعة الأمير عبد الله فسجل له على سرقسطة ، وظل يقوم بولايتها حتى توفى سنة ٣١٢ هـ[1].

٢٤ – محمد بن عبد الرحمن المعروف بالشيخ الأسلمى الخزاعى : ثار بحصن قليوشة من تدمير ، ثم استسلم لعبد الرحمن بن محمد، فأقدمه إلى قرطبة، فتوفى بها سنة ٣٢٩ هـ .

٢٥ – منذر بن إبراهيم بن محمد بن السليم : ثار بمدينة بنى السليم المنسوبة إليهم من كورة شذونة وتسمى اليوم Grazalema (بالقرب من قادس) ، وظل مستقلا بهذه المدينة حتى قتله مملوك له اسمه غلندة Galindo . وخلفه فى ولاية ابن السليم أحد أقربائه يسمى وليد بن وليد[2].

ثانياً : محاربة الأمير عبد الله لعمر بن حفصون :

لما تولى الأمير عبد الله الإمارة وجه قائده إبراهيم بن خمير لأخذ بيعة عمر بن حفصون وأتباعه ، فأظهر ابن حفصون الطاعة وهو يضمر فى قرارة نفسه النكث والخروج ، وعمد إلى الحيلة حتى يقنع الأمير بإذعانه ، فلا يترك للأمير الفرصة للتجهيز وإعداد الحملات لغزو بلاده ، فأرسل مع إبراهيم بن خمير ولده حفص وجماعة من أتباعه[3]، فأنزلهم الأمير عبد الله أفضل منازل الوفود، وكرمهم ،وأحسن إليهم ، ثم ردهم محفوفين بالإكرام والرعاية . وولى الأمير عبد الله عمر بن حفصون على كورة رية ، وأشرك معه فى ولايته عاملا من قبله هو عبد الوهاب بن عبد الرءوف ، فتظاهر عمر بن حفصون بالقبول مدة شهور ، ثم انتقض على الأمير وأخرج عبدالوهاب العامل من الكورة ، وأخذ يغير على قرى رية والكور المجاورة لها ، وقطع السبل

---

(١) ابن حيان ص ٢١ – ابن عذارى ص ٢٠٨ .

(٢) ابن حيان ص ٢٤ – ابن عذارى ص ٢٠٥ .

(٣) يبدو أن مهمة حفص كانت فى عقد سلم منتظم مع الأمير على أن يتولى ابن حفصون ببشتر على الطوع .

وأخرج قائده حفص بن المرة، وكان شديد المراس، فأضرم البلاد سعيراً، وأغار على نواحي استجة، ولم يبق بالقنبانية Campina قرية إلا غشيتها خيل ابن حفصون، ثم امتدت غاراته حتى أرشذونة ونواحي قرطبة، حتى همت القرى بالإخلاء والناس بالجلاء. وضج الناس إلى الأمير مما أصابهم من جوره، فأخرج الأمير قائده عبد الملك بن مسلمة الباجي في جيش كثيف، فالتقى مع جيش حفص في موضع من كورة استجة بين حيزها وحيز أشبونة، وفي هذه الموقعة انهزم جيش الأمير عبد الله، وقتل القائد عبد الملك بن مسلمة، وهنا قويت شوكة ابن حفصون وزاد عتوه وشره، فالتاث أمر الكورة وانزعج الناس، وتفاقم الحال بين العرب وبين المولدين والعجم، وأخذت العصبيات تظهر، والفتن تستشري، وسفكت الدماء، وتحزبت المسالمة مع المولدين، وانضم إليهم نصارى الذمة، فصاروا جميعاً إلبا على العرب، قائمين بدعوة عمر بن حفصون، واضطرمت الأندلس ناراً. ثم امتدت يد عمر بن حفصون إلى حصن بني خالد المسمى الفمتين فنازله، فاستغاث بنو خالد بزعيمهم جعد بن الغامز عامل الأمير في كورة البيرة، فجاءهم بنفسه ورد المعتدين[1] وفي سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م)، دخل ابن حفصون حصن بلاى Poley، ويقع على بعد ٥٠ ك. م جنوب غربي قرطبة، وكان مطلاً على قنبانية قرطبة، فحصنه غاية التحصين، وأقام فيه شربند بن حجاج القومس Servando[2]، وعهد إليه ابن حفصون بالإغارة على أحواز قرطبة. وعندئذ شرع الأمير عبد الله في مواجهة شربند فأخرج إليه الخيل أوقعت به[3] وقتل شربند في كمين، واحتز رأسه وأرسل إلى قرطبة.

واشتدت شوكة عمر بن حفصون، وأقبلت إليه جموع المفسدين من سائر أنحاء الأندلس، ويبدو أنه كان يطمع في الاستيلاء على الأندلس كلها وولايتها هو وأولاده من بعده بدلا من بني أمية، بدليل أنه أظهر الميل إلى الدعوة العباسية،

---

(١) ابن حيان ص ٥٢.

(٢) يذكر ليڤى بروڤنسال أن حجاج القومس كان عجمياً قدم في بلاط الأمير محمد فأخلص له وأن ابنه المذكور اشترك في جريمة قتل نفر من قرطبة واحتل حصن بلاى باسم ابن حفصون
Lévi-Provençal op. cit. p. 372

(٣) ابن حيان ص ٩٢.

وذكروا أنه كاتب ابن الأغلب أمير أفريقية[1] (تونس) ، وأخبره بأنه يعمل لبنى العباس، ولاطفه بالهدايا ، فأجابه ابن الأغلب ، ورد على هديته بهدية . ويقول ابن حيان : « فامتد أمل الخبيث عند ذلك ، واستعجل شره ، وألّى على قرطبة كلكله ، وتوصل لمقامه بحصن بلاى ، تجاه الأمير عبد الله إلى إغاظته واضطهاد رعيته بأفاليم قرطبة ، وجعل يسرى من حصنه ذلك ، الليلة بعد الليلة ، فيطرق من قرى القنبانية ، ويدنو من باب قرطبة حتى ينتهى إلى كدى قرية شقندة إزاء قصر الخلافة بعدوة النهر الأعظم ، ويروع أهلها ويضيم سلطانها ، فانزعج لفعله هذا الأمير عبد الله وأنف منه ، واستعزم على غزو الخبيث بنفسه ، وقصده بقوته . . .[2] »

فأمر الأمير عبد الله إخراج السرادق الأميرية إلى فحص شقندة بعدوة النهر ، فبعث ابن حفصون فرقة من فرسانه للاستيلاء على السرادق والاحاطة بقرطبة ، وكان الأمير قد أعد لها الكمائن ، فلما قدمت الفرسان دهمتها قوات الأمير من كل مكان ، فتقهقر رجال ابن حفصون ، وتحصنوا فى حصن بلاى Poley ، فأعد الأمير جيشاً عدته نحو ١٤ ألف مقاتل ، وخرج فى مستهل صفر ٢٧٨ هـ ، وحشد ابن حفصون جيشاً عدته نحو ٣٠ ألف مقاتل والتقى الفريقان فى موضع على نهر القوشكة Carchenas يبعد عن حصن بلاى نحو ٢ ميل ، وانتهت المعركة بانهزام جيش ابن حفصون هزيمة نكراء[3] ، ودخل المسلمون حصن بلاى ، أما عبد الله فقد مضى إلى مدينة استجة ، فنازلها حتى استأمنه أهلها ، فأمنهم وأقام على المدينة عاملا من قبله ، ثم مضى بعد ذلك إلى بيشتر ، ثم عطف إلى ارشذونة فاستعادها ، ومنها

---

(١) هو إبراهيم الثانى بن الأغلب (٢٦١ – ٢٨٩ هـ) وكانت دولة الأغالبة التى أسسها إبراهيم بن الأغلب بن سالم سنة ١٨٤ هـ موالية للدولة العباسية ، فقد عمل الرشيد على تأسيسها للوقوف أمام الأدارسة والخوارج الرستميين .

(٢) ابن حيان ص ٩٣ – ٩٤ .

(٣) يقول ابن عذارى : « فصدمه الأمير بمن معه ، فنثر عقده ، وفرق جمعه ، وحملت السيوف فى رقابهم ، وتبعت سيل أعقابهم ، حتى رويت الأرض من دمائهم ، ودخل الأمير عبد الله القلاع الثائرة عليه ، وصارت يومئذ فى يديه ، وفى ذلك يقول ابن عبد ربه :

رام ابن حفصون النجاة فلم يسر ۔۔۔ والسيف طالبه فليس بناج

(ص ٢٠١) وذكر فى موضع آخر أن الأمير أسر نحو ألف من رجال ابن حفصون فقتلوا صبراً بين يديه (ص ١٨٦) .

عاد إلى قرطبة . أما ابن حفصون فما كاد يعود إلى ببشتر حتى حشد أعوانه ، وخرج بجيشه إلى البيرة ، فتغلب عليها سنة ٢٧٩ هـ ، فاضطر الأمير إلى إرسال جيش لمحاربته قود عليه ابن أبي عبدة ، ونجح جيش الأمير في هزيمة ابن حفصون[1] واضطر هذا إلى طلب السلم ، فأجابه الأمير إلى طلبه بعد أن أخذ منه ابناً رهينة عنده ، ولكنه لم يلبث أن انتقض على الأمير سريعاً وخذ يستعيد المدن التي كان الأمير قد استرجعها ، فبدأ بأرشذونة ثم البيرة ، واستولى أخيراً على جيان ، ولم يبق أمامه سوى استجة وبلاى ، فخرج إليه المطرف بن عبد الله بالجيش سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م) بقيادة الوزير عبد الملك بن عبد الله بن أمية إلى ببشتر ، فدمر عمارتها وقضى على العمران فيما حولها ، فاضطر ابن حفصون إلى الخروج لملاقاته فانهزم وقتل قائده حفص بن المرة . ثم مضى المطرف إلى لوشة Loja ، فبنى حصنها وأبقى عليه ادريس بن عبد الله عاملا ، وعاد إلى قرطبة[2]. استغل الأمير عبد الله فرصة انشغال ابن حفصون بتجميع قواته ، وبعث بعوثه إلى صغار الثوار ، وعلى الأخص ابن مستنة ، وبنى حجاج ، وديسم بن إسحق . فلما كانت سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) استرجع ابن حفصون مدينة استجة ، وكان عبد الله قد بعث في هذه السنة ابنه أبان إلى مدينة لبلة Niebla في جيش بقيادة أحمد بن محمد بن أبي عبدة ، وذلك لمحاربة ابن خصيب الثائر في حصن منت ميور Montemor بساحل لبلة ، وبينما كان الأمير أبان مشغولا يرمى الحصن بالمجانيق ، ورد عليه كتاب الأمير باستعجال العودة بسبب استرجاع ابن حفصون لاستجة ، فلما قدم أبان إلى قرطبة بعثه الأمير في طليعة سنة ٢٨٥ هـ لغزو ابن حفصون . ثم حدث أن ارتد عمر بن حفصون عن الإسلام سنة ٢٨٦ هـ (٨٩٩ م) وأعلن عودته إلى النصرانية ، وقد أثار ذلك رد فعل شديد عند المولدين الذين كانوا يشايعونه ، إذ انفض كثير منهم عنه ، بينما هلل المستعربون أو العجم . والواقع أن ارتداد ابن حفصون أفقده كثيراً مما كان قد كسبه ، لأن الإسلام كان قد تغلغل في نفوس المسالمة والمولدين وغيرهم ممن كانوا يؤيدون عمر بن حفصون[1] ، فلما فعل ذلك خسر حزباً كان يؤيده بلا مقابل . وغير

---

(١) ابن عذارى ص ٢٠١ .

(٢) ابن حيان ص ١٠٦ — ١٠٨ — ابن عذارى ج ٢ ص ١٨٧ .

اسمه إلى صمويل، ولا شك أن هذا التصرف من جانب ابن حفصون يدل على ارتباك سياسته واضطرابه، ويؤيد ذلك أنه خاطب الفونسو الثالث، وتودد لبني قسي في الثغر الأعلى، وخاطب ملوك الشيعة بإفريقية وكانوا أعداء للأمويين في الأندلس فوجهوا إليه رجلين بخلعات، وخاطبوه بالحض على التزام طاعتهم، وإقامة دعوتهم وأقاما عنده حتى حضرا كثيراً من حروبه، وصرفهما ووجه معهما هدية انتخبها إلى صاحبهما[٢].

وكان تحول ابن حفصون إلى النصرانية سبباً في نشاط الغزوات الأميرية ضده، فتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواتي، وفي ذلك يقول ابن قلزم الشاعر لابن أبي عبدة:

في كل صيف وفي كل مشتى غزاتان منك على كل حال
فتلك تبيد العدو، وهـذي تفيد الإمام بها بيت مال

وفي كل مرة كان ابن أبي عبدة القائد، يظفر بأحد كبار رجال ابن حفصون، في سنة ٢٨٧ هـ قتل ابن أبي عبدة طالب بن مولود المورورى، كما صلب إسحق، وكلاهما كان من أصحاب ابن حفصون. ويبدو أن هذه الغزوات المتتابعة أزعجت ابن حفصون، حتى أنه خاطب الأمير في السلم والصلح، فأجابه الأمير إليه سنة ٢٨٨ هـ (٩٠١ م) بعد أن قبض أربع رهائن أحدها ابن مستنة صاحب باغة. ولم يتح للهدنة أن تستمر أكثر من عام واحد إذ خرقها ابن حفصون ٢٨٩ هـ، فتصدى له أحمد بن محمد بن أبي عبدة، وهزمه هزيمة شنعاء، ونظراً لبدء ابن حفصون بخرق الهدنة فقد قتل عبد الله الرهائن باستثناء ابن مستنة. وعندئذ بدأت كفة الأمير ترجح، إذ تمكن من استرجاع جيان سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م). وفي سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) غزا أبان بن عبد الله إلى رية، في جيش كثيف قاده

---

(١) كان من بين أنصاره الذين تخلوا عنه يحيى بن أناتول الذى حول سلاحه إلى محاربة ابن حفصون ومنهم عوسجة بن الخليع الثائر فى تاكرنا الذى تبرأ من فعل ابن حفصون وبنى حصن بنيئ وأصبح فيه مواليا للأمير عبد الله، محارباً لابن حفصون، ورأى المسلمون فى محاربتهم لابن حفصون نوعاً من الجهاد (انظر ابن عذارى ص ٢١٠).

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٣٦.

ابن أبي عبده ، اجتاح به هذه الكورة فيما بين مالقة ولوشة ، وفي العام التالي انهزم ابن حفصون في وادي بلون Guadalbullon بالقرب من جيان هزيمة شنعاء ، وفقد كثيراً من رجاله ، ففر في شرذمة قليلة ممن بقي منهم حياً[1]. وفي العام التالي ٢٩٣ هـ (٩٠٦ م) استعاد الأمير حصن تش Tucci من كورة جيان، وأسر الثائر فهر بن أسد ، وعاد به إلى قرطبة حيث أمر عبد الله بصلبه عند القصابين من قرطبة في ربيع الآخر سنة ٢٩٣ هـ . وفي هذا العام نفسه تمكن القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة من الاستيلاء على حصن قنيط Cañete من تاكرنا ، واستنزل من كان فيه من بني الخليع .

وفي العام التالي كان خروج أبان بن عبد الله بالصائفة إلى الجزيرة فاحتلها في ٢٠ رجب سنة ٢٩٤ (٩٠٧ م)، ثم مضى إلى حاضرة رية فاحرق أرباضها، ثم تقدم إلى الساحل، ومن هناك مضى إلى حصون البيرة، ثم عاد إلى قرطبة وفي العام التالي خرج نفس الأمير أبان بالصائفة إلى رية ، وكان يقود الخيل أبو العباس أحمد ابن محمد فقصد ببشتر، وحاصرها وخرب نواحيها ، وواصل أبان غزواته ضد ابن حفصون ، فخرج بالصائفة في سنة ٢٩٦هـ (٩٠٩ م) إلى ببشتر ، فاستعرض جيوشه هناك ثم قصد إلى حصن لك Luque من حصون ابن مستنة، فنازله ثم افتتحه . وفي سنة ٢٩٧ هـ (٩١٠ م) قاد أحمد بن أبي عبدة جيوش الأمير عبد الله إلى بلدة Belda، فحاربها ، ثم اشتبك مع قوات ابن حفصون على نهر طلبيرة وهزمه، ثم مضى إلى حصون البيرة، ومنها سار إلى بجانة، ثم عرج على جيان، ونازل حصن المتلون ، فاجتمعت جيوش عمر بن حفصون وسعيد بن مستنة ، وسعيد بن هذيل، في جيش واحد ، وأغار على جيان، فاشتبك معه جيش ابن أبي عبدة، فانهزمت جيوش ابن حفصون وأتباعه ، وقتل من قواده عدد كبير نخص بالذكر منهم تسريل العجمي[2] وفي سنة ٢٩٨ هـ أغار عمر بن حفصون وابن مستنة على بسيط قبرة وقرى قرطبة فخرج إليهما عيسى بن أحمد بن أبي عبدة والتقى بجيوشهما على نهر ألية Guadiela فانهزم ابن حفصون وابن مستنة . وفي هذا العام نفسه استرجع الأمير حصن

---

(١) ابن عذارى ص ٢١٣ . Lévi-Provençal, op. cit. p. 379

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٢١٩ .

أشر Iznajar .

ونستخلص من كل ما سبق ذكره أن عمر بن حفصون — فى السنوات العشرة الأخيرة من عهد الأمير عبد الله — فقد كثيراً من قوته التى استنزفها فى حروبه السابقة ، ولم يعد يشن حرباً هجومية كما كان يفعل فيما مضى أيام الأمير محمد والمنذر والسنوات العشر الأولى من حكم الأمير عبد الله . ولا شك أن ابن حفصون كان يكيد لدولة بنى أمية فى قرطبة ، فقد كان على علاقة بالأغالبة والأدارسة ، ونجده يرحب بعبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية سنة ٢٩٧ هـ (٩١٠ م) ، ويسرع فى مخاطبته ومبايعته ، ولا نشك فى أنه هو الذى جمل الأندلس فى عينى المهدى ، وحرضه على افتتاحها ، ولكن اعتلاء عبد الرحمن بن محمد عرش الإمارة بقرطبة سنة ٣٠٠ هـ يقضى على آمال ابن حفصون ، وسنرى فى الصفحات التالية كيف تمكن الأمير الشاب عبد الرحمن بن محمد من اقتلاع جذور ابن حفصون من الأندلس ، وكيف نجح فى مواجهة الفاطميين .

* * *

ثالثاً : الفتنة بين العرب وبين المولدين فى الأندلس :

١ — فى كورة البيرة :

لم يمض عام واحد من حكم الأمير عبد الله حتّى اشتعلت فى كورة البيرة نيران فتنة حامية بين العرب وبين المولدين ، فقد ثار سوار بن حمدون القيسى بناحية البراجلة Parcella فى طليعة سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) ، وانضمت إليه بيوتات العرب من كورة إلبيرة وجيان ورية وغيرها ، وذلك « عندما تميزت الأحزاب بالعصبية وشبوا نار الفتنة . »[1] وقبل أن نعالج هذا الموضوع بشىء من التفصيل ينبغى أن نشير إلى حقيقة هامة هى أن مدينة قسطلة Castella حاضرة كورة البيرة ، التى عرفت فيما بعد باسم غرناطة ، كانت تزخر بعدد هائل من النصارى واليهود ، أما سكانها المسلمون فكانوا قلة بالنسبة لمجموع عدد سكان هذه المدينة ، حتّى أن المدينة سميت « بإغرناطة اليهود» ، وكانت تعلو النشز المجاور للضفة اليسرى من

---

(١) ابن حيان ص ٥٥ .

وادى حدرة قلعة قرمزية اللون عرفت بالحمراء . وقد كانت كورة البيرة من الكور التى تضم عدداً هائلا من النصارى المعاهدين والمولدين المسلمين كما كانت تضم عدداً من جند دمشق ، وكان النصارى والمولدين يؤلفون فى عهد الأمير عبد الله رابطة قوية متآلفة ، متحدة المصالح والأهداف ، إذ كان يغمرهم شعور واحد من الكراهية للسكان العرب فى البراجلة الذين كانوا يسيئون إليهم فى المعاملات ، واضطر العرب إلى تأليف جبهة قوية لمناهضة جبهة المعاهدين والمولدين ، وعرفت هذه الجبهة العربية « بالعصبية » وكان أول من تزعم هذه الحركة رجل عربى من البراجلة اسمه يحيى بن صقالة ، وكان يحيى المذكور شديد التعصب للعرب ضد المولدين والعجم ، فصب على هؤلاء كثيراً من ضروب التعسف والجور . ثم حدث أنه وادع أهل قسطلة حاضرة البيرة من المولدين والمسالمة ، وعقد بينه وبينهم أماناً موكداً ، فوثق بهم واطمأن إليهم ، فجعل يأتى حاضرتهم ، وهم يترصدون منه غرة أصابوها فى بعض قدماته إليهم ، فثاروا به بغتة وقتلوه واستولوا على منت شاقر Montejicar ، فخلفه على رئاسة العصبية العربية سوار بن حمدون القيسى الذى ذكرناه آنفاً ، « وكان فارساً شجاعاً محارباً ، فكثر أتباعه واشتدت شوكته واعتزت العرب به[1] » ، وكان سوار يهدف إلى إدراك ثأر العرب من المولدين والعجم واسترجاع حصن منت شاقر الذى اجتمع فيه من المولدين والنصارى أصحاب نابل والشميس نحواً من ستة آلاف رجل ، فهاجمهم سوار فى منت شاقر واسترد الحصن ، وقتل من كان فيه من أعدائه ، ثم أخذ يفتتح حصون المسالمة والنصارى حصناً حصناً ، ويقتل من يظفر فيها منهم « حتى استباح حصن المار منها واستأصل جميع أهله ، فقطع التوارث بينهم ، لانقطاع نسلهم ، وعظم عتوه واستكباره ، حتى ضج منه أهل قسطلة وهى حاضرة إلبيرة[2] » . فلاذوا بجعد بن الغافر من آل خالد وكان عاملا من قبل الأمير عبد الله ، فأغروه بسوار ، ودعوه إلى قتاله ، وكف أذاه ، عن طاعتهم للسلطان ، فأجابهم جعد ، وخرج على رأس جيش كثيف تضخم بمن انضم إليهم من المولدين والعجم ، واشتبك مع سوار ورجاله ، فهزمه

---

(١) ابن حيان ص ٥٥ .

(٢) ابن حيان ص ٥٥ .

سوار ، وأذرع فى المولدين السيف فقتل منهم ما يقرب من سبعة آلاف ، وأسر سوار جعدا ، وأساء معاملته ، ثم أطلقه من عقاله[1] ، وقيل أنه فادى بجعد بعض من كان فى ارتهانه من أولاد سوار ، وعرفت هذه الموقعة بوقيعة جعد[2] ، واشتد بأس سوار بعد هذا الانتصار الرائع ، وكاتبه العرب من حصن غرناطة حتى حدود قلعة رباح فصاروا إلبا على المولدين ، وازداد سوار عتواً على النصارى والمولدين بعد هذا الانتصار ، فخاطب هؤلاء الأمير ، ورجوه أن يعمل على كسر شوكته وكف أذاه ، فراسله الأمير حتى يستميله إليه ، فأظهر الامتثال إلى طاعة الأمير ، وعقد مع أهل قسطلة السلم ، وساد إلبيرة عهد من الهدوء ، ويبدو أن سوار كان قد اشترط على الأمير أن يخلع جعد بن عبد الغافر من ولاية إلبيرة ، نظير أن يدخل فى طاعة الأمير ، فقد عزل الأمير جعداً عن كورة البيرة إرضاء لسوار ، وولى مكانه شريكاً لسوار فى الكفاح هو عمر بن عبد الله بن خالد ، وهنا عبر سوار عن إخلاصه وولائه للأمير ، بالإسهام فى مقاتلة ابن حفصون زعيم المولدين الثائرين ، فخرج سوار إلى حصون ابن حفصون ، وأغار عليها سنة ٢٧٦ هـ ، فغضب أهل قسطلة لذلك ، وجمعوا جموعهم لقتاله ، وخرجوا إليه فى حصن غرناطة فيما يزيد على ٢٠ ألف مقاتل[3] ، فلقيهم سوار فى عدد قليل من عرب البيرة وغيرها ، فهزمهم هزيمة نكراء وقتل منهم نحو ١١٠٠٠ ألفاً ، وسميت هذه الوقعة الثانية بوقعة المدينة ، لأن القتال دار فى المأقط من غرناطة (سهل وادى شنيل) ، وأعمل سوار وأصحابه السيوف والرماح فيهم إلى باب البيرة[4]. ولما وجد المولدون أن سوار أذلهم وأثخن فيهم ، لاذوا بعمر بن حفصون وخلعوا طاعة الأمير عبد الله ، فقدم إليهم بجيش جرار ودخل قسطلة ، ثم خرج بمن معه من رجاله ومن انضم إليه من أهل قسطلة ، واشتبك مع سوار ، فانهزم ابن حفصون وأصيب بجراح كثيرة فاضطر إلى العودة إلى حصنه ببشتر ، بعد أن ترك قائده حفص بن المرة على البيرة ، وجهد حفص فى النيل من سوار ، وكمن له الكمائن مرة ، ثم استدرجه إلى قتاله وهو فى نفر قليل

(١) ابن عذارى ص ٢٠٢ .

(٢) ابن حيان ص ٥٦ .

(٣) يذكر ابن عذارى أنهم خرجوا فى ٢٣ ألفاً (البيان ص ٢٠٢) .

(٤) ابن حيان ص ٥٧ — Lévi-Provençal, op. cit. p. 347.

من رجاله سنة ٢٧٧ هـ . فخرجت على سوار جنود حفص التي كانت في الكمائن ، فقتل سوار وجيء بجثته إلى حاضرة البيرة « فلأتهم شماتة وفرحة ، وذكر أن الثكال من نسائهم قطعن لحمه مزقاً ، وأكله كثير منهن حنقاً عليه لما قد نالهن به المرة بعد المرة من الثكل في بعولتهن وأهليهن واليتم في أبنائهن[١] » .

تصدعت جبهة العرب بعد مقتل سوار ، وضعفت ضعفاً واضحاً ، واختار العرب بعد سوار أحد أصحابه وهو سعيد بن سليمان بن جودى ، وعلى الرغم مما قام به ابن جودى من جمع شمل العرب بعد تفرقهم عقب مقتل سوار ، فإنه لم يتمكن من سد الفراغ الذى تركه سوار ، ولم يبلغ مبلغه في حسن السياسة[٢] . وظل رئيساً للعصبية العربية في إلبيرة زهاء سبع سنوات ، ثم تمكن منه أعداؤه فقتل غيلة في ذى القعدة ٢٨٤هـ (ديسمبر سنة ٨٩٧ م) ، وقيل إنه قتل في دار عشيقة له يهودية[٣] غدراً . وقام بأمر العرب بعده محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمذانى ، فسار على سياسة سلفه ولكنه هزم في معركة مع ابن حفصون وأسره ابن حفصون ، ففداه العرب بمال كثير . ومنذ ذلك الحين ، تفرقت كلمة العرب ، وانحلت رابطتهم وتفرغوا للقتال فيما بينهم .

ب – في لبلة :

حدث في لبلة بغرب الأندلس مثل ما حدث في كورة إلبيرة . إذ ألف العرب جبهة واحدة ضد المولدين والمسالمة في لبلة ، وتزعم هذه الجبهة رجل من العرب اسمه عثمان ويعرف بابن عمرون ، فثار هو وأتباعه من أهل لبلة على عمرو بن سعيد القرشى والى لبلة ، فاستولوا على دار الإمارة ، وأخرجوه من المدينة ، وانضم إلى ابن عمرون جماعة من العرب فأغار بهم على قرى إشبيلية . فبعث إليه عبد الله ، عثمان بن عبد الغافر من آل خالد ليستميله إليه ، فنجح ابن عبد الغافر في مهمته ، وعاد ابن عمرون إلى إظهار ولائه للأمير ، ففرق أتباعه وأخلد إلى السكون ، ولكنه السكون

---

(١) ابن حيان ص ٦٠ .

(٢) ذكروا أنه أسر في إحدى المعارك بينه وبين ابن حفصون ، فأقام شهوراً ببشتر حتى افتداه العرب بمال جزيل .

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٠٤ .

الذى يسبق العاصفة ، إذ لم تلبث الفتنة أن اشتعلت من جديد ، واحتدمت نيران الفتنة فى كورة لبلة بين العرب والمولدين ، فمضى ابن عمرون إلى حصن قرقبة فاحتله وتحصن فيه ، وانضم إليه عثمان بن عبد الغافر ورجاله ، ثم خرج العرب بقيادة ابن عبد الغافر لملاقاة المولدين ، فاشتبك معهم ، وهزمهم ، وقتل منهم عدداً كبيراً. وامتدت نيران الفتنة إلى منت ميور ، إذ ثار فيها ابن خصيب ، من المولدين ، وثار ابن عفير بجبل العيون من حصون لبلة . ولم تزل نيرانها تمتد حتى وصلت إلى إشبيلية(١)

جـ — فى إشبيلية :

كانت إشبيلية العاصمة الثانية للأندلس ، إذ كانت تقع على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير قرب مصبه ، فى خليج عميق بحيث تصلح لأن تكون ميناء بحرياً فى جنوب إسبانيا ، ثم أنها كانت مدينة عامرة بالأسواق والمتاجر والمرافق العامة ، وكان العدد الأكبر من سكانها من النصارى والمولدين ، إذ كانت المركز الدينى المسيحى الأول فى إسبانيا منذ عصر الرومان ، أما بقية سكانها فمن العرب أمثال بنى موسى من بيت غافق ، وبنى الحجاج ، وبنى الجد ، وبنى خلدون . وكانت هذه القبائل تؤلف العصبية العربية فى إشبيلية . وقد كان للمعاملة الحسنة التى عومل بها العجم فى إشبيلية أثر طيب فى قيام روابط وثيقة بين المسلمين والمسيحيين تقوم على مصاهرة المسلمين للأسبان ، فكثر زواج العرب من الاسبانيات ، ونشأ من ذلك جيل من الإسبان المسلمين عرفوا بالمولدين ، وازداد عدد هؤلاء ، زيادة ملحوظة حتى أصبحوا يؤلفون أغلبية سكان إشبيلية (٢) واحتفظ كثير منهم بأسمائهم الأسبانية مثل بنى أنجلين وبنو شبرقة .

وكان يمثل العصبية العربية الأخوان عبد الله وإبراهيم بن حجاج ، والأخوان كريب وخالد بن عثمان بن خلدون ، وكان يمثل المولدين بنو انجلين وبنو شبرقة وكان يمثل فريق الحياديين نفر من العرب والبربر ممن آثروا الإبقاء على ولائهم

(١) ابن حيان ص ٦٦ — ٦٧ .

(٢) ذكر ابن حيان أن مولدى إشبيلية كانوا أغلظ أهلها شوكة وأوسعهم نعمة وأعزهم جانباً ، وأحضرهم عدة ، يعتدون فى اثنى عشر رئيساً لكل رئيس منهم عقدة يعقدها وعدة يعتد بها » انظر ابن حيان ص ٧٥ .

للأمير ، ولقد روى محمد بن عبد الله بن الأشعث القرشى فى كتابه « أخبار إشبيلية »(١) قصة الفتنة فى شىء من الإسهاب ، ونحن نعتمد على روايته فى تحقيقنا لهذا الموضوع .

كان كريب بن عثمان بن خلدون هو السبب فى اشتعال نيران هذه الفتنة ، إذ كان امرىء سوء بطبيعته ، وكان يتحرق شوقاً لينال نصيبه من الحركات الانفصالية التى اشتهر بها هذا العصر . فتحالف من سليمان بن محمد بن عبد الملك الثائر بكورة شذونة ، وعثمان بن عمرون الثائر بكورة لبلة وكلاهما من العرب اليمنية ، وجنيد بن وهب القرمونى من بربر البرانس ، وعندئذ كون الموالى والمولدون من أهل إشبيلية حلفا مع المضريين من العرب ، والبتر من البربر من أهل كورة مورور وكان فريق الحياد يتألف من عرب قرشيين أمثال عبد الله بن الأشعث ، ومن موالى الأمويين أمثال عثمان بن العمر بن أبى عبدة ، ووهب بن بسيل ، ومن العرب عبد الله ابن ملحج الزبيرى ، وإبراهيم بن عمر عبد قيس البصرى . لم يستطع كريب بن خلدون أن يحقق أهدافه أمام تكتل المولدين والمحايدين ، فخرج من إشبيلية واستوطن قرية بشرف إشبيلية تعرف بقرية البلاط ، وهناك حرض بربر ماردة ومدلين على مهاجمة إشبيلية لكثرة خيراتها ، فقدم البربر بجموعهم ، وأغاروا على قرية طلياطة ، فقتلوا كل من وجدوه فيها واستباحوا أموالهم وسبوا ذراريهم ، فخرج موسى ابن أبى العاص بجموعه وراءهم ، فانهزم وتحصن بموضع من إقليم البر ، بينما انطلق البربر يشنون الغارات على جميع جهات الكورة . وبلغ الأمير ذلك فعزل موسى بن العاص وولى مكانه حسين بن محمد المورى ، وفى أيامه ظهر فى الطريق الموصل ، ما بين قرطبة وإشبيلية قاطع للطريق اسمه الطماشكة ، بربرى الأصل ، فأقام محمد بن غالب من أهل استجة من المولدين ، حصناً بقرية شنت طرش بموافقة الأمير عبد الله ، وأقام هو وبعض أتباعه من البربر البتر ، والموالى ، والمولدين ، يحرسون الطريق ، حتى سما شأنه وحسده بنو خلدون وبنو حجاج أعيان إشبيلية ، فعمدوا إلى مهاجمته ليلا حتى يقضوا عليه ، وتكون لهم الكلمة فى إشبيلية ، فاستعد ابن غالب لقدومهم إذ بلغه ذلك مقدماً ، فصدمهم صدمة عنيفة وهزمهم وقتل رجلا من بنى حجاج ،

---

(١) انظر ابن حيان : المقتبس ص ٦٧ — ٨٥ .

فحملوه إلى حسين بن محمد والى إشبيلية وزعموا أنه اغتيل فى طريق قرطبة واستدعوا عليه الشهادات المزورة ، فأرسلهم إلى الأمير بقرطبة ، حيث طالبوا الأمير بانصافهم من قتلة ابن عمهم ، عندئذ ذهب وفد من المولدين بإشبيلية برئاسة محمد بن عمر بن خطاب بن أنجلين لتأييد ابن غالب ومدحوا شهامته وكذبوا دعوى بنى حجاج . وهنا تضاربت الأقوال ، والتبس على الأمير الحكم فى قضيتهم ، ورأى إرجاءها إلى أن تقوى الأدلة ، ثم أخرج ولده محمد وأمره أن يجمع الفريقين ويسمع أقوال كل فريق وأدلته ثم يعرضها على أهل العلم ، فيعمل بما يرسمونه له من إنصاف المظلوم. ثم عزل حسين بن محمد عن كورة إشبيلية ، وأقام مكانه محمد بن خالد الخالدى المعروف بالمعوج ، ثم عزل هذا الأخير بعد فترة قصيرة وأقام مكانه ابن عمه أمية ابن عبد الغافر الخالدى ، فاستقر مع «الولد محمد» أى ابن الأمير عبد الله فى قصر إشبيلية ، واجتمع محمد بن عبد الله بالفريقين المتخاصمين فوجد تعارضاً فى الأقوال وفى الشهادات ، وزاد تحزب الناس ، فاضطر محمد إلى إرجاء النظر فى الحكم ، وأعاد محمد بن غالب إلى حصنه ، فغضب العرب لذلك ، وازدادت قلوبهم حقداً وتعصباً على المولدين ، وخرجوا من إشبيلية ، فذهب بنو حجاج إلى باديتهم بالسند المنسوب إليهم على بعد ١٥ ميلا من الحاضرة فى طريق لبلة ، وخرج كريب بن خلدون إلى قريته بالشرف ، وتبعه أهله وكثير من عرب اليمن الحضارمة ، وظاهرهم سليمان بن محمد بن عبد الملك الشذونى ، وجنيد بن وهب القرمونى ، وأجمعوا على شق عصا الطاعة على الأمير عبد الله ، ودبروا الفتك بعامل قرمونة من قبل الأمير عبد الله والاستيلاء على المدينة ، فأرسل كريب بن خلدون إلى سليمان بن محمد الشذونى فى حصنه المعروف بنبريشة Lebrija فجمع له جماعة من المفسدين تمكن بفضلهم من الإغارة على جزيرة المنذر بن عبد الرحمن المعروفة بالأسلية ، وكان فيها ١٠٠ رمكة ، و ٢٠٠ بقرة ، فقتلوا الوكيل القائم بالجزيرة واستولوا على ما كان فى الجزيرة ، ثم استولوا على حصن قورية Coria بآخر الشرف ، على بعد ١٠ أميال من إشبيلية ، وبينما كان كريب مشغولا بشن الغارات على قورية ، تمكن عبد الله بن حجاج من الاستيلاء على قرمونة . وتوافت هذه الأخبار السيئة إلى الأمير فأشار عليه وزراؤه بقتل محمد بن غالب المولد إرضاء للعرب ، فينصرفوا

بعد ذلك إلى الطاعة ، فكتب الأمير بذلك إلى ولده محمد ، فاقبل بذلك الأمر إلى جعد بن عبد الغافر الخالدى أخى أمية والى إشبيلية ، وأمره بالذهاب إلى قرمونة بالجيش ، ثم يقبض على محمد بن غالب ويقتله إرضاء للعرب ، فإذا لم يعودوا إلى الدخول فى طاعة الأمير يهاجمهم . ففعل جعد ، وقبض على محمد بن غالب بعد أن احتال على اجتذابه إلى أبواب قرمونة . ثم ضرب عنقه ، فسر عبد الله بن حجاج لذلك ، وخرج عن قرمونة وأسلمها إلى القائد جعد بن عبد الغافر ، فولى عليها بعض أتباعه ، ومضى جعد إلى حصن محمد بن غالب المعروف باسم Siete Torres فهدمه . وأثار مقتل ابن غالب غضب المولدين بإشبيلية ، فاجتمع حزب الموالى والمولدين المتعصبين لابن غالب وأقبلوا على « الولد محمد » ، فشكوا إليه ما خامر نفوسهم من الشك وطلبوا منه أن يسلم إليهم مفاتيح أبواب المدينة حتى يشعروا بالأمان ، فلم يسع محمد إلا أن يجيبهم إلى طلبهم ، إذ لم يكن لديه من الرجال ما يفى بمدافعتهم ، فلما ظفر المولدون بالمفاتيح عمدوا إلى الوثوب بعاملهم أمية ابن عبد الغافر حتى يأخذوا ثأرهم لابن غالب الذى جره جعد أخو أمية إلى حتفه ، فاستنجدوا بأحد الثوار فى كورة مورور ويدعى ابن مولود ، كانوا متحالفين معه ، فعاقدوه على حرب السلطان ، فأرسل إليهم جيشاً من فرسان العرب المضريين ، ومن حلفائهم بتر البربر ، فلما وصل هذا الجيش إلى إشبيلية ، قويت عزائمهم ، فثاروا على أمية وأحاطوا بقصر الإمارة فى ١١ جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ ، حيث فر إليه ليحتمى فيه بجانب محمد بن عبد الله ، فأرسل محمد يطلب محمد بن خطاب بن إنجلين زعيم المولدين فى إشبيلية ليتفاهم معه ويطفىء الثائرة ، فدخل إليه فى رفقة جماعة من أعلامهم مثل ابن شبرقة وابن الجريج بعد أن اتفق مع أصحابه المحاصرين للقصر على أنه إذا أذن الظهر ولم يخرجوا من القصر ، فعليهم الهجوم على القصر . فدخلوا إلى لقاء « الولد محمد » ، فأخذ يتلاطف معهم عسى أن يرجعوا عن عزمهم ، ومضى الوقت المحدد للهجوم ، فاقتحم الثوار القصر ودخلوا دار دواب الولد محمد ، فانتهبوا خيله ومراكبه ، وهنا قبض أمية بن عبد الغافر على ابن خطاب ورفاقه ؛ ثم ضبط بنفسه باب الفصيل الذى يؤدى إلى مجلس محمد بن عبد الله ، وأمر غلمانه بالصعود إلى سقف الفصيل ، ووقف أمية بن عبد الغافر

يصد المهاجمين لباب الفصيل .

واستمر حصار المولدين للقصر إلى اليوم التالى ، فأخرج الأمويون أحد رجالهم وهو محمد بن زيد بن عبد الله إلى جعد بن عبد الغافر لاستقدامه هو وعسكره من قرمونة ، فركب جعد من فوره ودخل إشبيلية من جهة الجنوب من موضع المصلى ، وأخذ يشق لنفسه طريقاً بين الثوار . قاتلا من اعترضه حتى وصل إلى القصر ودخله ، واشتد حماس الحراس فتدفقوا على الثوار وكسروا حدهم . وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، فأمر الولد محمد بنهب دور الثوار بإشبيلية ، وأمر بضرب أعناق ابن أنجلين ورفاقه ، وصادر أموالهم ، ثم أمر برفع النهب . وكتب إلى الأمير عبد الله بكل هذه الوقائع ، فأمره بالعودة إلى قرطبة ، وعاد أمية بن عبد الغافر بحكم إشبيلية ، ثم استقدم إلى المدينة ساداتها العرب وقرب منازلهم ، فبقى كريب بن خلدون وعبد الله ابن حجاج فى إشبيلية بعض الوقت ثم دفعهم الحنين إلى الثورة إلى معاودة الثورة على الأمير ، فعاد عبد الله بن حجاج ، إلى قرمونة فاستولى عليها ، واستولى كريب على على حصن قورية . ثم وقع جعد بن عبد الغافر فى كمين أعده له الطمشكة ، فقتل هو وأخواه ، فحزن أمية بن عبد الغافر لذلك ، وثارت عصبيته فأغار عرب إشبيلية وقرمونة على المولدين من أهل إشبيلية ، فحملوا على المولدين والأعاجم بإشبيلية وما جاورها . وحصدوهم حصداً ، ثم لجأ أمية إلى التضريب بين عبد الله ابن حجاج وبين ابن وهب القرمونى صاحبه بقرمونة . فوثب ابن وهب على عبد الله فقتله واستولى على ماله ، وأرسل برأسه إلى أمية بن عبد الغافر ، فخالفه إبراهيم بن حجاج ، وتظاهر أمية بأنه برىء من دم عبد الله بن حجاج ، فنافقه بنو حجاج وقبلوا عذره ، وهم يضمرون قتله ، ثم اتجه أمية بعد ذلك إلى الوقيعة بين إبراهيم بن حجاج وبين كريب بن خلدون ، ولكن إبراهيم بن حجاج كشف خطته ، وعمد إلى الإيقاع به ، فأقام قصبة بقصره ، فاحتج بنو خلدون وبنو حجاج على ذلك ، وهاجموه فوجدوه متأهباً لذلك ، فلاذوا بطاعته ، فوافق نظير أن يأخذ من وجوههم رهائن يحفظها عنده ، فلما أعطوه الرهائن طابت نفسه فواصل عمله فى التحصين . فانتهزوا فرصة وجوده وحده بالقصر ذات يوم وهاجموا القصر ، فاحتمى فى رهائن بنى خلدون وبنى حجاج . وهدد بقتلهم ، فتوسلوا إليه أن يبقى عليهم ، وأخبروه بعزمهم على الاستقلال بإشبيلية . وأقسموا له أنهم سيتركونه يذهب

منهم آمناً، فأجابهم إلى ذلك لعدم قدرته على المدافعة ، وأطلق إليهم رهائنهم ، فنكثوا إيمانهم، وغدروا به ، وقتلوه ، وبعثوا إلى الأمير يبررون مقتل أمية بسوء سياسته . واستدعوا عاملا من قبل الأمير فأرسل لهم أحد أقربائه اتخذه كريب وإبراهيم ابن حجاج ألعوبة ، وأجريا عليه الأرزاق . ثم اعتقلاه فى القصر بعد أن قتلا ولده المطرف ، فاضطر عبد الله إلى إرسال ابنه المطرف لاستنزال أهل إشبيلية فانهزم بنو حجاج وبنو خلدون واعتقل المطرف إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون وابن عبد الملك الشذونى ، وأوثقهم فى الحديد وزج بهم فى سجن قرطبة . فلما وصلت جباية إشبيلية ، أطلق سراحهم ، بعد أن أخذ من ابن حجاج ولده رهينة فى قرطبة . عاد إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون إلى إشبيلية، فاقتسما المدينة فيما بينهما، وأخذ الأمير عبد الله يوقع بينهما بالمكاتبات ، فوقع أحد كتبه فى يد إبراهيم بن خلدون ، فاحتال إبراهيم فى استقدام كريب بن خلدون، وخالد، فى قصره، فلما وصلا القصر أخرج لهما كتابهما إلى الأمير وبالغ فى عتابهما ، واستقل بملك إشبيلية سنة ٢٨٦ هـ .

* * *

ونختم هذا الفصل بذكر أعمال الأمير عبد الله المعمارية والعمرانية ، وأهمها بناء مدينة بجانة ، وكان ينزل موضعها بنو سراج القضاعيون الذين وكل إليهم بنو أمية حراسة هذا الإقليم وما يليه من البحر، فسمى المكان بأرش اليمن أى عطيتهم [١] ، ثم استقر ببجانة سنة ٢٧١ هـ (٨٨٣ م) جماعة من البحريين ، وذلك فى أواخر أيام الأمير محمد، ونجح البحريون فى التغلب على أصحاب أرش اليمن، وأصبح أمرها فى أيديهم، فبنوا سور بجانة، وامتثلوا فى ذلك تخطيط مدينة قرطبة، وجعلوا على أحد أبواب بجانة تمثالا للعذراء يشبه التمثال المقام على باب قرطبة ، فأمها الناس من كل مكان ، وأقبلوا يسكنونها فراراً من الفتنة التى اجتاحت الأندلس فى ذلك الوقت ، « فكانت أمناً لمن قصدها ، وحرماً لمن لجأ إليها ، وكانت الميرة تجلب إليها من العدوة ، وضروب المرافق والتجارات [٢] » وكان ذلك سبباً من

---

(١) الحميرى ص ٣٧ .
(٢) الحميرى ص ٣٨ .

الأسباب التي دعت إلى استيطانها .

وفي سنة ٢٧٥ هـ كتب البحريون الذين اختطوا مدينة بجانة إلى الأمير عبد الله في بداية عهده يسألونه إقرار واليهم عليهم ، وإعفاءهم من غيره ، وإباحتهم البنيان حول قصبة بجانة ، والتوسع في عمرانها ومرافقها لتكاثر الناس في المدينة ، فأجابهم إلى ذلك ، فتوسعوا في الاختطاط بأرض بجانة في بداية عهده وأقاموا حولها عشرين حصناً منها وادى بجانة والحامة Alhama ، والحابية Alhabia ، وبني طارق Bentarique في الغرب ، وحصن ناشر Nijar في الشرق ، وحصن برشانة Purchana في الشمال بجوار جبال الرخام وحصن عاليه[1] .

وعبد الله هو الذى أمر ببناء الساباط بين القصر والجامع بقرطبة رغبة في شهود صلاة الجمع ، فكان يرتقي هذا الساباط من قصره ، فيصل إلى المسجد ويلتزم الصلاة مع الجماعة إلى جانب المنبر[2] .

---

(١) ابن حيان ص ٥٣ .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٣١ .

الفصل السادس

عصر الخلافة بقرطبة

(١) عبد الرحمن الناصر وتوحيد الأندلس .

(٢) الأخطار الخارجية فى عهد الناصر.

(٣) مواجهة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر للممالك النصرانية فى شمال إسبانيا .

(٤) قرطبة فى عصر الخلافة .

الفصل السادس

عصر الخلافة بقرطبة

١

عبد الرحمن الناصر وتوحيد الأندلس

لما مات الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) ظفر حفيده عبد الرحمن بن محمد بالإمارة دون أعمامه وأعمام أبيه ، وكانوا أحق منه بالإمارة شرعاً ، ولكنهم تخلوا له عنها زاهدين فيها لما يحيط بها من أخطار ، وكان اعتلاء الإمارة بقرطبة يعنى التعرض لهذه المكاره والأخطار ، وكان الظن أن مصيرها يؤول حتماً إلى الزوال ، فزهد فيها من هم أحق بها من البيت الأموى ، وتعلقت آمال الناس بهذا الشاب اليتيم — عبد الرحمن بن محمد[1] — الذى يتوقد شباباً وعزماً ، ويتحرق شوقاً لتوطيد دولة الإسلام فى الأندلس . وهكذا تهيأت لهذا الفتى الإمارة من حيث لا يدرى ، وأصبح أمير قرطبة بلا منازع ، فى الوقت الذى كانت الأندلس فيه

---

(١) كان أبوه محمد بن عبد الله محبوباً لدى أبيه ، فرشحه لولاية عهده باعتباره أكبر بنيه سناً ، وآثره على أخيه المطرف ، فعظم الأمر على المطرف ، وبدأ الخلاف يدب بين الأخوين لهذا السبب ، وأخذ الواحد منهما يقابل الآخر بالصد والإعراض ، وحدث أن اعتدى محمد على أحد فرسان المطرف ، فأغرى المطرف أباه به فزج بمحمد فى السجن وأوثقه ، واتصل أثناء وجوده بالسجن ببعض الأشرار والمفسدين ، فأغروه بالذهاب إلى ابن حفصون ، فأقام لديه . ثم خاطبه الأمير محمد بالأمان ، فاستجاب إليه ، وعاد إلى قرطبة ، ولم يزل المطرف يغرى عبد الله ويضمر له السوء والحقد ويزعم أنه على اتصال بابن حفصون وأنه يعمل على الثورة على أبيه ، حتى أقتنع عبد الله بهذه الوشايات وأمر بمحمد فسجن فى دار البقيقة ، ريثما يتحقق من الأمر . فلما اتضحت له براءته ، عزم على إطلاق سراحه ، فدخل عليه أخوه المطرف وأجهز عليه ، وتركه متخبطاً فى دمه ، ملق على يده وفه ، وكان ذلك سنة ٢٧٧ هـ ، وهو نفس العام الذى ولد فيه عبد الرحمن بن محمد ، إذ ولد قبل قتل أبيه بواحد وعشرين يوماً وقد نال المطرف جزاء جريمته إذ قتله أبوه عبد الله ، واحتضن عبد الرحمن بن محمد ، وخصه بمحبته ورعايته ، ويبدو أن الأمير عبد الله كان يستشعر الندم لتسببه فى قتل ابنه محمد ، فأراد أن يكفر عن إثمه ، فكرس حياته لتنشئة حفيده اليتيم ، فكان يحظيه دون بنيه ، ويومىء إليه ويرشحه لأمره .

جمرة تحتدم ونارا تضطرم .

وجد الأمير الشاب أرض الأندلس مضطربة بالثائرين ، مضطرمة بنيران المتغلبين فعمد قبل كل شيء إلى إطفاء هذه النيران واستنزال أهل العصيان ، وكانت سياسته ترمى أولا إلى تركيز السلطة فى يده ، وتوحيد الأندلس إلى مثل ما كانت عليه فى عهد أمراء بنى أمية الأقوياء . وكان لزاماً عليه والحال كذلك أن يصطنع سياسة تقوم على الترهيب والترغيب ، أو على الشدة واللين ، وشرع فى تنفيذ خطته فى عزم وإصرار ، فأنفذ الكتب إلى العمال فى جميع كور الأندلس بطلب الطاعة والاستسلام ، فكان أول رد ورد عليه بذلك هو رد سعيد بن السليم عامل حصن مارتس من كورة جيان . ثم أرسل الأمير عبد الرحمن أمناءه إلى البلاد لأخذ البيعة ، فبعث إلى الثغرين الأدنى والأقصى الفقيه أبا مروان عبيد الله بن يحيى ، ومحمد بن عبد الله بن نصر ، وإلى كور الغرب حفص بن عبد الرحمن وأحمد ابن عبد الملك ، وكان أول من بايع الأمير من أصحاب الأطراف محمد بن عبدالرحمن التجيبى أمير سرقسطة ، وتتابعت البيعة والاستسلام لعبد الرحمن من جميع مدن الأندلس ، واستبشر الناس بهذا الأمير الذى دخلت محبته فى نفوسهم ، لما أبداه من ضروب التسامح للخارجين على السلطة المركزية بعد أن استسلموا له . فلما مضى شهر من توليه الإمارة أعد حملة كبيرة للقضاء على بقية الثوار ، وتسمى هذه الصائفة بغزوة المنتلون[1] افتتح فيها سبعين حصناً من أمهات الحصون سوى ما فتح بفتحها من بناتها وذواتها وقصابها ومراتبها مما قارب الثلاثمائة بين حصن وبرج ، فلقد كان فى يد عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية منها ما يجاوز المائة ، وهذا شيء لم يسمع بمثله لملك من الملوك فى سالف الأزمنة ، وقد ذكر أحمد بن محمد بن عبد ربه ذلك فى شعر له أو قاربه حيث يقول :

فى غزوة ماتتا حصن ظفرت بها   فى كل حصن غزاة للعناجيج
ما كاد منك سليمان ليدركه   والمبتنى سد يا جوج وما جوج

وقال أيضاً فى شعر آخر :

فى نصف شهر تركت الأرض ساكنة   من بعد ما كان منها الطير قد ماجا

(١) Lévi-Provençal & E. Garcia Gômez, Una Crônica Anônima de Abd al-Rahman III al-Nasir, p. 38-39.

لما رأوا حومة الشاهين فوقهم   كانوا رهاء حواليها ودراجا[١]

أما بنو حجاج بإشبيلية فقد استطاع الأمير عبد الرحمن أن يجتذب منهم إليه أحمد بن محمد بن مسلمة بن حجاج الذى ولى إشبيلية بعد وفاة عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج سنة ٣٠١ هـ ، فسلم إليه مدينة إشبيلية سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) ثم أذعن له محمد بن إبراهيم بن حجاج صاحب قرمونة[٢]، وفى سقوط إشبيلية يقول صاحب المدونة المجهولة عن عبد الرحمن الناصر : « وفى سنة إحدى وثلاثمائة افتتحت مدينة إشبيلية وكان السبب فى فتحها مهلك عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج المنتزى بها فى صدر المحرم منها واجتماع أهلها بعده على تقديم أحمد بن محمد بن مسلمة ومخالفة محمد بن إبراهيم بن حجاج ومن معه بقرمونة لابن مسلمة ولياذه بالسلطان عند ما انتشر سلطان والده ، فوهن بذلك أمر ابن مسلمة[٣]» .

وذكر الرازى أن الناصر افتتح بإشبيلية سنة ٣٠١ هـ . « فبعث الناصر عسكراً إلى إشبيلية فجرت بينهم حروب عظيمة ، ثم بعث الأمير عبد الرحمن الناصر إلى محمد بن إبراهيم بن حجاج وأمره بالتضييق على أهل إشبيلية وعقد له على ذلك وأشرك معه فيه قاسم بن الوليد صاحب شرطته فى ذلك الوقت ، وكان بينه وبين محمد صداقة ، فخرجا معاً من قرطبة إلى قرمونة ، ومنها دنوا إلى إشبيلية ، فتردد محمد وقاسم والجموع على إشبيلية وملكا أقاليم الشرف وأقاليم طالقة وإقليم ألبة وغيرها ، وأخذ يمخنق ابن مسلمة صاحب إشبيلية . فاستجاش ابن مسلمة برأس النفاق اللعين ابن حفصون ، فأتاه بنفسه وخرج معه ، من مدينة إشبيلية وجاز النهر ، وكان الجيش بحصن قبرة ، وفيه محمد من إبراهيم بن حجاج وقاسم بن وليد ، فخرجا إليهما بمن معهما من حشم السلطات ، فانهزم ابن حفصون وفر على وجهه حتى لحق بقلعته ، فتأمل ابن مسلمة منتشبه مع ابن عمه محمد بن حجاج ودخوله معه فى وراثة أبيه وأنه لاطاقة له به ، فأخذ فى إصلاح ما بينه وبين السلطان الناصر ، فراسله

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨ ، ٣٩ - ابن عذارى ج ٢ ص ١٩٦ .

(٢) ابن حيان : المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ، ص ٨٤ - ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٨ - ١٩٩ ، الحميرى ص ٢٠ .

(٣) Levi-Provençal. Crónica, Ibid. p. 41.

بأن يعطيه إشبيلية، فوصله الحاجب بدر، وتملك السلطان إشبيلية دون إراقة دم ولا قتال[١]» .

واستعمل عليها الناصر سعيد بن المنذر المعروف بابن السليم، فهدم سور إشبيلية حتى لا يتمكن الثوار من التحصن بداخلها ، وبنى القصر القديم المعروف بدار الإمارة وحصنه بسور من الحجر[٢] .

وبعد أن استنزل عبد الرحمن بنى حجاج بإشبيلية ، رأى أن يقضى أول كل شىء على رأس الأفعى وهو عمر بن حفصون وولده جعفر . وكان عمر بن حفصون هذا قد تحصن بمدينة ببشتر من كورة رية وأطاعته أكبر مدن وسط الأندلس الواقعة بين رية والجزيرة الخضراء من جهة، وإلبيرة وأحواز قرطبة من جهة أخرى، وقد حاول الأمير المنذر بن محمد أن يقضى على حركته ولكنه مات وهو يحاصر ببشتر ، فتفرق جنده عند موته، ولم يستطع الأمير عبد الله أن يعيد جمعهم، واستطال عمر بن حفصون فى المحلة وانتهبها بالجملة . وعظم أمر ابن حفصون فى عهد الأمير عبد الله، وقويت شوكته وجرت بينه وبين الأمير مناوشات لم تؤد إلى نتيجة . ثم استفحل أمره واشتد خطره ، فأغار على موروروشذونة وقرمونة والبيرة، واتسعت رقعة مملكته ، ثم ارتد عن الإسلام واعتنق النصرانية حتى يجتذب إليه الطوائف المستعربة فى إسبانيا الإسلامية، فلما عاين المسلمون ما فعله ابن حفصون استقبحوا منه ذلك وانفضوا من حوله[٣]، وكان ذلك بداية نهايته وضعف أمره ، وتظاهر بالخضوع للأمير عبد الرحمن بن محمد ، وقيل أنه اشترك معه فى غزواته ضد إسبانيا المسيحية بعد أن صفح عنه الأمير . وتوفى عمر بن حفصون فى عام ٣٠٣ هـ (٩١٥ م)، وزعموا أنه مات على الدين المسيحى ، إذ أن قبره نبش عند ببشتر سنة ٣١٦ (٩٢٨ م) فوجد أنه كان يتجه بوجهه نحو الشرق وذراعه موضوعة على صدره

(١) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٢) الحميرى ص ٢٠

(٣) يقول ابن عذارى فى ذلك : « وفى سنة ٢٨٦ أظهر ابن حفصون النصرانية وكان قبل ذلك يسرها، وانعقد مع أهل الشرك وناظمهم، ونفر عن أهل الإسلام ونابذهم، فتبرأ منه خلق كثير، ونابذه عوسجة بن الخليع، وبنى حصن بنيط، وصار فيه موالياً للأمير عبد الله، محارباً لابن حفصون واتصلت عليه المغازى من ذلك الوقت ورأى جميع المسلمين أن حربه جهاد ، فتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواتى » ج ٢ ص ٢١٠

على الطريقة المسيحية [١]. وخلفه ابنه جعفر الذى ذهب مذهب أبيه فى العناد والفساد ، فسير إليه عبد الرحمن جيشاً سنة ٣٠٦ هـ ، واستولى فى طريقه إليها على حصن دوس أمانتش (Dos Amantes ?) وحاصر حصن بلدة من حصون رية فى ذى الحجة ، ودخل المدينة . وفى عام ٣٠٧ هـ (٩١٩ م افتتح عبد الرحمن حصن طرش خشين من أعمال ابن حفصون، واستأمن صاحبه عبد الرحمن بن عمر ابن حفصون إلى الأمير ، فأمنه وصحبه معه إلى قرطبة وأوسع عليه . وفى جمادى الثانى سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) قتل جعفر بن عمر بن حفصون داخل حصن ببشتر غيلة فدخله أخوه سليمان، وتظاهر سليمان هذا بطاعة الأمير ، فسالمه الأمير فلما قوى أمر سليمان، نكث عهده، وشن الغارات على قرطبة فدخل مدينة المنكب عنوة وقتل جميع سكانها ، وما زال كذلك فى نكثه وغدره حتى هزمته جيوش عبد الرحمن فى أحواز شنت بنجنت، فقتل سنة ٣١٤ هـ (٩٢٦ م) ، ثم خلفه أخوه حفص بقلعة ببشتر وخرج إليه الأمير عبد الرحمن سنة ٣١٥ هـ (٩٢٧ م) فاستولى على حصن ايلخش وأمر بهدمه، ثم وصل إلى قلعة ببشتر ، فحاصرها، وأقام بجوارها حصناً سماه حصن طلجيرة، حتى يئس حفص بن عمر ، فأذعن إلى السلم، وأسلم الحصن ، وهكذا قضى الأمير عبد الرحمن على بنى حفصون أخطر الخارجين عليه . وقد تبقت بعض آثار حصن ببشتر ، منها الكنيسة التى أقامها ابن حفصون بين عامى ٨٩٨ ، ٩١٧ م بعد اعتناقه النصرانية ، ونلاحظ فى آثارها وجود العقد المتجاوز الذى ظهر وساد استعماله فى المسجد الجامع بقرطبة وعمائر الخلافة الأموية فى مدينة الزهراء وطليطلة [٣]، أما الحصن نفسه فلم يتبق منه شىء يذكر [٤] وقد أجريت فيه حفائر أثرية أسفرت عن كشف كميات كبيرة من الخزف الذى يشبه فى زخارفه وطينته

---

(١) Lévi-Provençal. Crônica anônima, p. 76.
ابن عذارى، البيان ج ٢ ص ٢٩٤ .
(٢) ابن عذارى، البيان ص ٢٦٠ ، Crônica anônima, p. 58
(٣) Camps y Cazorla, Arquitectura califal y Mozarabe pp. 24-25.
أثر الفن الخلافى بقرطبة فى الفن المسيحى بإسبانيا وفرنسا للدكتور السيد عبد العزيز سالم المجلة العدد ١٤ ص ٧٩ .
(٤) Carlos Sarthou Carreres, Castillos de Espana, Madrid, 1952, p. 92.

خزف مدينة الزهراء[١]. وفى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) توجه الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى مدينة بطليوس لمحاربة عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الجليقى الثائر بها، فحاصرتها جيوشه وضيقت عليها الحصار، وافتتحها سنة ٣١٨ هـ، كما حارب عبد الرحمن بن سعيد الثائر بمدينة باجة ، ودخلها بعد أن هدم أبراجها ، وقتل من عصاه من أهلها ، وافتتح حصن اكشونبة وغيره من الحصون[٢].

وهكذا استطاع عبد الرحمن الناصر أن يقضى على أعداء الوحدة فى داخل إسبانيا ، فاجتمع شمل المسلمين تحت لوائه ، وأصبحوا يؤلفون قوة كبرى كان لها أكبر الأثر فى بث الرعب والهلع فى نفوس نصارى إسبانيا المسيحية .

---

(١) H. Terrasse, l'Art Hispano. Mauresque p. 178.

(٢) ابن عذارى ص ٣٠١ – ٣٠٢ .

٢

الأخطار الخارجية فى عهد عبد الرحمن الناصر

تعرضت بلاد الأندلس فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لأخطار كثيرة كادت تطيح بملك المسلمين ، من هذه الأخطار التى هددت الأندلس ، خطر النورمنديين ، وقد ذكرنا فيما سبق أخبار غزواتهم على سواحل الأندلس فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، ورأينا كيف نبهت غاراتهم أمير قرطبة إلى ضرورة اصطناع سياسة بحرية ، فأنشأ عبد الرحمن دار الصناعة بإشبيلية ، واستعد برجال البحر من سواحل الأندلس ، فألحقهم ووسع عليهم ، وتأهب لاستقبال النورمنديين بالآلات والنفط ، فلما أعاد النورمنديون غارتهم على إشبيلية عام ٢٤٥ هـ فى أيام الأمير محمد تلقاهم أسطول الأندلس، وهزمهم، وأحرق مراكبهم[١]. وكانت دار الصناعة بإشبيلية نواة لدور الصناعة فى طركونة والمرية والجزيرة ومالقة وميورقة ولقنت وشلب . والواقع أن عبد الرحمن الناصر هو الذى اهتم اهتماماً جدياً باصطناع هذه السياسة البحرية ، وعمل على إنشاء أسطول قوى يدفع عن الأندلس الأخطار الناشئة من غارات المجوس والغزو الفاطمى على السواء ، ويذكر ابن خلدون أن أسطول الأندلس «انتهى فى أيامه إلى مائتى مركب أو نحوها[٢]»، وأمر عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٢ هـ (٩١٤ م) ، بانفاذ هذا الأسطول إلى مضيق جبل طارق ليمنع عن ابن حفصون وصول الإمدادات من ساحل إفريقيا الشمالية ، إذ كان قد تحالف مع الفاطميين[٣]، وكان لأسطوله الفضل الأكبر فى استيلائه على مليلة سنة ٣١٤ هـ (٩٢٧ م)، وعلى سبتة سنة ٣١٨ هـ (٩٣١ م)[٤].

---

(١) نفس المرجع ص ١٤٥ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٧٨ .

(٣) أحمد مختار العبادى : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد المجلد الخامس ١٩٥٧ ص ٢٠٦ .

(٤) Lévi-Provençal, La politica africana de Abd al-Rahman III, Al-Andalus, vol. XI fasc. 2, 1946.

وفى عهد الحكم المستنصر ظهر المجوس (النورمان) على الساحل الشرقى للأندلس، وحاصروا حصن القبطة من حصون المرية، فاضطر الخليفة الحكم المستنصر إلى الذهاب بشخصه إلى المرية سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م) ليتفقد الأعمال الدفاعية ويشرف عليها، ويعاين ما استكمله بها من الحصانة، ويشاهد رابطة القبطة[١]، ويذكر ابن الخطيب أنه أنشأ « الأسطول لغزوهم فكان عدده ستمائة جفن من غزوى وغيره[٢] » .

وذكر ابن عذارى أنه ورد كتاب على المستنصر بالله فى أول رجب سنة ٣٥٥هـ من مدينة قصر أبى دانس بالبرتغال « يذكر فيه ظهور أسطول المجوس ببحر الغرب بقرب هذا المكان ، واضطراب أهل ذلك الساحل كله لذلك، لتقدم عادتهم بطروق الأندلس من قبله فيما سلف ، وكانوا فى ثمانية وعشرين مركباً ، ثم ترادفت الكتب من تلك السواحل بأخبارهم ، وأنهم قد أضروا بها ووصلوا إلى بسيط أشبونة ، فخرج إليهم المسلمون ، ودارت بينهم حرب استشهد فيها من المسلمين ، وقتل فيها من الكافرين ، وخرج أسطول إشبيلية، فاقتحموا عليهم بوادى شلب، وحطموا عدة من مراكبهم، واستنقذوا من كان فيها من المسلمين ، وقتلوا جملة من المشركين ، وانهزموا أثر ذلك خاسرين ، ولم تزل أخبار المجوس تصل إلى قرطبة فى كل وقت من ساحل الغرب إلى أن صرفهم الله تعالى[٣] » . ثم عاد النورمان لغزو سواحل الأندلس الغربية فى رمضان سنة ٣٦٠ هـ فى عهد الحكم المستنصر ؛ « فأزعج السلطان قائد البحر بالخروج إلى المرية والتأهب لركوب الأسطول منها إلى إشبيلية وجمع الأساطيل كلها للركوب إلى ناحية الغرب[٤] »

أما الخطر الثانى الذى كان يهدد دولة بنى أمية بالأندلس فهو خطر الفاطميين المقيمين ببلاد المغرب. والواقع أن الفاطميين منذ تأسيسهم للدولة الفاطمية كانوا يهدفون إلى غزو الأندلس لجعل المغرب الإسلامى كله خاضعاً للتشيع الفاطمى ،

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٥٢ ، عبد العزيز سالم ، المرية قاعدة ، مجلة الرابطة العدد ٨ ، ٩ ص ٧٧ .

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٤٨ .

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٥٦ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٦٠ .

« وبهذا ينقسم العالم الإسلامي إلى قسمين : قسم شرقي تابع للخلافة العباسية السنية، وقسم غربي تابع للخلافة الفاطمية الشيعية[١] » . فأرسل خلفاؤهم العيون إلى الأندلس لكشف عوراتها والتجسس على أحوالها أمثال أبو اليسر الرياضي ، وابن هارون البغدادي وابن حوقل النصيبي [٢]. وقد لعب هؤلاء الجواسيس المشارقة فى الأندلس دوراً هاماً فى الدعاية للفاطميين فى الأندلس، فى نفس الوقت الذى أفادوا فيه خلفاء الفاطميين بمعلوماتهم عن أوضاع الأندلس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ولقد دخل هؤلاء الجواسيس الأندلس متسترين، أما بغرض العلم كابن هارون أو بالتجارة كابن حوقل . . . ونجح الفاطميون فى اجتذاب أنصار لهم من الأندلس أمثال ابن أبى المنظور قاضى اسماعيل المنصور، ثالث أئمة الفاطميين، وابن هانئ الشاعر الذى التحق بخدمة المعز . لذلك عمد عبد الرحمن بن محمد إلى محاربة الفاطميين بالطرق الآتية :

أولا : تلقب بألقاب الخلافة فى ٢٨ ذى القعدة سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨) م ليوطد مركزه فى داخل الأندلس وخارجه ونفرض هيبته فى النفوس وأصدر منشوراً وزعه عماله فى النواحى المختلفة[٣].

ثانياً : بث بذور الفتنة بين قبائل البربر فى بلاد المغرب، فانضم إليه بنو إدريس أمراء العدوة، وملوك زناتة، فوالاه موسى بن أبى العافية صاحب المغرب ، وأمده عبد الرحمن بالخلع والأموال، فظهر أمر موسى ، واجتمع له أنصار كثيرون من البربر فتغلب على مدينة جراوة .

واستولى عبد الرحمن الناصر على معبرى الأندلس سبتة ٩٣١ م ، وطنجة سنة ٩٢٧ م، ومليلة فى هذه السنة نفسها، واستطاع بذلك السيطرة على الملاحة فى مضيق جبل طارق. واهتم عبد الرحمن بتحصين سبتة، فبنى سورها بالحجر الكذان[٤] وأثبت أسطوله بقيادة أحمد بن محمد بن الياس، ويونس بن سعيد، قائديه فى البحر

---

(١) مختار العبادى ، سياسة الفاطميين ص ٢٠٥ .

(٢) محمود على مكى ، التشيع فى الأندلس ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد المجلد الثانى ١٩٥٤ ص ١١٢ — ١١٥ .

(٣) راجع نص هذا المنشور فى نهاية هذا الفصل .

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٠٧ .

فى جملة مراكب وعدد كبير من البحريين والمقاتلين فجازا مرسى الجزيرة واحتلا العدوة وحاصرا محمد بن أبى العيش بن عمر بن إدريس . ونجح قاسم بن محمد قائد عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٣ هـ فى إخضاع بقايا الأدارسة، وعقد الناصر الأمان لأبى العيش بن عمر الذى أرسل رسله الأدارسة إلى قرطبة .

وعمل الناصر على توطيد علاقته ببعض الدويلات المغربية حتى ما كان يخالفها فى الناحية المذهبية كدولة بنى رستم الخارجية فى تاهرت[١] وتشجيع الثائرين على الخليفة الفطمى أمثال أبى يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار .

ثالثاً : أنشأ عبد الرحمن الناصر أسطولا قوياً نازع به سلطان الفاطميين فى البحر المتوسط، كما قصد به الدفاع عن سواحل الأندلس ضد أى هجوم يقوم به أعداؤه الفاطميون، وحدث أن هاجم الأسطول الفاطمى بقيادة الحسن بن على مدينة المرية ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م)، وأحرق السفن الراسية بالميناء. وسلب رجاله المدينة، وأسروا عدداً كبيراً من سكان المرية، فعمد غالب قائد أسطول عبد الرحمن الناصر إلى الرد على هذه الحملة ، فأغار فى ستين سفينة على سواحل إفريقية سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) وبالذات على مرسى الخرز ودمر كل منطقة سوسة[٢]

رابعاً : وطد الناصر علاقته بأعداء الفاطميين ، فتحالف مع ملك إيطاليا Hugues de Provence الذى كان يحنق على الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوة ، كما تحالف مع إمبراطور بيزنطة الذى كان يهدف إلى استرجاع صقلية من أيدى الفاطميين[٣] ثم وطد علاقته بالاخشيديين فى مصر ، وعمل على إرسال الفقهاء المالكية من الأندلس إلى مصر لمحاربة المذهب الشيعى، من أمثال هؤلاء أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبى[٤].

وهكذا أدت سياسة الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى انصراف الفاطميين عن فتح الأندلس إلى فتح مصر .

---

(١) محمود على مكى . التشيع فى الأندلس ص ٢١

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٣١٨ Levi Provençal Histoire. t III p 108

(٣) Dozy Histoire des Musulmans d'Espagne, t II p 159.

(٤) محمود على مكى : التشيع فى الأندلس ص ١٢٤ .

٣

النصرانية فى شمال إسبانيا

ما كان عبد الرحمن الناصر يتم توحيد الأندلس حتى اتجه إلى الممالك المسيحية بشمال إسبانيا، وكان خطر أردون الثانى ، ليون (٩١٤ — ٩٢٤)، وشانجه الأول ملك نبرة قد ازداد زيادة ملحوظة منذ اعتلاء الناصر للإمارة، فقد حشد أردون الثانى جيوشه سنة ٩١٤ م، وقصد مدينة يابرة فدخلها عنوة، وقتل عدداً كبيراً من سكانها، واستشهد فى هذه الموقعة حاكم المدينة مروان بن عبد الملك ، وفى سنة ٣٠٥هـ (٩١٧ م) التحمت جيوش المسلمين بقيادة أحمد بن محمد بن أبى عبدة مع جيوش القشتالين فى واقعة قرب شنت اشتبن انهزم فيها المسلمون واستشهد القائد [١]، وعندئذ أحس الناصر بتطور الموقف إلى جانب نصارى الشمال، فقام بنفسه سنة ٣٠٨هـ (٩٢٠ م) على رأس جيش كبير واتجه إلى جليقية ونبرة، فهدم حصن قاشتر وموريش وما جاوره من حصون، وكان أردون الثانى ملك ليون، وشانجة ملك نبرة قد استنجدا بملوك المسيحية ، فلما التقت الجيوش انتصر المسلمون انتصاراً حاسماً . ولما مات أردون الثانى سنة ٩٢٤ م خلفه أخوه فلويرة الثانى(٩٢٤—٩٢٥م)الذى مات بعد عام واحد، فولى مكانه أخوه أذفونش الرابع المعروف فى المدونات الإسبانية باسم الفونسو الراهب (٩٢٥ — ٩٣١ م) الذى تنازل لأخيه ردميرة الثانى (٩٣١ — ٩٥١ م). وكان ردميرة ملكاً شجاعاً شديد الصلابة استمرت الحرب بينه وبين عبد الرحمن الناصر دائرة عهداً طويلا، وكان أهم الوقائع الشهيرة موقعة الخندق التى انهزم فيها الناصر هزيمة شنعاء سنة ٩٣٨ م (٣٢٧ هـ) قرب مدينة شنت مانكش ، ومنذ هذه الهزيمة لم يعد الناصر يباشر الغزو بنفسه، وأخذ يحتاط فى حروبه، وسجلت له الوقائع التالية بينه وبين جيوش ليون ونبرة انتصارات هائلة اكتسح بعدها هاتين الدولتين حتى أذعن له أعداؤه بالطاعة وهادنوه، وبعثوا إليه السفارات والهدايا طالبين الصلح،

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٢٥٥ .

فنى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) قدم إليه بقرطبة رسول الملك أردون الثالث بن ردمير يطلب السلم فعقده له ، كما وفدت إليه الملكة طوطة إلى قرطبة سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) فى رفقة حفيدها شانجة المعروف بسانشو السمين الذى عزله نبلاء ليون وقشتالة عن عرش نبرة وليون وولوا مكانه أردون الرابع .

وأكرم الناصر وفادة الملكة طوطة وحفيدها . وكان من نتائج هذه السفارة أن عقدت محالفة ، كسب الناصر من ورائها حصوناً من مملكة شانجة مقابل مؤازرته لشانجة ، وعمله على استرجاع العرش له بدلا من أردون الرابع ، ونفذ الناصر وعده وأرسل جيشاً استطاع أن يعيد به شانجة إلى عرشه سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ هـ) . غير أن شانجة لم يف بوعوده للناصر ، فاضطر ابنه الحكم فيما بعد إلى محاربته .

وكان الناصر قد توفى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦٢ م) وخلفه ابنه الحكم المستنصر الذى تابع سياسة أبيه إزاء نصارى الشمال فعمل على الوقوف أمام سياستهم التوسعية. كان أردون الرابع المنافس القديم لشانجة قد التجأ إلى برغش، وفى هذه الأثناء هاجم البشكنس فردلند قومس قشتالة وأسروه . وكان شانجة قد وعد الناصر أن يتنازل له عن عشرة حصون من مملكته نظير تأييده له ولكنه نكث بعهده له .

كذلك أفرج غرسية ملك بنبلونة عن فردلند قومس قشتالة، فانضم هذا الأخير إلى أردون الرابع ببرغش، وأخذا يغيران على أراضى الإسلام فى إسبانيا، وأعد الحكم حملة كبرى للقضاء على أردون ، فخاف أردون، على مصيره، والتمس من الحكم أن يساعده على إعادته إلى عرشه الذى اغتصبه شانجة، وقدم على الحكم فى قرطبة ومثل بين يديه فى مدينة الزهراء سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) ، فلما علم شانجة بذلك خاف على ملكه، وبادر بإرسال سفارة إلى الخليفة، ثم تراجع عن وعوده للحكم من تسليم الحصون، وتحالف مع قومس قشتالة فردلند، فاضطر الحكم إلى الخروج بنفسه لمحاربته، فخرج فى صائفة سنة ٣٥٢ هـ (٦٦٢م) ونازل شنت اشتبن دى غرماج الواقعة على نهر دويرة وافتتحها عنوة .

كذلك أرسل الحكم عامله على سرقسطة يحيى بن محمد التجيبي على رأس جيش لمحاربة غرسية ملك البشكنس، وافتتحت جيوش المسلمين مدينة قلهورة على يدى غالب القائد . وعاود الحكم الكرة مرة أخرى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) وهاجم بلدة ألبة .

وهكذا كان للتفوق الحربى بجيش الحكم أثره الكبير فى إعادة الأمن إلى ثغور الأندلس ، وحالفه الحظ بوفاة شانجة سنة ٩٦٦ م ، إذ سمه أحد نبلاء جليقية واسمه القومس جنثالو ، فخلفه ابنه ردميره الثالث (٩٦٦ — ٩٨٢ م) ، وكان لا يتجاوز من العمر خمس سنوات ، فتولت عمته البيرة الوصاية عليه . وكان لتولية هذا الملك الصغير العرش سبباً فى انتشار الفوضى ، وخروج كثير من الأمراء عليه . وانقسمت مملكة ليون إلى إمارات صغيرة ، وأخذ كل أمير من أمرائها يتوجه إلى قرطبة للاستعانة بخليفتها ضد خصومه ، وتوالت السفارات المسيحية على بلاط الحكم منذ عام ٩٦٦ م .

٤

قرطبة حاضرة الخلافة

كان عصر عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر عصر ازدهار فى جميع نواحى الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، وكانت مدينة قرطبة هى المركز الذى تركز فيه حضارة الأندلس باعتبارها أم المدن ومقر الفنون والآداب . ولا بد لنا ، لكى نصور عظمة هذه الحضارة من دراسة مدينة قرطبة ، من الناحية التاريخية والحضارية .

تقع مدينة قرطبة على سفح جبل العروس[١] من جبال « سيرامورنيا » أو الجبال السوداء ، وتحتل سهلا فسيحاً يقع بين هذه الجبال والوادى الكبير ، وفى هذا الوادى يزرع الزيتون ومختلف أنواع الثمار والأشجار ، فكان نهر قرطبة وفقاً لما جاء فى المسهب للحجارى ، « مكتنفاً بديباج المروج ، مطرزاً بالأزهار ، تصدح فى جنباته الأطيار وتنعر النواعير ويبسم النوار »[٢] . وتمتد عمارة قرطبة على الضفة اليمنى لهذا الوادى الذى ينحنى فى مجراه انحناءة طفيفة نحو الغرب مؤلفاً أهم طريق طبيعى فى جنوبى إسبانيا[٣]. وتعتمد قرطبة فى ثروتها على الزراعة ، خاصة فى سهلها الجنوبى المعروف بالكنبانية[٤] أو القنبانية[٥]، وأهم محاصيلها الزراعية الزيتون الذى تقوم عليه كثير من الصناعات كاستخراج الزيت ، وزراعة الفواكه وعلى الأخص الرمان السفرى[٦].

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ص ٥٣ .

(٢) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ١٤٦ .

(٣) Lévi-Provençal, l'Espagne Musulmane au Xe. siècle, p. 199.

(٤) الشريف الأدريسى : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، نشره دوزى ودى غويه ، ليدن ١٨٦٦ .

(٥) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٦) المقرى ج ٢ ص ١٥ .

كذلك تشتهر قرطبة بمعادنها الكثيرة وأهمها الفضة والزئبق[١] وحجر الشادنة[٢] الذى يستخدم فى التذهيب، كما كانت تكثر فى جبالها مقاطع الرخام الأبيض الناصع، والحمرى اللون [٣].

ومدينة قرطبة التى ذاع اسمها فى العصور الوسطى وأصبح يقرن بالقسطنطينية العظمى، مدينة قديمة البناء، لا نعلم أوليتها على وجه التحقيق، وإن كنا نرجع أصلها الأيبيرى، بدليل التماثيل البرنزية الأيبيرية التى كشف عنها البحث الأثرى فى أرضها، بالإضافة إلى أن اسمها محرف من كردوبا Corduba، وهو اسم أيبيرى بحت يتشابه فى مقاطعه مع أسماء بعض مدن أخرى ثبت أنها أيبيرية مثل سلدوبا Salduba [٤] وهو الاسم القديم الذى كانت تعرف به مدينة سرقسطة قبل أن يعيد أغسطس قيصر بناءها فيما يقرب من عام ٢٣ ق.م، ويسميها قيصر أوجستا، الذى عرب بدوره إلى سرقسطة. وورد اسم قرطبة فى الحرب البونية الثانية إبان الصراع بين رومة وقرطاجنة، ثم دخلت قرطبة سنة ٢٠٦ ق.م فى فلك الإمبراطورية الرومانية، وأصبحت منذ عام ١٦٩ ق. م عاصمة لاسبانيا الجنوبية أو السفلى المعروفة بباطقة. وازدهرت قرطبة فى عصر الحاكم الرومانى مركوس كلوديوس مرسيلوس الذى أمهرها بالأبنية الرائعة، والأسوار المنيعة التى اشتهرت بها العمارة الحربية الرومانية[٥]. واتسعت قرطبة منذ ذلك الحين وأصبحت تعرف باسم Colonia Patricia لضخامة عمرانها، وازدهارها بالأسرات الرومانية النبيلة.

ثم انقسمت اسبانيا الجنوبية فى عهد أغسطس قيصر إلى إقليمين: لشدانية وباطقة، واتخذت قرطبة عاصمة لإقليم باطقة، وما لبث أن أصبحت بعد أمد قصير أحد مراكز قضائية أربعة فى إسبانيا الجنوبية هى قادس وإشبيلية واستجة وقرطبة[٦]. وعندما غزا الوندال والسواف والألان شبه جزيرة أيبيريا عام ٤٠٩ م، استولى الوندال على إقليم باطقة، وامتلكوا إشبيلية وجعلوها عاصمة

---

(١) المقرى ج ١ ص ١٨٦. (٢) نفس المرجع ج ١ ص ١٣٨.

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٨٧.

(٤) Abbad Rios, Zaragoza, Barcelona, 1952. p. 5.

(٥) Rafael Castejón, guia de Cordoba, p. 13.

(٦) J. Guichot : Historia general de Andalucia, t. I. p. 166 — Levi-Provençal, l'Espagne Musulmane, p. 201.

الإقليم . أما قرطبة فقد ظلت خاضعة للبيزنطيين حتى نجح ليوفيخلد فى الاستيلاء عليها سنة ٥٦٨ م وجعلها مركزاً أسقفياً (١). ثم أخذت قرطبة تفقد شيئاً فشيئاً من أهميتها أمام طليطلة التى تفوقت عليها منذ أواخر القرن السابع حتى طليعة القرن الثامن الميلادى عندما افتتحها المسلمون سنة ٧١٢ م .

أصبحت قرطبة منذ استقر فيها أيوب بن حبيب اللخمى سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) داراً للإمارة ، واستعادت عظمتها القديمة التى سلبتها إياها طليطلة . وإلى واليها السمح ابن مالك الخولانى (١٠٠ – ١٠٢ هـ؛ ٧١٩ – ٧٢١ م) يرجع الفضل فى رفع قرطبة إلى مصاف الحواضر الكبرى ، فقد كان السور الرومانى الذى يحيط بها قد تثلم فى بعض أجزائه ، وتفتحت العاصمة للداخلين إليها والخارجين منها ، كما كانت القنطرة التى تربط ربض شقندة بمدينة قرطبة ما تزال مهدمة حتى ذلك الوقت فكتب السمح إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستشيره فى ذلك الأمر ، ويخبره بأن « مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة ، فإن أمرنى أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت ، فإن قبلى قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد ، وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم . فيقال والله أعلم أن عمر رحمه الله أمر ببنيان القنطرة بصخر السور ، وأن يبنى السور باللبن إذ لا يجد له صخراً »(٢) فبنى السمح قنطرة قرطبة ، واستخدم فى بنائها الأحجار الضخمة المتخلفة من الأجزاء المهدمة من السور الرومانى غربى المدينة . أما السور فلم يتهيأ للسمح أن يقوم ببنائه ، إذ استشهد عام ١٠٢ هـ فى طرسونة . وظل سور قرطبة مهدماً حتى ولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، فأعاد بناء السور باللبن سنة ٧٦٦ م على أساس السور الرومانى القديم . وكانت القنطرة تنتهى ببرج يعرف ببرج الأسد(٣) ويسمى اليوم بالقلعة الحرة .

وتألقت قرطبة منذ أن اتخذها الأمير عبد الرحمن الداخل حاضرة له ولأبنائه من بعده ، وأصبحت فى عهده مهد الحياة الرفيعة ومصدر الحضارة السامية وموطن

---

(١) Ramirez de Arellano : Historia de Cordoba, t. I, pp. 184-185.

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٤ .

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٢٠

الفلاسفة والشعراء ومركز الفنون والآداب . وكانت أكثر مدن أوربا سكانا ، فقد بلغت فى عهد الخلافة الأموية تطوراً عمرانياً لا مثيل له فى دول الغرب المعاصرة التى كانت ترزح فى ظلمات الجهل والانحطاط ، وبلغ عدد سكان قرطبة فى أزهى عصورها (فى عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر)نحو نصف مليون نسمة وفقاً للاحصائيات التى قام بها المستشرقون[١] .

وبلغت قرطبة على الأخص فى عهد الخليفة الحكم المستنصر مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه حاضرة أخرى من قبل. وقد وصفها مؤرخو العرب وجغرافيوهم أبدع وصف ، وأشادوا بعظمتها وتفوقها على سائر مدن الأندلس ، فيقول الحجارى فى المسهب :

« كانت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الإسلام ، ومجتمع أعلام الأنام ، بها استقر سرير الخلافة المروانية ، وبها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية ، وهى من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، ونهرها من أحسن الأنهار ، مكتنف بديباج المروج ، مطرز بالأزهار ، تصدح فى جنباته الأطيار ، وتنعر النواعير ويبسم النوار ، وقرطاها الزاهرة والزهراء ، حاضرتا الملك وافقاه النعماء والسراء ، وإن كان قد أخنى عليها الزمان ، وغير بهجة أوجهها الحسان ، فتلك أعادته ، وسل الخورنق والسدير وغمدان[٢] » . وقال الحجارى فى موضع آخر : « حضرت قرطبة منذ افتتحت الجزيرة ، هى كانت منتهى الغاية ، ومركز الراية ، وأم القرى ، وقرارة أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام ، وحضرة الإمام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض ، وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائعة ، وصنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب فى تبريز القوم حديثاً وقديماً على من سواها أن أفقهم القرطبى لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب[٣] » . وكانت قرطبة وفقاً لما ذكره ابن سعيد أكثر بلاد الأندلس كتباً وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب[٤] . وهكذا أغرم أهل قرطبة باقتناء

---

(١) Torres Balbás : Extension y demografia de les ciudades hispano Musulmanas, Studia Islamica, vol. III 1955, p. 53

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, éd. Lévi-Provençal, Leyde, 1932.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٤٦ . (٣) نفس المرجع ج ٢ ص ١٠ .

(٤) نفس المرجع ج ٢ ص ١١ .

الكتب حتى كانت الكتب من أروج متاجرها فقيل : « إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية[1] » . وذكر ابن غالب الأندلسي فى فرحة الأنفس نقلا عن أحمد الرازى أن « قرطبة قاعدة الأندلس وأم المدائن ، وقرار الخلافة ، ودار الملك ، تجبى إليها ثمرات كل جهة ، وخيرات كل ناحية ، واسطة من الكور ، وموفية على شاطئ النهر ، مشرفة رائقة مونقة ، نهرها ساكن فى جريه ، لين فى انصبابه ، يقبلها بطاح سهلة ، ويجوفها الجبل المنيف المسمى بالعروس ، المغروس بالكروم وسائر الأشجار وأنواع الأزهار[2] » .

وقد بلغت قرطبة من العمران والتمصير زمن الخلافة غاية ما بلغته ، ويذكر المقرى نقلا عن بعض المؤرخين أن دور قرطبة بلغت فى عهد ابن أبى عامر ٢١٣٠٧٧ داراً للعامة و ٦٣٠٠ داراً للأكابر والوزراء والكتاب والأجناد بالإضافة إلى مصارى الكراء والحمامات والخانات ، وبلغ عدد حوانيت قرطبة ٨٠٥٥٥ حانوتاً ، وبلغ عدد حماماتها ٩١١ حماماً ، وقيل ٧٠٠ حمام ، وعدد مساجدها ٣٨٧٧ مسجداً[3] ، وقيل ١٨٣٦ مسجداً[4] ظلت قرطبة فى ازدهار حتى سقطت الخلافة الأموية وتركت بعدئذ لمصيرها التعس ، ودخلها البربر عام ١٠١٠ م مع سليمان المستعين الأموى حين استولى عليها فى بداية عهده الذى افتتحه بالقهر وسفك الدماء ، فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة هدموا آثارها ، وسلبوا محاسنها ، ومحوا كثيراً من رسومها ، وتتابعت عليها المحن والفتن حتى كانت أيام الإدريسى فوصفها قائلا : « . . . وبعد ذلك طحنتها النوائب ، واعتورتها المصائب وتوالت عليها الشدائد والأحداث ، فلم يبق من أهلها إلا البشر اليسير على كبر اسمها وضخامة حالها . . .»[5] ومنذ ذلك الحين انطفأت شعلة تفوقها وتخلت عن مكانتها السامية لمدينة إشبيلية .

---

(١) نفس المرجع ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) ابن غالب: فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، نشره لطفى عبد البديع ١٩٥٦ ص ٢٦ ، ٢٧

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٨ – ٧٩ .

(٤) ابن غالب ص ٢٧ .

(٥) الأدريسى ص ٢١٢ – الحميرى ص ١٥٨ .

وتوالت عليها المصائب، وهزت كيانها العواصف فى العهود التالية ومع ذلك استطاعت أن تحتفظ ببعض عظمتّها وتفوقها فى المجال الفنى والصناعى والأدب حتى فتحها فرناندو الثالث فى ٢٩ يونيو سنة ١٢٣٦ م ، ففى المجال الفنى كان جامع قرطبة مركزاً للحج فى الأندلس، يفد إليه المسلمون أيام الموحدين لزيارته والتبرك ببقعته والاحتفال فيه بليلة القدر ، وليس أدل على ذلك من قول ابن صاحب الصلاة الولبى : « . . . وإنى شخصت إلى حضرة قرطبة حرسها الله تعالى منشرح الصدر ، لحضور ليلة القدر ، والجامع قدس الله تعالى بقعته ومكانه ، وثبت أساسه وأركانه : قد كسى ببردة الازدهاء ، وجلى فى معرض البهاء ، كأن شرفاته فلول فى سنان أو أشر فى أسنان . . . »[1]. وفى المجال الصناعى ظلت مدرستّها فى الحفر على الخشب مزدهرة فى عصر الموحدين بدليل أن الخليفة الموحدى أمر صناعها بصناعة وزخرفة منبر جامع الكتبية بمراكش .

وفى المجال الأدبى نبغ من رجالها فى الشعر أبو عبد الله محمد بن مسعود القرطبي فى المائة الخامسة ، وأبو بكر يحيي بن سعدون بن تمام الأزدى القرطبي ، وأحمد بن مسعود بن محمد الخزرجى القرطبي ، فى المائة السابعة ، كما اشتهر من شعرائها أبو الحسن على بن يوسف بن خروف القرطبي فى عهد الموحدين ، وأبو جعفر أحمد بن شطرية القرطبي ، واشتهر من قضاتها أبو الوليد أحمد بن رشد المتوفى سنة ٥٦٣ هـ[2].

فلما عثر جدها ، وخوى نجمها ، وضعف أمر الإسلام ، واختلفت بالجزيرة كلمته ، تغلب عليها النصارى ، فهاجمتّها جيوش قشتالة فى ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ (٢٩ يونيو سنة ١٢٣٦ م) ، وأثار سقوطها فى أيدى المسيحيين الحزن والهلع فى نفس المسلمين ، وتحطمت أعواد إسبانيا الإسلامية بعد هذه الصدمة الكبرى ، وتحول جامع قرطبة بعد استيلاء النصارى الإسبان عليها إلى كنيسة كبرى ، وهجر المدينة عدد كبير من سكانها المسلمين ، فاستبدل فرناندو بهم سكاناً آخرين من قشتالة وليون وقطالونية وغيرها من أقاليم إسبانيا المسيحية[3]. ومع أن إعادة تعمير قرطبة بعد

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٩٠ .

(٢) ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف .

(٣) قال المؤرخ الإشبيلى دى ثونييجا عند سقوطها : « سقطت مدينة =

سقوطها بالعناصر الإسبانية الجديدة قد أزال كثيراً من مظهرها القديم، وأن التقاليد القشتالية التي حملها الغالبون معهم قد غيرت كثيراً من مظهرها العمراني، فإن قرطبة ظلت مدينة خلافية الطابع، ولم يتمكن الفن القوطي الذي أدخلوه في الأندلس أن يتغلغل في فنونها، بل إنه لم يقو هو نفسه على التخلص من تأثيرات الفن القرطبي، فإن لكنيسة سان ميجل التي بنيت في عهد سان فرناندو وفق الأسلوب الانتقالي بين الروماني والقوطي باب أسلوبه يخضع للأسلوب الخلافي[١] كذلك اتخذت قبة المقصورة الملكية بالمسجد الجامع على طراز قباب المسجد الجامع بقرطبة[٢].

كانت قرطبة في القرن الرابع الهجري أو العاشر الميلادي تنقسم إلى جانبين كبيرين: جانب شرقي كان يعرف بالشرقية، وما زال يطلق عليه حتى اليوم اسم Ajarquia ، وجانب غربي[٣]، وهو نفس التقسيم الروماني القديم الذي ذكرناه من قبل. ويغلب على الظن أن المدينة عند اتساعها في القرن العاشر الميلادي تجاوزت نطاقها القديم جنوباً في الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير، وشرقاً فيما وراء باب عبد الجبار أو باب رومية. وكانت المدينة تشتمل على المسجد الجامع والقيسارية والفنادق والحمامات والأسواق وقصر الإمارة، ولذلك كانت تعتبر مركزاً للحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية. وكانت تنقسم إلى أحياء تعرف بالحومات منها حومة باب الفرج، وحومة الرقاقين قرب باب إشبيلية أو العطارين[٤]، وحومة النجارين، وحومة عين فرقد[٥] شرقي قرطبة، وحومة غدير بني ثعلبة[٦]، وحير الزجالي خارج باب اليهود[٧]، وكان من أبدع المواضع وأجملها.

= قرطبة وأكثرها عظمة بعد رومة والقسطنطينية وإشبيلية ».

De Zuniga : Anales Eclesiasticas y seculares, Madrid 1796 t. I, p. 131.

(١) Torres Balbâs : Ars Hispaniae, t. IV, p. 292.

(٢) Torres Balbâs, Ars Hispaniae, t. IV, p. 268.

(٣) Torres Balbâs, La Medina, los Arrabales y los barrios, Al-Andalus. 1952, fasc. I, p. 154 — Lévi-Provençal : Las ciudades y las instituciones urbanas, Tetuan, 1950, p. 17.

(٤) ابن بشكوال: كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ج٢، مدريد، ١٨٨٣، ص٧٣

(٥) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٨٨ .

(٦) نفس المرجع : ص ٢٥٤ .

(٧) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان طبعة مصر ١٣٢٠ هـ. ص١٥٩ ؛ نفح الطيب ج ٢ ص١٦١ .

ويذكر ابن بشكوال أن عدد أرباض قرطبة أى ضواحيها عند انتهائها فى التوسع والعمارة بلغ أحد وعشرين ربضاً : فالمدينة القبلية بعدوة النهر بها ربض شقندة وربض منية عجب ، وأما الغربية فتسعة : ربض حوانيت الريحان وربض الرقاقين ،وربض مسجد الكهف ،وربض بلاط مغيث ،وربض مسجد الشفاء ، وربض حمام الإلبيرى ،وربض مسجد السرور ، وربض مسجد الروضة ،وربض السجن القديم. وأما الشمالية فثلاثة : ربض باب اليهود ،وربض مسجد أم سلمة ، وربض الرصافة . وأما الشرقية فسبعة ؛ ربض شبلار[١] وربض فرن بريل ،وربض البرج ،وربض منية عبد الله ،وربض منية المغيرة ،وربض الزاهرة ، وربض المدينة العتيقة .

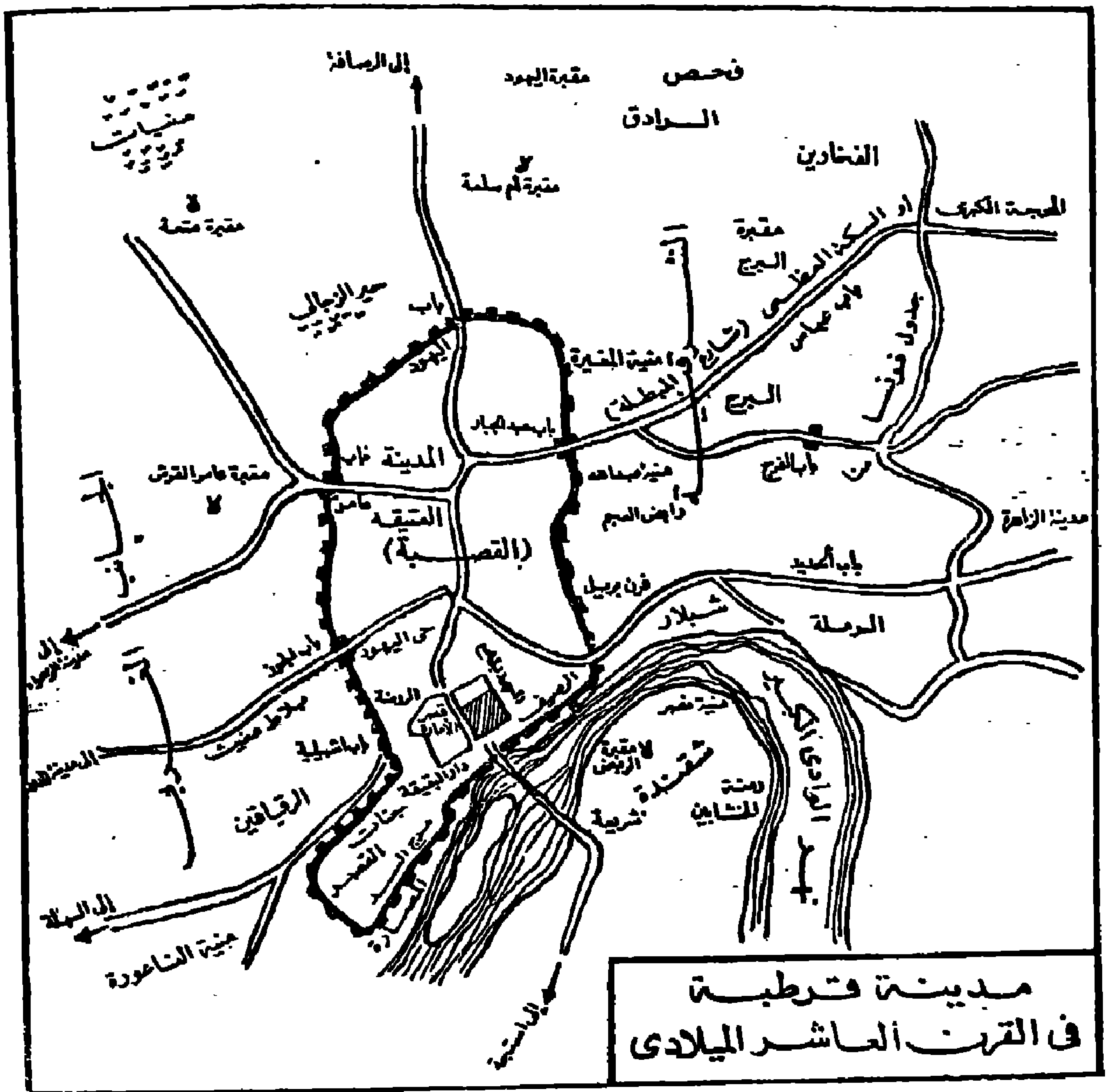
ونلاحظ أن بعض هذه الأرباض المحيطة بالمدينة الوسطى التى كانت تعرف بالقصبة كانت تبعد عنها كثيراً كربض الزاهرة وربض الرصافة وهما اسمان لقصرين ، كما أن كثيرا من هذه الأرباض كان يقع على امتداد نهر الوادى الكبير حيث كانت تقام المنيات والقصور ، فكان ربض الروضة وربض الرصافة وربض منية عجب التى أقامتها السيدة عجب زوجة الحكم الربضى جنوبى قرطبة . وقد اختفت كل هذه الأرباض فى وقتنا الحاضر وحلت محلها حدائق وبساتين ، ولكن أسماءها تثبت إثباتاً قاطعاً على أن اتساع مدينة قرطبة نحو الغرب بدأ منذ القرن التاسع فى عهد الأمير الحكم الربضى وعبد الرحمن الأوسط[٢].

كذلك نلاحظ أن ربضين من أرباض الجانب الغربى للمدينة يتسميان بأسماء مساجد قامت بإنشائها إما جاريات أو فتيان لأمراء بنى أمية . أحدهما مسجد الشفاء ، وشفاء هذه هى أم ولد وجارية الأمير عبد الرحمن الأوسط ، والآخر مسجد مسرور أحد فتيانه الصقالبة ، وقد زود هذا الجانب الغربى من قرطبة بمساجد أخرى أقامتها جاريات للأمراء الأمويين مثل مسجد عجب ومسجد متعة ومسجد طروب .

---

(١) تسمية لاتينية وتعنى الأرض الرملية Sablonneuse ، وهى منطقة تعرف اليوم باسم الرملة ، وقد ورد اسم شبلار فى كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ص ١٦٦ .

(٢) Torres Balbas; Los contornos de las ciudades hispanomusulmanas, Al-Andalus, vol. XV, fasc. I, p. 450 — Lévi-Provençal : l'Espagne Musulmane, p. 203 — Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Mus. t. III, p. 376.


مدينة قرطبة
في القرن العاشر الميلادي
إلى الرصافة
مقبرة اليهود
فحص
السرادق
الفخارين
مقبرة أم سلمة
مقبرة متعة
المسجد الكبير
مقبرة
الربيع
الربيع
باب اليهود
باب عبد الجبار
المدينة
العتيقة
(القصبة)
مقبرة عامر القرشي
فرن بريل
باب الحديد
شبلار
الرملة
حي اليهود
الرصافة
دار البنيقة
الربض
الرقاقين
إلى الشمال
جنة الناعورة
مدينة الزاهرة
باب الفرج
باب عباس
الوادي الكبير
شقندة
باب إشبيلية

ويذكر ابن بشكوال أن هذه الأرباض جميعاً لم تكن محاطة بالأسوار ، فلما كانت أيام الفتنة وهو العهد المضطرب الذى تبع سقوط الخلافة حفر حولها خندق يدور بها جميعاً كما أقيم حولها سور مانع[1].

وذكر ابن غالب أنه يدور بجميع أرباض قرطبة ومساكنها خندق مشهور لم تقدر أمة من الأمم على عمل مثله[2].

ولقد أجمعت المصادر العربية على أن الجزء الأوسط من قرطبة يتفق وموقع العاصمة القديمة (المدينة العتيقة) للإقليم الرومانى المعروف باسم باطقة، وهى مدينة قرطبة ذاتها أوالقصبة أو المدينة الوسطى وفقاً لتسمية الإدريسى[3]، باعتبارها واقعة وسط خمسة مدن أخرى . وكان يحيط بهذه المدينة فى جميع العصور سور من الحجر الجيرى ، وقد ذكرنا فيما سبق كيف تهدم هذا السور من جانبه الغربى عند الفتح الإسلامى وظل كذلك على هذه الحالة السيئة حتى شرع السمح بن مالك الخولانى فى ترميمه ، ولكنه استشهد قبل إتمامه ، فأتمه عبد الرحمن الداخل عام ٧٧٦ م ، وظل هذا السور القرطبى موضع رعاية الأمراء والخلفاء حتى عصر الموحدين ، فاهتم خلفاؤهم بتجديده ، وأقاموا له «حزاماً برانياً » أو سوراً أمامياً ، مبالغة منهم فى إحكام الدفاع عن قرطبة ، ولم يتبق من هذا السور إلا أجزاء متناثرة يسيرة . ومع ذلك فقد تبقى من السور الرومانى قطاع يمتد على جانبى باب إشبيلية ، بل إن باب إشبيلية هذا يعتبر من أبواب قرطبة فى العصر الرومانى[4]. أو عصر القوط الغربيين[5].

وكان سور مدينة قرطبة الوسطى على شكل متوازى الأضلاع لا يتجاوز محيطه أربعة كيلو مترات ، وهو ما يتفق وتقدير ابن حوقل الذى يقول : « ودرت بقرطبة فى غير يوم فى قدر ساعة[6] » .

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٤ .

(٢) ابن غالب ص ٢٧ .

(٣) الأدريسى ص ٢٠٨ – ٢١٢ – الحميرى ص ١٥٣ .

(٤) Gomez Moreno : Ars Hispaniae, t. III, p. 12.

(٥) E. Camps Cazorla : Módulo, Proporciones y Composicion en la arquitectura Califal Cordobesa, 1953 Madrid, pp. 22, 68.

(٦) انظر المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٩ .

ويجمع مؤرخو العرب على أن عدد أبواب مدينة قرطبة سبعة أبواب[١] أهمها : الباب الجنوبى المعروف بباب القنطرة، لأنه يؤدى إلى قنطرة قرطبة المقامة فوق الوادى الكبير، وكان يسمى لذلك أيضاً باب الوادى، كما أطلق عليه كذلك اسم ثالث هو باب الجزيرة ، لاتجاهه نحو هذه المدينة، أو باب الصورة[٢]، بسبب تمثال كلاسيكى كان يقوم فوق عقد هذا الباب وينسبه المسلمون إلى العذراء مريم.

ويؤكد ابن عذارى أن العذراء كانت صاحبة قرطبة[٣]. وكان هذا الباب ينتهى بالرصيف الأعظم الممتد على طول الضفة الشمالية للنهر . وقد وصف الحميرى هذا الرصيف فقال : « وتحت القنطرة يعترض الوادى برصيف مصنوع من الأحجار والعمد الجافية من الرخام[٤]» .

وكان ينفتح فى السور الشرقى بابان : الجنوبى منهما وهو الباب الجديد[٥]، يقع قرب النهر ويعرف هذا الباب أيضاً باسم باب سرقسطة[٦].

أما الثانى فيعرف بباب عبد الجبار نسبة لعبد الجبار بن الخطاب مولى الخليفة الأموى مروان بن الحكم . ويقع هذا الباب شمالى هذا السور الشرقى ، وكان يطلق عليه كذلك اسم باب طليطلة بسبب اتجاهه إلى هذه المدينة، وسمى كذلك بباب رومية نسبة للمحجة العظمى أو السكة العظمى Via Augusta ، وهو الطريق الرومانى المرصوف الذى كان يبدأ من قادس وينتهى بأربونة ماراً بقرطبة وإشبيلية وسرقسطة وطركونة . وفيه يقول الحميرى : « وكانت المحجة العظمى عليها من باب نربونة إلى

---

(١) المقرى نقلا عن ابن بشكوال : ج ٢ ص ١٣ ، ابن غالب ص ٢٧ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٤ ص ٥٩ .

(٢) أخبار مجموعة ص ١١ ، ٢١

Lévi-Provençal : L'Islam d'Occident, Paris, 1948, p. 69, Note 21.

(٣) يقول ابن عذارى « وهى العذراء صاحبة قرطبة التى وضع أقدم حكامها صورتها فوق باب مدينتها القبلى وهو باب القنطرة » انظر البيان المغرب لابن عذارى المراكشى الجزء الثالث طبعة ليڤى بروفنسال، باريس ١٩٣٠ ، ص ١٤ . ونلاحظ أن المسلمين احتذوا حذو الرومان إذ نصب الخليفة عبد الرحمن الناصر تمثال الزهراء فوق باب مدينة الزهراء (انظر المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٦٥) .

(٤) الحميرى ص ١٥٨ .

(٥) يخلط المؤرخون بينه وبين باب آخر من أبواب أرباض قرطبة وهو باب الحديد . انظر

Ocana Jimenez; Las puertas de la Medina de Córdóba, Al-Andalus, vol. III, p. 146.

(٦) المقرى ج ٢ ص ١٣ .

باب بيارة إلى باب قرطبة(١)» . وأشار إليه ابن بشكوال بقوله : «وباب ابن عبد الجبار وهو باب طليطلة وباب رومية ، وفيه تجتمع الثلاثة الرصف التى تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طركونة إلى أربونة مارة فى الأرض الكبيرة(٢)» .

أما السور الشمالى فكان ينفتح فيه باب يعرف بباب ليون أو باب طليرة أو باب اليهود ، وقد استقبحوا قولهم باب اليهود فقالوا باب الهدى ، ويشرف هذا الباب على حير الزجالى ، وفيه يقول أبو عامر بن شهيد :

لقد أطلعوا عند باب اليهـو   د بدراً أبى الحسن أن تكسفا

تـراه اليهود على بابهـا   أمـيراً فتحسبـه يوسفا(٣)

وظل هذا الباب يعرف حتى سنة ١٩٠٣ باسم باب أوساريو Ossario نسبة إلى مقبرة كان يؤدى إليها تعرف فى العصر الإسلامى باسم مقبرة أم سلمة ، ثم تحولت بعد سقوط قرطبة فى أيدى النصارى الإسبان إلى جبانة اليهود(٤).

أما الجانب الغربى من السور فكان مزوداً بثلاثة أبواب :

واحد شمالى يعرف بباب عامر القرشى وينسب هذا الباب إلى عامر بن عمرو القرشى الذى لعب دوراً هاماً فى حوادث القرن الثامن الميلادى ، وكانت له مقبرة خارج هذا الباب(٥)، فأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بفتح هذا الباب فى شعبان ٣٠٢ هـ . (فبراير ٩١٦ م) لتيسير الذهاب إلى المقبرة المذكورة(٦).

والباب الثانى ويتوسط هذا السور الغربى فيعرف بباب الجوز أو باب بطليوس

---

(١) الحميرى ص ٥٦ .

(٢) المقرى ج ٢ ص ١٣ .

(٣) المقرى ج ١ ص ١٤٨ ، ج ٢ ص ١٦١ .

(٤) Lévi-Provençal : Histoire, t. III, p. 369.

(٥) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٣ ، Lévi-Provençal : Histoire, t. III, p. 368

(٦) انظر Una Crônica Anônima de Abd Al-Rahman III, pub. par Lévi-Provençal & Garcia Gomez, p. 51.

يقول صاحب هذه المدونة : «وفيها أمر الناصر لدين الله بفتح باب عامر من أبواب مدينة قرطبة فى شهر شعبان منها» ولقد سمى هذا الباب بعد الاسترداد باسم باب الجلالقة de los Gallegos وتهدم فى سنة ١٧١١ م .

ولا شك أنه يتفق وموضع الباب الحالى المسمى بباب المدور Almodovar الذى أقيم على أساس الباب الخلافى[١].

والباب الثالث والأخير ويقع جنوبى السور الغربى فيعرف باسم باب إشبيلية، وكان يسمى أيضاً بباب العطارين. ويتساءل الأستاذ ليڤى بروڤنسال: هل الباب الحالى المعروف بباب إشبيلية هو نفس باب إشبيلية فى عصر الخلافة؟ أو أن الباب الخلافى كان مفتوحاً بالقرب من الوادى الكبير[٢]؟

ولقد عمل الخليفة عبد الرحمن الناصر على تحصين أبواب مدينة قرطبة فابتنى لها أبواباً داخلية توازيها سنة ٣٠١ هـ، لتيسير الدفاع عنها، وإتاحة الفرصة للحراس لمضاعفة الحراسة. ويذكر صاحب مدونة أخبار عبد الرحمن الناصر التى نشرها ليڤى بروڤنسال وغرسية جومث «ولم يك قبله كذلك، فكان ذلك حسناً من اختراعه[٣]».

وكانت تتفرع من هذه الأبواب شوارع تؤلف فى الداخل شبكة من الدروب والحارات. وقد ذكرنا فيما سبق أنه كان يشق قرطبة طريق عظيم سمته المصادر العربية باسم المحجة العظمى، وكان هذا الطريق الأعظم يمتد من باب القنطرة شمالا ماراً بين المسجد الجامع وقصر الإمارة ثم ينثنى شرقاً نحو باب عبد الجبار الذى ذكرناه فيما سبق، ويخرج من هذا الباب ويتجه نحو الشمال الشرقى ويخرج من باب عباس[٤] أحد الأبواب الثلاثة التى كانت تنفتح فى سور الربض الشرقى المعروف بالشرقية. أما البابان الآخران فهما باب الفرج وباب الحديد.

وكان يلتقى بهذا الطريق الأعظم طريقان أحدهما غربى يمتد من باب عامر، والثانى شمالى يمتد من باب اليهود، بحيث يتألف من تقابل هذه الطرق الثلاثة شكل

---

(١) Rafael Castejon : Còrdoba Califal Boletin de la Acad. de Còrdoba. 1929, p. 274.

(٢) Lévi-Provençal : Histoire de l'Esp. Mus., t. III, p. 368.

(٣) Una Crònica Anònima, p. 48.

(٤) انظر ابن الأبار: كتاب التكملة لكتاب الصلة نشره جنثالث بلنسية ص ٥٦١

صليبي كان هو النظام الرئيسي في تخطيط المدن الرومانية .وكان يتفرع من هذه هذه الطرق الرئيسية شبكة من الدروب والحارات والأزقة ، ويذكر ابن القوطية درباً بقرطبة زمن عبد الرحمن الأوسط أسماه بدرب ابن شراحيل ، نسبة إلى محمد بن شراحيل المعافرى قاضي قرطبة[١] . ويذكر الخشني أن جده عمر بن شراحيل المعافرى كان يعيش في قرطبة بدرب الفضل بن كامل الواقع قبلي مسجد أبي عثمان ، وذلك في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل[٢] . ويذكر ابن الفرضي اسم دربين آخرين بقرطبة أحدهما اسمه درب أبي الأشهب [٣] والآخر درب بني فطيس[٤]. وكان يقوم بحراسة كل درب من هذه الدروب حارس يسمى درب على نحو ما كان متبعاً في المشرق[٥].

ويذكر ابن سعيد المغربي أن « بلاد الأندلس لها دروب بإغلاق تغلق بعد العتمة ، ولكل زقاق بائت فيه ، له سراج معلق ، وكلب يسهر ، وسلاح معد ، وذلك لشطارة عامتها ، وكثرة شرهم ، وإعيائهم في أمور التلصص ، إلى أن يظهروا على المباني المشيدة ، ويفتحوا الأغلاق الصعبة ، ويقتلوا صاحب الدار خوفاً أن يقر عليهم ، أو يطالبهم بعد ذلك[٦] » . ومن هذا النص نستنتج أهمية الدروب ودورها الكبير في حماية السكان ، فإن من يسكن الدرب لا يخرج إلا من منفذ واحد ، ومن هنا يسهل عليهم الدفاع عن أنفسهم . وما زالت أسماء بعض شوارع قرطبة تذكرنا بالتسميات العربية القديمة مثل شارع الزنيقة Anaizocas ، وشارع المونة Almona أى الصابون ، وشارع القيسرية Alcaiceria ، وشارع الخياطين Alfayates ، وشارع المغرة (أى الحبر الأحمر) Almagra ، كما أن بعض دروب قرطبة في الوقت الحاضر ما زالت تحتفظ بأقواسها التي كانت تعلق منها المصابيح .

ذكرنا فيما سبق كيف كانت قرطبة مكتظة بالعمران ، وكانت دورها تربو على

---

(١) ابن القوطية القرطبي : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٥٨ .

(٢) الخشني : تاريخ قضاة قرطبة ، ط . مدريد ص ٤٠ ، ٥٥ .

(٣) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٨١ .

(٤) ابن الفرضي : نفس المرجع ج ٢ ص ٧٩ .

(٥) تقابل خطة الطواف بالليل في الأندلس خطة أصحاب أرباع في المشرق وهم الدرابون أو العسس .

(٦) نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٤ .

٢١٣٠٧٧ داراً، وهو رقم ضخم يدل على اتساع المدينة وعظم دورها. وكانت مراكز انتشار هذه الدور فى قلب المدينة نفسها، أى حول المسجد الجامع والمساجد الأخرى المتفرقة فى سائر أنحاء المدينة.

أما القصور فقد كانت تقام عادة فى الأرباض خارج المدينة، فيما عدا قصر الإمارة، وكان فيه البدائع الحسان والرياض الأنيقة، وأجرى فيه الأمراء المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة فى قنوات الرصاص التى تصب فى البحيرات البديعة، والصهاريج، وأحواض الرخام العجيبة[١]، ومن مجالسه قصر الكامل والحائر والروضة والزاهر، ومن أبوابه باب الجنان وباب السطح المشرف، يطلان على الرصيف الأعظم، وباب الوادى. وكان له باب رابع يسمى باب الجامع، وهو الباب الذى كان يدخل منه الأمراء يوم الجمعة إلى المسجد على الساباط[٢].

ومن قصور قرطبة التى شيدها بنو أمية فى القرن التاسع والعاشر الميلادى قصر الرصافة الذى بناه عبد الرحمن الداخل لتزهه وسكناه، وسماه باسم رصافة جده هشام ابن عبد الملك. ومن قصور قرطبة الأموية قصر الدمشق، وقصر الزهراء، وقصر الزاهرة، والقصر الفارسى، وقصر حير الزجالى[٣].

ومن قصور قرطبة فى عصر الموحدين قصر السيد أبى يحيى بن أبى يعقوب بن عبد المؤمن، «وهو على متن النهر الأعظم تحمله أقواس وقيل للسيد: كيف تأنقت فى بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة؟ فقال: علمت أنهم لا يذكرون والياً بعد عزله ولا له عندهم قدر لما بقى فى رؤوسهم من الخلافة المروانية فأحببت أن يبقى لى فى بلادهم أثر أذكر به على رغمهم»[٤]. ولقد تبقت من جميع هذه القصور آثار قليلة تذكر بما وصله فن البناء والزخرفة فى عصر الخلافة الأموية كآثار قصور الزهراء، وقصر الرصافة، كما تذكر أيضاً بوثاقة البناء، وضخامته، فى عصر

---

(١) نفس المرجع ج ٢ ص ١٢.
(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣.
(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ١٧، ١٩، ١٦١، انظر كتابنا المساجد والقصور بالأندلس سلسلة اقرأ عدد ١٩٠ أكتوبر ١٩٥٨.
(٤) نفح الطيب ج ٢ ص ١٦، ١٧.

الموحدين، كآثار قصر السيد أبي يحيي الموحدى على نهر الوادى الكبير الذى بناه المهندس الحاج يعيش المالقي[١] .

ولكي تكمل الصورة الاجتماعية لقرطبة لا بد لنا أن نتحدث قليلا عن المنشآت العامة مثل الحمامات التي تعد من أهم الأبنية الإسلامية . وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية الحمامات العامة فى الفصل الأول من هذا الكتاب . اشتهرت قرطبة بكثرة حماماتها العامة ، وذكر ابن حيان أن عدد هذه الحمامات القرطبية بلغ فى عهد ابن أبي عامر نحو تسعمائة حمام[٢]. وكان العدد الأعظم من هذه الحمامات يقع قرب المسجد حتى يسهل للمصلين الاستحمام والتوجه رأساً للصلاة . ولم يتبق من حمامات قرطبة سوى بقايا حمامين :

أحدهما يقع فى شارع الحمام Calle del bano، والآخر فى شارع لاس كوميدياس Las Comedias ، وكلاهما بالقرب من المسجد الجامع، ويتألف هذا الحمام الأخير من قاعة وسطى، بها عقود مفرطحة ومتجاوزة تحملها عشرة أعمدة . وكانت تعلو هذه العقود قبوة لم يبق لها وجود اليوم بعد أن تحولت القاعة إلى صحن، بينما تحتفظ الغرف المجاورة بقبواتها . وبهذا الحمام غرفة تعلوها قبوة كانت تتخللها مضاوى لإنفاذ الضوء سدت جميعها اليوم[٣].

أما جامع قرطبة الذى اشتهرت به حاضرة الأندلس فيعد من الوجهة الفنية أعظم وأروع أمثلة العمارة الإسلامية فى العصور الوسطى، كما يعد من الوجهة العلمية أكبر جامعة إسلامية تدرس فيها علوم الدين واللغة ويفد إليها طلاب المسلمين والمسيحيين على السواء للدرس والتحصيل . ولقد وصفه مؤرخو العرب وصفاً رائعاً، وأبرزوا عمارته، وصوروه بقدر ما أمكنته بلاغتهم التعبير عنه . وأروع ما قيل فى ذلك ما ذكره الحميرى نقلا عن الشريف الإدريسى فى نزهة المشتاق : « وفيها المسجد الجامع المشهور أمره الشائع ذكره من أجل مصانع الدنيا كبر مساحة وإحكام صنعة، وجمال هيئة، وإتقان بنية . تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه

---

(١) Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, p. 30.

(٢) نفح الطيب ج ٢، ص٧٩٦ .

(٣) Rafael Castejon : Cordoba, p. 84.

زيادة بعد زيادة، وتتميماً إثر تتميم، حتى بلغ الغاية فى الإتقان، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حسنه الوصف[1] » .

ومعنى هذا أن أمراء بنى أمية أقاموا فيه زيادات متتالية حتى أصبح مسطحه يضم أبنية من عصور مختلفة، وصار بحق متحفاً للفن الأندلسى منذ عهد عبدالرحمن الداخل الذى قام بتأسيسه سنة ١٦٩ هـ (٧٧٥ م) ، إلى أن أتم الحاجب محمد بن أبى عامر بناء زيادته فى ٣٧٧ هـ . ومن الأوصاف الرائعة لجامع قرطبة وصف إبراهيم ابن صاحب الصلاة الولبى الذى زار جامع قرطبة فى عصر الموحدين فوصفه بقوله : « . . . وإنى شخصت إلى حضرة قرطبة حرسها الله منشرح الصدر، لحضور ليلة القدر، والجامع قدس الله بقعته ومكانه، وثبت أساسه وأركانه، قد كسى ببردة الازدهاء، وجلى فى معرض البهاء، كأن شرفاته فلول فى سنان، أو أشر فى أسنان، وكأنما ضربت على سمائه كلل، أو خلعت على أرجائه حلل، وكأن الشمس خلفت فيه ضياءها، ونسجت على أقطاره أفياءها، فترى نهاراً قد أحدق به ليل، كما أحدق بربوه سيل، ليل دامس، ونهار شامس، وللذبال تألق كنضنضة الحيات، أو إشارة السبابات فى التحيات . . . والشمع قد رفعت على المنار رفع البنود، وعرضت عليها عرض الجنود، ليجتلى طلاقة رواثها القريب والبعيد، ويستوى فى هداية ضيائها الشقى والسعيد . . .[2] » .

وأروع ما جاء فى وصفه الفقرة الخاصة بقباب الجامع ومحرابه ونصها : « وظهور القباب مؤللة وبطونها مهللة، كأنها تيجان، رصع فيها ياقوت ومرجان، قد قوس محرابها أحكم تقويس، ووشم بمثل ريش الطواويس، حتى كأنه بالمجرة مقرطق وبقوس قزح ممنطق، وكأن اللازورد حول وشومه، وبين رسومه، نتف من قوادم الحمام، أو كسف من ظلل الغمام » .

وكأن شروع عبد الرحمن الداخل فى بناء هذا الجامع عام ١٦٩ هـ (٧٨٥ م)

---

(١) الحميرى ص ١٥٣ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٩١ .

فأتمه فى عام واحد[1] .

ولما تولى عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الإمارة سنة ٢٠٦هـ (٨٢٢م)، أضاف إلى الجامع بلاطين جانبيين عام ٨٣٤م، ثم مد بلاطات الجامع كلها جنوباً مسافة ٢٦ متراً، وذلك عام ٨٤٨م. وسايرت هذه الزيادة أسلوب المسجد الأول فى البناء والزخرفة، ولم تشذ عنها إلا فى زخرفة المساند الملفوفة. أما الزيادة الثالثة فتمت فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، إذ وسع فناء الجامع، وأقام له مئذنة، ضخمة من الحجر سنة ٣٤٠هـ (٩٥١م). ولما كانت خلافة الحكم المستنصر تضاعف عدد سكان قرطبة، وضاقت المدينة بمن وفد إليها من بربر العدوة من زناتة، ولم يعد المسجد الجامع يتسع لجموعهم الغفيرة، فاضطر الحكم إلى توسيع المسجد من جهة القبلة عام ٩٦١م، وعهد إلى حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى بمهمة الإشراف على إحضار الأحجار من جبال قرطبة. وبهذه الزيادة كملت محاسن الجامع، وصار فى حد يقصر الوصف عنه، وفى ٩٨٧م كانت الزيادة الأخيرة فى جامع قرطبة على يدى المنصور بن أبى عامر، وبها اكتملت لجامع قرطبة صورته الأخيرة. فلما سقطت قرطبة عام ١٢٣٦م، تحول المسجد الجامع إلى كاتدرائية، وهدم جزء من إضافة عبد الرحمن الأوسط وإضافة المنصور عام ١٥٢٣ وأقيم مكانهما كنيسة وهى التى عبر عنها شارلكان بقوله: « لو كنت قد علمت بما وصل إليه ذلك لما كنت قد سمحت بأن يمس البناء القديم، لأن ما بنيتموه موجود فى كل مكان، وما هدمتموه فريد فى العالم أجمع ».

وكان بقرطبة سوى هذا الجامع مساجد أخرى ثانوية بلغ عددها وفقاً لما ذكره المؤرخون العرب نحواً من ٣٨٧٧ مسجداً، وقيل ١٦٠٠ مسجد[2]، ولم يتبق من جميع

---

(١) انظر ما كتب عن جامع قرطبة فى مقالاتى التالية :
ا - كتاب المساجد والقصور فى الأندلس من سلسلة اقرأ عدد ١٩٠ (١٩٥٨).
ب - أثر الفن الخلافى بقرطبة فى العمارة المسيحية بإسبانيا وفرنسا » المجلة العدد ١٤ ص٧٣-٨٨.
ج - دائرة معارف الشعب عدد ٦١ ص ١٠٦ - ١١٠. وارجع إلى ما كتبه الأستاذ الدكتور أحمد فكرى عن جامع قرطبة فى بحثيه الآتيين :
١ - العمارة فى الأندلس، مقال فى مجلة الكاتب المصرى فبراير ١٩٤٦ ص ١٠٩-١١٧
٢ - كتاب « مساجد القاهرة ومدارسها » الإسكندرية ١٩٦١ ص ٢٤٢ - ٢٤٨

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٩.

هذه المساجد اليوم سوى ثلاث مآذن، هى اليوم أبراج كنائس سان خوان وسانتا كلارا وسانت ياجو . ويغلب على الظن أنها ترجع جميعاً إلى عصر عبدالرحمن الأوسط الذى ذكر المؤرخون أنه أقام هو وجواريه عدداً كبيراً من المساجد فى قرطبة والأندلس[١]. وقد قورنت تيجان الأعمدة بمئذنة سان خوان بتيجان أعمدة زيادة عبد الرحمن الأوسط فى جامع قرطبة ، فوجد أنها ترجع إلى مصنع واحد[٢]. كما قورنت المئذنة من الداخل بمئذنة جامع عمر بن عدبس بإشبيلية الذى بنى فى عهده ، فوجد أنها متشابهان للغاية ، إذ أن بداخل المئذنتين درج حلزونى يدور حول دعيمة وسطى مربعة الشكل[٣] .

هذه عجالة سريعة لتاريخ قرطبة وذكر عمرانها فى عصر بنى أمية ، وسنتناول آثارها بالتفصيل فى الفصل الأخير من هذا الكتاب .

الحركة العلمية فى قرطبة فى عصر بنى أمية :

وإذا انتقلنا إلى الحركة العلمية فى قرطبة فى عصر بنى أمية ، وجدنا أنها نشطت نشاطاً لم تشهد قرطبة نظيراً له من قبل ، حتى لقد أصبح اسم قرطبة فى حد ذاته يقترن بالعلم والعلماء، وأولى الفضل والأدباء، وفى ذلك يقول الشاعر :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة　　منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة　　والعلم أعظم شىء وهو رابعها

وإذا استعرضنا الناحية الدينية التى اتسمت بها قرطبة[٤]، نجد أن المذهب

---

(١) ابن سعيد المغربى، المغرب فى حلى المغرب ص ٤٦ .

(٢) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, t. III, Madrid 1951.

(٣) Torres Balbás, La Primitiva Mezquita mayor de Sevilla, Al-Andalus, 1946, p. 438.

(٤) يشير الحميرى إلى أن أهل قرطبة « اشتهروا بصحة المذهب » (ص ١٥٣) والواقع أن أهل قرطبة كانوا أكثر سكان الأندلس تديناً وتقوى ، فى قرطبة ظهر دعاة المذهب المالكى ، وبرز كثير من الفقهاء الذين كان لهم شأن بثورة الربض المعروفة ، وذكر القلقشندى أنه سمع تعظيم أهل قرطبة للشريعة ، وذكر أحد المؤرخين أنها مستقر السنة والجماعة وأنه نزلها جملة من التابعين وتابعى التابعين . وذكر ابن سعيد أن من محاسنها ظرف اللباس والتظاهر بالدين والمواظبة على الصلاة وتعظيم أهلها لجامعها الأعظم وكسر أوانى الخمر حيثما وقع عين أحد من أهلها عليها (انظر المقرى ج ٢ ص ١٠) .

المالكى كان المذهب السائد فيها ويرجع الفضل فى انتشاره وسيادته إلى شخصيتين كبيرتين: الأول شخصية زياد بن عبد الرحمن اللخمى المعروف بشبطون .

والثانية شخصية يحيى بن يحيى الليثى، وقد سبق أن تحدثنا عنهما . وبجانب هذا المذهب نجد أن المذهب الشافعى يتسرب إلى قرطبة، على يدى قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار وابنه محمد من بعده ، وكان قاسم هذا يؤمن بضرورة الرجوع إلى الاجتهاد فى الفقه وذلك بدراسة القرآن والسنة، والاستناد إلى الاجماع والقياس ، وقد قلده الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط منصباً هاماً إذ جعله كاتبه الخاص حتى يجنبه احتكاك فقهاء قرطبة به وهم أصحاب الرأى والتقليد ، وظل قائماً بوظيفته حتى توفى سنة ٢٧٧ هـ (٨٩٠ م) ، وكذلك فعل الأمير محمد عند ما وفد بقى بن مخلد إلى قرطبة قادماً من المشرق بعد رحلة طويلة، جمع فيها من العلوم والروايات الكثيرة والاختلافات الفقهية ما أثار عليه فقهاء قرطبة المالكية ، الزاهدين فى الحديث ، والمقصرين عن التوسع فى المعرفة ، فحسدوه ووضعوا فيه القول القبيح ، حتى ألزموه البدعة ، وشنؤوه إلى العامة ، وتخطى كثير منهم برميه إلى الإلحاد والزندقة ، ونادوا بسفك دمه، فأمنه الأمير ورفع شأنه وأدنى منزلته ، حتى توفى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) . وإلى جانب المذهب الشافعى الذى انتشر بوجه خاص فى أيام الخليفة الحكم المستنصر ، تسلل المذهب الظاهرى إلى قرطبة ، وكان قد ظهر بادىء ذى بدء فى العراق على يدى داود بن على (المتوفى سنة ٢٧٠هـ) ، وقد اعتنق هذا المذهب عدد من مفكرى الأندلس، منهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى الذى « غلب عليه التفقه بمذهب أبى سليمان داود بن على الأصبهانى المعروف بالظاهرى ، فكان منذر يؤثر مذهبه ، ويجمع كتبه ، ويحتج لمقالته ، ويأخذ به فى نفسه وذويه[1] » .

ولكنه كان يقضى فى أحكامه بمذهب مالك وأصحابه ، وهو المذهب الرسمى فى الأندلس ، خشية أن يتعرض لغضب فقهاء المالكية عليه . وحمل لواء هذا المذهب بعد ذلك الفقيه أبو محمد بن حزم القرطبى[2]، ثم أبو الخطاب عمر بن

---

(١) المقرى ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) كان ابن حزم فى بداية أمره شافعى المذهب ثم انقلب إلى الظاهرية، فوضع الكتب فى هذا =

الحسن بن دحية الظاهري .

ولقد أنجبت قرطبة عدد كبيراً من العلماء فى الفلسفة والطب والأدب ، فنى الفلسفة ظهر فيلسوف قرطبة الأول محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي (٢٦٩ — ٣١٩ هـ؛ ٨٨١ — ٩٣١ م) ، وهو الذى أحرقت كتبه ومصنفاته بأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر خارج باب جامع قرطبة ، لأنها كانت تتضمن إشارات غامضة وعبارات عن منازل الملحدين ، وكان مذهبه يجمع بين التصوف وبين الاعتزال ، فنى الاعتزال كان يقول بالاستطاعة والوعد والوعيد ورؤية الله ، وهى آراء تتفق مع آراء ابن حزم وسعيد الطليطلى والشهرزورى والشهرستانى ، وأما آراؤه الفلسفية فقد بناها على آراء لفيلون السكندرى ، وأفلوطين نسبت لانبذوقليس Empédocle ، ومنها الجمع بين معانى صفات الله ، ومنها القول بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات فيما عدا الذات الإلهية[١] . ومن تلاميذه الياس بن يوسف الطليطلى وخليل بن عبد الملك[٢] .

وفى الطب ظهر أحمد بن إياس القرطبي فى عهد الأمير محمد ، وأبو عبد الله محمد بن عبدون العذرى القرطبي ، وحسداى بن شبروط اليهودى فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وأبو القاسم الزهراوى فى عهد الحكم المستنصر . وكان الزهراوى هذا معروفاً فى إسبانيا المسيحية باسم Alsaharavius ، وقد ترجم جيراردو دى كريمونا كتابه Liber Servitoris ، وترجم جيلودى كاولياك كتابه عن الجراحة إلى اللاتينية تحت عنوان Chirurgia Parva سنة ١٤٧٩ م .

وفى الشعر نبغ الرمادى القرطبي وكان رقيقاً فى شعره ، ومحمد بن يحيى القلفاط ، وأحمد بن محمد بن عبد ربه .

ولقد شجع أمراء بنى أمية الثقافة والأدب واحتضنوا الشعراء والكتاب واهتموا

= المذهب وثبت عليه حتى مات ، وقد طعن فيه الفقهاء ، وشنعوا عليه ، وأقصاه الملوك ، وأبعدوه عن وطنه ، وذكروا أنه صنف نحو ٤٠٠ مجلد تشتمل على ثمانين ألف ورقة (انظر المرجع السابق ص ٢٨٣ وما يليها) .

(١) انظر جونثالث بلنثية ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ ص ٣٣٠ — Lévi-Provençal, Histoire, t. III. op. cit. p. 486

(٢) إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسى ، الجزء الثانى من المكتبة الأندلسية ، بيروت ١٩٦٠ ص ٥٢ — ٥٨ .

باقتناء الكتب النادرة ، فلقد بعث الأمير عبد الرحمن الأوسط عباس بن ناصح الجريرى إلى المشرق للبحث عن الكتب القديمة النادرة ، فأتى له بالسند هند وغيره ، ويعتبر عباس بن ناصح المذكور أول من أدخلها الأندلس ، وعرف أهلها بها ونظر هو فيها[1] . غير أن الحركة الأدبية والثقافية لم تصل إلى ذروتها إلا فى عصر الخليفة الحكم المستنصر . وكان أكثر الخلفاء حباً للكتب حتى قيل : « إنه جمع من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة ، حتى قيل إنها أربعمائة ألف مجلد ، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر فى نقلها ، وكان عالماً نبيهاً ، صافى السريرة سمع من قاسم بن إصبغ ، وأحمد بن دحيم ، ومحمد بن عبد السلام الخشنى ، وزكريا بن خطاب ، وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ، وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحى ، باذلا فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه ، وكان ذا غرام بها ، قد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ، ودق نظره ، وجمت استفادته[2] » . ويذكر ابن بشكوال أنه قلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر أو تعليق ، مهما كان موضوع هذا الكتاب ، وكان يعتنى بكتابة نسب المؤلف ومولده وتاريخ وفاته ، ولذلك كان فى معرفته برجال العلم والأدب والأخبار والأنساب أحوذياً نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله[3] . وكان الحكم محباً للعلماء ، مكرماً لهم ، فكان يبعث فى استقدامهم من المشرق ويرحب بهم ويكرم مثواهم ويرفع منازلهم عنده ، ومن بين العلماء المشارقة الذين وفدوا إلى قرطبة أبو على إسماعيل بن القاسم القالى اللغوى ، صاحب كتاب « الأمالى » واتفق أن وصل قرطبة فى أيام الناصر (سنة ٣٣٠ هـ) ، « فأمر الناصر ابنه الحكم باستقباله ، عند نزوله بالأندلس ، وباصطحابه معه إلى قرطبة ، تكرمة للقالى ، فسار معه نحو قرطبة فى موكب جليل . واختص أبو على القالى بالحكم المستنصر ، وباسمه طرز القالى كتاب الأمالى ، وكان الحكم يعينه على التأليف بواسع العطاء ، ويشرح صدره بالإفراط فى الإكرام »[4] . وكان قدوم القالى إلى قرطبة يمثل نهضة فى الدراسات اللغوية والأدبية ، فعنه تلقى الأندلسيون

---

(١) ابن سعيد المغرب ص ٤٥ . (٢) المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٧١ .

(٣) نفس المرجع .

(٤) ابن خلدون ، كتاب العبر ج ٤ ص ١٤٦ – المقرى ج ١ ص ٣٦٢ .

واتخذوه حجة وإماماً ، ولم يكن لديهم قبله إلا ابن القوطية وثابت وابنه القاسم والزبيدى[1]. وكان الحكم يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ، ويزودهم بالأموال الطائلة لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه من قبل ، وبعث فى طلب كتاب « الأغانى » إلى مصنفه أبى الفرج الأصفهانى ، ودفع إليه فيه ألف دينار ، فأرسل إليه أبو الفرج نسخة مكتوبة من هذا الكتاب قبل أن يصدر فى بغداد ، وكذلك ألف له كتاباً فى أنساب قومه بنى أمية .

وقد فعل المستنصر ذلك أيضاً مع القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم[2]، ومع محمد بن القاسم بن شعبان بمصر ، ومحمد بن يوسف الوراق الذى صنف له كتاباً ضخماً فى مسالك إفريقية وممالكها ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج[3].

وكان يعين هؤلاء الكتاب بالمال على كتابة مؤلفاتهم ، كما كان لا يتردد فى مساعدتهم من الناحية العلمية بإعادتهم ما يحتاجون إليه من مصادر ، فقد أرسل إلى الكاتب المصرى أبى سعيد عبد الرحمن بن يونس صاحب كتاب « تاريخ مصر والمغرب » كتاباً استعان به هذا المؤرخ فى تصنيف كتابه فيما يختص بالأندلس[4] .

واعتنى الحكم بهذه الكتب عناية فائقة ، فجمع فى قصره الحذاق فى النسخ ، والمهرة فى الضبط ، والمجيدين لفن تجليد الكتب ، فاجتمعت له فى قصره بقرطبة خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، إلا ما يذكر عن الناصر العباسى بن المستضىء بالله ، وكان عدد فهارس عناوين الكتب فقط أربعاً وأربعين فهرسة ، تشتمل كل فهرسة على عشرين ورقة[5].

---

(١) إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٤ .

(٢) المقرى ج ١ ص ٣٧١ .

(٣) المقرى ج ٢ ص ٤١٨ .

(٤) P. Melchor M. Antuña : La corte literaria de Alhaquém II en Cordoba, el-Escorial, 1929, p. 42.

(٥) ابن سعيد المغربى ، المغرب ص ١٨١ – المقرى ص ٣٦٢ .

كان مصير هذه المكتبة الإحراق ، فقد قام المنصور بحرق ما كان فى خزائن الحكم من كتب الدهرية والفلاسفة بمحضر من العلماء أمثال الأصيلى وابن ذكوان والزبيدى وغيرهم ، وضاعت البقية الباقية من الكتب فى غمار الفتنة .

كذلك اهتم الحكم بكتب الطب والعقاقير والتنجيم ، منذ أن أهدى الامبراطور البيزنطى أباه كتاب ديسقوريدس فى النباتات والعقاقير ، وكتاب هروسيس. وقد قام بترجمة هذا الكتاب للحكم قاضى النصارى بقرطبة وقاسم بن إصبغ[1]. أما قاضى النصارى المذكور فأغلب الظن أنه وليد بن حيزون الذى قام بدور الترجمان للملك أردون عند ما قدم إلى قرطبة لزيارة المستنصر بالله سنة ٣٥١ هـ[2].

ولا ينبغى أن نترك هذا الموضوع دون أن نشير إلى ما ذكره الرحالة ابن حوقل فى وصف قرطبة إذ يقول : « وهى أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل، وسعة محل ،وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق[3]»

* * *

السفارات السياسية بين ملوك أوربا وبين أمراء وخلفاء بنى أمية فى الأندلس :

شهدت قرطبة فى أيام بنى أمية ازدهاراً لم تشهده من قبل ، واكتسبت شهرة عالمية فى هذا العصر ، فأصبحت مركزاً حضارياً هامة يقصده الطلاب والعلماء ، كما أصبحت مركزاً سياسياً متألقاً ، إذ أخذ ملوك أوربا المسيحية وعلى الأخص إمبراطور بيزنطة وملوك إسبانيا المسيحية يتوددون إلى أمراء وخلفاء بنى أمية بالسفارات. وأولى السفارات البيزنطية التى قدمت إلى قرطبة سفارة من قبل الأمبراطور توفلس Théophile برئاسة قراطيوس الرومى ، وذلك فى سنة ٢٢٥ هـ (٨٢٩ م) فى عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط. وقد وردت تفصيلات هذه السفارة فى كتاب المقتبس لابن حيان ، وقد حمل رسول توفلس إلى عبد الرحمن هدية ورسالة يطلب منه فيها مواصلته ويرغب فى استرجاع الشام انتقاماً من المأمون والمعتصم اللذين هاجما بلاده ،

---

(١) الحميرى ، جذوة المقتبس ص ٣١٢ ، ويستبعد الدكتور إحسان عباس اشتراك قاسم بن إصبغ فى ترجمة كتاب هيرسيس إذ توفى قاسم فى سنة ٣٤٠ هـ (انظر تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٧) . والواقع أن قاسم هذا كان متصلا بالأمير الحكم المستنصر منذ أن كان ولياً للعهد ، إذ اختصر له كتاب السنن لأبى داود وسماه « المجتنى » وذلك فى محرم سنة ٣٢٤ وجعله باسم الحكم المستنصر (المقرى ج ٢ ص ٢٥٤) فلا نستبعد إذن أن يكون قد ترجم كتاب هيروسيس قبل أن يتولى الحكم الخلافة .

(٢) المقرى ج ١ ص ٣٦٦ وما يليه .

(٣) المقرى ج ٢ ص ٨ .

وقد عبر عنهما بابني مراجل وماردة(١). وقد رد الأمير على هذه السفارة بسفارة أخرى وبعث مع سفيره إلى الإمبراطور هدية لطيفة ، كما بعث معه رسالة ناقش فيها ما جاء فى رسالة الإمبراطور فقرة فقرة(٢).

ثم كانت السفارة البيزنطية الثانية فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، إذ وفد رسل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع فى صفر سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) حاملة هدية رائعة إلى الخليفة العظيم. واحتفل الناصر لقدوم الرسل كل الاحتفال، وركبت العساكر فى ذلك اليوم بالسلاح فى أكمل شكة ، وزين القصر الخلافى بأنواع الزينة وصنوف الستور ، وعهد الخليفة إلى أحد قواده وهو يحيى بن محمد بن الليث باستقبالهم ومرافقتهم من الميناء إلى العاصمة . فلما اقترب موكب الرسل الروم من قرطبة ، خرج القواد للقائهم واستقبالهم فى العدد والعدة ، كما تفعل الدول الكبرى المتحضرة فى وقتنا الحاضر عند استقبال عظيم من العظماء، واصطف القواد وتلقوهم قائداً بعد قائد، ثم استقبلهم أخيراً الفتيان الكبيران ياسر وتمام ، أعظم قواد الخليفة وأصحاب خلوته، وذلك مبالغة فى الاحتفال بهم ، ورافقاهم إلى أحد قصور قرطبة التى اختيرت لمقامهم ، وهو منية الحكم بعدوة قرطبة، فى الربض ، وأحيط هذا القصر بالحراسة المشددة ، ومنع الناس من الاقتراب منه . ورتب الناصر لحجابة الرسل وخدمتهم ستة عشر رجلا اختيروا من الموالى ووجوه الحشم . وكان الخليفة الناصر مقيماً وقتئذ بقصر الزهراء ، فلما مضى نحو شهر من تاريخ وفود هؤلاء الرسل وحان موعد مقابلته لهم ، رحل من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة ، وجلس لهم فى ١١ ربيع الأول سنة ٣٣٨ هـ فى بهو المجلس الزاهر الذى يعتبر أروع قاعات قصر الخلافة بقرطبة ، وكان مخصصاً للاستقبالات الرسمية ، وجلس إلى يمينه الحكم المستنصر ولى العهد ، ويليه عبد الله فعبد العزيز فالأصبغ فمروان ، وجلس إلى يساره المنذر ثم عبد الجبار فسليمان ، من أبناء الخليفة .

وتوزع الوزراء حسب مراتبهم إلى اليمين واليسار ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى وراءهم . وفرشت أبهاء القصر بعتاق البسط وكرائم

---

(١) المقرى ج ١ ص ٣٢٤ .

(٢) ليفى بروفنسال ، الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة عبد العزيز سالم ص ١٠١ .

الدرانك أى الأبسطة وظللت أبواب القصر وحناياه وعقوده بظلل الديباج ورفيع الستور ، وهكذا ازدان القصر الخلافى أبهى زينة ، وبدت قاعة المجلس الزاهر متألقة بستور الديباج ، وبريق الثريات ، وسادها سكون يبعث على الرهبة والهيبة ، ووصل رسل الإمبراطور مبهورين ، حائرين ، إلى باب القاعة بعد أن مروا بين صفوف القواد رافعين الأسلحة على شكل أقواس ، ثم اقتربوا من الخليفة وقدموا له الهدية . وتفصيل ما حدث بعد ذلك موجود فى كتب التاريخ[1]. وقد عاد الرسل إلى القسطنطينية ، وبعث الناصر معهم هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة .

هذا مثل واحد للسفارات التى وفدت إلى قرطبة حاضرة الخلافة ، مهادنة للناصر ، أو موادعة له ، وتوالت السفارات على قرطبة تتزلف إلى الخليفة الناصر ، ثم المستنصر من بعده ، وأهم هذه السفارات سفارات ملوك إسبانيا الذين كانوا يفدون إلى قرطبة تزلفاً إلى الخليفة أو رغبة فى إعادتهم إلى عروشهم أو طلباً لتجديد الصلح بينهم وبينه ، فمنها سفارة الملك أردون الرابع على الحكم المستنصر سنة ٣٥١ هـ ، وسفارة ملك قطلونية للحكم يسألانه تجديد الصلح ، وسفارة غرسية بن شانجة إلى الحكم لطلب الصلح معه ، ووفود أم لذريق بن بلاشك القومسى إلى الحكم .

* * *

لقد بلغت قرطبة حاضرة الخلافة درجة رفيعة من الحضارة ، وأخذت تشع تأثيراتها إلى سائر أنحاء الأندلس ، بل إلى مجالات بعيدة خارج الأندلس ، ويكفى لبيان ذلك أن نشير إلى تقدم أهل الأندلس فى العلوم المختلفة من فلك ورياضة وطب وكيمياء وأدب وفنون ، على نحو تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، مما كان له أكبر الأثر فى تفوق الأندلس على غيرها من الأقطار الأوروبية المجاورة .

وينبغى أن نشير إلى فضل خلفاء قرطبة فى هذا التقدم الذى أحرزته الأندلس ، فمنها خرجت أولى المحاولات فى الطيران[2] ، ومنها خرج أوائل المكتشفين فيما وراء

---

(١) ارجع إلى نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٣ – ٣٤٧ ففيه وصف تفصيلى للهدية والمجلس وذكر للخطب التى ألقاها ممثلو الخليفة .

(٢) صاحب هذه المحاولة عباس بن فرناس الذى احتال فى تطيير جثمانه ، وكسا نفسه بالريش ، ومد له جناحين ، وطار فى الجو مسافات بعيدة (انظر مقالى عن الحياة العلمية والأدبية فى الأندلس بكتاب الشعب عدد ٦٤ ص ١٩٦ .

بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) المعروف بالأوقيانوس أو البحر الأخضر للتأكد من وجود أرض تقع غربى هذا المحيط[1] إذ كان الظن أن الساحل الغربى للأندلس هو آخر المعمور من الأرض وأن البحر المحيط لا أرض وراءه[2].

(١) أولى هذه المغامرات ما رواه الأدريسى فى نزهة المشتاق ونقله الحميرى فى الروض المعطار ، خاصاً بجماعة المغرورين أو المغررين الذين خرجوا من مدينة الأشبونة فى العصر الأموى وهم ثمانية أبناء عم ركبوا مركباً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ثم ركبوا بحر الظلمات « ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه » (انظر الحميرى ص ١٦) فساروا فيه ١١ يوماً ثم اتجهوا جنوباً ووصلوا بعد ٢٣ يوماً إلى جزيرة سموها بجزيرة الغنم ، تمتاز بكثرة أغنامها ووجود رجال شقر الوجوه شعورهم سبطة .

والمغامرة الثانية هى التى قام بها خشخاش من الأندلس ، « وكان من فتيان قرطبة فى جماعة من أحداثها فركبوا مراكب استعدوها ، ودخلوا هذا البحر ، وغابوا فيه مدة ، ثم أتوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة » (انظر الحميرى ص ٢٨ وما يليها .) ويبدو أن خشخاش هذا من جماعة البحريين الذين أقاموا ببجانة (انظر Lévi Provençal Histoire I.p.354) .

ولا شك أن المغامرين فى كلتا المحاولتين وصلوا إلى جزر فى المحيط الأطلسى ، غير جزر الأزور القريبة من ساحل المغرب والمعروفة بالجزائر الخالدات .

(٢) المسعودى ، كتاب التنبيه والإشراف ، ط . ليدن ١٨٩٣ ص ٦٨ — الحميرى ص ١ ، ٢ ، ٢٨ . يقول الحميرى عن هذا البحر « ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ولا وقف منه بشر على خبر صحيح لصعوبة عبوره وإظلامه ، وتعاظم موجه وكثرة أهواله ، وتسلط دوابه وهيجان رياحه . » .

ملحق

نص الكتاب الذى تلقب فيه عبد الرحمن بن محمد بألقاب الخلافة

من كتاب : Una Cronica Anonima de Abd al-Rahman III al Nasir, ed. par Lévi-Provençal y Emilio Garcia Gomez, Madrid-Granada 1950, p. 79.

« بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على نبيه محمد الكريم . أما بعد: فإن أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله تعالى ما ألبسه ، فنحن ، للذى فضلنا الله به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذى أساد فى الآفاق من ذكرنا ، وأعلى فى البلاد من أمرنا ، وأعلق من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم بما أظلهم من دولتنا — إن شاء الله ، فالحمد لله ، ولىّ الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه — ، وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا كذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه ، وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه . فمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، واجر مخاطبتك لنا عليه ، إن شاء الله » .

الفصل السابع

بنو عامر وسقوط الخلافة بقرطبة

(١) دولة المنصور بن أبي عامر
(٢) عهد الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور
(٣) عبد الرحمن بن المنصور وسقوط دولة بني عامر
(٤) الفتنة
(٥) عهد سليمان المستعين - والحرب الأهلية
(٦) بنو حمود وسقوط الخلافة
(٧) عوامل سقوط الخلافة

الفصل السابع

بنو عامر وسقوط الخلافة بقرطبة

١

دولة المنصور بن أبى عامر

لما توفى الحكم المستنصر بالله فى ٤ صفر سنة ٣٦٦ هـ، بويع ابنه وولى عهده هشام بالخلافة، وتلقب بالمؤيد بالله، وكان هشام صبيا لايتجاوز عمره عشر سنوات فتمت مبايعته بقرطبة بفضل تدبير وزير أبيه محمد بن أبى عامر والحاجب جعفر ابن عثمان المصحفى، وغالب مولى الحكم وصاحب مدينة سالم ، فقد قام هؤلاء بقتل المغيرة أخى الحكم المستنصر والمرشح للخلافة من بعده[1] وتفصيل ذلك أنه لما مات الحكم بعد طول مرضه بالفالج، أخفى خادماه وفتياه فائق المعروف بالنظامى صاحب البرد والطراز، وجؤذر صاحب الصاغة والبيازرة، خبر وفاته على وزيره جعفر وسائر أهل الدولة، واستظهرا بكتمان ذلك، وعزما على رد الأمر للمغيرة بن الناصر أخى الحكم ومبايعته خشية أن تؤول الخلافة لهشام بن الحكم لصغر سنه وإنكار الناس لتقديمه على أن يقر المغيرة ابن أخيه هشاماً على العهد من بعده ، وبذلك يضمن هذان الفتيان بقاء السلطة فى أيديهما باعتبارهما أكبر فتيان القصر ومدبرى هذه الخطة[2] . وكان جؤذر يرى ضرورة قتل الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى حتى يتم تنصيب المغيرة، بينما كان فائق لا يرى هذا الرأى، لأنه لم يرض أن يفتتح عهد المغيرة بسفك الدماء . فأرسلا يستقدمان جعفر بن عثمان، فقدم، ونعيا إليه الحكم، وعرضا عليه ماأجمعا عليه من الرأى، فوافقهما عليه، وخرج عنهما، واجتمع بأصحابه من أنصار هشام، مثل زياد بن أفلح مولى الحكم، وقاسم بن محمد، ومحمد بن أبى عامر ، واستدعى بنى

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

(٢) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

برزال إذ كانوا بطانته من سائر الجند ، واستحضر سائر قواد الأجناد الأحرار ، فاجتمع له من هذه الطوائف ما شد أزره وقوى أمره ، فنعى لهم الخليفة وأبلغهم ما دبره الصقالبة من نكث بيعة هشام وتنصيب المغيرة ، ثم اتفق معهم على قتل المغيرة ، ولكنهم جبنوا عن ذلك ، فتطوع ابن أبى عامر بقتل المغيرة . فركب محمد بن أبى عامر إلى المغيرة من ساعته ، وركب معه بدر القائد ، مولى الناصر ، فى مائة غلام من غلمان السلطان ، ووقف بهم خارج باب دار المغيرة ، وأحاط سواه من أصحاب محمد بجهاتها ، واقتحم محمد بن أبى عامر عليه ، وقتله خنقاً فى مجلسه ، وعلق أصحابه جسد المغيرة فى مخدع يتصل بمجلسه ، كهيئة المنتحر وأشاعوا أنه خنق نفسه لما أكرهوه على الركوب لابن أخيه .

وهكذا استقر الأمر لهشام وتولى الحاجب محمد بن أبى عامر الوصاية عليه[1] بعد أن تألق نجمه وتفوق على زميله جعفر .

وابن أبى عامر من أسرة عربية يمنية ، وكان جده عبد الملك المعافرى من بين رجالات العرب الذين اشتركوا فى طليعة طارق بن زياد ، وأبدى شجاعة وبسالة فى الاستيلاء على قرطاجنة . ثم استقر بنو عامر فى مدينة طرش بعد الفتح . وخدم من بنى عامر محمد أبو عامر بن الوليد وابنه عامر فى عهد الدولة الأموية ، وكان عبد الله ابن عامر والد المنصور رجلا فاضلا ، انصرف إلى الحياة الدينية ، ومات عند عودته من الحج بمدينة طرابلس الغرب . ونشأ ابنه محمد ظاهر النجابة والذكاء ، تتفرس فيه مخايل الرياسة والطموح . وسلك محمد بن أبى عامر سبيل القضاة فى أول أمره مقتدياً بأعمامه وأخواله ، فدرس الحديث ، وقرأ الأدب واللغة على أبى على البغدادى ، وعلى أبى بكر بن القوطية ، وقرأ الحديث على أبى بكر بن معاوية القرشى راوية النسائى ، وغيره من رؤساء أهل المشرق . ثم اقتعد ابن أبى عامر دكاناً عند باب القصر يكتب فيه لمن يعن له كتب من الخدم والمرافقين للخليفة الحكم إلى أن طلبت السيدة صبح البشكنسية

---

(١) ابن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ص ٥٨ ، وذكر ابن بسام أن الحكم تخطى ثلاثة رجال هم إخوته عبد العزيز والأصبغ والمغيرة ، وكلهم أقوياء ، وآثر أن يولى عهده إلى ابنه هشام وكان طفلا لم يبلغ الحلم بعد ، وذكروا أن السبب فى ذلك أن رجلا يتكلم فى الحدثان قال : « لا يزال ملك بنى أمية بالأندلس فى إقبال ودوام ما توارثه الأبناء عن الآباء فإذا انتقل إلى الإخوة وتوارثوه بينهم فقد أدبر وانصرف » ابن بسام مجلد ١ ص ٤٠ .

أم المؤيد هشام وزوجة الحكم من يكتب عنها ، فعرفها به من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر ، فترقى إلى أن كتب عنها فاستحسنته ، وذكرته عند الحكم وطلبت منه أن يقوم ابن أبي عامر بخدمته ، فولاه قضاء بعض المواضع بكورة رية ، فظهرت منه نجابة ، فترقى إلى الزكاة والمواريث بإشبيلية وتمكن من قلب السيدة صبح بما استمالها به من التحف والخدمة ما لم يتمكن لغيره[1] . وذكروا أنه صنع يومئذ قصراً من فضة لصبح أم هشام وحمله على رؤوس الرجال ، فجلب حبها بذلك وقامت بأمره عند سيدها الحكم ، وحدث الحكم خواصه بذلك وقال : « إن هذا الفتى قد جلب عقول حرمنا بما يتحفهم به » ، قالوا : وكان الحكم لشدة نظره فى علم الحدثان يتخيل فى ابن أبي عامر أنه المذكور فى الحدثان ، ويقول لأصحابه : أما تنظرون إلى صفرة كفيه[2] .

ويذكر ابن بسام فى الذخيرة : « فعلت حاله ، وعرض جاهه ، وعمر بابه فى حياة الحكم ، وهمته ترتمى به وراء ما يناله من الدنيا أبعد مرمى ، وهو فى كل ذلك يغدو إلى باب جعفر ويروح ، ويختص به ويتحقق نصيحته ، إلى أن أحظاه الجد ، وساعده القضاء »[3] .

ولما مات عبد الرحمن الابن الأصغر للخليفة ، قلده الخليفة وظيفة جديدة : أن يكون وكيلا لهشام ولى العهد ، فزاد مقدار ابن أبي عامر ، لخاصته بولى العهد ، ومكانه من السيدة والدته ، فاحتاج الناس إليه ، وغشوا بابه ، فأنساهم من سلف من أصحاب السلطان سعة إسعاف ، وكرم لقاء ، وسهولة حجاب ، وحسن أخلاق ، فعرض جاهه ، وعمر بابه واتسع فى بناء داره بالرصافة ، واتخذ الكتاب الجلة ، واستصحب سراة الصحابة ، وكانت مائدته موضوعة لمن ينتاب داره وهمته ترامى إلى ما وراء ما يناله وهو فى هذا كله يغدو إلى دار جعفر بن عثمان المصحفى ، ويروح ويصبح ببابه ، ويختص به[4] » .

وكانت سياسة خلفاء بنى أمية ترمى إلى القضاء على نفوذ الفاطميين فى المغرب الأقصى ، فتحالفوا مع بنى خزر أمراء زناتة ، واستقدم الحكم المستنصر بالله منهم يحيى

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣٧٦ ، ابن بسام المجلد الأول ص ٤٣ .
(٢) نفس المرجع ج ٤ ص ٨٧ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٣٨٤ .
(٣) ابن بسام م ٤ ص ٤٣ .
(٤) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٣٨٥ .

ابن على بن حمدون وعدداً كبيراً من أمراء زناتة سنة ٣٦٠ هـ ، فأمر رؤساء دولته فى الأندلس بالخروج لاستقبالهم ، وكان محمد بن أبى عامر على رأس هؤلاء المستقبلين . وارتفع نجم ابن أبى عامر بعد ذلك إذ أصبح صاحباً للشرطة الوسطى سنة ٣٦١ هـ ثم قاضى القضاة بالمغرب من العدوة بعد ذلك بعهد قصير ، وجعله الخليفة هناك عيناً على الجند، فأدى مهمته على خير وجه، وحظى بإعجاب الخليفة فقربه إليه وزاد فى منزلته(١). وعهد إليه الخليفة بأخذ البيعة لهشام بن الحكم سنة ٣٦٥ هـ . فتم ذلك وقام ابن أبى عامر بتوزيع البيعة على الناس على اختلاف مراتبهم . ولما ازدادت علة الخليفة وتوقع الناس موته، أشار محمد بن أبى عامر على جعفر المصحفى باستركاب ولى العهد فى الجيش إرهابا لأهل الخلاف ، « ففعل وركب فى الناس ركبته المشهورة ومحمد بن أبى عامر بين يديه ، قد كساه الخز ، ونقله إلى أكابر أهل الخدمة ، وأمر ولى العهد هشام فى ذلك اليوم وهو العاشر لصفر من سنة ٣٦٦ هـ بإسقاط ضريبة الزيتون المأخوذة فى الزيت بقرطبة ، وكانت إلى الناس مستكرهة ، فسروا بذلك أعظم السرور ، ونسب شأنها إلى محمد بن أبى عامر ، فأحبوه لذلك(٢) » .

وذكر ابن عذارى فى أسباب ظهوره استمالته للسيدة صبح « بحسن الخدمة وموافقة المسرة وسعة البذل فى باب الإتحاف والمهاداة، حتى استهواها وغلب على قلبها ، وكانت الغالبة على مولاها ، وابن أبى عامر يجتهد فى برها والمثابرة على ملاطفتها ، فيبدع فى ذلك، ويأتيها بأشياء لم يعهد مثلها... وقال الحكم يوماً لبعض ثقاته : ما الذى استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضيهن إلا ما أتاه ، إنه لساحر عليم أو خادم لبيب ، وإنى لخائف على ما بيده(٣) » .

ولما مات الحكم المستنصر ، ودعا فائق وجؤذر للمغيرة بن الناصر ، ولم يقر جعفر المصحفى ذلك، عهد إلى ابن أبى عامر بمهمة قتل المغيرة ، فقام ابن أبى عامر كما رأينا بهذه المهمة وقتل المغيرة خنقاً، وأعجب المصحفى به فأجلسه إلى جانبه تعبيراً عن

---

(١) نفس المرجع ص ٣٧٥ .
(٢) نفس المرجع ص ٣٨٦ .
(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٧٥ .

تقديره له . ثم بويع لهشام المؤيد فى ٤ صفر سنة ٣٦٦ بعهد أبيه، وتولى ابن أبى عامر دعوة الناس لذلك، فلم يختلف على البيعة أحد، وقد كان لذلك أثر كبير فى إعلان شأنه، وبعد صيته . ولم يمض يومان على بيعة هشام حتى قلد الخليفة الجديد أبا الحسن جعفر بن عثمان المصحفى حاجباً لدولته، كما نصب محمد بن أبى عامر وزيراً وجعله رسيلا لحاجبه جعفر فى تدبير شؤون دولته، ثم التزم جعفر سياسة تقوم على الاستئثار بالأعمال، واحتجان الأموال[1]. وعارضه ابن أبى عامر فى تلك السياسة فكانا على طرفى نقيض : فقد استبدل بالبخل جوداً وبالاستبداد أثرة، وباقتناء الضياع اصطناع الرجال، ثم إن ابن أبى عامر قام بالنظر فى الوكالة، وخدمة السيدة صبح أم هشام، وكان جعفر يثق بابن أبى عامر ويسكن إليه، فغافله ابن عامر وحظى برضاء الخليفة، وأمه ونال محبة الشعب، كل ذلك وجعفر يشركه فى سره وجهره، ويستريح إلى كفايته « وابن أبى عامر يمكر به ويضرب بين حسدته، ويناقضه فى أكثر ما يعامل به الناس ويستعمل إليهم بالبذل وقضاء الحوائج ، ويتقدم من المعالى إلى ما يحجم جعفر عنه ، يستضم الرجال وجعفر يدفعهم »[2] .

وحدث أن أغار القشتاليون على قلعة رباح بعد وفاة الحكم بعهد قصير، واضطرب الأمر، واستغاث أهل الثغور، وجاء صراخهم إلى قرطبة، فلم يجدوا عند جعفر بن عثمان المصحفى غناء ولا نصرة ، فقد جبن عن لقاء النصارى والدفاع عن المدينة بجيوش قرطبة، وأشار بإزالة القنطرة القائمة على نهر آنة « لعمقه وسوء دجلته » ولم تتسع حيلته لأكثر من ذلك مع كثرة عساكر السلطان وجموم المال ، فكان ذلك من سقطات جعفر المأثورة . وأنف ابن أبى عامر من تلك الدنية، وأشار على جعفر بتجريد الجيش للجهاد، وخوفه سوء العاقبة فى تركه، فأجمع الوزراء على ذلك إلا من شذ منهم، وتبرع ابن أبى عامر بقيادة هذا الجيش، وأعد السلاح والعدة، وخرج فى أول رجب سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٧ م) قاصداً الثغر الجوفى إلى جليقية، وجاز وادى آنة ثم عبر نهر تاجو، ونازل حصن الحامة[3] من أعمال ردميرة ملك جليقية، وافتتح ربضة، وغنم

---

(١) ابن بسام القسم الرابع من المجلد الأول ص ٤٢ .

(٢) ابن بسام ص ٤٣ .

(٣) يقع هذا الحصن فى مديرية سلمنقة ويقابل اليوم بلدة بانيوس Banos على حدود إقليم ليون واسترامادورو وعلى السفح الغربى لسيرا جريدوس Sierra Gredos حيث يطلق على قمتها اسم Plaza del =

غنائم كثيرة ، ثم قفل بالغنائم والسبي إلى قرطبة ، حيث استقبله الناس بما يستقبلون به الأبطال من حفاوة وتكريم ، وأخلص له الجند لما رأوا من شجاعته وكرم عشيرته ، فأحبوه والتفوا حوله (١) .

وأخذ نجم جعفر يأفل شيئاً فشيئاً ، فرأى ابن أبي عامر أن يستغل نجاحه في حملته الأولى للقضاء على جعفر المصحفي ، والتخلص منه هو وغيره ممن يقفون عقبة في سبيل انفراده بشؤون الدولة . وكان لابد لابن أبي عامر من البدء في إسقاط جعفر الذي كان يحتجن الأموال ، ويوزع مناصب الدولة على ذوي قرباه ، وقد ترجم له الفتح ابن خاقان في كتابه « مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس » ، وفيه يقول : « تجرد للعليا ، وتمرد في طلب الدنيا ، حتى بلغ المنى ، وتسوغ ذلك الجنى ، فسما دون سابقة ، وارتقى إلى رتبة لم تكن لبيته بمطابقة ، فالتاح في أفياء الخلافة ، وارتاح إليها بعطفه كنشوان السلافة ، واستوزره المستنصر ، وعنه قد كان يسمع وبه يبصر ، فأدرك بذلك ما أدرك ، ونصب لأمانيه الحبائل والشرك ، واقتنى وادخر ، وزرى بمن سواه وسخر . . . » (٢)

عمد المنصور بن أبي عامر إلى التخلص من جعفر ، وكان بين المصحفي وأبي تمام غالب الناصري صاحب مدينة سالم ، وفارس الأندلس الذي لا يباري (٣) ، أشد ما كان بين اثنين من العداوة والمباينة ، فرأى محمد بن أبي عامر أن يتقرب إلى غالب ويستعين به على إسقاط المصحفي ، فإذا ما تخلص من منافسه الأول ، انقلب على غالب ، وقضى عليه بدوره . هذه السياسة إن دلت على شيء فعلى عظم دهاء ابن أبي عامر ، وعلى اعتماده على الحيلة والمكر والخديعة في تحقيق مآربه ، تمهيداً للوصول إلى أرفع مناصب الدولة . وسنحت الفرصة للمنصور بن أبي عامر ، فقد كان غالب قد أظهر التقصير في مدافعة النصارى ، فأهم المصحفي شأنه ، وناظر الوزراء فيما بدا

= Moro Almanzor أو مكان المنصور العربي ، انظر (Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane t. II, p. 211)

(١) ابن بسام : الذخيرة المجلد الأول القسم الرابع ص ٤٥ ، ابن عذاري البيان ج ٢ ص ٣٩٤ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٦٨ ، المقري ج ٤ ص ٨٦ — ٨٧ .

(٢) الفتح بن خاقان : كتاب مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، قسطنطينية ١٣٠٢ هـ ص ٤ .

(٣) كان غالب هذا يعرف بذي السيفين (انظر ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٦٩)

من تثاقله عن الذب عن الثغر . فأشار عليه ابن أبي عامر وسائر الوزراء باستصلاح غالب، ورعي ذمامه خشية أن يصل أمره إلى الخلاف والمعصية . وعمد ابن أبي عامر منذ ذلك الحين إلى مصانعة غالب ومظاهرته، وتأييده، والتقرب إليه، واكتساب محبته وثقته، للاستعانة به على إسقاط المصحفى ، وإن كان ينوى فى قرارة نفسه أن يسقط الاثنين . ولم يزل ابن أبي عامر يقوم بشأن غالب ويمتدحه عند السيدة صبح أم هشام وسائر الحرم حتى تم مراده فيه ، فقلده هشام خطة الوزارتين، وأمره بالاجتماع مع ابن أبي عامر على التدبير على الصوائف ، على أن يدبر ابن أبي عامر جيش الحضرة (قرطبة) ، ويدبر غالب جيش الثغر[1] .

ولما خرج ابن أبي عامر بالصائفة الثانية يوم الفطر من سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٧ م) اجتمع مع غالب بمدينة مجريط، وتعاقدا معاً على الإيقاع بالمصحفى ، وسار جيشاهما نحو سيرا وادى الرمة ، وافتتحا حصن مولة Mola، وغنم المسلمون أوسع غنيمة، وكان الفضل فى انتصار المسلمين يرجع قبل كل شىء إلى غالب ، ولكنه تجرد من فخره ونسبه إلى محمد بن أبي عامر ، وقال له غالب وهو يودعه : « سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل يشغلهم السرور به عن الخوض فيما تحدثه من قصة ، فإياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتتقلدها دونه »[2] .

وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة وهو يجر وراءه الغنائم والسبايا ، فاستمال قلوب العامة، والخاصة، وبعد صيته وهان عليه أمر جعفر وغيره ، وشرع فى هدمه . وصدر أمر الخليفة بعزل ابن المصحفى عن رئاسة الشرطة والمدينة وتقليدها ابن أبي عامر . وكان هذا المنصب الكبير قد احتكره جعفر المصحفى منذ عهد بعيد لابنه محمد[3] . وكان لكفاءة ابن أبي عامر ونزاهته وحسن إدارته للشرطة والمدينة، وما بذله من جهود فى ضبطها أثر كبير فى محبة الشعب له ، فلقد سد باب الشفاعات « وقمع أهل

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٩٥ – نفح الطيب ج ٤ ص ٨٨ – Lévi-Provençal, histoire de l'Espagne Musulmane t. II, p. 213.

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٩٦ ، Lévi-Provençal, op. cit. p. 214
Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, t. II, p. 212.

(٣) Lévi-Provençal : Op. cit. p. 214 — Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, t. II, p. 213.

القسوة والزعارات حتى ارتفع البأس، وأمن الناس، وأمنت عادية المتجرمين من حاشية السلطان ، حتى لقد عثر على ابن له فاستحضره فى مجلس الشرطة وجلده جلداً مبرحاً كان فيه حمامه ، فانقمع الشر فى أيامه جملة[١] » .

وتنبه المصحفى أخيرا إلى خطة ابن أبى عامر ، وفطن إلى نيته السيئة نحوه ، فبادر إلى مصالحة غالب ، وخطب أسماء بنته لابنه عثمان ، وكادت هذه السياسة تؤتى ثمرتها، ولكن ابن أبى عامر حال دون تحقيق هذه المصاهرة ، فقد دفع أهل القصر إلى الطعن فى هذه الخطوبة، ونجح أخيراً فى صرف غالب عن مصاهرة المصحفى ، وتم فسخ المصاهرة فى حين وافق غالب على خطبة ابن أبى عامر لابنته ، وتم له العقد فى محرم سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٨ م[٢])، وبذلك ظهر أمره وعز جانبه . وخرج بعد ذلك فى غزاته الثالثة فى غرة صفر سنة ٣٦٧ هـ ، والتقى مع صهره غالب فى طليطلة ، وافتتحا معاً حصن رقيق، واستوليا على أرباض سلمنقة، وعاد ابن أبى عامر إلى قرطبة، فنال رضاء الخليفة، وقلده منصب ذى الوزارتين، بينما قلد غالب الحجابة بالاشتراك مع جعفر المصحفى . وبالغ الخليفة فى الاحتفال بابن أبى عامر فأمر بزفاف أسماء إليه فى قصر الخلافة . وأيقن المصحفى بالنكبة، وكف عن اعتراض ابن أبى عامر فى شىء من التدبير ، وابن أبى عامر يسايره ولا يظاهره، وانفض عنه الناس وأقبلوا على ابن أبى عامر . وما زال ابن أبى عامر ينصب الشباك على المصحفى فى الخفاء حتى أفسد ما بينه وبين الخليفة ، وسخط عليه الخليفة فعزله عن الحجابة فى ١٣ شعبان سنة ٣٦٧ هـ (٢٦ مارس ٩٧٨ م)، وأمر بالقبض عليه وعلى ولده، وحبسهما فى المطبق بالزهراء ، وطالبهم بالأموال التى تصرفوا فيها . وعهد الخليفة إلى ابن أبى عامر بمحاسبتهم فأخذ يستصفى أموالهم، وينتهك حرماتهم، حتى مزقهم كل ممزق ، وقتل هشام ابن أخى جعفر فى المطبق، وباع ابن أبى عامر قصر المصحفى فى الرصافة ، وكانت من أعظم قصور قرطبة، واستمرت نكبة المصحفى سنتين يفرج عنه حيناً ويحبس حيناً، وينقله المنصور معه فى غزواته حينا، آخر. ثم زج به أخيراً فى سجن المطبق بالزهراء . ويذكر ابن حيان أن المنصور حين أمر بسجن المصحفى

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٩٧ — ابن بسام : الذخيرة ، المجلد الأول — القسم الرابع ص ٤٧ .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٩٨ ، Dozy :op. cit. t. II, p. 216.—Lévi-Provençal, op. cit. p. 215.

« ودع أهله ، وودعوه وداع الفرقة ، وقال لهم : لستم ترونني بعدها حيا » . وكتب إليه المصحفي في سجنه :

هبني أسأت فأين العفو والكرم إذ قادني نحوك الإذعان والندم

وقال وهو يعاني السجن :

صبرت على الأيام لما تولت وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
فيا عجباً للقلب كيف اصطباره وللنفس بعد العز كيف استذلت

وقوله :

لا تأمنن من الزمـــان تقلبـــاً إن الزمـــان بأهله يتقلب
ولقد أراني والليوث تهابني وأخافني من بعد ذاك الثعلب

ولبث المصحفي في سجنه للمرة الأخيرة عدة أيام ثم أخرج ميتاً ، وسلم إلى أهله ، وليس على جسده شيء يواريه غير كساء خلق لبعض البوابين[1] .

وتولى ابن أبي عامر الحجابة بالاشتراك مع صهره غالب ، ثم أخذ ينفرد بالسلطة ، ويسيطر على الخليفة ، فحجر عليه ، واستبد بالدولة ، واعتمد على بربر العدوة في توطيد سلطانه ، فرتب منهم جنوده ، واصطنع أولياءه ، واتخذ فريقاً من الفتيان الصقالبة عرفوا بالخلفاء . وأخر ابن أبي عامر رجال العرب ، وأسقطهم عن مراتبهم فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر[2] . ولم تشغله أمور الدولة عن الجهاد فكانت له في كل غزوة من غزواته التي تزيد على الخمسين مفخرة من المفاخر الإسلامية ، فتوغل في بلاد جليقية ، وغرس في قلوب أعدائه الرعب والهلع ، فلجئوا إلى الفرار ، والتحصن في المعاقل والقلاع . وكان لا يعود من غزوة إلا واستعد لأخرى ، فلم تهزم له قط راية مع كثرة غزواته شاتية وصائفة . ومن أهم غزواته غزوته الرابعة وفيها وصل مدينة سمورة Zamora سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م) ، وهزم ردميرة الثالث ، وهدمها ، واستباحها[3] . وعلم المنصور بعد ذلك أن ملوك المسيحية عقدوا حلفاً ضد الإسلام في الأندلس ، وأن هذا الحلف يتألف من ردميرة

---

(١) الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس ص ٤ – ٨ ، الذخيرة المجلد الأول القسم الرابع ص ٥٠ – ٥٣ ، ابن عذاري المراكشي ج ٢ ص ٤٠٠ – ٤٠٦ – نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٢) ابن خلدون : كتاب العبر ج ٤ ص ١٤٧ ، ١٤٨ طبعة مصر .
(٣) ابن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام ص ٧٦ .

الثالث ، وقومس قشتالة غرسية Garcia Fernandez ، وملك بنبلونة شانجة Sancho Abarca ، فأسرع ابن أبي عامر بالسير إلى طليطلة ، ووصل إلى وادى دويرة الأوسط حيث كانت تتجمع القوات المسيحية . والتحم الجيشان فى رويدة فى أغسطس سنة ٩٨١ م فى مقاطعة بلد الوليد ، على بعد ٢٥ ك . م جنوب غربى شنت مانكش Simancas ، ودارت الدائرة على قوات إسبانيا المسيحية مجتمعة ، وفى هذه الغزوة سبى بضعة عشر ألفاً من مختار السبى[١] ، وعندما عاد إلى قرطبة عقب هذه الغزوة تلقب بالمنصور[٢] .

وفى غزوته الثالثة والعشرين أغار على برشلونة ، وكان يحكمها بوريل الثانى منذ عام ٩٥٤ م ، وخرج المنصور من قرطبة فى ١٢ ذى الحجة سنة ٣٧٤ (٥ مايو سنة ٩٨٥ م) ، ومر بألبيرة وبسطة ومرسية ، ثم اتجه المنصور شمالا ، وسار بحذاء الساحل الشرقى ، وهزم بوريل الثانى فى عدة مواقع ، وواصل زحفه حتى وصل إلى أسوار برشلونة ، وخربها ، وأضرم النيران فى المدينة ، واستولى عليها[٣] . وفى غزوته الثامنة والأربعين استخدم أسطوله ، وعبر به نهر دويرة بالبرتغال ، ونزل بشنت ياقوب فى ٣٨٧هـ (٩٩٧ م) ، وهدم المدينة وجعلها قاعاً صفصفاً ، وعاد إلى قرطبة ، وقد غنم غنائم هائلة . وكانت غزوته المعروفة بغزوة جربيرة سنة ٣٩٠ هـ (٩٩٩م) ، أشد غزواته وأغلظها كريهة ، فلقد تقاطرت عليه جيوش النصارى ، وتجمعت إليه من كل مكان ، فاقتحم المنصور قشتالة من جهة مدينة سالم ، واشتبك مع ملوك الجلالقة من بنبلونة إلى استرقة ، ومعهم شانجة ملك قشتالة ، فى موقعة جربيرة ، وهزمهم هزيمة نكراء[٤] .

ولما تكامل أمر المنصور ، وكثر حساده وأنداده بعد نكبته للمصحفى ، خاف على نفسه من الدخول إلى قصر الخليفة ، فأراد أن يقيم لنفسه قصراً ينزل فيه ، ويجمع فيه فتيانه وغلمانه ، فأقام قصر الزاهرة فى سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) على نهر قرطبة ، وحشد الصناع والفعلة وجلب إليها الآلات الجليلة ، وتوسع فى اختطاطها ، وبالغ فى رفع أسوارها ، وانتقل إليها سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) ، ونزلها بخاصته وعامته ، وشحنها بأسلحته

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٧٦ .

(٢) Lévi-Provençal : op. cit. t. II, p. 235.

(٣) Lévi-Provençal, op. cit. t. II, p. 238 — Aguado Bleye, Manuel de Historia de España, t. I, p. 506.

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٧٩ ، ٨٠ .

وأمواله، واتخذ فيها الدواوين والأعمال، وعمل فى داخلها الأهراء الواسعة، وأطلق بساحتها الأرجاء الفسيحة، وأقطع ما حولها لوزرائه وقواده وحجابه ، فابتنوا بها كبار الدور وعظيم القصور ، وتناهى فيها البناء حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة . وكتب إلى أقطار الأندلس والعدوة بأن يحمل إليها أموال الجبايات[١] ، « وعطل قصر الخلافة، وسد بابه، ونصب رسم الشرطة تلقاءه، وأدار عليه السور الحريز الوثيق، وأشاع أن السلطان فوض إليه النظر فى أمر الملك، وتخلى لعبادة ربه، وبث ذلك فى الرعية »[٢].

ولم يبق أمام ابن أبى عامر من منافس له بعد جعفر المصحفى سوى صهره غالب الذى حنق عليه لحجره على الخليفة، واستيلائه على كل شؤون الدولة . وغضب عليه « لما رآه يطوى الدولة طياً وينشيها خلقاً جديداً منسوباً إليه معروفاً باصطناعه ، فأضمر له الخديعة ورجا منه الإراحة »[٣] ، ولكنه تظاهر بموافقته لسلوكه ودعاه فى إحدى غزواته إلى ولبة فلما قدم المنصور على قلعة مدينة بانتيسة من الثغر حيث يقيم غالب ، للاجتماع به ، انفرد به غالب وشرع فى عتابه ، ثم كر عليه بسيفه ، فجرحه وكاد يجهز عليه لولا أن فر المنصور أمامه وهبط بفرسه من أعلى القلعة ونجا من الموت .

ومنذ ذلك الحين أخذ المنصور يعمل على التخلص منه، فرماه بند له من أصحاب السيوف والحرابة المشهورين ، فاستعان فى ذلك بجعفر بن على بن حمدون المعروف بابن الأندلسى، واستوزر واستكثر من أجناد البربر، وجعلهم بطانته . وأدرك غالب ما يرميه ابن أبى عامر، فاستجاش من ملوك النصارى ضد ابن أبى عامر . وقامت بينهما المعارك، وانتهى الأمر بمقتل غالب ، وبذلك تخلص من أعظم منافسيه ، ثم استعان بعبد الرحمن بن محمد بن هشام التجيبى على جعفر بن على بن حمدون سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) .

وأصبح ابن أبى عامر سيد البلاد، وأمر بالدعاء له (عقب الدعاء للخليفة) على المنابر ، وجلس على سرير الملك ، ومحا رسوم الخلافة ، ولم يبق للخليفة هشام

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٤١٠ ، ٤١١ .
(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٧٠ .
(٣) أعمال الأعلام ص ٧١ .

المؤيد من هذه الرسوم الخلافية سوى الدعاء على المنابر، وكتب اسمه فى السكة والطرز . وأراد ابن أبى عامر فى الوقت نفسه أن يقضى على الشائعات التى روجها أعداؤه، وأن يسترد محبة الشعب له ، فقام بالزيادة فى جامع قرطبة سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) بشرق الجامع بعد أن انتزع ملكية الدور المجاورة للمسجد من الجهة الشرقية، وعوض أصحابها عنها مالا وعقاراً ؛ كذلك قام ببناء قنطرة ثانية بقرطبة على نهر الوادى الكبير فى عام ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) وأنفق فى بنائها أموالا كثيرة، فعظم نفعها . كما أمر ببناء قنطرة على نهر شنيل باستجة، وسهل بذلك الطرق الوعرة والشعاب الصعبة . واختتم المنصور حياته غازياً فى أرض جليقية . ويذكر ابن حيان : أنه « اقتحم أرض جليقية من تلقاء مدينة طليطلة ، ومرضه يخف وقتاً ويثقل وقتا ، ونفذ على عمل بنى غومس إلى أرض قشتيلة بلد شانجة بن غرسية ، وهو كان مطلوبه الذى ألف عليه الجماعة ، فأحل الغارات بأقطاره ، فقويت عليه العلة هنالك ، فاتخذ له سرير خشب وضع عليه أعضاءه ، وسوى مهاده متطاول الشكل يمكنه الاضطجاع عليه متى خارت قواه ، وكان يحمل سريره على أعناق الرجال وسجفه منسدل عليه، وعساكره تحف به وتطيع أمره[1]» . وظل كذلك حتى وصل إلى مدينة سالم، واشتد عليه المرض وأيقن بالموت ، فخلا بولده عبد الملك الذى كان يؤثره على بقية أولاده ، يوصيه ويودعه ويقبض على يده، وكلما ذهب عنه استرده مستدركاً بوصيته، وعبد الملك يبكى، فينكر عليه ذلك . ومن جملة ما نصحه به قوله : « يا بنى لست تجد أنصح لك منى فلا تعدين مشورتى ، فقد جردت لك رأيى ورويتى على حين اجتماع من ذهنى فاجعلها مثالا بين يديك ، قد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها، وخلفت جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك . فلا تطلق يدك فى الإنفاق ولا تقبض لظلمة العمال، فيختل أمرك سريعا . . . والرعية قد استقصيت لك تقويمها، وأعظم مناها أن تأمن البادرة ، وتسكن إلى لين الجنبة ، وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شىء تكرهه، والآفة ممن يتولاه ، ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة، وعاجل بها من خفته

(١) ابن بسام : الذخيرة المجلد الأول القسم الرابع ص ٥٥ — ابن سعيد المغربى : المغرب ص ١٩٧ — أعمال الأعلام ص ٩٢ .

على أقل بادرة ، مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه ، فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الحنث فى يمين البيعة إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، فأما الانفراد بالتدبير دونه مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه فإنى أرجو أنى وإياك منه فى سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة[1] . . . » ويتضح لنا من هذه الوصية أن المنصور لم يطمع فى الخلافة رغم ما بلغه من سلطان ، وقد خالف هذه الوصية ابنه عبد الرحمن الملقب بشنجول ، وادعى ما ليس له فتلقب بالخلافة . وكانت النتيجة قيام الفتنة واشتعال الثورة .

ومات المنصور فى ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) ودفن فى صحن قصره بمدينة سالم .

(١) ابن بسام : الذخيرة المجلد الأول ، القسم الرابع ص ٥٦ ، ٥٧ .

٢

عهد الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور

وبموت المنصور تنفس ملوك إسبانيا المسيحية الصعداء، وغمرتهم موجة من الفرح والاغتباط فلقد دمر المنصور بلادهم ، واكتسح سهولهم، وهدم حصونهم ومعاقلهم ، ونثر الذعر والهلع في قلوبهم ، وشرد جيوشهم ، وأزال سيادتهم ، وأذلهم بانتصاراته العديدة ، وغزواته المتكررة . فلما مات كتب مؤرخ لاتيني في حولياته : « مات المنصور سنة ١٠٠٢ ، ودفن في النار [١] » .

ولما علم هشام بموت ابن أبي عامر استقدم أبا مروان عبد الملك بن المنصور، وأمره بقمع حركة الفتيان الصقالبة الذين استغلوا هذه الفرصة لاسترجاع نفوذهم القديم، وحذره الخليفة مواقعة الدماء، وخلع عليه، وأخرج معه كتابه بولاية الحجابة مكان أبيه [٢] . وهكذا قام عبد الملك بالحجابة، وتلقب بالمظفر سيف الدولة في ٣ رمضان سنة ٣٩٢ هـ، وقضى على حركة الفتيان الصقالبة ، ونفى بعضهم إلى سبتة . وكان عبد الملك قد ورث كثيراً من صفات أبيه، فاستوسق له الأمر واجتمع الناس على حبه لعدله وإنسانيته [٣] وحمايته للشرع، وسهره على رعيته، ونصرته للمظلومين ، وجهاده في سبيل الدين « حتى أيس الأعداء من دولة بني عامر، وعلموا أنها وراثة [٤] » . وذكروا أنه كان يزور الصالحين والأولياء في المقابر، ويستهدى أدعيتهم . ويذكر

---

(١) Lévi-Provençal : op. cit. t. II p. 283 — Dozy : Op. cit. t. II, p. 265
عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص ١٠٣ — P.283

(٢) ابن بسام : المجلد الأول القسم الرابع ص ٥٩ . يذكر بن الأبار فى التكلة لكتاب الصلة أن الخطاب الذى عذر الخليفة هشام المؤيد المظفر عبد الملك بن المنصور عن أبيه وجدد له العهد بولايته ، كتبته كاتبة القصر الخلافى بقرطبة (نظام) فى شوال سنة ٣٩٢ (انظر شخصية رقم ٢٨٦٥ من Miscelanea de Estudios Arabrs, por Gonzalez Palencia, p. 403.)

(٣) كان مما تقرب به إلى قلوب الناس أن أسقط سدس الجباية عن جميع البلاد (أعمال الأعلام ص ٩٧) .

(٤) ابن بسام : ص ٥٩ .

ابن الخطيب زيارته لأبي أيوب القريشي[١] . كذلك كان يزور السجون ويتفقد حال المسجونين ، ويكشف عمن طال سجنهم فيطلقه[٢] . ويذكر ابن بسام نقلا عن أبي مروان بن حيان في المتين فقرات فيها وصف لحالة البلاد في عهده منها « : راقت أيامه، وأحبه الناس سراً وعلانية ،وانصب الإقبال والتأييد عليه انصباباً لم يسمع بمثله ، وسكن الناس منه إلى عفاف ونزاهة نفس ، فباحوا بالنعمة ،وأخذوا في المكاسب والزينة من المراكب والملابس والقيان ، حتى سمت أثمان هذه الأشياء في مدته ، وبلغت الأندلس في أيامه إلى نهاية الجمال والكمال وسعة الحال، في كنف ملك مقتبل السعد، ميمون الطائر، غافل عن الأيام، مسرور بما تنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه، ونجا من الفتن[٣] » . ويضيف ابن حيان في ذكر حسناته ومآثره فيذكر أنه كان من أكثر الناس حياء ولكن هذا الحياء كان ينقلب في ساحة الوغى شجاعة وصلابة وعنفاً ، ويذكر أنه كان عاطلا من المعرفة والعلم والأدب ، وكان لا يجالس غير جفاة البربر والأعاجم « ممن لا يهش لسماع ، ولا يطرب لإيقاع »، ومع ذلك فقد تمسك بمن « كان استخلصه أبوه من طبقات أهل المعرفة من خطيب وشاعر ونديم وشطرنجي ومعدل وتاريخي وغيرهم حفظاً لصنائع والده ، وقياماً برسومه ، فقررهم على مراتبهم، ولم ينقصهم سوى الفوز بخصوصيته . . . ثم أغرق عبد الملك النزع في دولته ، وانهمك في طلب الآلات الملوكية حتى جلب إليه من ذلك كل علق خطير ، وتأنق في مراكبه هو وأصحابه بالحلية التامة بخالص اللجين[٤] ».

واتبع عبد الملك خطة أبيه في اصطناع البربر من العدوة واستخدامهم في جيشه ، فكان أعظم من قدم منهم زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي ، ومن صحبه من إخوته ، فاستقبلهم عبد الملك أعظم استقبال، ووصلهم بصلاته الجليلة « فاستقلوا ما وصلهم به عبد الملك على كثرته وما استقروا الدار إلا على قلعة ، ولا حمدوا معروفهم ولا لبسوا أعالي المراتب السلطانية إلا على ابتذال ومحقرة ، ولا قطعوا أن المقام بالأندلس إلا بذكر الرحلة والتماس التسريح بكرة وعشية ، جهلا وفرط

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٩٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٠ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة المجلد الأول القسم الرابع ص ٥٩ .

(٤) نفس المرجع ص ٦٠ .

أنفة[١] » . وكان عبد الملك يرغب في رفع منزلة زاوي وعشيرته، فولاه الوزارة، فرفضها زيري محتجاً بأن خطته لاتعدو الحرب، وأن أقلامه الرماح، وصحائفه الأجساد . وعرف عبد الملك أيضاً كيف يكتسب ثقة الخليفة فلم يحجر عليه كما فعل أبوه وإنما تركه على سجيته فآثر هشام أن يحتجب عن الناس من تلقاء نفسه ، واحتجب في نزهه الخاصة كما كان يفعل أيام المنصور[٢] . وجعل عبد الملك يخرجه إلى هذه النزه مستخفياً عن أعين الناس، ودعاه لزيارة قصره بالزاهرة سنة ٣٩٨هـ، فركب إلى القصر على سبيله المعهود من الاستخفاء عن أعين الناس[٣]، وقد سر هشام من هذه النزهة فأرسل إلى عبد الملك رقعة بخطه كتب فيها : « من الخليفة هشام المؤيد بالله بسمله أتم الله عليك نعمه، وهنأك قسمه، وألبسك عفوه وعافيته، لما رأيناك سلمك الله . . . استخرنا الله تعالى في أن سميناك المظفر ، فنسأل الله سؤال إلحاف وضراعة وابتهال إليه أن يعرفنا وإياك بركة هذا الاسم، ويمليك معناه، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين فضل ما حملت منه . . . وكذلك ما شرفنا فتاك أبا عامر محمد بن المظفر تلادنا أسعده الله بالإنهاض إلى خطة الوزارتين . . ». وهكذا نال عبد الملك وابنه محمد حظوة الخليفة ورضاه عنهما، فظفر بلقب المظفر، وظفر ابنه بلقب ذى الوزارتين . ولكن لم يتح لعبد الملك أن يتمتع طويلا بهذا اللقب ، إذ اعتل أثناء عودته من صائفته إلى قلونية Clunia من بلاد شانجة بن غرسية Sancho Garcia سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) ، وزاد به مرض الذبحة الصدرية، وتوفى في دير أرملاط Guadamellato من أحواز قرطبة في ١٦ صفر سنة ٣٩٩ (٢٠ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) .

وفي عهد عبد الملك ظهرت عدة شخصيات كان لها أثر كبير في الأحداث السياسية أهمها :

الفتى الكبير طرفة . والوزير عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بالقطاع : وواضح الفتى. وكان قائداً في الثغر الأعلى . وزهير الفتى ، وواضح ، وبشير ، ونظيف ، ونجا ، وشعلة ، ومظفر، وخيران، ونصر، ونصير ، وواثق ، وبشرى، ونليق . وكوثر. وخلف ، وجعفر[٤].

---

(١) ابن بسام : الذخيرة مجلد ١ قسم ٤ ص ٦١ .

(٢) نفس المرجع ص ٩٢ — Lévi-Provençal : op. cit. p. 276.

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٠٢ .

(٤) أعمال الأعلام ص ١٢١ .

ومن الشخصيات الهامة فى عصره شخصية مقدم بن الأصفر الذى اختص به اختصاصاً شديدا، واتصل بوالدته وأهله[١] . وذكروا أن عبدالملك فوض إلى وزيره عيسى بن سعيد أمره، فصار قيم الدولة ، فحسده الفتيان الصقالبة، وحملوا طرفة فتى عبد الملك على مناوأته، فتآمر طرفة مع الشاعر أبى مروان عبد الملك بن إدريس الجزيرى، على اغتصاب الحكم، ولكن الوزير عيسى بن سعيد كشف المؤامرة ، فقبض عبد الملك على فتاه طرفة، ونفاه إلى الجزائر الشرقية حيث سجن وقتل هناك، كما أمر بسجن الجزيرى فى مطبق الزاهرة ، وهناك قتله قوم من السودان [٢] ،وكذلك حاول الوزير عيسى بن سعيد القطاع أن يعزل الخليفة هشام،ويقضى على عبد الملك ويقيم هشام بن عبد الجبار خليفة مكانه . وكادت المؤامرة تنجح لولا أن كشفها الفتى الكبير نظيف،وأبلغ عبد الملك بكل تفاصيلها، فبطش عبدالملك بصهره ووزيره عيسى [٣] .

واصل عبد الملك سياسة أبيه فى الغزو والإغارة على إمارات إسبانيا المسيحية، فقد اتفقت حجابته فى الوقت الذى انتقضت فيه جميع هذه الدول على المسلمين وزادت أطماعها بموت المنصور . ويذكر ابن بسام أن « الافرنجة فى آخر وقت المنصور قد تمسكت بالمسالمة فلما سمعت بموته طمعت »[٤] . والواقع أن وفاة المنصور أتاحت فرصة إحياء التحالف القديم الذى أقامه شانجة غرسية قومس قشتالة لغزو الأراضى الإسلامية ، إلا أنه كان لشهرة عبد الملك أثر كبير فى تخاذل أعدائه عن مهاجمته، ويذكر ابن بسام أن الفتى واضح مولى عبد الله ، وصاحب مدينة سالم، التى بشانجة فصالحه واضح سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٣ م) ولاطفه حتى تمهدت قواعد الدولة[٥] . غير أن قومس برشلونة الذى كان قد عقد صلحاً مع المنصور ، حاول مهاجمة الأراضى الإسلامية المجاورة، فأوغل عبد الملك فى أراضى برشلونة صيف عام ٣٩٣ هـ، وعاد سالماً . وذكر ابن الخطيب أنه افتتح حصن منغص من ثغر برشلونة ، ويظن الأستاذ ليفى بروفنسال أن هذا الحصن هو الموضع المعروف

---

(١) ابن حزم القرطبى : طوق الحمامة ص ١١٢ . (٢) الذخيرة ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٣) ابن بسام الذخيرة : المجلد الأول - القسم الأول ص ١٠٢ - ١٠٧ .
(٤) نفس المرجع مجلد أول - قسم رابع ص ٦٤ .
(٥) نفس المرجع ص ٦٤ .

اليوم باسم Monmagastre[1] . وفى هذه الغزوة توفى عبد الله بن عبد العزيز القرشى ، الوزير المعروف بالحجر ، طليق المظفر بن عبد الملك من المطبق ، وكانت وفاته بمدينة لاردة سنة ٣٩٣ هـ[2] . وذكر ابن حيّان أن كونت برشلونة كان قد جنح للسلم فى بداية عهد عبد الملك قبل أن ينتقض عليه بعد ذلك ، وجاء رسوله إلى قرطبة ، وأعد عبد الملك لوروده أكمل العدة ، وازدانت قرطبة[3] .

وفى العام التالى سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٤ م) ، احتكمت إليه ملوك النصارى فيما شجر بينهم من خلاف ، فتوسط عبد الملك بين قومس قشتالة شانجة بن غرسية وبين قومس غليسية مندس بن غندشلب Menendo Gonzalez ، الوصى على ألفونسو الخامس ملك ليون الصغير ، الذى كان لا يتجاوز من العمر عشر سنوات .

وكان شانجة خال ألفونسو ، يود إزاحة منندس عن الوصاية ، فأرسل عبد الملك بعض نصارى قرطبة ، ومنهم إصبغ بن عبد الله بن نبيل الذى احتكم لصالح منندس ابن غند شلب[4] . وهكذا ظفر منندس بالوصاية ، فظل يقوم بها حتى مصرعه ، سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م) . وذكر ابن حيان قيام عبد الملك بصائفة ضد شانجة عام ٣٩٤ هـ (١٠٠٤ م) ، ويبدو أن شانجة غضب من هذا التحكيم فنقض العهد بينه وبين عبد الملك . فخرج إليه عبد الملك ، وأوغل فى أرضه ، وخام عنه شانجة ولم يظهر له ، فقفل عبد الملك عائداً إلى قرطبة ، فاضطر شانجة إلى التماس السلم ، ووفد بنفسه إلى قرطبة ، فأعظم عبد الملك مورده ، ورضى شانجة أن يشترك مع عبد الملك فى الغزو ضد وطنه (مملكة ليون) وضد أعدائه بنى غومس بقربون . فنى عام ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) خرج عبد الملك غازياً ومعه شانجة ، واقتحم مملكة جليقية وشانجة يهديه إلى عورات قومه ، ثم غادر أعمال بنى غومس مصملة ، واتجه نحو الشمال الغربى ، وأمر واضح الفتى بتخريب سمورة ، ووصل عبد الملك أخيراً إلى حصن منيع يقال له ليونة Luna ، وطمع عبد الملك فيه ، ونازله فلم يقو على الاستيلاء

---

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 285. (يسميه ابن عذارى حصن مقصر) .

(٢) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ج ٢ ص ٤٤١ رقم ١٢٦٥ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ص ٦٤ – ٦٥ .

(٤) البيان ج ٣ ص ٢٩٤ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٦٦ ، Simonet ; Historia de los Mozarabes en Espana, p. 636.

عليه ، فقفل عائداً إلى قرطبة . وذكر ابن عذارى أن عبد الملك قام بغزو بنبلونة عام ٣٨٦ هـ (١٠٠٦م)، ولكنه بدلا من أن يسير إلى بلاد البشكنس، سار إلى سرقسطة ، ثم وشقة ، وبربشتر ، وتوغل من هذه المدينة فى بلاد الأعداء ، وهناك خرب حصن شنت يوانش[1](San Juan) . وفى سنة ٣٩٧هـ (١٠٠٧ م)، خرج عبد الملك غازياً إلى بلاد قشتالة غزوته الكبرى المعروفة بغزوة قلونية التى تلقب بعدها بالمظفر، وتعرف هذه الغزوة أيضاً بغزوة النصر، لأنه هزم شانجة بن غرسية بجموع النصرانية على اختلافها[2] وهدم عبد الملك حصن قلونية[3] . وعندما عاد إلى قرطبة من غزوته التى فض فيها جموع المشركين وجيوش النصرانية أجمعين طلب من الخليفة هشام المؤيد ترشيح ابنه الغلام محمد إلى المراتب العالية، وسأل الخليفة أيضاً أن يتسمى بالمظفر، وأن يكنى فى جميع ما يجرى به ذكره بأبى مروان، وأن يقلد ابنه محمداً منصب الوزراء، ويلقب بذى الوزارتين ، فأجابه الخليفة إلى ملتمسه ، وأصدر كتبه إلى آفاق الأندلس بذلك[4] . وفى ذلك يقول الشاعر عبد الله بن زياد :

تسميت لما أن ظفرت المظفرا وصرت على الأعداء ليثاً غضنفرا

ولم تنته حروب عبد الملك بعد تلك الغزوة المظفرة ، فقد اضطر إلى غزو قشتالة مرة ثانية فى العام التالى ، ففى صفر سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م) خرج المظفر بالشاتية وهاجم حصن شنت مرتين على نهر دويرة وافتتحه . ثم كانت غزاته الأخيرة المعروفة

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ١٢ — Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 288. يقول ابن عذارى : « وفى سنة ست وتسعين وثلاثمائة خرج الحاجب عبد الملك غازياً إلى بنبلونة وهى الرابعة من غزواته فى دولته فى يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شوال ورحل سائراً إلى مدينة سرقسطة ثم إلى وشقة ثم إلى بربشتر فنها أمر عبد الملك بالدخول إلى أرض العدو ، فدخل أرض العدو لأربع عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة ، وابتدأ بالغارة من بسيط حصر ابنيونش وقد فر أهله وخلوه فهدمه فرحل عنه إلى شنت يوانش ، فجالت الخيل فى بسائطه فبلغت من انتسافها أبعد غاية . . » انظر ابن عذارى ج ٣ ص ١٢ ، ١٣) .

(٢) ابن عذارى ج ٣ ص ١٤ .

(٣) Aguado Bleye, op. cit. p. 494 — Lévi-Provençal. op. cit., p. 288.

(٤) ابن عذارى ج ١ ص ١٦ — ١٧ ذكر ابن عذارى نسخة هذا الكتاب كاملة وفيها يقول : . . . فاستخرنا الله سبحانه فى أن سميناك المظفر فنسأل الله تعالى سؤال إلحاف وضراعة وابتهال إليه أن يعرفنا وإياك بركة هذا الاسم ويحليك معناه ويعطينا وإياك وكافة المسلمين فضل ما حملت منه . . . وكذلك ما شرفنا فتاك أبا عامر محمد بن المظفر تلادنا أسعده الله بالإنهاض إلى خطة الوزارتين . . . » .

بغزاة العلة، وهي الغزوة التي مات بعدها . ولم يفصل مؤرخو العرب في رواية نتائج هذه الغزوة وإنما أفاضوا في ذكر موته. ومع ذلك فقد ذكر ابن عذارى نصاً نقله عن ابن حيان قال فيه : « ومن كبار علل عبد الملك ومنكراتها على الإسلام ومؤذناتها بما جرى عليه بعد من الانثلام، علته الشديدة بمدينة سالم ، مخرجه إليها سنة ثمان وتسعين محتفلا لقصد عدو الله شانجة بن غرسية بن فرذلند ، فصدته عن الدخول إليه بجموع المسلمين، واشتدت به مدة تفرّق عنه فيها أكثر المطوعة ، وصارت على الإسلام مصيبة بما أوهنت من بطش عضده ، ونقصت من حفيل عديده[1] » ، ويبدو أن الأمر لم يقتصر على تفرق غالبية المطوعة في جيشه، بل تجاوز ذلك إلى حد الهزيمة ، وهو ما تذكره المصادر الإسبانية[2] .

وحاول المظفر بعد قفوله من غزوته المذكورة أن يجمع صفوفه ، ويفاجئ العدو بشاتية، فأمر بالتأهب لذلك ولكنه كان مريضاً ، فازداد مرضه في الطريق . وذكر ابن عذارى أنه كان مصاباً بذبحة أخذت « تقوى مع الساعات حتى خنقته[3] » .

ومات عبد الملك وهو في طريق عودته إلى قرطبة بعد أن اشتدت به العلة . وأحصى ابن الخطيب غزواته فذكر أنه غزا سبع غزوات وأنه ما رئي في أمراء الجيوش أبسط يداً في الحركات الجهادية ولا أرغد معونة من المظفر[4] .

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٤ .

(٢) Aguado Bleye, op. cit. p 494, Lévi-Provençal, op. cit., p.289.

(٣) ابن عذارى ج ٣ ص ٢٧ .

(٤) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

٣

عبد الرحمن بن المنصور وسقوط دولة بنى عامر

لما مات عبد الملك المظفر خلفه أخوه أبو المطرف عبد الرحمن بن المنصور الملقب بشنجول ، وشنجول تصغير لشانجة ، وقد لقب عبد الرحمن بهذا اللقب بسبب أمه عبدة بنت شانجة النصرانى ملك بنبلونة Sancho Garcés Abarca . فقد كان هذا الملك قد أهدى ابنته للمنصور فتزوجها وحسن إسلامها ، وكانت من خيرات نسائه ديناً متيناً، وحسباً أصيلا ، وأولدمنها ولده عبد الرحمن [١] . وذكر ابن عذارى أن أمه كانت تدعوه فى صغره بشنجول Sanchuelo تذكراً منها لاسم أبيها شانجة خاصة وأنه كان أشبه الناس به [٢] .

ركب شنجول إلى قصر الخلافة غداة وفاة المظفر، فعزاه الخليفة فى أخيه وخلع عليه خلعاً سلطانية، وقلده الحجابة، وأصدر له بخطه تسميته بالمأمون، ، فتلقب للحين بالناصر ، ثم بالمأمون ، فكان يدعى بالحاجب الأعلى، المأمون ، ناصر الدولة .

وكان شنجول مغروراً بنفسه فساء تصرفه، وأنفق الأموال فى غير وجهها، ونسبت إليه أباطيل من القول والفعل، حتى كرهه الناس . ثم أنه سلك خلاف مسلك أبيه المنصور وأخيه المظفر فى مداخلة الخليفة والوقوف فى أمره عند ضرورة السياسة [٣] .

والواقع أن سياسته الهوجاء وغروره وادعاءه كان سبباً فى القضاء على الدولة العامرية وسبباً فى الفتنة العظمى التى تبعت هذه الأحداث، فقد سولت له نفسه أن

---

(١) ابن الخطيب ص ١٠٣ .

(٢) ابن عذارى ج ٣ ص ٣٨ .

(٣) ابن الخطيب ص ١٠٤ ذكر إبراهيم بن القاسم أن شنجول افتتح عهده بالخلاعة والمجانة فكان يخرج من منية إلى منية ومن منتزه إلى منتزه مع الخياليين والمغنين والمضحكين، مجاهراً بالفتك وشرب الخمر . (انظر ابن عذارى ص ٣٩)وذكر ابن سعيد المغربى : أنه كان « نحساً على نفسه وعلى أهل الأندلس فنه انفتح باب الفتنة العظمى وفسد الناموس » المغرب ص ٢٠٨ .

يلتمس ولاية العهد من الخليفة هشام المؤيد ويقوم بأمر المسلمين من بعده ، وذكر أبو مروان بن حيان : « وقد تقدم القول فى سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة عجرفية من غير تحصيل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيد الشيطان ، وغرته قوة السلطان ، إلى أن ركبها عمياء مظلمة ، لم يشاور فيها نصيحاً ، ولا فكر فى عاقبة ، بل جبرها بالعجلة[1] » . وتفصيل ذلك أنه خرج فى ١١ ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ مع الخليفة هشام إلى قصر الزهراء ، فأقاما هناك يومين ، ثم تحرك الخليفة فى اليوم الثالث إلى منية جعفر فى رفقة حاجبه شنجول الذى اشتد به عجبه . وأخذ شنجول يتقرب من الخليفة ويختلى به ، فأطال به الخلوة هذه الليلة حتى استدنى نسبه منه بالخؤولة ، إذ كانت أماهما بشكنستيين[2] . ثم خرج شنجول عشى هذا اليوم ، يزعم أن الخليفة نص على توليه عهده صراحة ، وأنه اختاره للخلافة دون بنى عمه وذويه ، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته ، وفى اليوم التالى استدعى طبقات أهل قرطبة وأجلس لهم هشاماً وأشهدهم فيما أمضاه من الولاية ، وأخرج كتاباً قرئ بحضرته من إنشاء كاتب الرسائل أبى حفص أحمد بن برد[3] .

وبهذا الكتاب ظن عبد الرحمن شنجول أنه أصبح وارثاً للخلافة ، فأمر بإنفاذ الكتب عنه إلى سائر أنحاء الأندلس والعدوة بخبر ولايته للعهد ، ويأمرهم فيها بالدعاء له على المنابر بالعهد بعد الدعاء للخليفة . ثم ولى ابنه عبد العزيز خطة الحجابة ولقبه بسيف الدولة . وذكروا أنه لما حقق رغبته من ولاية العهد ، واستبد بالسلطان ، أقبل على طلب لذته ، ومواصلة شربه ، وأخذ فى التخليط والفسوق والانهماك والزنا[4] ، وأحاط نفسه ببطانة من إخوان السوء وأدنياء القوم . وقيل إنه اصطحب معه فى غزوته إلى جليقية رجلا « من سفال أهل قرطبة يقال له ابن الرسان جعله صاحب شرطته وأدناه منه[5] » .

وهكذا حفر شنجول قبره بنفسه ، إذ أن فكرة اغتصاب الخلافة من أسرة بنى

---

(١) ابن الخطيب ص ١٠٥ .

(٢) ابن عذارى ص ٤٢ .

(٣) انظر نص هذا الكتاب فى نهاية هذا الفصل .

(٤) ابن عذارى ج ٣ ص ٤٧ — ٤٨ .

(٥) نفس المرجع ص ٤٩ .

أمية فى حد ذاتها كانت وحدها كفيلة بإثارة أهل الأندلس عليه ، ولم يتوارد إلى ذهنه أن أباه المنصور بن أبى عامر أو أخاه المظفر عبد الملك لم يفكر أحدهما قط فى اغتصاب الخلافة ، رغم أعمالهما العظيمة ومآثرهما العديدة ، وإمكانياتهما المتوفرة فى الظفر بها . وكانت النتيجة وبالا عليه ، إذ ثار أهل الحاضرة وراء أمراء بنى أمية عليه أثناء غيابه فى غزوته ، ولما يتجاوز فى زحفه مدينة طليطلة ، وذلك فى ١٤ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ[١] . فقد اتصل به أن المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر ، قد أعلن الثورة فى قرطبة ، وهدم بالش والزاهرة ، ودخل القصر بقرطبة ، وحين بلغه ذلك قرر العودة إلى قرطبة لمواجهة الثورة . وسار عبد الرحمن إلى قرطبة وهو مع كل ما حدث سادر فى غلوائه ، حتى وصل منزل هانئ أدنى محلاته إلى قرطبة فى آخر جمادى الثانية سنة ٣٩٩ هـ (فبراير ١٠٠٩ م) ، وكان جنده البربر قد أجمعوا على خذلانه ، فلما نزل فى هذه المحلة وبات فيها ليلته تفرق جنده عنه ، وتركوه مع نفر من غلمانه عندما أيقنوا نفاذ ماله الذى كان يغدقه عليهم ، بعد أن بلغهم سيطرة عدوه الأموى على مدينة الزاهرة ، واستيلائه على أموال الدولة . وذكروا أن عبد الرحمن شنجول حين لمس تخلى جنده عنه عندما نزل بقلعة رباح فى طريق عودته إلى قرطبة تبرأ من ولاية العهد وأعلن اقتصاره على الحجابة ، فلم يصغ أحد إلى كتابه[٢] . ونصحه قومس قريون ابن غرسية غومس Garcia Gomez[٣] بالفرار بعد أن رأى اضطراب حاله ، ولكنه أصر على السير إلى قرطبة[٤] ، على الرغم

---

(١) ذكر ابن الخطيب أنه لما تحرك إلى الغزو شاتية عام ٣٩٩ نصحه فتاه الأكبر فى ترك الغزو وخوفه من اضطراب الناس عليه ، ونقل إليه عن بعض المروانيين بصيحة فى محاولة رجل منهم القيام عليه واستجابة عدد كبير من الجند إليه ، فأعرض عبد الرحمن عما ذكره فتاه واستهان به وقال : « والله لو اجتمع بنو مروان إلى مرقدى وأنا نائم ما أيقظونى . » أعمال الأعلام ص ١١٢ .

(٢) ابن عذارى ج ٣ ص ٦٩ .

(٣) هو أحد النصارى المتوسلين إليه بقربى أمه من عمومة الملك شانجه غرسية .

(٤) قال له ابن غومس : « أرى أحوالك منتقضة ، وأمورك مدبرة ، وجندك مخالفين لك ، فأخبرنى عن هذا الرجل الذى بقرطبة ، أأنت أشرف أم هو ؟ قال بل هو . قال : الناس أميل إليك أم إليه ؟ قال : ما أراهم إلا إليه أميل . فقال هذا دليل ردىء . قال شنجول : فما الرأى عندك . قال : الرأى عندى أن ترحل وأرحل معك بأصحابى الليلة فان شئت قصدنا واضحاً فكنا معه يداً واحدة . . . » ثم قال القومس : « خذ باليقين وضع الظن فأمرك والله مختل وجندك عليك لا لك . فقال لابد من الإشراف على قرطبة . فقال له : أنا معك على كراهة لرأيك وعلم بخطئك ، فان عشت عشت معك ، وإن مت مت معك » . انظر ابن عذارى ج ٣ ص ٧٠ .

من تفرق جنده . وما زال سائراً فى صحبة حرمه حتى شارف منزل أرملاط الأدنى Guadamellato إلى قرطبة ، فلم يجد معه أحداً من رجاله ، وهناك قبض عليه الحاجب بن ذرى مولى الحكم هو وصاحبه ابن غومس وقتلهما ، وسمرت رأساهما على خشبة طويلة على باب السدة من قصر قرطبة .

٤

الفتنة

ذكر ابن عذارى أن السبب فى قيام محمد بن هشام بن عبد الجبار بثورته أن الذلفاء أم عبد الملك المظفر بن أبى عامر وحظية المنصور ، اتهمت أخاه عبد الرحمن شنجول بالتدبير عليها ، وقتله أخيه المظفر ، فحقدت عليه اغتياله له ، وسعت فى حتفه عند بنى مروان عداة قومها، بوساطة بشر الصقلبى من الفتيان العامرية المنحرفين عن عبد الرحمن شنجول . فأرشده هؤلاء إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار الذى كان يتسم بالقوة والبأس ، ففتح معه باب التدبير ، ووعده عن الذلفاء الإعانة بالمال[١] . وبويع محمد بن هشام سرًّا ، واستمال إليه خلقاً كثيراً كانوا يبايعونه بأطراف قرطبة ، ثم واتته الفرصة عند سفر عبد الرحمن شنجول فى غزوته المشؤومة ، وفى ١٦ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ ، تمكن محمد بن هشام من الوثوب، يؤيده أقاربه من بنى مروان ، وأنصاره من العامة والغوغاء وسفلة القوم ممن وجدوا فى ذلك فرصة للسلب والنهب ، ونجح رجاله فى اقتناص صاحب المدينة عبد الله بن عمر ، فأمر محمد بن هشام بضرب عنقه[٢] . ثم أرسل بعض رجاله إلى سجن العامة فأطلقوا سراح من فيه من اللصوص المجرمين . وفى تلك الليلة تنازل هشام المؤيد عن الخلافة لمحمد ابن عبد الجبار الذى تلقب منذ ذلك الحين بالمهدى . وعلى أثر ذلك أنفذ محمد ابن هشام ابن عمه عبد الجبار بن المغيرة مع فرقة من رجاله إلى الزاهرة لمخاطبة أهلها فى الاستسلام ، وانضم إليه من العامة النهابة حشود لا عد لها ولا حصر ، تدفقت على المدينة كالسيل الجارف ، واجتاحوا سورها فخربوه[٣] ، وانتشروا فى قصر المظفر

---

(١) ابن عذارى ج ٣ ص ٥٢ ، ابن الخطيب ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) Lévi-Provençal Histoire, t. II, p. 298.

(٣) يذكر النويرى أن قصر الزاهرة فتحت فيه ثغرات من جانب باب السباع باب الجنان ، وعجز حراسه عن الدفاع عنه ، ثم دخله محمد من باب السدة (Sanchez Albornoz, t. I, p. 379)

ينهبون تحفه ويسلبون روائعه ، واستولوا على المال والجوهر وفاخر الأمتعة ، ودمرت العامة أكثر خزائن الكسوة والفرش والأمتعة والطيب والحلية والذخائر والسلاح والعدة. ثم أمر محمد بن هشام بهدم المدينة ، وتدمير أسوارها ، واقتلاع أبوابها ، وتشعيث قصورها ، وطمس آثارها [١] ، فخربت الزاهرة ، ومضت كأمس الدابرة ، وخلت منها الدسوت الملوكية والدساكر [٢] .

اعتمد الخليفة المهدى على قوته الجديدة التى تتألف من أراذل العامة وأسافلهم ، وعارض بهم أجناد الدولة ، أهل الدربة والحنكة ، واستوزر رجالا من الطبقة الدنيا ، وعلى هذا النحو اعتبر العامة من أهل قرطبة تولية المهدى الخلافة انتصاراً لهم ، فأقاموا الأفراح والولائم والأعراس ، « وداموا على ذلك أياماً تباعاً يتنقلون من موضع إلى موضع بالمزامر والملاهى [٣] » . واستبد هؤلاء العوام ، وركبهم الغرور ، فأساءوا إلى قواد الجند ووجوه الناس ولم يميزوا بين أعلاهم وأدناهم [٤] . وهاجمت طائفة منهم دور بنى ماكسن بن زيرى ، ودوراً لبنى زاوى بن زيرى وغيرها من دور زعماء البربر بالرصافة ، وانتهبتها ، وهنا بدأت النفوس تنحرف عن طاعته ، وازداد الأمر سوءاً عقب كتابة واضح العامرى إليه بالطاعة من طليطلة ، فزاد هذا من جبروته ، وأخرج الخليفة المؤيد من قصره ، وأسكنه ببعض دور الملك ، وأحضر للناس رجلا ميتاً قيل إنه يهودى أو نصرانى ، وزعم أنه هشام المؤيد . وشهد الوزراء والعدول على ذلك . ثم أنه اكتسب عداء العامريين له إذ أسقط منهم نحواً من سبعة آلاف ، فاتجهوا إلى شرق الأندلس واستقام لهم الأمر هناك . وكذلك أعلن محمد بن هشام بغضه للبربر ، وعلى هذا النحو تألف من هؤلاء جميعاً حزب معاد لمحمد بن هشام ،

---

(١) ابن عذارى ج ٣ ص ٦٤ ، ٦٥ ، ابن الخطيب كتاب أعمال الأعلام ص ١٢٩ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٢ .

(٣) ابن عذارى ج ٣ ص ٧٤ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٣٠ .

(٤) يذكر ابن عذارى فى هذا الصدد أن زاوى بن زيرى (أحد أمراء بنى زيرى الصنهاجين) ، الذين استقدمهم المظفر عبد الملك إلى الأندلس وهم زاوى وحباسة وحبوس ابنا أخيه ماكسن ، واستخدمهم فى جيشه وأصبحوا يؤلفون له قوة هائلة : انظر

Lévi-Provençal, : Les mémoires du Roi Ziride Abdallah, al-Andalus, 1935, p. 241.)

زعيم صنهاجة أصحاب أفريقية ، احتبسه الغوغاء بالباب للازدحام مدة لا يفرج له ، ولا يعرف مكانه ، وكلما هم بالاستقدام ردوه ، وقرعوا رأس فرسه (ابن عذارى ج ٣ ص ٧٥) .

انضم إلى هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الذى أقام له معسكراً بفحص السرادق[١] خارج قرطبة ، وتلقب بالرشيد ، وحاول الرشيد أن يقضى على دولة المهدى ، ولكنه منى بهزيمة نكراء وقبض عليه المهدى وقتله . واشتعلت بذلك نيران الفتنة بقرطبة بين البربر والعامة وشجع المهدى بن عبد الجبار العامة على تقتيل البربر أينما وجدوا ، فقامت مذبحة بشعة، قتل فيها عدد كبير من البربر، واضطروا إلى الخروج من قرطبة إلى الثغر[٢]، وانضم إليهم سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر ، ولذلك سمى سليمان عند أهل قرطبة بإمام البربر ، فاجتمعوا إليه وولوه عليهم ، وعقدوا له الخلافة فى شعبان ٣٩٩، فى موضع يعرف بصلب الكلب[٣]، وتسمى بالمستعين بالله ، وكان البربر ينوون بذلك شراً ، فقد عقدوا العزم على فتح قرطبة وإسقاط المهدى . وفى سبيل ذلك عمدوا إلى الاستعانة بشانجة بن غرسية بن فرذلند، قومس قشتالة . ولما وصل البربر إلى قلعة رباح فى طريقهم إلى الثغر الأوسط ، أرسل إليهم المهدى رسولا من قبله يؤمنهم ويدعوهم للعودة إلى قرطبة، هو عباس البرزالى ، ولكنهم لم يجيبوه ، وقالوا لرسوله : « لولا أنك رسول وتاجر لقتلناك وسيجازيه الله بما فعل[٤]». ثم وصلوا إلى وادى الحجارة وهزموا جيش واضح الفتى صاحب طليطلة والثغر الأوسط ، ودخلوها عنوة ، واستباحوا أهلها . ثم وصلوا بعد ذلك إلى مدينة سالم ، ولكن واضحا أبعدهم عنها وكتب إلى سائر الثغور إعلاناً جاء فيه : « من حمل شيئاً من الطعام إلى محلة البربر فقد حل ماله ودمه[٥] » . فأقام البربر زهاء خمسة عشر يوماً يقتاتون بحشيش الأرض ، فلما اشتد عليهم الأمر أرسلوا رسلهم إلى شانجة بن غرسية ابن فرذلند قومس قشتالة Sancho Garcia المعروف لدى المؤرخين العرب باسم ابن مامة دونة[٦] ، يطلبون منه مسالمتهم ومساعدتهم على أعدائهم . وكان شانجة يتابع عن

---

(١) هو أحد متنزهات قرطبة المشهورة ، يذهب إليه الناس للتنزه والتسرية عن النفس .

(٢) ابن عذارى ج ٣ ص ٨١ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٣١ .

Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 307.

(٣) ابن عذارى ج ٣ ص ٨٤ .

(٤) نفس المرجع ص ٨٢ .

(٥) نفس المرجع ص ٨٦ .

(٦) هذا الاسم تحريف من اسم جدة شانجة وأم فردلند عند شلب التى كانت تسمى موما دمنا Mumma Domna (انظر ليفى بروفنسال Histoire, t. II. ص ٣٠٨ ملحوظة رقم ١) .

كثب ما يجرى فى أراضى جيرانه المسلمين من أحداث حتى يتدخل فى اللحظة المواتية ، ولم يطل انتظاره فقد وصلته رسل المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار مع رسل واضح يحملون إليه الهدايا والتحف الجليلة ، ويسألونه الصلح معهم على أن يعطوه ما أحب من مدائن الثغر [١] . ثم وصلته رسل البربر . وتهيأت له الفرصة للقضاء على قوة المسلمين ، وذلك بمؤازرة البربر على أعدائهم ، فأجابهم إلى ملتمسهم على أن يعطيه البربر إذا ظفروا ما يختار من مدائن الثغر . فوافقوه على ذلك ، فأرسل إليهم ألف عجلة من الدقيق والعقاقير وأنواع المآكل ، وألف ثور ، وخمسة آلاف شاة . ثم سار إليهم بنفسه على رأس جيش كثيف ، واشتبك جيش البربر وحلفائهم مع جيش واضح وابن عبد الجبار بالقرب من قلعة يقال لها قلعة عبد السلام ، فى وادى شرنبة ، فى محرم سنة ٤٠٠ ، وفيها هزم جيش واضح ، وتقدم جيش البربر وراء جيش واضح نحو العاصمة ، ووصل إلى أرملاط فى ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ [٢] هـ .

وفى هذه الأثناء كان ابن عبد الجبار يحصن أبواب قرطبة وأفواه الأرباض والأسوار ، ووزع أجناده وقواده على مراكزهم ، وأمر بحفر الحفائر حول الأرباض . ثم كان اللقاء بين الجيشين فى ١٣ ربيع الأول فى جبل يعرف بجبل قنطش [٣] ، بالقرب من التقاء الوادى الكبير بوادى أرملاط ، وانتهت الموقعة بهزيمة جيش قرطبة هزيمة نكراء فر واضح على أثرها إلى الثغر ، ووضع البربر السيف على أهل قرطبة [٤] وذكروا أن عدد القتلى من أهل قرطبة تجاوز عشرة آلاف [٥] ، وقيل ثلاثين ألفا [٦] .

---

(١) ابن عذارى ج ٣ ص ٨٦ .

(٢) ابن عذارى ج ٣ ص ٨٧ .

(٣) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٤٢ . يسميها ابن حيان قنتيش ، انظر ابن بسام : الذخيرة القسم الأول ص ٣٠ . وفى هذه الموقعة يقول الشاعر أبو عمر أحمد بن دراج القسطلى :

واستودعوا جبى شرنبة وقعة هز الجبال الراسيات رعودها
دلفوا إلى شهباء حان حصادها وطلى رءوس الدارعين حصيدها
وشعاب قنتيش وقد حشرت لهم أمم بغـاة لا يكف عديـدها

(٤) ابن عذارى ص ٨٩ .

(٥) نفس المرجع ص ٩٠ ، ابن بسام القسم الأول ص ٣٠ .

(٦) ابن الخطيب أعمال الأعلام ص ١٣٢ . الأغلب أنهم ثلاثة آلاف كما ذكر ابن حيان (انظر ابن بسام ص ٣٠) .

وقد هلك فى هذه الواقعة أخلاط من الناس . وذكر ابن حيان أن من كل طبقة أخذت وقعة قنتيش حتى من أهل الباطل، فإنها ألصقت بالصميم فى قتل قنبوط الملهى وزربوط المغنى وغطهما[1] .وحاول ابن عبد الجبار غداة موقعة قنتيش أن يستميل البربر ، فأظهر لهم هشاماً المؤيد لما كانوا يكثرون من الترحم عليه والمطالبة بدمه [2]، وأجلسه حيث يراه الناس فى منظرة تشرف على باب القنطرة . ولكن ذلك لم يغنه شيئاً ، إذ تمسك البربر بسليمان المستعين بالله ، بل أساء إليه ، فقد ذكر ابن عذارى أن البربر قالوا لابن ذكوان رسول المهدى إليهم ؛ « سبحان الله يا قاضى ، يموت هشام بالأمس وتصلى عليه أنت وغيرك ، واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه ، وجعلوا يتضاحكون منه »[3]. عندئذ تحايل ابن عبد الجبار على الفرار ، فخرج من قصر قرطبة ليلا ، واختفى فى المدينة أياماً ، ثم رحل متنكراً إلى طليطلة فى أول جمادى الأولى سنة ٤٠٠ هـ ، حيث أقام فى كنف واضح الفتى الذى تمسك هو وأهل طليطلة بطاعته .

---

(١) ابن بسام : الذخيرة القسم الأول ص ٣١

(٢) نفس المرجع .

(٣) ابن عذارى ج ٣ ص ٨٩

٥

عهد سليمان المستعين والحرب الأهلية

دخل سليمان المستعين قصر قرطبة فى ١٦ ربيع الأول ، وبايعه أهل قرطبة فى المسجد الجامع فى ١٧ ربيع الأول . وأنفذ كتبه إلى سائر أنحاء شبه الجزيرة بخبر فتحه قرطبة ، وبالغ فى وصف قهره لأهلها ، واستباحته دماءهم ، إرهاباً للناس وإنذاراً لهم . غير أن هذا التصرف أثار عليه حفيظة الناس « فكان أجلب لنفار القلوب ، وقرف الندوب ، وبعد الشرود ، ونبش الحقود ، لما وتر جميعهم بالحادثة فى قرطبتهم ، فاستشعروا بعضه ، وانقادوا لكل من عانده ، ورد أمره من عبد أو حر ، فزعاً إليهم منه ، ويأساً من خير يجيئهم من برابرته ، فكان ذلك سبباً فى تفريق البلاد وتملك أصحاب الطوائف[1] » .

وكان سليمان يعتمد على قوة البربر ، فانتقل بجملة جيشه البربرى إلى مدينة الزهراء ، حتى يبعدهم عن أهل قرطبة الموتورين على نحو ما فعل الخليفة المعتصم بالله العباسى عندما انتقل بجملة عساكره الأتراك إلى سامراء التى اتخذها قاعدة لخلافته .

ولما استقرت دعائم ملكه ، رحل إلى طليطلة فى ١١ جمادى الآخرة سنة ٤٠٠ هـ (آخر يناير سنة ١٠١٠ م) ، ليزيل الخلاف بينه وبين أهلها ، تمهيداً لدخولهم فى طاعته ، ولكنه لم ينجح فى مهمته لتمسك أهل الثغر بطاعة المهدى وواضح الفتى . وكان واضح قد خرج من مدينة سالم ومضى إلى طرطوشة قريباً من الحدود الفاصلة بين الثغر وإقليم قطالونية ، واتفق مع قومس برشلونة ريموند بوريل الثالث ، وأخيه أرمنجول (يسميه العرب أرمقند) Raimond Borrell ، Armengol de Urgel ، على أن

(١) ابن بسام : الذخيرة . القسم الأول ص ٢٥ . يذكر ابن حيان أن أيامه « كانت كلها شداداً نكدات ، صعابا مشؤومات ، كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحة المنتهى والخاتمة ، لم يعدم فيها حيف ، ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغير السيرة وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ، واعتلاء المعصية ، وظعن الأمن وحلول المخافة : دولة كفاها ذما أن أنشأها شانجة فقشها أرمقند ، وثبتها الجلالقة ، ومزقتها الإفرنجة ، ودبرها فاجر شقى ، ووزر لها خب دنى . . . » انظر المرجع السابق .

بساعداه حربياً نظير تخليه لهم عن مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط ، فدخلها الإفرنج ، وحولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وشرطوا على واضح شروطاً قاسية منها : أن يلتزم لكل رجل منهم دينارين فى كل يوم بالإضافة إلى ما يقوم به من الشراب واللحم وغير ذلك ، وأن يجرى على القومس فى كل يوم مائة دينار وما يقوم به من الطعام والشراب ، وأن يستولوا على كل ما فى معسكر البربر من سلاح ومال غنيمة لهم ، وأن يستحلوا نساء البربر ودماءهم وأموالهم (١) .

وتقدم جيش واضح مع جيش حلفائه النصارى إلى سرقسطة ، ثم سار بهم واضح إلى طليطلة حتى ينضم إليهم ابن عبد الجبار ، ومن هناك زحفت جيوشه نحو قرطبة . وذكر ابن عذارى نقلا عن كتاب الاقتضاب أن جيش ابن عبد الجبار كان يبلغ وقتئذ نحواً من ٣٩ ألف فارس، منهم تسعة آلاف من النصارى (٢). وخرج سليمان المستعين للقائهم على رأس جيشه البربرى بعد أن تخلى أهل قرطبة عن نجدته . والتقى الفريقان فى موضع يقع على بعد ٢٠ ك . م شمالى قرطبة يعرف بدار البقر (٣) أو عقبة البقر (٤) ، وفيها انهزم سليمان وجيشه البربرى بعد أن كبد البربر أعداءهم خسائر جسيمة ، إذ قتلوا من النصارى عدداً كبيراً ، من بينهم الملك أرمقند Armengol (٥). وتراجعت حشود البربر إلى الجزيرة الخضراء، بعد أن مروا بمدينة الزهراء، وأجلوا عنها أولادهم ونساءهم ، وكانوا يزمعون العودة إلى العدوة إذا ساءت

---

(١) ابن عذارى ج ٣ ص ٩٤

Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 313. — Aguado Bleye, p. 506-507

(٢) ابن عذارى المراكشى : ج ٣ ص٩٦ .

(٣) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٤٢ .

(٤) Dozy, Histoire, t. II, p. 297 — Lévi-Provençal : L'Espagne Musulmane au Xe. siècle, p. 149. — Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 313.

هذا الموقع يعرف اليوم باسم El Castille del Bacar

(٥) فى هذا الانتصار يقول الشاعر ابن دراج القسطلى فى مدحه للمستعين :

وكتائب الإفرنج إذ كادتك فى أشياعها والله عنك يعيدها
بسوابح فى لج بحر سوابغ فاضت على الأرض الفضاء مدودها
ولقد أعدّاؤا نسرها وغرابها وقوامها طاغوتها وعميدها
شلو لأرمنقودها حشدت به للزحف ثم إلى الجحيم حشودها

(انظر ابن بسام : الذخيرة القسم الأول ص ٥٢) .

الأمور بالنسبة لهم . أما سليمان فقد نجا بنفسه وفر إلى شاطبة . وانتهز عامة قرطبة فرصة خروج البربر عن مدينة الزهراء ، فدخلوها، ونهبوا ما وجدوه فيها من تحف ، ودخلوا المسجد الجامع، وجردوه من حصره وقناديله ومصاحفه وصفائح أبوابه(١) .

أما المهدى محمد بن عبد الجبار فقد دخل قرطبة وأخذ لنفسه البيعة ، ثم أقسم ألا يستقر حتى ينتهى من أمر البربر ، وأقرضه أهل قرطبة مالا استعان به فى الخروج لمطاردة فلول البربر ، وانضمت إليه حشود هائلة من العبيد والفتيان العامرية أمثال عنبر وخيران قدموا من شاطبة ، لمساعدته فى الظاهر . وإن كانوا يضمرون له السوء لما فعله بهشام المؤيد وبعبد الرحمن شنجول . وزحفت جيوشه مع من انضم إليها من أهل قرطبة والبوادى والإفرنج ، والتقوا مع قوات البربر فى وادى آره Guadiaro(٢) بالقرب من الرندة ، فى ٦ ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ (٢١ يونيو سنة ١٠١٠ م) . وانتهت الواقعة بهزيمة جيوش واضح وابن عبد الجبار والإفرنج مجتمعة ، هزيمة شنعاء ، وقتل من الإفرنج ما يزيد على ثلاثة آلاف ، وغرق منهم عدد كبير(٣) . واحتوى البربر على ما فى معسكرهم من مال وسلاح ودواب . وكان بين القتلى من الإفرنج وزير يهودى لملك الإفرنج ريموند بوريل . وبالرغم من تلك الهزيمة حاول ابن عبد الجبار وواضح إعادة الكرة ، فسألا قواد الإفرنج فى معاودة القتال ، ولكنهم امتنعوا عن إجابتهم ، ثم رحلوا إلى بلادهم . وعدل ابن عبد الجبار وواضح عن معاودة السير لقتال البربر تهيباً من لقائهم ، واكتفى بإعادة حفر خندق يدور حول قرطبة ، كما أمر بإقامة سور خلف هذا الخندق(٤) .

أما البربر فقد أحسوا بقوتهم بعد غلبتهم لأعدائهم ، فاستولوا على جبل ببشتر ، وأخذوا يغيرون كل يوم على نواحى قرطبة . وبدأت النفوس تنقلب على ابن عبد الجبار بسبب فشله المتواصل أمام البربر ، واستغراقه فى الفسق والجور ، ودبر حاجبه واضح قتله ، ولعل السبب فى هذا يرجع إلى طمعه فى أن يقوم بدور المنصور

---

(١) ابن عذارى ج ٣ ص ٩٥ .

(٢) ليس هذا الوادى هو وادى أيرة Guadaira الذى حسب دوزى أنه المكان الذى وقعت فيه الواقعة ، وإنما هو وادى آرو من أحواز مربلة ويعرف بوادى البساتين (انظر ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٣٥ — Dozy : Histoire, op. cit. p. 293.) .

(٣) ابن عذارى ج ٣ ص ٩٨ .

(٤) ابن عذارى ج ٣ ص ٩٩ — ابن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام ص ١٣٥ .

ابن أبي عامر بالنسبة لهشام المؤيد الضعيف[١] ، فأوعز إلى طائفة العبيد العامرية بالقبض عليه ، وقتله في ٨ ذى الحجة سنة ٤٠٠ هـ (٢٣ يوليو سنة ١٠١٠م) ، وأعاد الخلافة إلى هشام المؤيد ، وبعث برأس ابن عبد الجبار إلى سليمان المستعين[٢] إرضاء له ولحلفائه البربر ، وكتب إليهم يدعوهم إلى الدخول في طاعة الخليفة هشام المؤيد باعتباره الخليفة الشرعي . ولكن ذلك لم يجده نفعاً ، إذ تألم سليمان وأصحابه البربر للمصير التعس الذى لقيه ابن عبد الجبار من أتباعه الخونة ، وسخطوا على واضح لغدره وخيانته .

وعلى هذا النحو ازداد البربر عزماً على دخول قرطبة ، فأخذوا يغيرون على أرباضها ، يقتلون ويفتكون بأهلها ، ثم دخلوا مدينة الزهراء في ٢٣ ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (٤ نوفمبر سنة ١٠١٠ م) ، وقتلوا من بها من الجند والحراس . ثم ضربوا الحصار على قرطبة نفسها ، وقطعوا عنها المؤن والأقوات ، وتوجه فريق منهم إلى جيان ومالقة والبيرة والجزيرة ، فأدخلوها في طاعة المستعين .

وكانت الأمور في قرطبة قدساءت إلى درجة كبيرة ، فاشتدت الأزمة ، وانعدمت الأقوات ، وهدمت السيول جوانب كثيرة من قرطبة ، وإزاء هذا كله لم يجد واضح مفرًّا سوى الهروب إلى الثغر ، ولكنه فشل في خطته ، إذ فطن له الجند وقبضوا عليه ، فاحتز ابن وداعة القرطبي رأسه في ١٥ ربيع الثاني سنة ٤٠٢ هـ (١٦ أكتوبر سنة ١٠١١ م) . ولم يجد مقتله شيئاً في علاج الموقف ، فقد ازداد حال أهل قرطبة سوءاً ، وتوالت هزائمهم ، وفى ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ (٩ مايو سنة ١٠١٣ م) اقتحم البربر أرباض المدينة عنوة ، وأعملوا السيف في الرقاب ، ونثروا الخراب والدمار في كل شيء ، فاضطر أهل قرطبة إلى طلب الأمان ، وخرج القاضي ابن ذكوان مع بعض الفقهاء إلى سليمان المستعين ورؤساء القبائل البربرية ، وطلبوا منهم الأمان ، فأمنوهم وطلبوا منهم أموالا كثيرة[٣] . ثم دخل سليمان قصر قرطبة في ٢٧ شوال سنة ٤٠٣ هـ واستحضر هشاماً المؤيد بالله ، ووبخه على نكثه العهد . فاعتذر هشام ، وخلع له نفسه . وذكرت جمهرة من مؤرخي العرب أن محمد بن سليمان المستعين اغتاله خنقاً في

---

(١) Lévi-Provençal, Histoire t. II, p. 315.

(٢) كان سليمان المستعين قد عاد إلى معسكر البربر بعد أن بلغه انتصارهم على ابن عبد الجبار .

(٣) ابن عذارى ص ١١٢ ، ابن الخطيب ص ١٣٨ .

٥ ذي القعدة سنة ٤٠٤ هـ ، وأشاع أنه فر لوجهه ، وعمل سقاء بالمرية[1]. وقال آخرون إن ابن عباد استحضر شيخاً مأفوناً حجبه عن الناس، وزعم أنه هشام المؤيد حتى يستميل قلوب الناس إليه، ويكتسب بذلك سنداً شرعياً .

وانتقل سليمان مع جملة جيشه البربرى إلى مدينة الزهراء، بينما أقام بنو حمود العلويون فى شقندة . ثم إنه قسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية إرضاء لهم ، فأعطى ألبيرة لحبوس بن ماكسن الصنهاجي وذريته ، وأعطى جوفى البلاد لمغراوة، وأعطى سرقسطة لمنذر بن يحيى التجيبي، الذى ساعد سليمان فى فتح قرطبة ، وأعطى جيان لبنى برزال وبنى يفرن ، وشذونة ومورور لبنى دمر وأزداجة ، ثم إنه منح علياً بن حمود ولاية سبتة، والقاسم بن حمود ولاية طنجة وأصيلا والجزيرة الخضراء[2] . وبذلك غلب العنصر البربرى على دولة سليمان المستعين، مما حمل الفتيان العامريين على الهرب إلى شرق الأندلس، خوفاً على أنفسهم من البربر ، حيث أقاموا لهم دولا فى بلنسية، وشاطبة، ودانية، ولورقة ، وميورقة، والمرية، على نحو ماسنراه فيما بعد، وأخذوا يكيدون لسليمان المستعين ، ويدبرون له المؤامرات . ويذكر ابن الخطيب أن بعض العامريين الموالى والصنائع الهاشميين أرسلوا إلى على بن حمود أمير سبتة وثيقة منسوبة إلى هشام المؤيد وبخطه عهد فيها بالأمر بعده إلى على بن حمود[3] . ثم أنهم

---

(١) ابن عذارى ج ٣ ص ١١٣ ، ابن سعيد المغربي : المغرب فى حلى المغرب ص ١٨٩ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٤٠ ، نفح الطيب : ج ١ ص ٤٠٤ .

(٢) ابن عذارى ص ١١٣ ، ابن الخطيب ص ١٣٩ .

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٤١ . بينما يذكر ابن عذارى أن هشاما المؤيد « عندما رآه من اضطراب أمره، وتيقن من انصرام دولته، صير إلى على بن حمود ولاية عهده ، وأوصى إليه بالخلافة من بعده، وراسله إلى سبتة بذلك سراً ، وولاه طلب دمه، واستكتمه السر فيه إلى أوانه وبلوغ زمانه » (انظر ابن عذارى ص ١١٤ وابن بسام الذخيرة القسم الأول ص ٢٦) . غير أن هذه الرواية تبدو غير منطقية لأن سليمان المستعين تخلص من هشام المؤيد عقب دخوله قصر قرطبة . ثم إنه لم يقم على بن حمود على سبتة إلا بعد أن استوسق له الأمر بعد فراغه من أمر هشام . ويغلب على الظن أن على بن حمود وهو فى سبتة كان يزمع الخروج على سليمان؛ وإن كان يعد لذلك العدة سراً بدليل استبداده بالأمر فيها، واستقلاله بها سنة ٤٠٤هـ ، وبدليل انه قتل محمداً بن عيسى قاضى سبتة والفقيه ابن يربوع وكلاهما من أنصار سليمان . ثم إنه خاطب أخاه القاسم باحتلال الجزيرة الخضراء ، وتعلل فى خروجه على طاعة سليمان بالقصة المذكورة . ومما يثبت هذا الرأى أنه عندما خرج عن طاعة المستعين أظهر كتاباً نسبه إلى هشام يقول فيه : « أنقذنى من أسر البربر ، والمستعين وأنت ولى عهدى » ووجه به إلى حبوس الصنهاجي وإلى خيران العامرى ، فنصحاه بالنهوض إلى مالقة والاستيلاء عليها (انظر ابن عذارى ص ١١٦ ، ابن الخطيب ص ١٤١) .

تعهدوا له بتذليل الصعاب ، وهونوا له أمر الاستيلاء على الخلافة ، وأشار عليه حبوس الصنهاجى صاحب إلبيرة ، وخيران العامرى صاحب المرية ، بالتوجه إلى مالقة والاستيلاء عليها . ولم يتوان على عن المجاز إلى الأندلس بحجة الإفراج عن هشام المؤيد فى الظاهر ، مع أنه كان يعلم تماماً أن هشام قد مات مقتولا ، أما غرضه الأساسى الذى كان يضمره فى الباطن فهو تقويض خلافة سليمان المستعين والظفر بها لنفسه . ثم اتجه إلى المرية حيث اجتمع مع خيران العامرى وغيره من الفتيان العامريين ؛ ومن هناك زحفت جيوشهما نحو قرطبة ، بينما تأهب أخوه القاسم لتقديم المساعدات إليه عند الضرورة[1] .

وأبلغ سليمان بنبأ تحالف على بن حمود وخيران العامرى عليه ؛ وعلم بمسير جيوشهما إليه ، فعظم عليه الأمر ، وخرج بمن تبقى من رجاله للقاء جيوش ابن حمود وخيران مجتمعة ، واشتبك الفريقان فى محرم سنة ٤٠٧ ، ولكنهم هزموه ، وقبضوا عليه وعلى أخيه . ودخل على بن حمود قصر قرطبة فى ٢٢ محرم سنة ٤٠٧ هـ (يوليو سنة ١٠١٦ م) . تظاهر على بعدم معرفته موت هشام المؤيد حتى يبرر عدوانه على سليمان . وذكر ابن عذارى أنه طمع أن يجد هشاماً المؤيد بالله حياً ، فلم يوجد ، وذكر له أنه قتل ، وعرض عليه قبره ، فأخرجه وتعرف على جثته ، ثم أعاد دفنه . وأمر باحضار سليمان ، فضرب عنقه بيده ، ثم ضرب عنق أخيه عبد الرحمن ، ثم عنق أبيهما الشيخ ، وجعل رؤوس ثلاثتهم فى طست ، وأخرجت من القصر إلى المحلة ينادى عليها : هذا جزاء من قتل هشاماً المؤيد[2] .

---

(١) ابن بسام : الذخيرة القسم الأول ص ٢٨ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة قسم أول ص ٢٩ ؛ ابن عذارى ج ٣ ص ١١٧ .

٦

بنو حمود وسقوط الخلافة

بويع لعلى بن حمود فى باب السدة من قصر قرطبة وذلك فى ٢٣ محرم سنة ٤٠٧ هـ، وتلقب بالناصر لدين الله . وكان على موفقاً فى بداية عهده، إذ كان حكمه يقوم على إرهاب البربر وتشدده فى معاملته لهم، حتى أطاعه كل عصى ، وفى ذلك يقول ابن حيان : « وكان يجلس بنفسه لمظالم الناس وهو مفتوح الباب، مرفوع الحجاب للوارد والصادر ، يقيم الحدود مباشراً بنفسه ، لا يحاشى أحداً من أكابر قومه . فانتشر أهل قرطبة فى الأرض ذات الطول والعرض، وسلكت السبل ، ورخا السعر ...»[1] وهكذا افتتح عهده بإقامة العدل وإنصاف المظلومين ، فافتتن به أهل قرطبة وأحبوه [2] .

ولكنهم سرعان ما كرهوه لما عاينوه من سرعة تحوله عنهم، وانصرافه إلى حزبه البربرى ، وتفضيله عليهم، ويرجع السبب فى هذا التقلب إلى قيام المرتضى عبد الرحمن بن عبد الملك بن الناصر سنة ٤٠٧ هـ بشرق الأندلس بإيعاز من خيران العامرى ، وميل أهل قرطبة إلى هذا الخليفة الجديد ، فألزمهم المغارم وصب عليهم كل ضروب نكاله ، وانتزع منهم السلاح ، وهدم دورهم ، وقبض أيدى الحكام عن إنصافهم ، وعزم على إخلاء قرطبة، وإبادة أهلها[3] . فاشتد سخط الناس عليه وتبرم به خدمه وفتيانه من صقالبة بنى مروان ، فوثب عليه منهم

---

(١) ابن بسام : القسم الأول ص ٧٩ — ٨٠ ، ابن عذارى ج ٣ ص ١٢٢ .

(٢) يروى ابن حيان أنه كان يقيم الحدود بنفسه، وضرب لذلك مثلا فقال إنه « قدم إليه عصابة من البرابر الأكابر فى جرائم تجاوزت حد النكال ، فأمر بضرب أعناقهم وعشائرهم ينظرون خفوة، لا ينبسون ولا يجسرون عليه فى شفاعة . . . » انظر ابن بسام ص ٨٠، ابن عذارى ص ١٢٢ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة القسم الأول ص ٨١ ، ٨٢ — ابن عذارى : ج ٣ ص ١٢١ ، ١٢٣ .

ثلاثة هم منجح ولبيب وعجيب، وقتلوه فى حمام قصره فى غرة ذى القعدة سنة ٤٠٨ هـ[١].

وخلفه أخوه القاسم بن حمود فى ٤ ذى القعدة سنة ٤٠٨ هـ، وبدأ عهده بداية طيبة إذ اهتم بنشر الأمن فى ربوع البلاد، وحاكم قتلة أخيه، فأقروا بجريمتهم، وأنكروا مواطأة أحد معهم فى تدبيرها، فأمر بقتلهم[٢]. وعلى هذا النحو اطمأن الناس فى حياتهم، وتنسموا روح الرفق. غير أن هذا الاطمئنان لم يطل أمده، فسرعان ما وقع القاسم تحت سيطرة البربر والفتيان العامرية القائمين بشرق الأندلس، فضعف أمره وتلاشى سلطانه، وكرهه أهل قرطبة لذلك، وندموا على خذلانهم لآل مروان.

وكان أمراء شرق الأندلس ونخص بالذكر منهم زهيراً وخيران قد بايعوا المرتضى بالخلافة، وأعدوا له جيشاً كثيفاً لفتح قرطبة، وإعادة الخلافة لأصحابها الشرعيين من المروانيين.

وعرج هذا الجيش على غرناطة لمحاربة بنى زيرى الصنهاجيين، وكان يتولى غرناطة وقتئذ زعيم من أبناء زيرى بن مناد هو زاوى بن زيرى. فلما اشتبك الفريقان سنة ٤٠٩ هـ، أجمع أمراء شرق الأندلس على خذل المرتضى والغدر به، لما رأوه من صرامته وحدة نفسه، وخافوا من عاقبة تمكنه من البربر[٣]، فانهزموا عنه رغم كثافة عددهم، ووفرة عدتهم، ولما وجد المرتضى نفسه وحيداً، فر بنفسه، ولكنه قتل بالقرب من وادى آش.

وعلى الرغم من انتصار زاوى بن زيرى، فقد آثر الخروج من الأندلس، والعودة إلى المغرب، استنكاراً لما رآه من غدر أهل الأندلس، وما عاينه من خستهم ونذالتهم، فرحل إلى إفريقية هو وأولاده بعد أن رفض أتباعه الرحيل معه[٤].

---

(١) انتهز هؤلاء فرصة دخوله حمام قصره وانشغاله بالاستحمام فهوى منجح على رأسه بكوب من النحاس غاية فى الثقل، شجه به فغشى عليه، ثم أجهز الآخران عليه بخناجرهم، وأغلقوا عليه باب الحمام، وتسللوا هاربين. فلما استطال نساؤه بقاءه بالحمام، دخلن عليه، فشهدنه قتيلا. انظر ابن بسام: الذخيرة قسم أول ص ٨٢ وابن عذارى ج ٣ ص ١٢٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥٦.

(٢) ابن بسام: الذخيرة: المجلد الثانى ص ١٢، ابن عذارى ص ١٣٠، وابن الخطيب ص ١٥١.

(٣) عبد الواحد المراكشى: المعجب ص ٥٠.

(٤) ابن عذارى ج ٣ ص ١٢٨.

أحدث انهزام المرتضى وقتله صدى أليماً فى نفوس أهل الأندلس، لأنه سجل تفوق العنصر البربرى عليهم ، وازداد نفوذ البربر بعد قضائهم على المرتضى ، وتسلطوا على دولة القاسم بن حمود ، وانتهز يحيى وإدريس ابنا أخيه المقتول فرصة ضعفه ، وعملا على خلع عمهما . فاتفقا على أن يتولى يحيى أمر مالقة ويتولى إدريس أمر سبتة . وما كاد يحيى ينتقل إلى مالقة حتى جمع جيشاً من جيرانه البربر زحف به إلى قرطبة . ولم يقو القاسم على مواجهة هذا الجيش ، ففر إلى إشبيلية فى ٢٢ ربيع آخر سنة ٤١٢ هـ ، ودخل يحيى قرطبة ، وبايعه البربر وأهل قرطبة بالخلافة فى أول جمادى الأولى سنة ٤١٢هـ ، وتلقب بالمعتلى بالله، والتزم يحيى سياسة تقوم على تجنب العصبية، واتباع العدل والإنصاف، لكن سرعان ما ركبه الغرور، وداخله الإعجاب بنفسه فساءت حاله[1] وخلعه البربر بقرطبة فى ١٢ ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ ، واستدعوا القاسم من إشبيلية . ففر يحيى إلى مالقة ، ودخل القاسم قرطبة ، وجددت له فيها البيعة للمرة الثانية فى ١٨ ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ ، ولم يطل به العهد فى قرطبة ، إذ خلعه أهلها بسبب تسلط البربر على شؤون دولته، واستبدادهم بالسلطان فثاروا عليه، وأجمعوا على خلعه فى ٢١ جمادى الآخرة سنة ٤١٤، وحاصروه فى قصره أياماً حتى أرغموه على مغادرته إلى الربض الغربى منها فى جيشه البربرى . وأغلقوا عليه أبواب المدينة كلها طوال خمسين يوماً ، ثم اضطروا إلى مقاتلة البربر قتال الموت، ففتحوا الأبواب، وحطوا على البربر كالبواشق، وهزموهم هزيمة شنعاء[1] ففر القاسم هو وأصحابه إلى إشبيلية، وكان بها والداه محمد والحسن، فأغلق أهل إشبيلية، أبواب مدينتهم فى وجهه فى ١٢ شعبان سنة ٤١٤، وذلك لكراهيتهم للبربر، ثم أخرجوا ولديه ، وعهدوا بأمرهم إلى القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ، ولم يجد القاسم بداً من الرحيل ، فانصرف طريداً إلى شريش . ولما علم يحيى بن حمود بذلك زحف إلى شريش، واستولى عليها، وقبض على عمه، وحمله معه مقيداً إلى مالقة .

أما أهل قرطبة فقد كانت نفوسهم قد ضاقت بالبربر ، وندموا على ما فعلوه ببنى مروان، وأجمعوا على رد الخلافة إليهم، فاختاروا من أمراء المروانية ثلاثة هم سليمان بن المرتضى ومحمد بن العراقى وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار . واجتمع

---

(١) ابن بسام : الذخيرة، المجلد الثانى ص ١٤

(٢) ابن عذارى ج ٣ ص ١٣٤ — عبد الواحد المراكشى ٥١ — ابن الخطيب ص ١٥٥ .

الناس فى جامع قرطبة فى ٤ رمضان سنة ٤١٤ على اختلاف طبقاتهم لانتخاب واحد منهم ومبايعته ، وعقدت البيعة بادئ ذى بدء لسليمان بن المرتضى ، ولكن قدوم عبد الرحمن، بن هشام بن عبد الجبار فى شرذمة من رجاله، شاهرين سيوفهم، حال دون إتمامها ، فبويع لعبد الرحمن ، وكشط شيوخ قرطبة الذين كانوا يسعون لخلافة سليمان اسم سليمان من الرق ، وكتبوا مكانه اسم عبد الرحمن بن هشام[1] ، بعد أن استأمنوه على أنفسهم . فلما تم له الأمر وتلقب بالمستظهر بالله، نكث عهده، وسجنهم فى المطبق بقرطبة ، فسعوا عليه من المطبق ، وكاتبوا صاحب المدينة ، فاستجاب لدعوتهم هو وطائفة من أهل قرطبة ، وهاجموا المطبق وأفرجوا عنهم[2] . وتركز سخطهم على المستظهر ، فهاجموا القصر . وقيل إن أهل قرطبة ثاروا عليه لإكرامه وفداً من البربر قدموا عليهم، فصاح الناس : عاد شر البرابر جدعاً ، وهاج الناس وماجوا ، وقتلوا الضيوف البربر، وحاصروا القصر.

وتسلق الثوار سور القصر ودخلوا على المستظهر ، فتخلى عنه وزراؤه وتركوه وحيداً أمام سيل جارف . فتجرد من ثيابه « حتى بقى فى قميصه ، واستخفى فى أبزن الحمام »، وفى هذه الأثناء أجلس الناس محمداً بن عبد الرحمن بن عبيد الله الناصر مجلس الخلافة ، وبايعوه فى ٣ ذى القعدة سنة ٤١٤ . ثم عثر على المستظهر فيما بعد ، وحمل إلى محمد بن عبد الرحمن الذى تلقب بالمستكفى بالله وقتل أمامه .

وهكذا افتتح المستكفى بالله خلافته بجريمة شنعاء، وواصل اجترامه بقتل ابن عمه محمد بن العراقى خنقاً سنة ٤١٥ هـ[3] ، وأعلن ولاية العهد من بعده لابن عمه سليمان ابن هشام بن عبيد الله . وكان المستكفى بالله على نقيض المستظهر بالله سيئ الخلق عاهرا ، عاطلا من الخصال والفضائل[4] ، ويشبهونه بالمستكفى بالله العباسى لاشتراكهما فى التوثب فى الفتنة « واستظهارهما بالفسقة ، واعتداء كل واحد منهما على ابن عمه . . . ومن العجب أنهما اتفقا فى الأخلاق والعهر واللعب ، وأن كل واحد منهما عاش اثنين وخمسين سنة ، وكل واحد منهما ملك سنة ونحو خمسة أشهر ،

---

(١) ابن بسام : القسم الأول ص ٣٥ ، وابن عذارى ج ٣ ص ١٣٥ ، ابن الخطيب ص ١٥٦.

(٢) ابن بسام: القسم الأول ص ٣٧ ، ابن عذارى ص ١٣٧ ، ابن الخطيب ص ١٥٧.

(٣) ابن عذارى ج ٣ ص ١٤٢ ، ابن الخطيب ص ١٥٨.

(٤) يقول ابن حيان معدداً مآثر المستظهر : « كان على حداثة سنه ذكياً يقظاً لبيباً أديباً=

وكل واحد منهما تركه أبوه صغيرا ، وتوافقا فى اللقب. وبالجملة فهما رذلى قومهما[١]، وفى أيامه امتد الدمار إلى قصور عبد الرحمن الناصر فى قرطبة وقصور الزاهرة[٢] .

وفى ٢٥ من ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ ، دخل عليه وزراؤه وأمروه بأن يخرج معهم لمقاتلة يحيى بن على بن حمود الذى زحف من مالقة بقصد الاستيلاء على قرطبة . فتظاهر بالقبول ، وهو يضمر فى قرارة نفسه النجاة بحياته ، فتسلل من قصره بقرطبة فى زى غانية بين امرأتين لم يميز منهما ، وخرج من قرطبة مع بعض رجاله ، ويبدو أنه اختلف معهم على مال أثناء الطريق ، فقتلوه فى بلدة أقليج[٣] .

واستعاد يحيى بن على المعتلى بالله دولته بقرطبة فى ١٦ رمضان سنة ٤١٦ هـ ، وأقام بقرطبة ما يقرب من أربعة أشهر ، ثم رحل إلى مالقة فى ٨ محرم سنة ٤١٧ هـ ، وترك وزيره أبا جعفر أحمد بن موسى على قرطبة ، وانتهز حبوس بن ماكسن صاحب غرناطة هذه الفرصة ، وأوعز إلى الموفق مجاهد وخيران بدخول قرطبة ، فلما تأكد أهل قرطبة من وصولهما إليهم ، وثبوا على البربر وأعملوا فيهم السيف . وقيل إنهم قتلوا منهم يومئذ نحو ألف رجل ، وفر الوزير أحمد بن موسى إلى مالقة ، وخاف يحيى أن يعود قرطبة فيبطش به أهلها ، فآثر البقاء بمالقة . وظل كذلك حتى قتل خارج أبواب قرمونة فى محرم سنة ٤٢٧ هـ على أيدى رجال إسماعيل بن عباد[٤] .

أما خيران ومجاهد العامريان ، فقد أقاما بقرطبة ما يقرب من شهر ، ثم شجر بينهما

= حسن الكلام ، جيد القريحة ، مليح البلاغة يتصرف فيما شاءه من الخطابة بديهة وروية ، ويصوغ قطعا من الشعر مستجادة . . وقد اقتضب بحضرة الوزراء فى أيامه عدة رسائل وتوقيعات لم يقصر فيها عن الغاية ، يزين ذلك بطهارة أثواب وعفة ، وبراءة من شرب النبيذ سرا وعلانية ، وكان فى وقته نسيج وحده ، ختم به فضلاء أهل بيته الناصريين ، فلم يأت بعده مثله » انظر ابن بسام الذخيرة القسم الأول ص ٤٠ ، ابن عذارى ص ١٤٠ . أما المستكفى بالله فيذكر عنه ابن القطان أنه : « لم يجلس للإمارة مدة الفتنة أنقص منه ، إذ لم يزل معروفا بالتخلف والبطالة ، أسير الشهوة عاهر الخلوة ، ضدا لقتيله المستظهر بالله فى الطهارة والمعرفة والذكاء » انظر ابن عذارى ص ١٤١ .

(١) ابن عذارى ص ١٤١ .

(٢) ابن عذارى ص ١٤٢ ، ابن الخطيب ص ١٥٨ . ذكر ابن بسام عن ابن حيان أن الذى تولى هدم قصور قرطبة والزهراء رجل اسمه ابن باشة (انظر ابن بسام : الذخيرة المجلد الثانى ص ١١٢) .

(٣) ابن عذارى ج ٣ ص ١٤٢ – ١٤٣ ، ابن الخطيب ص ١٥٩ . وقد ذكر عبد الواحد المراكشى أنه فر إلى قرية بالثغر يقال لها شمنت تقع بالقرب من مدينة سالم (ص ٥٦) ويتفق المقرى معه فى ذلك إذ يقول : « وفر المستكفى إلى ناحية الثغر ومات فى مفره » ج ١ ص ٤١٣ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة القسم الأول ص ٢٧٢ ، ابن عذارى ص ١٨٨ .

خلاف ، وأخذ كل منهما يشك فى نية الآخر . ويخاف منه ، فانسحب خيران من قرطبة فى أواخر ربيع الآخر سنة٤١٧ هـ ، بينما بقى مجاهد بها فترة من الوقت ، ثم غادرها إلى دانية[١] .

أجمع أهل قرطبة بعد رحيل الفتيين العامريين على مبايعة هشام بن محمد ابن عبد الملك أخى المرتضى ، الذى غدر به العامريون وقتلوه فى وادى آش . فبايعوه وهو بحصن البنت[٢] ، فى ربيع الآخر سنة ٤١٨ ، وتلقب بالمعتد بالله . وظلوا يخطبون باسمه عامين وسبعة أشهر حتى قدم إليهم سنة ٤٢٠ هـ . ولم يطل عهده بقرطبة إذ استوزر رجلا يعرف بحكم ابن سعيد القزاز ، ويكنى بأبى العاص ، كان يكرهه أهل قرطبة لاستبداده برأيه وتعسفه ، ومخالفته لآراء الوزراء السابقين ، وإكرامه للبربر وإجزاله لهم العطاء ، فبطشوا به وقتلوه[٣] . وانتهز أمية بن عبد الرحمن بن هشام ابن سليمان ، أحد أمراء بنى مروان ، فرصة مقتل الوزير المذكور ، ليحرض العامة على المعتد سعياً لإسقاطه واعتلاء كرسى الخلافة مكانه. وثار أهل قرطبة وراء أمية فى ١٢ ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ ، وحاصر العامة قصر الخلافة ، وأخرج هشام من قصره هو ونساؤه وولده ، وأنزل إلى ساباط المسجد الجامع المؤدى إلى المقصورة ، وظل هناك أسيراً ذليلا ، يتوقع الموت فى كل لحظة[٤] . وفى هذه الأثناء اجتمع شيوخ قرطبة والوزراء برئاسة أبى الحزم بن جهور ، واتفقوا على خلع المعتد بالله ، وإبطال رسم الخلافة جملة ، ولكن أمية بن عبد الرحمن كان حريصاً كل الحرص على الظفر بها[٥] ، ولم يكن يخطر بباله أن تنتهى الأمور كذلك . ونودى فى الأسواق والأرباض ألا يبقى بقرطبة أحد من بنى أمية وألا يكنفهم أحد من أهل المدينة .

وانتهى بذلك أمر بنى أمية فى الأندلس وزالت خلافتهم وانقطعت الدعوة لهم .

---

(١) ابن عذارى ص ١٤٥ .

(٢) كان هشام بن محمد المذكور قد فر بنفسه بعد هزيمة أخيه المرتضى بالقرب من غرناطة وأقام عند صاحبه عبد الله بن قاسم الفهرى صاحب حصن البنت (انظر ابن سعيد ص ٥٥) . وقيل إنه كان مقيما بالثغر فى لاردة عند ابن هود (انظر المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٤١٣) .

(٣) قتله رجل يعرف بابن الحصار .

(٤) ذكر ابن عذارى أن أول ما طلبه من السدنة الداخلين عليه إحضار كسيرة خبز يسد بها جوع طفلة له كان قد احتضنها ساترا لها بكمه من قر ليلته . (ابن عذارى ص١٥١) . وذكر المراكشى أنه لحق ومن معه بالثغور وأقام عند ابن هود فى لاردة حتى مات سنة ٤٢٧ هـ (المراكشى : المعجب ص ٥٨) .

(٥) ذكر ابن عذارى أن أهل قرطبة نصحوه بعدم التطلع إلى الخلافة خشية أن يقتله الناس لانقلابهم على بنى أمية فقال لهم أمية : « بايعونى أنتم اليوم واقتلونى غدا » انظر ابن عذارى ص١٥٠ ، ١٥١

٧

عوامل سقوط الخلافة

كان أهل الأندلس يؤلفون أخلاطا متنافرة من السكان بعضهم عرب ، وبعضهم بربر ، وبعضهم صقالبة ، وبعضهم مولدون ، وبعضهم مستعربون أو يهود[1] . وكانت كل من هذه العناصر البشرية تميل إلى التكتل فى بؤرات عمرانية خاصة بها ، فنرى أن العنصر الغالب على قرطبة من العرب ، والعنصر الغالب على إشبيلية وطليطلة من المولدين ، والعنصر الغالب على غرناطة وقرمونة ومالقة من البربر . وكان لهذا أثره الكبير فى ميل أهل الأندلس إلى الاستقلال ، والخروج عن السلطة المركزية[2] ، مما كان يقضى باستعمال القوة كوسيلة لازمة للوحدة السياسية . ومع ذلك فقد كانت القوة وحدها لا تكفل للأمير الحاكم السيطرة على سائر البلاد ، وكان لزاماً على الحاكم أن يصطنع الحزم ، لأن الرغبة فى الاستقلال والانسلاخ عن جسم الدولة كانت تجعل هناك نوعاً من الحساسية عند الرعية إزاء الحاكم ، ثم إنها كانت تدفعهم إلى الثورة عليه كلما لمسوا منه استبداداً بشؤون الدولة أو تعسفاً فى معاملته لهم . وقد أثبتت الحوادث التاريخية فى الفترة التى عالجناها (من الفتح الإسلامى للأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية) أن القوة والعنف يدفعان إلى الفتنة . فقد شاهدنا كيف ثارت اليمنية وانقلبت على عبد الرحمن الداخل عندما أساء إلى زعيمها أبى الصباح

---

(١) لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ١٧ – ٣٨ .

(٢) يرى الدكتور حسين مؤنس أن أهل الأندلس كانت تعوزهم روح الترابط والوحدة بسبب تفرقهم فى شبه الجزيرة وأن هذا قد أدى إلى سهولة تمزيق البلاد (انظر La Chûte du Califat Umayyade p. 169) والحقيقة أن تفرق السكان فى شبه الجزيرة لا دخل له بالوحدة السياسية التى تتوقف عادة على قوة الحكومة المركزية أو ضعفها ، وكل ما فى الأمر أن امتداد سلاسل الجبال من الشرق أو الشمال الشرقى إلى الغرب أو الجنوب الغربى قد ألف حواجز ودروباً من الصعب اجتيازها فى تلك العصور ، وقسم الأندلس بذلك إلى أقاليم تكاد تكون منفصلة . وقد ساعد هذا الانقسام بطبيعة الحال إلى ميل أهل البلاد إلى النزعة الانفصالية .

ابن يحيى اليحصبي ، وكيف خذل القواد العرب خليفتهم عبد الرحمن الناصر في موقعة شانت مانكش المعروفة بالخندق سنة ٣٢٧ هـ لتقريبه صقالبته وفتيانه عليهم[1] .

ولا شك أن سياسة التغلب على البلاد بقوة السيف كانت تكفل خضوع الرعية واستكانتهم طوال عهد الحاكم الذي يصطنع هذه السياسة ، ولكنها كانت تدفعهم إلى الثورة من بعده ، وعلى هذا النحو نجد أن الحاكم الناجح هو من اتبع سياسة الترغيب والترهيب في آن واحد .

فعبد الرحمن الداخل بشهادة عدوه أبي جعفر المنصور استمال قلوب رعيته في الأندلس « بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل له أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكاً على قطيعته ، قاهراً لأعدائه ، حامياً لذماره ، مانعاً لحوزته ، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه[2] » . ولذلك نجح عبد الرحمن في تأسيس دولة قوية الأركان . وكذلك اتبع عبد الرحمن الناصر سياسة تقوم على الإرخاء والجذب ، والشدة واللين ، وآتت هذه السياسة الحازمة الحكيمة

---

(١) يقول صاحب أخبار مجموعة في خبر هذه الواقعة : « ولكنه عفا الله عنه مال إلى اللهو ، واستولى عليه العجب ، فولى للهوى لا للغناء ، واستمد بغير الكفاة ، وأغاظ الأحرار بإقامة الأنذال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد فقلده عسكره ، وفوض إليه جليل أموره ، وألجأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه ، وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه وركاكة عقله ، فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزامهم في الغزوة التي غزاها عام ٣٢٦ هـ وسماها غزاة القدرة ، لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها ، فهزم فيها أقبح هزيمة ، وأتبعهم العدو أياما يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة ، فلم يكد ينجو منهم إلا قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم وتخلصوا إلى بلدانهم ... » انظر أخبار مجموعة ص ١٥٥ — ١٥٦ . ويؤيد ذلك ما ذكره المسعودي في مروج الذهب من أن عبد الرحمن الناصر خرج لمحاربة الجلالقة سنة ٣٢٧ ولكنه هزم وقتل من رجاله نحو ٥٠ ألفاً منهم (مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ١ ص ٧٦ ، ١٠٨٣ هـ مصر) . وذكر ابن الخطيب أن طائفة من جند الناصر لدين الله حسدته ما هيأ الله له من الصنع ولم تناصحه الحرب حق النصح ، فجالت ثانية للأعنة واختل مصاف القتال فانهزم الناصر . وقد قبض الناصر على ما يناهز ٣٠٠ من فرسانه فصلبهم ونادى في قرطبة : هذا جزاء من غش الإسلام وكاد أهله وأخل بمصاف الجهاد (ص ٤٢) ويؤيد هذا الرأي من مؤرخي الأندلس المحدثين جنثالث بلنسية فيذكر أن أشراف قواد الناصر ثأروا منه بأن تركوه يهزم أمام قواد زمورة وطوطة .(انظر Gonzalez Palencia, historia. p. 45 . وينكر الدكتور حسين مؤنس ما ينسبه صاحب أخبار مجموعة إلى الناصر ، ويرى أن العلاقة بين الناصر ووجوه رجاله لم تكن سوى علاقة مودة وتقدير (انظر Hussain Monés : Essai sur la chûte du Califat Umayyade de Cordoue en 1009, le Caire, 1948, p. 198.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠ .

ثمرتها ، فكان عهده من أزهى عهود الإسلام فى الأندلس . وبذلك أثبتت سياسة الاعتدال[١] جدواها فى تاريخ بنى أمية فى الأندلس .

والواقع أن سياسة الرفق بالرعية هى أصلح سياسة لدوام الملك واستمالة الرعية ، وقد ذكر ابن خلدون أن حسن الإمارة يعود إلى الرفق « فإن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منقباً عن عورات الناس، وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ، ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة ، فتخلقوا بها ، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم ، وربما خذلوه فى مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات ، وربما أجمعوا على قتله لذلك ، فتفسد الدولة ويخرب السياج ، وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية[٢] لما قلناه أولا وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية ، وإذا كان رفيقاً بهم متجاوزاً عن سيئاتهم، استناموا إليه، ولاذوا به، وأشربوا محبته، واستماتوا دونه فى محاسبة أعدائه ، فاستقام الأمر من كل جانب[٣] » .

وعلى هذا فإن انحراف الخلفاء الأمويين عن هذا المبدأ، مبدأ التوسط والاعتدال سواء بالتفريط أو الإفراط، يعتبر العامل الأساسى الذى أدى إلى سقوط الخلافة بقرطبة.

ويتبع هذا العامل الأساسى عامل آخر لا يقل عنه فى الأهمية وهو سياسة الخلفاء الأمويين منذ عبد الرحمن الناصر نحو إضعاف العصبية العربية . لقد نجح الناصر فى إعادة وحدة الأندلس بعد تفككها، وذلك باستنزاله الثوار والمتهزين فى الأندلس بالعنف حيناً وبالسلم أحياناً ، ولكنه وجد أن جيشه بنظامه القائم لا يمكن الاعتماد عليه لأن العنصر العربى كان العنصر المتفوق فيه ، وكانت العساكر المجندة فى جيشه من سائر الكور والأقاليم توزع فيه وفقاً وقبائلهم وأقاليمهم، ولذلك كانت

---

(١) التزم بهذه السياسة من أمراء بنى أمية وخلفائهم عبد الرحمن الأوسط والحكم المستنصر ، ولذلك سادت الطمأنينة والرخاء فى أيامهما والواقع أن الإفراط والتفريط فى كل صفة من صفات صاحب السياسة أمران مذمومان . ويرى ابن خلدون أن المحمود هو التوسط كما فى الكرم مع التبذير والبخل ، وكما فى الشجاعة مع الهوج والجبن وغير ذلك من الصفات الإنسانية (انظر المقدمة ص ١٨٩ المكتبة التجارية بمصر) .

(٢) كما فعل المنصور محمد بن أبى عامر إذ تحامل على العصبية العربية فى الأندلس لاستبداده بالعرب دون الصقالبة والبربر ، ففسدت العصبية العربية لذلك وتحولت بعد وفاته بثمانية أعوام إلى بركان قذف البلاد بحممه .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ١٨٩ .

هذه الأجناد لا تخلص للأمير بقدر إخلاصها لولاتها فى الأقاليم ، لأنها كانت تتعصب لهؤلاء الولاة[١] ، لذلك عمد الخليفة إلى إضعاف العصبية العربية فى جيشه ، وتطعيم الجيش بعناصر جديدة ؛ فاستكثر من الصقالبة ، واصطنعهم فى جيشه وحكومته واعتمد عليهم فى سائر شؤون الدولة[٢] . وعلى هذا النحو ضعفت العصبية العربية خاصة بعد هزيمة الناصر فى موقعة شانت مانكش ، وكادت هذه العصبية تتلاشى فى عهد الخليفة هشام المؤيد على يدى حاجبه المنصور محمد بن أبى عامر . إذ اعتمد فى جيشه على عنصرين هما البربر والصقالبة ، ونظم الجيش إلى فرق تتمثل القبائل فى كل منها ، وكان يرمى من وراء ذلك إلى إزالة العصبية الجنسية فيه ، ثم قضى على النظام الإقطاعى للجند وبدله بنظام المرتبات[٣] . غير أن الخطأ الذى وقع فيه ابن أبى عامر هو استكثاره من البربر ، فقد جلب إلى قرطبة من بربر العدوة وإفريقية عدداً كبيراً ضاقت بهم قرطبة وأرباضها[٤] ، كما جلب كثيراً من الصقالبة وجعلهم فتياناً له . وذكر ابن الخطيب نقلا عن التيجانى « أن المنصور هلك عن سبعة خلفاء من فتيانه الأكابر ، وكان شأنهم فى تلك الدولة الأموية كبيراً وهو ينوء بثقل كلفتهم الباهظة ، فلما تولى ولده عبد الملك بعده الأمر ، بلغ بهم ستة وعشرين خليفة ، فضاعف مؤونتهم أضعافاً كثيرة وكان من مشاهيرهم واضح ، وبشير ، ونظيف ، ونجا ، وشعلة ، ومظفر ، وزهير ، وخيران ، ونصر ، ونصير ، وطرفة ، وشفيع ، ويمن ، وواثق ،

---

(١) Lévi-Provençal, l'Espagne Musulmane au Xe. siècle, p. 136.

(٢) يذكر ابن عذارى أن عدد الفتيان الصقالبة الذين سكنوا مدينة الزهراء أيام الناصر بلغ ٣٧٥٠ فتى (انظر البيان ج ٢ ص ٣٤٦) . وذكر المقرى عن بعض المؤرخين أن عددهم بالزهراء قد بلغ ١٣٧٥٠ فتى وقيل ٦٠٨٧ (انظر المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص١٠٢ ، ١٠٣ – أزهار الرياض فى أخبار عياض ج ٢ القاهرة ١٩٤٠ ص ٢٦٨) وإن كان يستصوب أن عددهم ٣٧٥٠ فتى . وقد برز من فتيان الناصر عدد كبير منهم خلف الفتى صاحب الطراز ، وأفلح الفتى صاحب الخيل ، ودرى صاحب الشرطة .

(٣) يقول المقرى : « وكان عرب الأندلس متميزين بالعمائر والقبائل والبطون والأفخاذ ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبى عامر الداهية الذى ملك سلطنة الأندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم ، وتعصبهم فى الاعتزاء ، وقدم القواد على الأجناد ، فيكون فى جند القائد الواحد فرق من كل قبيل ، فانحسمت مادة الفتن والاعتزاء بالأندلس (انظر نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤) .

(٤) ابن عذارى ج٢ ص٤٢٨ ، ويقول ابن الخطيب إن عدة الفرسان من البربر الغرباء فى ديوان ابن أبى عامر بلغ ثلاثة آلاف فارس ، يضاف إليهم ألفا راجل من الرقاصة السودان (انظر أعمال الأعلام ص ١١٩) .

وبشرى، والزاب، وبليق، وكوثر، وجعفر[١]». واعتمد المنصور فى جيشه على هذين العنصرين : البربرى والصقلبى ، وأهمل رجال العرب[٢] . وقد أفسح هذا مجالا للأحقاد فى نفوس العرب، وظلت هذه الأحقاد كامنة فى حياته وحياة ابنه المظفر ولكنها ظهرت بعد ذلك ظهوراً مدمراً فى عهد ابنه عبد الرحمن شنجول، فكانت سبباً فى اشتعال نار الفتنة بين أهل قرطبة والبربر، وهى الفتنة التى أفضت إلى سقوط الخلافة الأموية، وانفراط عقدها .

فالمغالبة والممانعة لا تستند على حد قول ابن خلدون إلا على النعرة والعصبية ، فمتى فسدت العصبية انهارت السلطة المركزية ، وعلى هذا كان فساد العصبية العربية وانقراضها بعد زوال الدولة العامرية سبباً فى الإطاحة بالخلافة الأموية ، وقيام دويلات الطوائف[٣] .

ولم يقتصر الفساد على تطاحن العناصر البشرية فى الأندلس فيما بينها فحسب ، بل تجاوز ذلك إلى الاستعانة بخصوم الإسلام فى الأندلس ونعنى بهم نصارى الشمال ، فقد أخذ كل فريق يستعين على جاره بالنصارى نظير إعطائهم بعض الحصون ، وكان ذلك كله على حساب دولة الإسلام ، وسنرى فى الكتاب القادم كيف تغلغل نفوذ قشتالة وليون فى السياسة الداخلية لملوك الطوائف .

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٢١ .

(٢) يقول ابن خلدون : «إنه استدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جنداً واصطنع أولياء، وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبنى يفرن وبنى برزال ومكناسة وغيرهم. . . وقدم رجال البرابرة وزناتة وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم» ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ — المقرى ج ١ ص ٢٧٤.

(٣) يقول ابن خلدون فى المقدمة : «وكذا دولة بنى أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها ، واقتسموا خطتها ، وتنافسوا بينهم ، وتوزعوا ممالك الدولة ، وانتزى كل واحد منهم على ما كان فى ولايته ، وشمخ بأنفه ، وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية ، فتلقبوا بألقاب الملك ، ولبسوا شارته . . . فاستظهروا مع أمرهم بالموالى والمصطنعين والطراء على الأندلس من أهل العدوة من قبائل البربر وزناتة وغيرهم اقتداء بالدولة فى آخر أمرها فى الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب واستبد ابن أبى عامر بالدولة ، فكان لهم دول عظيمة استبدت كل واحدة منها بجانب من الأندلس» . المقدمة ص ١٥٥ — ١٥٦ .

ملحق (١)

نص إعلان ولاية عهد المسلمين لشنجول سنة ٣٩٩ هـ
من كتاب البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب[١]
من إنشاء كاتب الرسائل أبو حفص أحمد بن برد

« هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله أطال الله بقاءه إلى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة بعد أن أمعن النظر، وأطال الاستخارة، وأهمه ماجعل الله إليه من إمامة المسلمين ، واتقى حلول الأجل ، بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف ، وخشى أن هجم محتوم ذلك عليه ، ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوى إليه ، أن يكون بلقاء الله مفرطاً فيها ، ساهياً عن أداء الحق إليها ، ونظر عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرها ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ، ويعول فى القيام به عليه ، بعد اطراح الهوادة والتبرئ من الهوى ، والتحرى للحق ، والتزلف إلى الله جل جلاله بما يرضيه وإن قطع الأواصر وأسخط الأقارب ، عاملا بألا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، وموقناً ألا وسيلة إليه أزكى من الدين الخالص ، فلم يجد أحداً هو أجدر أن يقلده الخلافة فى فضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف موكبه ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه وحزمه وثقافه من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبى عامر محمد ابن أبى عامر وفقه الله ، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ، ونظر فى شأنه واعتبره ، فرآه مسارعاً إلى الخيرات (سابقا فى الحلبات[٢] (مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، وارثاً للمكرمات ، يجذب بضبعه إلى أرفع منازل الطاعة ، ويسمو بعينيه إلى أعلى درج النصيحة ، (أب منقطع القرين وصنو معدوم الغريم[٣]) ومن

---

(١) ابن عذارى المراكشى ، البيان، ج ٣ ، ص ٤٤ – ٤٦ .

(٢) فراغ أكملناه من كتاب أعمال الأعلام ص ١٠٧ .

(٣) جملة ناقصة أكملناها من نفح الطيب ج ١ ص ٤٠١ .

كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ من سبل البر مداه ، ويحوى من خلال الخير ما حواه ، مع أن أمير المؤمنين أبقاه الله لكثرة ما طالعه من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، أمل أن يكون ولى عهده القحطانى الذى جاء فيه الأثر عن النبى صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه ، فلما استوى عنده الاختيار ، وتقابلت فيه الآثار ، لم يجد عنه مذهبا ولا إلى غيره معرجا ، خرج إليه من تدبير الأمر فى حياته ، وفوض إليه النظر فى أمور الخلافة بعد وفاته ، طائعاً ، راضياً ، مجتهداً ، متخيراً ، غير محاب له ، ولا مائل بهوادة إليه ، ولا شرك نصح الإسلام وأهله فيه ، وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة ، بولاية عهده فيها ، أن رأى ذلك فى بقاء أمير المؤمنين أعزه الله وبعده ، وأمضى أمير المؤمنين أعزه الله عهده هذا ، وأنفذه وأجازه وبتله ، لم يشترط فيه مثنوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء بذلك فى سره وجهره ، وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه ، وذمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وذمم الخلفاء الراشدين من آله وآبائه ، وذمة نفسه ، بأن لا يبدل ، ولا يغير ولا يحول ولا يتأول ، وأشهد الله على ذلك وملائكته ، وكفى بالله شهيداً ، وأشهد من أوقع اسمه فى هذا الكتاب ، وهو — أبقاه الله — جائز الأمر ، ماضى القول والفعل ، بمحضر من ولى عهده المأمون ، ناصر الدولة ، أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور ، وفقه الله وقبوله لما قلده ، والتزامه لما التزمه ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وثلاثمائة » .

ملحق (ب)

نص إعلان ولاية عهد المسلمين من سليمان المستعين
إلى ابنه محمد سنة ٤٠٠ هـ
من «كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام(١)»
من إنشاء كاتب الرسائل أبو حفص أحمد بن برد

« أما بعد فإن أمير المؤمنين لما جبله الله عليه وحببه إليه من الاجتهاد للمسلمين والنظر لهم والفكر فى عواقبهم ، والحرص على مصالحهم ، والإشفاق من اختلافهم ، وافتراق كلمتهم ، رأى أن يجتهد لهم لمماته ، كما اجتهد لهم فى حياته ، بأن يرفع لهم علماً يهتدون به ، وينصب لهم وزراً يلجؤون إليه ، وموئلا يتعطفون عليه ، يؤلف شملهم ، ويجمع كلمتهم ، ويلم شعثهم ، ويسكن نفرتهم ، ويؤمن روعتهم ، مقتدياً فى ذلك بالأئمة المهتدين والخلفاء الرشدين ، الذين نظروا للأمة من بعدهم ، وأشفقوا من اختلاف كلمتهم ، وتفرق مذاهبهم ، عندما يفجئهم ما لا محيد لهم عنه ، ولا بد منه من بغتات الأقدار ، ونفاد الأعمار ، الليل والنهار ، فأطال استخارة الله عز وجهه والرغبة إليه فى إمداده ، بتوفيقه ومعاضدته بتسديده ، وحمله على ما فيه الخيرة له ولجميع المسلمين ، وجميل العاقبة فى الدنيا والآخرة ، فألقى الله فى روعه وثبت فى خلده ، وقرر فى نفسه أن محمداً بن أمير المؤمنين أولى أهل بيت الخلافة بولاية عهد المسلمين ، غير محاب له ولا آخذ بهوادة فيه ، بل لما قد علمته الخاصة والعامة من تكامل خلال الخير له واجتماع أدوات الفضل فيه ، وما هو عليه فى دينه ، وهديه ، وورعه ، وفضله ، وطهارة أثوابه ، وعفاف مذهبه ، وصلب نفسه ، واكتمال حلمه ، وسعة علمه ، وكمال أدبه ، واضطلاعه بأعباء الخلافة ، ومعرفته بمعانى السياسة ، ونفاذه فى التدبير والإدارة ، فأمضى أمير المؤمنين ما استخار الله تعالى فيه ، وعزم عليه ، وجعل ولاية عهد المسلمين إلى محمد بن المستعين بالله

---

(١) ابن الخطيب . كتاب أعمال الأعلام ص ١٤٦ — ١٤٨ .

أمير المؤمنين ، وهو يعتقد أنه قد خرج لجماعة المسلمين عما ألزمه الله من حقهم ، وتبرأ إلى الله مما كلفه من أمرهم ، وأدى الأمانة التى حمله الله فى الاجتهاد لجماعتهم ، وقضى ما وجب عليه من الاحتياط فى الاختيار لإمامتهم ، مبتغياً بذلك ثواب الله العظيم ، وفضله الجسيم ، ونظراً لأمة محمد عليه السلام ، وتحصيناً عليها واحتياطاً لها وهروباً من التقصير فى حقها ، والله يريه وجماعة المسلمين الخير والخيرة واليمن والبركة والسعادة والغبطة فيما وفق أمير المؤمنين له ، وألهمه إليه فأعلم ذلك من عقد أمير المؤمنين وعهده وما أنفذه من فعله ، وتقدم إلى أصحاب الصلوات فى جوامع عملك بالدعاء له فى خطب الجمع بما أدرجناه طى كتابنا هذا ، والله يسأل أمير المؤمنين أن يتولاه فى جماعة المسلمين بما فيه الخير لهم وجميل العاقبة فى دينهم ودنياهم ، وأن يقارضه بجميل نيته لهم وكريم مذهبه فيهم ، إنه ولى المجازاة بالإحسان عن الإحسان ، والممتن بالفضل والامتنان ، إن شاء الله . وكتب فى النصف من جمادى الآخرة سنة ٤٠٠ » .

الفصل الثامن

الآثار الباقية من العصر الأموى

(١) آثار المساجد

(٢) آثار القصور

(٣) آثار الأسوار والحصون والأبنية ذات المنافع العامة

الفصل الثامن

الآثار الباقية من العصر الأموى

١

آثار المساجد

يقترن عصر الفتوحات الإسلامية بإنشاء مراكز عمرانية إسلامية ، كان الغرض منها أن تكون قواعد حربية ومراكز للجيش من جهة ، وصبغ البلاد المفتوحة بالصبغة العربية الإسلامية من جهة ثانية ، وأولى هذه المدن التى أنشأها العرب بعد فتح العراق مدينة البصرة التى أسست على يدى أبى موسى الأشعرى سنة ١٥ هـ ، والكوفة التى اختطها سعد بن أبى وقاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب سنة ١٧ هـ[١] ، كما أتيح لمصر بعد أن امتدت إليها أشعة الإسلام سنة ٢١ هـ أن تشهد عاصمة جديدة هى الفسطاط بدلا من الإسكندرية العاصمة القديمة . ولما تولى عقبة بن نافع الفهرى قيادة جيوش المسلمين على برقة وطرابلس وإفريقية ، اختط سنة ٥٠ هـ قاعدة إسلامية هى مدينة القيروان . وهكذا تميز عصر الفتوحات بإنشاء المدن الإسلامية فى سائر أنحاء العالم الإسلامى باستثناء الشام الذى كان يزخر بأخائذه ، وهى الدور المهجورة التى تركها أصحابها من الروم فراراً من جيوش العرب ، فأصبحت أخائذ للعرب . ونزل العرب فى مدنهم التى اختطوها وفى المدن القديمة التى افتتحوها ، وصبغوها بالصبغة الإسلامية ، وذلك بإقامة المساجد الجامعة التى كانت تتحكم فى تخطيط المدينة وفى عمرانها ، على نحو ما فعلوه فى دمشق والإسكندرية وقرطبة . وبذلك كانت المساجد هى الأساس الذى يعتمد عليه العرب فى صبغ المدن المفتوحة بالصبغة الإسلامية ، إذ أن المسجد الجامع يصبح بمرور الزمن مركز المدينة وقلبها النابض ، فمنه تتفرع الطرق الكبرى المؤدية إلى أبواب المدينة ، وحول ساحته تقام الأسواق

---

(١) عبد العزيز سالم : « جامع الكوفة » مقال فى الجزء الثانى من كتاب مساجد ومعاهد ، كتاب الشعب عدد ٧٨ القاهرة ١٩٦٠ ص ٢١٩ وما يليها

والحمامات والفنادق والقيساريات ، وفيه تعقد الاجتماعات السياسية ، وتوزع ألوية الجيش ، وتدرس العلوم الدينية وغير الدينية ، فليس غريباً إذن أن يسيطر الجامع على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى المدينة الإسلامية[1] ، وليس غريباً أن تتحول هذه المدن التى افتتحها العرب إلى مدن إسلامية قلباً وقالباً ، لا تختلف عن المدن التى اختطها العرب إلا بكثرة أبنيتها القديمة الدالة على الحضارات الدارسة القديمة ، كالجسور الرومانية ، وأقواس النصر ، والحمامات ، والملاعب ، والأسوار .

وهكذا كان بناء المسجد الجامع فى الإسلام أساس العمران فى المدن إسلامية البناء أو التى يراد طبعها بالطابع الإسلامى ، فكان المسلمون منذ فجر الإسلام ، وفى زمن الفتوحات الكبرى ، يشيدون المسجد الجامع بادئ ذى بدء رغبة فى إضفاء المصبغة الإسلامية على المدينة ، كما كانوا يبدأون بإنشائه قبل أى بناء آخر عند تأسيسهم للمدن الإسلامية ، وما يلبث العمران أن ينمو حول المسجد بالدور ومختلف الأبنية ، ويشد الناس الرحال إلى المدينة . أما بالنسبة للمدن المفتوحة ، فقد كان المسلمون يكتفون بمشاركة النصارى فى كنائسهم ، كما فعلوا فى الشام حين شاطروا نصارى دمشق فى كنيسة يوحنا المعمدان ، وحدث فى الأندلس ما حدث فى الشام إذ امتثل المسلمون الفاتحون لقرطبة ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأي عمر بن الخطاب من مشاطرة النصارى فى كنائسهم ، فشاطروا نصارى قرطبة كنيستهم العظمى التى كانت تقع داخل مدينة قرطبة نفسها بالقرب من السور الجنوبى الذى يحيط بالمدينة ، قبالة باب القنطرة ، وابتنوا فى هذا الشطر جامعاً بسيط البناء غير منتظم التخطيط ، أسس حنش الصنعانى وأبو عبد الرحمن الحبلى التابعان قبلته بأيديهما ، وتركوا النصف الآخر للنصارى يقيمون فيه شعائرهم الدينية[2] . كذلك أقيم جامع الجزيرة الخضراء على يدى عبد الله بن خالد على أنقاض كنيسة ، كما أسس جامع طليطلة هو الآخر على أساس كنيسة قديمة .

كل ذلك يدل دلالة واضحة على الدور الذى لعبه المسجد الجامع فى المدينة

---

(١) انظر مقالى « التخطيط ومظاهر العمران فى العصور الإسلامية الوسطى » بمجلة المجلة ؛ العدد التاسع سبتمبر سنة ١٩٥٧

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٤١ وما يليها — المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ص ٩٦ (عن الرازى) .

الإسلامية ، وعلى أهميته بالنسبةللمراكز العمرانية الأخرى فى المدينة[١] ، فكانت الأسواق العامرة بالثياب والديباج ، والحوانيت الزاخرة بالعطور وأنواع الطيب ، والصاغة والعطارين تقام فى ساحة المسجد ورحبته المحيطة به ، وكانت تتفرع من هذه الساحة طرق المدينة الرئيسية ودروبها وشوارعها التى تفضى إلى الأبواب الخارجية ، وهكذا صار المسجد نقطة التحول فى دراسة الطبوغرافية التاريخية للمدينة الإسلامية .

وإذا تحدثنا عن المساجد الأموية فى الأندلس فإننا نقصد بذلك ما أقامه أمراء بنى أمية فى قرطبة وغيرها ولكننا سنقصر الحديث على أهم هذه المساجد بالنسبة لما يحتفظ به من آثار أى أننا سنتحدث عن المساجد التى بقيت منها آثارهامة وأولها المسجد الجامع بقرطبة ، وجامع إشبيلية وجامع طليطلة .

أولا : المسجد الجامع بقرطبة :

كان جامع قرطبة من الوجهة الفنية أروع أمثلة العمارة الإسلامية والمسيحية على السواء فى العصر الوسيط ، ومن الوجهة العلمية ، أكبر جامعة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية واللغوية ، ويفد إليها طلاب المسلمين والعجم للدرس والتحصيل ، لذلك اشتهرت مدينة قرطبة لاشتمالها على المسجد الجامع « الذى ليس فى بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه[٢] » . ويقول عنه الحميرى إنه الجامع « المشهور أمره ، الشائع ذكره ، من أجل مصانع الدنيا كبر مساحة ، وإحكام صنعة ، وجمال هيئة ، وإتقان بنية ، تهمم به الخلفاء المروانيون ، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة ، وتتميما إثر تتميم ، حتى بلغ الغاية فى الإتقان ، فصار يحار فيه الطرف ، ويعجز عن حسنه الوصف ، فليس فى مساجد المسلمين مثله تنميقاً وطولا وعرضا[٣] » ، ويقول عنه الشريف الإدريسى فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » : « . . . وفيها المسجد الجامع الذى ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولا وعرضا[٤] » ، وهكذا

---

(١) Torres Balbâs, los Edificios Hispona-Musulmanes, Revista del Instituto Egipcio, No. I, 1953, p. 92-98.

(٢) المقرى نقلا عن الرازى ، نفح الطيب ج ٢ ص ٨ .

(٣) الحميرى ، ص ١٥٣ .

(٤) Ach-Charif al-Idrisi, Waçf al-Masjid al-Jâmi bi-Qurt'uba, description de la Grande Mosquée de Cordoue, éd. Dessus Lamare, Alger, 1949, p. 2.

أصبح يضرب بهذا المسجد الجامع المثل في العظمة والاتساع وفي كثرة الزخارف والجمال ، وقد بالغ مؤرخو العرب في المغرب والأندلس في وصفهم له ، فصوروه تصويراً أقرب إلى الخيال ، واختصوه بعنايتهم ، وعظموه وأجلوه ، وكتبوا في تاريخه ووصفه فصولا طوالا[١] تعد من أهم المصادر عن هذا الأثر الخالد الجليل .

ويرجع هذا التعظيم والإجلال لجامع قرطبة إلى أن حنش بن عبد الله الصنعاني ، وأبا عبد الرحمن الحبلي التابعين قد توليا تأسيسه بأيديهما ، وقوما محرابه . وقد احتفظ الأمير عبد الرحمن الأوسط بهذا المحراب النفيس عند زيادته لبيت الصلاة ، فنقله من موضعه القديم ، وركزه في مكانه من القبلة الجديدة[٢] ، كذلك احتفظ المسجد الجامع في سائر زياداته باتجاه القبلة الذي حدده حنش الصنعاني ، رغم انحراف هذا الاتجاه عن الاتجاه الصحيح .

ولما شاور الخليفة الحكم المستنصر العلماء في رغبته في تصحيح اتجاه القبلة نحو الشرق ، عندما شرع في النظر في زيادته الكبرى بالجامع ، كما فعل أبوه الناصر في قبلة جامع الزهراء ، قال له الفقيه أبو إبراهيم : « يا أمير المؤمنين ، إنه قد صلى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمة من أجدادك الأئمة ، وصلحاء المسلمين وعلمائهم ، منذ افتتحت الأندلس إلى هذا الوقت ، متأسين بأول من نصبها من التابعين كموسى بن نصير وحنش الصنعاني وأمثالهم رحمهم الله تعالى . وإنما فضل من فضل بالاتباع ، وهلك من هلك بالابتداع . فأخذ الخليفة برأيه وقال : نعم ما قلت ! وإنما مذهبنا الاتباع[٣] » .

ومن مظاهر إجلال المسلمين وتعظيمهم لهذا الجامع ما نعته به مؤرخو العرب ، فقد سماه عبد الواحد المراكشي بالجامع الأعظم[٤] ، وكذلك وصفه ابن بشكوال[٥]

---

(١) كرس له الإدريسي فصلا هاما ، كما جعل له المقري في كتابه نفح الطيب فصلا خاصا ، وكذلك فعل غيره من المؤرخين العرب .

(٢) الرسالة الشريفية في الأقطار الأندلسية ص ١١٦ – ١١٧ ، يقول : « وورد في الأثر أنها (القبلة التي ركزها حنش) روضة من رياض الجنة ، وبقيت إلى بني أمية وبني بنيانا آخر لم يهدم المحراب ومشى على حمز خشب إلى أن وقف في موضعه اليوم تبركا به » .

(٣) المقري ، ج ٢ ص ٩٨ .

(٤) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٧٢ .

(٥) المقري ج ٢ ص ٩٩ .

ولسان الدين بن الخطيب[١] ، وقد بلغ من إجلال أهل الأندلس وتعظيمهم لمسجدهم بقرطبة أن جعلوه مركزاً دينياً هاماً يحج الناس إليه ، وفى ذلك يقول ابن المثنى شاعر الأمير عبد الرحمن الأوسط من قصيدة :

بنيت لله خير بيت   يخرس عن وصفه الأنام
حج إليه بكل أدب   كأنه المسجد الحرام
كأن محرابه إذا ما حُفَّ به   السركن والمقام[٢]

وكان تعظيم جامع قرطبة عند المسلمين سبباً فى قدومهم إلى قرطبة لزيارته ، والاحتفال فى بيت الصلاة فيه بالمناسبات الدينية الهامة ، باعتباره أكبر مساجد المغرب والأندلس قاطبة ، وأعظمها . وقد حفظ لنا المقرى نصاً لأبى محمد بن صاحب الصلاة الولبى يصف فيه المسجد ، عندما جاء إلى قرطبة لحضور الاحتفال بليلة القدر فى جامعها ، فيقول : « وإنى شخصت إلى حضرة قرطبة — حرسها الله — منشرح الصدر لحضور ليلة القدر ، والجامع — قدس الله بقعته ومكانه ، وثبت أساسه وأركانه قد كسى ببردة الازدهاء ، وجلى فى معرض البهاء ، كأن شرفاته[٣] فلول فى سنان أو أشر فى أسنان ، وكأنما ضربت على سمائه كلل ، أو خلعت على أرجائه حلل ، وكأن الشمس خلفت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطاره أفياءها ، فترى نهاراً قد أحدق به ليل ، كما أحدق بربوة سيل ، ليل دامس ، ونهار شامس » . ثم يتحدث عن الثريات النحاسية التى تتعلق فيها الكؤوس التى بداخلها المصابيح فيقول :

« وللذبال تألق كنضنضة الحيات ، أو إشارة السبابات فى التحيات ، قد أترعت من السليط[٤] كؤوسها ، ووصلت بمحاجن الحديد رؤوسها ، ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة ، أو كالثعابين العائمة ، عصبت بها تفاح[٥] من الصفر[٦] ،

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٤٣ ، ٤٨ .

(٢) المقرى ج ١ ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٣) يقصد الشرفات الهرمية التى تشبه أسنة المنشار ، والتى تعلو جدران الجامع .

(٤) السليط نوع من الزيوت التى تستخدم فى المصابيح .

(٥) يقصد بالتفاح : الكرات النحاسية الصفراء .

(٦) الصفر نوع من النحاس .

كاللقاح الصفر ، بولغ فى صقلها وجلائها ، حتى بهرت بحسنها ولألائها ، كأنها جليت باللهب ، وأشربت ماء الذهب ، إن سمتها[١] طولا رأيت منها سبائك عسجد ، أو قلائد زبرجد ، وإن أتيتها عرضاً رأيت أفلاكاً ولكنها غير دائرة ، ونجوماً ولكنها ليست بسائرة ، تتعلق تعلق القرط من الذفرى[٢] ، وتبسط شعاعها بسط الأديم حين يفرى » . ثم يصف الولبى مئذنة الجامع وقد زينت بالشموع ، فيقول : « والشمع قد رفعت على المنار رفع البنود ، وعرضت عليها عرض الجنود ، ليجتلى طلاقة روائها القريب والبعيد ، ويستوى فى هداية ضيائها الشقى والسعيد ، وقد قوبل منها مبيض بمحمر ، وعورض مخضر بمصفر ، تضحك ببكائها ، وتبكى بضحكها ، وتهلك بحياتها ، وتحيي بهلكها » . ثم ينتقل هذا الأديب إلى وصف رائحة البخور وهو يتصاعد من المجامر والمباخر المكعبة الشكل فيقول : « والطيب تفغم أفواحه ، وتتنسم أرواحه ، وقتار الألنجوج والند[٣] ، يسترجع من الحياة ماند[٤] ، وكلما تصاعد وهو محاصر ، أطال من العمر ما كان قد تقاصر ، فى صفوف مجامر ، ككعوب مقامر » . ثم يصف قباب المسجد من الداخل والخارج ويصف زخارفها التى تكسو الضلوع البارزة وما بين هذه الضلوع ، كما يصف المحراب وما يحيط به من نقوش وزخارف ، فيقول : « وظهور القباب مؤللة[٥] ، وبطونها مهللة[٦] ، كأنها تيجان ، رصع فيها ياقوت ومرجان ، قد قوس محرابها أحكم تقويس ، ووشم بمثل ريش الطواويس ، حتى كأنه بالمجرة مقرطق ، وبقوس قزح ممنطق ، وكأن اللازورد حول وشومه وبين رسومه ، نتف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلل الغمام »[٧] ...

هذا الوصف الرائع البليغ الذى سجله قلم أحد كتاب الأندلس فى عصر الموحدين ، يصور لنا المكانة التى كان يشغلها جامع قرطبة عند المسلمين ، ومدى تعظيمهم لبنائه ، وإعجابهم بزخارفه ونقوشه ، وإقبالهم على الدروس الدينية التى

---

(١) قصدتها .
(٢) الذفرى شحمة الأذن .
(٣) البخور .
(٤) ما ذهب وولى.
(٥) مسننة الشكل أو هرمية .
(٦) تشبه الأهلة ويقصد هنا الأقواس والعقود أو الضلوع المتقاطعة فى داخل القبة أو باطنها .
(٧) المقرى ج ٢ ص ٩٠ .

كانت تعقد بين بلاطاته وحول أساطينه . كذلك وصف هذا الجامع جمهرة من مؤرخي العرب وجغرافييهم ، وأصبح ذكر الجامع لا يخلو من جميع تواليفهم ، ولولا أن هذا الأثر العظيم لا يزال راسخاً فى مكانه اليوم ، تشهد عناصره بصدق أقوالهم ، لكنا قد اعتبرنا هذه الأوصاف ضرباً من الخرافة ، أو نوعاً من المبالغة الخيالية . وليس معنى هذا أن كل ما جاء فى أقوالهم حقيقة يجب الأخذ بها ، فكثيراً ما تختلط فى أقوال بعض المؤرخين العرب قصص خيالية ، وذلك تفخيماً للجامع أو تعظيماً له ، مثال ذلك ما ذكره عبد الواحد المراكشى ، من أنه لما دخل ألفونسو الأول ملك أرغون مدينة قرطبة سنة ٥٠٣ هـ « دخل النصارى فى هذا المسجد بخيلهم ، فأقاموا به يومين لم تبل دوابهم ، ولم ترث حتى خرجوا منه »[١] ، وروى ابن القوطية أن النورمنديين لما أرادوا إحراق جامع إشبيلية «جمعوا الخشب والحصر فى أحد البلاطات ليدخلوا النار ويتصل بالسقف ، فخرج إليهم من جانب المحراب فتى ، فأخرجهم عن المسجد ، ومنعهم دخوله ثلاثة أيام حتى حدثت الوقيعة بينهم »[٢] . وذكر ابن بشكوال فى رواية استشهد بها للدلالة على بقعة جامع قرطبة المقدسة فقال إن « موضع الجامع الأعظم بقرطبة كان حفرة عظيمة يطرح فيها أهل قرطبة قمامتهم وغيرها ، فلما قدم سليمان بن داود — صلى الله عليهما — ودخل قرطبة ، قال للجن : اردموا هذا الموضع وعدلوا مكانه ، فسيكون فيه بيت يعبد الله فيه . ففعلوا ما أمرهم به وبنى فيه بعد ذلك الجامع المذكور »[٣] .

وذكر المقرى : « قد شاع وذاع على ألسنة الجم الغفير من الناس فى هذه البلاد الشرقية وغيرها ، أن فى جامع قرطبة ثلثمائة ونحو ستين طاقاً على عدد أيام السنة ، وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق إلى أن يتم الدور ثم تعود »[٤] .

وذكر أبو حامد الغرناطى الأندلسى فى كتابه « عجائب المخلوقات »[٥] أن « بهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر ، مكتوب على الواحد اسم محمد ، صلى الله عليه

---

(١) عبد الواحد المراكشى ص ٣٧٣ .

(٢) ابن القوطية ص ٦٦ .

(٣) المقرى ج ٢ ص ٩٩ .

(٤) المقرى ج ٢ ص ٦٠ .

(٥) مخطوطة محفوظة اليوم بمكتبة أكسفورد تحت رقم Hunt 565

وسلم ، وعلى الثانى صفة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الآخر صورة غراب نوح ، الثلاثة خلقة ربانية » ويستبعد المقرى هذا القول[١] .

هذا كله يؤلف موضوعاً من موضوعات القصصى الشعبى الأندلسى الذى تواتر على مر العصور ، فأورده المؤرخون نقلا عن ألسنة العامة ، ومع ذلك فقد أوضحوا فى كثير من الأحيان ، أنه مما يشاع بين الناس ، حتى يميزوا بين ما يقولونه هم أنفسهم طبقاً لما شاهدوه فى رحلاتهم ، وبين ما قاله عامة الناس .

وكان جامع قرطبة موضع إجلال المسلمين والمسيحيين على السواء ، إذ كان ينظر إليه على أنه من الآثار الجليلة ، التى تزدان بها الأندلس ، ثم إنه كان يعد أعظم جامعة غربية فى أوربا فى العصر الوسيط ، وقد قيل إن الراهب چيربير الذى أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثانى ، أتم دراسته فى جامع قرطبة ، ولا نشك فى أن كثيرين من نصارى الأندلس من أهل الذمة قد تعلموا فيه علوم العربية ، واستعربوا ، أى تثقفوا بالثقافة العربية — إذ وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مشاركة المسلمين فى حياتهم ، رغبة فى تقلد المناصب الكبرى فى الإدارة ودواوين الحكومة ، وقد نبغ منهم كثيرون فى آداب اللغة العربية ، وظهر منهم الشعراء والكتاب .

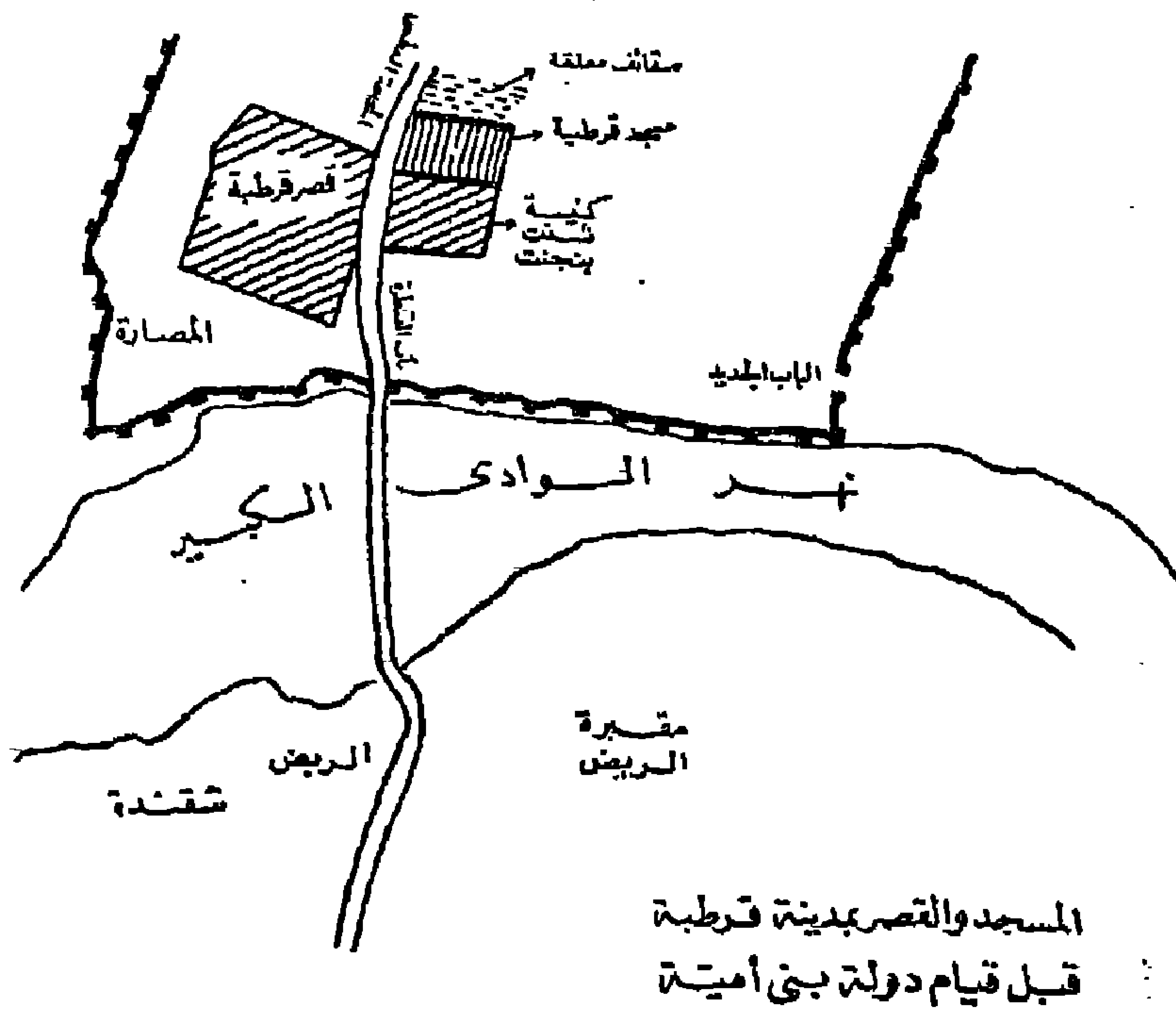
المسجد الجامع فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل :

لما افتتح المسلمون بقيادة مغيث الرومى مدينة قرطبة ، اختاروا كنيستها الكبرى المعروفة بشنت بنجنت St. Vincent التى كانت تقع داخل مدينة قرطبة نفسها بالقرب من السور الجنوبى الذى يحيط بها ، قبالة باب القنطرة ، لإقامة مسجدهم الجامع ، فشاطروا نصارى قرطبة فى هذه الكنيسة ، وأقاموا فى شطرهم مسجداً بسيطاً ساذج البناء ، أسس حنش الصنعانى قبلته بيديه ، وكان من الطبيعى أن يقنع الفاتحون بهذا المسجد البسيط ، إذ كانوا مجرد محاربين وافدين ، حديثى عهد بالبلاد ، وليس منهم من كان عارفاً بفن البناء ، ثم إنهم كانوا يجهلون مواطن الحجر ومصادر استخراج الرخام وغيره من مواد البناء ، وتمضى الأيام ، ويتكاثر عدد المسلمين الوافدين إلى حاضرة الأندلس بوصول الطلائع العربية المتتابعة إلى الأندلس ، ونزول جند الشام

---

(١) المقرى ج ٢ ص ٦١ .

فى قرطبة ، ويضيق مسطح بيت الصلاة عن الاتساع لجموعهم الكثيفة ، وأصبح الجامع لا يتسع لأعدادهم الهائلة ، فجعلوا يعلقون فيه سقيفة إثر سقيفة أو ظلة بعد ظلة يستكنون تحتها كلما تزايد عددهم ، وكان ارتفاع هذه السقائف يقل تدريجياً لارتفاع مستوى سطح الأرض كلما اتجهنا شمالاً ، لأن أرضية الجزء القبلى من المسجد كانت منحدرة نحو النهر ولما كان المسجد يحتل الجزء الشمالى من الكنيسة ، فقد كان طبيعياً أن يكون تعليق السقائف من الجهة الشمالية وليس من الجهة القبلية حيث يوجد المحراب ، وعلى هذا ، فقد سبب تطامن السقائف وانخفاضها مضايقات



المسجد والقصر بمدينة قرطبة
قبل قيام دولة بنى أمية

كثيرة للمصلين ، حتى كان أغلبهم لا يمكنه النهوض فى اعتدال لتقارب السقف من الأرض . ثارت هذه المشكلة فى الوقت الذى دخل فيه الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، وأسس دولة بنى أمية ، وجعل قرطبة دار إمارته ، فقد شاهد ما يعانيه المصلون من متاعب بسبب قلة ارتفاع السقائف المقامة فى جوف المسجد ، وضيق بيت الصلاة ، وعزم على حل هذه المشكلة ، وذلك بضم الأرض التى تشغلها الكنيسة إلى الجامع ، وبناء مسجد جامع جديد يتسع لجميع المصلين ، ويتناسب فى عظمته وروعته مع فخامة دولته ، فدعا رؤساء النصارى بقرطبة إلى مقابلته ، وساومهم فى بيع نصيبهم من الكنيسة ليدخله فى المسجد ، وأوسع لهم البذل وفاء

بالعهد الذى صولحوا عليه ، فأبوا فى بادئ الأمر بيع ما بأيديهم ، وطلبوا منه بعد إلحاحه المتواصل أن يبيح لهم بناء كنيستهم شنت أجلح[1] خارج الأسوار San Asciclo التى خربها المسلمون عند الفتح ، فوافق الأمير على طلبهم ، وتم الأمر على ذلك فى عام ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) ، فخرجوا له عن كنيستهم ، فأدخل أرضها فى الجامع الأعظم . وكان شروع عبد الرحمن الداخل فى هدم الكنيسة والمسجد القديم ، وبناء جامع قرطبة بأسلوبه الجديد ، عام ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) ، فتم بناؤه واكتملت أسواره فى عام ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) ، وأنفق عبد الرحمن فى بناء هذا المسجد نحو ثمانين ألف دينار ، وفى ذلك يقول الشاعر دحية بن محمد البلوى من قصيدة :

وأنفق فى ذات الإله ووجهه ثمانين ألفاً من لجين وعسجد
توزعها فى مسجد أسه التقى ومنهجه دين النبى محمد
ترى الذهب النارى فوق سموكه يلوح كبرق العارض المتوقد[2]

وينقسم الجامع الجديد الذى بناه الأمير الداخل — شأنه فى ذلك شأن المساجد الجامعة الأولى — قسمين : قسم مسقوف هو بيت الصلاة ، وقسم مكشوف هو الفناء أو الصحن [3] . وكان بيت الصلاة فى هذا المسجد يشتمل على تسعة بلاطات تتجه عمودياً على جدار القبلة ، ممتدة على اثنى عشر عقداً (قوسا) فى كل بلاط ، وتقوم هذه العقود على عمد من الرخام اتخذت من الكنائس الخربة ، وكان اتساع البلاط الواحد ٦,٨٦ متراً ، غير أن البلاط الأوسط يزيد اتساعه عن ذلك بقليل إذ يبلغ ٧,٨٥ متراً . وكان سقف المسجد كله يتألف من لوحات خشبية مسطحة مصفوفة عرضا (سماوات) ، ومثبتة فى عوارض خشبية طولية وعرضية (جوائز) [4] ، وتكسو هذه اللوحات والعوارض زخارف هندسية ملونة ومنقوشة من

---

(١) فتح الأندلس ص ٩ — ١٠ ، انظر مقالنا .

Cronologia de la mezquita de Córdoba, op. cit.

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٢ — المقرى ج ٢ ص ٩٧ .

(٣) الإدريسى ص ٢ — الحميرى ص ١٥٣ .

(٤) انظر مقالنا : بعض المصطلحات العربية للعمارة المغربية فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٥٧ .

دوائر وفصوص ومسدسات ومثمنات[1] . وكان يعلو هذا السقف المسطح هياكل مسنمة هرمية الشكل ، تمتد على امتداد البلاطات ، تاركة فيما بينها قنوات مقعرة لتجرى فيها مياه الأمطار . ويحيط بالأسقف من الداخل إزار خشبي منقوش بالآيات القرآنية . وقد عثر المهندس الأثرى بوسكو Bosco على بعض هذه اللوحات الخشبية المسطحة والعوارض الطولية والعرضية بين الهياكل الهرمية ، وبين القبوات الجصية التى أقيمت بدلا من الأسقف المسطحة فى القرن السابع عشر ، ونجح بوسكو فى إعادة تركيب جزء منها فى سقف البلاط الأوسط بالمسجد ، كما كان فى عهده الأول .

وعقدت بين العمد الرخامية على أعلى رؤوسها قسى أو عقود متجاوزة على شكل حدوة الفرس ، تقوم مقام الأوتار الخشبية ، وظيفتها ربط الأعمدة فيما بينها ، كما أقيمت فوقها عقود نصف دائرية تحمل الجدران التى تتكئ عليها السقف ، وتزيد فى الوقت نفسه من ارتفاع السقف ، وتستند العقود على كوابيل ملفوفة مؤلفة من ثلاثة أو أربعة فصوص متراكبة الواحد فوق الآخر ، ويتناوب فى جميع العقود العليا والسفلى اللونان الأصفر الشاحب والأحمر ، نتيجة لتناوب الحجارة والآجر ، بحيث يتألف من هذا التعاقب سنجة حجرية ، وثلاثة صفوف متلاحمة من الآجر الأحمر تؤلف سنجة أخرى ، وهكذا تمكن مهندس الجامع من إحداث تأثير جمالى من هذه الحلية المعمارية البسيطة . ويتكون العمود من رأس رخامى (تاج) ، وبدن ، وقاعدة من الرخام ، وكان بعض هذه القواعد مدفوناً فى أرضية المسجد ، والبعض الآخر ظاهراً فوق مستوى سطحها على نحو غير مستقيم ، وجميع أعمدة المسجد الذى أقامه عبد الرحمن الداخل القديمة ، قوطية أو رومانية ، استغلها بناة المسجد من الكنائس الخربة ، وأعادوا استخدامها فى المسجد الجامع . ويتوج الجدران الخارجية

---

(١) فى ذلك يقول الإدريسى : « وسقفه كله سماوات مسمرة فى جوائز سقفه . . . والسماوات التى ذكرناها هى كلها مسطحة ، فيها ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المسدسة والمؤربى ، وهى صنع الفص وصنع الدوائر ، والمداهن ، لا يشبه بعضها بعضا بل كل سماء منها مكتف بما فيه من صنائع قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة الزنجفرية والبياض الإسفيداجى والزرقة اللازوردية ، والزرقون البارونى ، والخضرة الزنجارية والتكحيل النقى ، تروق العيون وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها وتقسيمها » ص ٤ .

للمسجد إفريز من الشرفات المثلثة المسننة ، وتسند الجدران ركائز قوية وظيفتها إكساب المسجد صفة القلاع ، إذ أن صفوف العقود ترتكز مباشرة على جدار القبلة .

وحين يتخذ المرء طريقه داخل بيت الصلاة ماراً بين صفوف الأعمدة الممتدة إلى ما لا نهاية بعقودها المزدوجة ، توحى إليه هذه العمد والعقود المتكررة بالطبيعة الحية تحت ظلال فى لون الشفق بحيث تمثل غابة من النخيل ، ويتسلل الضوء من شبكات النوافذ الخارجية باهتاً داخل مسطح بيت الصلاة ، ويحدث تأثيراً عميقاً فى النفس ، فيستشعر المرء نفسه فى هذا المسجد بعيداً عن نطاق الحقيقة ، ويظل مستغرقاً مهيئاً للتطلع إلى ما وراء الحس ، فى صلاة خاشعة ، مؤدياً لله فرضه ، مقراً لعبوديته حياله ، ولا سبيل إلى أن يكون الخلق المعمارى أكثر كمالا مما يوحى به هذا المثل الدينى فى بساطته وتجرده[1] .

وقد بحث مؤرخو الفن الإسبانى فى أصل فكرة ازدواج العقود بجامع عبد الرحمن الداخل وأرجعوها إلى عقود الجسور الرومانية التى تقوم على طابقين ، وقارنوا نظام عقودة جامع قرطبة بعقود الجسر الرومانى بماردة ، وهو الجسر المعروف بلوس ميلاجروس أو جسر المعجزات[2] ، وإذا بحثنا عن وظيفة كل من هذين النوعين من العقود ، وجدنا أنهما يختلفان ، ولا شك أن عقود قرطبة ابتكرها مهندس عبد الرحمن ، وأملت صورتها عناصر البناء ومواده التى كانت فى متناول يده ، وبخاصة الأعمدة القصيرة التى جمعها من الخرائب .

وكان صحن الجامع مغروساً بالأشجار ، فقد عهد عبد الرحمن الداخل إلى عبد الله بن صعصعة بن سلام (توفى سنة ١٩٢ هـ) ، صاحب الصلاة بالمسجد ، بأن يغرس صحن المسجد بالأشجار ، ففعل ، واتبع أمراء الأندلس وخلفاؤها هذا التقليد بعد ذلك ، فطبق فى بقية مساجد الأندلس .

وتوفى الأمير عبد الرحمن سنة ١٧٣ هـ قبل أن يتم بناء مسجده ، فلم يكن

---

(١) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, t. III, Madrid 1951, p. 12

عبد العزيز سالم : المساجد والقصور فى الأندلس ص ١٩ وما يليها .

(٢) Georges Marçais, Manuel d'art Musulman, t. I, L'architecture en Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile. Paris 1926, p. 231—Marçais, L'architecture musulmane d'Occident, Paris. 1954, p. 147 — Creswell, Early Muslim arctitecure, t. II, p. 157.

للمسجد مئذنة ولم تكن فيه سقائف لصلاة النساء ، فأتمه ابنه هشام من بعده ؛ وأقام مئذنة من خمس في ء أربوتة ، بلغ ارتفاعها إلى موضع الأذان نحو ٢٠ متراً ، كما أقام بنهاية المسجد مما يلي الجوف سقائف لصلاة النساء ، وأمر ببناء ميضأة بشرقي الجامع[1] . ولكن مئذنة هشام لم يكتب لها أن تبقى طويلاً ، إذ تصدعت في أواخر عهد الأمير عبد الله ، فهدمها الخليفة عبد الرحمن بن محمد وأقام صومعة أخرى جليلة بدلا عنها . وقد تمكن المهندس الأثرى دون فيلث هرناندث من الاهتداء إلى أسسها ، وكان طول قاعدتها يبلغ ستة أمتار .

المسجد الجامع في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ومن خلفه من أمراء بني أمية :

لما تولى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الإمارة بعد وفاة أبيه الحكم بن هشام (٨٢٢ — ٨٥٢ م) ، رفع من شأن قرطبة وجعلها عاصمة تليق بالإمارة ، وفي عهده تكاثر الناس في قرطبة وتوافدوا إليها من كل أوب حتى ضاق عنهم بيت الصلاة بالمسجد ، وكانت بلاطات المسجد الذى بناه عبد الرحمن الداخل تسعاً ، فأنشأ عبدالرحمن الأوسط حفافيها من ابتدائها شرقا وغرباً بلاطين زائدين عليها ، ممتدين معها ، سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) فكمل عدد بلاطات المسجد أحد عشر بلاطاً استوسع به المسجد ، ورفه عن حاضريه ، ووصل هذين البلاطين في سقيفتين ، ووصلهما بالسقائف التي كانت معدة بجوف المسجد الأقدم لصلاة النساء ، عقد على كل سقيفة منها على ١٩ سارية ، وابتنى الأمير عبد الرحمن في مؤخر الصحن سقيفة جوفية ، نظمها بالسقيفتين اللتين ابتناهما حفافي صحنه بشرقيه وغربيه[2] . وفي سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) زاد الأمير عبد الرحمن بن الحكم في بيت الصلاة بجامع قرطبة أول زيادة في عمقه

---

(١) ابن القوطية ص ٤٣ — ابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٢ — نفح الطيب ج ١ ص ٣١٧

Marçais L'architecture musulmane d'occident, Paris 1954, p. 147— Creswell, Early Muslim architecture, t. II, p. 157.

Lévi-Provençal, Documents et notules, les citations du Muqtabis d'Ibn Hayyan, Arabica, t. I, fasc. 1, Janvier 1954 — E. Lambert; Histoire de la grande Mosquée de Cordoue au VIII et IX siècles, Annales de l'Institut d'études orientales de l'Université d'Alger, Alger, t. II, 1936, pp. 165-179

ولقد أشار ابن خلدون إلى زيادة هذين البلاطين الجانبيين فيقول : « وزاد في جامع قرطبة رواقين » ج ٤ ص ١٣٠ ، المقرى ج ١ ص ٣٢٥ .

أو اتساعه أجريت فيه، وهي الزيادة الأولى البارزة من بين البنية الأولى التى ابتناها أبو جده عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى الأندلس ، ورسم أن يكون ذلك من قبل قبلته فى الفضاء ما بينها وبين باب المدينة الراكب للقنطرة بحيث تكون محدودة من الأرجل الحجرية الضخام الماثلة اليوم فى وسط أبهاء المسجد ، والمتخلفة من جدار محراب جامع عبد الرحمن الداخل إلى نهاية المسجد فى منتهى المحراب الثانى ، وجمع فاخر الآلات لبنائه ، واستكثر من عدد حذاق الفعلة لإحكامه ، ووكل ببنيانه أكبر فتيانه الخصيين الأثيرين لديه نصرا وصاحبه مسروراً ، رغبة فى إيشاك التمام مع إحكام الصنعة، وأشرف له على ذلك أيضاً محمد بن زياد قاضى قرطبة وصاحب الصلاة بها . ويبلغ طول زيادة عبد الرحمن الأوسط ٥٠ ذراعاً ، وعرضها مائة وخمسين ، وعدد سواريها ثمانين سارية[١] ، ذلك أن الأمير مد جنيع بلاطات الجامع نحو الجنوب ما يقرب من ستة وعشرين متراً ، أى أنه مد الصفوف العشرة للعقود على ثمانية عقود جوفية ، ثم نقل المحراب القديم إلى نهاية جدار القبلة الجديد الذى وصلت إليه زيادته . ولقد سايرت زيادة عبد الرحمن الأوسط أسلوب عبدالرحمن الداخل فى البناء والزخرفة ، ولم تشز عنه إلا فى الكوابيل التى اقتصرت هذه المرة على بروز محدب ، وفتح فى بيت الصلاة بابان فى جانبى المسجد الشرقى والغربى ، بالإضافة إلى البابين القديمين ، فأصبح للجامع أربعة أبواب : اثنان منها فى الجهة الغربية ، واثنان فى الجهة الشرقية ، ولم يتبق منها سوى بابا الجدار الغربى المواجه للقصر، وهما باب سان اشتبان San Esteban[٢] وكان يعرف بباب الوزراء ، وباب دى لوس ديانيس de los Deanes وكان يطلق عليه اسم باب الأمير . أما البابان الآخران فقد هدما عند شروع المنصور أبى عامر فى زيادتها شرقى بيت الصلاة ثم مات الأمير عبد الرحمن الأوسط قبل أن يتم زخرفة المسجد ، وخلفه ابنه محمد ، فأمر سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) بإتقان طرر[٣] الجامع ، وتنميق نقوشه، ثم أقام سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) مقصورة خشبية حول المحراب وجعل لها ثلاثة أبواب ، فلما كمل

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٢) Torres Balbas, Portada de San Estaban, Al-Andalus, vol. XII, 1947, p. 127 et sqq.

(٣) الطرة ما يحيط بالعقد أو الإطار المربع البارز الذى يحيط بالعقد تاركا فى خاصرتيه بنيقتين .

بما أمر به دخله وصلى فيه ركعات خشع فيها ، فقال فى ذلك موسى بن سعيد :

لعمرى لقد أبدى الإمام التواضعا ... فأصبح للدنيا وللدين جامعا
بنى مسجداً لم يبن فى الأرض مثله ... وصلى به شكراً لذى العرش راكعا
فطوبى لمن كان الأمير محمد ... له إذ دعا فيه إلى الله شافعا[1]

وما زالت تزين عقد باب سان استبان كتابة كوفية تسجل أعمال الأمير محمد فى الجامع نصها : (بسم الله الرحمن الرحيم . أمر الأمير ، أكرمه الله ، محمد ابن عبد الرحمن ببنيان ما حكم به من هذا المسجد وإتقانه ، رجاء ثواب الله عليه وذخره به ، فتم ذلك فى سنة إحدى وأربعين ومائتين على بركة الله وعونه ، مسرور ونصر فتياه[2] .

ثم زاد الأمير المنذر بن محمد البيت المعروف ببيت المال ، فأقامه فى صحن الجامع على غرار بيوت المال فى مساجد عمرو بن العاص بالفسطاط ، والجامع الأموى بدمشق ، وجامع حماة ، وجامع حمص ، وأمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف[3]. ثم زاد أخوه الأمير عبد الله بن محمد ساباطاً معقوداً على حنايا ، أوصل به ما بين القصر والجامع من جهة الغرب ، ثم أمر بستارة من آخر هذا الساباط إلى أن أوصلها بالمحراب ، وفتح إلى المقصورة باباً كان يخرج منه إلى الصلاة ، وهو أول من اتخذ ذلك من أمراء بنى أمية بالأندلس ، وتابعه فى ذلك من خلفه منهم[4] .

المسجد الجامع فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر :

كانت المئذنة التى أقامها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل قد تصدعت ، كما كان بيت الصلاة قد ازداد اتساعاً منذ زيادة عبد الرحمن الأوسط ، وأصبح الصحن بالنسبة لبيت الصلاة ضيقاً للغاية ، لا يتناسق مع تخطيط الجامع . وكان فى مقدرة الخليفة عبد الرحمن الناصر أن يقوم بإصلاح ما تصدع من المئذنة ، ويعدل بناءها ، كما فعل بالنسبة لواجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن ، غير أنه

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٤٣ .
(٢) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, t. I p. a et sq. Leiden-Paris, 1931
(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٤٣ .
(٤) نفس المرجع .

رأى صغر حجمها بالنسبة لمسجد فسيح المساحة ، ثم إنه كان قد تلقب منذ عام ٣١٩ هـ بألقاب الخلافة ، وشرع فى تنفيذ برنامج حافل لتجميل عاصمة خلافته بالأبنية العظيمة ، والقصور الفخمة ، والمنشآت الجليلة التى تليق بجلال الخلافة ، لذلك رأى الخليفة عبد الرحمن الناصر أن يقيم مئذنة جديدة تسمو على سائر العمران بقرطبة ، ويراها القادمون من بعيد كأنها المنار يهدى السفن الضالة فى مياه البحر . وأمر عام ٣٤٠ هـ (٩٥٠ م) ببناء مئذنة جديدة ، فجمع لها عرفاء المهندسين من كل مكان ، وأحضر لها الأحجار الضخمة على عجل ، وشرع المهندسون فى بنائها بعد أن هدموا مئذنة هشام إلى قواعدها ، وهدموا السور الشمالى للمسجد ، وحفروا أساسها حتى بلغ الماء ، وأتموا بناءها فى ثلاثة عشر شهرا ، فجاءت رائعة البناء . وكانت مئذنة هشام ذات مطلع واحد ، فجعل لمئذنة الناصر مطلعين ، وفصلوا بينهما بالبناء ، فلا يلتقى الراقون فيها إلا بأعلاها وكان لكل مطلع منها مائة وسبع درجات ، وبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعاً حتى مكان المؤذن أى ضعف ارتفاع المئذنة الأولى ، ومن مكان المؤذن إلى أعلاها عشرين ذراعاً ، ثم نصب بأعلى المئذنة سفود بارز ، ركبت فيه ثلاث تفاحات من الذهب والفضة(١) .

وكان طول كل جانب من جوانب مئذنة الناصر ثمانية أمتار ونصف متر ، وجدرانها مبطنة جميعها بنوع من الحجر الجيرى يعرف باسم الكذان اللكى ، ومنقوشة من أسفلها إلى أعلاها بنقوش متنوعة وزخارف ملونة .

وكانت الأوجه الأربعة للمئذنة تزدان بثلاثة صفوف من النوافذ المزدوجة ، تحيط بها عقود تشبه حدوة الفرس ، قائمة على عمد من الرخام ، ويعلو الإفريز شرفات مسننة تشبه شرفات الجامع نفسه ، وقد اتخذت مئذنة الناصر أنموذجاً للمآذن الأندلسية ، مثل مئذنة جامع إشبيلية ، ومئذنة جامع الكتبية بمراكش ، ومئذنة جامع حسن بالرباط . ولقد أصيبت هذه المئذنة — أعنى مئذنة الناصر — عام ١٥٨٩ بأضرار جسيمة إثر زلزال عنيف سبب تصدعاً فى جزئها الأعلى المعروف ببيت المؤذن ، وأوشكت المئذنة على الانهيار ، فقام المهندس القرطبى هرنان رويث فيما بين عامى ١٥٩٣ — ١٦٥٣ م بملأ الفراغ الداخلى بالبناء ، ثم أحاط الجدران الخارجية للمئذنة بغلاف من الحجارة

(١) الادريسى ص ١٠ ، ١١ — الحميرى ص ١٥٥ — ابن عذارى ص ٣٤٤ — المقرى ج ٢ ص ٩٨

لتقوى القاعدة على حمل الجسم العلوى الذى توجها به[1] . وقد نجح مهندس الجامع دون فيلث هرناندث فى الكشف عن بقايا جدران مئذنة عبد الرحمن الناصر حتى ارتفاع ما يقرب من ٢٢ مترا ، كما اكتشف من الدعامتين المركزيتين ما يبلغ ارتفاعه ٢٦ مترا ، وعثر بفضل أبحاثه على بعض النوافذ التى كانت تطل على فناء المسجد بعقودها المتجاورة وسنجاتها الملونة .

ولم تقف أعمال عبد الرحمن الناصر عند هذا الحد ، فقد قام بترميم واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن وكانت قد تصدعت بسبب الدفع المستمر للعقود الداخلية ، ثم أصلح باب سان استبان ، وأقام عليه ظلة تستند على كوابيل على نمط كوابيل واجهة بيت الصلاة . وقد سجل عبد الرحمن الناصر أعماله هذه على لوحة بجوار المدخل إلى البلاط الأوسط نقرأ فيها : (بسم الله الرحمن الرحيم . . أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله — أطال الله بقاه — ببنيان هذا الوجه وإحكام إتقانه ، تعظيماً لشعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته التى أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر ، وجزيل الذخر ، مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر . فتم ذلك بعون الله فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلثمائة ، على يدى مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر . عمل سعيد ابن أيوب[2] .

زيارة الخليفة الحكم المستنصر :

افتتح الخليفة الحكم المستنصر بالله خلافته بالنظر فى زيادة المسجد الجامع بقرطبة ، إذ تضاعف عدد سكان قرطبة فى ذلك الوقت ، وضاقت المدينة بمن وفد إليها من بربر العدوة من قبيلة زناتة الذين حالفوا الأمويين فى الأندلس ضد الفاطميين ، ولم يعد المسجد الجامع يتسع لجموعهم الغفيرة ، ونال الناس ضرر كبير من جراء ازدحامهم ، فاضطر الحكم إلى توسيع المسجد ، وعهد إلى حاجبه جعفر بن

---

(١) R. Castejón, Córdoba, p. 38-42 — Gomez Moreno, op. cit. p. 77. — Torres Balbas, La Mezquita de Cordoba y les ruinas de Madinat al-Zahra, Collection de "Monuments Cardinales de Espana", t. XIII, Madrid, 1952, p. 97.

(٢) Levi-Provençal, Inscriptions Arabes d'Espagne, Textes, p. 3.

عبدالرحمن الصقلبي ، فى اليوم الثانى من خلافته بمهمة الإشراف على إحضار الأحجار من جبال قرطبة . وخرج الحكم بنفسه لتقدير الزيادة وتفصيل بنائها ، وأحضر لهذا الغرض الأشياخ والمهندسين ، فحددوا هذه الزيادة من قبلة المسجد إلى آخر الفضاء[١] ورسموا أن تكون بعد بلاطات المسجد جنوبيًا على اثنى عشر عقداً . وقال ابن سعيد فى هذه الزيادة : « وبها كملت محاسن هذا الجامع ، وصار فى حد يقصر الوصف عنه[٢] » ، واستمر بناء الزيادة أربع سنوات أنفق فيها مائتان وواحد وستون ألف دينار وخمسمائة وسبعة وثلاثون دينارا[٣] .

وفى جمادى الآخرة عام ٣٥٤ ﻫ أتم بناء قبة المحراب[٤] ، وقد سجل ذلك فى نقش يدور بعقد المحراب نصه (. . . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين ، موفق الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، لهذه البنية المكرمة ، ومعينه على بنيته الخالدة فى التوسع لرعيته ، ما إليه وإليهم الرغبة فيما ابتدا من فضله فيهم ، وصلى الله على محمد وسلم . أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين ، وفقه الله ، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله ، بتشبيك هذه البنية ، فتم بعون الله بنظر محمد بن تمليخ ، وأحمد بن نصر ، وخالد بن هاشم ، أصحاب شرطته ، ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب[٥] . ثم أحاط هذه القبة بقبتين جانبيتين ، وأقام على مدخل زيادته بالجامع ، تجاه قبة المحراب ، قبة أخرى تشبه قبة باب البهو بجامع الزيتونة بتونس وقبة جامع القيروان[٦] .

ثم شرع فى تنزيل الفسيفساء بالمسجد ، وكان ملك الروم قد بعث بها إليه مع صانع يتقن صناعتها ، فأجرى الصانع الفسيفساء على جدار المحراب وفى باطن القبة

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٩ ، ٣٥٢.

(٢) المقرى ج٢ ص ٩٧ .

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٥٩ المقرى ج ٢ ص ٨٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٥٤ .

(٥) Lévi-Provençal, Inscriptions Arabes d'Espagne, textes, p. 15.

(٦) Lambert, L'architecture musulmane du Xe siècle à Cordoue et à Tolède, pp. 141-161 - Les Mosquées de type andalou, p. 281 - La mosquée de Cordoue et l'art byzantin, pp. 331-332.

الكبرى ، ومنه تعلم الصناع المسلمون طريقة تنزيل الفسيفساء وحذقوها ، وفاقوه فى صنعته (١) . وفى أعلى عقد المحراب نقش كوفى نقرأ فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله الحكم أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن ، رحمه الله ، بعمل هذه الفسيفساء فى البيت المكرم ، فتم جميعها بعون الله سنة أربع وخمسين وثلثمائة (٢) . وفى عام ٣٥٥ هـ أمر الحكم بوضع المنبر القديم إلى جانب المحراب ، ونصب فى قبلة زيادته مقصورة من الخشب ، منقوشة الظاهر والباطن ، مشرفة الذروة ، طولها خمسة وسبعون ذراعا ، وعرضها اثنتان وعشرون ذراعا ، وارتفاعها إلى الشرفات ثمانى أذرع . وأحاط بها خمس بلاطات من زيادته ، وأطلق أطرافها على الستة الباقية ، وجعل لها ثلاثة أبواب بديعة الصنعة ، عجيبة النقش (٣) وصنع الحكم لزيادته منبراً « ليس على معمور الأرض أتقن منه ، ولا مثله فى حسن صنعته ، وخشبه ساج وأبنوس وبقم وعود قاقلى . ويذكر فى تاريخ بنى أمية أنه أحكم عمله ونقشه فى سبع سنين ، وكان يعمل فيه ثمانية صناع (٤) » وكان عدد درجاته تسعاً وعدد حشواته ستة وثلاثين ألف حشوة ، سمرت بمسامير الذهب والفضة ورصعت بنفس الأحجار . وكان هذا المنبر يسير على عجل ، وكان يوضع بعد صلوات الجمع فى غرفة تقع خلف المحراب ، وقد اتبعت هذه الطريقة بعد ذلك فى المغرب . وفى عام ٣٥٦ هـ هدم الحكم الميضأة القديمة التى كان قد أسسها هشام بن عبد الرحمن فى فناء الجامع ، وبنى موضعها أربع ميضآت فى كل جانب من جانبى الفناء : الشرقى والغربى ، وأجرى إليها الماء من عين بجبل قرطبة فى قناة حجرية متقنة البناء ، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس ، وصبت ماءها فى أحواض من الرخام . ثم أجرى ما يزيد على حاجة المسجد إلى سقايات اتخذها على أبواب الجامع بجهاته الثلاث : الشرقية والغربية والشمالية . ويقول الشاعر محمد بن شخيص فى وصف هذه القنوات :

---

(١) نفس المرجع .

(٢) Lévi-Provençal, Inscriptions, p. 18

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٥٥ – المقرى ج ٢ ص ٨٨ ، ويذكر ابن غالب الأندلسى أن باب هذه المقصورة كان من الذهب المضروب وكانت عضادتاه من الأبنوس بينما كان طوله وأوصاله من الفضة . (انظر ابن غالب ، نص أندلسى جديد من فرحة الأنفس ، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع ص ٢٨) .

(٤) المقرى ج ٢ ص ٩٥ – الادريسى ص ٨ – الحميرى ص ١٥٥ .

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف ... من أعذب الماء نحو البيت تجريها
طهر الجسوم إذا زالت طهارتها ... رى القلوب إذا حرت صواديها
قرنت فخراً بأجر قل ما اقترنا ... فى أمة أنت راعيها وحاميها[١]

واختتم الحكم أعمال البناء ببناء دار للصدقة غربى الجامع ، لتكون معهداً لتوزيع صدقاته ، كما أقام فى ساحة الجامع مكاتب لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين وفى ذلك يقول ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة ... مكاتبا لليتامى من نواحيهـا
لو مكنت سور القرآن من كلم ... نادتك : يا خير تاليها وواعيها[٢]

وزيادة الحكم المستنصر أعظم ما أضيف إلى جامع قرطبة من حيث البناء والزخرفة ، وقد زودت المسجد بتناسقه وتعادل أجزائه . وأهم ما فى عمارته القباب التى تقوم على هياكل من عقود بارزة متشابكة فى أشكال هندسية رائعة ، تؤلف نجوماً تتوسطها قبيبات مفصصة ، وكسيت الفراغات بين العقود البارزة بزخارف نباتية آية فى الروعة والجمال ، وأجرى فيها الفسيفساء المذهبة ، وقد أوحت قباب الحكم إلى الفنانين الفرنسيين ابتكار القبوات القوطية الشهيرة[٣] .

أما المحراب الجديد الذى أقامه الحكم فهو أجمل عنصر معمارى فى الجامع إذ عنى به المهندسون باعتباره أنبل مكان بالمسجد ، فأقاموا القباب على بلاطه الأوسط ورواقه الأمامى ، ونقش هذا المحراب من الداخل والخارج بالتوريقات ، وزينت

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٥٨ . (٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٥٩ .

(٣) ارجع إلى كتابى : المساجد والقصور بالأندلس ص ٣٤ — ٣٦ ففيه وصف مطول للقباب القرطبية ودراسة حول أصلها .

وارجع أيضا إلى :

E. Lambert, Les coupoles des Grandes mosquées de Tunisie et d'Espagne au IX et Xe. siècle,Hesperis, t. XXII, fasc. II. 1936.

وارجع إلى بحثه عن العمارة الإسلامية فى القرن العاشر :

L'architecture Musulmane du Xe. Siècle, Gazette des Beaux-arts t. XII, 1925 pp. 142-147.

وعن بحثه عن أصل القبوات القوطية :

Les origines de la Croisée d'ogives dans Office des Instituts d'archeologie et d'histoire d'art, No. 8-9, Novembre 1936 — Mars 1937 vols. 3, Paris pp. 131-146.

ومقال : أثر الفن الخلاق بقرطبة فى العمارة المسيحية باسبانيا وفرنسا ، المجلة العدد ١٤ ص ٨٨ .

عضادتاه بلوحات رخامية حفرت فيها زخارف نباتية وتوريقات حفراً غائراً على الأسلوب البيزنطى[1] . والمحراب على هيئة حنية عميقة الغور، مثمنة الشكل، مكسوة جوانبه بثمانية ألواح من الرخام طول كل لوح منها ثمانى أذرع تامة ، وتنتهى هذه الألواح الرخامية من أعلى برف مستدير من الرخام ، وتزدان لوحاته بنقوش بديعة ، كما يزدان الرف الرخامى بزخارف متنوعة ، ويعلو هذا الرف البارز ستة عقود محفورة فى الجص يتألف كل منها من ثلاثة فصوص، تقوم على أعمدة صغيرة من الرخام فى قاعها توريقات مطلية . وبأعلى المحراب قبة على شكل محارة يسميها الحميرى خصة ، والأصل فى الخصة أنها حوض كروى الشكل مفصص . ويضيف محمد بن أيوب ابن غالب الغرناطى الأندلسى فى كتابه « فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس » أن سقف القبو « من رخامية بيضاء منقورة بالحديد على صفة المحارة ، قد أحكمت وأنزلت فى موضعها بأتقن صنعة »[2] ، وتنتهى واجهة المحراب بسلسلة من ستة عقود صغيرة كالتى ذكرناها من قبل ، تقوم أيضاً على عمد حيث تظهر بينها توريقات من الفسيفساء على أرضية مذهبة ، ونلاحظ هنا أن الحميرى عندما نقل عن الإدريسى أخطأ فى نقل بعض العبارات فمثلا يقول « وكل هذه القسى موجهة صنعة القوط[3] » بينما نراها فى نص الإدريسى ما يلى : « وكل هذه القسى مزججة ، وصنعة القرط قد أعيت الروم والمسلمين بغريب أعمالها ودقيق تكوينها[4] » . ومعنى هذه العبارة الأخيرة أن الأقواس أو العقود الصغيرة التى تزين الجزء الأعلى من واجهة المحراب مزججة ، وأنها تتخذ شكل القرط ، والقرط هو الفصوص التى تتألف منها العقود المذكورة وهو معنى أصح ، وينطبق على الحقيقة .

ولقد فتح الحكم إلى يمين المحراب باباً يؤدى إلى الساباط الجديد الذى يصل بين قصره ومقصورة الجامع[5] . ويتصل هذا الباب بمخزن تحفظ فيه العدد والطسوت والحسك الخاص بوقيد الشموع فى كل ليلة ٢٧ من شهر رمضان ، كما كان يحفظ فيه

---

(١) ارجع إلى كتابى المساجد والقصور بالأندلس ص ٣٧ – ٣٨ .

(٢) ابن غالب الغرناطى الأندلسى، فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، قطعة نشرها الدكتور أحمد لطفى عبد البديع فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ١ ج ، ص ٢٨

(٣) الحميرى ص ١٥٤ .

(٤) الادريسى ص ٦ تحقيق ديسيه لامار

(٥) ارجع إلى كتابى « المساجد والقصور بالأندلس » ص ٣٨ ، ففيه وصف للساباط .

« مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عثمان ، وهو المصحف الذى خطه بيمينه رضه ، وفيه نقط من دمه ، وهذا المصحف يخرج فى صبيحة كل يوم جمعة ويتولى إخراجه رجلان من قومة المسجد وأمامهم رجل ثالث بشمعة ، وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بموضع المصلى كرسى يوضع عليه ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى موضعه[1] » ، وظل هذا المصحف بموضعه فى جامع قرطبة ، ثم آل أمره إلى الموحدين إذ أخرج منها فى ١١ شوال سنة ٥٥٢ هـ أيام عبد المؤمن ابن على ، فاعتنى به وتبركوا به ، ثم إلى بنى مرين ، وكان السلطان أبو الحسن المرينى لا يسافر موضعاً إلا ويحمله معه ، إلى أن انهزم أبو الحسن فى واقعة طريف ، فوقع المصحف فى أيدى البرتغاليين ، ثم تحايل المسلمون على استرداده فوصل إلى فاس سنة ٧٤٥ هـ على يد أحد تجار أزمور ، واستمر بقاؤه فى الخزانة[2] السلطانية .

الزيادة الأخيرة فى عهد المنصور بن أبى عامر :

شرع المنصور محمد بن أبى عامر عام ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) فى زيادة المسجد حين ضاق بيت الصلاة فيه عن المصلين . ولما كان قصر الخلافة يجاور الجانب الغربى وكان جدار القبلة قريباً من نهر الوادى الكبير ، بدأ زيادته بشرقيه على بلاطات تمتد بطول المسجد من أوله إلى آخره ، وقصد منها المبالغة فى الإتقان ، وإحكام البنية دون الزخرفة ، وإن كانت لا تقل عن سائر الزخارف روعة وجمالا[3] . وكان أول ما قام به المنصور ، هو نزع ملكية الدور القائمة شرقى الجامع والتى أدخلها فى زيادته ، وتعويض أصحابها عنها بالمال والعقار[4] . ودام العمل فى زيادة المنصور

---

(١) الإدريسى ص ٨ ، ١٠ . ويشك المقرى فى نسبته إلى عثمان إذ يقول « وما توهموه أنه خطه بيمينه فليس بصحيح ، فلم يخط عثمان واحداً منها ، وإنما جمع عليها بعضاً من الصحابة » (نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٥) .

(٢) المقرى ج ٢ ص ١٣٦ — ١٣٧ . (٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٤٢٨ — ٤٢٩ .

(٤) ذكر ابن عذارى أن أول ما عمله ابن أبى عامر قبل قيامه بأعمال البناء فى الزيادة المذكورة « تطييب نفوس أرباب الدور والمستغلات الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بانصافهم من الثمن أو بمعارضته » (البيان المغرب ج ٢ ص ٤٢٩) . وذكر ابن بشكوال أنه « لما عزم على زيادة هذه جلس لأرباب الدور التى نقل أصحابها عنها بنفسه ، فكان يؤتى بصاحب المنزل فيقول له : إن هذه الدار التى لك ياهذا أريد أن أبتاعها لجماعة المسلمين من مالهم ومن فيئهم لأزيدها فى جامعهم وموضع صلاتهم ،=

عامين ونصف عام وكان يعمل فى هذه الزيادة بنفسه ، واستخدم الأسرى المسيحيين فى بناء الجامع[١] ، كما أنه جعل من نواقيس النصارى التى غنمها من غزوته لشنت ياقب عام ٣٨٧ هـ ثريات فى زيادته بجامع قرطبة[٢] .

وأصبح المسجد يتألف بعد زيادة ابن أبى عامر من ١٩ بلاطاً ، ففقد المسجد الجامع تناسقه واتزانه وتعادل أجزائه ، وأصبح المحراب متطرفاً عن وسط جدار القبلة بعد أن كان يقع فى محور الجامع[٣] . وكذلك هدم المنصور أبواب الجامع من الجهة الشرقية قبل أن يشرع فى زيادته ، وفتح فى الجدار الشرقى ببيت الصلاة القديم ثغرات واسعة تصل بين الزيادة الجديدة وبيت الصلاة القديم ، وقد تخلف من هذا الجدار الشرقى لجامع الحكم بقايا على جانب كبير من الأهمية ، أما الجدار الشرقى الجديد للجامع فقد فتح فيه المنصور ثمانية أبواب ، فأصبح عدد الأبواب الشارعة إلى بيت الصلاة ستة عشر باباً ، يضاف إليها خمسة تنفتح على مجنبات الصحن، فيكون مجموع أبواب الجامع بصورته النهائية ٢١ باباً ، كانت جميعها ملبسة بالنحاس الأصفر ومخرمة تخريماً رائعا .

الجامع بصورته الحاضرة :

احتفظ المسجد الجامع بقرطبة بصورته تلك طوال العصر الإسلامى ، دون أن يطرأ عليه أى تغيير فى نظام بنائه ، ولم تضف إليه أية إضافات ، إذا استثنينا أعمال الترميم والإصلاح اللازمة للمسجد والتى لابد أن تكون قد أجريت فيه فى عصرى المرابطين والموحدين .

=فشطط واطلب ما شئت ،فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له ، وأن تشترى له بعد ذلك دار عوضاً منها ، حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة ، فقالت لا أقبل عوضاً إلا داراً بنخلة ، فقال تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها مال بيت المال ، فاشتريت لها دار بنخلة ، وبولغ فى الثمن » . المقرى ج ٢ ص ٨٤ .

(١) ذكر بشكوال أنه « من أحسن ما عاينه الناس فى بنيان هذه الزيادة العامرية أعلاج النصارى مصفدين فى الحديد من أرض قشتالة وغيرها ، وهم كانوا يتصرفون فى البنيان عوضاً من رجال المسلمين إذلالا للشرك وعزة للإسلام » المقرى ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) المساجد والقصور بالأندلس ص ٤٠ .

(٣) يقع محور الجامع من القبلة جنوباً إلى باب الغفران شمالا ، ماراً بالبلاط السادس ابتداء من غرب الجامع .

وظل المسجد كذلك حتى سقطت قرطبة فى يدى فرناندو الثالث ملك قشتالة عام ١٢٣٦ م، فتحول هذا البناء الشامخ إلى كنيسة عرفت بسانتا ماريا العظمى[١]، وأقيم فيه عام ١٣٧١ م أى فى عهد دون أنريكى الثانى ملك قشتالة المصلى المعروف بسان فرناندو، وذلك لصق القبة الكبرى التى تعلو مدخل البلاط الأوسط فى زيادة الحكم المستنصر. وقد كسيت جدران هذا المصلى بزخارف من الطراز المدجن محفورة فى الجص، تشبه كل الشبه زخارف قصر الحمراء والقصر بإشبيلية. وتعلو هذا المصلى قبة تقوم على تشابك العقود البارزة، وتختلف عن قباب المسجد فى أنها مكسوة بالمقرنصات الزخرفية الدقيقة. على أن كل ما طرأ على الجامع حتى ذلك الحين، لم يكن يعدو إضافات طفيفة لا تمس جوهر البناء ولم تغير فى نظامه، ولم تشوه من عمارته، ولكن الإسبان منذ أواخر القرن الخامس عشر، بدأوا يشوهون فى بنية هذا الأثر الإسلامى المجيد بإضافات وتغييرات أساسية، ففى عام ١٤٨٩، هدم الأسقف إنييجو مانريكى عقود البلاطات الخمسة الممتدة طولا من مصلى سان فرناندو — المعروف بمصلى فيلافسيوسا — حتى جدار الجامع الغربى، وأقام جدارين طوليين رغبة فى عمل مجاز يغطيه سقف خشبى قائم على عقود قوطية. ثم شرع الأسقف دون ألونسو مانريكى Alonso Manrique عام ١٥٢٣ م فى هدم جانب كبير من زيادة عبد الرحمن الأوسط وزيادة المنصور لإقامة كاتدرائية قوطية الطراز فى قلب الجامع شوهت البناء القديم، وقضت على الوحدة المعمارية للمسجد، وقد أبدى شارلكان Carlos Quinto أسفه حين شاهد هذا التشويه، وندم على موافقته على إجرائه فى أثر فريد بين آثار الأندلس بل العالم أجمع. ثم أشرف على بناء هذه الكاتدرائية المهندس المعمارى هرنان رويث Hernan Ruiz إلى أن توفى عام ١٥٤٧، فخلفه فى بناء الكاتدرائية ابنه هرنان رويث حتى وفاته عام ١٥٨٣. ولم يتم بناء الكاتدرائية إلا عام ١٥٩٩ على يدى هرنان رويث الحفيد. ثم أقيمت على جدران الجامع من الداخل مصليات عديدة ذات طابع يتبع طراز عصر النهضة، مثل مصلى اوس سيا نكاس ومصلى سان بابلو. وفى عام ١٦٨٢ م أقام الأسقف فراى ألونسو

---

(١) ارجع فى ذكر ما طرأ على الجامع من تغيرات بعد تحويله إلى كنيسة إلى الكتب التالية:

Torres Balbàs; Nuevos datos sobre la Mezquita de cordoba cristianizada, Al-Andalus, vol. XIV, 1949, p. 455

R. Castejon, quia de cordoba, p. 62 — Torres Balbàs, la Mezquita de Cordoba y las ruinas de Madinat al-Zahra, p. 100-106.

دى مدينة المصلى المعروف بلا كونثبثيون La Concepcion ، وزينه بتماثيل رائعة ، قام بعملها المثال الغرناطى بدرو دى مينا Pedro de Mena ، وفى عام ١٧٠٥ أقيم مصلى آخر يعرف بسانتا تريزا Santa Teresa ، أو بمصلى الكاردينال سالازار . وفى القرن الثامن عشر انتزعت أسقف الجامع الخشبية ، بعد أن تآكلت بفعل الزمن ، وأقيم بدلا عنها قبوات جصية فى جميع بلاطات الجامع .

وفى خلال القرن التاسع عشر أجريت فى الجامع عدة إصلاحات أولها ما قام به دون بدرو تريفيا Don Pedro Trevia عام ١٨٢٦ من ترميم المحراب . ثم أعلن المسجد الجامع عام ١٨٨٢ أثراً قومياً ، وعهد بالمحافظة عليه إلى مدير مدرسة العمارة بمدريد ريكاردو بلاسكث بوسكو Ricardo Velasquez Bosco ، وقد قام هذا المهندس بإصلاح مصلى فيلا فسيوسا ، وأعاد وضع أسقف جامع قرطبة فى البلاط الأوسط واستبدل ببلاط الجامع القديم المصنوع من الآجر بلاطاً من الرخام ، ثم رمم جميع واجهات الجامع من الخارج بأبوابها عام ١٩٠٩ . وما زالت الحكومة الإسبانية تولى هذا الأثر الإسلامى الجليل نصيباً وافراً من عنايتها ، فعهدت إلى مهندسه الحالى دون فيلث هرناندث خيمنث D. Felix Hernandez بالعناية به وترميم أجزائه ، وقد قام هذا المهندس الأثرى بأعمال جليلة فى مئذنة الجامع يزمع نشرها قريبا .

* * *

وقبل أن ننتهى من الحديث عن هذا الجامع العظيم ينبغى أن نشير إلى تأثيراته فى العمارة الإسلامية والمسيحية ففى العمارة الإسلامية نلاحظ أن هذا الجامع الأعظم كان « أستاذ » المساجد التى أقيمت بعد ذلك فى الأندلس فى العصور التالية ، فمنه أخذت نظام القباب ذات الضلوع ؛ ومنه اشتقت نظام البلاطات المتجهة عمودياً على جدار القبلة ، ومن تخطيطه اشتقت تخطيطاتها . فجامع الباب المردوم بطليطلة الذى سنشير إليه فى الصفحات التالية يضم تسعة قباب وقبوات تقوم جميعا على الضلوع المتقاطعة وجامع إشبيلية الموحدى أخذ من جامع قرطبة مظهره الخارجى ، واتساع صحنه بعقوده السبعة فى أروقة مجنباته ، ونظام عقوده وأسلوب زخارفه[١] . وليس أدل على عظم هذا الجامع القرطبي ونفاذ تأثيراته الفنية إلى مجالات بعيدة من

(١) انظر المساجد والقصور بالأندلس ص ٦٣ .

ذكر أثر مصرى إسلامى ، وصلته تأثيرات جامع قرطبة ، هو جامع ابن طولون ، فمئذنة هذا الجامع تجلو علينا عقوداً قرطبية من النوع الشائع فى جامع قرطبة ، ثم إن القنطرة التى تصل بين الجامع تستند على عقدين متجاوزين على الطراز القرطبى ، وبأسفل القنطرة كوابيل من نفس نظام كوابيل عقود جامع قرطبة[١] .

أما تأثيراته فى العمارة المسيحية ، فقد تغلغلت فى إسبانيا المسيحية[٢] ، ومنها انطلقت إلى مقاطعات فرنسا الجنوبية حيث تتجلى بحق فى كنائس جاسكونيا ولا نجروك وأكيتانيا وأنجو وأوفرنى ونورماندى .

ثانياً : جامع عمر بن عدبس بإشبيلية :

هذا المسجد لم يتبق منه فى الوقت الحاضر سوى جزء من الصحن والجزء الأدنى من المئذنة ، ومع ذلك فلهذه الآثار القليلة أهمية بالغة إذ توقفنا على جانب هام من جوانب فن العمارة الأموية فى عهد الإمارة .

فقد أمر الأمير عبد الرحمن الأوسط قاضيه عمر بن عدبس بتشييد هذا الجامع سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ — ٨٣٠ م) .

وقد سجل تاريخ الإنشاء فى نقش كوفى على بدن عمود من الرخام محفوظ اليوم بمتحف الآثار الأهلى بإشبيلية نصه « يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المهتدى الآمر ببنيان هذا المسجد على يدى عمر بن عدبس قاضى إشبيلية فى سنة

---

(١) انظر بحثى المآذن المصرية : نظرة عامة عن أصلها وتطورها ، القاهرة ١٩٥٩ — ومقالى عن التأثيرات المعمارية فى الأندلس ، بدائرة معارف الشعب عدد ٦٤ ص ١٧٢ . وقد اتضح لى من دراساتى الأثرية فى لبنان أن التأثيرات الأندلسية القرطبية وصلت إلى مدينة طرابلس حيث تظهر جلية فى بعض الآثار مثل عقود المدرسة البرطاسية .

(٢) حيث ترى فى الكنائس المسيحية مثل كنيسة المزان بقشتالة وقبوة مصلى توريس ديل ريوبنيرة . وفى الكنائس المستغربة بجليقية مثل سانتياجو دى بنيالبا وسان مرميثيو دى باتو وكنائس ليون مثل سان ميان دى لاكوجوريا ، وسان ثيريان دى ماثوتى التى بناها القس القرطبى خوان سنة ٩٢١ م انظر مقالى : أثر الفن الخلافى بقرطبة فى العمارة المسيحية باسبانيا وفرنسا ، المجلة العدد ١٤ — ومقالى بعض التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية الإسلامية مقال بمجلة المجلة العدد ١٢ ديسمبر ١٩٥٧ — والأبحاث الإسبانية الآتية :

Gomez Moreno, Iglesias Mozarabes, Madrid 1919 — Torres Balbas, el entercambio artistico entre Espana y Egipto, Al-Andalus, 1934.

أربع عشرة ومتين ، وكتب عبد البر بن هرون[1] » .

ويتميز هذا الجامع عن جامع عبد الرحمن الداخل فى أنه لم يضف إليه إضافات بل ظل يحتفظ بمساحته الأولى حتى ضاق بعد مضى ثلاثة قرون من إنشائه وأصبح لا يتسع لجميع المصلين ، فأقام الموحدون جامع القصبة الكبير بإشبيلية بالإضافة إلى جامع ابن عدبس المذكور . وكان هذا الجامع يشبه جامع قرطبة فى نظامه العام وفى عدد بلاطاته ، فقد كان يشتمل على أحد عشر بلاطاً تتجه عمودية على جدار القبلة ، وكان البلاط الأوسط أكثر هذه البلاطات اتساعاً وارتفاعا ، وكان طول جدار القبلة يتراوح ما بين ٤٨ ، ٥٠ مترا . وكانت لهذا المسجد مئذنة تنتصب فى منتصف الجدار الشمالى . وكانت هذه المئذنة مربعة من الخارج ومستديرة من الداخل ، وكان يبلغ طول كل جانب من جوانبها الأربعة ٥,٨٨ متر ، وعلى هذا فنظامها يشبه نظام المآذن القرطبية التى ترجع إلى عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط مثل مئذنة سان خوان ومئذنة سانتا كلارا ، إذ يفصل بين المركز الأسطوانى والجدران الخارجية درج يبلغ عرضه ٨٠ سم ، وأقيمت مئذنة الجامع من الأحجار التى تخلفت من السور الرومانى القديم الذى تخرب عند الفتح الإسلامى للمدينة ، بدليل أنه عثر بين أحجار المئذنة المذكورة على حجر عليه نقوش لاتينية مما يقطع بأن هذه الأحجار اتخذت من آثار رومانية قديمة .

وكان صحن الجامع مغروساً بأشجار البرتقال والنارنج ، ولذلك فالصحن يعرف اليوم باسم Patio de los Naranjos ، وكانت تتوسطه خصة من الرخام تنبثق منها نافورة وقد أصيب جامع ابن عدبس ببعض الأضرار أثناء غارة النورمنديين على إشبيلية سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) . ثم أصيب المسجد سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) بزلزال عنيف هدم الجزء الأعلى من المئذنة ، فجدد المعتمد بن عباد بناءها فى شهر واحد ،

---

(١) Ocana Jimenez, La inscripcion fundacional de la Mezquita de Ibn Adabbas en Sevilla, Al-Andalus, Vol XII fasc. I, 1947 pp. 145-151.

Torres Balbas; La primitiva Mezquita Mayor de Sevilla, Al-Andalus, vol. XI, 1946, pp. 425-436.

وقد ورد النص المذكور أعلاه فيما ذكره ابن صاحب الصلاة (انظر

Ibn Sahib al Sala Sevilla y sus monuments arabes, texto y traduccion por Melchor Antuna, El-Escorial, 1930.

وتاريخ البناء مسجل على لوحة اكتشفت فى الجدار القبلى بقاعدة المئذنة . ويبدو أن بناء المسجد قد تأثر بهذا الزلزال ، فتصدعت جدرانه الغربية ومالت ، وتآكلت جوائز سقفه ، فظل كذلك حتى كانت أيام أبى يوسف يعقوب المنصور الذى أمر فى جمادى الأولى سنة ٥٩٢ هـ (مايو سنة ١١٩٥ م) بترميمه ، وإقامة ركائز قوية تسند جدرانه الغربية من الميل[1] ، وأعاد إليه الصلاة بعد أن كانت قد انقطعت منه منذ سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) .

ولقد تحول جامع ابن عدبس إلى كنيسة سان سلفادور San Salvador عقب سقوط مدينة إشبيلية على يدى فرناندو الثالث سنة ١٢٤٦ م . ثم أصيبت المئذنة للمرة الثانية فى ٢٤ أغسطس سنة ١٣٥٦ بأضرار جسيمة بسبب زلزال عنيف هدم جزءها العلوى ، فأقيم مكانه طابق للنواقيس . ولم يتبق من المئذنة الإسلامية سوى جزء يبلغ ارتفاعه ٩,٥٠ متر . أما المسجد فقد هدم برمته سنة ١٦٧١ م وأقيمت مكانه كنيسة سان سلفادور التى تم بناؤها سنة ١٧١٢ م .

ثالثاً : مسجد الباب المردوم بطليطلة :

على الرغم من صغر مساحة هذا المسجد فإنه يعتبر أهم مسجد فى الأندلس بعد جامع قرطبة لاحتفاظه بقباب تسعة ، قائمة على الضلوع المتقاطعة ، تمثل أولى مراحل التطور التى مرت بها قباب جامع قرطبة [2] ، ويعرف هذا الجامع اليوم

---

(١) يذكر ابن صاحب الصلاة ، أن المريد أبا العباس المرى كتب إلى الخليفة الموحدى المنصور بأن « جامع أشبيلية القديم قد اختل واعتل من داخله وخارجه ، وأن جوائز المسقف منه قد عفنت أطرافها الثابتة على بلاطاته فى الحيطان وأن حيطانه من جهته الغربية قد مالت ويخاف على الجامع الهدم » فتأثر الخليفة بذلك وأمر البنائين والفعلة بتلافى ذلك ، « فحضر العرفاء له ، وأدخلوا تحت أطراف الجوائز ركائز وكموبا من الخشب ، وطبقوا عليها بألواح الخشب حتى قويت أصول الجوائز المذكورة ، وبنوا له أبراجا من الحجر العادى من جهة حائطه الغربى وقاية له من الميل المرى فيه من الاندفاع وتكون له أنفع انتفاع ، وسطحوا صحنه بالآجر المحكوك الحسن الصنعة ، وتابعوا أقواسه بالجبس والجيار ، وكشفوا عن سقفه ، ، وبنوا ما وهى منها حتى ظهر للعيان الصلاح فى أحواله وجميع أعماله ، وكان هذا النظر الفاضل من أمير المؤمنين رضى الله عنه فى شهر جمادى الأولى من عام اثنين وتسعين وخمسمائة » ابن صاحب الصلاة ص ١٣٤ وما يليها .

(٢) ارجع إلى : Lambert, Les coupoles des Grandes Mosquées de Tunisie et d'Espagne aux IXe et Xe siècles, Hesperis, 3e. trimestre, t. XXII, fasc. II, 1936 — L'architecture =

باسم باب مردوم Bib Mardom نسبة إلى باب مجاور له ما زال قائماً ويعرف باسم الباب المردوم . ويعلو واجهة الجامع نقش كتابى تاريخى من قطع آجرية بارزة فى إفريز يقع بين صفين من الأسنة البارزة من نفس هذه المادة ونصه : (بسم الله الرحمن الرحيم أقام هذا المسجد أحمد بن حديدى من ماله ابتغاء ثواب الله ، فتم بعون الله على يدى موسى بن على البناء وسعادة . فتم فى المحرم سنة تسعين وثلاثمائة).

وأحمد بن حديدى هذا كان قاضى طليطلة فى ذلك الوقت ، وهو من أسرة معروفة فى هذه المدينة ، وتولى الوزارة أيام إسماعيل بن ذى النون ملك طليطلة وقد انتهى أمر ابن حديدى المذكور بالقتل على يدى القادر بالله يحيى بن ذى النون بطليطلة (٤٦٧ — ٤٧٢ هـ[1]) .

والمسجد مربع الشكل على نظام الكنائس البيزنطية لا يتجاوز طول الجانب منه ثمانية أمتار ، وقد شيدت جدرانه من الحجر الجرانيتى والآجر وفقاً للأسلوب الذى اختصت به طليطلة ، وقد حول هذا المسجد إلى كنيسة بعد استرداد قشتالة لطليطلة بقليل ، وأضيفت إليه فى الجانب الشرقى حنية مدجنة ، وأطلق عليه اسم سانتا كروث Santa Cruz ، ووهبه ألفونسو الثامن لإحدى الجمعيات الدينية ، ويعرف اليوم باسم El Cristo de la Luz. ويتكون المسجد من ثلاثة أروقة طولية تقطعها ثلاثة أروقة عرضية بحيث يحدث من ذلك التقاطع تسعة أساطين ، تفصل بينها أربعة أعمدة تيجانها قوطية قديمة ، يتفرع منها اثنا عشر قوسا على شكل حدوة الفرس ، ويعلو كل أسطوان من الأساطين التسعة قبة تتقاطع فيها الأقواس على نحو ما رأيناه فى قباب قرطبة ، والقبة الوسطى أكثر من القباب الأخرى ارتفاعا . ونظام التقبيب يقوم على تقاطع الضلوع المتجاوزة فى صور مختلفة ، منها ما يمثل شكلا رباعياً منحرفاً ذا أقطار ، بحيث يبدو كما لو كان قبوتين من الطراز القوطى إحداهما داخل الأخرى ، ومنها ما يبدو على شكل مثمن ، ومنها ما يقلد تقاطع القبة المخرمة الكبرى بجامع

= Musulmane du Xe siècle, Gazette des Beaux arts, t. XII, 1925, pp. 142-147.

وبحثى عن المساجد والقصور بالأندلس ص ٥٠ — ٥٣ .

ومقالى عن مسجد المسلمين بطليطلة ، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ١٩٥٨ .

(١) ابن بسام الشنترينى ، الذخيرة ، المجلد الأول قسم رابع ص ١١٨ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٢٠٧ .

قرطبة . وتعرض قباب جامع باب المردوم تطوراً لقباب قرطبة نحو الزخرفة . أما واجهة المسجد الرئيسية وهى الواجهة الجنوبية الغربية ، فتطل على الطريق المؤدى إلى باب مردوم بثلاثة عقود ، وفى أعلاها النقش الكوفى الذى أشرنا إليه . والقوس الأيمن من هذه الأقواس متجاوز على شكل حدوة الفرس ، على مثال عقود جامع قرطبة . والقوس الأيسر مفصص أما الأوسط فمجدد ، ويعلو الأقواس الثلاثة التى تعتبر أبواباً لبيت الصلاة ، بائكة صماء من أقواس متقاطعة ويتوج هذه البائكة الزخرفية إفريز بداخله شبكة مخرمة من المعينات . أما الواجهة التى تطل على صحن المسجد فتتألف من ثلاثة عقود متجاوزة بمثابة أبواب ، تعلوها ستة أقواس متجاوزة صماء يتناوب فيها اللونان الأبيض والأحمر نتيجة لتعاقب قوالب الحجر والآجر على نظام أقواس جامع قرطبة .

* * *

ويجانب هذه المساجد الثلاثة تبقت آثار المسجد الجامع بتطيلة Tudela ، وهى آثار ضئيلة لا تعدو مساند أو كوابيل ذات لفائف ، وعقود مزدوجة على شكل حدوة الفرس ، وتيجان مزودة بتوريقات غاية فى الروعة والجمال ، ولوحة من الحجر أشبه بعضادة الباب تكسوها زخارف هندسية من خطوط معقوفة[١] .

---

(١) ارجع إلى :

Gomez Moreno, La Mezquita Mayor de Tudela, Revista Principe Viana, No. 18, Pamplona, 1945, pp. 1-21.

ومقالى عن هذا المسجد فى كتاب المساجد والقصور بالأندلس ص ٤٩ .

٢
آثار القصور

لم يشرع المسلمون فى الأندلس فى بناء قصورهم إلا منذ عصر بنى أمية ، وهو العصر الذى نبتت فيه بذور الفن الإسلامى الأندلسى ، فى هذا العصر حرص الأمراء على إحاطة دولتهم بكل مظاهر الفخامة والترف ، وأبهة الأمراء وعظمة الملوك ، فاتجهوا إلى تشجيع البناء ، وعملوا على تعمير المدن ، وعندئذ نهض فن البناء فى البلاد ، ونشطت حركة التشييد والعمران خاصة فى أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر ، الذى كان يقول :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم قدره أضحى يدل على عظيم الشان

وعلى يدى هذا الخليفة العظيم نالت الأندلس ما نالته من مجد رفيع وازدهار ، وبلغت حضارتها مستوى لم تبلغه الأمم الأخرى ، وعلى الرغم من كثرة المنشآت العظيمة والقصور التى أسسها أمراء بنى أمية وخلفاؤهم ، لم يتبق إلا آثار قصور الزهراء ، التى نفض الأثريون الإسبان عن أكفانها ، بعد أن ظلت قرونا طويلة مطمورة فى جوف الأرض ، ذلك أن حياة هذه القصور الخلافية كانت موقوتة ، فما أسرع ما نهبت وسلبت على أثر سقوط الخلافة ، ويبدو أن السبب فى تخريب هذه القصور يرجع إلى عوامل دينية ، فالإسلام يستهجن إضفاء معنى الأزلية على البناء ، وبناء قصور لها صفة الخلود أمر خارج عن الدين ، ثم إن الفقهاء كانوا لا يقرون الخلفاء فيما يذهبون إليه من الكلف بعمارة الأرض وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان وعلو الهمة ، فمضوا فى ذم تشييد البنيان والاستغراق فى زخرفته والإسراف فى الإنفاق عليه ، لأن « متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى وهى دار القرار ومكان الجزاء »[1] . ولقد وعظ القاضى منذر بن سعيد الخليفة عبد الرحمن الناصر

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٦ .

بعد أن ابتنى مدينة الزهراء ، واستفرغ جهده فى تنميقها ، وإتقان قصورها ، وزخرفة مبانيها ، وانهمك فى ذلك كله حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث جمع متواليات ، وحذره من مغبة الاستغراق فى أمور الدنيا الزائلة ، وخوفه من الموت ودعاه إلى الزهد فى هذه الدار الفانية ، وحثه على اعتزالها والرفض لها ، والندب إلى الإعراض عنها ، والإقصار فى طلب اللذات ، ونهى النفس عن اتباع هواها ، حتى أبكى الخليفة .

وذكر النباهى أن الناصر اتخذ قبيبة قراميدها ذهب وفضة أنفق عليها مالا كثيراً وجعل سقفها صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة تستلب الأبصار بأشعة نورها ، وجلس فيها إثر تمامها يوماً مفتخراً بما صنعه ، وقال لمن حوله : « هل رأيتم أو سمعتم ملكاً كان قبلى فعل مثل هذا أو قدر عليه ؟ فقالوا : لا يا أمير المؤمنين ، وإنك لأوحد فى شأنك كله ، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ، ولا انتهى إلينا خبره ، فأبهجه قولهم وسره ، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضى منذر بن سعيد وهو ناكس الرأس ، فلما أخذ مجلسه قال له كالذى قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه ، فأقبلت دموع القاضى تنحدر على لحيته ، وقال له : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين ، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته ، وفضّلك به على العالمين ، حتّى ينزلك منازل الكافرين ، قال : فانفعل عبد الرحمن لقوله ، وقال له : انظر ما تقول : وكيف أنزلنى منزلتهم ، قال نعم ، أليس الله تعالى يقول : (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون) فوجم الخليفة وأطرق مليًّا ودموع تتساقط خشوعاً لله تعالى ، ثم أقبل على منذر وقال له : جازاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيراً وعن الدين والمسلمين أجل جزائه ، وكثّر فى الناس أمثالك ، فالذى قلت هو الحق ، وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى ، وأمر بنقض سقف القبيبة ، وأعاد قرمدها تراباً على صفة غيرها[1] » .

وذكروا أنه حضر معه يوماً فى الزهراء ، فقام الرئيس أبو عثمان بن إدريس فأنشد الناصر قصيدة منها :

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٨ — ١١٠ .

هيشهد ما أبقيت أنك لم تكن مضيعا وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج ، وأطرق منذر بن سعيد ساعة ثم أنشد :

يا باني الزهراء مستغرقا أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحسنها رونقا لو لم تكن زهرتها تذبل[1]

كذلك اهتم المنصور بن أبي عامر ببناء القصور فأسس مدينة الزاهرة ذات القصور السامقة مثل منية السرور والعامرية وغيرها، ولم يمض عهد طويل حتى خرجت الزاهرة بقصورها واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح، وتلاشى أمرها وصارت قاعاً صفصفاً وعم الخراب سائرها ، وذكروا أن بعض ما نهب منها بيع في بغداد وغيرها من البلاد الشرقية[2] .

آثار قصور الزهراء :

إن تاريخ بناء مدينة الزهراء أقرب إلى القصص والأساطير ، فقد ذكر المؤرخون « أن الناصر ماتت له سرية ، وتركت مالا كثيراً ، فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين ، وطلب في بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد ، فشكر الله تعالى على ذلك ، فقالت له جاريته الزهراء — وكان يحبها حبًّا شديداً — اشتهيت لو بنيت لي به مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل وشمال قرطبة ، وبينها وبين قرطبة ثلاثة أميال أو نحو ذلك[3] » . والواقع أن الخليفة عبد الرحمن الناصر، كان بطبعه كلفاً بالبناء فرأى أن يؤسس ضاحية خلافية يقيم فيها قصراً يليق بجلال الخلافة وبهائها ، فبنى المدينة على بعد خمسة أميال تقريباً إلى الشمال الغربي من قرطبة ، أما قصة جاريته الزهراء فهي قصة من ابتكار المؤرخين ، فهم ينسجون من الحقائق التاريخية قصصاً خيالية ويحبكونها حتى تكاد تبدو حقيقية ،

(١) نفس المرجع .
(٢) نفس المرجع ص ١٢٢ وذكر ابن بسام نقلا عن ابن حيان أن قصور بني أمية الرفيعة تهدمت على يد رجل يدعى ابن باشة ، فقد باع آلات هذه القصور من المرمر والعمد الرخامية والأخشاب والنحاس والحديد والرصاص (انظر ابن بسام ، القسم الأول المجلد الثاني ص ١١١ — ١١٢) .
(٣) المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ص ٦٥ .

فيذكرون أنه نقش صورة الزهراء على باب المدينة مبالغة فى حبه لها ، وحقيقة الأمر أن التمثال المذكور لا يعدو أن يكون تمثالا رومانياً قديماً نصب على أحد أبواب المدينة تقليداً للتمثال الذى يمثل امرأة على باب القنطرة بقرطبة والذى كان يعرف بباب الصورة أو باب العذراء [١]. أما اسم المدينة فقد سمى بالزهراء نسبة للقصور الزاهرة التى أسسها الخليفة فى هذه المدينة أو بسبب غرسه بجبل قرطبة الذى تقع المدينة على سفحه ، تينا ولوزا ، وتفتح الأشجار زمان الأزهار [٢] ، وسنرى المنصور بن أبى عامر يؤسس بدوره مدينة الزاهرة ، دون أن يكون لهذا التأسيس قصة مماثلة لقصة الزهراء .

شرع الناصر فى بناء المدينة المذكورة فى محرم عام ٣٢٥ ﻫ (٩٣٦ م) ، وجلب إليها عبد الله بن يونس عريف البنائين ، وحسن القرطبى ، وعلى بن جعفر الإسكندرانى ، الرخام الأبيض من المرية ، والرخام المجزع من رية ، والرخام الوردى والأخضر من إفريقية : من إسفاقس وقرطاجنة ، وأسس قصره الخلافى وكان يشتمل على مجالس منها المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس وقد زينه الخليفة بحوض منقوش مذهب جلبه أحمد الفيلسوف وربيع الأسقف من القسطنطينية ، وكان يزدان بنقوش آدمية محفورة ، ولما نصبه فى وسط هذا المجلس ، نصب عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس مما عمل بدار الصناعة بقرطبة وهى تماثيل لأسد بجانبه غزال ثم تمساح ويقابل هذه التماثيل الثلاثة تمثال لثعبان وآخر لعقاب وثالث لفيل ، وفى المجنبتين تماثيل لحمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكان الماء يخرج من أفواهها [٣] .

وذكروا أنه كان يعمل فى بناء الزهراء كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة . أما المجلس الثانى المسمى بقصر الخلافة فكان سمك جدرانه من القراميد المذهبة والرخام الغليظ فى جرمه ، الصافى لونه ، وكانت جدران هذا المجلس مثل ذلك ، وكان يتوسط هذا المجلس اليتيمة التى أتحف بها ليون ملك القسطنطينية الخليفة الناصر ، نصبت فى بركة مملوءة بالزئبق ، وكان ينفتح فى كل

---

(١) ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ص ٦١ .
(٢) المقرى ج ٢ ص ٦٥ .
(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٤ ، المقرى ج ٢ ص ١٠٤ .

جانب من جوانب هذا المجلس ثمانية أبواب انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجوهر ، قامت على أعمدة من الرخام الملون والبلور الصافي ، وكانت الشمس تتسلل من هذه الأبواب فينعكس شعاعها على جدران المجلس فيحدث من ذلك بريق يأخذ بالأبصار[١] .

ولما « بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي فى الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنه لم يبن مثله فى الإسلام البتة ، وما دخل إليه قط أحد من سائر البلاد والنحل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد وتاجر وجهبذ ، وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة ، إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبها ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ، حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس فى تلك العصور النظر إليه ، والتحدث عنه »[٢] . وكانت مصاريع أبواب القصر كلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه ، وكان للقصر حمام وللعامة حمام . وأقام الناصر لمدينته مسجداً كان يعمل فى بنائه كل يوم ألف رجل منهم ٣٠٠ بناء و ٢٠٠ نجار و ٥٠٠ من الأجراء وسائر الصناع ، فتم بناؤه فى مدة ثمانية وأربعين يوماً وكان يتكون من خمسة بلاطات كان البلاط الأوسط منها أكثر هذه البلاطات اتساعاً ، وكان صحن المسجد مفروشاً بالرخام الخمري اللون وتتوسطه فوارة يجرى فيها الماء ، وكان ارتفاع المئذنة أربعين ذراعاً وهى تشبه مئذنة الأمير هشام بجامع قرطبة . أما منبر هذا الجامع فقد جاء فى نهاية الحسن ، وحظرت حوله مقصورة من الخشب[٣] . واتخذ الناصر فى الزهراء محلات للوحش متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك[٤] ، واتخذ فى المدينة دوراً لصناعة الآلات : من آلات السلاح للحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن[٥] .

---

(١) المقرى ج ٢ ص ٦٨ . (٢) نفس المرجع ص ١٠١ .

(٣) المقرى ج ٢ ص ١٠٠ .

(٤) أول من أثر عنه أنه أقام محلات للوحش أو حدائق للحيوانات هو خمارويه بن أحمد بن طولون الذى بنى للطيور برجا من خشب الساج وأطلق فيه جميع أنواع الطيور واتخذ فى القصر داراً للسباع وجعل لكل صنف من الدواب إصطبلا ، للجمال والفهود والنمور والفيلة والزرافات ، كما اتخذ حوضا فى قصره ملء بالزئبق (انظر حسن أحمد محمود ، مصر فى عصر الطولونيين ص ٩٢ من كتاب مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ، القاهرة ١٩٦٠) .

(٥) المقرى ج ٢ ص ١١٢ . ليس أدل على وجود هذه الدور الخاصة بصناعة الحلى من ذكر =

ولم يتم بناء الزهراء فى حياة الخليفة عبد الرحمن الناصر وإنما استمر البناء فى عهد الخليفة الحكم المستنصر من بعده فأتمها الحكم سنة ٣٦٥ هـ . ولم يتح لهذه المدينة الخلافية أن تنعم بالحياة طويلا ، إذ انحدرت إلى قبرها وهى فى مقتبل عمرها ، وذلك عقب سقوط الخلافة بقرطبة ، على نحو ما فصلناه فى الفصل الأخير من التاريخ وأصبحت الزهراء أثراً بعد عين ، وفيها يقول الشاعر السميسر : —

وقفت بالزهـــراء مستعـــبرا معتـــبرا أندب أشـــتاتا

فقلت : يا زهرا ألا فارجـــعى قالت : وهل يرجـــع من ماتا ؟

فلم أزل أبكى وأبكى بهـــا هيهـــات يغنى الدمـــع هيهاتا

ظلت أطلال الزهراء تتخذ حتى مطلع القرن الماضى محاجر غنية تستخرج منها الأحجار والرخام ومواد البناء حتى تنبهت الحكومة الإسبانية إلى أهمية هذه المدينة ، وفى عام ١٩١٠ أجرى السنيور ڤيلاسكث بوسكو فى خرائبها أول حفائر علمية كشفت عن كميات هائلة من الخزف ذى البريق المعدنى وقطع كثيرة من الرخام ، وأدت إلى الاهتداء إلى قصر الحكم المستنصر ، وقد نشر هذا المهندس الأثرى نتائج أبحاثه الأثرية فى كتاب ، وضح فيه بالرسوم واللوحات بعض ما اكتشفه فيها[١] . ثم أجرى فى أطلال المدينة أبحاثاً أخرى نشر نتائجها عام ١٩٢٣[٢] . ثم تتابعت الأبحاث الأثرية فى بطء شديد على أيدى كبار الأثريين أمثال السنيور كاستخون والسنيور هرناندث[٣] فكشفوا عن آثار قصر الناصر سنة ١٩٤٣ ، وتمكنوا من قراءة اسمه منقوشاً على بعض التيجان ، كما تمكنوا من قراءة أسماء مهندسى القصر وهم : أفلح ورشيق ونصر من صقالبة الخليفة عبد الرحمن الناصر وفتيانه ، وما زالت

= إحدى التحف التى كشف عنها البحث الأثرى فى مدينة الزهراء وهى تمثال لوعل أو غزال أو أسد من البرنز محفوظ اليوم فى المتحف الأهلى للآثار بقرطبة ولعله أحد التماثيل العديدة التى نصبها الناصر حول الحوض الرومانى بمجلس قصر المؤنس (انظر مقالى عن الفنون والصناعات بالأندلس ، دائرة معارف الشعب عدد ٦٤ ص ١٨٥) كذلك كشف البحث عن علبة عاجية منقوش عليها كتابة تنص على أن العلبة صنعت فى مدينة الزهراء بأمر الحكم المستنصر على يدى درى الصغير سنة ٣٥٣ هـ (نفس المرجع) .

(١) R. Velazquez Bosco, Medina Azzahra y Alamiriya, Madrid 1912.

(٢) R. Velazquez Bosco, Excavaciones en Medina Azahara, Madrid 1923.

(٣) انظر R. Castejòn : Excavaciones del plan nacional en Medina Azahara. campaña 1943, Madrid, 1945 — Nuevas excavaciones en Medina al-zahara, El Salon de Abder Rahman III, Al-Andalus, 1945, pp. 147-154.

الأبحاث الأثرية جارية فى وقتنا هذا ، وما زال السنيور هرنانديث يواصل ترميماته لقصر الناصر فى أناة وصبر ، فاستطاع أخيراً أن يكسو جدرانه بآلاف القطع الحجرية الزخرفية التى كانت مطمورة فى جوف الأرض ، بعد أن جمع المتناسق منها وألصقها بعضها ببعض ، ونجح فى إعادة تنظيم هذا القصر بمثل الصورة التى كان عليها أيام الخلافة الأموية فى الأندلس .

ويمكننا أن نستنتج من الاكتشافات الأثرية بالزهراء أن قصورها نوعان : الأول يتبع نظام القصر الريفى الذى تدور غرفه حول بهو مركزى ، والثانى يتألف من بلاطات متوازية يفصل بعضها عن بعض صفوف من الأعمدة تقوم عليها عقود وحنايا كما هو الحال فى المساجد الأندلسية[1] .

وكانت أرضيات مجالس هذه القصور وقاعاتها مكسوة جميعاً بقراميد الآجر المرصعة بالأحجار البيضاء بحيث تكون أشكالا هندسية غاية فى الروعة والجمال ، وتكشف لنا تيجان الأعمدة وطنوفها وقواعدها وبعض اللوحات عن فن رفيع فى الحفر الغائر ، متأثر كل التأثير بالتقاليد البيزنطية التى أخذت تتغلل فى الفن الخلاقى ، منذ أن توطدت العلاقات بين أباطرة بيزنطة وبين خلفاء قرطبة من الناحية السياسية ، فتبادلوا الهدايا والرسائل والسفارات ، وبعث إمبراطور بيزنطة إلى قرطبة بعض صناع الفسيفساء علموا الفنانين المسلمين أسرار صناعتهم ، فأربى عليهم صناع المسلمين وفاقوهم [2] .

---

(١) Elie Lambert, Les Mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al-Andalus, vol. XIV, fasc. 2, 1949 pp. 273-291.

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٥٤ .

٣

آثار الأسوار والحصون والأبنية ذات المنافع العامة

١ ــ الأسوار :

اهتم الأمويون بتحصين مدن الأندلس اهتماماً كبيراً ، فأقاموا الأسوار والحصون في سائر مدنها ، وأول هذه المدن قرطبة الرومانية التي فتحت أسوارها عند الفتح الإسلامي في بعض أجزائها خاصة في سورها القبلي والغربي ، وأصبحت على هذا النحو مدينة مفتوحة للداخلين إليها والخارجين منها . ولما تولى السمح بن مالك أمر الأندلس رمم قنطرة قرطبة المهدمة بحجارة السور الروماني المهدم من الناحية الغربية ، ثم عزم السمح على ترميم السور وبناء الثغرة المفتوحة فيه من الجهة الغربية باللبن ، ولكن لم يتهيأ له بناء السور إذ استشهد في طرسونة قبل أن يشرع في بناء السور ، فظل السور الغربي دون ترميم حتى قام بترميمه الأمير عبد الرحمن الداخل سنة ١٥٠ هـ[١] .
وما زالت بقايا سور عبد الرحمن الداخل قائمة ابتداء من المستشفى العسكري بقرطبة ، وترتكز هذه الأسوار على أسس من قطع الحجارة المهذبة القطع ، وظل سور قرطبة الروماني موضع رعاية الأمراء والخلفاء وكانت المدينة قد اتسعت بسكانها ، فعمرت نواحي قرطبة بالمباني ، وتكونت أرباض خارج المدينة ، وأصبحت قرطبة تتكون من خمسة جوانب أو خمس مدن هي المدينة المركزية أو الوسطى أو القصبة ، ثم الشرقية ، والغربية ، ثم الجانب الشمالي ، والجانب الجنوبي ، وهو الربض الواقع جنوبي قرطبة على الضفة الأخرى من الوادي الكبير ، وقد سبق أن أوضحنا ذلك عند دراستنا لقرطبة

---

(١) يقول صاحب فتح الأندلس : « وفي سنة خمسين ومائة أمر الإمام ابن معاوية ببناء سور قرطبة ، فبني ما كان جبر منه باللبن ، إذ بنيت القنطرة من صخره ، فكمل بناؤه حسب ما أمر به » . كذلك يشير ابن القوطية وصاحب أخبار مجموعة إلى أن السمح تمكن من ترميم القنطرة سنة ١٠١ هـ ، ولم يشر أحدهما بأنه قام بترميم السور (انظر ابن القوطية ص ١٣ ــ أخبار مجموعة ص ٢٤) ويؤكد ابن خلدون أن عبد الرحمن الداخل هو الذي قام ببناء سور قرطبة سنة ١٥٠ هـ (الجزء الرابع ص ١٢١) كذلك يذكر المقري أن عبد الرحمن أدار السور بقرطبة (المقري ج ١ ص ٢١٢) .

حاضرة الخلافة . وكانت هذه الأرباض الأربعة المحيطة بالمدينة قبل الفتنة بدون أسوار ، فلما اشتعلت نيران الفتنة ، أقيم لكل جانب منها خندق يدور بها سور مانع يفصلها عن غيرها .

وكان سور المدينة الوسطى أو القصبة على شكل متوازى أضلاع لا يتجاوز محيطه أربعة كيلومترات، وتتفتح فى هذه الأسوار سبعة أبواب ذكرناها فيا سبق . وقد جددت هذه الأسوار فى عصر الموحدين وأحيطت بأسوار أمامية مبالغة فى تحصين المدينة ، وقد بقيت أجزاء من هذا السور الموحدى قائمة حتى وقتنا هذا على الأخص فى الجانب الغربى من المدينة .

وكما تفتحت الأسوار الرومانية بقرطبة عند الفتح، تفتحت أسوار إشبيلية بسبب نمو العمران والتوسع فيه ، وعندما أغار النورمنديون على إشبيلية تمكنوا من الدخول فى المدينة دون أن تعترضهم أسوار منيعة ، فقد دخلوا المدينة وهى عورة[١] ، واستباحوها سبعة أيام ، فاضطر الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى تحصين إشبيلية ، فأسس سورها بالحجارة ،[٢] ثم تهدم هذا السور مرة ثانية بأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) على يدى ابن السليم . ولا يهمنا ما لحق بهذه الأسوار من تغيرات بعد ذلك لأن أسوار إشبيلية الباقية فى الوقت الحاضر ترجع إلى عصر المرابطين والموحدين . كذلك أسس عبد الرحمن الداخل حصن المدور بالقرب من قرطبة سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ م) الذى بقيت آثاره حتى وقتنا هذا . ولقد اهتم عبد الرحمن الناصر بتحصين المدن الساحلية أمام الخطر الفاطمى ، فأسس مدينة المرية، وأحاطها بالأسوار المنيعة ، كما أنشأ برجاً بقلعة طريف سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) ، وما زالت هذه القلعة تحتفظ اليوم بمظهرها الخلافى القديم ، كما تحتفظ باللوحة التاريخية التى تسجل تاريخ البناء . وفى عهد المستنصر بالله أقيمت أبراج وحصون بنواحى الأندلس المختلفة فى الجنوب وفى الشمال ، على المرتفعات المطلة على الطرق الموصلة بين المدن، فقد زود حصن بانيوس دى إنثينا Banos de Encina سنة ٣٥٧هـ (٩٦٨ م) ببرج ، وسجل ذلك فى لوحة محفوظة اليوم بمتحف الآثار الأهلى

---

(١) انظر ابن سعيد المغربى ، المغرب ص ٤٦ .

(٢) ابن القوطية ص ٦٥ — الحميرى ص ٢٠ .

بمدريد . كذلك تبقى من عصر الحكم حصن يقال له حصن عقبة البقر ، فى الطريق الموصل بين قرطبة وفحص البلوط[١] . كذلك ابتنى قواد الحكم المستنصر غالب ويحيى بن محمد التجيبى وقاسم بن مطرف بن ذى النون حصن غرماج Gormaz سنة ٣٥٤[٢] هـ (٩٦٥ م) ، على نشز يبلغ ارتفاعه فوق مستوى وادى دويرة Duero نحو ١٣٠ متراً ، ويقول عنه الأستاذ ليڤى بروڤنسال : «وكان حصن غرماج المذكور مفتاحاً دفاعياً حقيقيًّا للخط الإستراتيجى الدفاعى بين أوسما وبرلانجا ، وما زال يقف اليوم مرتفعاً إلى عنان السماء كما لو كان حارساً لا يغفل ، لفحص مخضر ، بقطاعه الفسيح ، ونطاقه الضيق ، ممتدًّا على مسافة تبلغ نحو كيلومتر واحد ، والحصن مزود بنقش كتابى يؤكد الحقائق التاريخية»[٣] . ولقد قام الأستاذ جايا نونيو Gaya Nuno بدراسة هذا الحصن دراسة أثرية[٤] أشار فيها إلى أن المسلمين فى الأندلس فى القرن العاشر الميلادى قد وصلوا فى فن العمارة الحربية إلى درجة من التقدم لا يمكن مقارنتها ببقية بلاد غرب أوربا .

القناطر :

اهتم أمراء بنى أمية بتأسيس القناطر وجسور المياه ، وأهم القناطر الباقية قنطرة قرطبة التى تصل بين مدينة قرطبة وربضها شقندة ، وهى من بناء الإمبراطور أغسطس ، ووجدها الفاتحون العرب عند الفتح الإسلامى لقرطبة مهدمة ، قد سقطت حناياها ولم يبق منها سوى دعائمها الراكبة فى النهر[٥] ، فجدد السمح ابن مالك الخولانى بناءها بأحجار السور المتهدم سنة ١٠١ هـ . ثم تعرضت القنطرة سنة ١٦١ هـ لسيل جارف سد حناياها وهدم بعضها وزلزلها[٦] ، ولم يتهيأ للأمير عبد الرحمن الداخل أن يرممها لانشغاله بقمع الثورات المشتعلة فى سائر أنحاء الأندلس ، فرممها ابنه هشام من بعده وتولى بناءها بنفسه ، ولكن القنطرة تعرضت مرة ثانية لسيل

(١) Lévi-Provençal, l'Espagne Mus. au Xe. siècle p. 149.

(٢) المقرى ج ١ ص ٣٦٠ .

(٣) Lévi-Provençal, Histoire de l'Esp. Mus. t. III, p. 64.

(٤) Gaya Nuno, Gormaz, Castillo Califal, Al-Andalus, vol. VIII, p. 431-450.

(٥) المقرى ج ٢ ص ٢٦ .

(٦) ابن عذارى ج ٢ ص ٨٣ .

ذهب بربض القنطرة سنة ١٨٢ هـ ، وتبعه سيل آخر سنة ٢٨٨ هـ هدم دعامة من دعائمها ، ولكنها استمرت بالرغم من ذلك تؤدى وظيفتها فى وصل قرطبة بشقندة ، ثم تثلمت القنطرة سنة ٣٣١ هـ فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر بسبب المد الهائل الذى اجتاح الوادى الكبير [١] ، ويبدو أن الخليفة قام بترميم هذه القنطرة ، ولكنها تعرضت سنة ٣٣٤ هـ لسيل عظيم . وبلغ الماء البرج المعروف ببرج الأسد ، فهدم الجزء الأخير من القنطرة، وثلم الرصيف[٢]، فأصلح الناصر ما تهدم من القنطرة . وهكذا ظلت القنطرة موضع رعاية أمراء بنى أمية، وعمل المنصور بن أبى عامر على تخفيف الضغط عن قنطرة قرطبة ، فأمر ببنيان قنطرة أخرى على نهر قرطبة سنة ٣٧٨ هـ تم بناؤها سنة ٣٧٩ هـ ، فعظمت بها المنفعة [٣]، ثم أعيد بناء قنطرة قرطبة فى عهد الملك دون بدرو الأول ، ثم جددت فى عهد الملكين الكاثوليكيين ، وفى سنة ١٨٨٠ م أعيد رصفها من جديد ، ثم كسيت سنة ١٩١٢ بكسوة من الأسمنت غطت معالمها الأثرية .

أما برج الأسد الذى أقيم فى العصر الإسلامى فى نهاية ممشى القنطرة ، فقد جدده هنرى الثانى سنة ١٣٩٩ م . وعدد أقواس هذه القنطرة اليوم ستة عشر قوساً تحملها سبع عشرة دعامة ولكنها كانت تشتمل فى العصر الإسلامى على عدد أكبر ، فقد ذكر الرازى أن عدد أقواسها سبعة عشر قوسا[٤]، بينما ذكر صاحب مناهج الفكر أن عدد حناياها ثمان عشرة حنية، وعدد أبراجها تسعة عشر برجاً[٥]، أما الحميرى فيضيف إلى عدد حناياها حنية فيذكر أن « عدد أقواسها تسعة عشر قوساً بين القوس والقوس خمسون شبرا، ولها ستائر من كل جهة تستر القائمة، وارتفاعها من موضع المشى إلى وجه الماء فى أيام جفوف الماء وقلته ثلاثون ذراعا »[٦] .

أما قنطرة طليطلة فقد كانت تربط بين المدينة وبين ربضها الواقع على الضفة المقابلة للمدينة من نهر تاجة ، وكانت تتألف من قوس واحد تكتنفه فرجتان من

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٣١٦ .
(٢) نفس المرجع ص ٣٢٠ .
(٣) نفس المرجع ص ٤٣٠
(٤) المقرى ج ٢ ص ٢٦ .
(٥) نفس المرجع ص ٢٦ .
(٦) الحميرى ص ١٥٨ .

كل جانب ، وطولها ثلثمائة باع وعرضها ثمانون باعاً[١] ، ويضيف الحميرى أنه أقيمت فى نهاية القنطرة ناعورة ارتفاعها فى الجو تسعون ذراعا ، وهى تصعد الماء إلى أعلى القنطرة ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة [٢] . وقد تهدم الجسر الذى كان يصل المدينة بالمياه من النهر فى الوقت الحاضر ولكننا نحتفظ بصورة قديمة للقنطرة وفيها هذا الجسر. وقد خربت القنطرة أيام الأمير محمد إذ أمر بهدمها سنة ٢٤٤ هـ[٣] حتى ينتقم من أهلها الثائرين عليه ، وفى ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس :

أضحت طليطلة معطلة من أهلها فى قبضة الصقر
ما كان يبقى الله قنطرة نصبت لحمل كتائب الكفر[٤]

وظلت قنطرة طليطلة مهدمة حتى أعاد بناءها خلف بن محمد العامرى قائد طليطلة بأمر المنصور بن أبى عامر سنة ٣٨٧ هـ (٥٩٧ م) ، ثم خربت بعد سقوط طليطلة فى أيدى القشتاليين ، ولم يبق منها سوى الكتف الكبير للجانب المقابل للمدينة ، فرممت سنة ١٢٥٩ م وظلت على حالتها إلى يومنا هذا .

وعمل أمراء بنى أمية وخلفاؤها على تقليد الرومان فى تشييد الجسور التى تحمل المياه من الجبال فى أنابيب دقيقة إلى المدن ، ويذكر ابن بشكوال أن عبد الرحمن الناصر أكمل سنة ٣٢٩ هـ « بنيان القناة الغريبة الصنعة التى أجراها وأجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة فى المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة ، يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة ، عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر ، مطلى بذهب إبريز ، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد ، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد ، فيمجه فى تلك البركة من فيه ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبه ، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجنباته ، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه ، فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذى يصب فيها من أعظم آثار الملوك فى غابر الدهر ، لبعد

(١) المقرى ج ١ ص ١٥٣ .
(٢) الحميرى ص ١٣٠ .
(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ١٤٤ .
(٤) المقرى ج ١ ص ١٥٣ .

مسافتها ، واختلاف مسالكها ، وفخامة بنيانها ، وسمو أبراجها التي يترقى الماء منها ويتصوب من أعاليها »[١] .

وكذلك أجرى الحكم المستنصر المياه من عين بجبل قرطبة ، سنة ٣٥٦ هـ ، خرق له الأرض وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء محكمة الهندسة ، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس[٢] . غير أنه لم يتبق للأسف من هذه الجسور آثار مادية تذكر .

الحمامات :

تبقى من الحمامات الكثيرة التي كانت تكتظ بها قرطبة آثار حمامين أشرنا إليهما عند دراستنا لمدينة قرطبة : أحدهما يقع في شارع الحمام Calle del Baño والآخر في شارع لاس كوميدياس Las Comedias بجوار الجامع ، وهذا الحمام الأخير ما زال يحتفظ بقاعته الوسطى ، وبها عقود مفرطحة وأخرى متجاوزة على شكل حدوة الفرس تحملها عشرة أعمدة تيجانها من نوع التيجان الخلافية ، وكانت تعلو هذه العقود قبوة لم يبق منها أي أثر في الوقت الحاضر ، إذ تحولت هذه القاعة إلى صحن مكشوف للهواء ، بينما احتفظت الغرف المجاورة بقبواتها ، ولهذا الحمام غرفة تعلوها قبوة كانت تتخللها مضاوى لإنفاذ الضوء ، سدت جميعها اليوم . كذلك تبقى من طليطلة حمامان يغلب على الظن أنهما يرجعان إلى عصر الخلافة .

(تم بعون الله تعالى)

---

(١) المقرى ج ٢ ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٥٨ .

مراجع الكتاب

مراجع الكتاب

أولا — المصادر العربية القديمة

١ — ابن أبي دينار القيرواني : المؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس ، طبعة تونس، ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) .

٢ — ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى) : كتاب التكملة لكتاب الصلة ، ملحق نشره جنثالث بلنسية Gonzalez Palencia فى "Miscelanea de estudios y textos àrabes"، مدريد ، ١٩١٥ .

٣ — ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم) : كتاب الكامل فى التاريخ ، الجزء الثالث طبعة بولاق سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) .

٤ — ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة، الجزء الرابع ، القاهرة ، ١٢٨٠هـ (١٨٦٣ م) .

٥ — ابن الخطيب (لسان الدين) : كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام ، نشره الأستاذ ليڤى بروڤنسال Lévi-Provençal الرباط ، ١٩٣٤ .

٦ — ابن الخطيب : كتاب اللمحة البدرية فى أخبار الدولة النصرية ، القاهرة ١٩٢٨ .

٧ — ابن الخطيب : كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة ، الجزء الأول ، طبعة القاهرة ، ١٩٠١ .

٨ — ابن الزبير : صلة الصلة ، تراجم لعلماء الأندلس فى القرن الثالث عشر الميلادى ، نشره الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، تحت عنوان Répertoire biographique andalou du XIIIe siècle ، الرباط ، سنة ١٩٣٨ .

٩ — ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله) : تاريخ علماء الأندلس ، جزآن ، نشرة كوديرة تحت عنوان Historia Vitorum Doctorum Andalusiae مدريد ١٨٩١ .

(١) اكتفينا ببيان أسماء المراجع التى استعنا بها وذكرناها فى الملاحظات .

١٠ – ابن القوطية القرطبي (أبو بكر محمد) : تاريخ افتتاح الأندلس ، نشره دون خوليان ريبيرا Julian Ribera، تحت عنوان Historia de la conquista de España : مدريد ١٩٢٦ .

١١ – ابن بسام (أبو الحسن على الشنترينى) : كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة . الجزء الأول المجلد الأول ، القاهرة ١٩٣٩ ، والجزء الأول القسم الثانى ، القاهرة ١٩٤٢ والجزء الرابع القسم الأول ، القاهرة ١٩٤٥ .

١٢ – ابن بشكوال : كتاب الصلة ، نشره دون فرنسسكو كوديرة ، الجزء الأول والثانى مدريد سنة ١٨٨٣ .

١٣ – ابن حبيب (عبد الملك) : نص نشره الدكتور محمود على مكى فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد الخامس ١٩٥٧ .

١٤ – ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق الأستاذ ليڤى بروڤنسال طبعة دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٤٨ .

١٥ – للمؤلف نفسه ، ابن حزم : كتاب طرق الحمامة فى الألفة والآلاف نشره وترجمه إلى الفرنسية الأستاذ ليون برشيه Léon Bercher ، الجزائر ١٩٤٩ .

١٦ – ابن حيان (أبو مروان بن خلف) : كتاب المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ، الجزء الثالث وهو الجزء الخاص بعهد الأمير عبد الله بن محمد ، نشره الأب ملشور أنطونيا P. Melchor Antuña ، باريس ١٩٣٧ .

١٧ – ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : المقدمة ، المكتبة التجارية بمصر .

١٨ – ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، سبعة أجزاء ، (الجزء الرابع والسادس) طبعة بولاق ، ١٢٨٤ هـ (١٨٧٠ م) .

١٩ – ابن خاقان (الفتح) : قلائد العقيان ، طبعة القاهرة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) .

٢٠ – ابن خلدون : كتاب مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس ، قسطنطينية ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) .

٢١ – ابن سعيد المغربى (على بن موسى) : المغرب فى حلى المغرب ، جزآن

(الجزء الأول) تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، طبعة دار المعارف بمصر — القاهرة ١٩٥٣ .

٢٢ — ابن عبد الحكم (عبد الرحمن) ؛ فتوح إفريقية والأندلس ، نشره مع الترجمة الفرنسية اليز جاتو Albert Gateau تحت عنوان "Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne" ، الجزائر ١٩٤٧ .

٢٣ — ابن عبدون : كتاب آداب الحسبة ، ترجمة الأستاذ ليفى بروفنسال تحت عنوان Séville musulmane au début du XIIe. siècle", فى سلسلة "Islam d'hier et d'aujourd'hui" ، الجزء الثانى ، باريس ١٩٤٧.

٢٤ — ابن عبدون : كتاب آداب الحسبة ، النص العربى نشره ليفى بروفنسال تحت عنوان Un document sur la vie urbaine et les corps de métiers à Séville au début du XIIe. siècle, dans Journal Asiatique.

عدد أبريل — يونيو ١٩٣٤ .

٢٥ — ابن عذارى المراكشى (أبو عبد الله محمد) : كتاب البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، نشره الأستاذ ليفى بروفنسال وكولان Colin الجزء الأول ، ليدن ١٩٤٨ مع الاستعانة بالجزء الثانى من هذا الكتاب طبعة بيروت ١٩٥٠ .

٢٦ — ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب ، الجزء الثالث ، نشره الأستاذ ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٠ .

٢٧ — ابن غالب الأندلسى : كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، قطعة نشرها الدكتور لطفى عبد البديع فى مجلة معهد المخطوطات العربية ١٩٥٦ .

٢٨ — ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) : النص الخاص بفتح الأندلس من كتابه « الإمامة والسياسة » الوارد فى كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية القرطبى » ، نشره دون خوليان ريبيرا ، مدريد ١٩٢٦ .

٢٩ — أبو حامد الغرناطى الأندلسى : كتاب عجائب المخلوقات ، مخطوطة محفوظة بمكتبة أكسفورد تحت رقم ٥٦٥ Hunt .

٣٠ — الإدريسى (الشريف) : وصف المغرب والأندلس من كتاب « نزهة

المشتاق فى اختراق الآفاق» نشره دوزى R. Dozy ودى جوجة De Goeje
ليدن ١٨٦٦ .

٣١ — الإدريسى وصف المسجد الجامع بقرطبة ، من كتاب نزهة المشتاق ، نشره الفريد ديسيه لامار Alfred Dessus Lamare ، الجزائر ١٩٤٩ .

٣٢ — البكرى (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) : كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشره دى سلان de Slane ، الجزائر ١٩١١ .

٣٣ — البلاذرى (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر) : «كتاب فتوح البلدان» القسم الأول نشره الدكتور صلاح المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ .

٣٤ — الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح) : « جذوة المقتبس فى ذكر رجال الأندلس ، » حققه الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٣٧١ هـ (١٩٥١ م) .

٣٥ — الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى) : صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب « الروض المعطار فى خبر الأقطار » ، نشره الأستاذ ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ .

٣٦ — الخشنى (أبو عبد الله محمد) : « كتاب القضاة بقرطبة » نشره دون خوليان ريبيرا تحت عنوان : "Historia de los Jueces de Cordoba" ، مدريد ١٩١٤ .

٣٧ — الدباغ (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى) : معالم الإيمان لمعرفة أهل القيروان ، تونس ١٩٠١ .

٣٨ — السلاوى (أحمد بن خالد الناصرى) : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الجزء الأول ، القاهرة سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢) .

٣٩ — الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة مصر (١١ جزءاً) ، القاهرة ١٣٥٦ هـ .

٤٠ — عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشره الأستاذ ليفى بروفنسال ، وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس ، فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٥٤ .

٤١ — القلقشندى (أبو العباس أحمد) : « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ، ١٤ جزءاً ، الجزء الخامس ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩ .

٤٢ — مجهول : « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » ، نشره دون لافونتى القنطرة Don Lafuente Alcantara فى مجموعة Obras Arabigas التى تصدرها « الأكاديمية التاريخية الملكية » الجزء الأول ، مدريد ١٨٦٧ .

٤٣ — مجهول « فتح الأندلس » ، نشره دون خواكين دى جنثالث Don Joaquin de Gonzalez ، الجزائر ١٨٨٩ .

٤٤ — مجهول : مدونة من عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله "Una Cronica Anonima de Abd al-Rahman III al-Nasir" نشرها وقام بدراستها وترجمتها إلى الإسبانية الأستاذان : ليفى بروفنسال وإميليو جرثية جومث Emilio Garcia Gomez ، مدريد — غرناطة ١٩٥٠ .

٤٥ — المراكشى (عبد الواحد بن على) : « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ، نشره الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى ، القاهرة ١٩٤٩ .

٤٦ — المسعودى (أبو الحسن على) : « كتاب التنبيه والإشراف » ، طبعة ليدن ١٨٩٣ .

٤٧ — المسعودى : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الجزء الأول ، مصر ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦م)

٤٨ — المقرى (أحمد بن محمد) : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٩ .

٤٩ — المقرى ، أزهار الرياض فى أخبار عياض ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٠ .

٥٠ — المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » ، جزآن ، طبعة القاهرة سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣ م) .

٥١ — النباهى (أبو الحسن بن عبد الله) : « تاريخ قضاة الأندلس ، المسمى

المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا »، نشره الأستاذ ليڤى بروفنسال، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٥٢ — ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله) : معجم البلدان ، طبعة بيروت الجزء الأول ١٩٦٠ .

ثانياً — المراجع العربية الحديثة [١]

٥٣ — أرسلان (الأمير شكيب) : تاريخ غزوات العرب ، مصر ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣) .

٥٤ — بتلر (الفريد) : فتح العرب لمصر تعريب الأستاذ محمد فريد أبو حديد القاهرة ١٩٣٣ .

٥٥ — بلنثية (جنثالث) : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ .

٥٦ — ديفز (كارلس) : شارلمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٥٩ .

٥٧ — زيدان (الأستاذ جورجى) : العرب قبل الإسلام ، طبعة دار الهلال ، القاهرة ١٩٥٧ .

٥٨ — سالم (الدكتور السيد عبد العزيز) : بعض المصطلحات العربية للعمارة المغربية الأندلسية ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، مدريد ١٩٥٧ .

٥٩ — ...... : التخطيط ومظاهر العمران فى القصور الإسلامية الوسطى ، المجلة ، العدد التاسع ، سبتمبر ١٩٥٧ .

٦٠ — ...... : بعض التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية الإسلامية ، المجلة العدد ١٢ ديسمبر ١٩٥٧ .

(١) بما فيها المراجع الأوربية المترجمة إلى العربية .

٦١ ـــ سالم : أثر الفن الخلافى بقرطبة فى الفن المسيحى بإسبانيا وفرنسا ، المجلة ، العدد ١٤ ، فبراير ١٩٥٨ .

٦٢ ـــ ...... : المرية قاعدة الأسطول الإسلامى فى الأندلس ، مجلة الرابطة التى يصدرها المركز الثقافى الإسبانى بالقاهرة ، العدد ٨ ، ٩ ، القاهرة ١٩٥٨ .

٦٣ ـــ ...... : مسجد المسلمين بطليطلة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٥٨.

٦٤ ـــ ...... : المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها ، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة ١٩٥٩ .

٦٥ ـــ ...... : المساجد والقصور فى الأندلس ، سلسلة اقرأ ، عدد ١٩٠ ، أكتوبر ١٩٥٨ .

٦٦ ـــ ...... : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية ١٩٦١ .

٦٧ ـــ ...... : مقالات فى كتب الشعب عن :

الأندلس ـــ طليطلة ـــ إشبيلية ـــ ماردة ـــ سرقسطة ـــ غرناطة ـــ مرسية ـــ قرطبة ـــ فن الغناء والموسيقى بالأندلس ـــ العمارة الدينية بالأندلس (دائرة معارف الشعب عدد ٦١ ، القاهرة ١٩٥٨) .

العمارة المدنية بالأندلس ـــ العمارة الحربية بالأندلس ـــ الفنون والصناعات ـــ الحركة العلمية والأدبية بالأندلس . (دائرة معارف الشعب عدد ٦٤ ، القاهرة ١٩٥٩) .

طارق بن زياد ـــ عبد الرحمن الأوسط ـــ عبد الرحمن الناصر (دائرة معارف الشعب عدد ٦٧ ، القاهرة ١٩٥٩) .

جامع الكوفة ، (الجزء الثانى من كتاب مساجد ومعاهد عدد ٧٨ من كتب الشعب ، القاهرة ١٩٦٠) .

٦٨ ـــ الشرقاوى (الدكتور محمد عبد المنعم) ، الصياد (الدكتور محمد محمود) : ملامح المغرب العربى ، الإسكندرية ١٩٥٩ .

٦٩ — شيبوب (الأستاذ صديق) : جمهورية أندلسية بالإسكندرية ، مقال بمجلة الكتاب ، فبراير ١٩٤٩ .

٧٠ — طرخان (الدكتور إبراهيم على) : دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨ .

٧١ — عاشور (الدكتور سعيد عبد الفتاح) : أوربا فى العصور الوسطى ، جزآن ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦١ .

٧٢ — العبادى (الأستاذ عبد الحميد) : المجمل فى تاريخ الأندلس ، العدد الأول من سلسلة المكتبة التاريخية ، القاهرة ١٩٥٨ .

٧٣ — ...... : (الدكتور أحمد مختار) : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الخامس ، مدريد ١٩٥٧ .

٧٤ — عباس (الدكتور إحسان) : تاريخ الأدب الأندلسى ، الجزء الثانى من المكتبة الأندلسية ، بيروت ١٩٦٠ .

٧٥ — عبد البديع (الدكتور أحمد لطفى) : الإسلام فى إسبانيا ، العدد الثانى من سلسلة المكتبة التاريخية القاهرة ١٩٥٨ .

٧٦ — العدوى (الدكتور إبراهيم أحمد) : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ، القاهرة ١٩٥٨ .

٧٧ — عكوش (الأستاذ محمود) : مصر فى عهد الإسلام ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤١ .

٧٨ — على (الأستاذ سيد أمير) : مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف البعلبكى ، بيروت ١٩٦١ .

٧٩ — عنان (الأستاذ محمد عبد الله) : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، القاهرة ١٩٤٧ .

٨٠ — فكرى (الدكتور أحمد) : المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ، الإسكندرية ١٩٦١ .

٨١ — فلهوزن (يوليوس) : تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٨

٨٢ ــ ليڤى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، الأستاذ محمد صلاح الدين حلمى ، القاهرة ١٩٥٨ .

٨٣ ــ محمود (الدكتور حسن أحمد) : مصر فى عهد الطولونيين ، القاهرة ١٩٦٠ .

٨٤ ــ المشرفى (الأستاذ محمد محيى الدين) : إفريقيا الشمالية ، الرباط ١٩٥٠ .

٨٥ ــ مكى (الدكتور محمود على) : التشيع فى الأندلس ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ١٩٥٤ .

٨٦ ــ مؤنس (الدكتور حسين) : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .

٨٧ ــ ...... : غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتى ٢٢٩ ، ٢٤٥ هـ ، العدد الأول من المجلد الثانى من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٥٠ .

٨٨ ــ ...... : أثر ظهور الإسلام فى الأوضاع السياسية والاقتصادية فى البحر الأبيض المتوسط مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ .

٨٩ ــ ...... : فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ .

ثالثاً ــ المراجع الأوربية

٩٠ ــ أجوادو بلى : المجمل فى تاريخ إسبانيا ، الجزء الأول ، مدريد ١٩٤٧ (بالإسبانية)

Aguado Bleye : Manuel de la historia de España, t. I, Madrid 1947.

٩١ ــ أندريه جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية (حتى الفتح العربى) ، باريس ١٩٥١ (بالفرنسية) .

André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord, (jusqu'à la conquête arabe), Paris 1951.

٩٢ ــ ...... : تاريخ إفريقيا الشمالية (منذ الفتح العربى حتى إعلان الحماية) باريس ١٩٥٢ (بالفرنسية) .

: ..... Histoire de l'Afrique des Nord, (dépuis la conquête arabe), Paris 1952.

٩٣ ــ أنطونيا (ملشور) : البلاط الأدبي في قرطبة في عصر الحكم المستنصر ، الاسكوريال ١٩٢٩ (بالإسبانية) .

Antuña (P. Melchor) : La Corte literaria de Alhaquem II en Cordoba, el Escorial, 1929.

٩٤ ــ ...... : إشبيلية وآثارها العربية ، نص من مدونة ابن صاحب الصلاة ، الاسكوريال ١٩٣٠ (بالعربية والإسبانية)

... : Sevilla y sus monumentos arabes, texto de la crônica de Ibn Sahib al-Sala, el Escorial, 1930.

٩٥ ــ آريانو (رافييل راميريث دى) : تاريخ قرطبة ، الجزء الأول ، ثيودادريال ١٩١٥ (بالإسبانية) .

Arellano (R. Ramirez de) : Historia de Côrdoba, t. I, ciudad Real, 1915.

٩٦ ــ بوسكو (ريكاردو بلاسكث) : مدينة الزهراء والعامرية ، مدريد ١٩١٢ (بالإسبانية) .

Bosco (Ricardo Velasquez) : Medina Azzahra, y Alamiriya, Madrid 1912.

٩٧ ــ ...... : حفائر في مدينة الزهراء مدريد ١٩٢٣ (بالإسبانية)

. . . : Excavaciones en Madina Azahara, Madrid 1923.

٩٨ ــ كاخيجاس (ايزيدرو دى لاس) : المستعربون ، الجزء الأول مدريد ١٩٤٧ (بالإسبانية) .

Cagigas, (Isidro de Las) : Los Mozarabes, t. I, Madrid 1947.

٩٩ ــ كامبس إى كاثورلا : العمارة الخلافية والمستعربة ، مدريد ١٩٢٩ (بالإسبانية) .

Camps y Cazorla : Arquitectura califal y Mozàrabe, Colecciôn. "Cartillas de arquitectura espanola", Madrid 1929.

١٠٠ ــ النظام والنسب والتكوين في العمارة الخلافية بقرطبة ، مدريد ١٩٥٣ (بالإسبانية) .

. . . : Modulo, proporciones y composiciôn en la arquitectura califal cordobesa, Madrid 1953.

١٠١ ــ كاريراس (كارلوس سارتو) : قلاع إسبانيا ، مدريد ١٩٥٢ (بالإسبانية)

Carreras, (Carlos Sarthou) : Castillos de Españà, Madrid 1952.

١٠٢ – كاستيخون (رافاييل) دليل قرطبة ، مدريد ١٩٣٠ (بالإسبانية) .

Castéjôn (Rafaél y Martinez) : Guia de Cordoba, Madrid 1930.

١٠٣ – ...... : قرطبة الخلافية ، مجلة الأكاديمية القرطبية ، قرطبة ١٩٢٩ (بالإسبانية) .

... : Côrdoba Califâl, Boletin de la Academia de Côrdoba, Cordoba 1929.

١٠٤ – ...... : حفريات البرنامج الوطنى بمدينة الزهراء ، حملة ١٩٤٣ ، مدريد ١٩٤٥ (بالإسبانية) .

... : Excavaciones de plan nacional en Medina Azahra, Campana 1943, Madrid, 1945.

١٠٥ – ...... : حفريات جديدة فى مدينة الزهراء ، الأندلس ١٩٤٥ (بالإسبانية)

... : Nuevas excavaciones en Medina al-Zahra, al-Andalus 1945.

١٠٦ – كوديرا (فرنسسكو) : اضمحلال المرابطين وزوال دولتهم من إسبانيا سرقسطة ١٨٩٩ (بالإسبانية) .

Codera (Francisco) : Decadencia y disaparicion de los Almoravides en España, Zaragoza, 1899.

١٠٧ – ...... : الحدود المحتملة للفتح الإسلامى فيما وراء البرت ، مدريد ١٩١٧ (بالإسبانية) .

... : Limites probables de la conquista arabe en la cordillera Pirenaica, pp. 97-235, en Estudios Criticos de Historia arabe espànola, VIII." Madrid 1917.

١٠٨ – ...... : أربونة وجرندة وبرشلونة فى ظل الإسلام ، مدريد ١٩١٧ (بالإسبانية)

... : Narbona, Gerona y Barcelona bajo la dominacion musulmana, en Estudios Criticos de la historia arabe españôla, VIII" Madrid 1917.

١٠٩ – كرزول : العمارة الإسلامية الأولى ؛ أكسفورد ١٩٣٨ (بالإنجليزية).

Creswell (K.A.C.), Early Muslim architecture : Umayyads, Early Abbas sids and Tulunids, vol. II, part II, Oxford 1938.

١١٠ — دوزى (رينهارت) : تاريخ المسلمين فى إسبانيا ، نشره الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، ليدن ١٩٣٢ (بالفرنسية)

Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, 3 vols. éd. Lévi-Provençal, Leyde 1932.

١١١ — جيشوت (خواكين) : تاريخ الأندلس العام ، مدريد ١٨٦٩ (بالإسبانية)

Guichot (Joaquin) : Historia General de Andalucia .t. I., Madrid 1869.

١١٢ — خيمنث (مانويل أوكانية) : بازيليكية شنت بنجنت والمسجد الجامع بقرطبة ، مجلة الأندلس ، ١٩٤٢ (بالإسبانية)

Jimenez (Manuel Ocaña) : La Basilica de San Vicente y la gran mezquita de Côrdoba, Al-Andalus 1942 (pp. 347-366).

١١٣ — ...... : أبواب مدينة قرطبة ، الأندلس ، المجلد الثالث ١٩٣٥ ص ١٤٣ — ١٥١ (بالإسبانية)

: ..... Las Puertas de la Medina de Côrdoba, vol. III de Al- Andalus, 1935, fasc. I, (pp. 143-151).

١١٤ — ...... : الكتابة التأسيسية بمسجد ابن عديس بإشبيلية ، مجلة الأندلس مجلد ١٢ ، ١٩٤٧ (بالإسبانية)

: ..... La inscripcion fundacional de la mezquita de Ibn Adabbas en Sevilla, al-Andalus, vol XII, fasc. I, 1947.

١١٥ — إلى لامبير : تاريخ المسجد الجامع بقرطبة فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين فى حوليات معهد الدراسات الشرقية بجامعة الجزائر ، الجزائر ، ج ٢ ، ١٩٣٦ (بالفرنسية)

Lambert (Elie) : Histoire de la grande mosquée de Cordoue au VIII et IXe. siècles, Annales de l'Institut d'études Orientales de l'Université d'Alger, vol. II, Alger, 1936.

١١٦ — ...... : العمارة الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى ، مجلة الفنون الجميلة الجزء ١٢ ، ١٩٢٥ (بالفرنسية)

: ..... L'architecture Musulmane au Xe. siècle, Gazette des Beaux arts t. XII, 1925.

١١٧ — ...... : أصول القبوات القوطية ، مجلة معاهد الفنون والآثار ، رقم ٨ — ٩ ، نوفبر ١٩٣٦ — مارس ١٩٣٧ ، باريس (بالفرنسية)

...... : Les origines de la croisée d'ogives, Offices des Instituts d'Archéologie et d'histoire d'art, No. 8-9, Novembre 1936 - Mars 1937.

١١٨ — لامبير : قباب المساجد الجامعة بتونس وإسبانيا فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، هسبريس ، عدد ٢٢ ، جزء ٢ ، ١٩٣٦ (بالفرنسية)

Lambert : Les coupoles des grandes mosquées de Tunisie et de l'Espagne, au IXe. et Xe. siècles, Hesperis t. XXII, fasc II, 1936.

١١٩ — ...... : المساجد ذات الطابع الأندلسى فى إسبانيا والمغرب ، الأندلس المجلد ١٤ ، الجزء الثانى ١٩٤٩ (بالفرنسية)

...... : Les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al-Andalus, vol. XIV, fasc. 2, 1949.

١٢٠ — ...... : المسجد الجامع بقرطبة والفن البيزنطى ، باريس ١٩٥١ (بالفرنسية)

...... : La grande mosquée de cordoue et l'art byzantin Actes du VI C.I.E.B. paris 1951.

١٢١ — ليڤى پروڤنسال : النقوش الكتابية العربية فى إسبانيا ، (الجزء الخاص بالنصوص) ، ليدن — باريس ١٩٣١ (بالعربية والفرنسية)

Lévi-Provençal. (E.) : Inscriptions Arabes d'Espagne, (Textes). Leiden - Paris, 1931.

١٢٢ — ...... : مذكرات الملك عبد الله الزيرى ، الأندلس ١٩٣٥ (بالعربية والترجمة الفرنسية)

...... : Les Memoires du Roi ziride Abdallah, al-Andalus, 1935.

١٢٣ — ...... : السياسة الإفريقية للخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر) ، الأندلس العدد ١١ ، الجزء الثانى ١٩٤٦ (بالإسبانية)

...... : La Politica A fricana de Abd al-Rahman III, Al-Andalus, vol. XI, fasc. 2, 1946.

١٢٤ — ...... : إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى ، باريس ١٩٣٢ (بالفرنسية)

...... : L'Espagne musulmane au Xe. siècle, Paris 1932.

١٢٥ — ...... : تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ثلاثة أجزاء ، ليدن ، ١٩٥٠ (بالفرنسية)

...... : Histoire de l'Espagne musulmane, 3 vols., Leiden, 1950.

١٢٦ — : المدن والمؤسسات العمرانية ، تطوان ١٩٥٠ (بالإسبانية)

...... : Las ciudades y las instituciones urbanas, Tetuan 1950.

١٢٧ — : نصوص مقتبسة من المقتبس لابن حيان ، فى مجلة أرابيكا ، الجزء الأول ، يناير ١٩٥٤ (النصوص بالعربية مع الترجمة الفرنسية)

...... : Documents es notules. : Les citations du Muqtabis d'Ibn Hayyan, dans la revue Arabica, t. I, fasc. I, Janvier 1945.

١٢٨ — مارسيه (جورج) : الفن الإسلامى : العمارة فى تونس والجزائر ومراكش وإسبانيا وصقلية ، باريس ١٩٢٦ (بالفرنسية)

Marçais (Georges) : Manuel d'art musulman, t. II; L'architecture en Tunisie, Algerie, Maroc, Espagne et Sicile, Paris 1926.

١٢٩ — مارسيه : العمارة الإسلامية فى المغرب والأندلس ، باريس ١٩٥٤ (بالفرنسية)

...... : L'architecture musulmane d'Occident, Paris 1954.

١٣٠ — ميليدا (خوسى رامون) : كتالوج الآثار فى إسبانيا ، مديرية بطليوس ، مدريد ١٩٢٥ (بالإسبانية)

Melida (José Ramôn) : Catálogo Monumental de Espana, Provincia de Badajoz, Madrid 1925.

١٣١ — مورينو (منويل جومث) : الكنائس المستعربة ، جزآن ، مدريد ١٩١٩ (بالإسبانية)

Moreno (Manuel Gomez) : Iglesias Mozàrabes, Madrid 1919.

١٣٢ — ...... : المسجد الجامع بتطيلة ، مجلة أمير بيانا ، رقم ١٨ ، بنبلونة ١٩٤٥ (بالإسبانية)

...... : La Mezquita Mayor de Tudela, Revista Principe Viana, No. 18, Pamplona, 1945.

١٣٣ — ...... : الفن الإسبانى ، الجزء الثالث ، (منذ الفتح العربى حتى عصر المولدين) ، مدريد ١٩٥١ (بالإسبانية والترجمة العربية

للمؤلف بالاشتراك مع الدكتور لطفي عبد البديع تحت الطبع) .

...... : Ars Hispaniae, t. III, el arte arabe hasta los Almohades, madrid 1951.

١٣٤ – مؤنس (دكتور حسين) : بحث عن سقوط الخلافة بقرطبة سنة ١٠٠٩ م ، القاهرة ١٩٤٨ (بالفرنسية)

Munes (H.) : Essai sur la chûte du Califat Umayyade de Cordoue en 1009, le Caire, 1948.

١٣٥ – نونيو (جايا) : غرماج ، حصن خلافي ، مجلة الأندلس المجلد ١٣ ، ١٩٤٨

Nuño (Gaya) : Gormaz, Castillo Califal al-Andalus 1948.

١٣٦ – بالاثويلوس (الفيكونت دى) : دليل فني عملي لطليطلة ، طليطلة ١٨٩٠ (بالإسبانية)

Palazuelos (el vizconde de) : Guia artistico - pràctico de Toledo, Toledo 1890.

١٣٧ – بلنثية (جنثالث) : تاريخ إسبانيا الإسلامية (مجموعة لابور) مدريد ١٩٤٥ (بالإسبانية) .

Palencia (Gonzàlez) : Historia de España Musulmana, Colecciôn Labor, Madrid 1945.

١٣٨ – ريوس (فرنسسكو أباد) : سرقسطة (في مجموعة دلائل فنية لإسبانيا) برشلونة ١٩٥٢ (بالإسبانية)

Rios (Francisco Abbad) : Zaragoza, colecciôn de Guias artisticas de España, Barcelona 1952.

١٣٩ – ريفيرو (كاستوماريا دل) : العملة الأندلسية ، مدريد ١٩٣٣ (بالإسبانية)

Rivero (Casto Maria del) : La moneda arabigo - española, Madrid 1933.

١٤٠ – روبيانو (بابلو ألفاريث) : نظام وثقافة إسبانيا القوطية ، بحث في كتاب « تاريخ إسبانيا » الجزء الثاني ، برشلونة ١٩٣٢ (بالإسبانية)

Rubiano (Pablo Alvarez) Organizacion y cultura de la España visigoda, en "Historia de España" t. II, Barcelona, 1932.

١٤١ – روبيو (خوليان ماريا) : تاريخ إسبانيا القوطية ، بحث فى كتاب « تاريخ إسبانيا » الجزء الثانى ، برشلونة ١٩٣٢ (بالإسبانية)

Rubio (Julian Maria) : La España Visigoda, en "Historia de Espana", t. II, Barcelona. 1932.

١٤٢ – ساقدرا (إدواردو) : دراسة عن فتح العرب لإسبانيا ، مدريد ١٧٩٢ (بالإسبانية)

Saavedra (Edouardo) : Estudio sobre la invasion de los Arabes en España, Madrid 1892.

١٤٣ – سالم (السيد عبد العزيز) : تاريخ جامع قرطبة ، مجلة الأندلس العدد ١٩ ، الجزء الثانى ١٩٥٤ (بالإسبانية)

Salem (A. Abdel Aziz) : Cronologia de la Mezquita Mayor de Cordoba, al-Andalus vol. XIX, fasc. 2, 1954.

١٤٤ – سانشث البرنس : تاريخ إسبانيا الإسلامية ، (مجموعة وثائق تاريخية عربية مترجمة إلى الإسبانية) فى جزأين ، بونيس أيرس ١٩٤٦

Sanchéz-Albornoz : Historia de la España Musulmana. 2 tomos., Buenos Aires, 1946.

١٤٦ – سيمونيت (فرنسسكو خافير) : تاريخ المستعربين فى إسبانيا ، مدريد ١٨٩٧ ، (بالإسبانية)

Simonet (Francisco Javier) : Historia de los Mozarabes de España, Madrid 1897.

١٤٧ – تراس (هنرى) : الفن الإسبانى المغربى ، باريس ١٩٣٢ (بالفرنسية)

Terrasse (Henri) : L'art Hispano-Mauresque, des origines au XIIIe. siècle, Paris 1932.

١٤٨ – ...... : تاريخ المغرب الأقصى منذ أقدم العصور حتى إعلان الحماية الفرنسية ، جزآن ، الدار البيضاء ١٩٤٩ (بالفرنسية)

...... : Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du protectorat français, 2 tomes, Casablanca, 1949.

١٤٩ – توريس بلباس (ليوبولدو) : التبادل الفنى بين مصر وإسبانيا ، مجلة الأندلس ١٩٣٤ (بالإسبانية)

Torres Balbàs, (Leopoldo) : el entercambio artistico entre Espanay Egipto, al-Andalus, 1934.

١٥٠ — ...... : المسجد الجامع الأول بإشبيلية ، الأندلس ، عدد ١١ ، ١٩٤٦ (بالإسبانية) .

......: La primitiva mezquita Mayor de Sevilla, al-Andalus, Vol. XI, 1946.

١٥١ — ...... : بوابة سان استيبان بجامع قرطبة ، الأندلس ، عدد ١٢ ، ١٩٤٧ (بالإسبانية)

......: La Portada de San Estaban, Al-Andalus, vol. XII, pp. 127-144, 1947.

١٥٢ — ...... : حقائق تاريخية جديدة عن جامع قرطبة المتنصر ، مجلة الأندلس عدد ١٤ ، ١٩٤٩ (بالإسبانية)

......: Nuevos datos sobre la mezquita de Cordoba cristianizada, Al-Andalus, vol. XIV, 1949.

١٥٣ — ...... : المدينة والأرباض والأحياء فى الأندلس ، مجلة الأندلس ، عدد ١٧ ، جزء أول ١٩٥٢ (بالإسبانية)

......: La Medina, los Arrabales y los barrios, al-Andalus vol. XVII, fasc. I, 1952.

١٥٤ — توريس بلباس : المسجد الجامع بقرطبة وآثار مدينة الزهراء ، مدريد ١٩٥٢ (بالإسبانية)

...... : La mezquita de Cordoba y las ruinas de Madinat al-Zahra, coleccion de Monumentos cardinales de España, t. XIII, Madrid 1952.

١٥٥ — ...... : ظواهر المدن الأندلسية ، الأندلس ، العدد ١٥ ، ج ٢ ص ٤٣٧ — ٤٨٦ ، ١٩٥٠ (بالإسبانية)

......: Los contornos de las ciudades hispano Musulmanas. al-Andalus, vol XV, pp. 437-486, 1950.

١٥٦ — ...... : الأبنية الأندلسية ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، عدد ١ مدريد ١٩٥٣ (بالإسبانية)

......: Los Edificios Hispano-Musulmanes, revista del Instituto egipcio de estudios islàmicos, No. I, Madrid 1953.

١٥٧ — ...... : تاريخ الفن الإسبانى ج ٤ ، الفن الموحدى والفن النصرى وفن المدجنين ، مطبعة بلوس الترا ، مدريد ١٩٤٩ (بالإسبانية)

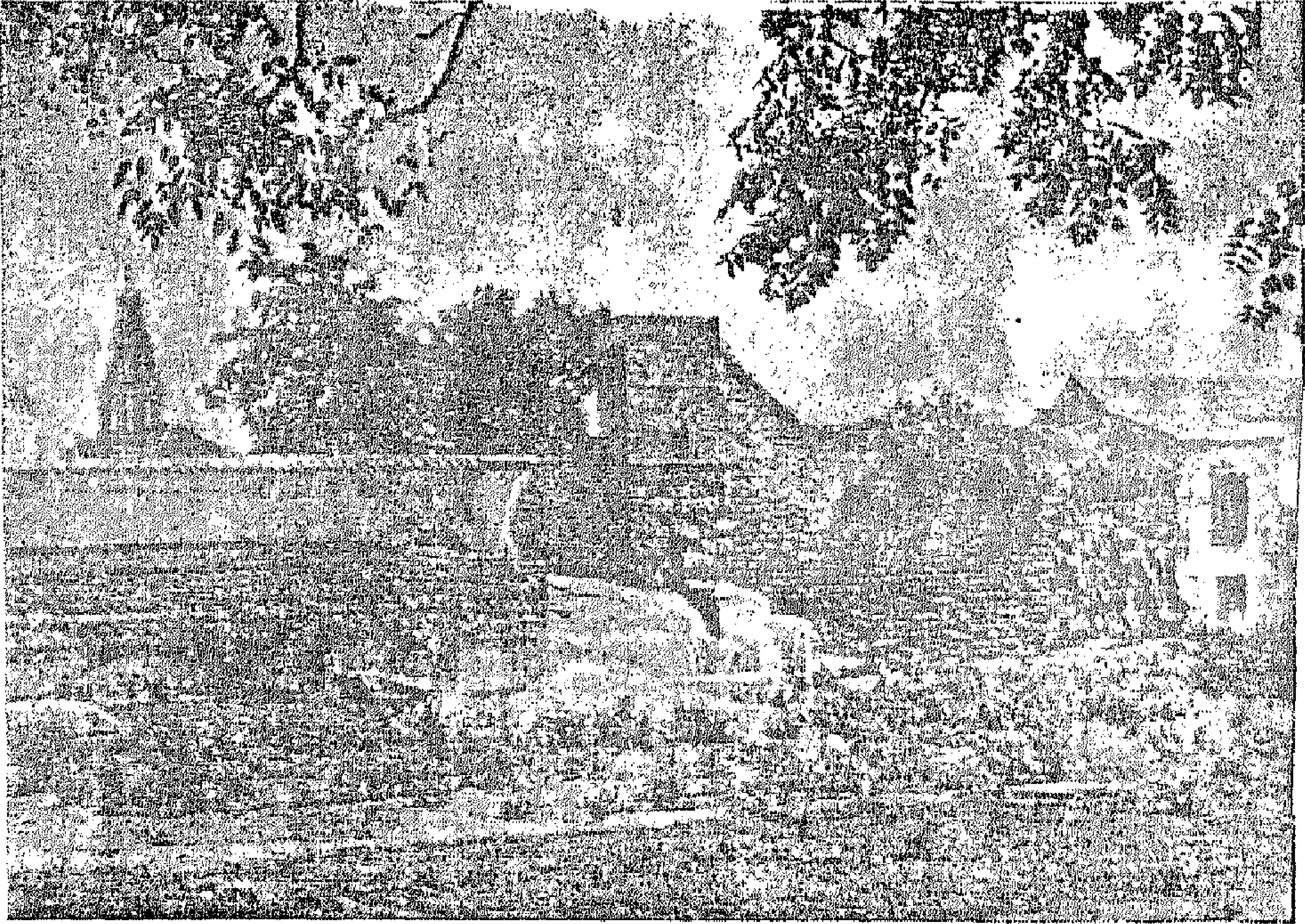
...... : Ars Hispaniae, t. IV, arte almohade, arte nasari, arte mudejar, Madrid, Plus-Ultra, 1949.

١٥٨ — ...... : الاتساع وعدد السكان فى المدن الأندلسية ، مجلة ستوديا إسلاميكا ، عدد ٣ ، ١٩٥٥ (بالإسبانية)

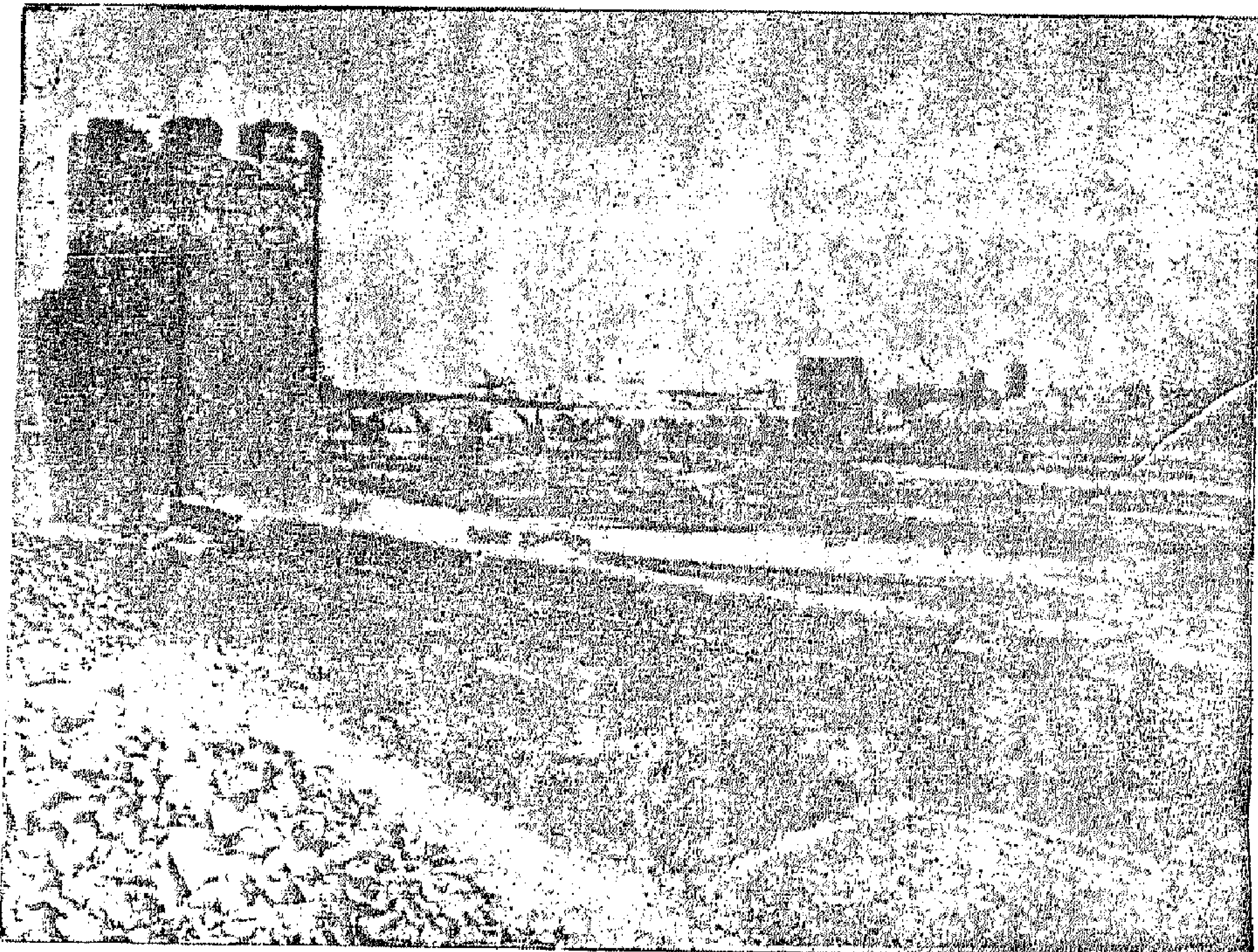
......, : Extension y demografia de las ciudades hispanomusulmanas, studia Islamica, vol. III, 1955.

١٥٩ — ثونيجا (دييجو أورتث دى) : حوليات ، ٣ أجزاء ، مدريد ١٧٩٦ (بالإسبانية)

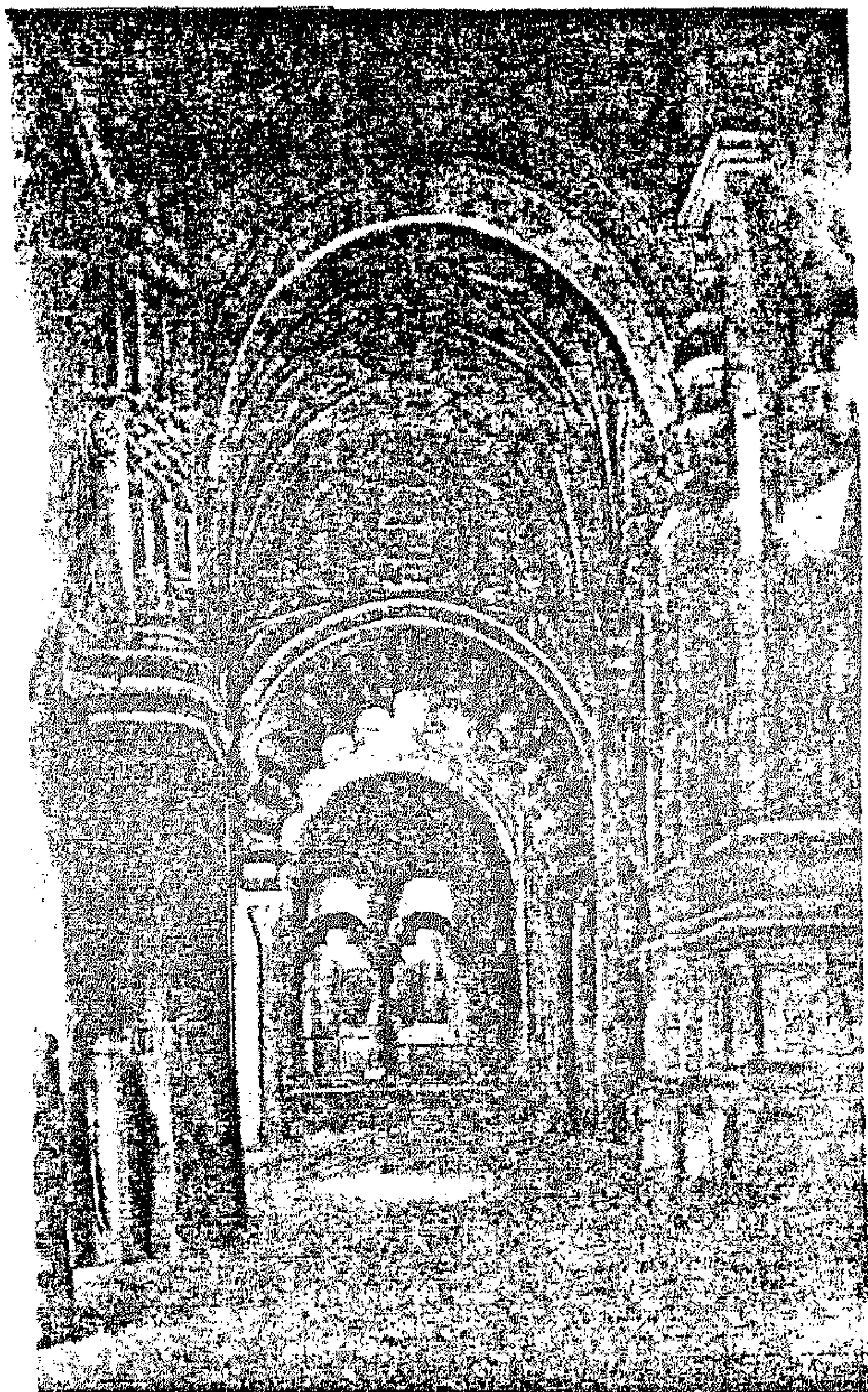
Zuñiga (Diego Ortiz de) : Anales Eclesiasticas y seculares, 3 tomos, Madrid 1796.



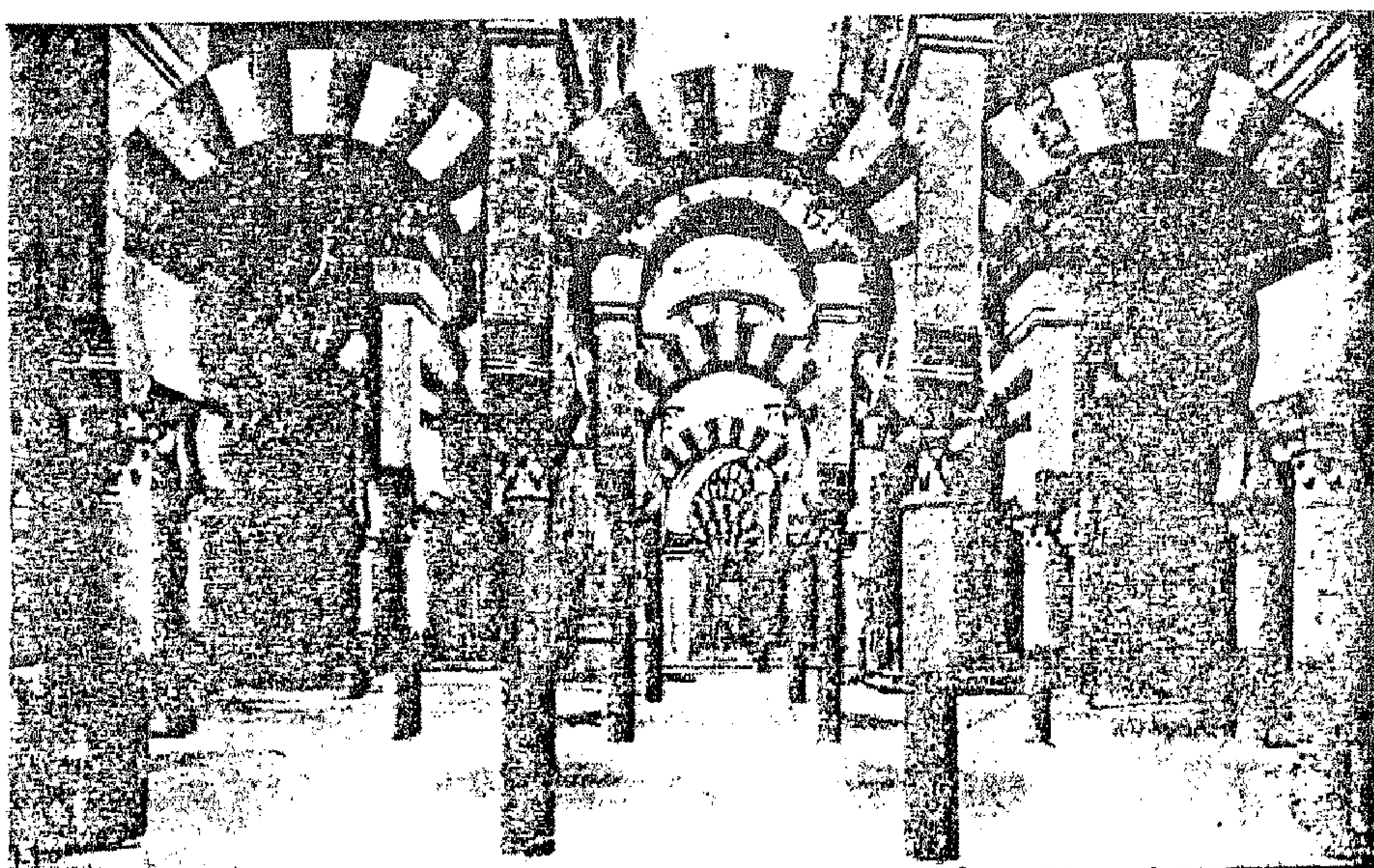
جانب من بقايا السور الرومانى بقرطبة



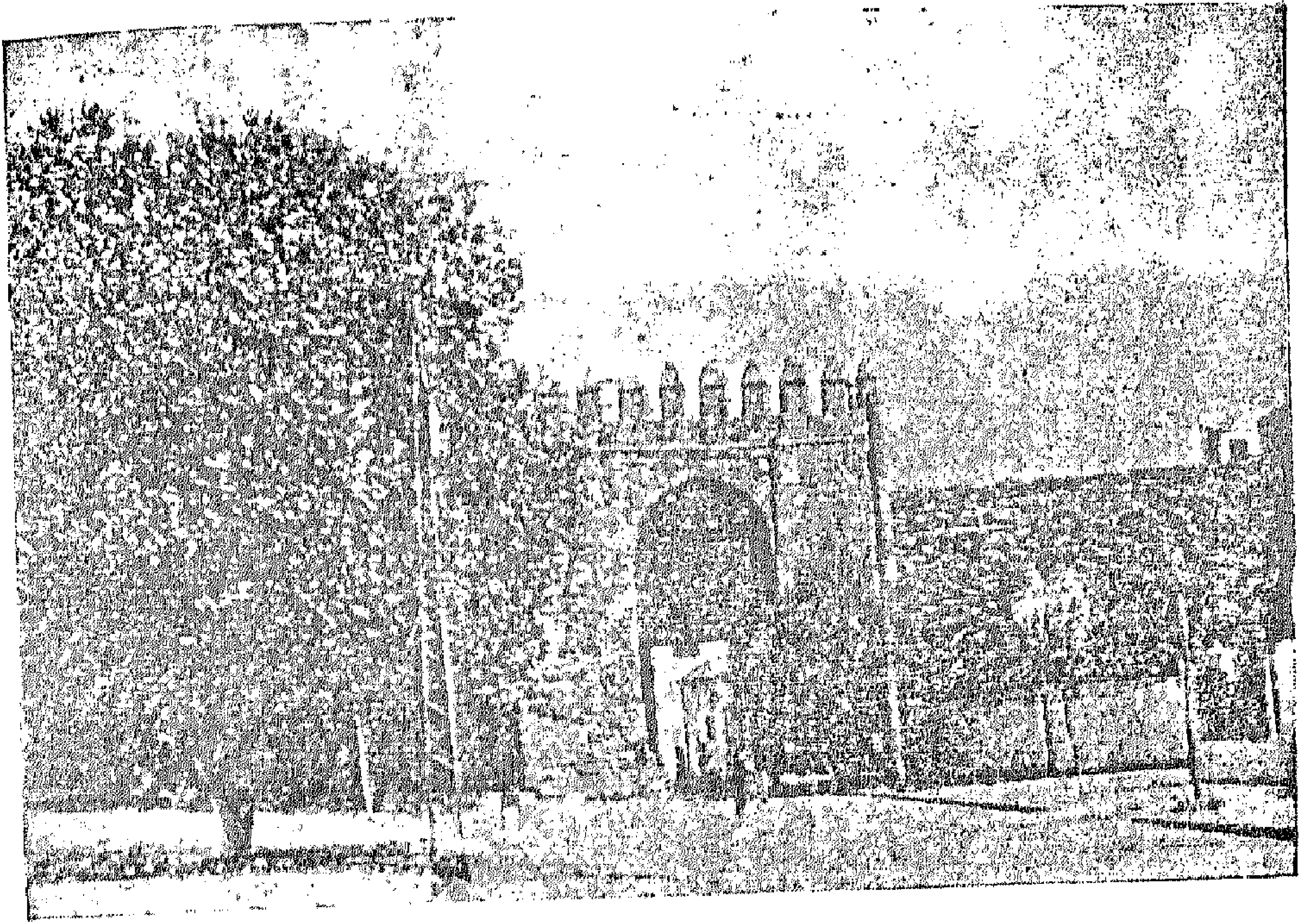
برج مثمن الشكل من عمال الموحدين بقرطبة



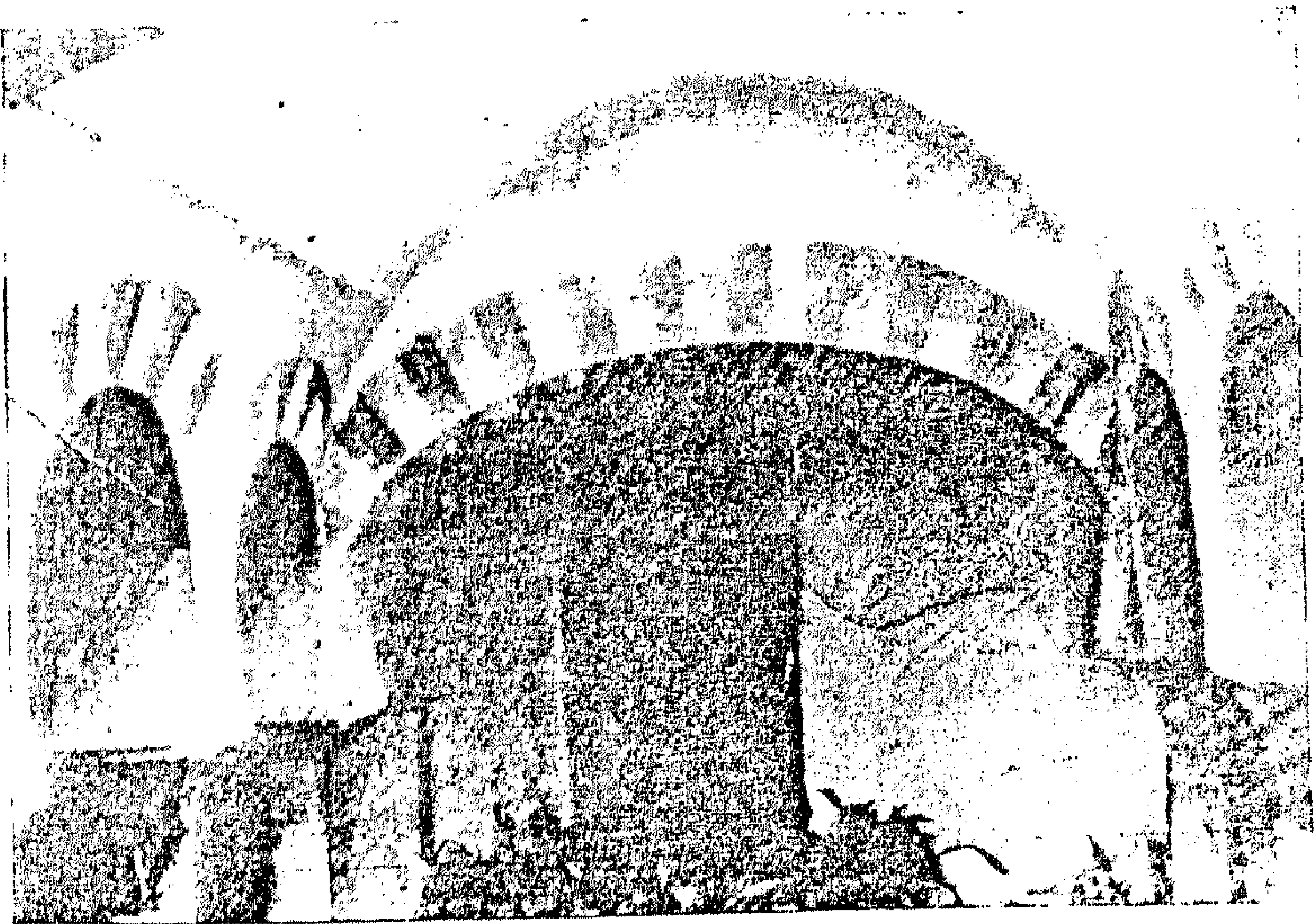
جانب من الكنيسه التى أقيمت
فى قلب جامع قرطبة



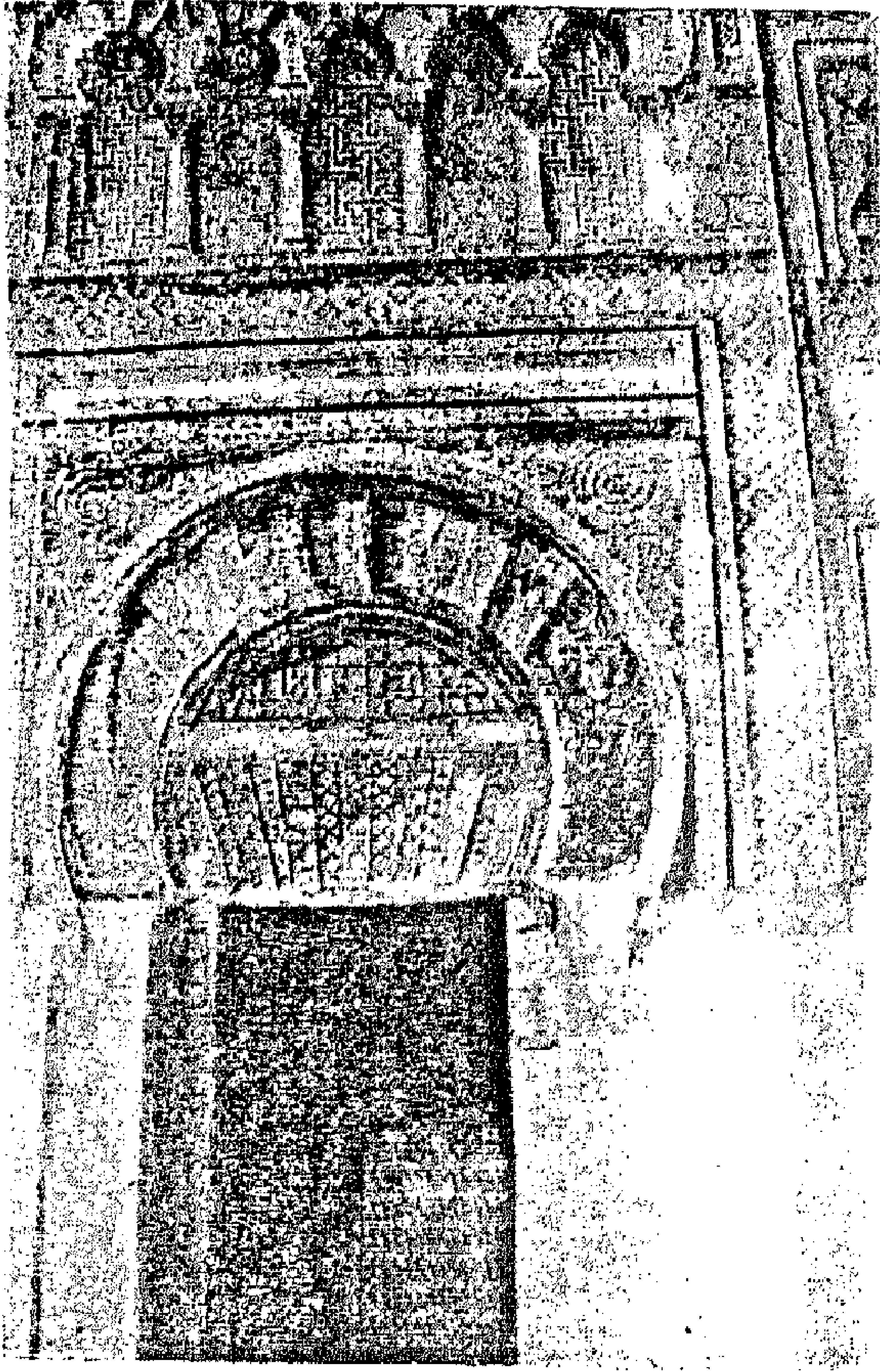
غابة أعمدة [illegible] الصلاة [illegible]



باب المدور من أبواب مدينة قرطبة



قاعة بدخل حمام من عصر الخلافة بمدينة قرطبة



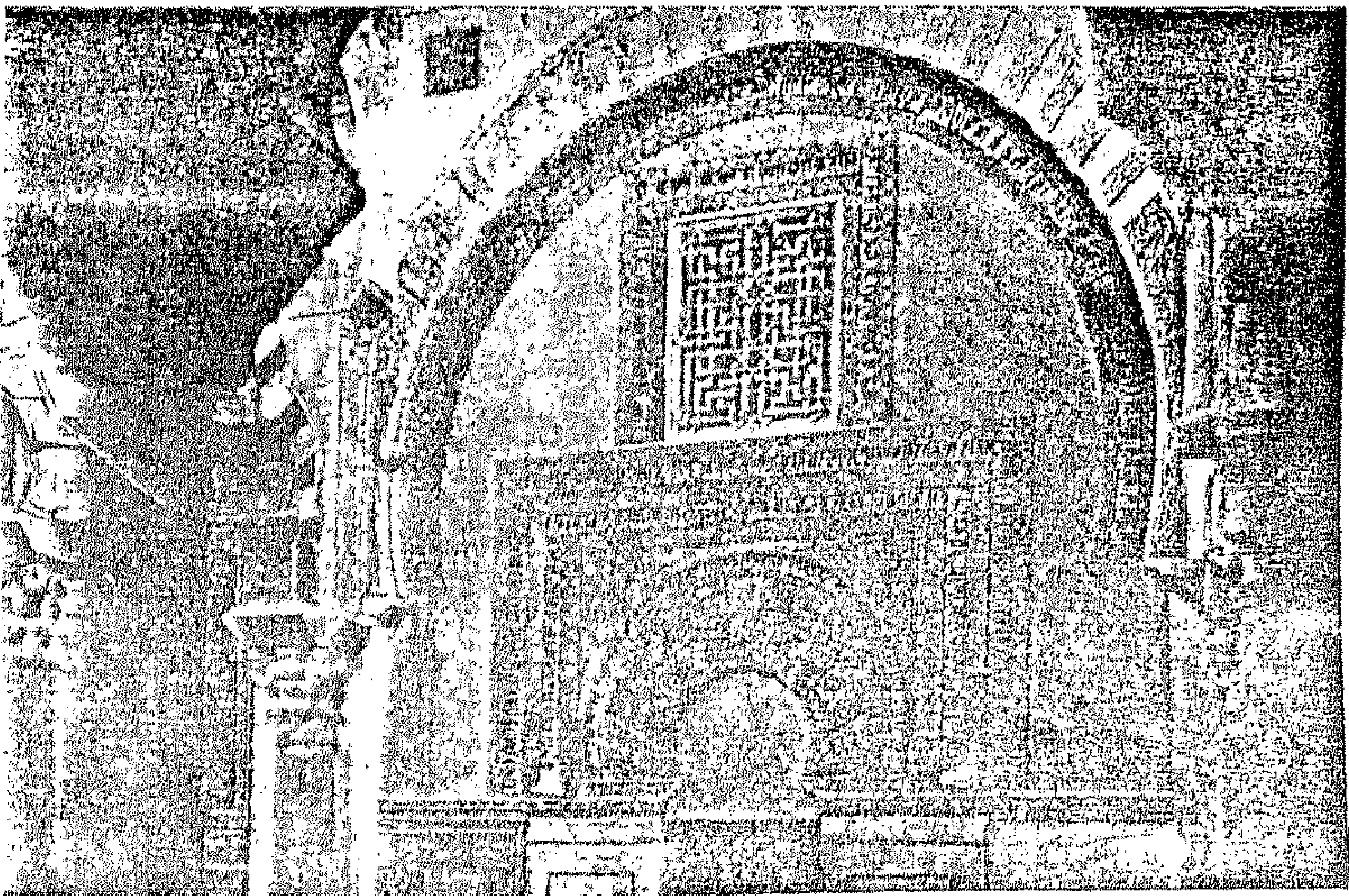
باب بالجدار الشرقي لجامع قرطبة



الجدار الشرقي لجامع قرطبة



تشابك العقود تحت قبة المحراب بجامع قرطبة



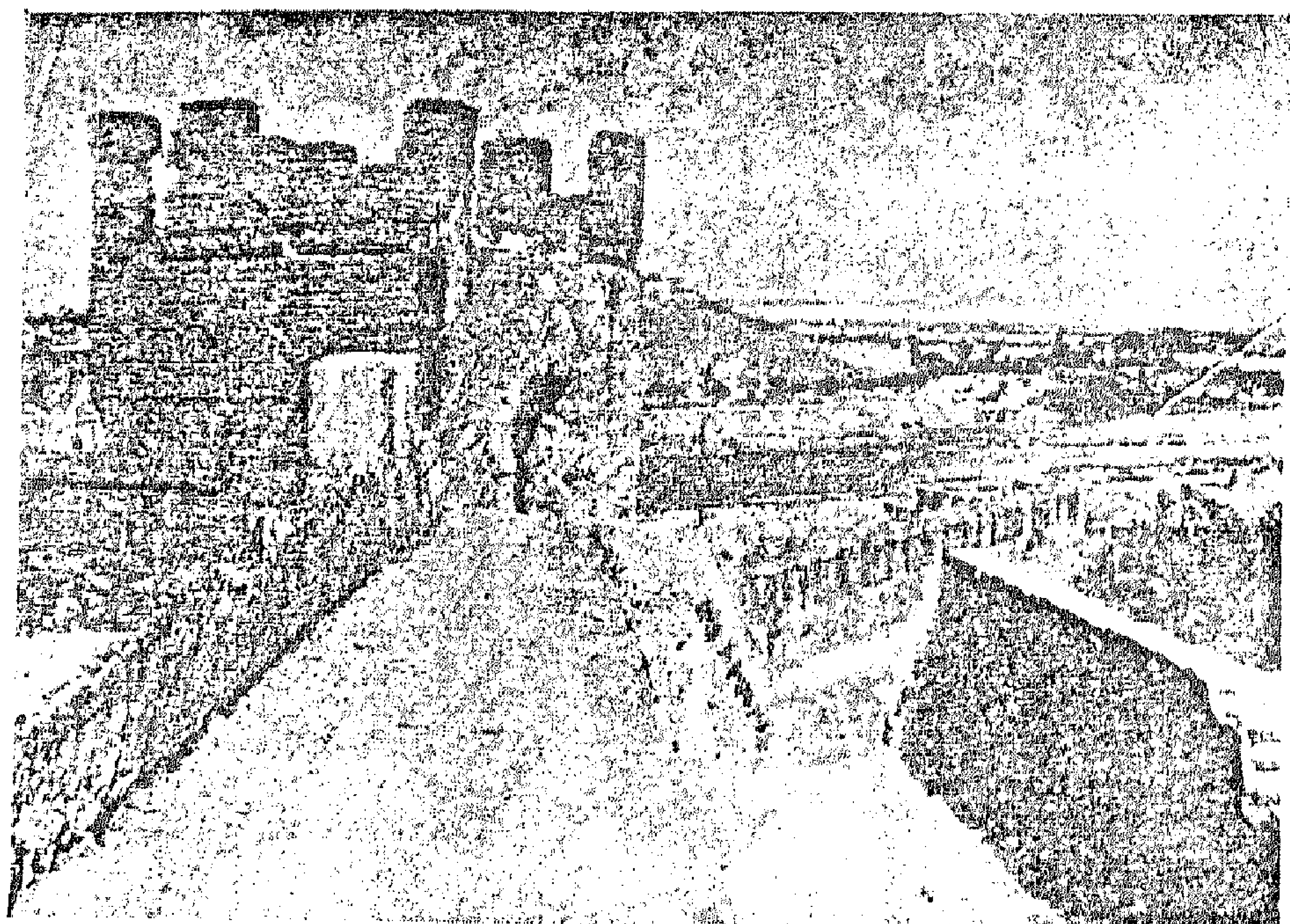
المشرع للساباط بجامع قرطبة



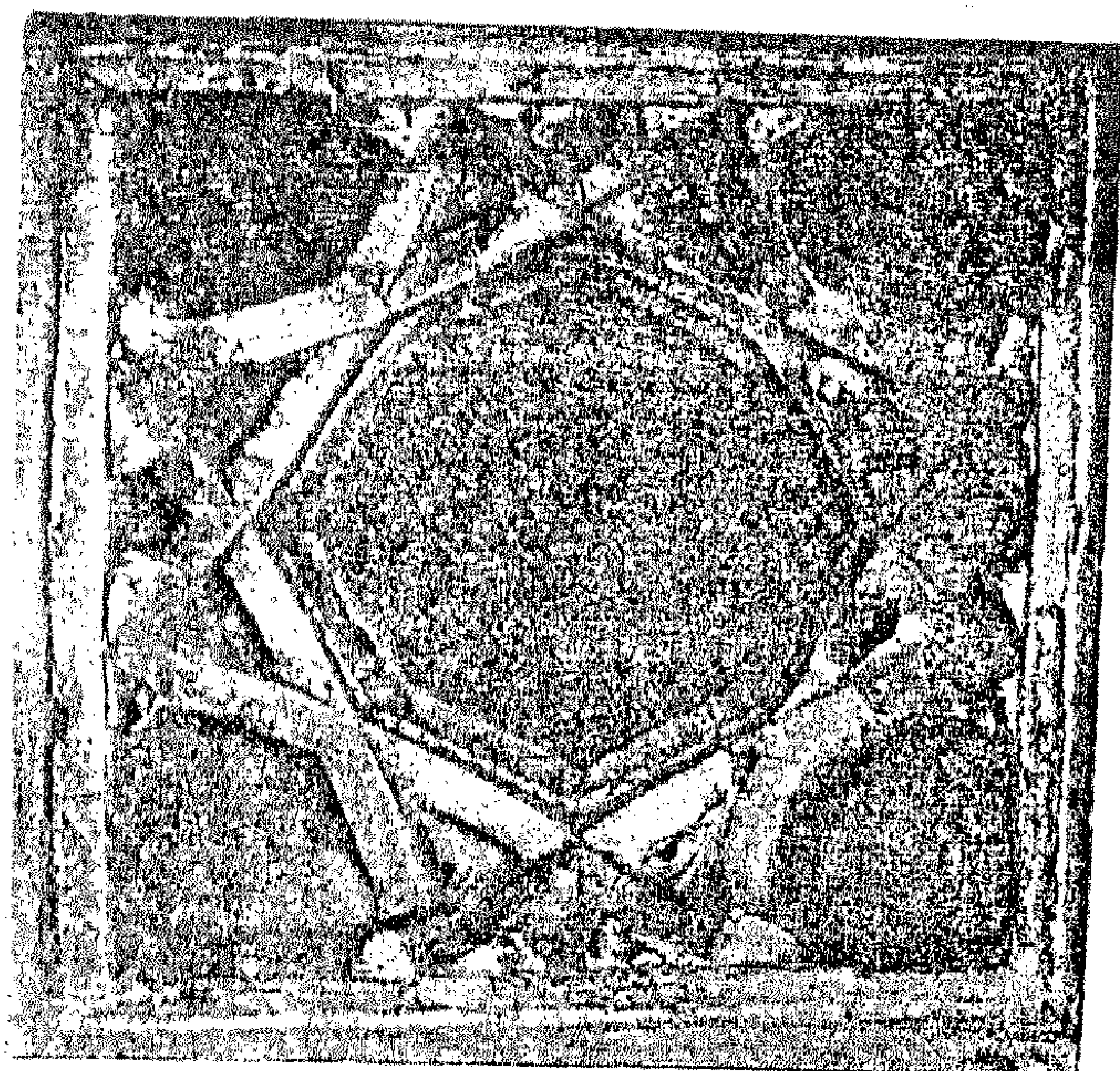
مئذنة المسجد الجامع باشبيلية

(مسجد عمر بن عدبس)

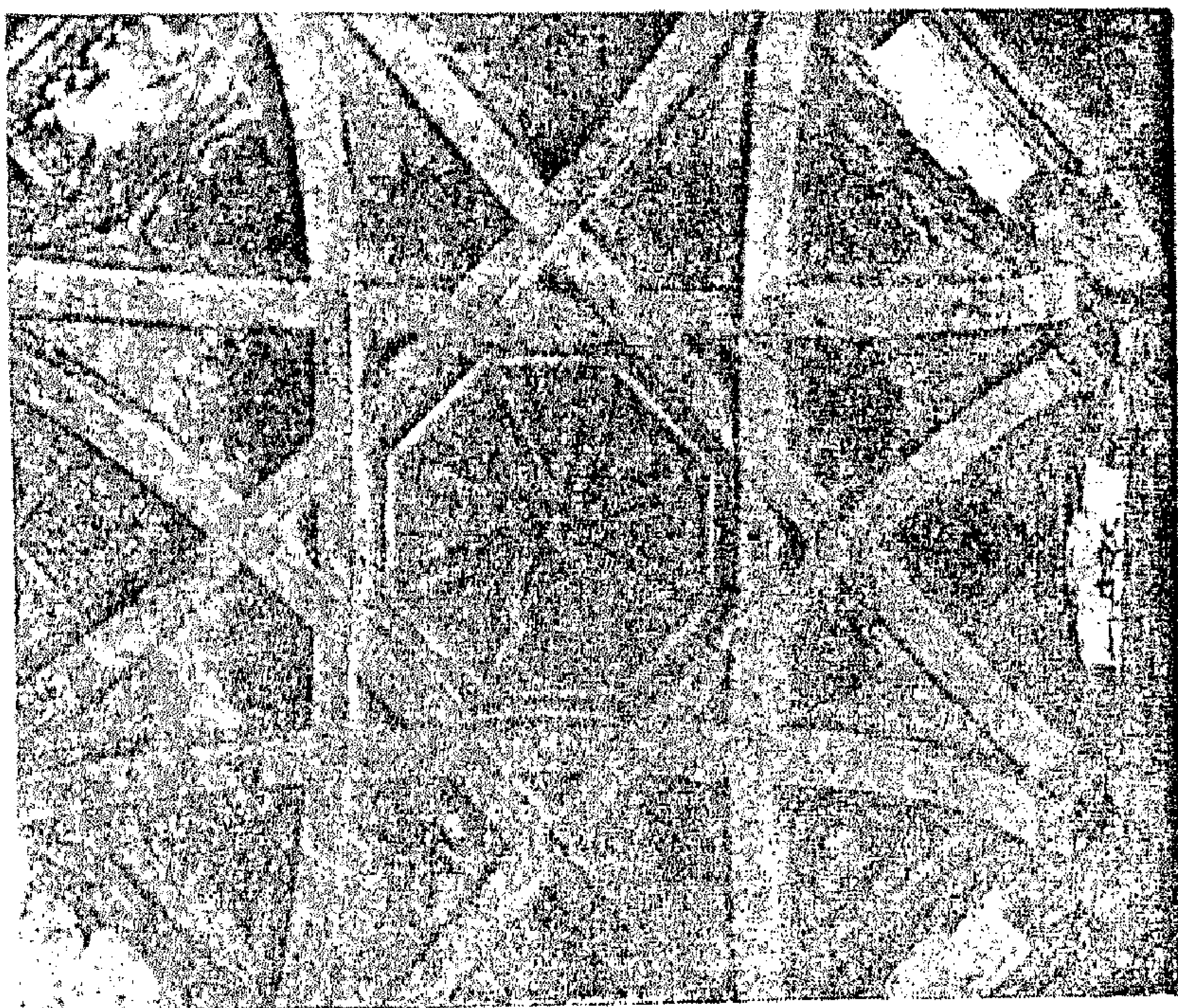
وترى العقود المحيطة بصحن البرتقال



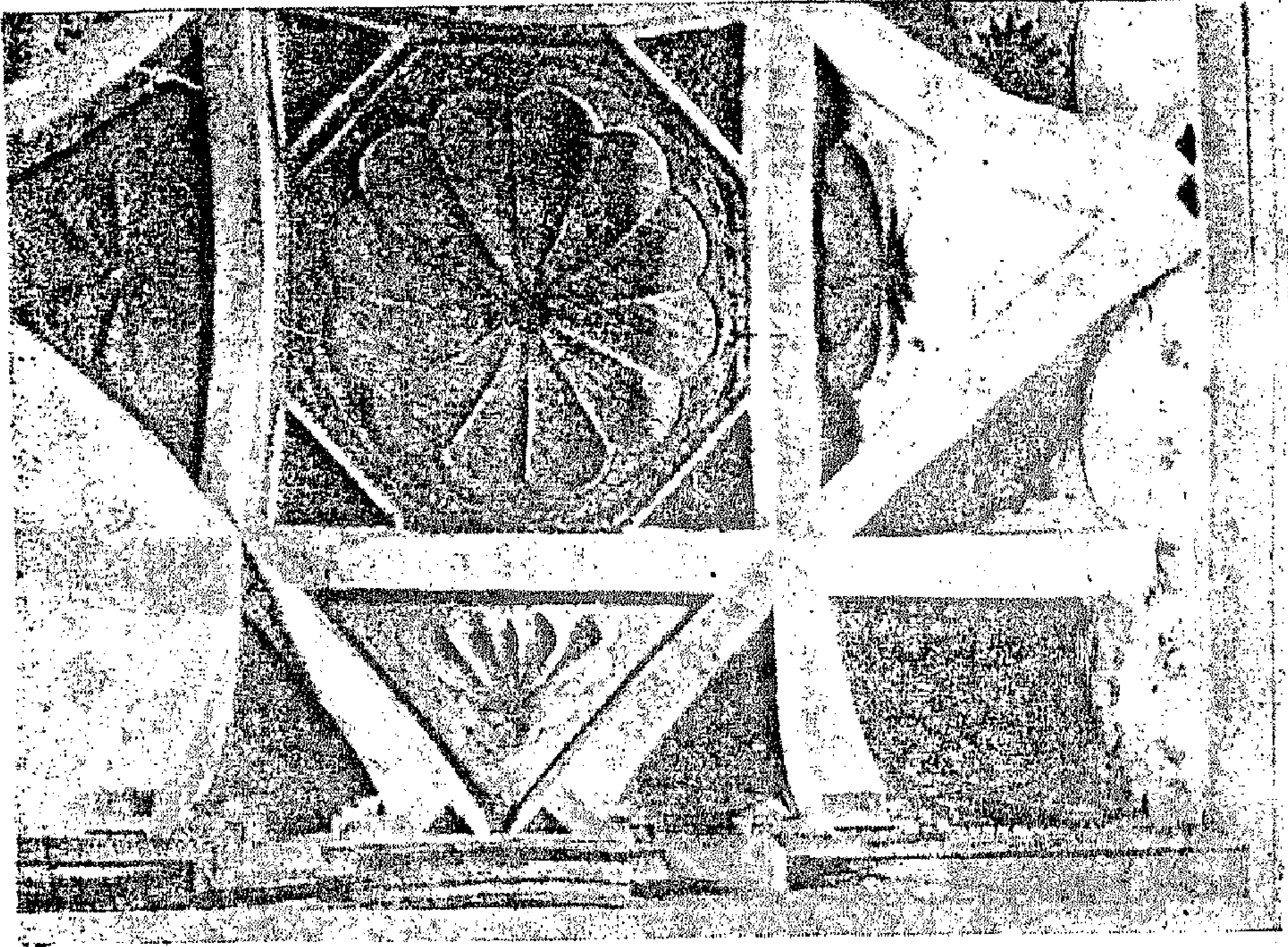
بعض أسوار مدينة بطليوس



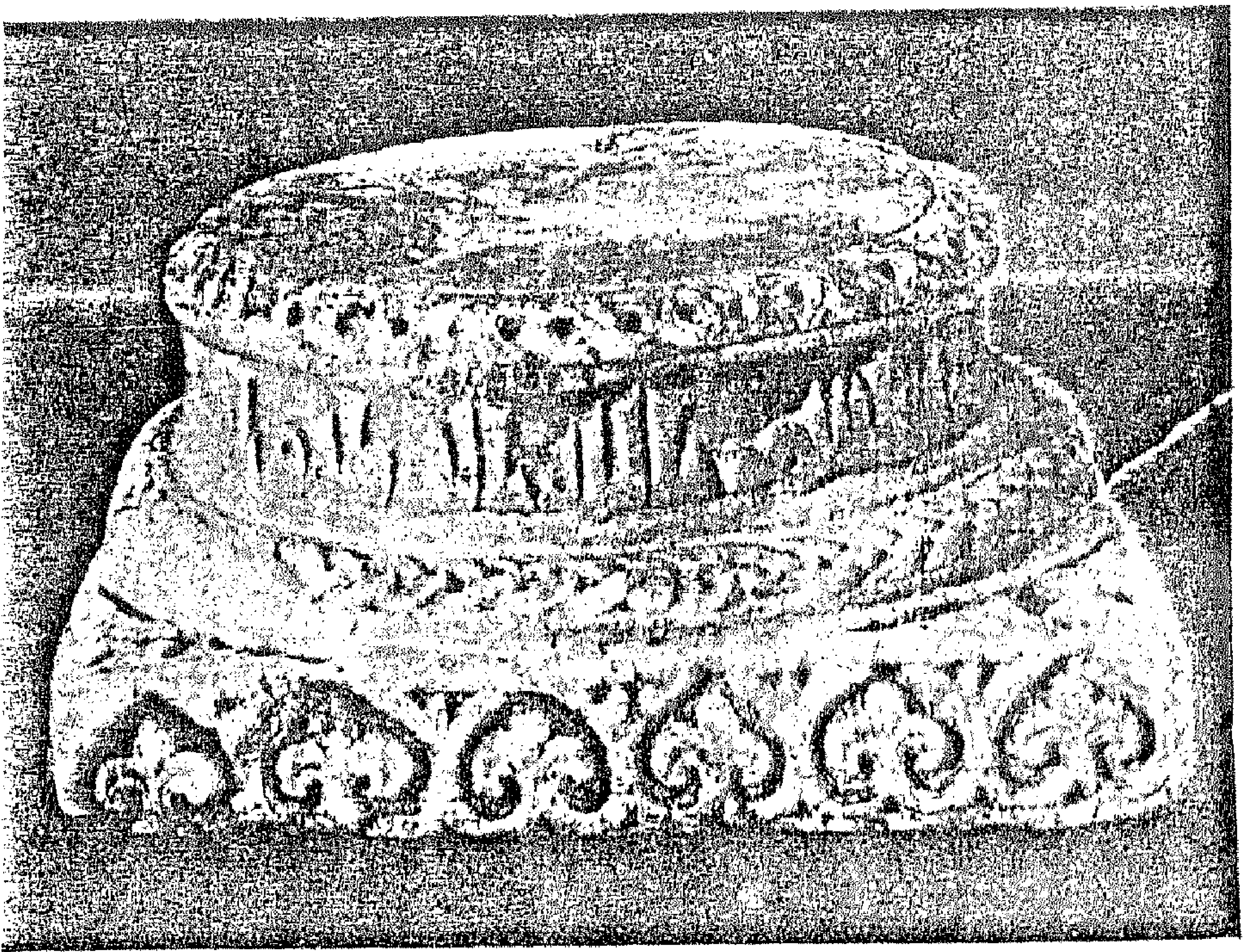
قبة بمسجد
الباب المردوم بطليطلة



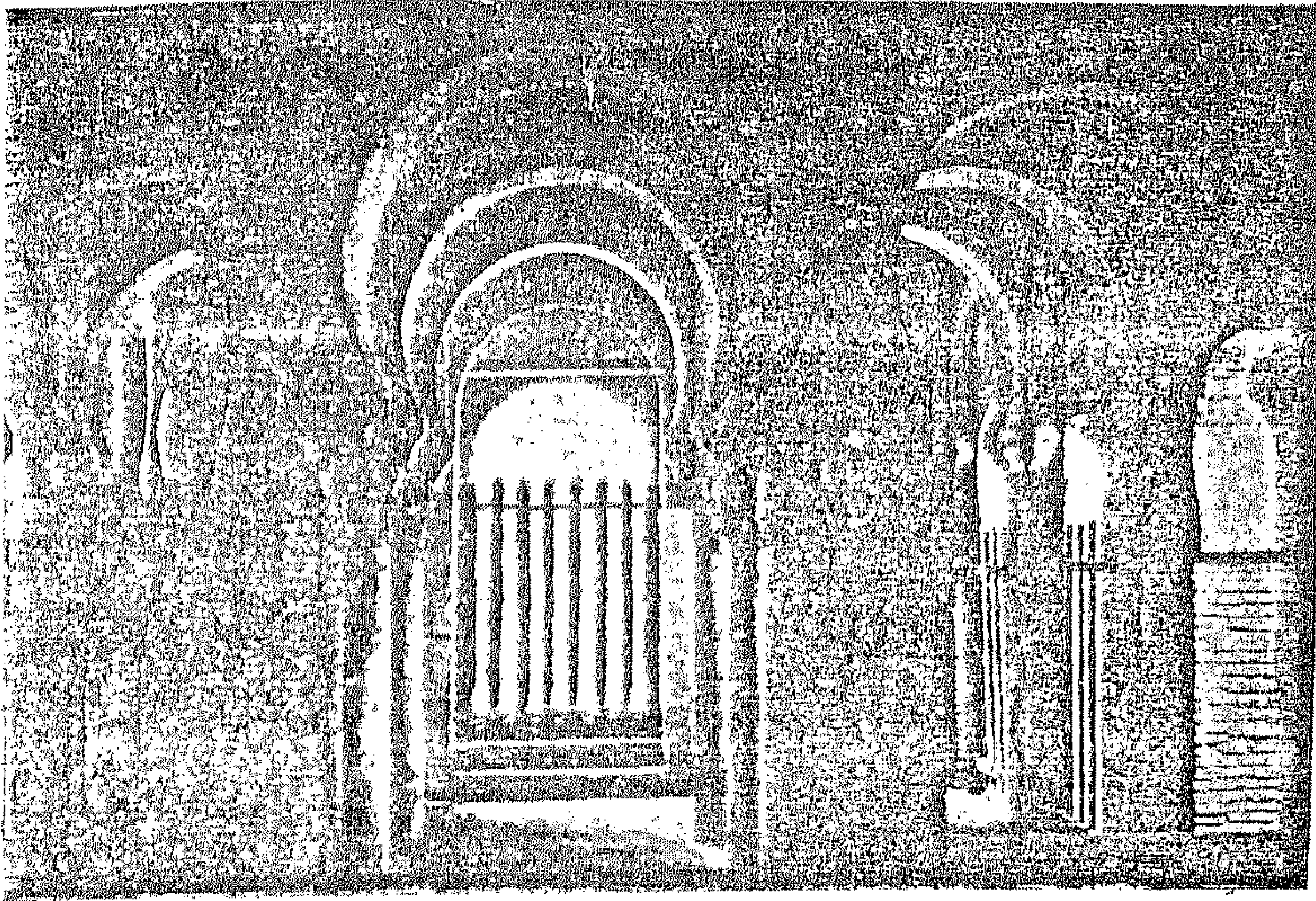
إحدى القبتين المجاورتين لقبة المحراب بجامع قرطبة



جانب من قبة الضوء بأعلى أسطوان المدخل إلى زيادة الحكم المستنصر



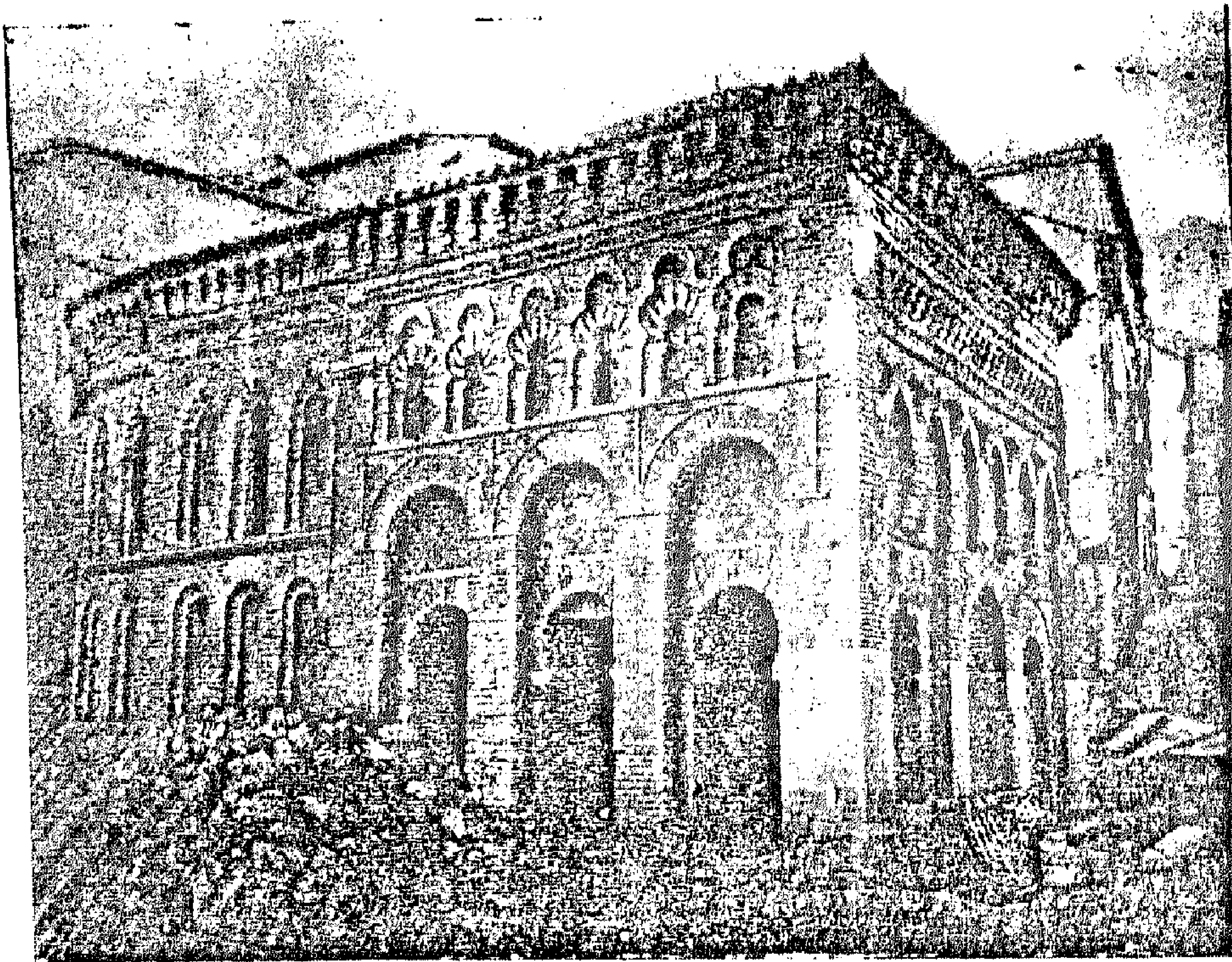
قاعدة عمود من مدينة الزهراء وعليها نقش كتابي بالخط الكوفي نصه (بسم الله الرحمن الرحيم)



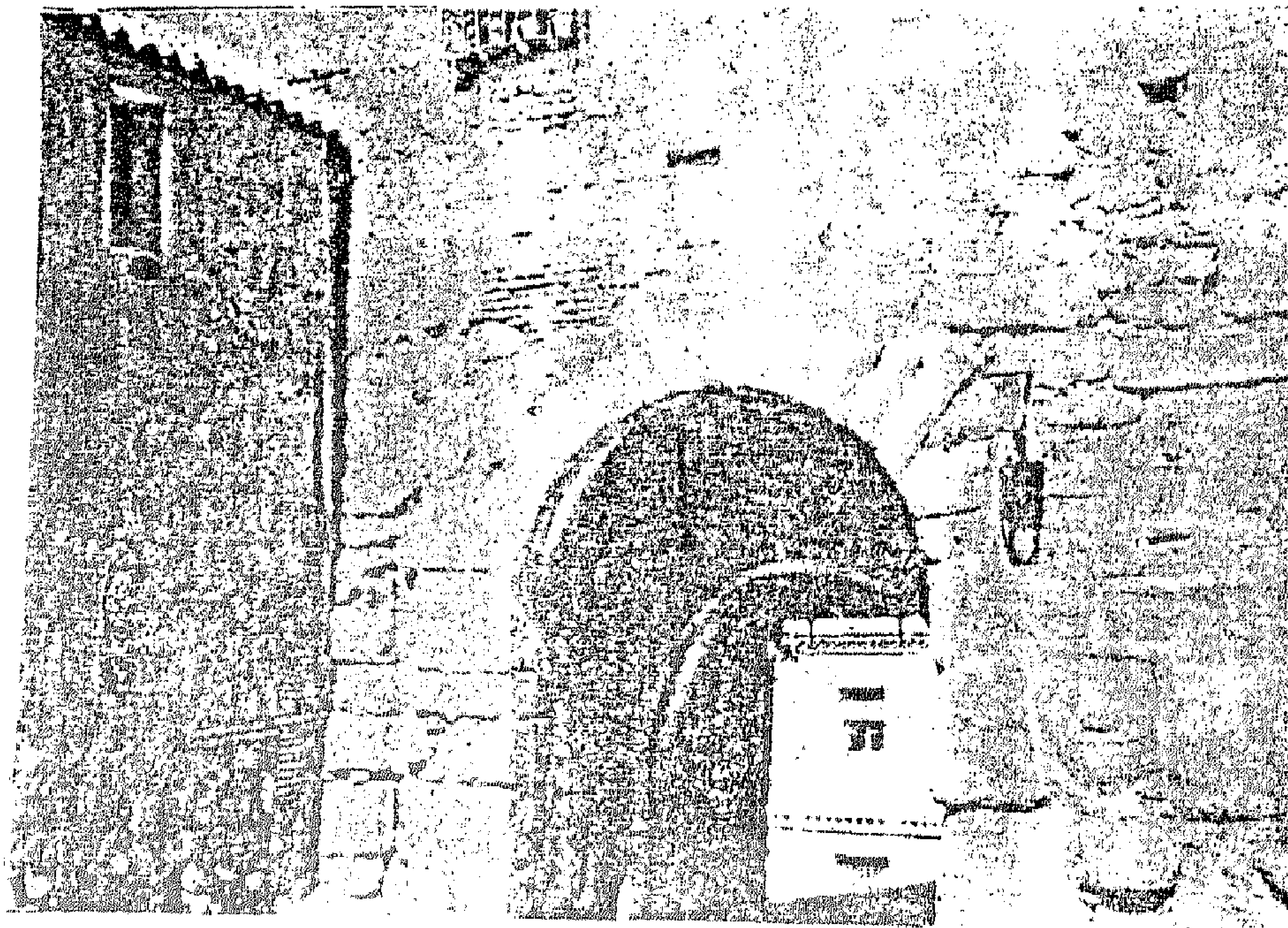
عقود بيت الصلاة بمسجد باب مردوم بطليطلة



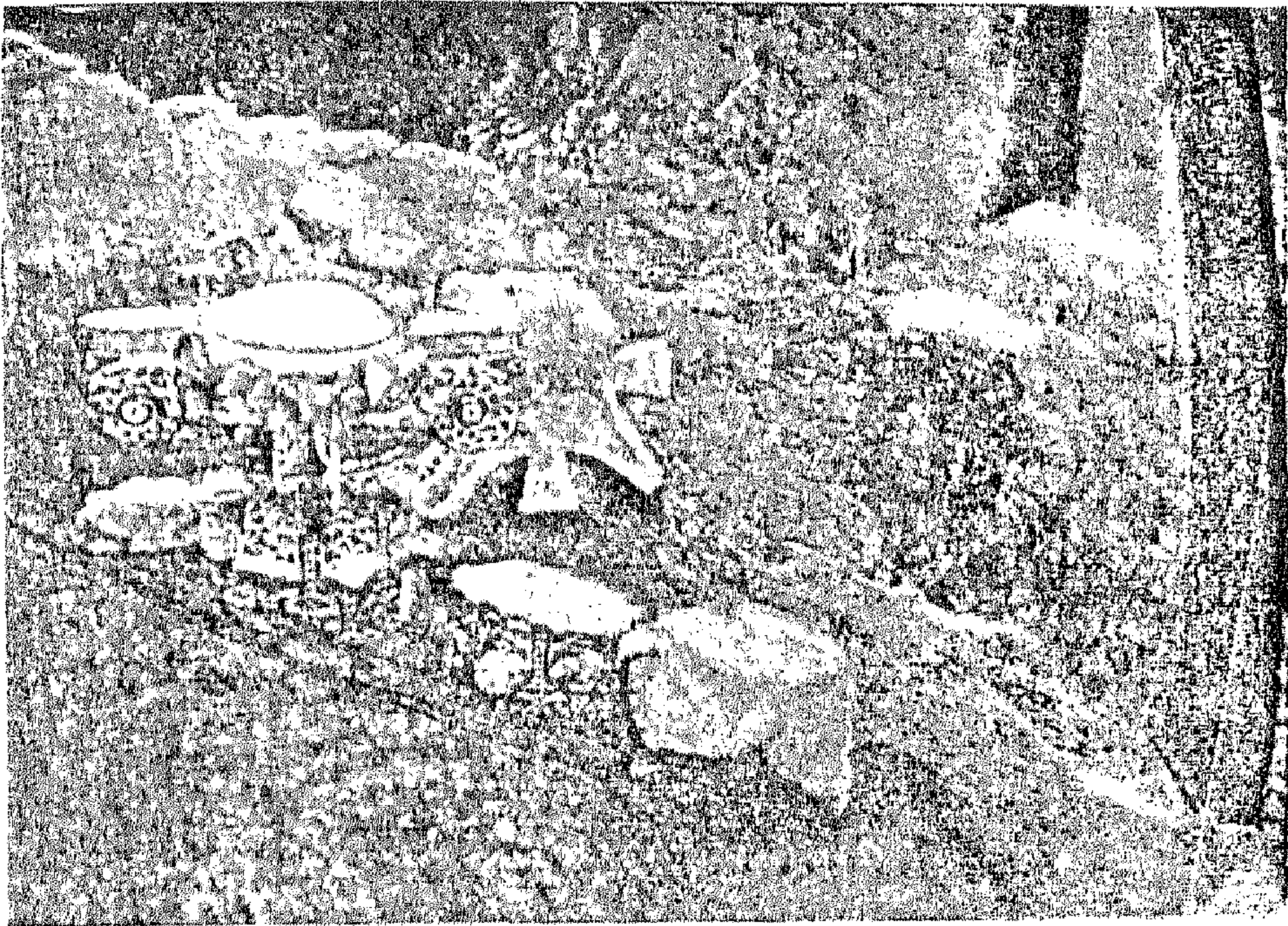
فوهة بئر من العصر الخلافى
بمدينة طليطلة



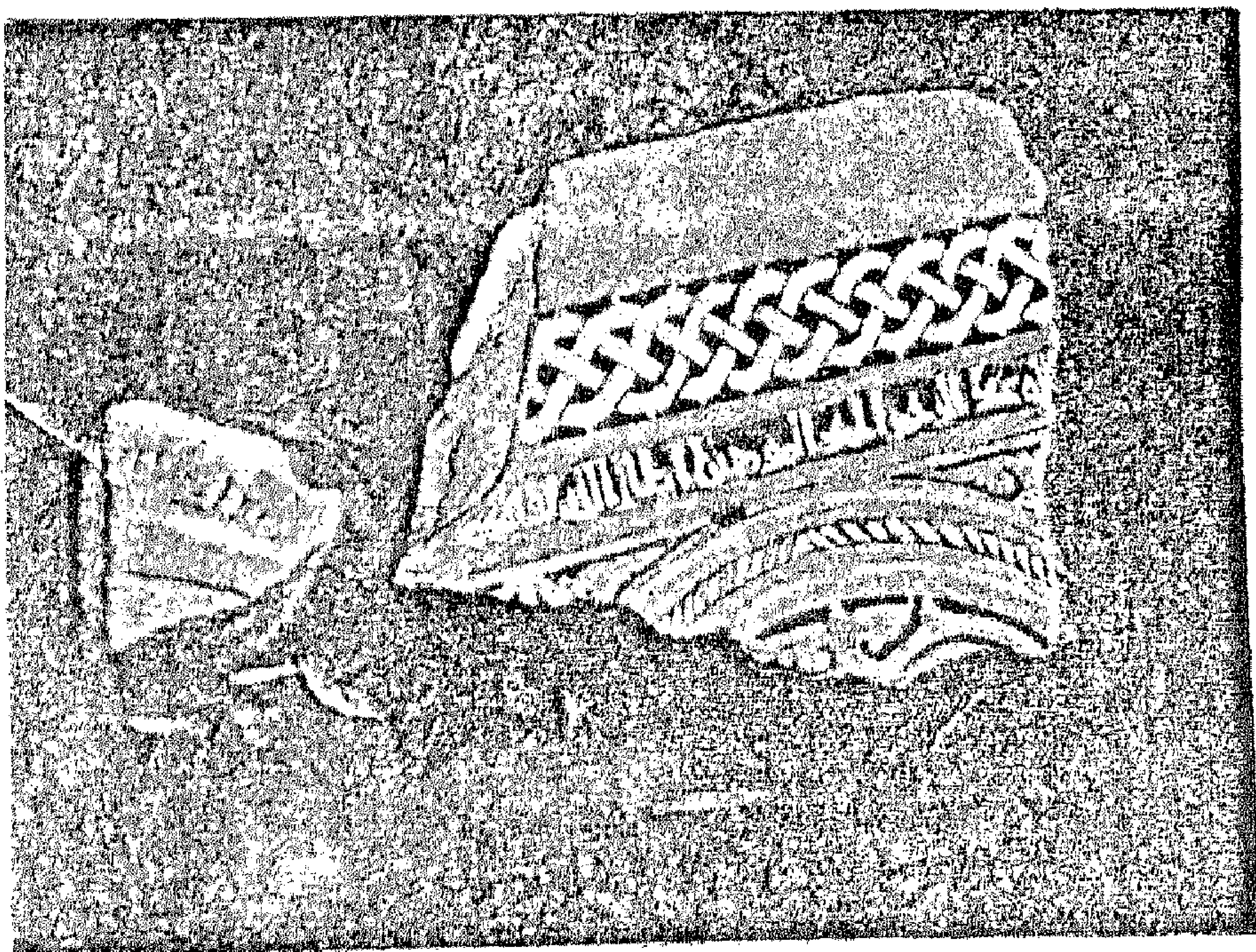
مسجد باب مردوم بطليطلة



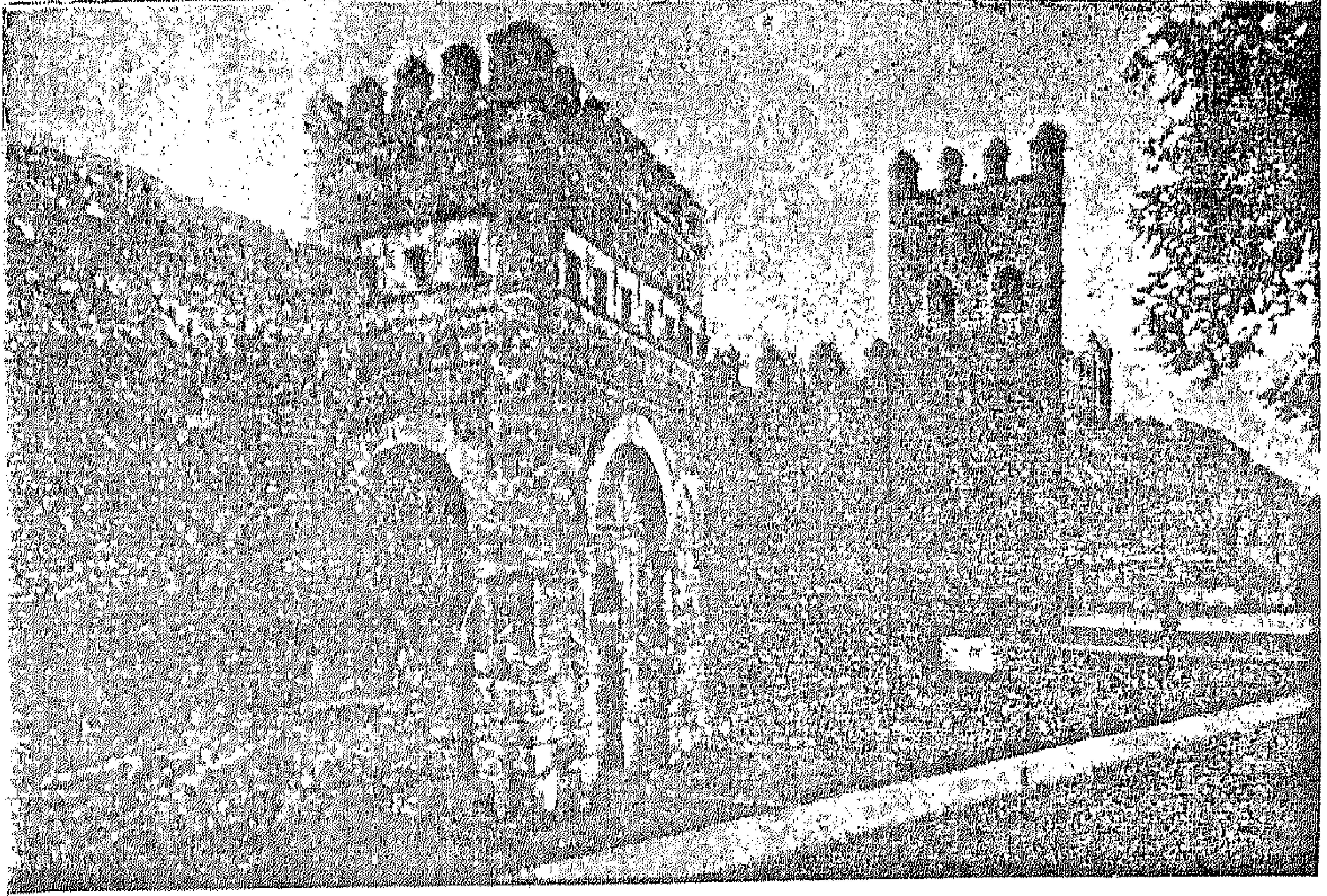
قصبة [illegible]د من بناء الأمير عبد [illegible]حمن الأوسط



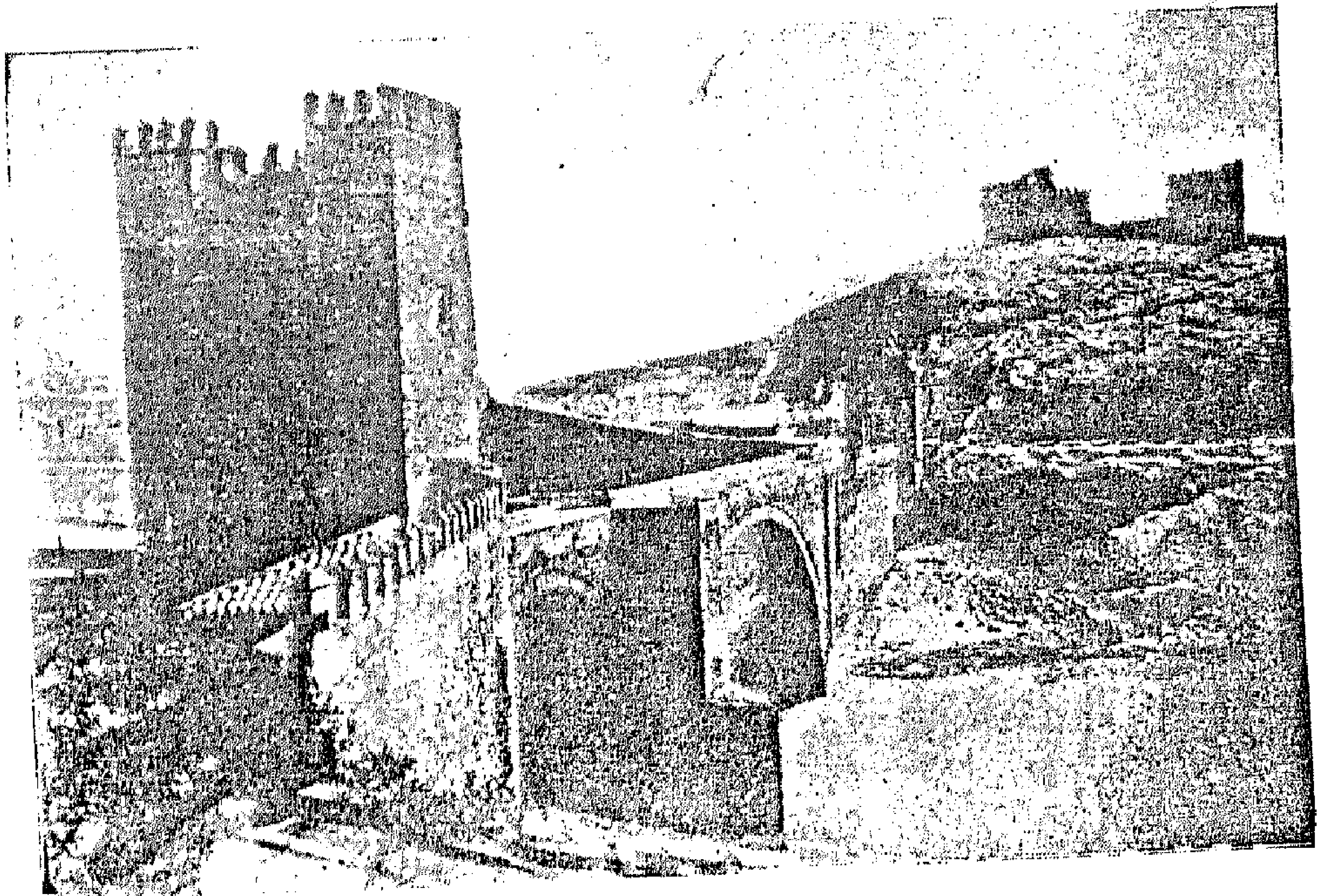
آثار أعمدة من الطراز الخلافي بمدينة الزهراء



قطعة من الرخام محفور عليها كتابة كوفية باسم عبد الرحمن الناصر



باب شاقرة من أبواب طليطلة



قنطرة طليطلة على نهر تاجة

فهرس بموضوعات الكتاب

الصفحة

الباب الأول

التاريخ السياسى للمسلمين فى الأندلس

الفصل الأول

فتح العرب للمغرب

الفصل الثانى

فتح المسلمين للأندلس

الصفحة

الفصل الثالث

عصر الولاة

الصفحة

الفصل الرابع
قيام دولة بنى أمية فى الأندلس

الفصل الخامس

أمراء بنى أمية بعد عبد الرحمن الداخل

الصفحة

الفصل السادس

عصر الخلافة بقرطبة

الصفحة

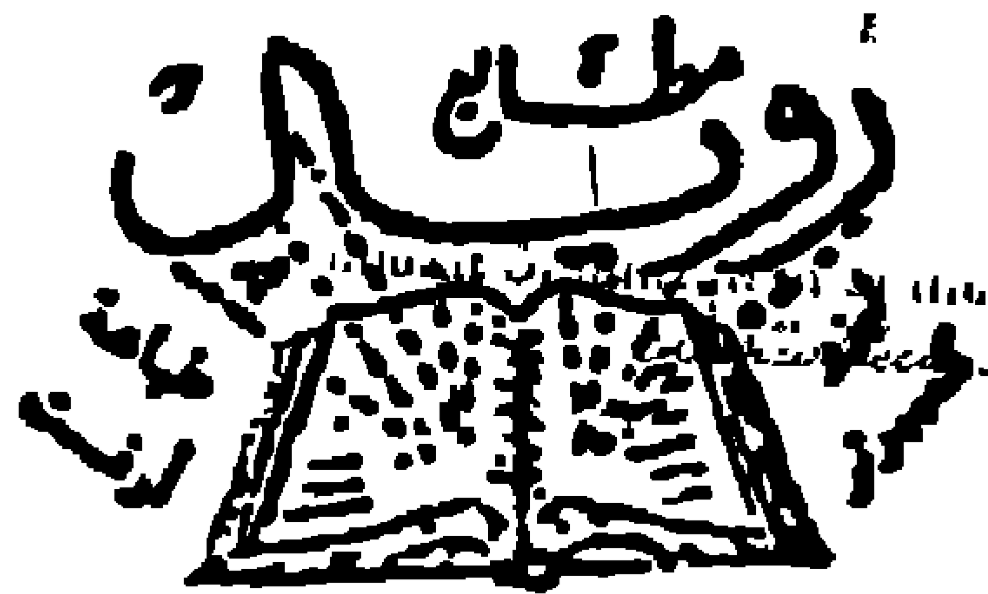
الفصل السابع

بنو عامر وسقوط الخلافة بقرطبة

الفصل الثامن

الآثار الباقية من العصر الأموى

فهرس الخرائط


صاحبها ومديرها : محمد بسيونى
خلف ١٦١ ش فرنسا ت : ٥-٠٩٠٠ بالإسكندرية